الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطية الشّعبيّة

رئاسة الجمهوريّة

المجلس الأعلى للّغة العربيّة

اليوم الدّراسيّ حول:

(21 مايو)

اليوم العالميّ للتنوّع الثقافيّ من أجل الحوار والتّنميّة

يوم 17 جوان 2019



الافـــتـــاحـــيّـــة

كلمة رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

البروفيسور صـــالح بـــلــعـــيــد

من10:00 سا إلى 14:00 سا

الجلسة العلميّة الأولى

برئاسة الأستاذة وردية گـــلاز

الـــمحـــاضـــر	عـــنـــوان الـــمـــداخـــلـــة	الجامعة
د.لوت زينب	الانفتاح والانغلاق الثّقافيّ الشروط والثوابت في إطار المحليّة والدوليّة والإقليميّة.	مستغانم
أ.بن أكنيو نبيلة	ثنائية العربية والأمازيغية في ميزان الطالب الجزائري- طلبة اللغة العربية وآدابها أنموذجا.	البليدة-2
د.ربيعة برباق د.نعيمة شلغوم	تعليمية اللغة الأمازيغية في الجزائر (بين الأسس اللسانية والمطالب الإجتماعية)	تبسة خنشلة
أ.نبيلة بن عائشة	الحق في التنوّع الثقافيّ في ظل التأكيد على الخصوصيات الثقافيّة.	المديّة
أ.عثمان بيدي	استراتيجيّة الحوار في ظلّ التنوّع الثّقافيّ.	الجزائر
أ.سارة مسعوداني	دور التّعدّد اللغويّ في تنميّة التنوّع الثّقافيّ.	ميلة
د.إبراهيم بوخالفة	التّعدّد الثّقافيّ: الإيجابيات والمحاذير.	تيبازة
د. عابدة قرسيف	التنوّع الثّقافيّ بين هاجس الاستيلاب وأمل الاستيعاب.	بسكرة

الجلسة العلميّة الثانيّة

رئاسة الأستاذ حسن بهلول

المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة
د.العربي بوعمران د.نعيمة عيوش.	إشكاليّة التنوّع الثّقافيّ بين الانفتاح على الآخر وحفظ الهويّة الوطنيّة.	خميس- مليانة
د.آيت تفاتي حفيظة	الضّمانات المقرّرة في قانون المؤلّف استمراريّة الإبداع الثّقافيّ.	تيزي-وزو
د.لبصير نور الدين	المثاقفة وزعزعة جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق	بومرداس
د.رقية بوسنان	إقرار المشترك من القيّم الإنسانيّة في اتّصال المؤسّسات الدّوليّة- دراسة تحليليّة على عيّنة من المواقع الإلكترونيّة.	قسنطينة
د.زياني محمد	سبل النّهوض الثّقافيّ في فكر مالك بن نبي.	الجزائر2
أ.سارة لعقد	التنوّع الثّقافيّ اللّغويّ في المجتمع الجزائريّ- أسبابه ونتائجه.	ميلة

الورشة العلميّة الأولى
برئاسة الأستاذ عبد اللّه روينة
مقرّرة الورشة: روابح أمال

الجامعة	عـــنـــوان الـــمـــداخـــلـــة	الـــمـــحـــاضـــر
تيزي–وزو	واقع وآفاق التّعدّد اللغويّ وأثره في التّنميّة التّعليميّة والثّقافيّة بالجزائر.	أ.يوسف مربح أ.فتحي بوقفطان
تلمسان	الثّقافة العامّة بين التّعصب الثّقافيّ الفرعيّ والتّنازع على السّلطة.	أ.عبد الناصر بوعلي
الطارف	التنوّع الثّقافيّ التراثيّ في الجزائر تثبيت للهويّة وحفظ للذّاكرة من الضّياع. الجنوب الجزائريّ الكبير أنموذجا.	أ.هاجر حمداوي
تلمسان	التّعدّد اللغويّ والتنوّع الثّقافيّ بين الإثراء والصّدام.	د.زينب بوتشيش د.مجاهدي فايزة
البليدة	التّراث والحداثة: المفهوم والعلاقة.	أ.عبدالقادر سرير عبد الله
الشّلف	شخصيّة المثقّف بين التّمسّك بالأصالة والانفتاح على التّحضّر.	د.يوسف بن نافلة
بسكرة	التنوّع الثّقافيّ بين هاجس الاستيلاب وأمل الاستيعاب.	د. عابدة قرسيف
باتنة 1	إشكاليّة التّواصل بين المتعلّمين في ظلّ التنوّع اللغويّ والثّقافيّ.	أ.إيمان بلحداد

د.يوسف باعمارة	التنوّع اللغويّ وإسهامه في الثّراء الثّقافيّ للمجتمع الجزائريّ–ولاية غرداية أنموذجا.	غرداية
د.أحمد سعدي	القيّم الإنسانيّة في المنهج الإسلاميّ.	الشّلف
أ.لامية قداش د.صلاح الدين يحي	اللسانيات الثّقافيّة والتنوّع الثّقافيّ اللغويّ وانعكاساته على الحوار والتّنميّة في اللّغة العربيّة.	بومرداس
د.محمد سيف الإسلام بوفلاقة	قيّم التّسامح في الثّقافة الإسلاميّة وأهميّة اللّغات في إثراء التنوّع الحضاريّ–نماذج من التّبادل اللغويّ والحوار الحضاريّ في الأندلس.	عنابة
أ.احمد أمعيز أ.شرع الله عمر	تجلّيات التنوّع اللغويّ والثّقافيّ في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذة سليمان باعمارة.	غرداية
أ.درقاوي كلتوم	الوعيّ الثّقافي أداة فاعلة نحو تحقيق السّكينة المجتمعيّة والتنميّة المستدامة	غليزان

الجلسة الختاميّة

برئاسة معالي رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

البروفيسور صالح بلعيد

- قراءة تقرير الورشة
- تسليم الشّهادات

لـــلاتّـــصـــال

العنوان:52، شارع فرانكلين روزفلت، ص.ب575

ديدوش مراد، الجزائر

النّاسوخ: 07 07 23 021

www.hcla.dz



التوترة



الفسبكة

فهرس

كلمات في التنوّع الثقافيّ*

د. صالح بلعيد.
رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة

ــ **ديباجة:** إنّ المجلس الأعلى للغــة العربيّــة فــي إطــار نشــاطه العلمــيّ وبخصوص قانونه الذي يقرّ بالعمل على ازدهار اللغــة العربيّــة، فإنّــه يُواكــب الأحداثَ العالميّةَ، وبخاصّة ذات العلاقة بالهيآت الدّوليّة. وفي هذا الإطــار، فإنّــه يحتفي باليوم العالميّ للتّنوّع الثّقافيّ لأوّل مرّة وهذا منذ إقراره من الأمم المتّحــدة سنة 2012م، وربطته بتاريخ 21 مايو من كلّ سنة. وفي ديباجة الأســباب التــي ذَكَرَتْهَا مَطويّةُ الجمعيّة العموميّة لليونسكو، تقول: يأتي سنّ هذا اليوم لتأكيد النّســق الكونيّ للأشياء؛ أحياناً مُتكاملة، وأحياناً مُتضادة، وكلّ عُنصر مُسيّر لما خلق لــه؛ رُغم تعقيدات تركيبيّة الطّبيعة الماديّة، واختلاف النّاس في ألسنتهم وفي قيمهم وهذا التّنوّع هو الذي أوجدَ أوجهَ التّكامل، وكان سبباً في الانتقــال مــن السّــكون إلــى الحركة، كما أنّ سرّ فكرة الإنسان هو تحقيق التّوازن بين المتخالفين؛ وصولاً إلــى تدبير التّنوّع في كلّ الأنساق. وإنّ دستور اليونسكو لسنة 1954م حمل مادّةً تُفيد أنّ التّنوّع في ثقافات العالم، والتّنوّع داخل الثّقافة الواحدة حقيقة لا غبار عليها، وهــو تنوّع مثمر وخلاّق. وكان لا بدّ من: 1ــ حماية وإنعاش الثّقافات الوطنيّةـــ 2ـــ تفعيل التّنوّع الثّقافيّ ــ 3ــ تمكين الأجيال للعيش معاً. 4ــ الاســتفادة مــن كــلّ الثّقافات. وقد توسّعت هذه المادّة في ما بعد إلــى الأخلاقيــات العالميّــة الجديــدة والالتزام بالتّعدديّة اللغويّة، والإقرار بالخصوصيات وبقضايا الأقليــات وفــي ذات الوقت الاتّفاق الإيجابيّ في قضايا الشّأن العامّ العالميّ مثــل: الاهتمــام بالطّفولــة والبيئة واللغات الأم والصّحة والتّعليم... ثمّ تواصل الأمر إلــى الإقــرار بــبعض

الحقوق من مثل الحقّ في الاختلاف، وقبول الرأيّ المضاد، والسّعي لتأمين التّوازن بين المجتمعات داخل المجتمع الواحد.

ــ لماذا يحتفي المجلس الأعلى للغة العربيّة بهذا اليوم العالمي؟ يأتي احتفاء المجلس بهذا اليوم في إطار الشّراكات التي أقامها مع اليونسكو، على غرار اليوم العالميّ للغة العربيّة+ اليوم العالميّ للغة الأمّ+ العيش معاً بسلام، ومختلف أشكال التّعاون العلميّ مع هذه المنظّمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ المجلس في قانونه يُناقش كلّ المسائل ذات العلاقة بالتّعدديّة اللغويّة، والتّلاقح الثّقافيّ، والتّرجمة والاقتراض اللغويّ، والتّنوّع الثّقافي والانسجام الجمعيّ، وكلّ ما يدخل في المادّة الثّالثة من الدّستور **(يعمل المجلس على ازدهار اللغة العربيّة)**. وبذا يقع الاحتفاء بالمناسبة تجسيداً للتّنوّع الذي تعرفه بلادنا من خلال التّعدّد اللغويّ (عربيّة+ أمازيغيّة) تعدّد في الطّبيعة الجغرافيّة/ تعدّد في أشكال التّواصل/ تعدّد في السّلوك العامّ/ تعدّد في نمط العيش/ تعدّد في الشّعر الشّعبيّ/ تعدّد في الطّبوع/ تعدّد في إحياء المناسبات... وهي من الأشياء العاملة على تعدّد مُضيف؛ يجعل الهُويّة اللغويّة والحضاريّة والتّاريخيّة تترابط أكثر فأكثر، وتتراصَ المواطنةُ في بُعدها "**تختلف لا نُخالف/ الهدف واحد، والطّرائق مختلفة**". ولذلك في كلّ مرّة نحاول البحث عن الحلول الجامعة بدل تسلّق الأسوار، أو كسر أبواب النّصوص، وهذا بلسان قبول الآخر من مبدأ: **رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصّواب**، ولذلك نعمل على تقليب اللسان لتترقَ حواشيَه على ملكة النّقد التي تُثمر الامتدادَ في قبول الاستماع للرّأي المُضاد، وتحطيم قلاقل المتفيقهين، ودعم أسئلة الخطابات التّنويريّة في التّكوين والممارسة ولو بمقولة "بئس المبدأ ولا حبّذا المنتهى، بئس الاختيار ولا حبّذا القرار". ومن هنا نعمل على تحصيل مغالبة الإيجابيات للسّلبيات، بمبدأ التّربية لما أنت فهي مختار. وأملنا أن تكون محصّلة هذا اللقاء يخرج بنتيجة إيجابيّة نحو التّحوّل المستقبلي الجامع للتعدّد.

يعمل المجلس الأعلى للغة العربيّة على تجسيد المواطنة اللغويّة بما أوتيَ من أفكار، واستكناه تجارب الباحثين الذين يدعوهم لتقديم أفكار، وعرض تجارب ناجحة، واقتراح بدائل نوعيّة في إطار النّسق الجمعيّ الذي لا يُلغي الخصوصيات بل يعمل على تقريب الخلافات، وإنّنا بحاجة إلى مرجعيّة ناجحة، وإلى كفاءة عالية "كفاية البحث العلميّ والتّربويّ، ثمّ الكفايات المهنيّة: كفاية التّخطيط/ كفاية تدبير التّعلّم/ كفاية تقويم التّعلّم. لا بدّ من المعاملة الطيّبة والإقبال على المتعلّمين ومحبّتهم، والإكبار بهم، والسّهر على مصلحتهم وتفهّم مشاكلهم ومسامحتهم، ومساعدتهم، والتّمتّع بسحر الشّخصيّة وجاذبيتها، وأناقتها، وتقديم الدّروس بشكل جذّاب ورائق ومؤثّر، فإحداث الأثر الإيجابيّ في المتعلّم لا يصل إليه إلاّ كبار المدرّسين الذين يتعاملون مع شخصيّة المتعلّم في جوهرها وصفائها، ويحترمونها في أرقى معاني الإنسانيّة التي تحملها وعلى الأفق الممكن للنّموذج الذي نكوّنه ذهنياً عن المتعلّم الذي نريد، وعن الإنسان الكونيّ المستقبليّ الذي نتعاون على صناعته يومياً كلّ من جهته[1]".

ــ **سؤال النّهضة الغربيّة:** هو سؤال أريد به استكناه تجارب ناجحة في التّنوّع الثّقافيّ، ويقع التّركيز على أوربا؛ ليس كونها لها ثقافة مانعة أو مُحصّنة، أو لها خصوصيات لا تتوفّر عندما، هذا موجود بالقوّة، ولكن أريد طرح السّؤال التّالي: كيف نهضت أوربا؟ وكان بدايتها من أواسط القرن X VI الميلاديّ، اهتمّت أولاً بالعلوم الإنسانيّة، وركّزت على موضوعات طرح قضايا: الحريّة+ التّعصّب+ التّسامح+ الاهتمام بالتّراث+ وخوض ميدان ثورة البُخار، وهذا باعتماد مفتاح التّطوّر في:

- إحياء التّراث الكلاسيكيّ، وكان موطنه في إيطاليا، فعملت على إحياء تراث الرومان؛
- موقع إيطاليا الذي جعلها على اتّصال بحضارات البحر الأبيض المتوسّط؛

- هجرة العلماء اليونان إليها من كلّ أوربا؛
- رعاية أمراء إيطاليا للآداب والفنّون؛
- الحركة الإنسانيّة والنّهضة المعاصرة بصورة عقلانيّة؛
- نظرة إنسان العصور الوسطى إلى تخلّفه، وإلى ضرورة التغيير
- ضرورة إحياء العلوم الإنسانيّة، فهي باب العلوم؛
- إخراج الكنيسة من حدود الممانعات في الاجتهاد؛

ولماذا كانت البداية بالعلوم الإنسانيّة؟ لأنّه إذا قوّمتَ الجانب الروحيّ/ الإنسانيّ يصبح الإنسان مبدعاً لا آلة وهذا لا يكون إلاّ بالجانب الثّقافيّ الذي يعرف كيفيّة استغلال مواطن الوسط بين الرّوح والمادّة. وإنّ النّهضة الأوربيّة تجربة إنسانيّة جيّدة وفذّة وخصبة، وكان محورها الإنسان في تقويم سلوكه قبل منتوجه الآليّ وسيطرته على الآلة لا سيطرة الآلة عليه. وبذلك تحقّق التّراث اليونانيّ والرومانيّ ودرس دراسات وافيّة أخضعته للنّقد، واستلهام قيم وأفكار جديدة أسهمت في إرساء قواعد الحضارة الأوربيّة. وكان قيام النّهضة على اللغات الأوربيّة، وبخاصّة الإيطاليّة في المنطلق، ومع ذلك عملت على نقلة حضاريّة شهدت ثورة البخار التي لها نتائج نقل العالم الأوربي من التّخلّف إلى التّحضر. وإذا تحدثنا عن ثقافتنا العربيّة فإنّ عمادها اللغة العربيّة، فهل العربيّة الآن عاجزة أو تعجز عن قيادة حراك نهضويّ يدخلنا في عالم النّهوض المنشود؟ ليس ذلك مستحيلاً ولا ببعيد.

إنّ العرب استلهموا حضارتهم في جانبها الإنسانيّ بداية بالفلسفة والمنطق والتّصوّف والأدب، ثمّ الفلك والطبّ والرّياضيات والجغرافيّة، وكان العقل مُبدعاً مُنفتحاً على مَعارف مُتنوّعة، وكان ذلك من العظمة الاستثنائيّة التي ارتكزت على التّعبئة النّفسيّة بما صاحبها من فكر رياضيّ عن طريق حركة التّرجمة ووصلت مع نهاية القرن العاشر إلى نهايتها بعد أن استنفذت موادها، وبدأت الأعمال الأصليّة تظهر وتزداد. وكان توسّع الفكر العلميّ مُتمشياً مع انتشار الإسلام، واللغة

العربيّة بصفتها لغة تواصل جديدة بامتداد كبير وصلت إلى الصّين، وأزاحت لغات كانت قويّة مثل السّريانيّة واليونانيّة. وذات الشّيء حصل مع بداية النّهضة الحديثة كانت بالعلوم الإنسانيّة، ومنطلقها الطّهطاوي+ الأفغاني+ محمد عبدُه... وهذا الرّعيل قطع شوطاً كبيراً في عملية التّحديث في البنيات الفكريّة العربيّة العتيقة بفكر مستنير؛ عبر خلق توافق بين متطلّبات الحياة المدنيّة المعاصرة، وبين الدين الإسلاميّ وقيمه السّمحة، وكانوا يغرسون الثّقافة العربيّة الوسطيّة من خلال الشّعر العربيّ واللغة العربيّة؛ كون العرب كتلة قوميّة اغتنت بالتّأثير اللغويّ دون الذّوبان في فكر فارس أو تركمان أو هنود... فكيف الحال في وضعنا الذي نجد فيه العربيّة الحاملة لثقافة أصيلة متفتّحة لا تكون مُربيّة للتّنوّع الثّقافيّ، هذه اللغة التي قال فيها الفرنسي (لويس ماسينيون/ Louis Massignon) "اللغة العربيّة هي التي أدخلت في الغرب طريقة التّعبير العلميّ، وهي من أنقى اللغات؛ فقد تفرّدت في طرق التّعبير العلميّ والفنّي" ويقول الإسپاني (كاميليو جوزي سيلا/ Camilio Gozy Silla) "إنّ لغات العالم تتّجه نحو التّناقض، وأنّه لن يبقى إلاّ أربع لغات قادرة على الحضور العالميّ وهي: الإنگليزيّة + الإسپانيّة + العربيّة + الصّينيّة.

ــ **المواطنة والتّنوّع الثّقافيّ:** إنّ التّنوّع الثّقافيّ أداة معياريّة، وإرث ثقافيّ وإلزام أخلاقيّ باحترام الإنسان كلّ في لغته وصناعته وخصوصياته وفنونه، ومن هنا يستلزم تأمين حماية ثقافيّة تحول دون انقراض ثقافة أو لغة ما "فلا تكون المواطنة ناضجةً في فعلها المجتمعيّ والسّياسيّ إذا لم تكن على دراية بكلّ أوجه الاختلافات الثّقافيّة داخل النّسيج الاجتماعيّ[2]". المواطنة هي الثّقافة في مفهومها الجامع للسمات الرّوحيّة والماديّة والفكريّة والعاطفيّة التي تميّز مجتمعاً عن غيره وهي تشمل الفنّون والآداب وطرائق الحياة والحقوق والواجبات والأعراف والقيَم والتّقاليد والمعتقدات. كما أنّ المواطنة ترتبط بالثّقافة في إطار التّفاعل مع البيئة والثّقافة الأصليّة؛ حتى يعيش الإنسان ثقافته ويعمل على تطويرها. ولهذا كان علينا

التّخطيط لثقافتنا الوطنيّة بما يعمل على تعدّد الاختصاص القائم على نظرية ثقافيّـــة معرفيّة، ولا بدّ من التّعامل مع الواقع في تعدّده وتعـــدّد أطرافـــه. وعليـــه فـــنحن مدعوون لتطوير البحث في مجال الثّقافة عبر مرجعيات مفاهيميّة وطنيّة مســـتمدّة من واقعنا الحضاريّ والثّقافيّ والدينيّ، ووضع إطار للمؤسّسات الفاعلة فـــي هـــذا المجال؛ بسنّ سياسة ثقافيّة تتّسم بالجدّة وبالّتطابق مع الحاضر وآمال المستقبل، وأن تُصاغ سياسة ثقافيّة وطنيّة بصيغة استراتيجيّة إجرائيّة تحتلّ فيها الأفكـــار منزلـــة الصّدارة.

ــ **التّنوّع الثّقافيّ وجاذبيّة الواقع:** إنّ التّنوّع الثّقافيّ محليّ، وهو الذي يكســـب مسحة المرونة والقابليّة للتّفـــتّح رفضـــاً للانعـــزال، والتّنـــوّع الثّقـــافيّ مربـــوط بالخصوصيات وبالعالميّة، وكان لا بدّ من وضع حدّ للهيمنة تحت أيّة ذريعة، وعدم المساس بالخصوصيات أو ما سمّته الفرنكفونيّـــة (الاســـتثناءات الثّقافيّـــة) ويقـــول (مولود قاسم) "لا نغلق النّوافذ، ولا نوصد الأبواب، ولكن لا نقلع السّقوف" كما قال (غاندي) "لا أريد أن تحيط بي الجدران والأسوار من كلّ جانب، لا أريد لنوافـــذي أن تُسدّ وتُوصد، إنّما أريد ثقافة كلّ البقاع أن تهبّ بنســـماتها حـــول داري بـــأكبر درجة ممكنة، لكنّي أرفض رياح الثّقافة أن تعصف بقدمي بحال مـــن الأحـــوال". وكان لا بدّ من الاستثمار في التّنوّع الثّقافيّ العالميّ كما ينصّ علها التّقرير العالميّ الذي صدر عن اليونسكو عام 2009، ورأيت أهمية ذلك، فأنقله للقارئ كمـــا أورده (القبّاج):

- التّنوّع الثّقافيّ انشغال رئيسيّ في مطلع القرن الجديد؛
- التنوّع الثّقافيّ ليس مجرّد ميزة إيجابيّة ينبغي الحفاظ عليها، بل هـــو مـــورد يجب تعزيزه؛
- ثمّة حاجة إلى اتّباع نهج جديد إزاء التّنوّع الثّقافيّ؛ وهـــو نهـــج يراعـــي طبيعة الدّيناميّة وتحدّيات الهويّة مما يرتبط بدوام التّغيّر الثّقافيّ؛

- ثمّة اتّجاه عامّ نحو ظهور هويات دينامية مُتعدّدة الأوجه في سياق العولمة؛
- تشير الثّقافة إلى التّنوّع المبدع الذي يتجسّد في (ثقافات محدّدة) كما تشير إلى القوّة الدّافعة المبدعة التي تكمن في صميم التّنوّع في (الثّقافات)؛
- يقتضي الحوار بين الثّقافات تمكين جميع المشاركين فيه من خلال بناء القدرات، ومن خلال مشروعات تُعزّز التّفاعل دن إضاعة الهويّة الشّخصيّة أو الجماعيّة؛
- لا تعتبر اللّغات مجرّد أداة للاتّصال، فهي تمثّل النّسيج الحقيقيّ لأشكال التّعبير الثّقافيّ، وهي الحامل للهويّة والقيَم ورُؤى العالم؛
- ثمّة حاجة إلى حفظ التّنوّع اللّغويّ العالميّ كواحد من مستلزمات التّنوّع الثّقافيّ والتّرويج للتّعدّد اللّغويّ والتّرجمة بغية تعزيز الحوار بين الثّقافات؛
- في المجتمعات متعدّدة الثّقافات ومتزايدة التّعقيد يجب أن يمكن التّعليم من اكتساب كفاءات التّعامل بين الثّقافات؛
- إنّ عدم مراعاة أشكال التّعليم غير السّائدة من شأنه أن يؤدّي إلى تهميش الفئات السّكانية التي ينبغي للتّعليم أن يعمل على تمكينها؛
- إنّ من شأن الارتفاع في توريد المضمون الإعلاميّ أن يؤدّي إلى (تنوّع زائف) يحجب واقع أنّ بعض النّاس غير مهتمين بالتّواصل إلاّ مع من يشاطرهم نفس المرجعيّة الثّقافيّة؛
- يمكن أن نعتبر الإبداع الفنيّ –وجميع أشكال الابتكار التي تغطي مختلف جوانب النّشاط البشريّ– مصادرَ أوليّة للّتنوع الثّقافيّ؛
- تفيد البحوث التي أجريت مؤخّراً بوجود صلة إيجابيّة بين التّنوّع الثّقافيّ والأداء الماليّ والاقتصاديّ في الشّركات متعدّدة الجنسيات؛
- إنّ نهج التّنميّة الذي يراعي الفروق هو مفتاح التّصدّي للمشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والبيئيّة المترابطة التي تواجه كوكبنا؛

– إنّ التّنوّع الثّقافيّ والحوار بين الثّقافات عاملان أساسيان من عوامل توافــق الآراء بشأن الأساس العالميّ لحقوق الإنسان والحكامة الدّيمقراطيّة".

ــ **الخاتمة:** نروم من هذا اللقاء أن يُسفِر على جملـــة مقترحـــات بخصـــوص موضوعه المهمّ (التّعدّد الثّقافيّ) في إطار تقديم مـــا يعمـــل علـــى التّمـــازج دون التّصادم، والانفتاح دون الانغلاق، ويكون الاهتمام بلغاتنا الوطنيّة تفنيد لمن يـــزعم بموت اللغات الوطنيّة، ومعناها موت الثّقافة الوطنيّة، ومعناهـــا كـــذلك انقـــراض الذّاكرة الحضاريّة. وكان علينا السّعي لوضع تآلف وطنيّ من أجل التّنوّع الثّقـــافيّ وهي صورة المواطنة التي تبقى قائمة وثابتة رغم الصّعوبات في انسجام الأفكار.

الاحالات:

♥ــ ألقيت الكلمة في اليوم الدّراسي حول اليوم العالميّ للتّنوّع الثّقافي الذي سنّنه الأمم المتّحـــدة. المكتبة الوطنيّة: 17 جوان 2017م.

[1]ــ محمد باز، صحائف التّكوين، مدوّنة شاملة لكلّ ما يحتاجه مدرس اللغة العربيّة وآدابها تمثّلاً وعملاً، ط1. لبنان: 2015، منشورات ضفاف+ كلمة+ دار الأمان+ الاختلاف، ص 34–35.

[2]ــ محمد مصطفى القبّاج، شذرات (نصوص ومداخلات حرّرت تحـــت الطّلـــب) ط1. الربـــاط: 2015، دار أبي رقراق للطّباعة والنّشر، ص 63.

كلمة رئيسة اللّجنة العلميّة

أ.ورديّة گلاز.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛

بداية أرحب بالحضور الكريم ضيوفا، ومشاركين، ومحاضرين مع حفظ الألقاب والمقامات وكلّكم مقامات، وأشكر كل من أسهم من قريب، أو من بعيد في إعـداد وانعقاد هذا اليوم الدّراسيّ وإنجاز مختلف مواده.

نشكر للسّيد معالي رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّـة البروفيسـور (صـالح بلعيد) هذه الجهود المبذولة لأقول: لا توجد كلمات توفي المجهود المتميّـز الّـذي تبذلونه يا سيّدي الرّئيس من أجل خدمة لغة هذه الأمّة، وهي اللّغة العربيّة، ونقـدّر لكم كلّ التّقدير لما قدّمتموه في ظرف قياسيٍّ؛

كما أتوجّه بالشّكر إلى إطارات، وكفاءات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، وأشكر السّادة الأساتذة الباحثين الّذين تفاعلوا مع فكرة وموضوع ملتقانا هذا؛

إخواني الكرام نجتمع بكم في هذه الصّبيحة الطّيّبة لافتتاح أشغال اليوم الدّراسي حول: (21 مايو) اليوم العالميّ للتّنوّع الثّقافي من أجل الحوار والتّنميّـة، والّـذي سنّته وأقرّته اليونسكو يوم 21 مايو من كل سنة، ومن خلالـه ارتـأى المجلـس الأعلى للّغة العربيّة أن يُشارك العالم في مثل هذا اليوم، يوم يحمـل فـي طيّاتـه معاني: السّلم، الانفتاح، التّبادل التّشاطر...الخ، تنوع ثقافيٌّ قوّة محرّكة للتّنمية ليس على مستوى النّمو الاقتصادي فحسب؛ بل أيضـا كوسـيلة لعـيش حيـاة فكريّـة عاطفيّة، معنويّة، وروحيّة أكثر اكتمالا، ويُثري التّنوّع الثّقافي حياتنا ويكسوها حلّة زاهية مختلفةً ألوانها، ويُضفي عليها النّشاط والحيويّة، وهو موضوع يكتسب أهمّيته

من كونه يوما يُحيى في البشريّة أهميّة هذا التّنوّع الّذي جعله اللّه سرا من أسـرار خلقه فهذا كان عن أهمّية هذا اليوم الدّراسي.

لا يخفى عنكم إخواني أنّه وصلتنا العديد من المداخلات القيّمة، وقد اخترنا منها ما يتماشى ومحاور الملتقى، ويخدم إشكاليته، واسمحوا لي أيّها الحضور الكريم أن أشكر من هذا المنبر جميع القائمين على إنجاح فعاليات هذه التّظاهرة العلميّة كـلٌّ باسمه، وكلٌّ بوظيفته دون أن أنسى رجال الخفاء، إلى هنا أجدّد ترحيبي بكم فحللتم أهلا، ونزلتم سهلا، وأتمنى لكم متابعة طيّبة معنا على أملي أن تستفيدوا، فكلّنا آذان صاغية؛ لآرائكم واقتراحاتكم، وكل ما من شأنه أن يخدم اللّغة العربيّة، شكرا لكـم والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

الانفتاح والانغلاق الثقافي الشروط والثوابت في إطار المحلية والدولية والإقليمية.

د. لوت زينب

أ. المدرسة العليا للأساتذة مستغانم.

المداخلة:

تمنح الثقافة الانفتاح الفكري، الوسائط المعرفية في اكتناز الذات وظاهرة الاختلاف هي أهم ظواهر التعايش واكتشاف الآخر، وتعمل السلطة المعرفية في تداخل حتمي للتكنولوجيا التي تسيرها القوى الغربية حيث تصبح المحلية بين مفهوم الإقليم والمواطنة **فهل الولوج للعالم المعلوماتي والعلمانية المتطورة يكسر هاجس الانتماء؟ كيف يمكن التعايش المعاصر في الفكر الذي يستحوذ على حربة التقدم؟ ماذا يمكن ان نحقق في انفتاح الشرق على الغرب؟ وهل الانغلاق هو محلية الإقليم الجغرافي والامتداد التاريخي والديني والأسطوري والحضاري؟ كيف يمكن الانفتاح دون سلخ الحرية؟ ماهي روافد الانفتاح؟ من المعروف أن تطور العلوم منذ العصر العباسي وتلاقحها مع باقي الشعوب (الهند-اليونان -الفرس) لم تكن لتتفاعل دون هذا الامتزاج الفاعل في جميع الميادين، فهل يعد الآخر خطرا على المواطنة وكيف يمكن فهم الانفتاح دون المساس بالهويات؟ أسئلة من خلالها ما يلي:**

1. **أسئلة الهوية واختلاف الثقافات:** تؤكد الهوية مرجعيات الانتماء وشروط الثقافة الّتي يجب توافدها للعقل الكائن في وسط محيطه المرتبط بالتاريخ الزمني والمكاني والضمني، الإنسان ينتسب لسياج المجتمع ومقصديته الاجتماعية تتحكم في وضعياته الذهنية، تهيمن الأفكار السائدة في وضعية تسير النضج الفكري وتقبل الآخر «**ولذلك يجب أن نحدد الثقافة في ضوء تصورنا لوضعها التاريخي**

أي بوصفها حركة مستمرة (صيرورة) فإن في التاريخ منعطفات هائلة خطيرة يتحتم فيها هذا التعريف، و النهضة في العالم الإسلامي إحدى تلك المنعطفات والثقافة من الأمور الأساسية التي تتطلب في إلحاح تعريفاً بين تعريفين:

الأول: يحددها في ضوء حالتنا الراهنة.

الثاني: يحددها في ضوء مصيرنا»[1] ما يضعنا في صراع مقيت وهو الراهن المترهل بين حقيقة وجودنا ومنطق تمازج المصير بالواقع الذي يربطنا بالآخر على أرضية التعايش كيف يمكننا تمثيل الضفة الأخرى التي تختلف عن مرجعيات الثقافة التي نحملها؟ ماهي أساليب تحديد الجوانب الاستراتيجية لهذا التقاطع المصيري؟ هل يجب أن نختلف في الماهيات كما الغايات؟ لماذا لا نتوافق مع الآخر ثقافيا دون المساس بالهوية؟ ما يجسد نظرة مالك بن نبي لتثمين الجانب الأهم في وجودنا وهو معرفة الذات لتسيس الآخر حسب متطلبات التّطور، وبذلك النهوض بالعلوم والمعارف خارج نطاق التموقع ولعل العصر العباسي يؤكد الجرجاني أفضى بمعرفه من خلال الثقافات الّتي عاصرته وسابقيه حيث أثرت جوانب مجملها أن الإعرابَ هو معرفة أحوال الكلمات من حيث التركيب والمعنى والموضع والبناء والإعراب وللجرجاني مقولة مشهورة "الإعراب حالة معقولة لا محسوسة" وهي مقولة نجد أساسها في الفكر اليوناني حيث «يقول أبو النحو الأوروبي "ديونسيوس ثراكس" –ينبغي أن يكون معلوما أن الحالات الإعرابية الخمس هي أمر متعلق بالمعنى وليس باللفظ"[2]»ويكتمل المعرب باكتمال المعنى والعمل المدرج له في الجملة، وارتبطت نظريات "حازم القرطاجني" (حازم بن محمد بن الحازم القرطاجني ولد 608هـ /1211م وتوفي 684هـ /1386م) الوصف الفني لحالة التلقي والكتابة ودرجة التواصل بين التماثل التخيلي والقوى المنظمة للخيال(حافظة–مائزة – صانعة) في عملية إدراكية تثير الحس وتعمل الذهن مثاقفة بالغة الذروة بالمحاكاة في الفكر "الأرسطي" وبلغ منزلة كبيرة بين أهل

عصره بعد سقوط "قرطاجنة ومرسيه على أيدي القشتاليين 640ه فارتحل العلمـــاء والأدباء إلى بلاد المغرب، والتزم "القرطاجني" بقصر الخليفة الموحدي "أبي محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد" أين زخر بالثقافة بالأدب والشعر، ثم انتقل إلى تـــونس حيث التحق بسلطانها "أبي زكريا الحفصي" الذي كان مولعا بالعلم ومقدرا للعلمـــاء وقد عينه كاتبا في ديوانه، فانفتح على علومهم وفقهاءهم ومفكريهم كالأندلسيين من أمثال ابن الأبار، وابن سيد الناس، وابن عصفور النحوي المعروف، وابن الرومية عالم النبات، وابن سعيد الأندلسي، فالثقافة لا تعنى بالهوية بل تتشكل في ضوء بناء قدرة الانفتاح على المعرفة كماهية لخدمة العلم وامتداد الرؤية، وفهـم المـــدركات الحضارة هي ثقافة تحضر تهتم باكتناز الذات لهويتهـــا دون تســـير هـــذه الهويـــة للإسهام في بنـــاء المعرفـــة التـــي تتصـــل بـــالوعي الأيـــديولوجي، والاتســـاع السوسيولوجي، وفهم منطق الآخر بمركزية فكرية تتصل بخامة الكونيـــة، العامـــل التواصلي بمنطق الوجود و التجاور الثقافي تحت الاختلاف المنـــتج لا المنفصـــل والمتأزم في قعور الجمود الذي تتبني عنه سلبية التفكيـــر تحـــت ظـــلال الآخـــر والتداعي بحدود العلم ومسافة المعرفة وفواصل الهويات بتفاصيلها لكنها في الحقيقة تقلص نبض التطور وتحد من بناء حضارة ترى المستقبل بهويتها وانفتاح علومهـــا ونظرياتها وسرعة تصدرها الرِّيادة

كما تكشف دراسة مهمة جدا عن الظاهرة الثقافية في الحضارة المشرقية عنـــد المفكر الإيراني (داريـــوش شايغان) دراسة تكشف علاقـــة الحضـــارة الشـــرقية بالحداثة، ذاكرةٌ تُشَّيعُ الفكر خلف منمنمات العقد الاجتماعي وانكماشه بالماضـــي المُنكسر، الذهن الذي يستحي من التفكير ورؤيـــة الآخـــر دون انخـــراط للهويـــة الموجودة في خلايا الواقعية في جوهرها المحشو بالنمـــاذج دون اللجـــوء لحاجـــة الانفتاح وكسر تلك الأصنام التي تسد منافذ الحرية المعرفية وتقيد مســـاحة الثقافـــة فالروح حاملة للانتماء الديني والعقائدي، لكن استمرارية التواجد هو اتساع البصيرة

المتبصرة داخل الكون الذي لا يتطور دون التفاعل والتشكل في محيط العلوم بعيدا عن التحجر والتموقع.

لزوجة المعنى خلف فلسفة الوجود أو التواجد أمام تسيج الذاكرة للفكر ونسيج الأفكار للمعرفة وتحريك منزلة التمجيد بتفعيل استمرارية العقل وتطوير الخيال المنفعل المتماهي في كيفيات التوافق بين الذهن المتحرر بذاته، ويهيمن كتاب (الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية) المؤلف (داريوش شايغان) على واقع خطير تحت رقابة التجليات الماضوية للجماعة وتحصينها جمود العقل، وخمول إدراك التفكير منطق الحس والوعي الثقافي بضرورة التَّجاوز والتّخطي، والانعتاق في هالة الوجود لإثارة الموجودات، وتحريكها في غير مجالها، لكن دون المساس بجوهرها، هي مجموعة محاضرات ألقيت في جامعة هارفارد آذار 1976 التحدي المعاصر والهوية الثقافية، ويدعوها (فرانسيس بايكون) أصنام الذهن المصونة في الذاكرة القومية، ويعدها رسائل مضمرة، وتلك الأصنام هي تلك الذاكرة الأزلية.

في اليابان يرى مؤسس اليوغا (ياتانجالي): "سبب الألم هو الغفلة والجهل "اليوغا: "كشف الحجاب تقضي على الغفلة، وثمرتها الاشراق، وخاتمتها الفلاح. الفلسفة في الهند إما معرفة بالبراهين او بالذات" تتناسق هذه الفلسفة مع الدين وتراعي مسألة الروحانيات التي ينسجم معها العقل، الخيال له البعد الجمالي لقراءة الوجود.

كما يلامس ديكارت نمطا مهما من التفكير الجوهري " كيف يمكن إقامة علاقة نفسية ومعرفية، أما(كانط Emmanuel Kant – م) يفسر معطى الكون وتفجير المكونات عبر نواتها الخفية يتحدث (كانط) في مؤلفه (أنطولوجيا الوجود) «الشيء في ذاته هو النومينا أي حقائق الأشياء وهو مصطلح يطلقه كانط على كل أصل أو ماهية حقيقية والنومينا أو الشيء في ذاته ليس موضوعا(...) بل إنه يتمتع بوجود من نوع فريد» وإن اقتربنا إلى التشكيل المعرفي لنظرية كانط الوجود نرتكز على

فكرة التكوين أو التركيب في الصورة الّتي تنتمي إلى عالم الموجودات فنيا، وتقيس جوانب تركيبها من خصائص الشيء، والشيء ما هو إلا ماهيــة مركبــة ترتــب عناصرها حسب التحولات الّتي تكتنزها الصورة في ذهن المبدع، والمتلقي تــذرع الجمال بحس وتأثير في كتابه الفلسفي (نقد ملكة الحكم) «وإذا كنا نتهم مــن يبقــى بارد العواطف تجاه ما نجده جميلا بأنه قليل الذوق فإننا نقول كذلك عمن يبقى غير متأثر أمام ما نحكم عليه بكونه رائعا بأنه ليس له شعور أصلا»، ومصطلح النومنيا هو تعبير فلسفي لشيء في ذاته وهكذا أيضا تسعى الشعرية لتحقيق أدبيــة الــنص بقوانينه، مماثلا لفلسفة كانط نحو الوجود في ذاته دون اللجوء لاعتبــارات أخــرى نحو هذا المصطلح، أم الزين بن شيخة المسكيني في كتابها (الفن يخرج عن طوره أو جماليات الرائع من كانط إلى دريدا) «مع الرائع نخرج من (جماليات) الجميــل ونخرج بلا رجعة من فلك ما سماه كانط بنفسه بــ" اللعب الحر للمخيلة " وذلك من أجل التوجه نحو جدية المخيلة، أو رواعها إزاء المريع » المخيلــة الّتــي ترســم الأشياء وتتبض في تجسيد الرائع الكانطي، يضع من خلال ذلك موازنة بين الإلهام النابع حسب نظرته من الجنون وما تكافئه العلامة النقدية، الّتي تصدر الحكم علــى شكل غير ثابت ومتحول، ومتجاوز حدود الجمال إلى الرائع والروعــة الخالصــة فيصل إلى نقد ملكة الحكم، ليكتفي النقد المنبعث من الفلسفة بما يقــارب مفــاهيم الصورة.

تساؤلات (مارتن هيدجر) حول التفكير كبناء لمعطى فني، ولعل ما يتجسد فــي الرؤية هو الصورة الّتي تصدر عن عالم خفي، وأقرب إلى المستويات الفنية بتقاسم الواقع في رسم تفكير يندرج نحو المتواري والمنســحب خلــف رؤيــة عميقــة .Interprétation phénoménologique de la «critique de la raison pure» de kant .Tr .Emanuel Mar «العلاقة بين الوعي والعــالم نفســيهما مؤسسين بها وعليها منذ البداية» فحين تنعكس الانطولوجيا الّتي تبحث في طبيعــة

الوجود خارج ماديته تكون الصورة هي اللافتة لهذا المصطلح لإبراز الغاية من الفكرة والتفكير بحد ذاته نحوها

Que veut dire penser? Dans Essais et conférences .trad: Andrè préau et prèfacé par: Jean Beaufret

«معنى التفكير؟ إن الإنسان لا يكون إلا بالقدر الّذي يشير ويسمى هذا الّذي ينسحب، بل الإنسان لا يكون إنسانا إلا لكونه ينجذب إلى هذا الّذي يتوارى وينسحب» الانجذاب الواعي حول الكينونة الّتي تبرمجها اللغة مع الخيال الّذي لا يلامس المادة بل يستنفذ الخواص الداخلية لينتفع بمزايا اللغة الفنية من الوجود ذاته والانفعال هو الحالة التخيلية الّتي تترك أثرها في المتلقي، وينظر (ابن سينا) في كتاب (الشفاء) ما الفن السادس من الطبيعيات من كتاب الشفاء القسم الأول « أنّ النفس يصح لها أن يقال لها بالقياس إلى ما يصدر عنها من الأفعال قوة وكذلك يجوز أن يقال لها بالقياس ما يقبلها من الصور المحسوسة والمعقولة على معنى آخر قوة» لشيء هو عناصر تنتمي مؤولاته مسبقا في الفكر، والتفكير تمثيل لانتماء الشيء لها، وكينونة الأشياء معارف لدى التصوير قبل ولوج الثقافة مرحلة التفاعل النهائي، بين الخيال المنفعل(الحسي)، والخيال الفعال (العقلاني الخلاق) والتفرقة بين المعرفة الأولية الّتي تسبق التجربة والمعرفة والّتي تجيء اكتساباً وتدرس الشروط الّتي تجعل الأحكام ممكنة، والّتي تبرر وصف الحقيقة بالصدق المطلق إن كان هذا ممكنا. يحددها توفيق الطويل في مؤلفه (أسس النظرية الفلسفية) «كما تبحث نظرية المعرفة في الأدوات الّتي تمكن من العلم بالأشياء وتحدد مسالك المعرفة ومتابعها، كما تدرس طبيعة العلم بما هو كذلك، وتهتم بمعرفة اتصال قوى الإدراك بالشيء المدرَك، وعلاقة الأشياء المدركة بالقوى الّتي تدركها» والإدراك فعل قويّ يتحلّى بالإرادة.

تقسم أصنام الذاكرة حسب الدراسة الفلسفية من خلال المحاضرات:

- **أصنام القبيلة: تنظيم الكنوز التراثية حسب بيئة نشـوء الانسـان حسـب النماذج الموجودة في القيم الكامنة من خلال السلوكات ومحاولة الانسجام معها.**
- **أصنام الكهف: إشارة إلى ميول الفرد نحو القيم الروحيـة المتجـذرة فـي المجتمع التقليدي ما يعكس تابعيته للجماعة.**
- **أصنام السوق: التداول الكلامي الذي يفقد جوهره الفكري حـين يتواصـل الفرد مع أقرانه بالحوار العادي ليومياته وتعاملاته الاجتماعية العامية حيث تفقـد اللغة أصالتها وتتلاشى وسائطها التركيبية.**
- **أصنام المسرح: تتمثل في الفلسفة اليونانية والعربية وغيرها والمنطق في مسارها هو قوة نزوعية**

وأحقاب يؤدّي الخيال دورا في إعادة بناء العالم، أو التواصل البَنَاء مـع العـالم الحقيقي والعالم الوهمي، وهنا الوهم ليس عارضا وإنما مشكل مـن طاقـة ذهنيـة تشفر، وترمز، وتتشابك انسجام التعبير عن الواقع العام (المحيط) بالخاص (النفس) وإبراز مدى جمالية الكون حين يمارس حضوره في لغة تنـزاح خـارج العـادة التواصلية بين الناس عامّتهم في جنس معين، إلى تعين الأنظمة المنتجـة للوجـود الخلاق.

2-الشروط والمرجعيات في فلسفة الانفتاح الوجودي: الثقافة هي إنتاج الواقع وتفسير توقعاته ومعايشته للمحيط الفكري الممتد حضارياً والمهـيمن علـى نمـط التراكمات الذهنية، لكن الشروط التي تحقق الاتجاه الثقافي المنسـجم بالمرجعيـات يتوقف بدرجة النضج الفلسفي للإنسان، خلف كلِّ الوقائع الملامسة للذاتية من خلال الجماعة دون طمس نظرة الشخصية المتممة لكل وعي والمميزة بين مختلف أفراد المجتمع، يقدم خصوصية المحيط ويتسع في تثمين تلك الرؤية فالتجارب العالميـة للكتابة، تمنح الأدباء توجها عالميا كما اتجه الروائي(نجيـب محفـوظ) بتصـوير

حفري للمجتمع المصري في أقصى وأدق نماذجه إلى تجاوز الحدود واكتساب التراتبية بين الكتاب العالمين، والروائية(آسيا جبار) في روايتها

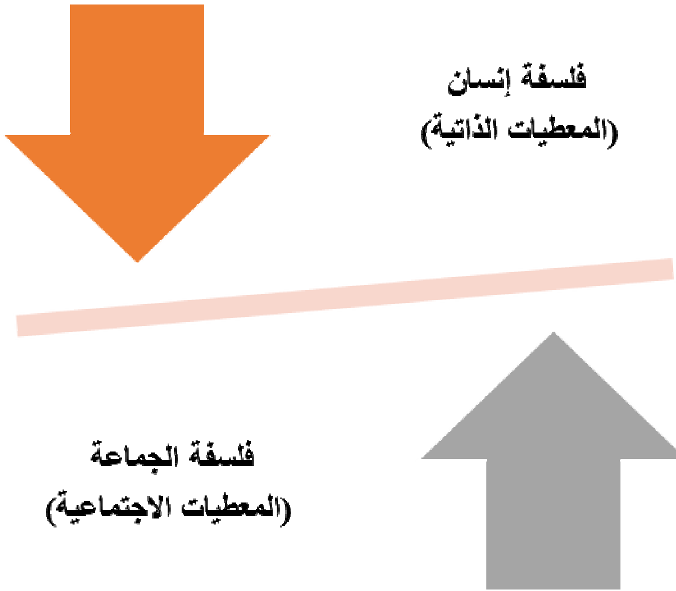
(Les Femme D’Algérie Dans Leur appartement)

تحيل اللوحة المشهورة للرسام لوحة الرسام الفرنسي أوجان دولاكروا "نساء الجزائر في مخدعهن" التي رسمها سنوات قليلة عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر (1834) رسمت بلغة سردية مميزة الموروث الكلامي بين النساء وهن يسردن همومهن ما تثيره ثقافتهن الاجتماعية، لتمارس الأفعال الكلامية على ما تعكسه اللوحة الفنية، فالثقافة هي القدرة علة صنع خطاب يتعايش مع الآخر بالكينونة الذاتية «**ففي الغرب يعرفون الثقافة: على انها تراث (الإنسانيات الاغريقية واللاتينية) بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان، فالثقافة على رأيهم هي: "فلسفة الإنسان"**»[3] تطرح أولوية الاطلاع التعلم والتأقلم في حوارية المختلف حيث يمكن فرز نطاق من التجديد الفاحص للكونية والمفعم بالسلوك الاجتماعي المثقف بدرجة كافية تجعله يميز بكلتا القوى الإدراك والوعي بما ينتجه من مفاهيم.

الاختلاف والانفلات في ذهنيات الشعوب وفنية حوارها من بوتقة الفعل المعرفي يمثل السلوك الذي تنشأ عليه المجتمعات «**ونحن نريد أن نؤكد هذا لندرك أن السلوك الاجتماعي خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منهم، بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة.**

فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته»[4] إبراز الحقيقة التي تخضع لها الجماعة في ولوج قيم المجموعة منحدرة من وسائط تمثل المعاملات وأخلاقيات التواصل والصفات العامة المنبعثة فطرياً والمكتسبة عبر النماذج الموجودة في تلك الحالات المفترضة للموجودين داخل المحيط الاجتماعي

لكن الفرد يتماثل لنوعية من الطبائع والمميزات وخواص تتأثر بفعل الاطلاع والاتصال خارج دائرته الاجتماعية وتتنوع بين الأفكار والمنحنيات المعرفية والاكتشافات الخاضعة لمساعي علمية او استطلاعية سرعان ما تصبح أحد الأقاليم الفكرية التي تميزه عن أقرانه، وبهذا تتضح الثقافة بين شقين:



من اهم وأخطر العوامل المهيمنة على العقل البشري بوصلة الإعلام التي أضحت نقطة فرز نوع جديد من الثقافة المنفتحة والمنتصرة لحقائق تمثلها الصورة في أقصى توجهاتها، ورغم المعلومات والمعطيات المعاصرة للإنسان تحيل في جاهزيتها ثقافة اللغة البصرية، الّتي تلغي الحدود بين المجتمعات وتنشؤ خلفية جديدة تنحصر في العولمة ذات البعد التكنولوجي والتطور الأيديولوجي **«صحيح أن التكنولوجيا الإعلامية قربت أصقاع العالم وسكانه من خلال تزويدهم بالمعلومات و المعطيات موفرة للجميع فرص التّعلم والتّثقيف ضمن إطار تطوير المجتمع الإنساني و لتحقيق هذا التّطور تقوم الثقافة الّتي تنشرها التكنولوجيا**

برسم وتخطيط الشخصية و هوية الإنسان ولكونها ثقافة كونية لا تتحدد بإقليم ما أو دولة معينة»[5] الثقافة الكونية صارت قدرة العقل في تكوين مكانته المعرفية عبر أقاليم مختلفة كلما اتسعت مكنته من فهم الكون وتكوين المفاهيم الحاصة بوجوده المثالي، هذه المثالية التي تتحكم فيها مجموعة من القوى الأكثر استغلالاً للمناطق التفاعلية عند المستخدمين لواجهة التواصل الاجتماعي، ولعل حجم الصفحات المهتمة بتسيير المستويات الثقافية للإنسان تُشَّكلُ البوتقة الأهم في بلورة نشاط المعرفة حسب نطاق الخلفيات الإعلامية وزخم المادة الإعلامية تشكيلاً وجودة تَكْيف مع الحاجات المنتظرة أثناء التلقي، فالغرب يهتمون بدراسة حضارات الأمم لإدراك عوامل بناء المجتمعات وبذلك ميولاتهم وسلوكياتهم، الكيان المحرك للعقل هو الكينونة التي تستدعي بناء إيديولوجية الثقافة بين الشعوب.

2. **التفاعل الحضاري والتقدم الفكري:** يتفاعل المثقف بالتماهي خلف حضارته ينتج أصالته العليا وفكرة بلوغ المعرفة من حلال ما يفيد ذلك التوجه الذي يمتد من خلال عامل الفكر المنتمي بالتاريخ ورموزه المؤرخة، إن استعادة الملامح التي نشأ عليها الوعي العربي هي نفسها أسس بلوغ التقدم والتطور بالاستفادة من علوم الآخر الأجنبي باعتبار العلم مادة منتجة لا مكون ثقافي، وما يجعل من المهم تكثيف العمق الإنساني للأفراد بقوة التنشئة الحضارية لإدراك التَّحضر والاسهام في تطويره كمتفاعل إيجابي لا مستنسخ لا يدرك إنتاج مكانته في مسار النهضة بالوعي الذاتي للكون لا الكوني للذات «**لذا فإن على المجتمع الإسلامي في مواجهة العصر أن يعطي لأصالة فكرته فعّالية تضمن لها النجاح. إنه مدعو لان يستعيد تقاليده العليا ومعها حسُ الفعالية.**

وبدلاُ من ان يغرق في تمجيد أصالة فكرته، لا بد أن يبحث في فعاليتها في عصرنا الحديث، و المسألة مسألة مناهج وأفكار، وإن لنا في نهضة الدول: كاليابان في منتصف القرن التاسع عشر، والصين في منتصف القرن العشرين،

مثالاً على كيفية الاقتباس من العلوم الغربية وتوظيف حركة المجتمع في فعاليـــة تستمدُ أصالتها من نماذجها الخاصة»[6] حركة الاقتباس من العلوم الغربيـــة يحيــل الواقع الوجودي للمثقفين نحو ضرورة نمذجة المواقف والتوجهات التـــي تتناســب والتحريك الفعلي للحضارة نحو التقدم لبناء الهوية الثقافيـــة عبــر مجموعـــة مــن المسلمات:

- الوعي الوجودي بالمحيط السوسيوثقافي للفرد.
- الاسهام ببناء النماذج المناسبة للثقافة حسب تطلعات المجتمع.
- التطور من خلال بناء ثقافة الحضارة نحو التحضر الثقافي.
- تجاوز الذات التمجيد التاريخي إلى خدمة المجد المستقبلي لصـــناعة تـــاريخ الغد.
- السعي الوجودي نحو المعرفة خدمة لثقافة الحـــوار الحضـــاري لا تخدمـــه القوى الإقليمية بل ثقافة التواجد بمنحى الهوية واستقلالية مدركات الذات.
- التقدم الثقافي يتشكل من النموذج الخاص المتطور والمستمد عبر الأصـــالة الخاصة للإنسان.
- الإنسان بحد ذاته كائن متطلع يمارس التفكير بالماهيات ويتعايش بالكيفيـــات تلك التي يستنتجها بالعوامل المناخية المؤثرة في طبيعة تواجده الثقافي.
- الثقافة هي فهم الإيديولوجيات باختلافها وفي نفس الوقـــت إدراك مركزيـــة ذاتية الفهم.
- الخصوصية الثقافية هي إنتاج معـــالم حضـــارية تؤكـــد فهرســـة التطـــور وخصائص المعاصرة

3. **الحوار الحضاري وبلاغة التعايش الإنساني:**

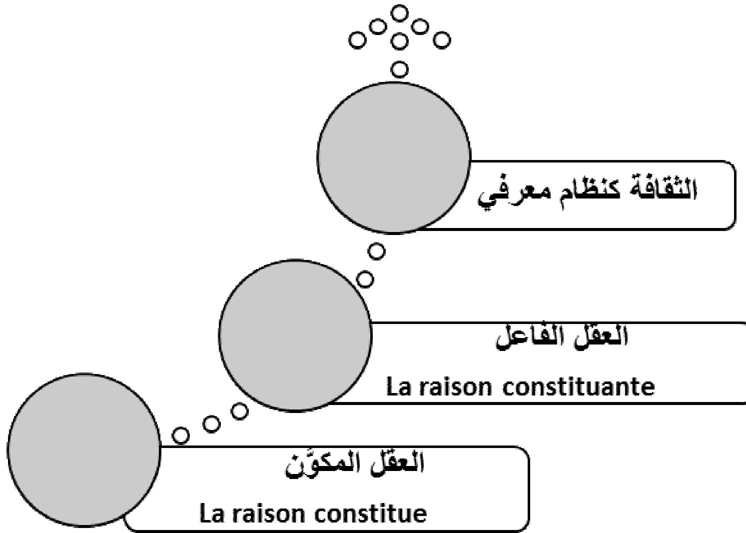
تشكل المعرفة درجة تقدم الشعوب ووعيها، والعلم لا يكتمل تفاعله واشتغاله إلا بالاندماج في خواص نظرية متعددة ومختلفة، لتوجه المنسجم نحو قضايا العصـــر

وعصرنة الفكر المتجدد في ظل الحركة والتوجه الإيجابي والمنتج «**فالفارابي مثلا الذي فكر في قضايا الثقافة اليونانية، هو مفكر عربي لأنه فكر فيهـا، بواسـطة الثقافة العربية ومن خلالها، ومثل ذلك المستشرقون فهـم يظلـون مستشـرقين يطلبون الشرق لأنهم يقعون خارجها، بل ومن خارج محيطهـا الخـاص،... إذن فالتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خـلال منظومـة مرجعيـة تتشـكل احداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها المـوروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلـى الكون والانسان كما تحددها مكونات تلك الثقافة»**[7] الرجـوع للثقافـات الأخـرى المجاورة والمختلفة هي نظرة إلى المستقبل بتكوين عالم مرئي من المعرفة تتكـون لكنها لا تؤثر في التوجه السلوكي، فالاحتكاك والارتباط بمعرفـة الآخـر تنتهـي بإدراك المعرفة ذاتها دون المساس بالقيم الاجتماعية، لأنهـا مرجعيـة أي تطـور مستمد عبر الموروثات القابعة في كيان الإنسان، وهـذا لا ينفـي مهمـة تأسـيس المنظومة الثقافية في استطلاعها الثقافي المتنوع والثري بالآخر واكتساب مهـارات التفكير نحو التطور وخدمة المجتمعات وتسير رؤى المستقبل.

يشترك الإعلام بصورته المندمجة وقضايا العصر الإنسانية والأكثر عمقاً حيث ينتمي توجهها مع كل منفتح يتخطى حدود والإقليمية ليؤكد رؤية تاريخية حديثة يحدد بكل موسوعية قضاياه، وعصرنة آفاقها وإيصال الماضي بالحاضر وهذا مـا جعل لصيت الثورة التحريرية الصدى العميق في الأمم الأخرى، ونموذجا لتـأريخ الخصوصية داخل المشترك العالمي وهي غاية الحرية والتحرر من قيود الآخـر وهو الدخيل بمعانيه المشتركة، وقد لخص ذلـك "«Fanon Frantz" فـي كتابـه معذبو الأرض "«في كلّ مرة تكون كرامة الإنسان، وحريته قيد البحـث الجميـع سيكون معنيا، الأبيض والأسود، الأصفر»[8] ما جعـل علاقـة الثـورة بـالإعلام اصرارا على الوجود الفعلي داخل مؤثرات التقدم المستمر في مختلـف مسـتويات

الحياة الفكرية والعملية والعلمية وعولمة القيم خارج الزمن والمكان و الحدود ما ينتج وعينا بضرورة معايشة الإنسان مع قضايا العالم وبذلك نشوء ثقافة التعايش.

كما يوضحه نموذج لالاند Lalande:



التكوين المعرفي للنظام الفكري، إسهام في بناء الفهم الذي يدرك نقطة التقاء المدرك (الموروث) بالمستحدث(المعرفة) وتقاطعه المستمر بالآخر (الفكر الغربي) فالتعايش والتنوع هو الجانب الأهم في الرؤية ووضوح الكيان المستقل ذاتياً والمنتمي سلوكياً، وبين القيم في الإدراك والتقييم المعرفي في التطور، فالثقافات هي الانفتاح الذهني نحو قدرة المعرفة (الاطلاع –الكونية) ومهارة التعريف بالذات (الهوية– مركز التطوير) تشكيل مفعم بالدقة لأن التنوع ضمانٌ اولي بالتشاكل الأيديولوجي وخلق.

مراجع البحث:

[1]– مالك بن نبي، مشكلات الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنـــان دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط/5، 2000م، ص.70

[2]– محيي الدين المحسّب، علم الدلالة عند العرب، فخر الدين الرازي نموذجا، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط/1، 2008م، ص. 130

[3]– مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، عمر كامـــل مســـقاوي، دار الفكـــر سوريا، 1986، ص.82

[4]– مالك بن نبي، شروط النهضة، ص.83

[5]– عبد الله العليان، التحديات الجديدة لتأثير الدولة في الإعلام ــ الفصـــل الســـابع والعشـــرون الإعلام العربي، في عصر المعلومات، مركز الإمـــارات للدراســـات والبحـــوث الاســـتراتيجية الإمارات العربية المتحدة، ط/1، 2006م ص.597

[6]– مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شـــعبو، دار الفكـــر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط/2 ،2002م، ص.12

[7]– محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، جماعة الدراســـات العربية والتاريخ والمجتمع، بيروت لبنان، ط/10، 2009م، ص.13

[8] –Dans Frantz Fanon ,Les Damné s de la terre Maspero ;coll « Cahier Libres »Paris 1961 ;P ;9

ثنائية العربية والأمازيغية في ميزان الطالب الجزائري ـ طلبة اللغة العربية وآدابها أنموذجا ـ

أ. نبيلة بن أكنيو
جامعة البليدة 2.

تشكل اللغة الأمازيغية واللغة العربية بلهجاتهما المختلفة واقعا لغويا ملموسا في الجزائر يجعلنا نسلم أن المفترض في كل مثقف جزائري احترامه والاعتراف به – وإن كان بعض الناطقين بإحدى اللغتين ينظرون إلى الأخرى نظرة إقصاء واستبعاد –، فلا يمكننا إنكار وجود هذه النظرة لدى جزء مهم من المجتمع " فوضعية الازدواج اللغوي التي تتمظهر في منافسة الفرنسية للعربية وتفوقها في مجالات عديدة، ووضعية التعدد اللغوي التي تتمظهر في وجود اللهجات المحلية الأمازيغية والعربية بشقيها الدارج والفصيح والفرنسية أدت إلى وجود تيارات فكرية منغلقة بعضها على بعض حيث يتخذ كل تيار لغة مغايرة للغة الآخر، كما أدت إلى ظهور طوائف لغوية تصرح بأن لها هوية لغوية وثقافية مغايرة، وهو ما يجعل هذه الجماعات تتآلف بعضها مع بعض وتتنافر مع الآخرين"[1].

ونفترض أيضا أن حق اللغتين العربية والأمازيغية من الاحترام والاعتراف يختلف عن حق اللغة الفرنسية منهما – وهي طرف واقعي آخر للتعدد اللغوي في الجزائر– ذلك أن اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري تحيل عند الغالبية إلى الاحتلال الفرنسي ومعاداته له، فهم على وعي بأن الاحتلال الفرنسي قد " سعى لترسيخ اللغة الفرنسية لتصبح فيما بعد اللغة الأجنبية التي تحظى بحق الأفضلية في المستعمرات المتحررة كما سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية لتحويل هذه اللغة إلى جزء من كيان المستعمرات"[2]، بينما تحيل اللغتان العربية والأمازيغية عندهم إلى مكونات الهوية الجزائرية الأصلية ومقوماتها، ومن هذا المنطلق وجد المطالبون بإدراج الأمازيغية في الدستور الأسباب والمسوغات القوية لهذا المطلب

إذ " نجد الهوية الأمازيغية التي ضغطت هي الأخرى من جهتهـــا، فقـــد تجســـدت كمطلب أمازيغي يرى وجوب إعادة تعريف الهوية الوطنية الجزائرية من وجهـــة نظر لغوية من خلال إعادة الاعتبار للغة الأمازيغية والاعتراف بها كلغـــة وطنيـــة ورسمية ومكون أساسي للهوية الوطنية الجزائرية إلى جانب اللغة العربية"[3]، وهـــذا المطلب في الحقيقة يتعلق بالاعتراف الرسمي والدستوري فقط، لأن الأمازيغية في الواقع واقع، والأمازيغيات "تعد اللغات الأم لسكان بني مازيغ، وبالتالي فقد ســـبقت هذه اللغة التواجد العربي على هذه الأرض، لها امتداد لساني معروف قـــديما فـــي منطقة المغرب العربي، بالإضافة إلى مصر والنيجر ومالي"[4].

إن نظرة الرفض والإقصاء لإحدى اللغتين العربية أو الأمازيغية من قبل بعض الجزائريين تتنافى مع قيم العقل قبل أي قيم أخرى، ذلك أن تعدد اللغات في العالم كله آية من آيات الله، "فالثنائية ظاهرة عالمية ففي كـــل البلـــدان نجـــد أشخاصـــا يستعملون لغتين أو عدة لغات لغايات شتى وفي شتى السياقات، وفي بعض البلدان ينبغي على الشخص أن يمتلك أكثر من لغتين ليعتبر شخصا مثقفـــا"[5]، فمـــا بالنـــا ونحن نتحدث عن لغتين تعايشتا منذ الفتوحات الإسلامية ولم تتعارضا مع دخـــول السكان الأصليين للإسلام واستطاعتا حمل الموروث الثقافي للجزائريين بكل أبعاده.

ثم إن هذا التعدد اللغوي مرتبط مباشرة بالتنوع الثقافي الذي هو أصل في العديد من الأمم وتزايد مع مرور الأزمنة بفعل عوامل التبادل والتداخل علـــى مســـتويات عدة، " فجل المجتمعات متعددة لغويا وثقافيا بـــالرجوع إلـــى التكـــوين التـــاريخي الحركي للشعوب والهويات واتصال اللغات والثقافات نتيجة وجودها علـــى وطـــن واحد وأرض واحدة، أو التقائها فيها بفعل موجات الهجرة والتنقـــل"[6]، فلـــم تكـــن ليطرح هذا التعدد اللغوي الثقافي في الجزائر لولا الفتوحـــات الإســـلامية وتفـــتح الأمازيغ على البقاع العربية.

لطالما انساق لنا الحديث والنقاش حول هذه الثنائية اللغوية في بلدنا مع الطلبة أثناء تدريسنا لبعض المقاييس اللسانية التي يندرج فيها هذا الموضوع، فكان أن سمعنا ما يسر وما يضر ولم أختر طلبة اللغة العربية موضوعا لدراستي هذه باعتباري أستاذة لها بقدر ما اخترته لأنه يمثل وترا حساسا في المسألة فنحن أمام طالب يمثل اللغة التي تختلفت الرؤى في علاقتها بالأمازيغية، فهي اللغة الشقيقة في نظر البعض، واللغة العدوة عند البعض الآخر، الجارة المنافسة، الدخيلة.....الخ، ومهما احتج المتعصبون في أحد الاتجاهات بحججهم إلا أننا ننطلق في ممارستنا لمهنة التعليم من مبدأ الإيمان بوجوب تكوين طالب منفتح على التنوع بكل أبعاده وعلى كل مستوياته ومنه التنوع الذي تزخر به بلاده، طالب يحترم لغة تخصصه وأغلب شعبه ويحترم أيضا لغة أجداده وجزءا مهما من شعبه، طالب يدعو إلى التعايش اللغوي الثقافي لا إلى التنابذ والانغلاق الذي يعتبر عدو العلم والتقدم.

منهجنا في هذا البحث هو القيام بدراسة ميدانية إحصائية والخروج بنتائج نحلل على إثرها الواقع فنثمن ما يستحق التثمين ونصوب ما يستوجب التصويب، وعلى هذا الأساس وجهنا لعينتنا استبيانا ضم ستة أسئلة وتمثلت العينة في مئة طالب بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لونيسي علي – البليدة2 –، خمسون منهم طلبة سنة ثانية وثالثة ليسانس والخمسون الأخرى طلبة سنة أولى ماستر، تفادينا استجواب السنة الأولى وانطلقنا من السنة الثانية لتكون عينتنا من الطلبة الذين قضوا سنتين على الأقل من التكوين العلمي في اللغة والأدب وعلومهما، والمعلوم أن الطلبة لا يتلقون تكوينا في علوم اللسان العربي وحسب وإنما في علوم اللغة بصفة عامة كما يتلقون تكوينا في علوم الأدب عربيا وعالميا، فلا ننتظر من هؤلاء الطلبة إذن جهلا بمكانة اللغات المتعددة في الحياة ودورها في صناعة ثقافات الشعوب ونقلها.

جاء في المادة الثالثة مكرر من الدستور الجزائري[7] أن تمازيغت هي كذلك لغة وطنية تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب

الوطني، فقد وثقت الدولة الجزائرية من خلال دستورها الأمازيغية لغة وطنية للجزائر، ولكننا نعلم أن هذا التوثيق جاء متأخرا مقارنة بما اعتاده الجزائريون من كون اللغة العربية هي اللغة الوطنية الوحيدة في الدستور وما نشؤوا عليه أيضا من اعتماد هذه اللغة وممارستها في الحياة من خلال المدرسة بصفة خاصة في غياب تام للأمازيغية، ولهذا حين طرحنا سؤالنا الأول في الاستبيان بصيغة: **هل ترى أن اللغة الأمازيغية لغة وطنية؟** لم نكن نتوقع ما أقره الدستور بقدر توقعنا لما هو مخزن في ذهن الطالب الجزائري، وبالفعل أجاب 68% من طلبة الماستر بالنفي وكذلك 50% من طلبة الليسانس، فعلى الرغم من أنه يفترض أن طلبة الماستر أكثر وعيا ومعرفة من طلبة الليسانس وبالتالي أكثر تفتحا على التعدد اللغوي في بلدهم إلا أن عدد النافين منهم لأن تكون الأمازيغية لغة وطنية أكبر من طلبة الليسانس.

إن وجود اللغة الأمازيغية بجانب العربية إلى يومنا هذا لهو دليل على أن هذين اللغتين متعايشتان تحترم الواحدة منهما وجود الأخرى، أما الدليل الأكبر فقد قدمه الباحثون من خلال استخراج التقاطعات التي حصلت بين اللغتين وكيف أخذت كل لغة من أختها على المستويات المختلفة للغة، بل أن محمد الولي يرى أن الأواصر بين اللغتين أبعد في التاريخ وأنهما من أصل واحد، يقول: " لكن الأدهى هو تشويه الوقائع من قبيل اختلاق أصول للأمازيغية غير الحامية السامية، والسعي إلى تطهير الأمازيغية من كل الملامح التي تذكر بهذه الأصول المشتركة مع العربية...إن المعجم العربي الذي وجد له امتدادات في الأمازيغية ليس ناتجا عن الآثار العربية المرافقة للفتوحات الاسلامية التي يتوهمها المناضل الأمازيغي، بل إن تاريخ تلك التأثرات والتواشجات العائلية لأقدم مما يتوهم"[8]، مع الإشارة إلى أن هذا الرأي مازال إلى اليوم قضية أخذ ورد بين الباحثين، لأن الكثير منهم يرون فيه ليا لعنق الأمازيغية كي تربط بالعربية.

إن التعايش بين العربية والأمازيغية في الجزائر أنتج مظاهر مختلفة مما سـمته صحرة دحمان[9] الأزواج اللغوية أو الثلاثيات اللغوية، إذ ذكرت:

العربية الفصحى/ الأمازيغية: مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التعليم عندما يلجأ الأساتذة إلى تبسيط بعـض المفـاهيم فـي المنـاطق الناطقـة بالأمازيغية..الخ

العربية الدارجة/ الأمازيغية: في مناطق احتكاك التنوعين، العربية/ الأمازيغيـة وهي في الغالب مناطق تجاور، حيث يتقن الناطقون فيها العربية العاميـة وإحـدى اللهجات الأمازيغية مثلا: خنشلة وأم البواقي وغرداية وبرج بـوعريريج، حيـث تتقاسم الشاوية أو الميزابية أو القبائلية استعمالات الناطقين، ويمكن أن يسود تنـوع لغوي، أو يحصل بينهما انتقال في نفس الحديث.

العربية الفصحى/ العربية الدارجة/ الأمازيغية: يظهـر التنـاوب بـين هـذه التنوعات عند عدد من رجال الدين الذين يمتلكون العربيـة بمسـتوياتها وإحـدى اللهجات الأمازيغية.

الأمازيغية/ العربية/ الفرنسية: تظهر هذه الممارسة اللغويـة فـي وضـعيات خطابية تسيطر عليها الأمازيغية، ولكن المتكلم يجنح إلى العربية أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث إذا كان المخاطب شخصا يتقن العربية أو الفرنسية أو كلتيهما.

ولأن التعايش بين اللغتين يبدو لنا أمرا لا نقاش فيه توقعنا أن لا يخالفنا الطلبـة الرأي في الإجابة عن السؤال الثاني: **هل ترى أن اللغة العربية واللغة الأمازيغيـة يتعايشان في الجزائر؟** فكانت إجابة طلبة الماستر بالإيجاب بنسـبة 66% وطلبـة الليسانس بنسبة 77.5% وقد كنا نتوقع أن تكون أكثر.

إن الانفتاح على اللغات الأجنبية ومعايشتها مطلوب في عصـرنا كمـا كـان مطلوبا في العصور السابقة وعند أمم عرفت قمة ازدهارها مثلما شهده العرب في

العصر العباسي حيث فتحت الأبواب أمام اللغات والثقافات بمختلف أنواعها،" ففي الحضارة العربية الإسلامية كانت توظف اللغات مثل الفارسية لخدمة العربية ولم تشك منها أبدا، وبذلك قد يكون التعدد اللغوي ظاهرة صحية تسهم في توسيع دائرة التفكير اللغوي والانفتاح على الثقافات المحلية والأجنبية تطعيما للثقافة الوطنية"[10] ولكن إلى أي مدى يسمح بمثل هذا الانفتاح؟ وماذا لو زاحمت هذه اللغات اللغة الأصلية أو أخذت مكانها؟

لقد عرفت الجزائر ولوج اللغة الفرنسية أرضها وإن كان ولوجا قسريا واستطاعت هذه اللغة أن توجد لنفسها مكانة لم تصل إليها اللغة الأمازيغية وهي لغة الأرض والتاريخ، كما أوجدت لها مدافعين عنها يرون وجوب التعايش معها والاعتراف بها مكونا لغويا أساسيا، خاصة أن الجزائر تبنتها لغة أجنبية أولى في التعليم ولغة العلوم التجريبية والدقيقة في الجامعة إضافة إلى ميادين عدة تعتمد على الفرنسية، لكن هذا الوضع اليوم يعرف عدم رضى ومطالبة واسعة بتغييره لصالح اللغة الانجليزية في ظل تراجع مكانة اللغة الفرنسية في العالم وتقهقرها إلى مراتب دنيا.

من هذا المنطلق ونحن نسأل الطلبة **إن كانوا يوافقون على استبدال اللغة الفرنسية في التعليم باللغة الأمازيغية** كنا نتوقع أن نجد اقتراحهم للغة الانجليزية بدل اللغتين، وهذا الذي طغى على إجاباتهم فعلا، كما اقترح البعض إدراج اللغة الانجليزية وبعدها الأمازيغية مع إبعاد الفرنسية تماما، لكن كان يهمنا أن نعرف نسبة الطلبة الذين يوافقون على إعطاء الأولوية للغة الأمازيغية قبل أي لغة، لأن ذلك يعكس اعترافا ضمنيا بمكانة هذه اللغة في مجتمعهم، فوجدنا من هؤلاء 42%من طلبة الماستر و37.5% من طلبة الليسانس، وهو ما يثبت أن الغالبية منهم ليس مقتنعا بصلاحية الأمازيغية لغة علم وتعليم.

إن نظرة الطالب الجزائري إلى اللغة الأمازيغية وإلى مكانتها في المجتمع الجزائري ليست نظرة بسيطة بحيث يتعصب لها أو يقصيها تماما، وإنما هي نظرة فيها حد من العمق وبعد النظر، وقد تبدو متناقضة للوهلة الأولى إلا أن تحليلها بما يكفي يقودنا إلى نتائج تستحق التثمين وتفتح لنا بابا لدراسة الواقع اللغوي وإعادة توجيهه بما يتناسب مع هوية الأمة ومقوماتها.

فرغم أننا نلاحظ رفض الطلبة الاعتراف باللغة الأمازيغية لغة وطنية وعدم ترشيحها لتكون لغة علم وتعليم، إلا أننا نجدهم يدافعون عن حقها في الوجود والممارسة من قبل الناطقين بها، فمن خلال سؤالنا لهم: **هل توافق على إلغاء ليسانس الأمازيغية من البرنامج الجامعي؟** أجاب 66% من طلبة الماستر و57.5% من طلبة الليسانس بالنفي، وكان من ضمن إجاباتهم:

- لا..احتراما للفرد الأمازيغي.
- لا..لأن هناك من يحب هذه اللغة.
- لا..لأنه لا يمكن إنكار اللغة الأمازيغية.
- لا..لأنها مرتبطة بثقافتنا.
- لا..لأنها من التراث وذات أصول عريقة.
- لا..لأنها تحمل جزءا من ثقافة المجتمع.
- لا..لأن الناطقين بالأمازيغية بحاجة إليها.

إن مثل هذه النتائج تدعونا إل التساؤل عن مصداقية بعض الآراء و الإقرارات الواردة في بعض البحوث العلمية نحو قول فتيحة شفيري " إن هناك تصدعا وسط الشعب الجزائري فمنهم من أيد موقف تدريسها ومنهم من رفض ذلك رفضا قاطعا معتبرا الأمازيغية لغة مناطق معينة وهو لا يمت لها بصلة عاكسا بذلك كرهه الشديد لها"[11]، لأن هذا الحكم من الخطورة بما كان، فالإجابات التي حصلنا عليها من الطلبة لا تحمل أي إشارة إلى الانفصال أو الكره، بل نرى أنهم لو ملكوا

مقومات التعبير لقالوا: " هي بلا منازع لهجات وطنية ولا أحد يمكنه أن ينزع عنها هذه الصفة، لكنها ما تزال في حاجة إلى مزيد من التأهيل والمعالجة، لأنها مازالت في خطواتها الأولى نحو المعيرة والتنميط لكي تتوحد في لغة معيارية مشتركة بين كل الناطقين بها المنتشرين في مناطق شتى من الشمال الإفريقي وبعض دول جنوب الصحراء، لكن هذا لا يمنع من أن تقوم بوظائف تواصلية واجتماعية بجانب العربية، وأن يكون لها دور معين في التعبئة ونشر الوعي وتحريك عجلة التنمية"[12].

هذه الوظائف التواصلية والاجتماعية هي التي جعلت جيلالي بن يشو يدرج الأمازيغية ضمن المستوى التواصلي، بعد أن قسم مستويات الاستعمال اللغوي في الجزائر إلى ثلاثة، الرسمي والتواصلي والوظيفي فالمستوى التواصلي هو "مستوى استخدام اللغة للتواصل اليومي والتطبيق، أي اللهجات الأمازيغية (القبائلية الميزابية، الشاوية، الترقية) واللهجات العربية العامية، وهي التي تستخدم في الشؤون العادية والتي يجري بها الحديث اليومي"[13].

تتضح مكانة الأمازيغية عند الطلبة أيضا من خلال إجاباتهم عن سؤالنا: **هل توافق على إلغاء الإعلام الأمازيغي – الإذاعة، التلفزة...الخ- والاقتصار على الإعلام العربي؟** إذ أجاب 82% من طلبة الماستر و80% من طلبة الليسانس بالنفي، وكان ضمن إجاباتهم:

لا..لأنها لغة فئة من مجتمعنا.

لا.. مثلما هناك عرب يفهمون العربية هناك أمازيغ علينا احترامهم.

لا..لأن هناك من لا يفهم اللغة الأمازيغية.

لا.. فهناك مداشر في أعالي الجبال لا تعرف سوى الأمازيغية.

لا..ينبغي أن يطلعوا على مستجدات العصر.

لا..إذا خضعت إلى ما يحفظ التاريخ الحقيقي والموحد والحفاظ على الوحدة الوطنية.

لا ..نخصصه للأمازيغيين.

لا..هذا قمع للعرق الأمازيغي لاسيما الأمازيغ البدو.

لا..لأن كل جنس يفهم لغته حسب المكان الذي ترعرع فيه.

إن هذه الإجابات وغيرها تعكس الروح المتصالحة المتعايشة التي يحملها الطالب الجزائري مع مكونات مجتمعه من لغة وثقافة، وليس بعيدا أن يكون هذا الطالب هو صورة لكل أطياف المجتمع الجزائري وفئاته، مما يعطي صورة حقيقية عن المغالطات التي تنشرها بعض وسائل الإعلام وبعض الشخصيات حيث يروجون لفكرة التناحر والتصادم بين الثقافة العربية والثقافة الأمازيغية.

من المؤكد أن الطالب الجزائري مرتبط أشد الارتباط باللغة العربية مبجل لها مقدم لها على الأمازيغية ويتضح ذلك من خلال اتفاق أغلب الطلبة على إجابة واحدة على سؤال: **هل ترى أنه من حق الناطقين بالأمازيغية الحفاظ على لغتهم والتواصل بها إذا انتقلوا إلى المناطق الناطقة بالعربية أم ينبغي عليهم تعلم العربية؟** إذ رأوا بأنهم يمتلكون هذا الحق ولكن لابد لهم من تعلم اللغة العربية وإتقانها، ويقدمون لهذا الوجوب مبررات وأسباب لا يمكن تجاهل قيمتها، كان من ضمنها ما يأتي:

- أنها لغة الدين.
- أنها اللغة المتداولة بكثرة.
- كلتا اللغتان مهمتان.
- لتسهيل التواصل مع من لا يعرف الأمازيغية.

وهذا لم يمنع من وجود إجابات تحمل رؤية خاصة إذ رأت إحدى الطالبات أنه على الناطقين بالأمازيغية العمل على نشرها لتعم الفائدة، بينما رأت أخرى أننا إذا

طالبنا الناطق بالأمازيغية بتعلم العربية ينبغي أيضا أن نطالب الناطق بالعربيــة أن يتعلم الأمازيغية.

إن الآراء والإجابات التي حصلنا عليها من خلال هذا الاستبيان الموزع علــى الطلبة تمثل جزءا من المعطيات الضرورية لوضع سياسة لغوية في الجزائر، هــذه السياسة التي ينبغي أن تحقق ما سماه الفهري بالعدالة اللغوية، غير أن هذه العدالــة تطرح عدة إشكاليات منها ما صاغه بنيني عبد الكريم[14] على الشكل الآتــي: هــل تحقيقها يفترض تقسيم البلد الواحد إلى رقع لغوية تتوزع عبر مساحات جغرافيــة؟ وهل من سبيل لتحقيق عدالة لغوية في وسط لغوي غير متجــانس شــأن البلــدان المغربية؟ كيف ينبغي أن نتصور عدالة لغوية في الجزائر؟ هل سيتحقق ذلك مــثلا بتعميم استعمال الأمازيغية في أوساط المتكلمين بهــا وتعمــيم اســتعمال العربيــة الفصحى في ما سواها؟ ألن يؤدي مثل هذا الإجراء إلى تقسيم البلاد إلى رقع لغوية متباينة قد تحولها إلى رقع سياسية واجتماعية متناحرة؟.

ستبقى قضية التعدد اللغوي خاصة تعدد اللغات التي هــي جــزء مــن هويــة المواطن؛ تطرح إشكاليات حادة منها الكيفية المناسبة لإدراجها فــي التعلــيم بكــل مستوياته، فالأمازيغية اليوم وإن كانت لغة وطنية إلا أنها لا تجد قبولا وإجماعا في هذا المجال، وتزداد حدة الإشكالية في كونها لغة عدد أقل بكثير من عدد النــاطقين بالعربية، فليشمر المختصون على سواعد الجد ليجدوا الحلول المناسبة التي تحقــق التوافق بين اللغتين بما لا يتنافى مع الحقائق الاجتماعية للجزائريين.

الاحالات:

[1]– صحرة دحمان، التعدد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثقافية – المجتمع الجزائري نموذجا ضمن: المؤتمر السنوي لعام 2018، مجمع اللغة العربية الأردني، ص:162.

[2]– علي بنطالب، السياق الاستعماري وتأثيراته على الوضع اللغوي بالمغرب، مجلة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ع: 11، ص: 59.

[3]– العونية بهلول ومعاشو جيلاني كوبيبي، اللغة وإشكالية الصراع الهوياتي في المدرسة الجزائرية، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، ع: 1 م:8، جوان 2017، ص311.

[4] – جيلالي بن يشو، التعدد اللغوي في الجزائر: مظاهره وانعكاساته، ضمن، التعدد اللساني واللغة الجامعة، ج2 المجلس الأعلى للغة العربية، 2014، ص:57

[5] –Marie –Louise Moreau, Sosiolinguistique : concepts de base, Pierre Mardaga ; éditeur,Belgique, 1997, p : 61

[6]– عبد القادر الفاسي الفهري، لغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ضمن: مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ع1، م:1: 2012 ص:47،48.

[7]– جاء ذلك ضمن: الجريدة الرسمية رقم 76 المؤرخة في 8 ديسمبر1996 معدل ب:

– القانون رقم 02 –03 المؤرخ في 10 أبريل 2002 الجريدة الرسمية رقم 25 المؤرخة في14 أبريل 2002

– القانون رقم 08–19 المؤرخ في 15 نوفمبر 2008 الجريدة الرسمية رقم 63 المؤرخة في16 نوفمبر 2008

– محمد الولي، في الخطاب الأمازيغي، مجلة علامات، ع: 20، المغرب، 2005، ص: 79

[8]–

[9]– – صحرة دحمان، التعدد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثقافية – المجتمع الجزائري نموذجا ص: 154، 155، 156.

[10]– – باديس لهويمل ونور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ع40، 2017 ص: 117.

[11]– فتيحة شفيري، الصراع اللغوي في الجزائر وتأثيراته السلبية في تكوين الهوية الجزائرية كتاب المؤتمر السنوي لعام2018، مجمع اللغة العربية الأردني، ص: 34.

[12] – عبد العلي الودغيري، دور اللغة الوطنية في التنمية وتحقيق الأمن الثقافي، ضمن: أهمية التخطيط اللغوي –اللغات ووظائفها–، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2012،ص:44.

[13]– جيلالي بن يشو، التعدد اللغوي في الجزائر: مظاهره وانعكاساته، ضمن، التعدد اللساني واللغة الجامعة، ص: 57.

[14]– بنيني عبد الكريم، الاستعمالات اللغوية في الوسط السوسيولساني الجزائري: أسئلة وملاحظات، أعمال اليوم الدراسي مظاهر التعدد اللغوي وانعكاساته في تعليمية اللغة العربية في الجزائر، جامعة سعيدة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2017،ص:123.

تعليمية اللغة الأمازيغية في الجزائر (بين الأسس اللسانية والمطالب الإجتماعية)

د. ربيعة برباق /جامعة تبسة.
د. نعيمة شلغوم /جامعة خنشلة.

تمهيد:

الوضع اللغوي في الجزائر ودواعي التأصيل اللساني: تعيش الجزائر وضعا لغويا خاصا نتيجة العوامل التاريخية التي تميزت بها هذه المنطقة، من استعمارات متلاحقة ثم الفتح الإسلامي والنزوح العربي إلى شمال إفريقيا، وأخيرا الاستعمار الفرنسي فالاستقلال. وهذا الوضع اللغوي يمكن إجماله في ثلاث لغات، هي: الأمازيغية، العربية، والفرنسية.

وبما أن اللغة العربية واللغة الفرنسية من اللغات العالمية المعروفة، والتي نالت حظها من الدراسة والتدريس والتدوين والتأصيل، فسنتجاوز الحديث عما هو معروف، وسنركز حديثنا في هذا المقام في قضية تعليمية اللغة الأمازيغية ولهجاتها المختلفة، وسنحاول نقد هذه الدراسات في ضوء ما قدمته اللسانيات من نظريات ومبادئ علمية لدراسة اللغة، وفي ضوء مطالب العدالة الإجتماعية.

البحث اللساني الأمازيغي في الجزائر: لم يحظ البحث اللساني المحلي باهتمام كبير من اللسانيين الجزائريين الذين اتجه معظمهم إلى مناقشة القضايا التي تناولتها اللسانيات الغربية، كقضايا المصطلح، والتداولية، عدا تعليمية اللغة العربية التي تجلت في كتابات عدد من الباحثين الجزائريين، أمثال: عبد الرحمن حاج صالح ومصطفى حركات، وصالح بلعيد، وغيرهم، إلا فيما ندر من بحوث، وخاصة في السنوات الأخيرة بعد التغيير السياسي الذي حدث في نهاية الثمانيات، وبداية التسعينات من القرن الماضي، والذي كان من نتائجه دسترة اللغة الأمازيغية لغة

رسمية ثانية في الجزائر، والاعتراف بحق متكلميها في تعلمها في المدارس والجامعات. غير أن هذا الاعتراف كان محل ردود أفعال ومواقف متضاربة ومتباينة حول اللغة الأمازيغية.

وقد ظهرت في ذلك دراسات ومؤلفات تؤرخ لهذه اللغة وتؤصل لها داخل الجزائر وخارجها، على غرار أعمال كل من **عثمان سعدي**، ومنها: "عروبة الجزائر عبر التاريخ"، "الأمازيغ عرب عاربة"، "معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية" وكتب **محمد المختار العرباوي** ومنها: "البربر عرب قدامى"، و"في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية" و**محمد علي مادون** في كتابه "عروبة البربر الحقيقة المغمورة". وأعمال **أحمد بن نعمان** ومنها: "كيف صارت الجزائر مسلمة عربية؟"، "فرنسا والأطروحة البربرية".

كما ظهرت أيضا دراسات أخرى حاولت التأصيل لهذه للغة، مثل: كتاب "الجذور التاريخية لسكان المغرب القديم " **لمحمد علي عيسى**، وكتاب "أصول اللغة الليبية القديمة" لعبد العزيز سعيد الصويعي، وكتاب "معجم لسان العرب الأمازيغ" لعلي فهمي خشيم، وكتاب عروبة البربر **لمحمد حسين فرح**، وغيرها.

ولكل كتاب من هذه الكتب منهجه في التأصيل ودوافعه في ذلك ومنطلقات وغايات يمكن استخلاصها من عناوينها قبل مضامينها.

وبعد دسترة اللغة الأمازيغية بوصفها " مكونا اجتماعيا لا يمكن نكرانه، وقد دخلت هذه اللّغة في المنظومة التعليمية باعتبارها لغة التراث ولغة الأجداد، وكان علينا المحافظة عليها بمنحها فرص الترقية عبر التدريس. والإعلام وكتابة تراثها الشفاهي الذيّ يندثر باستمرار".

بعد دسترة وفتح أقسام لتعليمها، ظهرت على الواجهات مشكلات لسانية حقيقية وأخرى مفتعلة لسياقات خارج لسانية، فكان من الضرورة القصوى إعادة النظر في

تعليمية اللغة الأمازيغية، وبنائها على أسس لسانية صحيحة، مع مراعاة مطالب العدالة الاجتماعية.

وقبل ذلك كله توجب على اللسانيين المتخصصين تصحيح المفاهيم اللسانية المتعلقة باللغة الأمازيغية، قبل ضبط مصطلحاتها، ثم تحديد خصائصها وجمع مادتها وغربلتها ومقارنتها، قبل التوجه إلى المدارس والجامعات لتعليمها، وتعريف المجتمع العربي بها من جميع جوانبها بعيدا عن الأيدويلوجيات والقوميات، وهذا ما يتطلب تخطيطا لغويا مسبقا مبنيا على وعي كامل بالمنهج والأسلوب الصحيح الذي من شأنه تحقيق هذا الغرض.

تجدر بنا الإشارة إلى أن البحث في الأمازيغية يعد من أهم وأعقد القضايا التي تواجه البحث اللساني في الجزائر، وفي المغرب الإسلامي ككل. وقد حضر ضمن مجموعة من الأبحاث والمقالات والدراسات القليلة، لكن معظمها لا يخرج عن سياقين اثنين: هما السياق السوسيولوجي الاثنوغرافي، والسياق السياسي الأيديولوجي. وبالرغم من كون الموضوع لغويا في جوهره إلا أن المنهج اللساني يكاد ينعدم في هذه الدراسات، وخاصة في الجزائر.

وترتبط نظريات التأصيل للغة الأمازيغية بالسياقين السالفي الذكر، وتنقسم إلى خمس نظريات: هي: الأمازيغية الكنعانية، الحميرية اليمينة، نظرية الأصل الأوروبي، نظرية الجنس المتوسطي، ونظرية الأصل الحامي.

والمتأمل في هذا النظريات، يجدها تختلف باختلاف منطلقات وخلفيات القائلين بها، فمعظم القائلين بنظرية الحميرية اليمنية، هم من العرب، وأشهرهم من اليمن أمثال، محمد حسين فرح، وتبناها كثير من الجزائريين من تيار التعريب، أمثال عثمان سعدي، في حين أغلب القائلين بنظرية الجنس الأوروبي والأصل الحامي هم من الأوروبيين أمثال: رين لويس (Rinn louis) سنة 1889م ومااينهوف

ودو لافوس. وتبناها معظم الباحثين الأمازيغ المعاصرين المنادين بإعادة الاعتبار للغة الأمازيغية.

وهذا التضارب الواضح في التأصيل اللساني الأمازيغي وخاصة في الجزائر يثير في أذهاننا تساؤلا واستغرابا حول سببه؟ والدواعي التي أفضت إليه؟ والإجابة عن ذلك تقتضي منا معرفة دقيقة بخلفيات هؤلاء الباحثين المهتمين بهذه القضية، إذ تشير كتابات بعض الباحثين إلى اتخاذهم موقفا خاصا من الأمازيغ، فهذا **كسيل** في ترجمته لنصوص هيرودوت حول الأمازيغ قد اتخذ منهم موقفا جعله يصفهم بأوصاف أقل ما يقال عنها أنها غير موضوعية، كما أنها أظهرت تحامله الكبير على السكان الأصليين الذي حاربوا الاستعمار الفرنسي، وهذا أحمد بدوي يرد على هيرودوت ويشكك في صحة معلوماته عن الأمازيغ، وغير ذلك مما يدل على خلل في منهج الدراسة والتأصيل لكثير مما يتعلق بأصل الأمازيغ وتاريخهم.

ولصعوبة هذا الموضوع وتعقيده من الناحية التاريخية، والسياسية والإجتماعية أيضا، ارتأينا في هذه المداخلة الوقوف المنهج اللساني الكفيل بإبعاد البحوث اللغوية الأمازيغية من مستنقع الصراع والاستغلال البرغماتي الضيق، علنا نقدم أفكارا علمية للسانيات الأمازيغية التعليمة التطبيقية منها والوصفية والتاريخية وكذلك المقارنة والتقابلية ، يقينا منا بأن البحث في قضايا اللغة الأمازيغية، مازال بحاجة إلى جهود كبيرة من لسانيين مختصين بعيدا عن السياسة والدين التي عادة ما تربط الدراسة اللغوية بمنطلقات ومسلمات غير موضوعية.

ولما كانت تعليمة اللغة الأمازيغية، تتطلب تطبيقا للسانيات الأمازيغية في ميدان تعليمها، فإن الضرورة تقتضي البدأ بتطوير اللسانيات الأمازيغية بفروعها المختلفة بدأ بالصوتيات الأمازيغية وانتهاء بمعاجمها.

استثمار المنهج اللساني في تصحيح منهج التأصيل للغة الأمازيغية: من الجلي أن اللغات تختلف في بنيتها المقطعية وفي المواقع التي يسمح فيها بأن ترد

الصوامت بأعداد معينة، فاللغة العربية مثلا، لا تسمح بخلو جانبي الحركة معا من الصوامت، في حين تسمح الانجليزية مثلا بذلك في مثل (a, y). كما أنها لا تبدأ بصائت في حين تبدأ الأمازيغية بذلك في مثل (argaz).

ونجد نماذج مقطعية تنتشر في معظم لغات العالم، مثل الشكل (ص+ح)، التي لا تحوي سلاسل من الصوامت على جانبي الصائت، وهو النموذج الأغلب في بنية الكلمات العربية، مثل: فتح دخل خرج... فكلها تحوي ثلاثة مقاطع من النوع (ص+ح). في حين نجد اللغة الأمازيغية مثلا يغلب على كلماتها المقطع المتوسط المغلق والطويل المغلق، مثل: (argaz) (tamettout) (yadj) (Qim) (yerga)...الخ

كما تختلف اللغات في عدد الصوامت التي تسمح بها على جانبي الصائت في المقطع الواحد، فالعربية_مثلا_ لا تستعمل سلاسل الصوامت وتكره التقاء الساكنين، في حين الأمازيغية، تكثر من استخدام سلاسل الصوامت على جانب واحد من المقطع ذاته، وخاصة في نهايته، في مثل نهاية المقطع الصوتي لكلمة (tmart) (ص +ص +ح ط +ص+ ص).

كما تختلف اللغات في أنواع المقاطع فمنها ما يفضل المقاطع المفتوحة (Open)، التي تنتهي بحركة، ومنها ما يفضل المغلقة (Close)، وهو الذي ينتهي بصامت، وتختلف أيضا في طول المقاطع وقصرها.

وهذه الأنواع قد لا نجدها كلها في بعض اللغات، كما يمكن أن نجد أكثر منها في لغات أخرى، فاليابانية تقتصر على القطع القصير المفتوح من الشكل (ص ح)، في حين تستعمل الانجليزية مقاطع أطول في مثل: [Streets] من الشكل (ص ص ص ح ص ص).

إن الاختلافات المقطعية بين اللغات هي التي جعلت الدارسين يرون أن أي دراسة تخص اللغة لا بد لها أن تبدأ بنظامها المقطعي، حتى يسهل لها بعد ذلك دراسة الجوانب اللغوية الأخرى، ومن خلال ذلك تتضح أهمية الدراسة المقطعية

في التأصيل اللساني ومعرفة القرابة اللغوية والعلاقة بين اللغات، لــذلك نقــول إن أول نقطة تظهر من خلالها أهمية الدراسة المقطعية للغات هي أنه "لكل لغــة مــن لغات العالم نظام مقطعي تتميز وتتحدد به"

فاللغة العربية مثلا لا تقبل مقاطع صوتية من الشــكل (ص+ص+ح)، أو مــن الشكل (ص+ص+ح+ص)، أو من الشكل (ص+ص+ح+ص+ص)، في حين تقبلها بعض اللغات، مثل: الأمازيغية في مثل كلمة [Tmart]، بمعنى (لحية)، والانجليزية في قولنا [Sport].

والتركيب المقطعي للكلمة العربية يتكون من مقطع صوتي واحد، إلى خمســة مقاطع، مثل (الشجرة) أما العبارات المركبة مثل: (**أنلزمكموها**) فهي جمل مركبــة وليست كلمات مفردة. في حين تتكون الكلمة الأمازيغية حسب علمنا مــن مقطــع واحد إلى ثلاثة مقاطع، مثل (إتش etch، إق eg، يوذف yudef، يرقا yerga، يرفــذ yerfd، يسرس yessers، يقرورّب yegrureb) (كل، إفعلن دخــل، خــرج، رفــع وضع، تدحرج) على الترتيب.

فمن الضروري النظر إلى البنية المقطعية للغتين وطرح هذا التساؤل العلمــي: لماذا هذا الاختلاف الكبير في البنية الصوتية بين اللغتــين؟ ألا يــدل ذلــك علــى اختلاف أصليهما؟ لماذا يصر بعض الباحثين على أن الأمازيغية بلهجاتها المختلفــة من أصول عربية، ونحن نرى هذا الاختلاف الكبير بين بنيتيهما الصوتيتين؟

أما إذا نظرنا إلى الجانب الصوتي في اللدراسات التأصــيلية الموجــودة فإننــا نجدها لا تخرج عن استخدام الظواهر الصوتية لإثبات عروبة الأمازيغية، كما فعل **الدارودي** الذي ذهب إلى معجم الكلمات المستعملة في بعض اللهجات الأمازيغيــة مقارنا بينها وبين الكلمات العربية، ومحاولا أن يجد ما وقع فيها من إبدال لغــوي وأحصى عمليات الإبدال التي حدثت بين بعض الحروف. متتبعا قائمــة الكلمــات العربية التي دخلت الأمازيغية بسبب الاحتكاك بين اللغتين، ومن خلال هذه كلمــات

طرح فكرة عروبة الأمازيغية، وفي هذه الطريقة من التأصيل خطأ منهجي يجب التنبيه إليه، وهو أن التأصيل لأية لغة كانت لا يكون بالنظر في الدخيل بل بالنظر في الأصيل، فالباحث هنا تناسى قضية الاقتراض والتمزيغ، فلا أحد ينكر أن الأمازيغ بحكم احتكاكهم بالعرب واعتناقهم الاسلام قد تأثروا بلغتهم وأخذوا عنهم الكثير من الألفاظ، وهذا أمر طبيعي جدا في جميع اللغات. فها هي العربية تأخذ من اللغات الأجنبية كلمات مثل الأكسوجين والتلفزيون والكمبيوتر والترامواي والرادار والكاميرا والفيديو ومما لا يحصى من الكلمات.

وهذه الكلمات المتداولة بين ألسنة العرب المعاصريين لا شيء يشير إلى اختلاف أصلها سوى بنيتها الصوتية المقطعية وصيغتها الصرفية. بغض النظر عن إثباتها في المعجم من عدمه.

الأمر ينطبق تماما على ما فعله **عثمان سعدي** في كتابه معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية) الذي ذهب إلى أن أصل كلمة "أرقاز (argaz)" بالأمازيغية هي الركيزة بالعربية، وأن الذي حدث هو إبدال الكاف قاء. في حين أنه أغفل التأنيث الذي حذف في الكلمة والتذكير الذي علامته (a) في بداية الكلمة وهي خاصية من خصائص الكلمة الأمازيغية، تختلف عن علامة التذكير في العربية، بالإضافة إلى أنها كلمة تبدأ بحركة وهو ما لا تقبله العربية.

وكذلك قوله أن ثمطوث من الطمث، وسميت بذلك لأنها تحيض، لمجرد التشابه بين اللفظين، وغفل عن كون الثاء فيها علامة تأنيث زائدة، في حين الثاء في الطمث أصلية، كما تناسى الباحث كلمة هنا كلمة أمازيغية أخرى هي "أمطو" بمعنى الدمعة، فلماذا لا يكون هذا هو الأصل، فهو أكثر تجانسا من ناحية ترتيب الأصوات، ولأنهما من لغة واحدة من جهة، ثم لأن المرأة كائن كثير البكاء من جهة أخرى، فالباحث اختار التعليل الذي يوافق توجهه السياسي وأغراضه الخفية على حساب الحقيقة العلمية والتاريخية.

كما أن لكلمتي "أرقاز" و"ثمطوت" مرادفات أخرى في الأمازيغية، مثل أمتشوك، ثمتشوكث، وهذه أكثر تجانسا من الأولى، وقد تكون هي الأصل. وفي المغرب الأقصى يستخدمون كلمة **ثمغارث** للدلالة على المرأة.

إن الموضوعية العلمية التي دعا إليها دي سوسير في دراسة اللغة تستدعي النظر في بنية اللغة بعيدا عن الخلفيات الدينية والافتراضات المسبقة، حتى لا نقع في مثل هذا التمحل والتمحن في إرجاع الكلمات الأمازيغية إلى أصول عربية، ولا يخفى أن مثل هذا التمحل سببه الأول هو بعد الباحثين الذين أدلو بدلوهما في هذا الموضوع عن مجال التخصص وهو اللسانيات، وسببه الثاني هو الانطلاق من افتراض مسبق بأن الأمازيغية هي لهجة من اللهجات العربية. ولو عدنا إلى أسباب هذا الافتراض وجدناها دينية وسياسية بالدرجة الأولى، إذ إن خوف العرب في الجزائر وفي شمال إفريقيا بصفة عامة من خسارة هذه الأرض التي تجذروا فيها منذ قرون، هذا الخوف الذي زرع في نفوسهم بعد خيبة خسارتهم للأرض الأندلس، جعلهم يستعملون كل الأساليب الممكنة لإثبات عروبة سكان هذه الأرض، وتعريب ألسنتهم للقضاء على أي فكرة محتملة تجعل الأمازيغ يفكرون في ذلك. ولكن الأمانة العلمية تقتضي أن نسجل الحقائق التاريخية كما هي وليس كما يراد لها أن تكون.

استخدام المعجم في التأصيل اللغوي للأمازيغية (دراسة ونقد): إن من يتصفح أعمال الكثير من اللغويين يجدهم يصفونه بأنه خارج النظام اللغوي؛ ذلك أن الوحدات المعجمية تكون مجموع الاستثناءات اللغوية، باعتبار أن الرصيد اللغوي المعجمي يقبل كل التغيرات التي تطرأ عليه، لأسباب لغوية أي داخلية وأخرى نفسية أو اجتماعية أي خارجية، سواء تعلق الأمر بتغير شكل الدوال وبنيتها، أو تغير طبيعة المدلولات وحدودها ومجالاتها، فيما يسمى بالتطور الدلالي.

يقول الدكتور **تمام حسان:** "حقا إن الباب ليس موصدا أمام تصدي الأفراد لارتجال الكلمات للمعاني، ولتحويل الدلالة من معنى إلى آخر، والأفراد يفعلون

ذلك في كل زمان ومكان". ومن هنا تكتسب المكونات المعجمية خاصـية التحـول المستمر، وعدم الثبات، فهي لا تستقر على حال، حيث تسقط وحدات كثيـرة مـن الاستعمال وتتولد وحدات أخرى كثيرة جديدة، لم تعرفها اللغة من قبل.

فقد درج اللغويون المحدثون على التفريق بين المفردات المعجمية، والمفردات القواعدية، على أساس التضاد الاستبدالي ضمن مجموعات مغلقة ومنفتحة للبـدائل ومجموعة أعضاء مثبتة وقليلة العدد، مثل مجموعة الضمائر وصيغ الفعل وجـنس الأسماء... الخ، والمجموعة المنفتحة هي المجموعة التي تتألف من أعضاء غيـر مثبتة وذات قائمة لا متناهية في طولها، مثل صنف الأسماء والأفعال فـي اللغـة وهي التي تسمي الأشياء الموجودة في العالم المحسوس أو المقـدرة فـي العـالم المجرد، في حين تحدد المفردات القواعدية فئة هذه الأشياء.

والمجموعة الأولى يطرأ عليها الكثير من التغير والتبدل، فكثير منهـا يمـوت وكثير منها ينشأ، هذا فيما تحافظ الألفاظ القواعدية على شيء من الثبات؛ فأسـماء الموصول والإشارة وحروف الجر وما شابه قلما تغيرت أو تبدلت عبـر تاريخهـا الطويل.

وإذا أردنا أن نطبق هذه القاعدة على الأمازيغية وجدنا أن أسماء الضمائر وهي قائمة مغلقة وهي (ننتش، شك، شم، كنوي، نهني، نهتي) وهي على الترتيـب (أنـا أنت، أنتِ، أنتم، هم، هن) ليست مأخوذة من العربية، كما أنها تختلف عن العربيـة في كونها لا تحوي المثنى، والمثنى خاصية جوهرية في اللغة العربية.

أليست هذه الخاصية المميزة بينهما كفيلة بقولنا أنهما لستنا من أصل واحد، بـل هي كفيلة بطرح سؤال أخر وهو ألا يمكن أن يكون لذلك علاقة باللغات الأوروبية التي لا تحوي المثنى؟

ثم إذا نظرنا إلى الأطروحات التي قدمها المؤصلون للأمازيغية فـي العربيـة أمثال الجزائري **عثمان سعدي** وجدناها تستند إلى الكلمات التي تمثـل الاخـتلاف

اللهجي، ولا تستند إلى المشترك بين اللغات الأمازيغية، لأن المشترك بين هذه اللغات هو الأصل، ومنه يمكن الانطلاق في التأصيل، وليس من المختلف فيه، لأن المختلف فيه معظمه مقترض.

إذن فاقتراض الأمازيغية من اللغة العربية على مستوى المعجم أمر لا يمكن نكرانه وهو ظاهرة جلية بقدر جلاء الاحتكاك والتعايش الطويل بين اللغتين، إلا أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون دليلا كافيا على أنهما من أصل واحد، فالأمر بحاجة إلى أدلة لسانية أقوى،

وخاصة أن علماء اللغة العربية أنفسهم يرون أنه لا ضير أن يحتوي معجم اللغة أي لفظ مولد أو معرب أو دخيل إذا أخضع اشتقاقه للقواعد القياسية التي وضعها علماء اللغة وفق أسس علمية رائدة، وأن التعريب قد أصبح من أشهر وسائل التوليد في نظرية المعجم. هذا في اللغة العربية لغة القرأن الكريم فما بالك باللغة التي لا يحكمها دستور إلهي ولا دستور بشري، ولا توثقها وثائق ولا تقيدها صحف.

لذلك لا يمكن منع الدخيل والمقترض في اللغة الأمازيغية واستخدام هذه الخاصية لمهاجمتها ونفي وجودها أو إعادة أصولها إلى لغة اقترضت منها.

إن إغفال أو جهل المؤصلين لقوانين اللغة وخصائصها جعلهم يقعون في فوضى واضطراب في تأصيل اللغة الأمازيغية، فهذا **الدارودي** نفسه يذكر التخبط الحاصل بين المؤصلين للأمازيغية في اعتبار بعضهم بعض الكلمات من الدخيل واعتبار الآخرين لها من الأصيل، فمثلا **محمد شفيق** صاحب المعجم العربي الأمازيغي يستبعد لفظة (لفدعت) لكونها عربية، ويدخلها **علي السهلي** في معجمه الخاص باعتبارها أصيلة، ويقبل شفيق (أمولز وانفرك) باعتبارهما أصيلتان، ويثبت الباحث **الدارودي** أنهما عربيتان، ويعتبر بعضهم التطابق بين الكلمات العربية والأمازيغية من قبيل المصادفة، كما يذهب إلى ذلك صاحب قاموس (أوال).

إن التطور الكبير الحاصل في اللغة الأمازيغية لهو أمر عـــادي جـــدا بالنســـبة لعمرها الطويل وظروفها التاريخية والتهميش والحرمان من التدوين والإقصاء من التعليم وحتى الاستعمال اليومي في بعض الأحيان، ومن البديهي أن تهجر كثير من ألفاظها، فاللغة التي تزاحمها على ألسنة متكلميها لغات عالمية وعلمية مثل العربية والفرنسية، من الطبيعي أن يستبدل حرفها بحرف آخر، ونظام حسابها بنظام آخـــر فهذا حكم الاستعمال.

ومن الطبيعي في لغة قديمة كالأمازيغية أن يحدث فيها كل هذا التغير والهجـــر والاقتراض. وهذا لا يغير حقيقة أصلها الذي ما يزال يطرح أسئلة جوابها الصحيح مرهون باستخدام منهج لساني موضوعي ينظر في بنيتها ومشتركها بدل النظر في مقترضها ومختلفها.

منهج تعليم اللغة الأمازيغة:

للتفصيل في هذه الأسس يجب النظر في ما يلي:

- **علاقة اللغة بأركان المثلث التعليمي: يتشكل المثلث الديداكتيكي مـــن ثـــلاث عناصر أساسة: المعلم، المتعلم، والمعرفة، ولكن هذا المثلث لا تكتمل أركانـــه إلا بتحديد العلاقة بين هذه الأركان، هذه العلاقة التي تمثل اللغة الواسطة أو الـــرابط بينها: فيكون لدينا ضمن هذا المثلث مثلث لغوي مطابق له وهو:**

لغة معلم **لغة متعلم**

لغة المادة المعرفية

ومن الأسس اللسانية لبناء المناهج التعليمية تحديد لغة التعليم التي يفتـــرض أن يستخدمها المعلم في التواصل مع المتعلمين وتوصيل المعرفة لهم، لأن المعلم قـــد تختلف لغته اليومية عن اللغة التي يحددها العقد الديداكتيكي وهي لغة التعليم، وهي هنا الفصحى.

كما لا يمكن إغفال لغة المتعلم في بناء المناهج التعليمية، وبيان علاقتها باللغة التعليمية واللغة المتعلمة، إذ قد تكون لغة التعليم مختلفة عن اللغة المتعلمة، وتجدر بنا هاهنا التمييز بين العربية الفصحى ولهجاتها القديمة التي جمعت ودونت في المصنفات والمعاجم، وبين اللغة العربية المعاصرة التي تشبعت بشكل كبير بالمولد والمحدث والمعرب والمقترض، ولهجاتها التي اختلطت بألسنة الأعاجم وابتعدت بشكل كبير عن الفصحى في جميع مستوياتها النحوية والصرفية وحتى الصوتية.

أما لغة المادة المعرفية، فهي الأخرى يجب أن تحدد علاقتها بالمعلم وبالمتعلم فغالب المواد العلمية والمعرفية تأتينا بلغات أجنبية، وخاصة اللغة المتخصصة (المصطلحات)، وهذا يطرح إشكالا على مستوى المفاهيم التي عادة ما تحور أثناء الترجمة، لتصل المعرفة إلى المتعلم مشوهة وخارجة عن سياقاتها ومنطلقاتها المعرفية. وهنا نشير إلى أهمية المعاجم المدرسية والمعاجم المتخصصة.

وبالنظر في تعليمية اللغة الأمازيغة تكون لغة التعليم مختلفة عن لغة المتعلم إذ يستخدم المعلم الفصحى في التعليم والأمازيغية أو الفرنسية في التواصل اليومي...

وهنا يستوجب على بناة المناهج أن يختاروا المنهج الملائم لتعليمية الأمازيغية بالنظر إلى علاقة المتعلم بها. بين: منهج تعليم اللغة الأم (الأولى) ومنهج تعليم اللغة الثانية، والواقع يبين أم معظم مناهجنا تتعامل مع اللغة العربية بالنسبة للأمازيغ باعتبارها اللغة الأم، وهذا غير صحيح.

فقد استفادت التعليميات التطبيقية من تمييز اللسانيين بين تعليم اللغة الأم وتعليم اللغة الثانية، وبيان علاقتهما بالفكر في وضع المناهج اللغوية.

توظيف مرتكزات نظرية اكتساب اللغة الأم في تعليمية اللغة: من أشهر نظريات اكتساب اللغة الأم **النظرية البيئية** "التي تفسر اكتساب اللغة وتعلمها على أنه وليد البيئة والتنشئة الاجتماعية، فالبيئة والعوامل الخارجية هي التي تشكل السلوك اللغوي للإنسان الذي يولد ولديه استعدادات للتعلم.

فاكتساب الإنسان الأمازيغي للغته في البيئة التي يعيش فيها يجعلها أسهل في التعليم بصفتها لغة أما لا لغة ثانية.

دور اللغة الأولى (الأم) في تعلم اللغة الثانية: دلت بعض الدراسات على أن إتقان الفرد للغته الأولى يسهل عليه تعلم اللغة الثانية، لأنه يكسبه خبرة في التعلم بشكل عام، عند تعلم لغة ثانية، لذلك يجب استعمال لغة الطفل الأولى أو اللغة الأم كوسيط في التعلم في السنوات الأولى للدراسة. مع أن بعض اللسانيين المحدثين يرفضون هذا الوسيط في تعلم اللغة، ذلك أنهم يدعون إلى تقريب منهج تعليم اللغة الثانية من الاكتساب اللغوي، وذلك بالتواصل بها مع المتعلمين بالطريقة نفسها التي يتواصلون بها باستعمال اللغة الأولى، لضمان اكتسابها في سياقاتها الوظيفية التواصلية، لأن ما يرسخ اللغة في الذهن هو استعمالها الوظيفي وتداولها الفعلي.

لذلك فإن المدرسة يجب أن "توفر أكبر الحظوظ الذهنية والمادية والاتصالية لإنجاح اكتساب اللغة أو اللغات، فتكون اللغة أداة فكر وتفكير، وأداة اتصال" فالطفل عند تعلمه للغة الثانية في المدرسة يجد نظامه العقلي يتشكل بمفاهيم وقيم تختلف عما ألفه بلغة أمه، فتعلم لغة ثانية إذن يتضمن مهمة مختلفة جدا عن تعلم اللغة الأولى، وهذا ما نادت به بعض النظريات، نذكر منها:

النظرية المعرفية: التي تهتم بالعوامل الداخلية المنظمة، وخاصة دور العمليات المعرفية العقلية في اكتساب اللغة الثانية وتعلمها، ومن المبادئ الأساسية لهذه النظرية: أن تعلم لغة ثانية يعني تعلم المهارة اللازمة لذلك وهذا يتطلب ممارسة جميع جوانب هذه المهارة حتى تصبح متكاملة كأداء لغوي طلق وسليم إلى أن يصبح الأداء آليا.

وهناك إعادة ترتيب وتقويم باستمرار التمثلات الداخلية تتناسب مع تازايد قدرة المتعلم اللغوية حسب ترتيب التمثلات اللغوية حسب سهولتها أو صعوبتها.

تعليمية اللغة الأمازيغية للناطقين بغيرها (الناطقين بالعربية والفرنسية): تعد الأمازيغية بالنسبة للعرب وغيرهم من الناطقين بغيرها لغة أجنبية، وتختلف الغاية في تعليم اللغة للناطقين بغيرها باختلاف الدافع الذي يدفع الدارس إلى التعلم، فقد يكون هذا الدافع ثقافيا أو علميا أو اجتماعيا أو فرديا. وللوصل إلى النجاح في اكساب اللغة الأمازيغية للناطقين بغيرها لا بد من يستوفي العمل التعليمي أركانه وأن يراعى الجوانب النفسية والاجتماعية واللغوية المختلفة، وهذه الأركان هي التلميذ والمعلم والكتاب ولا سبيل إلى الاستغناء عن واحد من هذه الأركان.

ومن النظريات اللسانية التي قدمت فكرة جديدة عن منهج تعليم اللغة الثانية أو تعليم اللغة للناطقين بغيرها، نذكر:

نظرية شرومان: يعتبر شرومان اكتساب اللغة الثانية مظهرا من مظاهر التكيف الثقافي، وأن درجة التكيف الثقافي لمتعلم اللغة تقرر درجة إتقان هذه اللغة، وحسب وجه نظر شرومان اكتساب اللغة الثانية يقررها البعدان النفسي والاجتماعي.

لذلك يفترض أن تقدم اللغة الثانية للمتعلمين مربوطة بسياقاتها الثقافية والاجتماعية التي ترتبط بها كثير من دلالاتها التداولية، لأن اللغة تتغير رمزيتها بتغير العلاقة الوضعية والاصطلاحية، فمثلا قولنا: أثلجت صدري: تقابل العبارة الفرنسية: tu ma chauffai le ceoure

خاتمة:

في الأخير نود أن نسأل جميع المهتمين باللغة الأمازيغية: أليس الأجـدر بنـا كباحثين لسانيين موضوعيين أن ندع الخصائص اللغوية تتحـدث بنفسـها وتثبـت بنفسها اللغات؟

إن أمر اللسانيات الأمازيغية وتعليميتها يحتاج إلى تكوين مختصـين، مـزودين بمختلف النظريات اللسانية من جهة، ومتمكنين من اللغات الأمازيغيـة ولهجاتهـا المختلفة، من جهة ثانية، ومطلعين على العلوم البينية والمساعدة، من جهـة ثالثـة ومتمكنين من بناء المناهج التعليمية من جهة أخرى.

إن التحلي بالموضوعية والابتعاد عن الخلفيات الدينيـة والسياسـية والقوميـة وغيرها من المنطلقات سيقينا ــ لا محالةــ من إطلاق الأحكام القيميـة والذاتيـة والنتائج الموجهة مسبقا هو السبيل الوحيد لتطوير اللسانيات الأمازيغية في الجزائر.

إن الاهتمام بتعليمية اللغة الأمازيغية وتطوير اللسانيات الأمازيغية لا يؤثر سلبا على البلاد، بل هو وجه من وجوه الثراء والتطور الفكري الذي يجـب أن يمـس جميع المجالات والقطاعات دون إقصاء، وهذا من شأنه تحقيق العدالة الاجتماعية.

إن تعليمية اللغة الأمازيغية بحاجة إلى تطوير اللسانيات الأمازيغية وإخراجهـا من السياقات المضللة، وهذا يحتاج بدوره باحثين مسلحين بالمنهج العلمي اللسـاني ويمتلكون الجرأة على قول الحقيقة.

الحق في التنوع الثقافي
في ظل التأكيد على الخصوصيات الثقافية "

أ. نبيلة بن عائشة
جامعة المدية.

مقدمة: يعرف التنوع الثقافي بأنه وجود العديد من الثقافات في مؤسسة معينة أو في مجتمع أو في العالم، أو هو عبارة عن مجموعة من الثقافات المختلفة والمتنوعة ومن أبرز الأمثلة على التنوع الثقافي الثقافات المتجانسة، والثقافة العالمية، وقد تشير إلى وجود العديد من الثقافات المتنوعة والتي تحترم بعضها البعض، ويتم استخدام هذا المصطلح في الكثير من الأحيان في الثقافات المجتمعية، كما أنها من الممكن أن تكون من الأسباب الرئيسية للعولمة، وتختلف الثقافة بشكل تام في الكثير من المجتمعات مثل التقاليد واللباس واللغة، ويوجد العديد من الاختلافات بين المجتمعات في كيفية تنظيم أنفسهم، وتصورهم للأخلاق، بالإضافة إلى كيفية تفاعلها مع البيئة.

وتكمن مظاهر التنوع الثقافي في:

• **اللغة:** تميّزت الحضارات والأمم بلغاتها الخاصة على مرّ العصور والأزمان حيث تعتبر هي الركن الأساسي الذي تقوم الثقافة عليه، كما أنها تعد أحد مظاهر الاختلاف بين الحضارات والأمم، حيث نجد كل أمّة تفتخر وتتباهى بمزايا لغتها بالإضافة إلى أنها تحرص على تعليمها للجميع بشكل دائم، فهي البوابة التي تستخدم للتعرف على جميع الحضارات، والتمازج بين الشعوب في كافة أنحاء الأرض.

• الدين: يعتبر أمر التعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء الأرض من أفضل السبل لتلاحم الشعوب والأمم، بالإضافة إلى التعرف على العديد من الحضارات وعوامل الاختلاف الحضاري.

• العادات والتقاليد: تعتبر على رأس الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم حيث إن الأمم تحرص على توريث جميع عاداتها وتقاليدها.

ويهدف التنوع الثقافي إلى الاعتراف بشرعية جميع الثقافات الموجودة في المجتمع، حيث أنها تمثل جزءً مهمًا من المجتمع والتعرف على عادات الثقافات الأخرى وقيمّها وتقاليدها، بالإضافة إلى إعطاء فرصة تعمل على تحقيق المساواة والحريات بين جميع الثقافات الموجودة داخل المجتمع كسّن القوانين على سبيل المثال، مع وجود الاحترام بين الثقافات المختلفة داخل المجتمع، بالإضافة إلى التحقيق الذاتي للفرد، وتطوّر النقد الذاتي.

ولكن هناك سلبيات التنوع الثقافي لابد من تجنبها للحفاظ على الوحدة الوطنية وهي من الممكن أن يؤدي الصراع الثقافي إلى حرب أهلية عند خلق دستور موحّد وقوانين موحدّة للدولة، وقد يؤدي إلى فوضى وعدم استقرار اجتماعي، أي لا يوجد أية قوانين موحدّة لجميع الثقافات بسبب وجود اختلاف في العادات والقيم كما قد يؤدي إلى تفكيك وحدة المجتمع والنسيج الاجتماعي، مما يؤدي إلى جعل المجتمع كالفسيفساء، ويعود السبب في ذلك إلى أن لكل ثقافة نمط حياة وعادات وتقاليد، دون أن ننسى أنها تساهم في تكوين إطار خاص للثقافة وانغلاقها على نفسها، مما يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك وهو الدولة.

وعليه تهدف المداخلة لتوضيح الأسس الفلسفية والقانونية للحق في التنوع الثقافي والذي يشكل حقا يستحق الإحاطة به وفهمه والدفاع عنه كما لابد الحفاظ عليه وحمايته، خاصة مع تراجع عالمية حقوق الإنسان لتغييبها وإقصائها للحق في التنوع الثقافي واستعمال الخصوصيات الثقافية لانتهاك الحقوق المضمونة في القانون الدولي أو الحدّ منها، كما نتعرض إلى إعادة بروز هذا الحق في ظل ظروف ومتغيرات جديدة من قبيل تصاعد المطالب الهوياتية والحقوق الثقافية، إضافة إلى الاستبعاد

الثقافي لبعض المجموعات وفشل العديد من نماذج التنمية بسبب تهميش واستبعاد البعد الثقافي للتنمية.

ولذا تطرح **الإشكالية** التالية: **كيف يمكن بناء الحق في التنوع الثقافي دون إقصاء عالمية حقوق الإنسان للخصوصيات الثقافية؟.**

المحور الأول: فواعل الحق في التنوع الثقافي.

المحور الثاني: دور التنوع الثقافي في بناء التنمية الإنسانية المستدامة.

وعليه تحليل الموضوع:

المحور الأول: فواعل الحق في التنوع الثقافي:

التنوع الثقافي أو التعددية الثقافية عبارة عن وجود ثقافات مختلفة في العالم أو في مجتمع أو مؤسسة معينة. والتنوع الثقافي هو مجموعة من الثقافات المتنوعة أو المختلفة، بدلاً من الثقافات الأحادية. مثال الثقافة العالمية، أو الثقافات المتجانسة. عبارة التنوع الثقافي يمكن أن تشير أيضا إلى وجود ثقافات مختلفة وكلاً منها يتبادل الاحترام لهذه الاختلافات. وتستخدم في بعض الأحيان عبارة "التنوع الثقافي" بمعنى تنوع المجتمعات البشرية أو الثقافات في منطقة معينة أو في العالم ككل وكثيراً ما يقال أن الثقافات المختلفة تكون سبباً للعولمة وهو أن يكون لها أثر سلبي على التنوع الثقافي في العالم.

وينشأ تعدد الثقافات في ظل الوجود أو القبول، أو التعزيز للتقاليد الثقافية المتعددة ضمن اختصاص واحد، والذي يعتبر عادة نتاج الثقافة المرتبطة بالجماعات العرقية ويمكن أن يحدث هذا التعدد الثقافي عندما يتم إنشاء سلطة قضائية أو توسيعها عن طريق المناطق المدمجة بثقافتين أو أكثر أو عن طريق الهجرة من ولايات مختلفة من جميع أنحاء العالم.(1)

وحتى يتحقق الحق في التنوع الثقافي لابد من تدعيمه من قبل الفرد والدولة والمجتمع:

1- الفرد: في إطار علاقة الفرد بباقي الأفراد الآخرين نجده يشارك ويتفاعل في دعم التنوع الثقافي، فيتفاعل تأثرا وتأثيرا مع ثقافة الآخرين، وسلوك الفرد بالتسامح إزاء قيم الآخرين واحترامهم كما هم (بمكوناتهم الثقافية واللغوية والدينية...) ما يعني الاحترام المتساوي للتنوع الثقافي وبالتالي احترام التعبير عن القناعات، وان لا تستعمل بعض الحقوق على غرار حرية التعبير لضرب الحق في التنوع الثقافي.

وفي هذا الصدد أشير إلى إشكالية مهمة وهي قضية دخول الحق في التنوع الثقافي في نزاع، وهناك تتصارع الحقوق والحريات خاصة حرية الرأي والتعبير والتي قد تنتهك الخصوصيات الثقافية والحريات والمعتقدات الدينية لذلك نجد أن المادة 05 من العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية والمادة 17 من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان تمنع تمتع واستفادة من كل من يدعو إلى الأحقاد والكراهية العنصرية والدينية من حرية التعبير.

كما أن الأفراد المنتمين إلى أقليات – مهما كان شكلها – يشعرون باحترام وتقدير ذواتهم عندما يتم الاعتراف لهم ببعض الحقوق الخاصة التي من شانها إثراء الحق في التنوع الثقافي كاللغة التي يتكلمونها وإدراجها ضمن المناهج التعليمية والمؤسسات الحكومية، وبالتالي يجدون الفرصة متاحة لتعزيز وتقوية ثقافتهم، لان إضعاف ثقافة فرد ما أو جماعة ما هو إلا اعتداء على حقوق أفرادها وكرامتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى يسهم ذلك في جعل الآخرين يحترمون بدورهم هذه الثقافة.

كما أن الفرد كلما استفاد من الحقوق الثقافية ومن الحق في التنوع الثقافي بصورة عامة وانتفع به فسيدخل في علاقات سلمية مع باقي الأفراد والمجتمع مما يسهم في تحقيق السلم والأمن المجتمعيين، كما من شأن ذلك تقوية ثقة الأفراد في نفوسهم وفي مجتمعهم ونظرتهم نظرة ايجابية إلى ثقافتهم.

وكلما أشبعت الحاجات الثقافية وتمتع الفرد بحقه في التنوع الثقافي ومتى توفرت البيئة المساعدة على ممارسته فان شرعية الدولة التي لا تمارس أي إقصاء أو

تهميش إزاء فرد أو جماعة ما (أي ثقافة ما) تزداد، بل وتزداد معها ثقة الفـــرد فـــي دولته وفي مؤسساتها وتحقيق العلاقة السلمية مع الدولة وبالتالي يكون للأفراد بمنـــأى عن كل مظاهر التعصب والتطرف والانغلاق على الذات، ويكون مـــن شـــان ذلـــك تقوية الانفتاح على الثقافات الأخرى، لان الاستبعاد السياسي أو الاقتصـــادي إذا مـــا اقترن بالبعد السوسيو ثقافي يعتبر من أهم مغذيات العنـــف والتعصـــب والإرهـــاب والتطرف وضرب استقرار الدول وأمنها.

2- الدولة: إن دور الدولة يشهد تراجعا على المستويين الداخلي والـــدولي ســـواء في وضع المعايير القانونية من الناحية الوظيفية، وذلك لظهور فواعل أخرى محليـــة وأخرى فوق وطنية تنافسها في وضع وصياغة القواعد القانونية، والمقصود بالدولـــة كمستوى لدعم الحق في التنوع الثقافي ليس تلك الدولة المتجانسة ثقافيا بـــل الدولـــة المتعددة ثقافيا أو على الأقل التي تعترف بالتنوع الثقافي ووجود جماعـــات متنوعـــة فوق إقليمها، بل تسعى إلى تأطيره وماسسته، فالتنوع أصبح ميزة المجتمعات الحديثة والدول على حد سواء، وبالتالي يقع على هذه الدول توفير البيئـــة الملائمـــة لتمكـــين الأفراد ومختلف المجموعات من ثقافتها ودعم مشاركتها في الحياة الثقافية من جهـــة وفي الحياة العامة، فالدولة بفعل تراجع التجانس الثقافي وازدهار التنوع الثقافي، ومن جهة أخرى تحقيق التعايش الثقافي بين هذه المجموعات مـــن اجـــل تحقيـــق الســـلم وضمان استقرار الدول.

وعلى ضوء هذا يمكن القول أن دور الدولة في دعم الحق فـــي التنـــوع الثقـــافي يكون عبر ثلاثة وسائل أو إجراءات تتمثل في الاعتراف، الاحترام، الحماية وكـــذلك عملية التفعيل الذي لا يقع عليها حصريا بل تشاركها في ذلك فواعل أخرى.(2)

وتجدر الإشارة إلى أن الفلسفة السياسية الغربية لم تكن مهتمة بالنظر في العلاقـــة بين الدولة والتنوع الثقافي، فقد اثبت التاريخ أن هذه المجتمعـــات الغربيـــة متعـــددة الاختصاصات وان المدن الأثينية أو الاسبارتية في حد ذاتها لم تكن تخضـــع لمبـــدأ

التجانس الثقافي، كما أن الأفراد يشتركون داخل النموذج المثالي للمدينة فـي اللغـة والتاريخ والثقافة وفي جملة الممارسات وان كانوا منتمين إلى نظام سياسي متعدد من الناحية الأثينية، الثقافية، اللغوية، وهو ما عبر عنـه كـل مـن أرسـطو وروسـو وماركس، لذلك فان المنظرين للمسالة السياسية لم يتمكنوا من الإمساك بفهم واضـح للتفاصيل الداخلية المعقدة التي تربط الجانب السياسي بمسالة التنوع الثقـافي، ولعـل سبب التأخر في التنظير لمفهوم التنوع الثقافي راجعـة إلـى رد فكـرة " التنـوع " بالصراع بناءا على انه حيثما حل التنوع يحل الصراع، وقد عالج ماكس فيبـر هـذا الأمر عندما ذكر أن " مسالة التعدد " تحيل على " تعدد القيم " إلى الحدّ الذي يستحيل معه إجراء مصالحة بين وجهات النظر الأخلاقية التي تنتمي إلى سـياقات مختلفـة ويقارن ماكس فيبر تعدد سياقات القيم بتعدد الآلهة التي كانت تعبد قديما، فلكـل الـه طقوسه، فلا يمكن للآلهة أن تتقمص ادوار بعضها بعضا، فهـل يمكـن الاعتـراف بالتعدد الثقافي في غياب تدخل الدولة ؟.[(3)]

3- **المجتمع:** يعد المجتمع الإطار الأشمل الذي يحوي البشر وينظم العلاقة فيمـا بينهم في إطار اقتصادي واجتماعي محدد، وهو يتطور مـن خـلال علاقـة فئاتـه ببعضها البعض، لذلك يلعب دورا هاما في دعم الحق في التنوع الثقـافي لأنـه هـو الإطار الذي تمارس فيه مختلف الثقافات، وعلى هذا الأخير أن يوفر المناخ المناسب لاحترام الاختلافات والتباينات، فهو يخلق الظروف المساعدة لتمتـع الأفـراد بهـذا الحق، فلا ينظر بنظرة مريبة إلى أفراد الأقليات أو المهاجرين مثلا، ولا النظر إليهم بازدراء باعتبارهم خارجين أو غرباء عن الثقافة السائدة في المجتمع، بل يقع عليـه إدماج هؤلاء الأفراد والجماعات في الحياة العامة، دونما السعي لتذويب ثقـافتهم وأن ينظر إلى ثقافتهم كجزء من ثقافة هذا المجتمع بصفة عامة.

كما يلعب المجتمع المدني دوره في دعم الحق في التنوع الثقافي من خلال مقومه الجوهري المتمثل في قبول التنوع والاختلاف بين الذات والآخـرين، كـذلك علـى

المجتمع أن يشجع إزاء كل ما هو مختلف وأن يقبل به كما هو وأن يحتويه ويحـــاول دمجه دون محاولة تذويبه فيكون منفتحا على جميع الهويات يؤمن بالتعددية وبفكـــرة أن الهوية مشروع مفتوح باعتباره بناءا اجتماعيا ديناميكيا وليس نظاما مكتملا.

كذلك على المجتمع أن يؤمن بان التنوع الثقافي هو عامل قوة داخل الثقافة إذا مـــا تمت رعايته وحافظت كل مجموعة على مقومات ثقافتها مع المساواة فـــي الحقـــوق السياسية والمدنية وعدم التعرض إلى التمييز بسبب الانتماءات الثقافية أو الدينيـــة أو العرقية...

كما يلعب دوره في دحض الخطابات المحرضة وكره الأجانب والعنصرية، فكلما استهجنها وتلقاها تلق سلبي فسيتناقض أثرها وحدتها، كذلك من خلال بعض الأحكـــام النمطية المسبقة عن الأخر، إضافة إلـــى دوره الوقـــائي والإســـتباقي فـــي تفـــادي الصراعات والتوترات في الهوية التي تعتبر من أسباب الحروب والإرهاب.

كذلك تساهم الوكالات الدولية المتخصصة كاليونيسكو(4) وما تلعبه من دور كبيـــر في ذلك من خلال المؤتمرات والندوات والبحوث والاســـتراتيجيات التـــي تضـــعها وتحضيرها لبرامج العمل ومواثيق وإعلانات ومبادرات تصب كلها في خانة ترقيـــة الحق في التنوع الثقافي وتعزيزه ومنظمات غير حكومية تعنى بـــذات الشـــأن مثـــل الشبكة الدولية للسياسات الثقافية.(5)

المحور الثاني: دور التنوع الثقافي في بناء التنمية الإنسانية المستدامة:

تشهد المجتمعات المعاصرة تحديات وتحوّلات في الخطاب الثقافي، أصبح إشكاليا في زمن متغيّر، حيث انهارت الكثير من الإيديولوجيات والأفكار والنظم، وســـيطرت المعرفة العلمية على الطبيعة وأحدثت طفرات معرفية في علوم الإنسان والتي انبثقت عليها قراءات جديدة للحداثة وحملها لشعارات العقل والحرية والتقدم، ومما زاد الأمر حدة بروز الثورات العلمية والتقنية والمعلوماتية أدخلتنا معها فـــي طـــور حضـــاري جديد، ولعل أحد أهم ملامح أزمة الخطاب الثقافي المعاصر تكمن في محاولة التعرف

على عناصر ومكوّنات ثقافة العولمة وما تنطوي عليه من قضـــايا الثقافـــة الوطنيـــة والهوية الحضارية، والخصوصية القومية، وتعدد الثقافات، والعنصـــرية، والأقليـــات والهجرة".

يتجدد كل مرة الإشكال الثقافي نتيجة لتصادم القطبين يتمثل الأول فـــي الالتـــزام الغربي بمقتضيات الكونية الناتجة عن مسار تَوَحُّد البشرية واقتران مصـــائر أبنائهـــا من خلال ثورة الإعلام والاتصال والاندماج في الاقتصاد العالمي. وينعكس الثـــاني في الإقرار ألقيمي والمعياري بحق الثقافات في الاختلاف والتمايز وتماثلها من حيث القيمة والمشروعية.

ومما يزيد الأمر تعقيدا أنّ الثقافة الكونية، غزت الكرة الأرضية نتيجة لاقتصـــاد متطور والاتصال متميز برغم من تعدد الثقافات الوطنية والمحلية.

إن التنوع الثقافي حقيقة وواقع يشهد على الكثير من الثقافات المتنوعة والمتميـــزة التي يشهدها عالمنا، وتختلف الجزائر عن العالم الأخر في تنوعها الثقـــافي المتبلـــور من الآلاف السنين، إلا أنها تأثرت بالثقافة الكونية العولمة في ظل الحداثة وتبلـــورت لدى مجتمعها مجموعة من الثنائيات تعكس الأولى المحلي والثانية العالمي، ويمكـــن أن نختصرهم في "التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود والتحرر، الرجعيـــة والتقدمية، الأنا والأخر، المحلي والعالمي".

إشارةً إلى أهمية التنوع الثقافي في الجزائر، تساهم هذه السياسة الثقافية في ترقية وتثمين كل عنصر ثقافي يعمل على التعريف بالهويّة الوطنية بكل عناصرها، يجـــب أن يعاش التنوّع الثقافي كعامل جمع بين مختلف الفئات المكوّنة للمجتمع الجزائـــري ضمن هذه النظرة تسعى هذه السياسة الثقافية من أجل تحسين وحدة التنوع الثقافي.(6)

وتعدّ الثقافة ركيزة من ركائز التنمية وهو ما يستوجب أن تحترم نمـــاذج التنميـــة خصوصية وهوية المجتمعات وأن تحترم ثقافة الأفراد وأن يتعدى التمكين الحقـــوقي ليشمل كل الفئات الهشة ويمتد إلى الأقليات والمهـــاجرين والشـــعوب الأصـــلية، لان

التنمية تتم بالناس ومن اجلهم وهو ما يقتضي ضرورة إشراكهم في صنع القرار ومختلف المسارات التي تهم حياتهم، وتبرز هنا بشكل خاص أهمية منظمات المجتمع المدني وإمكانية المحاسبة والتعديل عند الضرورة، كما أن تحسين ظروف المجتمع يجب أن يحافظ على القيم الاجتماعية وإنتاج قيم جديدة وأن يوسع من حرية الفرد ليتمكن من التعبير عن مكنوناته وإتاحة فرص الاتصال والتطلع إلى فضاءات جديدة.

ومن خلال العدالة والاستدامة يمكن تهيئة الظروف لتمكين الجيل الحالي الالتزام بحفظ التراث المادي والتراث غير المادي وحفظ كل مكونات التنوع الثقافي.

وتهدف التنمية إلى تعزيز الحرية الثقافية لان حرية الفرد في اختيار نمط وأسلوب حياته هو إقرار بالتنوع الثقافي ذاته، في حين أن محاولة تنميط الأشخاص وطمس معتقداتهم وهوياتهم وتبايناتهم الثقافية مآله قمع الحريات بالضرورة، كما تلعب الحرية الثقافية دورها المركزي في تمكين الأشخاص من العيش كما يرغبون وهذا العيش لابد له من مؤسسات وسياسات تحققه.

وقد أكد إعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية لسنة 1982 على الدور المركزي الذي تلعبه الثقافة في تحقيق التنمية واعتبر أن التنمية بدون ثقافة هي كالجسد بدون روح، وان مفهوم التنمية يجب أن يمتد لتحقيق الارتقاء بالأذواق من جهة، ومن جهة أخرى أكد على ضرورة القيم والمعتقدات (لب وجوهر التنوع الثقافي) لتسترشد بها استراتجيات التنمية وأن العامل الرئيسي لنجاحها هو تواءمها وموافقتها له، فالحرية الثقافية تنمح فرصة الاختيار المتوفرة أو الممكن توفرها للناس لقيادة نوع من الحياة التي يعطونها قيمة، وهو ما أعاد التأكيد عليه التقرير النهائي للمؤتمر الدولي الحكومي بشان السياسات الثقافية المنعقد بستوكهولم عام 1998.[(7)]

وعليه فالالتقاء الرئيسي بين الثقافة والتنمية هي الحرية الثقافية التي يجب أن تعمل التنمية على توسيعها، وأن أحسن مقاربة للتنمية هي المقاربة الشاملة التي تأخذ المكون الثقافي والجانب القيمي محل اعتبار وتؤمن بالتنوع الثقافي وحق الإنسان

بالتمتع بثقافته الخاصة وبالتمتع بثقافة الآخرين في الوقت ذاته كلما أراد ذلك وتــوفر المناخ الملائم لتحقيق العيش المشترك وتقضي على أسباب الاضطرابات والتــوترات والإقصاء الثقافي الذي يغذي كل أشكال العنف والتطرف وتمتد آثاره الســلبية علــى المديين المتوسط والبعيد، وهذه المقاربة التنموية لن تكون من صنع وإعــداد الــدول وحدها بل يجب إشراك جميع الفاعلين فيها، خاصة المجتمع المدني الذي يكون أدرى بما يتناسب وقيم المجتمعات وزيادة مشتركة المواطنين لان التنمية تتم بالناس ومــن اجلهم، حتى لا يبقوا مجرد متلقين سلبيين لثمار البــرامج التنمويــة فهــم ملزمــون بالمشاركة في تشكيل هذه المسارات.(8)

خاتمة: وفي الأخير يمكن القول أن التنوع الثقافي كما جــاء فــي العديــد مــن الإعلانات والمواثيق الدولية هو التراث المشترك للإنسانية الواجب الحفاظ عليه، وأن اندثار أي ثقافة أو لغة هو زوال لنمط من أنماط الحياة وفي حفظــه حفــظ لحقــوق الإنسان وحقه في الاختلاف وحق الشعوب في هويتها الثقافية خاصة في ظل العولمة التي أعادت النظر في العديد من المفاهيم والمسارات والتصــورات وســاهمت فــي ضياع ذات الإنسان وهويته وثقافته بحكم:

- إلغاء الاختلافات الثقافية والحضارية من خــلال عمليــة التنمــيط والتوحيــد والتجانس الثقافي.
- تماثل البشرية وانتفاء الاختلاف منها وفق ما هو مخطط له في اســتراتيجيات الهيمنة.

ولهذا فان التنوع الثقافي أصبح يشكل مسألة ذات أولوية لابد من إعادة التفكيــر فيه وتنظيمه، واحترام الحق في الاختلاف هو الحق في التنــوع الثقــافي، لان ذلــك يعزز في القيم الديمقراطية وحرية التعبير والحريات العامة ومن حــق أي شــخص الانتماء إلى ثقافة ما وبالتالي تدعيم الحرية الثقافية في ظل التنوع الثقافي، خاصة انه

لا وجود لصراع ثقافات إنما هناك تجاهل لثقافة على حساب ثقافة أخرى من خلال فرض قيمها.

وعليه لابد من:

- تقنين الحق في التنوع الثقافي والاعتراف به.

- ضرورة خلق بيئة تمكينية لصالح الفئات التي تعبر عن التنوع الثقافي وتعاني من التهميش والاستبعاد.

- إشراك جميع الفواعل من مختلف الانتماءات من اجل تكثيف وتنسيق الجهود والبحث عن حلول لربط شرعية مطالب الوحدة السياسية في التنوع الثقافي وذلك من تطوير احساس مشترك بالانتماء مع احترام شرعية الاختلافات الثقافية وتعزيز الهويات الثقافية المتعددة دون إضعاف الهوية الوطنية المشتركة.

قائمة المراجع:

1- www.wikipedia.org

2- زراري حبيبة: الحق في التنوع الثقافي، مذكرة ماجستير حقوق جامعة سطيف، للسنة الجامعية 2014/2013، ص 62.

3- فوزية ضيف الله: الدولة والتعددية الثقافية، مجلة مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث للنشر، المغرب، سنة 2015، ص 06.

4- تقرير اليونسكو العالمي، (2001)، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات.

-http://www.wipo.int/export/sites/www/tk/en/publications/1023.pdf

5- زراري حبيبة: المرجع السابق، ص 64.

6-http://histoire.maktoobblog.com, consulter le 11/10/2014

7- التقرير النهائي للمؤتمر الحكومي للسياسات الثقافية، ستوكهولم أفريل 1998، وثيقة رقم cld 210/19،conf/98-clt.

8- زراري حبيبة: المرجع السابق، ص 82.

استراتيجية الحوار في ظل التنوع الثقافي

أ. عثمان بيدي

جامعة الجزائر 2

سنة التنوع الثقافي: إنّ منطق الحياة يبدأ بالتّنوع والاختلاف لينتهي اليهما، ذلك أنّ التّعدّدية تظل أصلا للأشياء، وجزءا من حكمة نظام الكون، الذي أعدّه إله واحد ثم قضى بانعدام الوحدانية إلاّ له – سبحانه– فهو تعدّد وتنوّع بتعدّد الموجودات وظلّ التّنوع المدخل الطبيعي لمسيرة الكون "وبقي الاختلاف أصلا للحوار ومدخلا الى تقدير الاخر، وتعزيزا لمستويات الصراع وأطرافه، ذلك الصراع الذي ظل حاكما لمقاصد الحياة البشرية على مدار حركة التاريخ"[1] وهو مطروح أصلا من منظور الاختلاف والتّنوع منذ صراع الخير والشر في مقتل هابيل على يد أخيه قابيل، ومن هنا تبدو ثقافة الاختلاف دافعا قويا لاحترام سنة الوجود وضامنا مهما لسيرورته، فالاختلاف إذاً قوة للبشرية لا ضعف، وهذا يتوجب قبول التّعددية والاختلاف بعيدا عن المصادرة الفكرية على منطق الاخر.

ولا يعد التّنوع الثقافي ظاهرة العصر بقدر ماهي إشكاليته أيضا، وهي ظاهرة كوّنت التاريخ الثقافي وأنتجته "حين برز دور الذات وقدرتها على انتاج المعرفة ومن ثمة الحكم على الآخر بكونه لا يصل الى مستوى التوازي مع الذات، أو حتى أحقية الاختلاف أو التعدد معها" [2]، فالهوة بين الذات والآخر حاصلة، والحوار الناجح يعمل على ردمها.

وقد ذهب "باتريك سافيدان" Savidan Patric إلى أنّ التّنوع الثقافي هو ركيزة المجتمع الليبرالي، لذلك من التناقض الدعوة الى الليبرالية في المجتمعات الغربية مع نية رفض الآخر؛ حيث حاول إيجاد جميع الوضعيات التي قد تكون عليها الحريات الفردية والاثنية ضمن الحريات الجماعية، ودرس سبل التّعايش والتنوع بوضع سبل

لكيفية استيعاب الاختلاف الثقافي عن حق في عالم تسوده العولمة، وأن لا تقــع فــي التناقض بين إقرارها للحريات الفردية وبين تهميشها للثقافات الاثنية، وثقافات الأقليــة التي يحملها الافراد والجماعات داخل المجتمعات الليبيرالية، لذلك يجب إيجاد نموذج عام للتبادل الثقافي في اطار تعددية ثقافية دون تمايز لثقافة عن أخرى، لأنّ التّعدديــة الثقافية معطى تاريخي وطبيعي لسيرورة التاريخ[3]، فلا استمرارية دون تعدد، فالتعدد اثراء للثقافة وعنوان البقاء.

مفهوم الحوار وأهميته: إنّ التّواصل وتعايش الناس مــع بعضــهم قــائم علــى الوسائط والوسائل، ويعد الحوار أهمها، فالحوار سلوك إنســاني ضــروري للحيــاة الإنسانية؛ لأنّ الله خلق الناس مختلفين في ألسنتهم وألوانهم وشعوبهم وقبائلهم، وجعل ذلك آية[4]، والهدف من الاختلاف هو التعارف[5]، وقد بيّن "طه عبد الرحمن" حاجــة الانسان إلى الحوار، فقال:"...فلولا حاجة الانسان إلى الحوار ما كان ثمّة كلام، ثــمّ إنّه لا حوار بغير اجتماع، ولا اجتماع بغير أخلاق، ولا أخلاق اجتماعية بغير الأخذ بمبدأ المسؤولية"[6].

ويشكل الحوار هذه الشبكة التي تتبني عليها حياة الانسان، فهو شرط لوجود هــذه العناصر ومشروط بها، وهو سمة إنسانية نبيلة، تتجلى بالألفة والمودة، وبالتعــارف الذي يفضي الى شراكة تتواءم فيها آليات الحياة وتتجاور.

فالحوار هو البحث بنسق حضاري يضمن التعايش في إطــار الأفــق المتنــوع المؤيد بتكافؤ معرفي وسلوكي يحضر فيه الطرفان بصيغة المساواة لا بصيغة الأدنى والأعلى، والمساواة شرط أساسي؛ لأنّ الحوار هنا محكوم بمتغيّرات القــرن الجديــد الذي لا يعني أنّ تحاور الآخر لتقنعه بتقمص عوالمك الخاصة؛ لأنّ كل واحــد مــن طرفي الحوار له جهازه المعرفي ومنطقه في تقدير الأمور.

إنّ الحوار بين الثقافات تقليد قديم، وقد عُرف بأنّه الالتقاء حول النقاط المشــتركة وتوسيعها وتعميقها، والتقريب بين نقاط الاختلاف بحثا عن المواءمة والحيلولــة دون

أن تكون نقاط الخلاف عقبة في سبيل التّفاهم المشترك، وهذا يقضي بأنّ يفضي الحوار الى تحديد الأهداف المشتركة ومؤسساتها ومجالاتها وبرامجها وأجهزتها التنفيذية التي تقوم على أوجه النشاط ومتابعتها وتقويمها؛ بحيث يكون هناك نظام دائم ومستقر وللجامعات ومراكز البحوث دور جوهري لتحقيق اهداف الحوار[7] هذا في المجال الثقافي خاصة وقد يتوسع ليشمل مجالات أخرى.

فالحوار قبل كل شيء هو موقف لشخص معين في علاقته مع الآخر، هذا الموقف يستوجب معرفة الذات أولا حتى يتمكن هذا الطرف من القيام بكل ادواره أمام تعقد العلاقات الإنسانية، هذا الموقف مرادف كذلك للاستعداد أو القابلية للإصغاء أو تقبل الاخر، وذلك بالاستماع المتبادل بين الطرفين، والذي يفضي في آخر العملية الى تبادل المواقف والآراء فيما بين الأطراف المتحدثة، والانفتاح على الآخر وافهامه والتعلم منه اذا ظهر أنّ وجهة نظره الخاصة تحتاج الى تعديل أو تعميق فالحوار المتّزن الجاد هو الذي يسعى فيه المتحاورون إلى الوصول إلى حقيقة عامة يتفقون عليها.

أسس الحوار: إنّ الحوار المجدي والنافع لابدّ له من أسس ومبادئ يقوم عليها ويستند إليها، بعضها يتصل بالبيئة والمحيط العام، وبعضها يتصل بخصوصية المتحاورين وطبيعة مؤهلاتهم وامكاناتهم الفكرية نجملها فيما يأتي[8]:

1- **العقل:** إنّ العقل أساس كلّ حوار وأداته في التعبير والتوصيل والبحث والاقناع، فهو وحده وسيلة البرهان والإقناع

2- **الحرية:** تعدّ الحرية على اختلافها ولا سيما الفكرية والتعبيرية منها الصق بوجود الانسان وكينونته وماهيته، إنّه والحرية وجدا في نسيج واحد، وهي ترتبط بقيم الإرادة والقدرة على الاختيار والاستعداد لقبول المسؤولية، واحترام حقوق الإنسان فلا حوار بدون حرية

3- **الديمقراطيـــة:** إنّ الديمقراطية نظرية وممارسة، أصبحت أحد الموضـــوعات الهامة الداخلة في صميم الحوار الثقافي، ويشهد على ذلك نمـــوّ وتصـــاعد الجهـــود الفكرية في مختلف القارات في مجال تأصيل نظرية الديمقراطية، وإبـــراز أنماطهـــا المتعدّدة وتحليل إشكالياتها، والتصدي بإيجابية لتذليل العقبات امـــام تطورهـــا ...وإذا أضفنا إلى هذه الحركة الفكرية العالمية الجهود العملية في كثيـــر مـــن المجتمعـــات لإحياء تقاليد المجتمع المدني، حيث نشأت جمعيات تطوعية متعدّدة تهتم بالديمقراطية وتدعيم حقوق الانسان، والاسهام الشعبي في التنمية البشرية، لأدركنا أننا في خضـــم الموجة الثالثة للديمقراطيـــة كمـــا عبّـــر عنهـــا "صـــموئيل هنتنجتـــون" Samuel Huntington[9]

4ـــ- **المعرفة:** وهي العلم والثقافة والوعي والادراك، فالتســـلح بهـــذه العناصـــر يعصم من كلّ ما ليس له علاقة بالعلم مثل الأيديولوجيا والذاتية،" فالمعرفة الصحيحة الحقيقية بموضوعات الحوار واساليبه قوة تواجه الاستعلاء عند الفريق الاخر الـــذي قد يبدأ مستعليا في المراحل الأولى من الحوار ثم لا يلبث ان يســـلّم بقـــوة المعرفـــة والمنطق والحجة عند الفريق الآخر"[10]، وقد لخص أحد الدارسين شروط مـــا اســـماه بالخاص المعرفي في الحوار نذكر منها: قراءة الأفكار والمعـــارف والموضـــوعات المطروحة في موائد الحوار قبل الدخول في عالمها قراءة سليمة يتولاها اهل الفكـــر الّذين تزوّدوا بحصانة الذات التي تؤهلهم لتطبيق منهج سليم.

وحضور السؤال المعرفي الدقيق المتعلق بمدى مـــا نتلقـــاه مـــن الآخـــر مـــن موضوعات تؤسس للحوار، ومعرفة ما علاقة الموضـــوعات بقضـــايانا المصـــيرية الآنية، وهل يمكن لهذه الموضوعات ان تجعلنا حاضـــرين فـــي منتـــديات الحـــوار بخصوصياتنا المعرفية"[11]

5- **التعددية:** إنّ الحقيقة لها زوايا متعددة يقع الاختلاف فيها، ولعلّ هذا العنصـــر أكثر أهمية للحوار من العناصر الأخرى، وإذا تأسس الحوار علـــى هـــذه المبـــادئ

يضمن النجاح ويتيح للمتحاورين بناء مساحة مشتركة يجد طرفا الحوار جواً من الثقة والأمان لا يقصي فيها أحد الطرفين الآخر، ولا يتحوّل الحوار الى صدام بينهما[12]

وهذه الأسس الخمسة في تصالحها وتكاملها تشكل الأسس النوعية للحوار بها يــتم يستقيم.

شروط الحوار: يبدأ المنطلق الثقافي الآمن من درجــة الانفتــاح علــى الآخــر واحترام الرأي المخالف، وفتح قنوات مشتركة للحوار أخــذا وعطــاء بعيــدا عــن التّعصب والانغلاق، ولا شك أنّ العلاقة بين الذات والأخر تكتنفها التباسات ما دامت النوايا مضمرة، والإرادات غير محددة المعالم، فتتعامل الذات مع ما تصطنعه حــول الآخر في خيالها وليس كما يتبدى في حقيقته الواقعية، ولا تتوضح صــورة الآخــر للذات إلا عندما تتعرف عليه، ولهذا فالتعارف هو السبيل الأمثــل لتبديــد المخــاوف القائمة بينهما وإبعاد فكرة الهيمنة عندهما

واعتماد "الحوار سمة العالمين الذين يريدون أنّ يمسكوا دوما بالأســباب الســليمة التي تمكّنهم من التّعامل مع الذات أولا ومع الآخر في إطار التعامل الإيجابي الــذي يضمن ديمومة الحياة كما يوفر الاتجاه نحو المستقبل فــي ظــل حركــة حضــارية عالمية"[13]

إنّ للطرفين المتحاورين حاجة الى بعضهما، فالذات في حاجة عضوية ووجوديــة إلى الآخر، والآخر وهو ذات في الوقت نفسه محتاج الى الآخر الذي هــو ذات فــي الوقت نفسه، فالذات هي ذات في طرف وهي آخر في طرف آخر، والمفــروض أنّ تزن نفسها بميزانها وبميزان الآخر، وتزن الآخر بميزانها وبميزانه فتقترب بذلك من الآخر، وبهذا يظفر طرفا الحوار بصورة أقرب الى الحقيقة، ويفترض الحوار دائمــا طرفين الأنّا والآخر، وأي فهم له يتوقف على فهم الذات، ومعرفة الطــرف الآخــر الذي تقتضي بداية الاعتراف به أن يكون له رأي يقنع به الاخرين.

فالحوار يعني تبادل المتحاورين من الحضـــارات المختلفـــة الأفكـــار والحقـــائق والمعلومات التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، "تبيّن ما قـــد يكون بينهما من تلاق او اختلاف مع احتفاظ كلّ طرف بمعتقداتـــه فـــي جـــو مـــن الاحترام المتبادل والمعاملة بالتي هي احسن بعيدا عن نـــوازع التشـــكيك ومقاصـــد التجريح بل ما يرجى منه هو إشاعة المودة وروح المسالمة والتفاهم فيما يقـــع فيـــه التوافق العام من اعمال النفع العام للبشرية"[14].

ولا بد للحوار أنّ ينطلق من استعداد كلّ حضارة لفهم الحضارة الأخرى، وتجنب إصدار الأحكام المسبقة عليها " والاتفاق على إعادة صياغة صورة للآخر في إطـــار التّفهم والتّسامح والرّغبة في بلورة قيم إنسانية لإحداث التفاعل الحضـــاري، وعليـــه يجب الخروج من النظرة الاغترابية للآخر الحضاري، والبدء بحوار قائم على نظرة استيعابية لمكوناته وقيمه الحضارية"[15].

كما تشترط الندية في الحوار، ولا شك أنّها تنتزع ولا تمنح؛ لأنّها تعتمـــد علـــى قدرة المحاور على عرض وجهة نظره المبنية على متابعـــة أدق تفاصـــيل خريطـــة المعرفة في العالم، وفهم عميق لطبيعة التغيرات، وكذلك فهم عميق لـــراهن واقعـــه ولتراثه، فاذا التقى هذا المحاور (الأنا) بالطرف المحـــاور الثـــاني(الآخر) قـــدمّ لـــه الصورة الحقيقية التي تجعله يعترف بأنّه ند كامل النّديـــة[16]، وهـــذا يســـاعدنا علـــى مجاراة الآخر بأدوات متقاربة أساسها صحة المنهج ووضـــوح الرؤيـــة والتخطـــيط الدقيق مع المرونة والاعتدال والتوازن واحترام المشترك الإنساني[17]. وبهـــذا نظفـــر بالحوار المتكافئ بين الندين بعيدا عن الاستعلاء أو الاحتقار ومصادرة الحقيقة التـــي تؤدي إلى اقصاء الآخر المشارك في صنع الحقيقة، وبمنأى عن التبـــاهي بالماضـــي ونحاول تحقيق التّوازي والتّوازن مع الآخر حتى نستطيع أن نحاوره بمنطق النديـــة بدلا من حالة الاستجداء أمام غياب معرفتنا بأسرار المنتج الثقـــافي بســـبب انعـــدام المعرفة الواعية له.

والحوار يجب أن يتأسس بأسئلة دقيقة تراعي ماهية الحوار والمحاور، كما تستحضر الأسس السليمة للمستويات المرجعية والمعرفية التي يملكها المتحاورون وفوق هذا فإنّ شرط الحوار الأكبر أن نعرف بدقة علمية ماهية الحضارة نفسها التي نضعها في واجهة الحوار،"[18] فإذا كان موضوح الحوار مثلا الحضارة الصينية وجب علينا معرفتها معرفة دقيقة حتى تسهل علينا الإفادة منها.

كما يشترط الاستعمال الإيجابي للحوار للتقريب بين المتحاورين دون وجود ضغط أو مساومة أو فرض لرأي ما بالقوة، فالحوار يرتكز على معرفة الآخرين واعتبارهم طرفا في العملية التحاورية والالتزام باحترامهم.

ونعمل على البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني لاتخاذها مدخلا لتخطي الخلافات بين الأنا والآخر؛ والاتفاق على "صناعة الجسر الثقافي الذي يسهم في تأكيد التثاقف والتواصل والتأخي بين كل ثقافات بني الانسان"[19]

ومن شروط الحوار أيضا عدم عزل الآخر وإقصائه جغرافيا أو عرقيا أو عقليا كاعتبار الغربيين أنّ عقول الشرقيين أدنى مرتبة من عقول الغربيين، فقد قال "رينه دوبرو" Rene Dubro في هذا الإطار: "إنّ الرجل الغربي يميل الى اعتبار نفسه أرفع من باقي المخلوقات وغير ذي صلة بها"[20] وهذا ما يفسّر فكرة المركزية عند الغربيين[21]

إنّ الشيء الأساسي في العلاقة مع الآخر يقوم على رفض الاحكام المسبقة؛ "لأنّ هذه الاحكام التي تتشكل عامة من عقد تاريخية وتجارب تركت بصمتها طول المسار التاريخي تضع الفرد في موقف دفاعي"[22]، وعليه يجب أنّ نعترف بالآخر، ونعتبره ذات أخرى لها خصوصيتها وتجاربها الخاصة.

والحوار لا يكون ممكنا الا إذا كان هناك اختلاف، وإذا كان النزاع عائقا أمام الاعتراف بهذه الاختلافات، فإنّ الحوار يجعل منها عاملا للبناء يسمح بالوصول الى اتفاق ما؛ لأنّ تقبل الطرف الآخر كما هو، يشكل الطريق الوحيد لإمكانية تحويل

المواقف المتشددة والرافضة لكل حوار إلى مواقف إيجابية تقبل بتبادل الحوار بين الأطراف" فالحوار يستلزم حدّا أدنى من الاتفاق بين المتحاورين وهو القبول بالحوار قيمة وغاية؛ لأنّه من المستحيل التحاور مع من يرفض فكرة الحوار أصلا.

كما يجب أن يعترف الأنا بالآخر والآخر بالأنا في تعادلية تثبت شراكتهما الممكنة في الحوار بحيث "يبذل كل فريق جهده كله ليصغي الى الآخر، ويتلمس الوسائل لمعرفته على حقيقته كما يجب أن يصغي الآخر إليه، ويتلمس الوسائل لمعرفته على حقيقته ومن الاقوال الشائعة "لا تفاهم بغير فهم"[23]

بالإضافة إلى توفير المرونة والتسامح مع الاستعداد لقبول رأي الآخر وطرحه على ساحة النقاش دون تشبث بآراء مسبقة الا من خلال مرجعية مؤكدة.

وأن يدرك المتحاورون الانزياحان الكبرى التي تحدث في الحضارات، والتي بها يستطيع اهل الحوار أن يقرأوا بعضهم قراءة دقيقة تشمل كلية الزمن (الماض الحاضر والمستقبل)، والانزياح هنا داخلي وخارجي ووفقه يجب أنّ يكون الادراك الذي يشمل الأنا والآخر[24]، ولا يتأتى ذلك إلا بالمعرفة الدقيقة لكل لحظات التّطوّر للحضارة موضوع الحوار.

إنّ الحديث عن الحوار يفرض علينا أنّ نكون كما نحن بكل ما نحمله من توجهات وتصورات وقيم؛ بحيث نتحاور ونتصل مع أنفسنا بهدف تفادي الوقوع تحت طائلة أي ضغط نفسي كالتردد والتوتر "وعند الدخول في التّحاور مع الطرف الآخر يجب طرح هذه الملامح بصورة كلية، فلا نخفي منها أي شيء؛ لأنّ ذلك يسهل مهمة إيجاد نقاط التشابه والاختلاف"[25]. إنّ مثل هذا الاتصال مع الآخر الذي أساسه فهم الذات أولا وعرضها كما هي على الطرف الآخر يجرنا في آخر المطاف الى إعادة النظر في أنفسنا، وهذه خطوة أولى نحو البدء في تقبل فكرة التغيير وعدم التعصب لمواقف الذات.

ومن شروط الحوار أيضا "احترام الرأي والراي الآخر وإيجاد مساحات مشـــتركة من التلاقي والتداخل وتجاوز تضخم الصوت الواحد مما قد يدعو الــــى الانغـــلاق أو الوقوف عند حد الاستعلاء على الآخر أو نرجسية الذات"[26]

والتحلي بالموضوعية" وهي منهج بهدف مقاربة أراء وأفكار الآخـــر المختلـــف بدون زيادة او نقيصة كما أنّها تقتضي الا ينظر المرء الى الاخر من عل وإنّما هـــي رؤية متساوية وقريبة منه"[27]، وإعمال العقل المتفتح في استيعاب إنجـــازات الآخـــر وتبادل المصالح معه. مع شرط موضوعية الرؤية في سياق صحة الحوار بما يسمح بمحاسبة الذات ومراجعة النفس

وأن نعرف كيف يمكن صياغة فضاء يشغله خطاب مشـــترك، بحيـــث لا يكـــون الحوار خاضعا لمعايير المصالح السياســـية او لضــــرورات المرحلـــة، بـــل يعتبـــر استراتيجية عليا تتحكم في كلّ الأنشطة والعمليات الثقافية والحضارية.

أن نمتلك المقدرة على الحوار مع الذات أولا ومع الآخر ثانيا على أن يكون البعد المعرفي قائما وموجودا بشكل راسخ يصاحبه إدراك فلسفي للثوابت، ومعرفة بالحداثة الغربية ومزاياها ونقائصها، والاسئلة التي تطرحها علينا[28]، ويكون كلّ ذلك حاضـــرا في أي مسألة هي موضوع الحوار

واعتماد الحوار على الأصول المشتركة للثقافات، وتغليب العـــام علـــى الخـــاص والموضوعية في إصدار الأحكام حتى يضمن المتحاورن التصوّر السليم للمشـــكلات والحلول.

وبناء ثقافة منفتحة على الحضارات تجعل الحوار ظاهرة إنسانية تحاور وتجـــادل بمثقف جديد يملك سمات الأنا، ويعي سمات الاخر، ويحترم التّنوع دون تهمـــيش أو إقصاء لأي ثقافة، ويطمئن إلى نتائج الحوار

وامتلاك آداب الحوار واخلاقياته، التي تبدأ من التواضـــع وقبـــول الاخـــر دون استعلاء الذات، واحترام منطوق الاخر، وتعزيز صيغ الحوار وأدواته، وتوجيه آلياته

الى ما هو نافع عبر نتائجه وحصاده بعيدا عن الجدل العقيم أو التعصب للـــرأي، أو محاولة تعطيل فكر الآخر وأدلته. وامتلاك المرجعية المتخصصة التي تدعم الحـــوار وتحميه

وأن تكون الدعوة الى الحوار بريئة "واعتماد الأخلاقية العامة التي تصـــب فـــي دائرة الانسان المؤيد برسالة الاستخلاف في ثقافتنا الإسلامية، واعتماد الحوار بصيغة المنجز الاستراتيجي الذي يحضر بمسوغات مستقبلية تضمن حضور الأنـــا والأخـــر في معادلة الحياة.[29]

وأن نؤسس للحوار بوعي الماضي، والوعي موقـــف ننجـــزه لصـــالح الحـــوار بمسوغات نسقط بها المختلف، ونذكي بها عناصر المؤتلف ودون ذلك يبقى الحـــوار مع الذات بلا معنى[30]وبذلك نجعل مساحة حوار الأنا مع نفسها واسعة ونحررها مـــن المختلف ما أمكننا ذلك.

أن يكون منطلق الحوار "هو البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الاخـــر، وذلـــك بهدف الوصول الى نقطة الالتقاء والتكامل وليس الاستبعاد والالغاء، وفـــتح دوائـــر المعرفة المتبادلة، وتدوير زوايا الاختلافات، وإبراز الجوامع المشتركة علـــى قاعـــدة رأي صحيح يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"[31] وهذه القاعدة تجعل الأنا والآخر على صعيد واحد.

أن يراعي المتحاورون شروطا وحدودا وضوابط أخطرها الفواصل الحضـــارية والمعرفية التي تحدد مسافة العلاقة بين الواقع وبين فقهه، وأن يحاور الآخـــر وهـــو ممسك بأسباب الموضوعات المطروحة للحوار، وأن يشارك الآخر وهو متيقن مـــن سيادته على ما يملك من موضوعات فبدون السيادة المذكورة يغدو الحوار بلا هدف.

وأن يعوا بأنّ الحوار ليس مصالحة عاطفية أنّية يلتقـــي فيهـــا مجموعـــة مـــن المتحاورين في ندوة، أو في مؤتمر، وأنّ الحوار ليس زخرفا من القول بل هو الجهد

الحضاري المؤيد بالشراكة الإنسانية التي تستلزم حضـــور الأطـــراف متســـاوية[32] فالحوار إذاً مسؤولية ثقيلة.

أن نتعلم أدبيات الفكر السلامي في الحوار ومنها (حوار الله مع الشيطان، حـــوار النبي عليه السلام مع أهل الكتاب –وفد نجران– وحتى مع المشركين، فالحوار كـــان بالتي هي أحسن) فإنّه فكر يؤمن بالاختلاف والتنوع في الانسان وفي الكون، ويؤمن بحرية الاختيار، ويحاول أنّ يتفهم الآخر فكرا وعقيدة ورؤى تعزيزا للتعارف عليـــه وللتفاهم معه على أساس ماهو مؤمن به من شرعة ومنهاج[33]

والحضارات التي تملك القدرة على التبادل والخطاب والاستماع هي القادرة علـــى الاستمرار في الحياة، وانّ الحوار بين الثقافات لا يقوم بالخطاب والقول فحسب، بـــل يستلزم بالضرورة الاسماع أيضا فالاستماع فضيلة يجب ان تكتسب غير انّ اكتسابها ليس سهلا "لأنّ الحصول على تلك الفضيلة يتطلب من الانســـان التربيـــة الأخلاقيـــة والتهذيب النفسي والتعليم العقلي، والاستماع ليس عملا انفعاليا محضا بل إنّه نشـــاط معين من شأنه أن يجعل السمع ينفتح على الآفاق والحضارة التي تظن أنهـــا مكتفيـــة بذاتها، ولا تستمع الى الحضارات الأخرى بمعنى لا تتعلم منها ولا تقتـــبس الصـــالح من أفكارها وإبـــداعاتها ولا تتـــأثر برؤيتهـــا للعـــالم حضـــارات مقضـــي عليهـــا بالجمود"،[34] وأهم ما يمكن استخلاصه أنّ الحضارات الحية هي التي تتحلى بفضـــيلة الاستماع إلى الحضارات الأخرى بمعنى فضيلة اقتباس الأفضل – بـــدون إحســـاس بعدقدة النقص – تجعل الاعتراف بالآخر وإنجازاته قيمـــة أساســـية تحكـــم ســـلوك الانسان[35]

وبالإضافة إلى الشروط السابقة تجدر الإشارة الى أنّ الحوار البناء يستوجب قوى متوازنة، أي مبدأ الندية بين طرفي معادلة الحوار "فالمشاركة والحـــوار الحضـــاري إرادة حضارية قبل أنّ تكون فكرية أو أمنية او رغبة"[36]، ولا تتحقـــق هـــذه الإرادة الحضارية في حوار التنوع الثقافي إلا بوعي كل من الأنا والآخر

طرفا الحوار (الأنا والآخر): يتضمن كلّ حوار بالضرورة رؤية وخطابا يعكسان صورة واضحة لكل من الانا والاخر

الأنا: إنّ الأنا المسلمة المحاورة لا تتكر الآخر؛ لأنّ الإسلام ديــن يقبــل الآخــر "فالإسلام منذ البداية اهتم بتعريف العلاقة مع الاخر والتقنين لها، فقد اعترف بحقيقــة الاختلاف والتنوع الثقافي والحضاري، وقد جاء في الذكر الحكيم "ولو شــاء ربــك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين"[37]؛ أي أنّ الاختلاف ســنة مــن الســنن الإلهية في الكون.

إن ّالمهمة الاستراتيجية التي تقع على عاتق المسلمين اليوم هــي البــدء بتدشــين عصر الحوار الحضاري صحيح أنّ الحضارتين العربية والغربية الحديثة تفاعلتا فــي تاريخهما تفاعلا خلاقا في القديم من خلال الأندلس وصقلية، وفي العصــر الحــديث وفي العهد الاستعماري "فقد أنفتح العرب على الغرب وتبنــوا كثيــرا مــن الأفكــار والرؤى الى جانب استيراد التقنيات والسلع"[38] وهذا التدشين يرتكز على دعامتين:

الدعامة الأولى تصحيح ساحة الحوار العربية بإعادة بنائها على ضوء المنجــزات العلمية الحديثة، وتحصينها بإعادة قراءة الواقع العربي الحديث فــي تعقيــده، وإدراك علاقته بالتراث بما فيه الدين الإسلامي؛ لأنّه يمثل مكوّنا أساســيا للرؤيــة الكونيــة والسياسية للعربي المسلم،[39] والذين يدعون الى فصل الدين عن الدولة يســيئون الــى هذه الرؤية الكونية بإبعاد مكوّن من مكوناتها وهو المكون الأول للثقافة العربية حتــى أنّ بعضهم سمى الثقافة العربية ثقافة نص* لاعتمادها في نشأتها وتطورهــا علــى القرآن، وحتى في علاقاتها الثقافية بالآخر،

ولعلّ ادراك علاقة الثقافة العربية بالآخر ينفعنا فــي إقامــة علاقــة بالحضــارة الحديثة، ويحصننا من التماهي في الحضارة الغربية الحديثة، ولابد من اظهار قــدرة ثقافتنا العربية على الحوار، وهنا يمكن ذكر بعض خصائص هذه الثقافة لعــلّ ذلــك يرشحها بأنّ تكون مواكبة لحضارة العصر من ذلك أنّها ثقافــة انســانية لا تعــرف

الحواجز، ولا تعترف بالحدود، غير متعصبة، وهذا رشحها لأن تفتح أبوابها للثقافات القديمة فارسية ويونانية وسريانية وهندية، كذلك نجدها ثقافة حوارية لا صراعية شارك فيها المسيحي واليهودي والمسلم، بالإضافة الى أنّها ثقافة موسوعية استوعبت مجموعة من العلوم، فكانت ثقافة علمية فاعلة قائمة على التعددية واحترام الرأي الآخر، وهي ثقافة المنهج والوعي والادراك والبحث في جوهر الأشياء وحقائقها وقد بنت علاقتها بالآخر عن طريق الاختلاط والترجمة، إضافة الى تعددية الحركة العقلية لدى العرب، وتتجلى من خلال مشاركة غير العرب في بناء الثقافة العربية ويتمثل ذلك في جهود البخاري ومسلم في الحديث، والجرجاني في البلاغة والفارابي" و"ابن سينا" في الفلسفة، و"ان المقفع" في الترجمة، ومن ثمّ تحوّلت الثقافة العربية الإسلامية الى حلقة تواصل بين الشرق والغرب منذ أنّ ترجم كتاب ارسطو في الشعر.

ونشير أيضا الى التفاعل مع الأفكار الوافدة سلبا او إيجابا كما حصل مع المعتزلة الذين جعلوا العقل وسيلة للوصول إلى الحقيقة، و"الغزالى" و"ابن تيمية" في موقفهما من الفكر اليوناني، وموقف "ابن رشد" من موقف "الغزالي" وهذه كلها عناصر للتمثيل فقط

والمطلوب في العصر الحاضر أن نعي التراث ونفهم عناصره ونقيم له علاقات مع العصر؛ لأنّ هذا التراث ما زال قيمة حيّة في وجدان العصر، وهو جزء من مكوّنات الواقع ويعيننا على اكتشاف الأنا وتحريرها من سيطرة الثقافات الغازية: مناهجها وتصوراتها ومذاهبها ونظمها الفكرية، ويساعدنا على مواجهة التّحدّيات الحضارية التي نحن ضحية لها[40] مما يعني اختلالا في العلاقة بين طرفي الحوار فالحوار هو الذي لا يكون أحد طرفيه ضحية، ذلك أنّ الاستعمار حجب الحرية عن الشعوب المستعمرة، وفرض ثقافته بالقوة، وكان هو الطرف المسيطر والغالب في الحوار الى يومنا هذا، وبقي الحوار في هذا المستوى عند أبناء الشعوب المستعمرة

فمنهم من تبنى هذا الحوار واستفاد منه وسماه مكسب حرب انتج مثلا أدبا سمي عند بعضهم بالوطني وعند بعضهم الآخر الأدب المهاجر، وهذا الفريق تبنى الثقافة واللغة الوافدتين مثل بعض الشعوب الافريقية وامريكا، أما الشعوب التي لها لغة وموروث ثقافي فإنّ الاستعمار لم يستطع القضاء عليها برغم محاولاته الكثيرة .ويمكن الإشارة الى الشروط التي يجب ان تتوافر في المثقف العربي المحاور ليكون في مستوى الحوار ومنها:

نزاهة القصد وسلامة الرؤية وحسن التقدير فلا يكتفي بقراءة اللحظة الراهنة فقط مهما كانت شديدة الحضور، وانّما يتطلع إلى التجديد والتحديث لأنه يُغيّر ميزان القوة بين الغرب وبين المجتمع غير الغربي فالتحديث يقوي البنية السياسية والاقتصادية والعسكرية للمجتمع كله ويشجع السكان على ان يثقوا بذاتهم وبالتالي بثقافتهم ويتيح لهم ان يتجذروا في هويتهم الثقافية[41]

الآخر: إنّ لمصطلح الآخر دلالة الغيرية المخالفة والمعارضة ، وهو في أبسط صوره مثيل أو نقيض الذات (الانا)، فهو كل ما كان موجودا خارج الذات المدركة ومستقلا عنها، وقد شاع مصطلح الاخر في الفلسفة الفرنسية عند "ميشيل فوكو" Michel Foucault، و"جاك لاكان" Jacque Lacan ولعلّ سمة الآخر التي تميّزه من غيره هي تجسيده ليس فقط كل ما هو غريب (غير مألوف) أو ما هو (غيري) بالنسبة للأنا او الثقافة ككل بل أيضا كل ما يهدّد الوحدة والصفاء...[42] والآخر عند "ارسطو " Aristote "هو الغريب الذي لم يتمكن من استخدام وفهم اللغة المشتركة[43] ويرى "هيجل" Hegel انّ الآخر ضروري لوجود الذات مادام الانسان يعيش في علاقة معه اكثر مما يعيش في فرديته الخاصة، فالذات منعزلة عن الآخر لا يمكن ان تحقق وجوها، بل يتحقق ذلك في عيشها وتواصلها مع الآخر، ويرى "هوسرل" Husserl انّ العالم كما يكشف لنفسه للشعور هو عالم ذوات مشتركة لا يكون للآخر فيه حضور كمظهر محسوس بل يكون الآخر فيه شرطا دائما لوحدته واغتنائه فيوجد

الآخر دائما كطبقة من الدلالات المكوّنة تتعلق بالموضوع الذي آخذه فـــي اعتبـــاري أي انه هو الضامن لموضوعيته وعندما يقع العالم وذاتي الجسمية تحت الاقتضـــاب يظهر الآخر بوصفه ضروريا لتكوين ذاتي"[44]، فالأنا هنا هي الأصل والأخر متعلـــق بها، ولا يمكن الفصل بينهما، وتصوير الآخر انطلاقا من موقف التآلف ليس بـــالأمر السهل، " أي انّ ثقافة التسامح والتعامل الاخوي بين الشعوب تحتاج الى نضج فكري ومعرفي يقوم على التّمعن في ثقافة الآخر بعيدا عن العقـــد النفســـية مثـــل الرهـــاب والهوس"[45]

والآخر الغربي يحتمي بمركزيته، حين يتكئ على القول بالخصوصـــية المطلقـــة لتاريخ الغرب، الذي أنضجته عوامل خاصة وداخلية، وأثمر عن حضـــارة غنيـــة ومتنوعة، [46]ويقدم نصيحة للشعوب أن ليس لها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخـــذ بها هو، والانخراط في حركته الحضارية، وهذا يعني التّخلص من كلّ خصوصـــية ثقافية؛ لأنهّا هي المسؤولة عن تخلّفها، وعند ذلك تجد هذه الشعوب نفسها –حســـب هذا الرأي – في طريق ممهد للاشتراك في مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي مـــن خلال تعميم النموذج الغربي، [47] وهذا كما يبدو مخالفا لقانون الاختلاف، الذي بنـــي عليه الكون والحياة، وافضى التمركز حول الذات باعتبارها المرجعية الأساسية إلى إحالة الآخر الى مكوّن هامشي لا ينطوي على قيمة في ذاته[48]. يقـــول "تـــودوروف" عن اكتشاف الأوروبيين لأمريكا "كانت غاية الاكتشـــاف الاســـتحواذ والاخضـــاع باقتراف أوسع إبادة في تاريخ الجنس البشري، هذا العمل هو أول مـــا عبّـــرت بـــه أوروبا عن وجهها الحديث لتأسيس هويتها، وتراجيديا اكتشاف أمريكا انطوت علـــى هدف مزدوج : الإعلان عن الذات الأوروبية ، واكتشاف الآخر بالعنف الذي يماثـــل الاغتصاب [49] وملاحظة "تودوروف" تشير إلى "أمريكا"، وهي نظرة صائبة لكنّهـــا لم تنسحب على الأفارقة الذين رحلوا إلى "أمريكا" في أســـوء الظـــروف الإنســـانية

وأعمال الاستعمار في إفريقيا وأسيا التي اتّسمت بالبطش والهيمنة لم تجعل الطريق ممهدا للشعوب المستعمرة، لكي تنخرط

في "مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي".

استنتاج: إنّ الحوار سلوك حضاري نبيل، ممكن بين مختلف الثقافات بشرط توفر الآليات المسوغة لإقامة حوار مفيد مؤصل بالإيجاب الذي يضمن الحياة بعيدا عن عالم الصدام

وأنّ الحوار في حقيقة الامر حالة علمية لها بعد انساني واجتماعي وقيمي وسلوكي يضمن صدق النتائج اذا ما حسنت ادواته والياته.

ونتائج الحوار تظل مطلوبة باعتبارها مدخلا مؤسسا لجديته وتواصله وصدقه [50] فهو جزء لا يتجزأ من منظومة الحقوق الأساسية للإنسان بقدر ما وضعته الفطرة السليمة وقبول الآخر اذا ما جنح الى السلم والى صياغة مبررات الحوار بين البشر انطلاقا من وحدة النوع وتنوع الاقوام والى رصد المعالم الكبرى للسلوك القويم الضامن لسلامة مسيرة الانسان في سياق قيم التسامح والاخوة دون انغلاق او جمود او تعصب

إنّ الحوار الثقافي يستدعي وجود ثقافات تعترف ببعضها وبقدرتها على الحوار مع ثقافات أخرى تعترف بهاوتحترم خصوصيتها وهويتها

إنّ الهوية الثقافية في حقيقتها عملية تفاعلية دينامية تقوم على جدلية الصراع والتوافق، وأنّ أي هوية ثقافية تتعرض دوما إلى تأثيرات داخلية وخارجية خصوصا في حالة وجود خلل، او تأثيرات في مكوّنات العمل الثقافي، والمحافظة على الهوية لا تعني الجمود والتقوقع بل لابد من قيام عملية التفاعل ذلك أنّ مآل الثقافة المنعزلة هو الاضمحلال[51] فحياة الثقافات مضمون بتفاعلها تأثيرا وتأثرا.

كما أنه لا يجب التنازل عن الخطاب القيمي الخاضع لكينونة الامة لصالح الاستعمار الجديد الذي حمل لواء هدم الحضارات

والحوار يتطلّب اليوم التعارف الحضاري كمفهوم قرآنـــي الهــدف منـــه تغييــر الصورة المشوهة التي تحملها كل حضارة في لا شعورها عن الأخرى، وهذا لتفادي الصدام والعمل على التأسيس لحوار بناء وحقيقي بن الثقافات، وأنّه إذا احتكمنا الـــى التاريخ أخبرنا "أنّ الثقافة العربية ثقافة حوارية تقبل التعددية وتنطلق من الاخــتلاف وتنتهي الى التسامح والتفاهم مع الآخر قبولا او جدلا...ففكرها كان حواريا قبــل أي اعتبار آخر"[52] ثم إنّها ثقافة إنسانية بدأت من الانسان وانتهت اليه.

كما يجب التركيز على رصد نتائج الحوار، وتحويلها الى برامج عمل، والبحــث عن المشترك الذي يفضي الى حوار بأبعاد إنسانية.

وأن لا يكون الحوار مع الذات أو مع الاخر الا حيث يثمر الايجاب الــذي تبــدو عوالمه بمعلم الحضارة التي تتجسد بها مقومات الذات، ومشكلتنا تكمن في الايجــاب الغائب وبه يغيب موضوع الحوار نفسه؛ لأنّ الأصل في الحــوار حضــور الــذات "والبحث عن معوقات الحوار لإزالتها لا أنّ نسارع الى الحوار الافقي الخاضع لــرد الفعل البعيد عن صيغ الذات، ذلك **لأنّ الحوار التزام حضاري تبديه الذات الواعيــة من اجل مشاركة غيرها في حل المشكلات المعقــدة التـــي تعتــرض الانســانية**[53] وبهذا يساهم الحوار في اثراء التنوع الثقافي ويحقق مطلــب الإنســانية فـــي التعــدد والتنوع والتعارف.

– الهوامش:

[1]– التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتمـاء، الـدار المصـرية اللبنانيـة 2006، ص27

[2]–سناني (وسيلة) مظاهر التداخل الثقافي بين المنظور النقدي والمنظور السردي، رسالة دكتوراه جامعة الجزائر، 2014، ص67

[3]– ينظر المرجع نفسه، ص70

[4]– الآية " ومن آياته اختلاف السنتكم وألوانكم.." سورة الروم 22،

[5]– الآية "وجعلناكم شعوبا وقبائلا لتعارفوا" الآية 13من سورة الحجرات

[6]–عبد الرحمن(طه)، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكـر والابـداع بيروت، لبنان، 2017، ص 167

[7]– مجموعة من الكتاب، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبيـة، نـدوة هـانبرغ1983 تونس، 1985، ص 53

[8]– اليافي(نعيم)، مرايا المتحالف، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط1، 2000، ص24

[9]– السيد (ياسين)، حوار الحضارات، الغرب الكوني والشرق المتفرد، مهرجان القراءة للجميـع الهيئة المصرية العامة للكتاب،2002، ص27

[10]– مجموعة من الكتاب، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية، مرجع سابق، ص33

[11]– بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونـات الـذات العربيـة المحاورة عالم الكتب الحديث، الأردن 2014، 98

[12]ــ– ينظر اليافي(نعيم)، مرايا المتخالف، مركز الإنماء الحضاري، مرجع سابق، ص 25ــ 26

[13]– بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونـات الـذات العربيـة المحاورة، مرجع سابق، ص 7

[14]– الحسن(يوسف)، الحوار الإسلامي المسيحي، الفرص والتحديات، منشورات المجمع الثقـافي أبو ظبي، 1977، ص23

[15]– الحسن(يوسف)، الحوار الإسلامي المسيحي، الفرص والتحديات، المرجع نفسه ص141

[16]– ينظر السيد(ياسين)، في حوار الحضارات، مرجع سابق، ص88

[17]ــ ينظر التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، 112

[18]– بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونـــات الـــذات العربيـــة المحاورة، مرجع سابق، ص7

[19]ـــ التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء ، مرجع سابق ، ص103

[20]ـــ دوبرو (رينيه)، إنسانية الانسان، نقد علمي للحضارة المادية، مؤسســـة الرســـالة، بيـــروت 1984، ص173

[21] – للاستزادة ينظر إبراهيم (عبد الله)، المركزية الغربية إشكالية التكوّن والتّمركز حول الـــذات المركز الثقافي العربي، ط1، 1997

[22]ـــ الشامي (علي)، الحضارة والنظام العالمي، أصول العالمية في حضارتي الإســـلام والغـــرب بيروت، دار الإنسانية، 1995، ص65

[23]ـــ مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص 31

[24]– بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونـــات الـــذات العربيـــة المحاورة، مرجع سابق، ص24

25- LahcenZegdar Le Discours Des européens Libéraux D'Algérie Fac e a la guerre de libération nationale Revue De Sciences Politiques et Relations Internationales N 03 Pages 123

[26]ـــ–التطاوي (عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، 112

[27]– محفوظ (محمد)، الحضور والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص51

[28]– ينظر المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، 2009، ص71

[29]–بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية فـــي مكونـــات الـــذات العربيـــة المحاورة، مرجع سابق، ص24

[30]–بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية فـــي مكونـــات الـــذات العربيـــة المحاورة، المرجع نفسه، ص39

[31] –مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص72

[32]– ينظر بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص 105

[33]– مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص72–73

[34]ـــ السيد (ياسين)، حوار الحضارات، مرجع سابق، ص54

[35]– السيد (ياسين)، حوار الحضارات، المرجع نفسه، ص56

[36]- الحسن(يوسف)، الحوار المسيحي الإسلامي الفرص والتحديات، مرجع سابق، ص41

[37]- سورة هود، الآية 117

[38]- المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، مرجع سابق، ص33

[39]- ينظر المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، المرجع نفسه، ص32

*- نص حامد أبو زيد

[40]- حنفي(حسن)، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، دار التنوير للطباعـــة والنشـــر، ط1 1981، ص 16

[41]- مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص180

[42]- ينظر ميجان الرويني وسعيد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيـــروت ط5، 2007، ص21

[43]- شرشار (عبد القادر)، بناء الاخر في أدبيات الصراع العربي الصهيوني مجلة الموقف الادبي اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع370، 2002، ص 87

[44]- ينظر جون بول سارتر، تعالي الأنا موجود، ترج حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشـــر بيروت، ط1، 1982، ص28-29

[45]- ينظر حمود(ماجدة)، صورة الاخر في التراث العربي، دراسة اتحاد الكتاب العرب، دمشـــق 2000، ص29

[46] - إبراهيم (عبد الله)، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997، ص33

[47] - ينظر المرجع نفسه، 33

[48] - ينظر المرجع نفسه، ص33

[49] - ينظر المرجع نفسه، 16

[50]-التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص 27

[51]- ينظر مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقـــافي العربـــي، مرجـــع ســـابق ص170

[52]ـــ التطاوي (عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص26

[53]- ينظر بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية مرجع سابق، ص60

دور التعدد اللّغوي في تنمية التنوع الثقافي
التعدد اللّغوي في الجزائر أنموذجا

داه: سارة مسعوداني
المركز الجامعي، ميلة.

الملخص: تعدّ اللّغة وعاء الثّقافة، ولا يمكن الحديث عن الثّقافة بعيدا عن اللّغة فاللّغة مكون أساسي ومهم من مكونات الثّقافة، وكما يقول أحد الباحثين عند حديثه عن علاقة اللّغة والثّقافة: " إنّهما نشئا معا"، فاللّغة هي التي تعبر عن الثّقافة، وتحتويها وهي التي تنمّيها وتطوّرها.

وباعتبار أنّ اللّغة كما يقول ابن جني(ت: 392ه): " هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، فهي إذا ليست اللّغة الفصحى فقط، بل هي أوسع من ذلك؛ فهي تضم اللّهجة والعاميّة واللّغة الفصحى واللّغة الأجنبية وانطلاقا من هذا ونظرا لأهميّة اللّغة في تنميّة التّنوع الثّقافي، سنحاول في هذه المداخلة تسليط الضوء على أهمية ودور التّعدد اللّغوي(باعتباره مصطلح واسع يضم الازدواجية اللّغويّة والثّنائية اللغوية) في تنمية التّنوع الثّقافي بصفة عامة، وعلى دوره في تنمية التّنوع الثّقافي في الجزائر بصفة خاصة، باعتبار أنّ الجزائر من بين أهم البلدان التي تزخر وتشتهر بالتّعدد اللّغوي، وسنحاول خضم ذلك الإجابة على جملة من التّساؤلات أهمّها:

1_ ما هو التّعدد اللّغوي؟ ما هو التّنوع الثّقافي؟

2_ كيف يسهم التّعدد اللّغوي في تنمية التّنوع الثّقافي؟

3_ ما هو التّعدد اللّغوي الموجود في الجزائر؟ وكيف يسهم هذا التّعدد في تنمية التّنوع الثّقافي فيها؟ .

مقدمة: تعدّ اللّغة القلب النّابض للأمّة وجهازها المحرك، وهي الخّصيصة الجوهرية في حياة الشّعوب وسرّ نجاح الحضارات، كما أنّها وسيلة التّواصل بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، وتبادل الأفكار والمعلومات؛ فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع وأفراده.

إنّ اللّغة وسيلة الإنسان في تنمية الأفكاره وتجاربه، وهي التي تعدّ الفرد للعطاء والإبداع والمشاركة، فعن طريقها يحدث اختلاط الفرد بالآخرين مما يكسبه خبرات تنمي قدراته وخبراته، وبفضلها يتطور المجتمع ويرتقي وكلّما كانت في المجتمع لغات كثيرة، كلّماكانت فرصة أفراده لتحقيق التّقدّم والتّطور أكبر وأوفر.

وإذا تحدّثنا عن اللّغة سنتحدّث بالضرورة عن التّنوع الثّقافي، هذه الظاهرة التي وإن كانت جديدا لفظا فإنّها قديمة معنى قدم الوجود؛ فهي موجودة من خلق الإنسان باعتبار أنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ومما لا شكّ فيه أنّ اللّغة هي العنصر الأساسي الفاعل في ظهور هذا التّنوع، فاللّغة هي النّاطق الرّسمي بلسان الثّقافة، فكلّ مكونّات الثّقافة يعبر عنها باللّغة، وكل مجتمع متعدّد اللّغات هو بالضرورة مجتمع متنوّع ثقافيّا.

والتّنوع الثّقافي واحد من أرقى المميزات البّشريّة، وهو وإن كان سلاح ذو حدّين فإنّ النّظر إليه بايجابية واستغلاله بطريقة ذكيّة يعود بالنّفع والفائدة على الفرد والمجتمع، فتوظيفه بطريقة حضارية يجعل منه مصدرا قوة وثراء وتنمية، فالتّنوع الثّقافي جميل كجمال الألوان الطبيعة تتناغم فيها الألوان والأشكال كل حسب طبيعته وخصوصيته، والتاريخ ينقل لنا أنّ الجماعات الإنسانية كانت تتبادل الخبرات والمعارف والاكتشافات.

ولا يمكن لأحد أن ينكر أنّ التّنوع الثّقافي ضرورة ملحة للجنس البّشري مثل ضرورة التّنوع البيولوجي للكائنات الحية، فهو بمثابة التّراث المشترك للإنسانيّة جمعاء، وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل، وهذا

التّنوع الثّقافي ينطلق وينبعث من الثّقافة التي تعدّ روح الثّقافة ونور العقل والمعرفة وليست ترفا فكريّا كما يعتقد الكثير؛ بل هي حياة وساحة صراع من أجل بناء غد أفضل، والأهم من ذلك أنّ نواة التّنوع الثّقافي تكمن في الفكرة القائلة: " الثّقافات هي مسارات تتجه نحو المستقبل".

لعلّ بلدنا الجزائر واحد من البلدان الّتي تتميز ببيئة لغويّة ثريّة ومتنوّعة تعدّ بحق مؤشر صحيّ للتّعايش الاجتماعي والثّقافي واللّغوي للجماعات اللّغويّة المتكلّمة لهذا المجتمع، وإنّ الاستثمار الهادف والإيجابي لهذا التّعدد اللّغوي يسهم في تنمية التّنوع الثّقافي في الجزائر، وبالتالي تحقيق التّنمية المستدامة والوصول إلى تحقيق التّطور والنّمو الحضاري.

ومن هذا المنطلق ونظرا لأهمية اللّغة في تنمية التّنوع الثّقافي، ونظرا لما تتميز به الجزائر من ثراء وتنوع لغوي، سنتناول في هذه الورقة البحثية قضية التّعدد اللغوي ودوره في تنمية التّنوع الثّقافي، باعتبار أنّ التعدد اللّغوي أحد أهم الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى تنمية التّنوع الثّقافي في المجتمع، والمجتمع الجزائري من بين المجتمعات الثّرية بتّعدد لغوي كفيل بجعله منبعا لتّنوع ثقافي هائل، وإنّ الاستغلال الإيجابي والواعي لهذا التّنوع قادر أن يجعلها في مصاف الدّول المتطورة والمتقدّمة حضاريا.

أولا: التّعدد اللّغوي (Plurilinguisme) أو(Multilinguisme)

يعدّ التّعدد اللّغوي ظاهرة لغويّة منتشرة في كل المجتمعات دون استثناء، فمن النّادر جدا أن تجد مجتمعا يمتلك نظاما لغويا واحدا، وقد أضحى التّعدد اللّغوي أحد أهم خصائص المجتمعات المعاصرة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على قوة الاحتكاك بين المجتمعات والثّقافات وانصهار بعضها في بعض، وقد أكدّ القرآن الكريم على ضرورة هذا الاحتكاك، وعلى حتميته، ويتجسد ذلك جليا في قوله تعالى: {يا أيّها الناس

إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير}(الحجرات:13)، فماهو التّعدد اللّغوي إذا؟ وماهي أهم مظاهره؟

1/ تعريف التّعدد اللّغوي:

إنّ مصطلح التّعدد اللّغوي من أكثر المصطلحات التي أثارت، وماتزال تثيرا جدلا كبيرا في السّاحة العلمية والفكرية، إذ لايوجد اتفاق بين الباحثين والمفكرين في تحديد ماهية هذا المفهوم، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تداخل هذا المصطلح مع مصطلحات أخرى كالازواجية اللّغويّة والثّنائية اللّغويّة من جهة، واختلاف توجهات البّاحثين والمفكّرين من جهة ثانية.

ويعرّف التّعدد اللّغوي عموما بأنّه: " مجموعة من اللّغات المتقاربة أوالمتباينة في مجتمع واحد"[1]، وهذا التّعريف يشير إلى شمولية وموسوعية مصطلح التعدد اللغوي لمصطلحي الازدواجية اللغوية، والثّنائية اللغوية فهو يقرّ بأنّ التّعدد اللّغوي يكون بين لغات متقاربة كما هو الحال بين العربيّة الفصحى والعاميّة، ويكون بين لغات متباينة كما هو الحال بين اللّغة الفرنسية واللّغة العربية الفصحى، وقد ربطه بالمجتمع؛ أي إنّه ظاهرة لغويّة اجتماعية يمارسها أغلب أفراد المجتمع إن لم نقل جميعهم.

ويعرف التّعدد اللّغوي في سياق آخر بأنّه: " مصطلح يطلق على الفرد الذي يستخدم داخل مجموعة لغويّة واحدة عدة لغات حسب ظروف الخطاب (عائلية رسمية، سياسية، اقتصادية...)"[2].

وعليه فإنّ التّعدد اللّغوي وفق ماسبق يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية، كما يمكن أن يكون ظاهرة لغوية فردية تتجسد في قدرة الفرد على استعمال لغتين أو أكثر وفقا لظروف الخطاب التي يكون فيها.

ويرى لويس جون كاليفي (L.J.Calet) "أنّ التّعدد اللّغوي ظاهرة اجتماعية إنسانية موروثة تاريخيا، وقد أطلق عليها مصطلح" حرب اللّغات"*"[3]، ويقول في هذا الصدد: "لقد التقينا بـ: "حرب اللغات" هذه في ساحة المعارك المختلفة من الأسرة إلى السّوق

إلى الدّروب التي سلكتها اللّغات المنتشرة في تطويريها"[4]؛ فالتّعدد اللّغوي وفـق هـذا التّعبير هو نتيجة حرب تنشب بين اللّغات لتفرض كل واحـدة منهـا حضـورها فـي الوجود والاستعمال.

ويعرّفه محمد الأوراغي بقوله: " التّعدد اللّغوي المقابـل العربـي للفـظ الأجنبـيّ "Multilinguisme" وهو يصدق على الوضعيّة اللّسانية المتميزة بتعايش لغـات وطنيـة متباينة في بلد واحد، إمّا على سبيل التّساوي إذا كانت جميعا لغات عالميـة كالألمانيـة والفرنسية والإيطالية في الجمهورية الفديرالية السوسيرية، وإمّا على سبيل التّفاضـل إذا تواجدت لغات عالمية كالعربية بجاني لغـات عاميـة، مثـل الهوسـا، والغورمانشـة والسوناي زارما، والنماشيق والفولفولدة، والتوبو في جمهورية النيجر"[5].

وهذا التّعريف يلمّح إلى أهم مظاهر التّعدد اللّغوي، ويخص كل مظهـر بخاصـية تميزه، فيخص المظهر الأول والمتمثل في الثّنائية اللّغوية بأنّها تتطلب التسـاوي بـين اللّغات في الاستعمال، في حين يختص المظهر الثّاني مـن مظـاهر التّعـدد اللغـوي والمتمثل في الازدواجية اللغوية بالتّفاضل بين اللّغات في الاستعمال، وهذا إنّ دلّ علـى شيء فإنّما يدلّ على موسوعية مصطلح التّعدد اللّغوي مـن جهـة، وعلـى اخـتلاف تعريفاته من جهة ثانية.

2/ مظاهر التّعدد اللغوي: لقد سبق وأشرنا إلى أنّ التّعدد اللّغوي يشمل ظـاهرتيين لغويتين تعدان من أهم الظواهر اللّغويّة التي أثارت ضجة كبيرة في السّـاحة العلميّـة والفكريّة والاجتماعيّة والثّقافيّة ككل، وهما:

أ/الازدواجية اللغوية (Diglossie): يعد العالم فريجسـون (Ferguson) أول مـن استعمل مصطلح (Diglossie) في مقال له بعنوان " الثنائية" "Diglossie "، وذلك سـنة 1959م، وكان يقصد به "تعايش شكليين لغويين في صلب جماعة واحدة، أطلق علـى أحدهما: "التّنوع الوضيع"، وعلى الآخر: "التّنوع الرفيع" "[6]؛ وعليه فـإنّ الازدواجيـة

اللّغويّة هي استعمال لمستويين لغويين ينتميان إلى أصل واحد، أحـدهما راق فصـيح (كالعربية الفصحى)، وآخر عامي وضيع (كالعامية).

ب/ الثّنائيّة اللّغويّة (Bilinguisme): تعد الثّنائية اللّغويّة من أكثـر المصـطلحات صعوبة، إذ اختلف الباحثون المحدثون في تعريفه، ولعل سبب ذلك يرجع إلى كونـه " مصطلحا وافدا إلينا بواسطة ترجمة مرهونة بظروف تاريخية استعمارية هـو وقرينـه الازدواجية اللّغويّة"[7].

ومن أشهر التّعريفات التي ساقها الباحثون للثّنائيّة اللّغويّة نـذكر: تعريـف "منـذر عياشي" لها بقوله:" كل فرد يتدبر أمره بشكل ملائم عبر لغـة ثانيـة يعتبـر مـزدوج اللّغة"[8].

ويعرفها ماروزو (Marouzeau) بقوله: "هي الوضع اللّغوي لفرد مـا أو جماعـة بشرية معينة تتقن لغتيين، دون أن تكون لأفرادها قدرة كلامية مميزة في لغة أكثر مـن اللّغة الأخرى"[9].

لكن تجدر الإشارة أنّ الملاحظ للدراسات التي تناولت مصطلحي الثّنائيـة اللّغويّـة والازدواجيّة اللّغويّة، يجد أنّ هناك تضاربا وخلطا كبيرا في تحديد مفهوم كـل منهمـا وهذا ربما يرجع إلى اختلاف التّرجمة أحيانـا، وإلـى سـوء الفهـم والخلـط بـين المصطلحات أحيانا أخرى، لفك هذا اللّبس والغموض، ولتجنب هذا الخلط سنعرض في ما يلي المعنى اللغوي لكل من الازدواجية والثنائية.

أ/ الازدوجية: جاء في لسان العرب لابن منظور: " الأصل في الـزوج الصـنف والنوع من كل شيء، وكل شيئين مقتـرنيين"[10]، فـالازوج إذا يكـون بـين شـيئين متقاربيين، ومن نوع واحد، وعليه فإنّ الازواجية اللّغويّـة " تعنـي وجـود مسـتويين لغويين في لغة واحدة"[11]، وهي ترجمة للمصطلح الانجليزي (Diglossie).

كما يقصد بها استعمال أبناء اللّغة مستويين من اللّغة أحدهما يسـتعمل فـي الأدب والفكر، وهو المستوى الفصيح، وآخر يستعمل في التّواصل اليّـوميّ وهـو المسـتوى

العامي؛ فالازدواج اللّغوي: مصطلح" يدلّ على توزيع الاستعمالات في كل من اللّغــات بحسب الظروف والموضوعات الخاصة ويترافق هذا التّوزيع عموما مع انتشار إحــدى اللّغات"[12]، وعليه فالازواج اللّغوي يكون بين شكلين لغويين في اللّغة الواحدة.

ب/ الثّنائية: إنّ الثّنائية في اللّغة متعلقة بالأضــداد؛ إذ " تطلــق علــى متقــابلات الأضداد كالخير والشّر، والنّور والظّلام، والفقر والغنى"[14]، وعليه نســتنتج أنّ الثّنائيــة اللّغويّة تكون بين لغتيين مختلفتن، فهي تحدد عند البعض على أنّها قدرة الفــرد علــى استعمال نظاميين لغويين مختلفين في بيئة لغوية واحدة؛ أي " وجود لغتيــين مختلفتــين (قومية وأجنبية) عند فرد ما أو جماعة ما في آن واحد"[15]، كاستعمال الفــرد للعربيــة والفرنسية في الجزائر.

وانطلاقا مما سبق، واعتمادا على التّعريف اللغوي لكل من الازدواجيــة والثّنائيــة سنعتمد في دراسنا هذه المفهوميين السابقيين لقربهما من المعنى اللغوي؛ لكننا نشير إلى أنّه لايوجد حتى الآن فصل حاسم أو اتفاق بــين البــاحثين حــول اســتعمال هــذين المصطلحين.

ثانيا/ التّنوع الثقافي (Culture Diversity): تجدر الإشارة إلــى أنّ مصــطلح التّنوع الثقافي من المصطلحات الأكثر تداولا في عصرنا الحالي؛ إلا أنّه مصطلح كثير التّعقيد، فقد حاول كثيرون تفسيره وتقديم تعريفات متعدّدة له، لكن رغــم ذلــك أصــبح التّنوع الثّقافي توجها عالميا بفضل اليونيسكو التي رفعت شعار " تنوعنا هــو مصــدر قوتنا".

1/ تعريف التّنوع الثّقــافي: اختلف الباحثون في نظرتهم لمصطلح التّنوع الثّقــافي فمنهم من "يعتبر التّنوع الثّقافي عاملا إيجابيا في حد ذاته؛ فهو يدلّ على تقاسم الثّــروة التي تجسدها كل ثقافة من ثقافات العالم"[16]، وهذا سيكون له دور إيجابي فــي توطيــد عمليات التّبادل والحوار في مختلف المجالات؛ لأنّه سيوضح الــروابط التــي تربطنــا جميعا. في حين يرى آخرون أنّ " الفوارق الثّقافية هي التي تجعلنا نعجز عــن تبيــين

إنسانيّتنا المشتركة، وهي التي تكمن في جذور الكثير من النّزاعات"[17]، لكــن يجــب أن نشير هنا إلى أنّه وعلى الرّغم من أنّ التّنوع الثّقافي هو مصدر للخطر كونه يمكــن أن يهدد الهوية الوطنية، إلا أنّه مفيد جدا في توطيد علاقات العمل على صــعيد المجتمــع الدولي وهذا ما دفع منظمة اليونيسكو إلى وضع تقرير عالمي بعنوان " الإستثمار فــي التّنوع الثّقافي والحوار بين الثّقافات".

ويعرّف التّنوع الثّقافي بأنّه: " وجود العديد من الثّقافات في مؤسسة معينة أو مجتمع معين أو في العالم وهو عبارة عن مجموعة من الثّقافات المختلفــة والمتّنوعــة، ومــن أبرز الأمثلة على التّنوع الثّقافي الثّقافات المتجانسة، والثّقافة العالمية، وقد تشــير إلــى وجود العديد من الثّقافات المتنوّعة والتي تحترم بعضها البعض"[18] فالتّنوع الثّقافي يمكن أن يكون في المؤسسات وفي المجتمع وفي العالم، فهو ليس حكرا على المجتمع فقط.

وهناك من يقول أنّ: "أنّ التّنوع الثّقافي كمفهوم يشير إلى اتّسام الثّقافة البّشريّة بسمة التّنوع والاختلاف لذلك يسعى كل مجتمع للحفاظ على هويته وما يميزه ويعبــر عنــه خصوصيته واستقلاله عن باقي الثّقافات الأخرى"[19]، فالتّنوع الثّقــافي حقيقــة واقعــة لايمكن نفيها أو تجاهلها، فالملاحظة الإثنوغرافية* البسيطة تبين لنا أنّ هناك مجموعــة واسعة من الثّقافات المتميزة والمتباينة فيما بينها ، مما يجعل الوعي بــالتّنوع الثّقــافي أمرا ضروريا وشائعا خاصة في في ظل العولمة التي يعرفها العــالم اليــوم، والتــي يسّرت عملية التّبادلات وزادت من تقبل المجتمعات لبعضها البعض.

في حين يعتبر تايلور (Taylor) أنّ التّنوع: " هو ذلك الخليط مــن النّــاس الــذين يختلفون في انتماءاتهم وهوياتهم الثّقافية؛ ولكن يعيشون في نفس النّسق الاجتمــاعي"[20] وهذا التّعريف يشير إلى أنّ هناك نظرتيين للتّنوع الثّقافي[21]:

- **تنوع ثقافي على المستوى العالمي:** وهو ما يكون ناتجا عن اختلاف ثقافــات العالم والدول وثراء تراثها وعاتها وتقاليدها.

- **تنوع ثقافي يتمثل في تلاقي الأفراد من ثقافات مختلفة:** تحت نسـق اجتمـاعي معين مشكلة تنوعا ثقافيا.

لكن في الحقيقة فإنّه من الصعب وضح حدود تفصل بين هذين النـوعيين لأنّهمـا مترابطان، وكل واحد منها يكون سببا في ظهور الآخر، فبينهما علاقة تأثير وتأثر.

2/ مظاهر التّنوع الثّقافي: يظهر التّنوع الثّقافي في مجموعة من المظـاهر، هـذه المظاهر التي تمثل أهم مكونات الثّقافة، وفي الوقت نفسه تعدّ من أبرز مقومات الهويّـة وهذا إن دلّ على شيء فإنّها يدلّ على الرابط القوي الموجود بين هـذه المصـطلحات الثلاث والتّفاعل القوى الموجود بينها، ويمكن أن نجمل أهم هذه المظاهر في ما يلي:[22]

- **اللّغة:** بقيت اللّغة على مر العصور والأزمنة أهم ميزة للحضارات والأمم، فهي الأساس والركيزة التي تقوم عليها الثّقافة، كما أنّها أهم مظـاهر الاخـتلاف بـين الحضارات والأمم؛ فكل أمّة تفتخر وتتباهي مزايا لغتها، وتحرص كل الحرص علـى تعليمها للجميع بشكل دائم، فهي المنفذ الذي يستخدم للتّعرف على جميـع الحضـارات، وبالتّمازج بين الشّعوب في كافة أنحاء العالم؛ فـ "لا تعتبر اللّغـات أداة للاتصـال فقط، فهي تمثّل النسيج الحقيقي لأشكال التعبير، وهي الحامـل للهويـة والقـيم ورؤى العالم"[23]؛ وعليه فإنّ اللّغة هي أهم مظهر وأهم أسباب التّنوع الثّقافي فاللّغة هي المعبـر الأهم عن الثّقافة، وهي اللسان الناطق بها، وأي تنوع ثقافي سيكون منطلق وسببه اللّغة لامحالة، باعتبار أنّها الوسيلة المستخدمة في التّعبير عن باقي مكونات الثّقافة.

- **الدّين:** يعتبر الدّين من بين مظاهر التّنوع الثّقافي، فهو يعكس توجـه معتقديـه كما أنّه هو الذي يخلق رؤيتهم، لذلك فإنّ التّعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء العالم يعد من أفضل السّبل لتلاقح الشّعوب والأمم وتأثرها ببعضها الـبعض وهو بذلك وسيلة للتعرف على العديد من الحضارات وعوامل الاخـتلاف الحضـاري بصفة عامة.

- **العادات والتّقاليد:** تعتبر العادات والتّقاليد أهم مظاهر التّنوع الثّقافي، كونها منبع الاختلاف الثّقافي والحضاري بين الأمم، لذلك فإنّ الأمم تحرص على توريث عاداتها وتقاليدها لتفرض حضوها ووجودها، فالعادات والتّقاليد ميزة الأمة وجزء من كيانها وهويتها، وانتشرها يضمن لها مكانة بين الأمم.

3/ إيجابيات وسلبيات التّنوع الثقافي: إنّ التّنوع الثّقافي كظاهرة في المجتمع يتميز بجملة من الإيجابيّات، ولكنّه في الوقت نفسه لا يخلو من بعض السّلبيات، ويمكن أن نجمل هذه الإيجابيّات والسّلبيّات في مايلي:[24]

أ: إيجابيات التّنوع الثّقافي:

- التعرف على الثّقافات الأخرى في المجتمع، وفي الدّول الأخرى: عاداتها وتقاليدها وقيمها.
- الاعتراف بشرعية الثّقافات الأخرى في المجتمع، وبأنّها مركب وجزء لايتجزأ من المجتمع.
- تنمية الاحترام المتبادل بين الثّقافات، وتطور النقد الذاتي وتحقيق الذات للفرد والثّقافة في المجتمع.
- إعطاء فرصة جديدة تضمن وتحقّق الحريّات والمساواة بين الثقافات المختلفة في المجتمع مثل سن القوانين لحماية هذا التّنوع واحترامه.

ب: سلبيات التّنوع الثّقافي:

- يمكن أن يؤدي إلى نشوب صراع عنيف بين الثّقافات المختلفة، وذلك عند محاولتها لخلق قوانين موحدّة ودستور وموحد للدولة والسّيادة فيها، وربما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى اندلاع حرب أهليّة.
- يسهم في بعض الأحيان في انغلاق الثّقافة على نفسها، وتكوين إطار خاص بها بعيدا عن الإطار المشترك؛ وهو الدولة فينتج عدّة دول في دولة واحدة، وهذا يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك.

- يمكن أن يؤدي إلى تزعزع وزوال الاستقرار الاجتماعي وفوضـــي اجتماعيـــة بسبب غياب القوانيين الموحدة بين الثقافات، ويرجع ذلك إلى اختلاف هذة الثّقافات فـــي القيم والعادات فلا توجد ثقافة صحيحة.

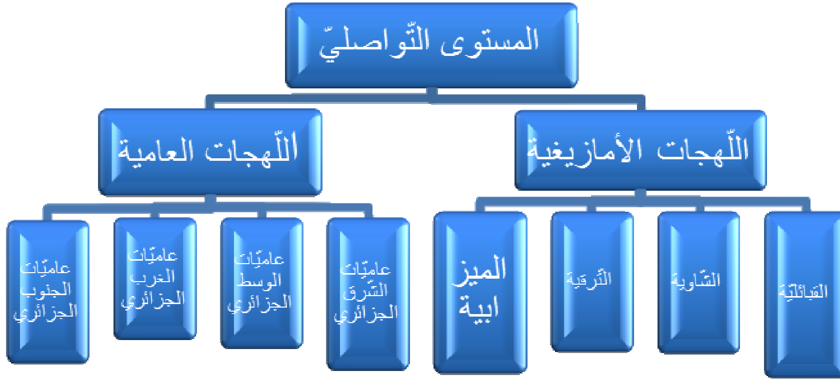
- يمكن أن يؤدي إلى تفكك المجتمع ووحدته، وإلى انهيـــار النّســـيج الاجتمـــاعي بداخلة فيصبح المجتمع كالفسيفساء؛ لأنّ لكل ثقافة عاداتها وتقاليدها ونمط حياتها.

وسنحاول نحن من خلال هذه الدراسة أن نتعرف على التّنوع الثقافي في الجزائـــر من خلال رصد أهم مظاهره، والمتمثل في اللغة.

ثالثا/التّعدد اللغوي في الجزائر: تعدّ الجزائر من بين البلدان التي تزخـــر بـــالتّنوع اللغوي، هذا الأخير الذي ساهم في تشكّيل ظاهرة التّعدد اللّغوي، ولعل سر هذا الثّـــراء اللّغوي التي يتميز به ووطننا راجع لأسباب جغرافية وسياسية واجتماعية...الخ ويمكـــن أن نلخص هذا التّنوع اللّغوي في المستويات الثلاثة التالية:

1_ المستوى الرّسميّ: ويقصد به ذلك المستوى الذي تستعمل فيه اللغـــة العربيـــة الفصحى التي تعد لغة المقامات التّواصلية الرسميّة[25]، بحكم أنّها لغة الـــدين، والقـــانون والحكومة، فاللغة العربية كما يقول إميل بديع يعقوب: "لغة القـــرآن الكـــريم والتـــراث العربي، والتي تستخدم في المعاملات الرّسميّة، وفي تدوين الشّـــعر والنّثـــر والإنتـــاج الفكري"[26]، واللغة العربية المقصودة هنا هي اللغة العربية الفصحى أو بعبـــارة أخـــرى هي اللغة العربية الكلاسيكية.

2_ المستوى التّواصلي: وهو خلاف المستوى الأول، فإذا كـــان المســـتوى الأول رسمي فصيح، فإنّ هذا المستوى هو: مستوى غير رسمي، يقوم على اســـتعمال اللغـــة لاغراض الحياة اليومية[27]، وهو مستوى أوسع من المستوى الرّسمي كونـــه يتضـــمن اللهجات العامية الأمازيغية، واللّهجات العربية العامية، ويمكن أن نمثل لهذا المســـتوى بالمخطط التالي:



أ/ **العاميّات الأمازيغية:** وهي لغات فئات معينة (هي اللّغة الأم لسكان بني مــازيغ) وتمتاز بمجموعة من الخصائص الثّقافيّة والعرقيّة، وانتماءات جغرافية ولغويّة، وهــي متنوعة في الجزائر[28]، ويمكن توزيعها إلى مجموعات كبيرة أهمها:

- **القبائلية:** وهي لغة القبائل الكبرى، وهي " اللّغة الأكثر انتشارا، وتعــدّ منطقــة القبائل أهمّ منطقة ناطقة بالأمازيغية، وتشمل منطقة القبائل: بجاية، تيــزي وزو، مــع وجود أقليات في المحور الممتد من سطيف إلى العاصمة، ويضــم ســطيف، وبــرج بوعريريج، والعاصمة."[29]

وقد تم الإعلان عنها كلغة رسميّة سنة 2002م، وأصبحت تعتمد فـــي المنظومــة التربويّة، وفي الامتحانات الرسمية.

- **الشّاوية:** وهي لغة جبال الأوراس، إذ يتحدث بها السّكان الأمازيغ القاطنيين في ولايات تابعة لتلك المنطقة، على سبيل المثال: باتنة، أم البــواقي، خنشــلة، تبســة وجنوب ولاية سطيف[30].

- **التّرقيّة:** وهي لغة سكان الطوارق، وهم قبيلة موجودة في الجزائــر، ويقطنــون في مدينة توقرت.

- **الشّلحيّة:** وهي لغة تستعمل في مناطق متفرقة من التّراب الوطني، فليس لها منطفقة محددة كالقبائلية والشّاوية، ومن أكثر المناطق التي تستعمل فيها هذه اللّغة: تيبازة، الشّريط المحادي للمغرب الأقصى كمغنية.
- **الميزابية:** وهي لغة سكان بني ميزاب نسبة إلى المنطقة التي يقطنون بها ويستوطن أهلها في مدينة غرداية، وبعض المدن الإباضية[31].

فالعاميّات الجزائرية تعتبر اللّغة الأم للناطقين بها، فهي أول لغة ينطق بها أهلها وقد أثبتت الإحصائيات أنّ نسبة متكلمي العاميّات الأمازيغية في الجزائري يقدر بحوالي 20% من العدد الإجمالي لسكان الجزائر، وهي نسبة معتبرة إذا ماقورنت باستعمال اللّغة العربيّة الفصحى؛ باعتبار أنّ اللغة الأمازيغية هي لغة ثانية، في تعد اللغة العربيّة اللّغة الأولى في الجزائر، لكن وعلى الرغم من أنّها اللّغة الأولى إلّا أنّها _ وللأسف_ لاتعتبر اللّغة المهيمنة على ألسنة النّاس.

ب/ اللّهجات العاميّة الجزائريّة: وهي لغة أغلبية سكان الجزائر، فهي أداة التّواصل بين جميع النّاس، وتعتبر لغة الحديث والتّعاملات اليّوميّة، والعاميّات الجّزائريّة كثيرة ومتنوّعة، لايسعنا الزّمان والمكان لذكرها جميعا، لكن يمكن توزيعها إلى أربع مناطق رئيسيّة، وهي:

- **عاميّات الشّرق الجّزائريّ:** ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: البويرة، سطيف، بومرداس...إلخ
- **عاميّات الوسط الجّزائري:** ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: الجلفة، البليدة، عين الدّفلة...إلخ
- **عاميّات الغرب الجّزائريّ:** ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: سعيدة، تلمسان، سيدي بلعباس...إلخ
- **عاميّات الجنوب الجّزائريّ:** ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: تتمراست، أدرار، إليزي...إلخ

3/ المستوى الوظيفيّ: ويعدّ هذا المستوي من أهم مستويات التّواصل، باعتبـــاره " وسيلة الانفتاح على العالم الخارجي والتّبادل الفكّري والثّقافي كالفرنسية والانجليزيـــة"[32] ويقصد به ذلك المستوى الذي تستعمل فيه اللّغة "لأغراض خاصة باعتبـــاره تواصـــل مبني على مفهوم الحاجة أو الضرورة، ويمثّله استعمال اللّغة الفرنسيّة بالدّرجة الأولـــى واللّغة الانجليزية بالدرجة الثّانية."[33]

وانطلاق مما سبق يمكننا القول أنّ الواقع اللغوي في الجزائـــر يتميـــز بمظهـــريين متناقضيين في الظاهر منسجيمين في الواقع، ألا وهو " التّعايش والصّراع" ، ويمكن أن نلخص هذا المشهد اللّغوي في ثلاث مشاهد لغويّة وهي[34]:

أ/ مشهد اللّغة العربيّة الفصحى: ويتمثل في المستوى الرّسميّ الذي تســتعمل فيـــه اللّغة في الإبداع العلميّ والأدبيّ والثّقافيّ.

ب/ مشهد العاميّات واللّهجات المحليّة: ويتمثل في المستوى التّواصلي الذي هدفـــه تحقيق التّواصل، سواء أكان هذا التّواصل باستخدام اللّغة العربيّة الفصحى _ وهو قليـــل جدا_ أو باستخدام العاميات الأمازيغية، واللّهجات العاميّة العربيّة.

ج/ مشهد اللّغات الأجنبيّة: ويتمثّل في المستوى الوظيفيّ، وتعد اللّغة الفرنسيّة على رأس هذه اللّغات، ويرجع لاعتبـــارات تارخيـــة أولا (لغـــة المســـتعمر)، واقتصـــادية وستراتيجية ثانيا، حيث تستعمل اللّغة الفرنسيّة بنسبة معتبرة في المجتمـــع الجزائـــري كما لها حضور قوي في الإدرات العمومية والمؤسسات الاقتصادية.

وعليه، وانطلاقا من الواقع اللّغوي الذي تعيشه الجزائر نستطيع القول أنّ الجزائـــر تزخر بتعدد لغوي هائل وثراء لغوي مميز ونادر، كونها تضم جميـــع أشـــكال التّعـــدد اللّغوي، ممّا يخولها أن تكون قطبا للتّنوع الثّقافيّ، هذا الأخير الذي يعد منبـــع التّنميـــة المستدامة، والتّقدم والرّقيّ الحضاريّ.

رابعا/ التّعدد اللّغويّ والتّنوع الثّقافيّ: تحظى اللّغة بمكانة مهمّة فـــي حيـــاة الفـــرد والمجتمع والعالم ككل، كما أنّها ذات ثقل استراتيجي مميز كونها الركيزة الأساسية فـــي

الاتصال والتّعليم والتّنمية والاندماج الاجتماعي، فــ" اللّغــات هــي مــن المقومــات الجوهرية لهويّة الافراد والجماعات، وعنصر أساسي في تعايشهم السّلمي كمــا أنّهــا عامل استراتيجي للتّقدم نحو التّنميّة المستدامة."[35]

وإذا تحدثنا عن التّنوع الثّقافي فإنّنا سنتحدث بالضرورة عن اللّغة، بحكم أنّهــا أهــم مظاهر التّنوع الثّقافي وأهم مكونات الثّقافة، وهي باختصار النّــاطق الرّســمي بلســان الثّقافة؛ إذ ترتبط اللّغة بالتّنوع الثّقافيّ ارتباطا وثيقا فــ: "لاتعتبر اللّغات أداة للاتصــال فهي تمثل النّسيج الحقيقي لأشكال التّعبير الثّقافي، وهي الحامل للهويّــة والقــيم ورؤى العالم."[36]، فاللّغة ليس وسيلة للاتصال والتّواصل كما يعتقد أغلــب النّــاس؛ بــل لهــا وظائف ومنافع أخرى فهي من يمثل جميع أشكال التّعبير الثّقافي، كمــا أنّهــا أســاس الهويّة والقيم، وهي من يرسم الوجود، باختصار فإنّ اللغة وعــاء الثقافــة باعتبــار أنّ الثّقافة تجمع بين كل الهويّة والقيم العادات والتّقاليد.

وتعدّد اللّغات من بين الظواهر اللّغويّة التي تدعم ويخدم وينمــي التّنــوع الثّقــافي فاللّغات ضرورة جوهريّة للتّنميّة، فــــ " ثمة حاجة إلى حفظ التّنوع اللّغــوي العــالمي كواحد من مستلزمات التّنوع الثّقافي والتّرويج للتّعدد اللّغوي والتّرجمــة بغيــة تعزيــز الحوار بين الثّقافات."[37]

ولذلك اهتمت منظمة اليونيسكو باللّغات وتحديدا بظاهرة التّعدد اللّغوي، باعتبــار أنّ تعدد اللّغات في البلد الواحد يؤدي إلى التّنوع الثّقافي، هذا الأخير الــذي يعــدّ منطلــق التّنمية المستدامة، وأداة التّطور والتّقدم الحضاري كما أقرّت بأهمية العوامــل اللّغويّــة فهي في نظرها " تؤدي دورا استراتيجيا في القضاء على الفقر والفقر المدقع والجــوع وذلك لأنّ القدرة على اكتساب المعيشة والمشاركة فــي الحيــاة الاجتماعيــة والعامــة والتّحاور تعتمد اعتمادا كبيرا على المهارات اللّغوية"[38]، كما لا ننسى أيضــا أنّ تعــدد اللّغات إلى جانب مساهمته في تسيير عمليّة التّواصل بين الأفراد الذين ينتمــون إلــى ثقافات مختلفة يسهم أيضا في حماية اللّغات المهدّدة.

خامسا/ دور التّعدد اللّغوي في تنمية التّنوع الثّقافي في الجزائر: تعتبر الجزائـــر من أهمّ البلدان التي تزخر بالتّنوع اللغوي، بل إنّها وبدون منازع قطب للتّنوع اللّغــوي حيث تضم بين أضلعها كمّا معتبرا من الثّقافات واللّهجات واللّغات، وكل لغـــة ولهجـــة من هذه اللّغات واللّهجات تروي ثقافتها، فلا يوجد مظهر من مظاهر التّعدد اللّغوي إلّـــا ووجد في الجزائر.

وقد سبق وأشرنا أنّ المجتمع الجزائري مجتمع متعدّد اللّغات، فهـــو يســـتعمل فـــي تواصله لغات مختلفة كالعربيّة الفصحى والفرنسيّة والانجليزيّة، كما يســـتعمل لهجـــات مختلفة كالأمازيغية والشّاوية والميزابيّة والعاميّة...الخ، وهذا الاختلاف والتّعدد اللّغــوي هو منبع التّمازج الثّقافي الذي يؤدي إلى التّنوع الثّقافي؛ بحكم أنّ اللّغة جزء من الثّقافة.

فاللّغة لا تنحصر في مجال الكلام والتّواصل فقط، بل تتعدى الأمر إلى أبعـــد مـــن ذلك؛ فحين يتحدث المرء بلغة معينة فإنّه بوعي منه أو بدون وعي يستعمل ويمـــارس ثقافة، وتاريخ ووعي وهوية تلك اللّغة.

وإذا عدنا إلى مفهوم الثّقافة نجد أنّها كما يقـــول إدوارد تـــايلور(Edward Tylor): "المركّب الكلّي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخـــلاق والقـــانون والعرق والقدرات والعادات الأخرى التي يكتســـبها الإنســـان بوصـــفه عضـــوا فـــي المجتمع"[39]، والمتأمل لهذا التّعريف يستنتج أنّ أغلب هذه المركبات(مركبـــات الثّقافـــة) إن لم نقل كلها(المعرفة، المعتقد، الفّن، الأدب...) تعدّ اللّغة قوامها وأساسها؛ فالمعرفـــة تكتسب عن طريق اللّغة والمعتقد يعتمد على اللّغة، وقد كانت معجزة نبيّنـــا وحبيبنـــا محمد صلى الله عليه وسلم لغويّة (القرآن الكريم) وكذلك هو الحال مع كلّ مـــن الفّـــن والأدب والأخلاق والقانون فكلها تعتمد على اللّغة.

وتجدر الإشارة أنّ مصطلح اللّغة هنا لايقصد بها اللّغة الأكاديمية الفصـــحى فقـــط كالعربية الفصحى والفرنسية والانجليزية...، بل هو مصطلح أوسع من ذلك فهو يضـــم

اللّهجة والعاميّة والفصحى واللّغات الأصليّة والأجنبية، واجتماع هذه اللّغات واللّهجات في مجتمع ما يجعل منه مجتمعا متعددا لغويّا.

وعليه وانطلاقا من عرضنا للواقع اللّغوي في الجزائر، وانطلاقا العلاقة الوثيقة التي تربط اللّغة بالثّقافة نستطيع القول أنّ الجزائر ونظرا لما تمتلكه من تنوع وثراء لغويّ تعدّ بحقا قطبا للتّنوع الثّقافيّ يمكنّها من تحقيق التّنميّة المستدامة، ويخولها أنّ تكون من تحقيق التّطور والتّقدم والالتحاق بركب التّقدم الحضاري طبعا إذا هي أحسنت استغلال هذا التّنوع، فلا يخفى على مطّلع أنّ هذا التّنوع سلاح ذو حديين ويمكن أن يكون خطرا على هويّة المجتمع الجزائري.

خاتمة: إنّ اللّغة كانت وما تزال العمود الفقري الذي يحرك كل شيء في العالم والمجتمع، ولا يوجد شيء ولا وسيلة تستطيع أن تحلّ محلّ اللغة أو تنوب عنها، فلا توجد ظاهرة تساعد في تنمية المجتمع وتطورو وتقدّمه إلّا وكانت اللّغة أحد أقطاب هذه الظاهرة، ولعل التّنوع الثّقافي أحد أهم هذه الظواهر التي تعدّ اللّغة عنصرا فاعلا فيها فكلما تعددت لغات المجتمع كلما تعدّدت وتنوعت ثقافاته لينشأ لذلك تنوع ثقافيّ يكون بمثابة البؤرة التي ينبع منها التّقدم والتّطور الحضاريّ، والجزائر بلد يمتك ثروة لغويّة تتمثلّ في تعدد لغاته ولهجاته وتنوّع ثقافاته جعلته منبعا للتّنوع الثّقافي؛ فاللّغة بالنّسبة للتّنوع الثّقافي كالروح بالنّسبة للجسد، ومن هذا المنطلق تناولنا في هذه الورقة البحثية موضوع التّعدّد اللغوي ودوره في تنمية التّنوع الثّقافي في الجزائر، وخلال إنجازنا لهذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- ✓ إنّ التّعدد اللّغوي ظاهرة لغويّة منتشرة في جميع المجتمعات، ولا يوجد تقريبا مجتمع يخلو من هذه الظاهرة، والمجتمع الجزائري أحد المجتمعات الّتي تزخر بتعدد وتنوّع لغوي مميز.
- ✓ الازدواجية اللّغويّة والثنائية اللّغوية من أهم مظاهر التّعدد اللّغوي، وهما مصطلحين أثارا جدلا كبيرا في السّاحة العلميّة والمعرفيّة، ولا يوجد حتى الآن اتفاق

بين العلماء حول استخدامهما، فأحيانا تستخدم مصطلح الثّنائية للدلالة على قدرة الفــرد على استخدام نظامين لغويين ومختلفين كالعربية والفرنسية، وأحيان يطلق علـــى هــذا المفهوم مصطلح الازدواجية.

✓ تتمتع الجزائر بتنوع لغوي مميز يخولها أن تكون قطبا ثقافيا عالميّا، فاللّغة لسان الثّقافة وأساس الأمة.

✓ التّنوع الثّقافي ظاهرة موجودة منذ وجود الإنسان، فالاختلاط والتّمــازج شـــيء طبيعي في الإنسان فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ولايمكنـــه العـــيش بمعـــزل عـــن الآخرين.

✓ التّنوع الثّقافي سلاح ذو حديين: فهو عامل إيجابيّ من جهة؛ كونه يســـهم فـــي تقاسم الثّروة الثّقافيّة بين الأمم ويقوّي الروابط بين أهلها، وعامل سلبيّ؛ باعتبـــار أنّـــه يمكن أن يكون خطرا على هوية الأمة وثقافتها وعاداتها وتقاليدها ولغتها بما يحمله من تأثير لثقافة ولغة الأمم الأخرى.

✓ يوجد تناسب إيجابي بين اللّغة والتّنوع الثقافي؛ فكلّمـــا زاد عـــدد اللّغـــات فـــي المجتمع زاد التّنوع الثّقافي وكلما قلّ عدد لغات المجتمع (التّعدد اللّغوي) قـــلّ التّنـــوع الثّقافي في المجتمع.

✓ التّعدد اللّغوي ظاهرة إيجابية في المجتمع، فهو يساعد على التّفاهم بـــين النـــاس ويشكّل معارف متماسكة تنشأ بينهم، وفي هذا الصّدد يقول الباحث أوفيليـــا غارســـيا: " التّربية الثنائية للغة ومتعدّد اللّغة هي في الحقيقة تربية صحيحة متعددة الثّقافة، تتجـــاوز التعبير عن الأحاسيس الإيجابية، لتمنح الناس وسيلة حالية، وهي الثّنائية لخلق معرفـــة وتفاهم كبيرين."[40]

ولقد أردنا في ختام هذه المداخلة أن نطرح جملة من التّوصيات والإقتراحات الّتـــي نرى أنّ تجسيدها على أرض بالواقع يمكن أن يسهم في التّنوع الثّقـــافي فـــي الجزائـــر

وفي استغلال هذا التّنوع اللّغوي والثّقافي الذي يتمتع به بلدنا، ومن أهم هذه التّوصيات نذكر:

✓ ضرورة استغلال الثّروة اللّغويّة التي تتمتع بها الجزائر في تحقيق التّنمية المستدامة، فاللّغة هي المولّد الأساسي للتّنوع الثّقافيّ الذي يعدّ المحرك الرئيس للمجتمعات وتنميتها في شتّى المجالات.

✓ استغلال التّنوع الثّقافي الموجود في الجزائر في تطوير عمليّة التّعليم، وذلك من خلال الاهتمام والحرص على تعليم اللّغات المستعملة في بلدنا، وهذا سيؤدي لا محالة إلى تنمية خبرات وثقافات المتعلّمين، مما يساعد على فتح الآفاق أمامهم نحو التّقدم والرّقيّ، ويزيد من إبداعاتهم.

✓ توعية مختلف أفراد المجتمع بضرورة احترام الثّقافات المختلفة داخل المجتمع وضرورة استغلال هذا التّنوع الثّقافي في تحقيق ذواتهم، وتطوير النّقد الذّاتيّ لديهم.

✓ القيام بحملات تحسيسية لتوعية أفراد المجتمع بأهمية التّنوع الثّقافي بصفة عامة، وتعريفهم بالتّنوع الثقافي الذي تتمتع به الجزائر، وإقناعهم بأنّه ثروة لابدّ لنا من استغلالها لنلحق بركب التّقدم الحضاري.

✓ ضرورة إدراج وحدات وبرامج تعليمية تستوعب التّنوع الثّقافي الموجود في الجزائر؛ حيث يكون هدفها تعريف المتعلّم بمفهوم التّنوع الثّقافيّ وأهميّته ومظاهره والأهم من ذلك كيفية استغلاله لتحقيق التّقدم والرّقي في شتّى المجالات، وهذا سيسهم لا محالة في بناء جيل واع ومدرك لأهميّة التّنوع الثّقافي، قادر على استغلاله في تحقيق التّطور والتّنمية الفرديّة والجماعيّة.

المصادر والمراجع:

1: صالح بلعيد، في الأمن اللّغوي، دار هومة، الجزائر، (د. ط)، 2010م، ص224.

2: نور الدين دريم، أثر التّداخل اللّغوي في العملية التعليمية، جامعة حسيبة بن بو علي الشّلف، الجزائر، مقال منشور ص120.

3: ينظر: ملوك خديجة، التعدد اللغوي وأثره على تعليمية اللغة العربية في الجزائر رسالة ماستر، جامعة ابو بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، 2015م/ 2016م، ص13.

4: لويس جان كاليفي، علم الاجتماع اللّغوي، تر: حسن حمزة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008م، ص389.

5: محمد الأوراغي، التّعدد اللغوي وانعكاساته على النّسيج الاجتماعي، مطبعة النّجاح الجديدة الدار البيضاء، الرباط، ط1 2002م، ص11.

6: لويس جان كاليفي، علم الاجتماع اللغوي، ص33.

7: عمر بوقمرة، التعدد اللغوي _ قراءة في المصطلح والمفهوم والمظاهر_، مجلة الصوتيات حولية أكاديمية محكمة متخصصة مخبر اللّغة العربية وآدابها ع19، جامعة البليدة2، لونيسي علي، الجزائر، ص104.

8: منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط1، 1987م ص50.

9: عمر قوقمرة، التّعدد اللّغوي _قراءة في المصطلح والمفهوم والمظاهر_، ص105.

10: ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة (د.ط)، (د. ت)، مادة (زوج) ص1885.

11: عبد الرحمن بن محمد القعود، الازوداج اللّغوي في اللغة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط2، 1997م، ص11.

12: جوليت غارمادي، اللسانيات الاجتماعية، تع: خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990م ص152.

14: أحمد برماد، أزمة التّداخل اللّغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائرية الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم الآداب واللّغات، ع19 جانفي 2018م ص57.

15: عبد الرحمان محمد القعود، الإزدواج اللّغوي في اللّغة العربيّة، ص11.

16: جورج كوتو كدجيان، رجون كوربيت، تقرير اليونيسكو العالمي، الاستثمار في التّنوع الثّقافي والحوار بين الثّقافات، منظمة الأمم المتّحدة للتّربية والثّقافة فرنسا، 2009م المقدمة.

17: المرجع نفسه، المقدمة.

18: مفهوم التّنوع الثّقافي، كتاب وزي وزي، 28مارس 2019، 8:45، https:// weziwezi. Com

*الإثنوغرافيا: مصطلح يطلق على الدراسة الوصفية لطريقة وأسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات ومصطلح الإثنوغرافيا (Ethnography) في بريطانيا يعني البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشّعب والأقوام البدائية التي درسوها دراسة ميدانية.

19: زاراري حبيبة، الحق في التّنوع الثّقافي، مذكرة ماجيستير، جامعة سطيف2 2013م/2014م، ص2.

20: عبد المجيد بكاي، التّنوع الثّقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر، أطروحة دكتوراه جامعة باجي مختار، عنابة 2015م/2016م ص68.

21: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

22: ينظر: مفهوم التنوع الثقافي، كتاب وزي وزي.

23: جورج كوتو كدجيان، رجون كوربيت، تقرير اليونيسكو العالمي، الإستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، ص3.

24: ينظر: عبد المجيد بكاي، التّنوع الثقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر، ص69.

25: ينظر: أحمد برماد، أزمة التّداخل اللّغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائريــة ص59.

26: إميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت_لبنــان ط1 1985م، ص144.

27: ينظر: أحمد برماد، أزمة التّداخل اللغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائريــة ص59.

28: ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

29: ملوك خديجة، التّعدد اللّغوي أثره على تعليمية اللّغة العربيّة في الجزائر، مذكر ماســتر جامعة بلقايد، تلمسان، الجزائر 2015م/2016م، ص35.

30: ينظر: المرجع نفسه، ص36.

31: ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

32: المرجع نفسه، ص37.

33: أحمد برماد، أزمة التّداخل اللّغوي بين العاميّة والفصحى في المدرسة الجزائريّة ص59.

34: ينظر: المرجع نفسه، ص58.

35: اليونيسكو، السّنة الدولية للغات، البطاقة الرئيسية، الأمم المتّحدة، 2008م، المقدمة.

36: تقرير منظمة اليونيسكو، الاستثمار في التّنوع الثّقافي والحوار بــين الثّقافــات، مــوجز تنفيذي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، 2009م ص13.

37: المرجع نفسه، ص14.

38: اليونيسكو، السنة الدولية للغات، المقدّمة.

39: عبد المجيد بكاي، التنوّع الثقافي وعلاقته بالتنوع القيم التنظيمية داخل المنظمات متعــدّدة الجنسيات في الجزائر، ص15.

40: أوفيليا غارسيا، التّربية الثّنائية للغة، دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريال كوكــاس (د. ط)، (د. ت)، ص63.

التعدد الثقافي:
الإيجابيات والمحاذير

أ. بوخالفة إبراهيم
المركز الجامعي مرسلي عبد الله

مقدمة: إنّ الحقيقة التي يتواضع حولها كلّ البشر هي أن الثقافات لا يمكن أن تعيش بمعزل عن محيطها الخارجي، وأنه ما من شيء يقتلها كالعزلة عن الثقافات المجاورة لها طولا وعرضا. غير أن عمليّات المثاقفة التي قد يصار إليها بين الحضارات كثيرا ما كانت تفضي إلى ذوبان كثير من عناصر الثقافة المحليّة وأحيانا بما يفقدها معالم هويّتها، ويجرّها إلى عمليّة انسلاخ عنيف عن ماضيها بكلّ ما فيه من أمجاد وقيم وتواريخ. فهل من شأن هذه المزالق أن تدفع بنا إلى الانغلاق عن الذّات بدعوى تحصينها من عوامل فقدان الهويّة، أو الانسلاخ عن ثقافة الأسلاف، أو الانجرار إلى الثقافة المهيمنة بدعوى التحديث والتقوّي على مظاهر الضعف والتخلّف؟ ما هي شروط المثاقفة السليمة التي من شأنها أن تقوّي الهويّة الثقافيّة للذّات المحليّة وتمدّها بمزيد من الحيويّة والقدرة على النموّ الذّاتي والعطاء وتحقيق التنمية الماديّة والروحيّة للشّعوب؟ تلك هي أسئلة هذه المداخلة وطموحها أن تضيف فائض معرفة إلى هذه الإشكالية المتجدّدة، والتي لا تزال تتعاظم خطورتها مع أشراط العولمة والامبرياليّة الثقافيّة التي يمارسها الغرب المتعالي.

مفهوم المثاقفة: دخل مصطلح "المثاقفة" في نسيج الثقافة العربية بعد انسحاب الاستعمار الكلاسيكي الغربي من الأراضي العربية التي احتلها وسلبها كل مقومات الحياة، عندما طرح المثقفون العرب أسئلة الحداثة والمعاصرة التي كشفتْ ضعفهم وعجزهم عن إحداث النهضة التي تمكّنهم من استرجاع مجد غابر. لقد حلّ هذا

المصطلح على الساحة العربية باعتباره سبيلا للخلاص رغم ما حفل به من مفارقات تتربص بشرعيته ومآله كلّ متربّص.

تدلّ كلمة "المثاقفة" (Acculturation) في اللغتين الانجليزيّة والفرنسيّة على معنى "الحركة نحو الثقافة، وهو المعنى الجوهري الذي يضمنه التركيب الإلصاقي بمعيّة السابقة الصرفيّة (ac). ومن هنا نتبيّن أنّ أصل التسمية كان في الكتابات الغربيّة. تدلّ السّابقة في اللغة اللاتينيّة التي اُشْتُقَّتْ منها على معاني الحركة. والحركة لا تعني الإلغاء (suppression) ولا الاجتثاث (arrachement) بأيّ حال من الأحوال؛ بمعنى آخر، إنّ عمليّة المثاقفة لا تفضي إلى إلغاء ثقافة ما، بمجرّد احتكاكها بما يخالفها.

كتب ألفونس دوبرون (Alphonse Dupront) عام 1965 أنّ "المثاقفة يمكن تعريفها على أنّها حركة فرد أو جماعة، أو حتّى مجتمع نحو ثقافة أخرى حتّى يتأسس حوار بين الثقافتين، وتتمّ إفادة الدروس المتبادلة ويحدث احتكاكٌ واختلاطٌ وينتج عن ذلك في غالب الأحيان نوعٌ من الميل نحو تحقيق التوازن ولو بمنطق المواجهة"[1]. إنّ هذا التعريف الشامل والمركز يؤسّس لحوار واع بين الثقافات يهدفُ إلى تبادل الخبرات والتفاعل الإيجابي الذي يفضي إلى نسبيّة القيم وتجاوز الذّات استشرافا لحالة ثقافيّة متجدّدة، باعتبار الثقافة صيرورة غير منتهية وغير ثابتة ولا تعرف الحواجز والمسكّنات.

في معجم كازمرسكي (Kazimirski) نلمس معنى الصراع الذي لا تستوي أطرافه، بينما تشير الموسوعة العالميّة للمصطلح إلى أنّ أصل الكلمة لاتيني ويعني التقارب. غير أن الانجليز يفضلون استعمال التبادل الثقافي بدل المثاقفة (Cultural change)، وهذا يعني من ضمن ما يعنيه الأخذ والعطاء وتكافؤ الطرفين، وهي أشبه ما تكون بالعمليّة التجاريّة بين طرفين يقفان على قدم المساواة. أمّا الاسبان فإنهم يؤثرون مصطلح "التحول الثقافي"، فهم يعرفون الظاهرة باعتبار ما سيكون

إذْ أن نتيجة المثاقفة ستفضي بالضرورة إلى تحول نــوعي فــي أنمــاط التفكيــر وأساليب العيش ورؤية العالم. كما أن نظرتنا إلى آخرينا ستتغير بالضّرورة. أمّــا الفرنسيون فإنهم يذهبون إلى عبارة "التمازج الحضاري"، وهي تســمية لــم تعمــر طويلا لأنها تسقط عنصر التفاعل تأثرا وتأثيرا بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر، وكــأنّ هذا التمازج يحدثُ تلقائيّا وآليّا؛ بينما المثاقفة تكشف عن قدر كبير مــن المكابــدة لمفاعيلها، والمعاناة من آثارها، خصوصا إذا كانت الثقافــة الوافــدة ناشــزة عــن المألوف وغريبة وصادمة للوعي المحلّي. ولقد رأينا في حالات كثيرة أن الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب قد أحدث هزّات اجتماعية عنيفة وردود أفعال غير قابلة للاحتواء، نتيجة مواقف عدائيّة من كلّ غريب، ويتطلّب الأمــر عمليّــة تــرويض طويلة المدى من أجل إحداث تلطيف نسبي في رفض التحاور مع الغير.

من حصيلة تلك التعاريف يمكننا إجمالا تشكيل تصوّر عام عــن المثاقفــة فــي معظم المعاجم، على أنّها الاحتكاك الإرادي (الترجمة، السياحة، البعثات العلمية) أو القهري (الاستعمار، النفي)، أو الفجائي (اللجــوء السياســي الاضــطراري) بــين جماعتين إثنيّتين مختلفتين. وفي هذه الحالة فإن أفــراد المجمــوعتين ســيواجهون عمليّة تغيّر ثقافي لأنّهم سيجدون أنفسهم إزاء جماعة تختلفُ عنهم في أنماط العيش والسلوك والقيم ومعايير الأحكام الأخلاقيّة وما شابه ذلك. تفضــي هــذه العمليّــة التواصليّة إلى اكتساب ثقافة جديدة بغضّ النظر عن الموقف منها. ومن هنــا فــإن الثقافة هي معارف مكتسبة وليستْ موروثة. تتحقق المثاقفة باستمرار في الزمــان والمكان مع كلّ غريب ووافد. إنها تعني المشاركة والتواصل بين الجماعات الإثنيّة المتباينة في اللغة وكل مكونات الحضــارة. وقــد شــاع هــذا المصــطلح فــي الانثروبولوجيا الثقافيّة مع أواخر القرن التاسع عشر وخصوصا في أمريكا.

أشكال المثاقفة: عمليّا تتجسّد المثاقفة عبر أشكال متعدّدة، منها الإراديّة ومنهــا القهريّة. وفي كلّ الحالات فإن الأفراد أثناء كل عمليّات المثاقفة ســيجدون أنفســهم

إزاء مواجهات فكريّة هي أشبه ما تكون بالمعارك. يجادل إدوارد سعيد أن حروب ما بعد الاستعمار هي حروب ثقافيّة حامية الوطيس. لقد تغيرت أدوات الاقتتال من الرصاصة إلى الكلمة. فعالم اليــوم هــو عـــالم مفتــوح، تهــاجر فيــه الأفكـــار والإيديولوجيّات دون مراعاة للحدود الجغرافيّة أو القوميّة أو اللغويّة. إنها كائنـــات عابرة للحدود، تتواصل وتتجابه وتقاتل بعضها بضراوة، من أجل احتلال العقــول واختراق التحصينات التي تقيمها الذّات المعزولة. لقد ظلّ الاتحاد السوفياتي ســابقا منكفئا على نفسه، ومنقطعا عن العالم الحر، بدعوى صدّ الإيديولوجيا البرجوازيّــة المستفحلة. وظلّ النظام الشيوعي يحكم شعبه بالحديد والنار، ويمنعه من التواصـــل مع الغرب بكلّ أساليب القوة. غير أن هذه المقاومة لم تعمّر طويلا ولم يلبث الجدار العازل أن سقط "لأنّ الوجود البشري يعيش في تفاعل مســتمر مــع غيــره مــن الموجودات البشريّة، أو إن شئنا التعبير بطريقة أخرى قلنا إن الوجود البشري هــو وجود مع آخرين (.....)، فالوجود البشري هو أساسا وجود جماعي" [2]. وأن يضع البشر حواجز بين المجتمعات هو خرقٌ لسنن الكون.

المثاقفة الإراديّة:

الترجمة: إنّنا نعبّر عن حاجتنا للآخرين من خلال الانفتاح عليهم والاستعانة بما توصّلوا إليه من خبرات ومعارف افتقدها، كما أمدّهم بما توصّلت إليه من تجـــارب ومهارات تعوزهم. يولد الإنسان ناقصا، ويظلّ طيلة حياته يبحث عن تتمّة نقصانه الذي لن يظفر به إلاّ لدى آخريه. والمجتمع الذي يدّعي القدرة على الاستغناء عـــن الآخرين، يعاني من تضخم أناه، ومن عقدة التفوّق القومي والشوفينيّة ذات الطّبيعة العنصريّة. في القرن السادس عشر أطلق المفكر الفرنسي صيحة إلـــى مواطنيــه قائلا: "فلتكن موافقتنا منوطة بنا، ولنتخلص من الارتباطات التي تربطنـــا بـــالآخر ولنحمل على عاتقنا القدرة على العيش وحدنا بدراية، وأن نعيش كما يحلــو لنـــا"[3]. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بطريقة آليّة، هو ما إذا كان مونتـــانيو قـــد عـــاش

معزولا عن الآخرين كما كان يدعو مواطنيه، أم أنّه يستثني نفسه ممّا يدعو إليـــه؟ هل عاش الشعب الفرنسي معزولا عن محيطه الإقليمي والدولي؟ وهل كانت فرنسا قادرة فعلا على الاستغناء عن المجتمع الدولي؟ والحقيقة أن تاريخ فرنســـا القـــديم والحديث هو تاريخ مشكّل من الهجرات والحروب والمغامرات الاستعماريّة الـــذي لا يكاد يخلو منها قرنٌ من القرون الحديثة.

إنّ حاجة الإنسان إلى الاحتكاك بالثقافات الأجنبية يجد مخرجه الطبيعي في فعل الترجمة. إنها تسمحُ بنقل المعرفة التي أفتقدها، أو أشكو من نقص في مجالها، مـــن لغة الآخر إلى لغتي. وإن نقل هذه المعرفة من علوم دقيقة وإنســـانيّة تحمـــل فـــي طبقاتها التحتيّة قيم اللغة التي كُتِبتْ بها ورؤيتها للعالم وقيمها الجماليّـــة وثراءهـــا الفكري وعمقها الفلسفي. إن كلّ ذلك يمر عبر اللغة الأصـــل ليصـــل إلـــى اللغـــة الهدف، فيتفاعل معها، سلبا أو إيجابا، طولا أو عرضا، ويُحْدِثُ في عقل المتلقـــي ثراء وحيويّة لا تتوفران لغيره. لقد مارس البشر الترجمة منذ الحضارات القديمـــة ولا يزالون يشعرون بالحاجة الماسّة إليها. إن محدوديّة العقـــل الإنســـاني تجعلـــه قاصرا عن تعلم كل لغات العالم، وإن قِصَر حياته يجعله قاصرا عن استيعاب كـــل تجارب الإنسانيّة واختزالها في شخصه. وإنّ من شأن الترجمة أن تسدّ هذا الفـــراغ الذي تحدثه الطبيعة الناقصة للإنسان.

لقد مارس العرب الترجمة لمّا شَعروا بأنهم في حاجة إلى خبرة الذين ســـبقوهم في مجال المعرفة الإنسانيّة، وقد كان لذلك الجهد العلمي ثمـــاره المشـــهودة علـــى المستوى الحضاري. فالمجد الذي حقّقته الحضارة العربية والإسلاميّة مدين لفعـــل الترجمة. لقد كان احتكاك علماء المسلمين بالغرب القديم وبالحضارات الشرقيّة التي سبقتهم أثره الواضح على شخصيّة الفرد العربي الذي غادر طباعه القبليّة والبدويّة المغرقة في الجهل والتعصّب، ليعانق الروح الإنسانيّة العاليـــة والمتســـامحة مـــع اغيارها، دون أن يفقده ذلك القيم التي حملتها له نصوصه المقدّســـة. بـــل إنّ تلـــك

النصوص ذاتها تلتقي مع الفكر الإنساني العالمي على أكثر من صعيد. لقد اهتـدي العربي إلى نقطة الارتكاز التي تتوسط الحضارات العالميّة كلها، بفعل التواصل مع اللغات التي يجهلها عامّة الناس في المجتمع الواحد. لقد "كان المأمون يعطـي وزن الكتاب المترجم ذهبا للمترجم"[4]. وهو سلوك فيه الكثير مـن الاحتـرام لإنسـانيّة الإنسان بغضّ النظر عن تحيزاته القوميّة والدينيّة والعرقيّة. لقد غنم العرب مجـدا علميا لم يتهيّأ لغيرهم من الأمم بفضل العقل الكوسموبوليتي الـذي اكتسـبوه مـن الاحتكاك بالآخر وتعلّم لغته ونقل معارفه إلى الفئات العريضة من القرّاء العـرب وغير العرب الذين كانوا يشاركونهم الوطن.

الترجمة من ناحية أخرى هي القناة المثلى للتعرف على حياة الآخر ومشـاركته همومه التي هي همومي بالدّرجة الأولى، ولولا ذلك ما سعيت لقراءتها ونقلها إلـى أهل بلدي ليشاركوني القراءة. إنّ نقل تجارب الآخرين هو نقل لتجارب الذّات على الصّعيد الإنساني. "إنّ الترجمة تبلبل كلّ تمركز حول الذّات وتدفعنا إلى الانخـراط في السياق الثقافي العالمي لأنها هي التي تجعلنا نتشابك مع قضايا الأمم الأخـرى ونلتقي بإرثها الثقافي والعلمي"[5]. إن الإقبال على ثقافات الآخر يفضي إلـى نسـبيّة القيم، ويوسع مدارك العقل ويجعل العالم جميلا ومتنوعا. كما أن عـرض الـروح على عصور التاريخ لكل الأمم وتأمّل حياة الحضارات الغابرة للشّـعوب الأجنبيـة عبر الترجمة يجعل الإنسان أكثر تسامحا مع الاختلاف الثقافي والتنوع الـديني. إنّ أفضل مدرسة لتشكيل الحياد هي العرض المستمر للعقل والروح لعدد مـن تنـوّع الحيوات الأخرى والابتداعات والممارسات، وجعل الروح تتذوّق مثل هذا التنـوّع الدّائم من أشكال طبيعتنا[6] المتنوّعة تنوعا بديعا.

إنّ من مزايا الترجمة أنها تحوّل تراث الآخرين إلى إرث عالمي، من حقّ كـلّ القوميّات أن تتمثّله وتحوّلَه إلى جزء عضوي من ثقافة الذّات. فالعرب لمّا ترجموا الفلسفة اليونانيّة إلى لغتهم القوميّة، عرّبوها وأجروا عليها مسحة من روحيّة البيئـة

العربيّة الإسلاميّة حتى غدتْ مُكوِّنا من مكونات الحضارة العربيّة في ظرف زمني قياسي. ومن هنا تبدو الترجمة أداة من أدوات إثراء التراث القومي في كلّ مجالات المعرفة وهي تساهم في تجديده وتطوير اللغة القوميّة من خلال تحويلها إلـى لغـة حمّالة للمعرفة في مختلف المجالات. لا يتمّ إثراء اللغة العربية من خلال الترجمـة على الصّعيد المعجمي فحسب، بل وخصوصا على المستوى المفاهيمي. إنّ اللغة لا تتجلّى قيمتها الجماليّة والدلالية إلاّ من خلال الترجمة؛ ولا يمكنهـا أن تتجـدّد وأن تكشف عن خصوبتها وفرادتها الصوتيّة وخصوبتها المعرفيّة إلاّ من خلال إدخـال النصوص الجديدة في كنفها، ودون اختراق بنيتها النحويّة. ذلك أن المجتمع القارئ لا يكتفي باستهلاك ما يقدَّمُ له من خارج حدوده اللّغويّة، بل إنّه يعرضه على ملكاته وذاكرته الثقافيّة فيما يشبه المواجهة الجدليّة بين الدّاخلي والخارجي، بـين الأليـف والغريب، بين المركز والهامش. تلك المواجهة التي تفضي إلـى تركيـب ثقـافي كوني، يستشرفُ العالميّة ويبشّرُ بعالم دون حروب ودون كراهيّة ودون مركزيّة.

من هذه الناحية فإن التّرجمة تتماهى مع الأدب المقارن في وظيفتها المقارنيّة والتفاعليّة. فهي تسمح بمقارنة اللغات والثقافات وهـي تـدعو إلـى قبـول مبـدإ الاختلاف وتحويله إلى مصدر إثراء معرفي وإغناء جمالي للنصوص من مختلـف اللغات والقوميّات. وهي بذلك تدعو إلى تجاوز الذّات وعبور الحدود وملأ الفـراغ وسدّ الفجوات الناتجة عن غياب الحوار والانكفاء على الـنفس والاكتفـاء بالبعـد الواحد، واللون الأوحد والصوت المنفرد فيما يشبه المونولوج فـي عـالم سـديمي وموحش، وطبيعة عدائيّة، لا تترك مجالا للتّفاوض، ولا خيطا للتواصل. إنّ ترجمة النصوص الأجنبيّة إلى اللغة الوطنيّة يدفعني إلى القلق بشأن القناعات التي تلقّيتهـا عن الثقافة المحليّة باعتبارها مسلمات ميتافيزيقيّة، وذلك يدفعني إلى تطوير ملكـة نقد النّصوص وتعريتها من قدسيّتها، ومعاينة مدى انسجامها مع مقـولات العقـل الخالص. وهذه الملكة النقديّة من شأنها أن تطهر الثقافة المحليّة من بعدها الخرافي

الذي يشلّ قدراتها على أداء مهامّها الثوريّة. إن الثقافة لا تتوقف عند وصف الواقع ولكنها تعمل على تغييره إذا كانت مجهّزة بأدوات المقاومة وروحها.

الاستعمار باعتباره مثاقفة: في النصف الأول من القرن التاسع عشر تعرضتْ الجزائر إلى استعمار استيطاني شامل من طرف أقوى دول أوروبا الغربية في حينها. وكان على فرنسا بعد أن سيطرت على البلاد عسكريا، كان عليها أن تروّض العقول وتكسر الإرادات وتهجّن الهويّات، من خلال ممارسة امبرياليّة ثقافيّة تصعبُ مواجهتها من قبل شعب لا يزال بدائيّا، وتحت وصاية (الرجل المريض). "أحال انثروبولوجيو العشرينات (من القرن الماضي) الاستعمار إلى نوع من الاحتكاك الثقافي؛ الاحتكاك بين ثقافات مختلفة[7]، ثقافة قويّة وقادمة من المركز وأخرى أصلانيّة، تحكمهما علاقات الهيمنة والإقصاء. أدركت فرنسا أنه من دون استئصال اللغة العربيّة –أهم مكون للهوية الثقافيّة–فإنه لا يمكنها القضاء على إرادة المقاومة. يمثّل الاستعمار حالة من حالات المثاقفة القهريّة، التي لا تتوفّر فيها شروط إرادة الحوار والنديّة بين طرفي عمليّة المثاقفة. كما لا تتوفر الرغبة في الحوار بين المستعمِر والمستعمَر. لقد دأب الطرف القويّ على احتقار وسوء تقدير الثقافات غير الأوروبيّة. وإنّ هذه النزعة التي نطلقُ عليها اسم (الاثنيّة المركزيّة) وهي تتلخص في موقف من يعتقد أنّ نمط حياته أفضل من الأنماط الأخرى كلّها[8]. يسعى كل فرد من الآدميين–بسبب ارتباط تطور شخصيّته بأساس ثقافي–لتقويم القيم التي يفضّلها، لا مع جماعته فقط، بل مع كلّ كائن إنساني. كل ثقافة هي إذا تقويم لعالم الثقافات الأخرى. وقد أنتج هذا الموقف الاستعمار بالنسبة لأوروبا. انطلاقا من اعتقاد راسخ بأن ثقافة الرجل الأبيض من الأوروبيين هي الثقافة الإنسانيّة الأرقى والأنسب للحضارة الإنسانيّة، عمد الغرب إلى فرض نمط حياته ولغته ورؤيته للعالم على مستعمراته. من أجل ذلك طالت حقبة الاستعمار

الفرنسي. لقد كان استعمارا ثقافيّا بالدّرجة الأولى. ولولا الامبرياليّة الثقافيّة التي أظلّتْ المستَعمرين لطُرِدَ المستعمِر في وقت مبكّر.

إنّ من أشكال الهيمنة الثقافيّة التي فرضتها فرنسا على الجزائريين أنّها منعتْ تدريس اللغة العربيّة في المؤسسات التي استحدثتها، باعتبار أن الجزائر هي أرضٌ فرنسيّة ولا علاقة لشمال إفريقيا بالعرب. فهؤلاء الأخيرون، هم قومٌ رحّلٌ وفدوا على المنطقة من الجزيرة العربية، واستقرّ بهم المقام في هذه الأرض التي كانت ملكا للرومان في وقت من الأوقات. بهذا الشكل راحت المؤسّسة الكولونياليّة تزوِّر التاريخ وتقتلعُ معالم الجغرافيا، وتثبّتُ كلّ ذلك في سجلاّتها العلميّة وفي الكتب المدرسيّة حتى تنشئ أجيالا هجينة وتابعة لها ثقافيّا. من ناحية أخرى، كانت فرنسا تمنع الإبداع بلغة الضّاد، فلا تنشر الأعمال التي تكتبُ باللغة العربيّة؛ بينما نجدها تحرص على إنشاء جيل من المبدعين بلغة فولتار، وبهذا يمكن أن نفسر تأخر الحركة الأدبيّة عن النهضة الحديثة مقارنة بالمشرق العربي. فكان الجيل الأول من الكتاب الجزائريين الأوائل ناطقا باللغة الفرنسيّة. ومن منظور المدرسة الفرنسيّة في الأدب المقارن، فإنّ هذا الأدب يعتبَرُ فرنسيّا خالصا، باعتبار اللغة التي كُتِبَ بها. ولو صنّفناه من منظور المدرسة الأمريكيّة فإنّه أدبٌ جزائري خالصٌ باعتبار الخلفيّة الحضاريّة التي يستند إليها مبدعوه.

من تجليّات الهيمنة الثقافيّة التي مارستها فرنسا على الجزائر، تغيير معالم الجغرافيا الجزائريّة؛ فأضحتْ أسماء الشّوارع فرنسيّة وكذلك أسماء المدن وتشكلت معالم العمران وهندسة المدن على النمط الغربي، وخصوصا تلك المدن الكبيرة التي يقطنها المعمرون الأوروبيون. أما الجزائريون فقد حُشِروا في غيتوهات التمييز العنصري، وظلوا يكابدون آلامهم بصمت رهيب. ولقد صوّر ياسمينة خضرا هذه المعاناة اليوميّة التي كان الجزائريّون يجترونها على هامش التاريخ، في قرية (جنان جيناتو) على تخوم مدينة وهران حاضرة المعمرين المترفين.

لم يكن النظام الكولونيالي يقبل التحاور مع "العرب" بصفتهم أصـــحاب الأرض الحقيقيين. بل إنه يتحدّثُ عنهم في سردياته بوصفهم عربا وكفى. في قصص (ألبير كامي) لم تكن الشخصيّات العربية تحمل أسماء، وكذلك كانوا يموتون في وهـــران (كما تروي قصة "الطاعون) دون أن تكون لهم أسماء. فكانوا يُحملون إلى المقـــابر الجماعيّة كما تحمل الدوابّ، ويـــوارون التـــراب، دون الإشـــارة إلـــى خلفيّـــتهم الاجتماعيّة. إنهم مجرد كائنات شبحيّة قد أُلْغِي وجودها من طرف الطبيعة الصمّاء. "صحيح أن مورسو يقتل عربيا، بيد أن هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تـــاريخ دع عنك أن يكون له أب أو أمّ؛ وصحيحٌ أيضا أنّ العرب يموتون بالطّـــاعون فـــي وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك"[9]. يحاكَمُ مورسو بسبب قتله عربيا دونما هويّـــة ولا أهميّة له تذكرُ. فتتحوّل هذه المحاكمة المشهديّة إلى إدانة مورسو بسبب إهماله لوالدته، وتخلفه عن جنازتها ولامبالاته برحيلها وقد عدّ هذا السّلوك تخليّا عن القيم الفرنسيّة يدان عليه الفرنسيّون، أكثر ممّا يدانون بسبب قتلهم عربا.

إن صوت الجزائري غائبٌ تماما في الرواية الفرنسيّة الكولونياليّة، وهو إشـــارة إلى غيابه في المحاورة الثقافيّة التي تمثّل الاختلاف الإثني بين قـــوميّتين تقـــافيتين تقفان على طرفي نقيض من التاريخ الحديث. تاريخٌ أريد لـــه أن يكـــون صـــراعا محموما ذا طبيعة حضاريّة. عندما تخاطب فرنسا الأهالي لا تخاطبهم باعتبـــارهم جزائريين يقاومون من أجل هويتهم التاريخيّة والثقافية وإنما باعتبـــارهم عناصـــر شاذّة يجب تطهير الأرض منهم كما تُطَهَّـــرُ مـــن الطـــاعون والأوبئـــة والآفـــات الاجتماعيّة. أمّا خطاب اليوم، فهو وإن كان مدينا للتاريخ الكولونيالي بالكثير مـــن مفرداته ومفاهيمه، فإنه قد غيّر من استراتيجيّات الهيمنة. تخاطبُ فرنسا الجزائـــر اليوم باعتبارها تابعا، ولا يمكنها أن تمثّل نفسها، بل إن فرنسا هي المسئولة عـــن تمثيلها إقليميا ودوليا. قد تخفى سياسة الهيمنة على الشـــعوب البســـيطة المشـــغولة بهموم العيش، ولكنها لا تخفى على الفئات المستنيرة. إن الخطاب الامبريالي هـــو

خطاب هيمنة، وهو استعلائي وماكر، لا يزال يحتقرُ العرب ويعتبـرهم مـن ذوي التركيبة البشريّة الناقصة. وهي صفة تجعلُ إنتاجهم الثقافي ضحلا، لا يرقى إلـى نظيره الأوروبي، كما أن لغتهم متخلفة، وغير قـادرة علـى اسـتيعاب المفـاهيم والأفكار الحداثيّة. ولقد طور الغرب آليّات طرد تمنع العرب من اللحاق بـالتطور العلمي والتكنولوجي، وتبقيهم تابعين على وجه التأبيد. فالهويّة الكولونياليّة "تعمـل قبل كلّ شيء عن طريق منطق مانوي قائم على الإقصاء والاستبعاد (....) يجري إقصاء المستعمرين عن الفضاءات الأوروبية، ليس فقط علـى الأصـعدة الماديّـة والإقليميّة، وليس فقط من حيثُ الحقوق والامتيازات بل وحتى على مستويات الفكر والقيم. يجري بناء الذّات المستعمرة في خيال المركز بوصفها آخر"[10]. والأخطـر من كلّ ذلك أن العقل الاستعماري للغرب المعاصر لا يزال مهيمنا علـى مخيـال صانعي السياسات، ولا يزال يلقي بظلاله على العلاقة بين المركز ودول الهـامش. إن نظرة فرنسا إلى العرب لا تزال تدين في جوهرها إلى العقل الاستشراقي الـذي صنع سياسات أوروبا تجاه مستعمراتها طيلة عقود طويلة. يسعى الغرب إلى تأبيـد علاقات التبعيّة والوصاية على دول الهامش وينفق من أجل ذلـك أمـولا طائلـة لتعزيز مخابره الاستخباراتيّة والعسكرية والعلميّة.

الحوار الثقافي: كان سقوط جدار برلين في العشريّة الأخيرة من القرن الماضي إيذانا بزوال الحدود الاسمنتيّة بين الشرق والغرب، وإقامة قنوات التواصل الثقـافي بين الشعوب من مختلف الأعراق والقوميّات. وإنّ من شأن هذه الحركة المحمومة للبشر ذهابا وإيابا وفي كلّ الاتجاهات أن يقوّض كلّ المركزيّات التي كان الغـرب يستند إليها لتعزيز مواقعه القتاليّة في الأسواق العالميّة حيثُ تُقسَّمُ الغنائم والجبايات الواردة من الدول التابعة. غير أنّ الذي يحصل اليوم ليس ممّا تشتهيه الأنفـس. لا يزال الغرب يعتقد أنه مركز الحضارة العالميّة وأن العرب محكومـون بعلاقـات التبعيّة والخنوع لإرادة الدول الكبرى. إن أيّ حوار ثقـافي بـين مثقفـي الغـرب

ونظرائهم من العرب محكوم بعقيدة المركزيّة الغربيّة. إن أبواب الحداثة مشـــرعة ولا تعرف حدودا جمركيّة، غير أنّ الغرب نصّب وكلاء له في مستعمراته القديمة من أجل المحافظة على مواقعه الامتيازيّة. لقد روّج لقيمه الفكرية والثقافيّـــة مـــن خلال قنوات تواصليّة متعدّدة مستغلاّ الدعوة إلى العولمة والانفجار الإعلامي، حتى غدا العالم العربي اليوم مجرد قاعدة خلفيّة للغرب يستريح فيها من قحـــط الماديـــة الصلبة التي أغرق فيها الغرب كلّه.

إنّ جميع الثقافات اليوم، وبسبب تجربة الامبراطوريّة منشبكة، ومتعالقة إحداها في الأخريات، كلّها مهجّنة ومتخالطة إلى درجة فائقة، بدءا من مفـــردات اللغـــات التي أصبحت تتبادل المواقع الدلاليّة إلى حقل المفاهيم التي تكـــاد تكـــون موحّـــدة ولكنّها مثقلة بأنفاس الغرب الفلسفيّة، مفرغة من روحيّة الشـــرق الباهتـــة[11]. لقـــد تقدمت المركزية الغربية بمشروع سياسي شمولي يفضي إلـــى تجـــانس الإنســـانيّة المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي، "وخطورة هذا المشـــروع أنـــه ســـوّغ منطقيّا التوسّع الغربي، واحتلال العالم، وإبـــادة الحضـــارات"[12]. إنّ رواج الثقافـــة الغربيّة بكلّ أطيافها وانتشارها في كامل ربوع الوطن العربي، غدا أمـــرا حتميّـــا ومستساغا، بل إنه أضحى مطلبا جماهيريّا كعلامة من علامـــات الحداثـــة. إننـــا أصبحنا نتحدّث عن الإرهاب وعن الأصوليّة والتطرّف ومعاداة الساميّة أكثر ممّـــا يتحدث عنها الغرب الذي صدّر لنا هذه الكليشيهات التحقيريّة، كما أننا نتحدّث عـــن الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان والحريات الفرديّـــة، والمســـاواة بـــين الجنسين وهي مقولات فكريّة من صنع الحضارة الغربية، قد سُـــرِّبتْ إلـــى ثقافـــة الهامش بفعل العولمة. إننا لا ندين هذه القيم الغربيّة في حدّ ذاتهـــا، ولســـنا ضـــد الخصائص المشتركة بين البشر، عندما نشير إلى أنّ كلّ هذه الخصائص قـــد تـــمّ تكوينها بواسطة حضارات مختلفة، ولكننا لا نستسيغ إملاءات الغرب الاســـتعلائيّة والتي تدعو العرب إلى التخلي عن خصوصيّاتهم الثقافيّة من أجل التمـــاهي معـــه

ومجاراته في كلّ ما ينطق به، باعتباره قائدا للحضارة العالميّة الموحّدة تحت راية الغرب المسيحي. "وممّا لا شكّ فيه أنّ فكرة البشريّة ذات الخصائص المشتركة بمعناها المتخلف الذي ينصّ على أنّ تحيّزنا لحضارتنا يجب أن يسود العالم أجمع كان من أكثر الأساليب الوحشيّة التي تفتّق عنها التاريخ لسحق آخريّة الآخرين تحت نعال الأحذية"[13]. إن تسارع التواصل بين الشعوب والتعامل الحصري بلغة الحضارة المتفوقة ماديّا، من شأنه أن يمحو الاختلافات بين المجتمعات، وسيُصار إلى تشميل الثقافة، أي نحو تعميم ثقافة متسيّدة على حساب ثقافات أقلّويّة. إنّ اختفاء الفروق هذه سيكون شديد الخطورة على جميع الثقافات، لأنه يؤدي إلى ذوبان ثقافات الشعوب الأقل تطورا، لصالح ثقافة واحدة مهيمنة. "ليس هناك، ولا يمكن أن تكون هناك حضارة عالميّة بالمعنى المطلق الذي نعطيه غالبا لهذا الاصطلاح"[14]. إن الحضارة العالميّة تتسع لثقافات عديدة ومتنوعة، ومختلفة، تقبل التعايش فيما بينها في ظل حوار متعدّد الأبعاد، ويقرّ بمبدأ الاختلاف ونسبيّة قيم الخير والجمال والقوّة والضعف والعدل والظلم. إن معايير الأحكام الأخلاقيّة تختلف من ثقافة إلى أخرى؛ فما هو جميلٌ لديّ قد يكون قبيحا لدى جاري. فإذا لم نقرّ بهذه النسبيّة فإنّ شبح الحروب والصراعات المدمّرة ستستمرّ في تهديد كوكبنا مع تعاظم أدوات الاقتتال وشيوعها وسهولة الحصول عليها.

لقد فُتِحتْ قنوات عديدة وممنوحة للحوار بين الثقافات؛ وإنّ من شأن هذا الحوار إذا أقيم بعيدا عن التحيّزات ومصالح القوميّات الضيّقة أن يرتقي بنا إلى فضاء كوني يسوده التسامح الديني والإثني والعرقي، والقبول بالآخر. "تقوم الكونية الحقيقية على التسامح والمنافسة والقبول بالتّعايش والتنافس السلمي بين الأفكار وبين الثروات الثقافية، ما يسمح بالحلول مكان لعبة العنف والقوة؛ وسيكون ذلك نتيجة حركة تقارب مزدوجة؛ إنّها أولا حركة الغرب باتّجاه الشرق؛ وقد صار ذلك ممكنا بفضل مثقفي الشرق، أبناء الثقافات غير الغربيّة، والمتثاقفين مع قيم

الغرب"[15] الذين شغلوا دور الوسيط بين الثقافات، من أجل إحـداث التقـارب بـين العقليّات وتجاوز التعالي الغربي التقليدي والتبعيّة العالمثالثيّة سيئة السّمعة لدى العام والخاص. إنّ هؤلاء الوسطاء هم الذين يقومون بترجمة عيـون الثقافـة الغربيّـة ويُمِدّون قراءهم بصورة ما عن المجتمعات الغربيّة وأنماط عيشهم وعاداتهم التـي تبدو ممجوجة لدينا، لكونها لا تنسجم مع خطّ تطوّرنا، ولا تتوافق مـع معتقـداتنا وأحاسيسنا.

ولو نأخذ الأمّة الجزائريّة اليوم فإننا نُلفي عامّة الناس يتفهّمون الثقافة الغربيّـة ويتقبّلون متناقضاتها، بل إنّهم سريعو التّأقلم مع وتيرة الحياة الغربيّة رغم اختلافهـا الواضح مع الواقع العربي المحافظ. ولعلّنا نلفي النتيجة نفسها بخصـوص موقـف الفرنسي من الحياة العربية، والجزائريّة بوجه خاص. إن العولمة أحدثتْ تقاربا بيّنا بين أنماط العيش وطرائق التفكير بالنسبة للطرفين الغربي والعربي، إلـى درجـة تقتربُ من التطابق بين العادات والتقاليد ذات الطابع الثقافي. ولإن كان هذا التواشج بين الشعوب ظاهرة صحيّة، إلا أن محاذيره ليستْ بالأمر الهيّن. إن التنـوّع بـين الثقافات هو الحالة الأنسب للمحافظة على ثراء كوننا، وجماله، ومصادر إبداعاتـه. و"التّآلف هو الخطوة الأولى نحو زوال هذا التنوّع. من الأفضل أن يبقى كـلّ فـي موطنه وأن نجهل الآخرين بدلا من أن نعرفهم أكثر ممّا ينبغي. مـن الأفضـل ردّ الأجانب خارج حدودنا بدلا من رؤيتهم يجتاحوننا ويحرموننا من هويّتنا الثقافيّة"[16]. هكذا يعلّق الانثروبولوجي الفرنسي على المذهب الإنسانوي الذي بشّرت به الأنوار الغربيّة. ليس على البشريّة أن تتوحّد حول لغة خطاب واحـد، أو رؤيـة كونيّـة واحدة، أو منظومة أخلاقيّة واحدة. إن قيم الخير والشر واحدة لدى كل المجتمعـات فالخير والشر والجمال والقبح والعدالة كلها قيمٌ متعارفٌ على تبجيلها أو نبذها لدى كل الشعوب. غير أن طريقة إدراكها وتأويلها وتلقيها تختلف من شعب إلى آخـر. وهذا الاختلاف هو مصدر ثراء عالمنا، وهو الدّافع إلى نسبيّة القيم. إنّ الاخـتلاف

الثقافي ظاهرة إنسانيّة، وهو سنّه من سنن الكون، تحكم عالم البشر دون غيرهم من الكائنات. ولا توجد ثقافة هي أفضل من أخرى، وإنما كلّ الثقافات تسير وفق خطّ تطور يستجيب لحاجياتها التداوليّة والفكريّة. إنّ مشكلة التنوّع لا تطرحُ بشأن الثقافات من حيثُ علاقاتها المتبادلة، بل هي موجودةٌ أيضا في صلب كلّ مجتمع ضمن جميع الطبقات والفئات؛ فالملل والأوساط المهنيّة أو الطائفيّة تحرصُ على تطوير بعض الفروقات التي يُعوِّل عليها كلٌّ منها أهميّة بالغة[17]. فعلى سبيل المثال يعتبر المجتمع اللبناني تشكيلة بشريّة بالغة التنوّع، وهو تنوّعٌ أريد له أن يتّخذ أبعادا قصوى لعلاقته بالهويّة والاختلاف. إنّك بالانتقال من جنوب لبنان إلى شماله سيبدو لك أنك تنتقل من إثنيّة إلى أخرى نقيضة لها، لو لا وحدة اللغة المنطوقة. والوطن العربي بدوره، رغم كثرة العناصر الثقافيّة والتاريخيّة التي تجمع بين أطرافه، إلاّ أنه ليس كتلة واحدة. ويحرص مواطنو كلّ بلد على التمسّك بما يميّزهم عن غيرهم من جيرانهم. وأول هذه الفروقات اللهجات المنطوقة، وبعض العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالدين، وإنما هي مستمدّة من المرويّات ومن الفولكلور المحلّي. يغدو التنوع الثقافي علامة فارقة في تشكيل الهويّات ورسم الحدود بينها وتسييجها لحمايتها من التّهجين والتماثل الذي يقضي على الفرديّة والتميّز.

لقد دأب المرء أن يطرح كل ما لا يتّفق مع المعايير التي يحيى بموجبها خارج نطاق الثقافة فيجعله ضمن نطاق الطّبيعة[18]. ومن هنا تتخلّق سلسلة الكليشيهات التّحقيريّة التي يرسلها المستشرقون الغربيّون على العرب. في أواخر الثمانينات من القرن الماضي كنا نسمع كثيرا عن "القاعدة" ودورها الحاسم في تهديد السلم العالمي؛ ومع نهاية القرن انبثقت صورة رهابيّة أخرى لتمثيل العرب، وهي "الإرهاب". وبموجبها، غدت الجاليات الإسلاميّة هدفا لكلّ أشكال العزل والكراهيّة في الغرب. ولا يخفى اليوم أن منظّمة "داعش" التي صنعتها دوائر المخابرات الغربية، هي وقود كلّ حروب الغرب بالوكالة في الأراضي العربيّة. إنّ النظرة

الاستعلائيّة للآخر قد وسمتْ علاقة الغرب بالشرق بكثير مـــن التحيّـــز والتركّـــز المفرط على الذّات واعتبار غير الأوروبيين دونه كرامة وجدارة إنســـانيّة، وظـــلّ الغرب موصوفا بالعدائيّة تجاه مستعمراته القديمة، وهو لا يزال يخاطبـــه بمنطـــق الأستاذيّة، والإملاءات المباشرة وغير القابلة للتفاوض، مقابل الاستمرار في الحكم لتمثيل من لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، نيابة عن السيّد.

الثقافة بين الأصالة والمعاصرة: إنّ الحديث عن الأصالة يفضي بالضّرورة إلى إثارة مسألة الهويّة؛ فهي تقتضي من بين ما تقتضيه استجداء بنية مفاهيميّة معيّنـــة من الأصول التي تعود بنا إلى الماضي البعيد والبحث عن ترسيمة مكتملة وناضجة بشكل نهائي للشخصيّة القوميّة. يهمّنا في هذا المجال من البحث تحديـــدا التمـــاس تركيبة مكتملة ومنجَزَة للهويّة ومحمّلة بالقدرة الذّاتيّة على مقاومة عوامل التغييـــر بكل أشكالها. من هنا يمكن أن نخلص بأنّ الأصالة تعني الوفاء لثقافـــة الأســـلاف باعتبارهم منبع القيم الحضاريّة والفكريّة التي أتنفّسها، في محيطي الاجتماعي.

يتجاهل هذا التعريف روح العصر ومنطق التاريخ الذي يفعل فعله فـــي عـــالم البشر كما تترك الطبيعة أثرها على تضاريس الأرض، فلا يسلمُ ركن من أركـــان اليابسة من عوامل التغيير بفعل حوادث الطبيعة الكبرى. "إنّ لغة الانتماء القـــومي تأتي مشحونة بضروب الدفاع عن الأسلاف ذات المغزى الأخلاقي، الأمـــر الـــذي حدا ببينيدكت أندرسون إلى التساؤل: "لماذا تحتفي الأمـــم بشـــيبها لا بشـــبابها"[19]. الشيب هم ذاكرة الأمّة وخزّانها الثقـــافي ورمزهـــا الأخلاقـــي، ومنبـــع حكمتهـــا وأصالتها. والشباب هم رمز الاختلاف الثقافي وهم الجموح الفلوت نحـــو الحداثـــة وانتهاك المقدّس، وطلب المحضور؛ إنهم العقـــد الـــذي يتوسّـــط ماضـــي الأمـــة ومستقبلها، وهم الذين ينتقون العناصر الأكثر قدرة على البقاء من ثقافة الأســـلاف وشحنها بعوامل الحياة الجديدة من أجل هويّة ثقافيّة جديدة ومتجدّدة. إن الذّات التي تمارس خطاب الاختلاف الثقافي، هي ذات حواريّة، تحويلية على طريقة التحليـــل

النفسي؛ فهي تتشكّل عبر محلّ الآخر، ومن خلاله، وعبره، ممّا يشير إلى أن موضوع تعيين الهويّة هو موضوع متجاذب، كما يشير في الوقت ذاته إلى أن فاعليّة تعيين الهويّة ليستْ نقيّة أو كليّة على الإطلاق، بل تتشكّل على الدوام من سيرورة من الاستبدال، أو الانزياح أو الإسقاط[20]. إن صورة الشيب والشباب التي استحضرها بينيدكت أندرسون هي استعارة تمثل لجدليّة العلاقة بين الأصالة والمعاصرة؛ فهما مقولتان فلسفيّتان تتنازعان المواقع الاجتماعية وتثيران كثيرا من الضجيج في فضاء الأبحاث الانثروبولوجية الثقافيّة. لننظر ببعض التفصيل لهذه العلاقة الإشكالية بين المقولتين:

الثقافة في أبسط تعاريفها هي الجزء الروحي من الحضارة. وهي من مكوّنات الشخصيّة الإنسانيّة بمعناها العام. كما أنها من روافد ومعالم الوجود البشري، إذْ أنّ الإنسان كائنٌ ثقافي، وذلك الذي يميّزه عن غيره من الموجودات. غير أنّ مسألة تغيير المسلّمات الثقافيّة المترسخة في الوعي الجماعي للنّاس، وتجسّدها ضمن قواعد سلوكيّة وأنماط تفكير تحظى بكثير من القداسة لدى جماعة إثنيّة ما، قد لا ينعم بالقبول لأسباب كثيرة. إنّ عمليّة التغيير الثقافي هي عمليّة شديدة البطء ومعقّدة لأسباب نفسيّة تضربُ بجذورها في الماضي السحيق للفرد والجماعة. و"يبدو أنّ البشر نادرا ما ينظرون إلى تنوع الثقافات كما هو عليه: أي بمثابة الظاهرة الطبيعيّة النّاجمة عن علاقات مباشرة أو غير مباشرة بين المجتمعات. بل إنّ البشر رأوا في هذا التنوع أمرا شنيعا أو مستغربا"[21]. إنهم يعتبرونه انسلاخا عن الذّات، وتدنيسا لماضي الأسلاف وانتهاكا لمقدّسات الأمّة، وتعديّا على تاريخها. لا يحقّق الإنسان طبيعته ضمن إنسانيّة مجرّدة، بل ضمن ثقافات تقليديّة لم تقو أشدّ الطّفرات الثوريّة على نزع كلّ الرّواسب منها. والإنسان الحديث، إذْ يقع بين المطرقة التي تدفعه إلى إدانة التجارب التي تصدمُ عواطفه وتغبش وعيه والسندان الذي يمنعه من تقبل فروقات لا يفهمها، أو لا يريد أن يفهمها ذهنيّا

وفكريّا، قد انصرف إلى ألف تأمّل فلسفي واجتماعياتي بغية الوصول إلى تسـويات عبثيّة بين هذين القطبين المتناقضين، وبغية توضيح التنوع الحاصل فـي الثقافـات في نفس الوقت الذي سعى فيه إلى إلغاء واستبعاد ما يحتفظ به هذا التنوع من أمور فاضحة بالنسبة إليه، ومخلخلة لنظامه الثقافي[22].

يمكن القول أنّ الأمّة العربيّة تعيش اليوم أزمة هويّة حادّة نتيجة انفلات الحداثة الغربيّة، وتغوّل العولمة، وعدم تكافؤ القوى بين طرفي المعادلة. فالعرب يفتقـرون إلى نموذج حضاري قادرٌ على المنافسة وفرض منطق الذّات، والغـرب يمـارس امبرياليّة ثقافية لا هوادة فيها، ويخاطبُ العرب من موقع الاستعلاء، وعقليّة السـيّد الذي لا يحتاج إلى تبرير تسيّده. إنّ العرب اليوم بحاجة إلى تحرير الفكر بشكل لـم يسبق له مثيلٌ في التاريخ، إنهم في مفترق طـرق، وهـم ضـائعون وحـائرون ومستلبون. عندما ضاع الفرنسيون وتاهوا في القرن السابع عشـر، وجـدوا فـي (ديكارت) النبي المخلص من التيه، فدلهم على طريق الخلاص مـن خـلال نقـده للفلسفة التقليدية السكولائية. ومن ثمّ علموا طريقهم إلى تحديث العقل الغربي، مـن خلال مشروع الأنوار. وفي القرن الثامن عشر عرفـوا أزمـة هويّـة حضـاريّة مشابهة؛ فأسعفهم مفكروهم من متاهتهم وتمكنوا من صناعة ثـورة هـزّت العـالم الغربي كله. لقد كان فولتير ومونتيسكيو وديدرو وروسو هم الفانوس الـذي أنـار أوروبا بأنوار العقل الخالص، وكان هؤلاء المفكرون والأدباء وقود الثورة الفرنسيّة التي غيّرت عالمنا الحديث من خلال مشروع نقدي جذري ومساءلة جـادّة للـذّات غيّرت مسار تاريخ أوروبا جذريّا[23]. العرب هم أيضا في حاجة ماسّة اليـوم إلـى فتح حوار نقدي مع الذّات، لتصحيح التعامل مع الآخـر، والخـروج مـن حالـة الاستلاب، وموقف ردود الفعل السلبيّة، التي تفضي إلـى الانكفـاء علـى الـذّات واللّجوء إلى الماضي المبجّل لتناسي هزيمة الحاضر.

إن الوضع الحضاري الذي تعيشه الأمّة العربية اليوم هو وضع بالغ السلبيّة. لمّا انسحب الاستعمار العربي الكلاسيكي من الوطن العربي، تبيّن للأمّة العربية حجم الأزمة الحضارية التي تركهم عليها الاستعمار. ومن أجل معالجة ضعفهم وتحقيق النهضة من خلال تحديث العقل، دون التخلي عن ثوابت الأمة، بدل إعادة قراءة تاريخهم قراءة متبصّرة، بدل تأمل مصادر القوّة في التراث العربي الإسلامي، بدل كلّ ذلك انقسموا بين تابع للمعسكر الشرقي وتابع للمعسكر الغربي، محدثين بذلك قطيعة معرفيّة بينهم وبين تاريخهم القومي. وكانت تلك هي نقطة البداية للسقوط في مخالب الامبرياليّة العالميّة بجناحيها الشرقي والغربي. لذلك تعذّر على العرب تحقيق نهضة حقيقيّة تخرجهم من وضعيّة التابع، الذي لا يملك من أمره شيئا.

ينأى المثقفون العرب اليوم بأنفسهم عن دورهم الحقيقي، والمفكرون والكتاب انشغلوا بقضايا هامشيّة تمسّ بسطح الأزمة ولا تنفذ إلى عمقها. إن تعميق الحوار مع الآخر لا يعني التخلي عن مقوّمات الهويّة، بل إنّه يقوّي الذّات ويُصحّح مسارها، ويطرح الجانب الخرافي من فكره إلى الماضي. إن منطق الحوار اليوم لم يعد يحتمل تبخيس الذّات أو إسقاط حقّها في الاختلاف والتخلي عن دورها في صناعة الحضارة الإنسانيّة. فالعالم الإسلامي يملك في مخزونه الفكري والتّراثي ما يمكّنه من أن يجادل على المراتب الطليعيّة في السياسة الدوليّة. لقد انكشف للغرب إفلاس فلسفاته، وعجزها عن تحقيق السلم العالمي، دع عنك أن تحقق التوازن النفسي للذّات الغربيّة. لأجل هذا يطالعنا من حين لآخر بعض علماء الغرب بموقف ينتصر لقضايا المسلمين ويشيد بدورهم في الحضارة العلميّة الحديثة.

إنّ الذي يعوز العرب اليوم هو إعادة قراءة للتراث الإسلامي والعربي بفكر نقدي والتخلّي عن التابوهات التي تكبّل الفكر وتعيق التطور باتّجاه العمق. ذلك أنّ الموقف من التراث والحداثة من قبل علماء المسلمين اليوم لا يزال قاصرا عن تحقيق المبتغى، والخروج بنتائج من شأنها تحقيق الثورة على الذّات وبناء عقل

متحرّر من الخرافة والسحر وكل أشكال الشعوذة. يعاني العرب اليوم من قطيعتين: قطيعة مع تراثهم العربي والإسلامي، بانصرافهم المطلق نحو التجربة الغربيّة في التحديث وتجاهل الفروقات الحضاريّة بين أوروبا والعالم الإسلامي. فراحوا يسقطون العلمانيّة بشكلها المتطرف على دراساتهم ومواقفهم. أما القطيعة الثانية فهي القطيعة مع الغرب. إن معسكرا من المفكرين العرب في دراساتهم للأزمة الحضاريّة التي يعاني منها العرب اليوم أسقطوا اللوم كلّه على الارتباط بالغرب الحديث. واعتبروا أن الحلّ يكمن في العودة إلى أصول المعرفة الإسلاميّة بالشكل الذي قدّمها لنا الأسلاف، دون النظر إلى عامل الزمن الداخلي والخارجي. إن الواقع العربي الذي ورثناه بعد الاستقلال يختلف كليّة عن واقع المسلمين في القرون الوسطى، لماّ كان العرب أمّة قويّة في علومها واقتصادها. لقد كانت الحداثة في تلك الحقبة إلى جانبهم. أما الزمن الخارجي فيشير إلى الوضع الحضاري المتفوّق للغرب على جميع الأصعدة. هذا الغرب المتفوّق قد طوّر آليّات سياسيّة عالميّة تمنع نهضة المسلمين وتؤبّد تبعيّتهم. وإنّ أيّ مشروع نهضة عربيّة شاملة يتجاهل هذه المعطيات ليس من شأنه النجاح.

ولعلّه يتعيّن على المسلمين اليوم أن يؤنسنوا تراثهم من خلال عقل ما بعد الحداثة. ينبغي تشكيل نزعة إنسانيّة واسعة بل وكونيّة تشملُ جميع الشعوب والثقافات والأديان، من أجل تصحيح الموقف من الذّات ومن الآخر ومن الحداثة الغربيّة–وهي غربيّة بكلّ تأكيد–بدل الانقطاع عن الخارج وكأننا نشغل اليابسة وحدنا. إن مواجهة الآخر من خلال تجاهله لا يشكّل الحل في الإفلات من قبضته الامبرياليّة. بل يجب مقارعته بأدواته، ومحاربته بأسلحته الفكريّة من أجل فضح تناقضاته ولا إنسانيّته التي تضرّ بالحضارة العالميّة دون تمييز.

يدعو محمد أركون إلى الثورة على الذّات على مستوى الفكر من أجل الخلوص إلى رؤية علميّة جديدة ومتجدّدة لماضينا، وتأسيس استشراف عقلاني لنهضة علميّة

وحضاريّة قادرة على الحياة والمنافسة على مراتب عالميّة. إن اللغة العربية في حدّ ذاتها في مسيس الحاجة إلى تطـوير بنيتهـا وتحـديثها وتجريـدها مـن بعـدها الميتافيزيقي –في مرحلة أولى–حتى نتمكن من تجاوز أنساقها الماضويّة التي تمنع تحررها من قيود الماضي. لم يتمكن العرب في العصرين الأموي والعباسي مـن تحديث اللغة لو لم يتعاملوا معها بنظرة دنيويّة. ولعلّ ذلـك هـو الـذي عـرض "المولّدين" إلى هجمة عنيفة من قبل المحافظين، ليس فقـط بسـبب الموضـوعات الممنوعة التي انتهكتها اللغة ولكن أيضا بسـبب البنـي النحويـة التقليديّـة التـي تجاوزتها اللغة مجاراة لروح العصر. إن مثل هذه الصّدامات بين أنصار التـراث ودعاة التجديد هي لازِمةُ كل العصور وكلّ الحضارات، ولسنا بدعا مـن التـاريخ الإنساني. في القرن السادس عشر تمكّنت فرنسا من التخلص من اللغـة اللاتينيّـة التي كانت تحظى بقداسة الأديان، وانكبّت على تطوير لهجتهـا المحليّـة، والتـي انبثقتْ عنها اللغة الفرنسيّة بشكلها الحالي. وكانت النتيجة أن فرنسا أضحتْ بلغتهـا الفرنسيّة الحديثة مركز الحضارة الغربيّة وركنا أساسيّا من الأدب العالمي. إننـا لا ندعو إلى التخلي عن لغتنا الحضاريّة بالشكل الذي حصل للدول الأوروبيـة فـي تجربتها مع اللغة اللاتينيّة، كما لا ندعو إلى العَلَمانيّة ولا إلى العِلمانيّـة بشـكليها الغربي الإلحادي، ولكننا نشير فقط إلى أن مبدأ الثـورة العقلانيّـة علـى الـذّات ومساءلة التّراث والتاريخ دون تابوهات بإمكانه أن يقودنا إلى حداثة علميّة شـاملة دون المساس بجوهر اللغة والـدّين، وهمـا العمـق الروحـي لهويّتنـا الثقافيّـة والحضاريّة. لا يزال الحداثيّون في المجتمع العربي ينظرون بمركّب نقص لتراثنـا كما لا يزال المحافظون ينظرون بكثير من الإدانة والعدائيّة للغرب.

إنّ كلّ ما فعله طه حسين في مشروعه الحداثي هو أنه انسـاق إلـى الموجّـه الثقافي الغربي دون أن يقف منه موقفا نقديّا. وأفضتْ اقتباساته الكثيرة التي حـاول أن يكتبها لتوافق موضوعاته الأدبيّة والفكريّة العامّة، إلى وظيفة مضادّة لما ينبغـي

أن تقوم به. "فبدل أن تتمثّل صيغة الموضوعات المدروسة وتتمكن من أن تنـــدمج في سياقاتها لتقديم تحليل كفء وفاعل، بوصفها مكوّنات ضمنيّة فيها، قامتْ علـــى العكس بتمزيق الموضوعات لتوافق الإجراءات العامّة والأهداف الأساســيّة التـــي فرضتها سياقات ثقافيّة مختلفة"[24] فجاءت تلك الجهود هجينة وباهتـــة تحمـــل فـــي رحمها انتقائيّة تلفيفية توفيقيّة، ضَعُفَ فيها الوعي النقدي. لقد حاول طه حســين أن يصالح بين الأضداد دون أن يكون المنظور الحضاري متجانسا. لقـــد كـــان همّــه الوحيد ربط الثقافة العربية –المتهالكة بفعل التخلف والاستعمار–بالشرط الحضاري الغربي وبأيّ التكاليف.

لقد اقتبس طه حسين منهج الشك من ديكارت، على علاّته، وحاول تطبيقه على تاريخ الأدب الجاهلي؛ فكانت النتيجة التشكيك في وجود هذا الشعر أصلا. وهكـــذا اصطدم بالمؤسّسة الثقافيّة والدينيّة في وقت مبكر؛ وكان الأولى أن تـــتمّ المثاقفـــة بشكل عقلاني، بدل الارتماء غير المشروط في حضن ثقافة غربية لا نتقاسمُ معهـــا التاريخ ولا القيم ولا معايير الجمال.

لقد أخطأت كل جهود التنوير التي أعقبتْ حركة استقلال الدول العربيّـــة بفعـــل الاستلاب الذي وقع تحت طائلته المثقفون العرب؛ وينطبق الحكـــم علـــى اليســـار واليمين على حدّ سواء. إن حركة التحديث التي انشغل بها جيل الرواد في الشـــرق العربي من أمثال ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ويعقوب صروف وجرجـــي زيدان وسلامة موسى وهيكل وتوفيق الحكيم، أحـــدثت ردود فعـــل مـــدمّرة لتلـــك المجتمعات، ليس اقلّها الحركات الإسلاميّة المتطرّفة التي عطّلتْ جهود التنمية. إن عملية المثاقفة تقتضي طرفين على قدم المساواة، أخذا وعطاء، تأثّرا وتأثيرا، فعـــلا وانفعالا. غير أن الذي حصل هو أن المثقفين العرب تجاهلوا خلفيّتهم الحضـــاريّة–باعتبارها سبب محنهم–وارتموا في أحضان الغرب، بعقل منبهر غير قـــادر علـــى

النقد. فوجدوا مقاومة شعبيّة محمومة لجهود التحديث، التي بــدتْ وكأنّهـــا تســـليما اعتباطيا بسيادة الآخر وتفوّقه الساحق على ثقافة الذّات.

في الجزائر انعطفت جهود الحكومة على الخيار الاشتراكي بكل ما فيــه مـــن محاذير، وفرضتْ خيارها السياسي بقوّة العسكر، وتوزّعت المعارضة السريّة بين المقاومة الإسلامويّة والتيار الفرونكفوني المندسّ في سرايا الحكـــم الأكثـــر تمكّنـــا ومكرا، وكانت النتيجة حربا أهليّة مدمّرة في العشريّة الأخيرة من القرن العشرين.

الخاتمة:

إن مسألة المثاقفة وحوار الحضارات من أعقد المسائل التي تحـــرّك الشـــعوب وتدفع بهم إلى تطوير قدراتهم العقليّة والإيديولوجيّة، إضافة إلى كونها حاجة مـــن حاجات البشر الأكثر حيويّة، والتي تُمِدُّهم بأسباب الحياة والمناعـــة ضـــدّ التّحلّـــل والذّوبان في الآخر، أو الزّوال من الوجود بسبب العزلة. غير أنها (أي المثاقفـــة) حركة جدليّة باتّجاه الآخر وباتّجاه الذّات، في نفس الوقت.

لقد كانت عمليّة المثاقفة بين الغرب والشرق أحاديّة الطرف. فالجانب الأقـــوى كان مهيمنا بفعل المركزيّة الغربيّة، وسوء تقدير الشـــعوب الضـــعيفة، أو الأقـــل تطورا، وخصوصا إذا تعلّق الأمر بالظاهرة الاستعماريّة التي شكّلت مواجهة دمويّة بين ثقافتين يربط بينهما تاريخ طويل من الكراهيّة والعداء. وقد كان العرب سلبيين إزاء الهيمنة الغربيّة، بحيثُ أنّهم انساقوا لإغراء الأوْرَبَة، فعمـــدوا إلـــى الترجمـــة والرحلات والبعثات العلميّة لنقل التكنولوجيا، ولم يحاولوا تصحيح موقف الغـــرب من العرب والمسلمين، بل إنّهم استجابوا للتمثيلات الرهابية التي يزخـــر بهـــا أدب الرحلات الأوروبية باتجاه الشرق والتي يغديها الاستشراق المتورّط فـــي الشـــرط الامبريالي. بسبب ذلك فشلت حركات التنوير العربية، بل إنّها أدخلتْ العرب فـــي حروب أهليّة لم تتوقف إلى حدّ اليوم، نتيجة الانشطار الذي حصل للوعي العربـــي والاختلال في نظام القيم وبنية المجتمع المتصدّعة.

لقد أمكننا في هذه المداخلة المحاججة بأن الحوار بين الثقافات هو حاجة بشريّة بالغة الأهميّة بغضّ النظر عن موازين القوى. وإن تصنيف الثقافات إلـــى متخلِّفـــة ومتطورة هو فعلٌ غربي يكشف عن مركزيّة أوروبيّة غير مبرّرة وذات نوايا سيّئة تجاه دول الهامش. لا يكون الحوار حوارا إلاّ إذا توفّر طرفان على قدم المســـاواة من حيثُ القدرة على التمثيل والإقناع. غير أنّ الذي حصل بين الغرب والشرق، لا يعدو أن يكون عمليّة إملاء وتلقين. لقد مارس الغرب منذ انسحابه من مســـتعمراته دور الأستاذ في خطابه الموجه للعرب.

إن العرب في حاجّة ماسّة إلى إعـــادة قـــراءة تـــواريخهم القديمـــة والحديثـــة وتصحيح موقفهم من الذّات ومن الآخر. إنّ تبخيس الذّات لا يجلبُ لنا الاحترام ولا يزيدنا إلا فائضا من المذلّة، ومن الوهن، بدلا من تحفيز الـــذّات للقيـــام بـــدورها الحضاري وتجاوز تناقضات الحداثة ومحاذير العولمة.

الاحالات:

[1] -Alphonse Duprot, De l'acculturation in 12 congres international et des sciences historiques, Vienne 1965, P. 7.

[2]–محمد بهاوي، في فلسفة الغير، ص 67.

[3]–تزفيتان تودوروف، الحياة المشتركة، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 2009.

[4]–مجاب الإمام، ومحمد عبد العزيز، الترجمة وإشكالات المثاقفة، منتدى العلاقات العربية والدولية، ط الأولى 2014. ص 10.

[5]–إبراهيم أولحيان، المثاقفة وسؤال الهويّة، ضمن كتاب الترجمة وإشكالات المثاقفة، ص245.

[6]–تزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى، دمشق، ط الأولى 1999. ص 55.

[7]–جيرار لوكليرك، الانثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، ط أولى 1990، ص 122.

[8]–المرجع نفسه، ص 148.

[9]–إدوارد سعيد، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت–لبنان، ط الثالثة 2004. ص 236.

[10]–مايكل هاردت وأونطونيو نيغري، الإمبراطورية، ترجمة فاضل جتكر، مكتبة العبيكان المملكة العربية السعوديّة، ط 2002. ص 193.

[11]–إدوارد سعيد، الثقافة والامبرياليّة، ص 70.

[12]–عبد الله إبراهيم، المركزيّة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1977. ص 33.

[13]–تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مركز اللغات والترجمة، وحدة إصدارات نقدية، طبعة أولى س 1996. ص 87.

[14]–تزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ص 90.

[15]–جيرار لوكلارك، العولمة الثقافيّة، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، طبعة 2004 ص391.

[16]–تيزفيطان تودوروف، نحن والآخرون، ص 90.

[17]- كلود ليفي شتراوس، مقالات في الإناسة، اختارها ونقلها إلى العربيـــة حســـن قبيســـي، دار التنوير للطّباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى، 165.

[18]- المرجع نفسه، ص 168.

[19]-هومي ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب، المركز الثقافي العربـــي، الـــدار البيضـــاء- المغرب، ط الأولى 2006. ص 252.

[20]-المرجع نفسه، ص 279.

[21]-كلود ليفي شتراوس، مقالات في اللإناسة، ص 167.

[22]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[23]-محمد أركون، الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر، ترجمة وتقديم هاشم، دار الطليعـــة بيروت، ط الأولى 2007. ص 7.

[24]-عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، طبعة مشتركة بين الاخـــتلاف ودار الأمان، والدار العربية للعلوم ناشرون، ط الأولى 2010، ض 50-51.

إشكالية التنوع الثقافي
بين الانفتاح على الآخر وحفظ الهوية الوطنية

د/ العربي بوعمران بوعلام
د/ عيوش نعيمة،
جامعة خميس مليانة

مقدمة: تعكس لنا مجتمعات اليوم صورة من التداخل بين الأجناس، التي تعبر عن مزيج من الثقافات المتنوعة وانفتاح فكري على الآخر لدى الشعوب، هذا ما يضفي على المشهد الثقافي الكثير من العمق والتنوع، ونظرا لأهمية التنوع الثقافي فقد أقرته منظمة اليونسكو، وشرعت لأجله مجموعة من البنود لتضمن أحقية التعبير عن الثقافات باعتبارها تندرج ضمن الحريات الفردية والجماعية، كما ويعتبر تراثا مشتركا بين الإنسانية يعزز سبل الحوار بين الشعوب ومصدرا للتبادل والتجديد والإبداع، وحتى يحقق التنوع الثقافي هذا التفاعل المرجو بين المجتمعات لا بد من تعزيز ثقافة الحوار وتقبل الآخر، ونشر مبدأ الانفتاح وحرية التعبير عن الرأي. إن تعزيز مبدأ التنوع الثقافي لا يعني أبدا التنصل من الهوية الوطنية، وإنما يعززها ويوسعها لتشمل نطاقا واسعا.

تعريف الثقافة: تتعدد الثقافات وتختلف باختلاف المبادئ والتصورات الفكرية لدى المجتمعات، ومنه يمكننا القول بأن الثقافة هي حصيلة مقومات شتى تكون في النهاية صورة معين، وشخصية خاصة لأي مجتمع بكل ما تحمله من تصورات وافكار وتطلعات، يسعى لترسيخها وتثبيت جذورها في شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية، ويعمل على المحافظة عليها والاهتمام بها وتأصيلها في أبنائه، باستخدام وسائل عديدة وهذه المفاهيم هي ما يمكن أن نطلق عليها اسم

الثقافة، ومنه يمكن ان نتعرف على اصول هذا المصطلح في المعاجم اللغوية وعند الدارسين واهم المفاهيم التي اتخذها من اجل تبيين حدود استعمالاته.

– مفهوم الثقافة لغة: جاء في معجم تاج العروس "ثقف ثقفا وثقافة، صار حاذقا خفيفا فطنا، وثقفه تثقيفا سوّاه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه، وهي أيضا مصدر ثقف بالضم ككرم"[1]

– مفهوم الثقافة اصطلاحا: اخذت العديد من المفاهيم نظرا لاختلاف اراء الدارسين، لكنها تجتمع في كونها تتألف من أنماط مستترة أو ظاهرة للسلوك المكتسب والمنقول عن طريق الرموز فضلا عن الانجازات المتميزة للجماعات الانسانية، ويتضمن ذلك الأشياء المصنوعة ويتكون جوهر الثقافة من أفكار تقليدية وكافة القيم المتصلة بها، أما الأنساق الثقافية فتعتبر نتاج السلوك من ناحية، وتمثل الشروط الضرورية له من ناحية أخرى.[2]

مفهوم التنوع الثقافي: تتعدد الثقافات بتعدد المجتمعات الانسانية لذا نجد تباين كبير في الافكار والقيم والمعايير لدى الشعوب، وقد سعت الحضارات على مر العصور للمحافظة على ارثها الثقافي، الذي يشكل هويتها ويضمن استمراريتها ومع تشكل مفهوم الدولة سعت كل دولة لابراز ثقافتها وهويتها الوطنية، ومثال ذلك بعد انقسام اروبا الى العديد من الدول، نجد ان كل دولة اوجدت لنفسها لغتها الخاصة، وعاداتها وتقاليدها وتاريخها الخاص بها حتى وبعد تكتلها ضمن الاتحاد الاروبي.

إلا أننا اليوم نقف باستطراد عند قضية العصر، وهي تداخل الثقافات فيما بينها نتيجة للعديد من الاسباب، من بينها اختلاط الشعوب بسبب الهجرات نحو الدول سواء للسياحة أو اللجوء السياسي أو للبحث عن فرص عمل، أو الدراسة، أو فرض الهيمنة الاستعمارية.

هذا لا يعني ان قضية التنوع الثقافي غير معروفة في تاريخ الحضارات، وانما نجدها حاضرة مثلا في الحضارة الاسلامية بعد الفتوحات اذ نجد اختلاط العرب بالفرس واليونان والاتراك، تداخلت هذه الثقافات فيما بينها في العديد من المجالات، كالفنون واللغة وبعض العادات والتقاليد، إلا أن الحضارة الاسلامية بقيت محافظة على هويتها، كون أن الدين الاسلامي كان اقوى باعتباره المشرع الاول والمنهاج المتبع، نفسر ذلك بأن نظرة المجتمع آنذاك لانفتاح الثقافات على بعضها كان ضيقا جدا، يشوبه نوع من الخوف من ضياع الهوية عند مختلف الشعوب على حد سواء.

ولعل الامر الذي زاد من انغلاقيه الشعوب على ثقافتها ورفضها لثقافة الآخر، هو الاستعمار خاصة الهيمنة الأوروبية على الدول الآسيوية والإفريقية وحتى الأمريكية، نجد ان الاستعمار في كل دولة محتلة حاول طمس هويتها، خاصة فيما يتعلق باللغة والمعتقد والعادات والتقاليد، لذا نجد العديد من المحاولات الاصلاحية التي وقفت وقفة صارمة إزاء المحافظة على الهوية الوطنية، إذ يقول المهاتما غاندي احد المصلحين بالهند : "**إنني أرغب في أن تهب على بيتي جميع ثقافات العالم من غير قيود، ولكنني أرفض أن تقتلعني من جذوري إحدى هذه الثقافات** "[3].

وربما سبب آخر يعود الى طبيعة افراد المجتمع الواحد اذ ننجد العديد من الصراعات الداخلية، التي تنشأ نتيجة محاولة للقضاء على جماعات معينة، وما يصحب ذلك من انتشال للقيم وتشويه للثقافة المحلية وطمس للعادات والتقاليد والاعراف، والتقليص من أهمية اللغة الوطنية وقتل اللهجات المحلية، وهو ما يساعد على القضاء على الهوية الثقافية التي تميز جماعة من الجماعات أو شعبا من الشعوب.[4]

إلا أننا اليوم أمام وضع آخر تمام يمكن لنا وصفه بانفتاح الشعوب على بعضها وظهور مجموعة من القيم الرامية الى التعايش السلمي بين المجتمعات، والمعايير

التي ترتكز الى مبدأ الحوار الفعال وتبادل الآراء، وقد ساعد على ذلك المجهودات المكثفة من قبل منظمة اليونيسكو من خلال مجموعة من الاتفاقيات التي عـززت قضية التنوع الثقافي نذكر بعضها:

- الاعلان العالمي للتنوع الثقافي سنة 2001 تضمن هذا الاعلان الاعتـراف بالتنوع الثقافي تراثا مشتركا للإنسانية يجب الدفاع عنه كضرورة انسانية لا تنفصل عن الكرامة الانسانية، كما لا بد من تعزيز دوره التنمـوي وإيجـاد حـوار بـين الثقافات المختلفة.
- اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي سنة 2003.
- اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي سنة 2005.

إن تعزيز التنوع الثقافي في المجتمعات يساهم في تحقيـق العـيش المشـترك والتفاهم وزرع التآخي بين الافراد فتذوب بذلك الفوارق والاختلافـات، فـاحترام التعددية وتقبل الآخر يشكل بحد ذاته نوع من الثقافة التي تنطوي على القدرة مـع التأقلم، وتهذيب النفس البشرية، والالتزام بالقيم الايجابية التي تتجاوز حدود المكان والزمان والعرق واللون والدين، فالهدف من هذا كله هـو تجنـب التصـادم بـين الثقافات وضمان التعايش السلمي بين الانسانية جمعاء.

يحيل مفهوم التنوع الثقافي إلى فكرة التعايش بين أكثر من مظهر ثقافي داخـل المجتمع الواحد، كما يعتبر تراثا مشتركا للإنسانية جمعاء، لذا ينبغي الاعتراف بـه والتأكيد عليه لضمان حقوق الشعوب والعيش في سلام.

ويمكن تعريفه على النحو التالي" التنوع الثقافي تعني وجود مكان يضم جماعات بشرية مختلفة من حيث الشرائع والثقافـات والقوميـات والاجنـاس والاعـراف والافكار والتيارات والاطروحات ضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسـي يضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسي يضمن منع تعدي أي فئـة علـى أخرى ويمنحها حق المواطنة.[5]

التنوع الثقافي والهوية: يتحدد مفهوم الهوية ضمن المعاجم الفلسفية كونها صفة جوهرية أساسية وثابتة في الشيء لا تقبل التحول والتغير، فهي أساس مـا يبقـى دائما ثابتا بالرغم مما يطرأ عليه من تغيرات فالجوهر هو وان تغيرت أعراضه.[6]

اما اصطلاحا فيعرفها الجرجاني بقوله" هي الحقيقة المشـتملة علـى الحقـائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق... حقيقة الشيء من حيث تميزه عـن غيره من الأشياء"[7]

من البديهي أن نناقش الارتباط الحاصل بين الهوية والثقافة، لكـون أن الهويـة يقصد بها مجموع المميزات المشتركة لمجموعة من الافراد تميزهم عن غيـرهم ونقصد بالمميزات مختلف القيم والمعايير والمظاهر الثقافية، إلا أن هـذا لا يعنـي بتطابق المفهومين وتصبح بذلك الهوية مرادفة لثقافة افراد المجتمع الواحـد، فقـد تتعدد ثقافات المجتمع الواحد نظرا لاختلاط الشعوب مع بعضها، كمـا ان التطبـع بثقافة مجتمع ما لا يعني بالضرورة اكتساب الهوية، لان الهويـة تـرتبط بـذات الانسان فكره وثقافته وأسلوب عيشه كما يتسع مفهومها ليشمل مجتمعـا أو أمـة لقوله تعالى : **{لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}**[8].

إن الاقتران بين هذين المفهومين نجم عنه ولادة مصطلح جديد وهـو الهويـة الثقافية، والذي نقصد به مختلـف الميـزات والمكونـات الفكريـة والاجتماعيـة والتاريخية التي تنفرد بها ثقافة ما، تمتلكها جماعة بشرية معينة وتختلف عن غيرها من الثقافات الأخرى، وتحدد ماهية الجماعة البشرية وتميزها عـن غيرهـا مـن الجماعات البشرية الأخرى هوية طائفية كانت أو هوية دينية أو هويـة لغويـة أو هوية عرقية أو هوية وطنية، تقوم على الوطنية كمبدأ وفكر ووجدان وسلوك وعلى تساوي المواطنين داخل الوطن والدولة في الحقوق والواجبات[9].

فكثيرا ما تحيلنا مناقشة قضية الثقافة الى مسألة الهوية، ومع ذلـك حتـى لـو ارتبطت الثقافة والهوية الثقافية بمصير واحد فليس من السهل خلط احدهما بـالآخر

إذ يمكن للثقافة أن تعمل من دون وعي للهوية بينما يمكن لاستراتيجيات أن تعـالج الثقافة أو تغيرها.

إلا أن الحرص على التشبث بالهوية الوطنية وحماية الشخصية الثقافية، يجعلنـا نلغي مبدأ الحوار والتفاعل بين الثقافات الأخرى، وهذا ما يؤدي الى بروز نوع من الإحساس بالتفوق العنصري، وبروز الهيمنة الثقافية كما أنه ليس في تنوع الهويات وتعدد الخصوصيات، ما يتعارض وقضاء المصالح المشتركة بين الشعوب والامـم في اطار التعاون الانساني القائم على قاعدتي التعارف والتعايش وانما ينطوي هذا التنوع على عناصر تغذي الميول الانسانية الفطرية نحو امـتلاك أسـباب التقـدم والرقي بحافز من التنافس الطبيعي وبوازع من التدافع الحضاري[10].

يشكل التنوع الثقافي جزء يسير من مفهوم الهوية الوطنية، لأن الهوية مفهومها يشمل الثقافة بمعناها الواسع، لأن الهوية قادرة على استيعاب الثقافـات المختلفـة للمجتمع الواحد وبالتالي تجمع بين افراد المجتمـع، ومثـال علـى ذلـك الهويـة الجزائرية التي تستظل العديد من الثقافات تحتها: العربيـة، الامازيغيـة، الشـاوية الصحراوية.

تعايش الشعوب في ظل التنوع الثقافي: إن التعدد الثقـافي بـين الحضـارات الانسانية موجودة منذ الأزل، إلا أن كل حضارة تسعى للحفاظ على هويتهـا التـي تميزها عن غيرها من الثقافات، خاصة في ظل ظهور قوى تحاول فرض ثقافتهـا وهيمنتها على الثقافات الأخرى، وهذا ما يشكل خطرا يهدد الهوية الثقافية لمختلـف شعوب المعمورة، وهذا ما يؤدي إلى حدوث صدام ثقافي مع الآخر وظهور مختلف الصراعات.

مظاهر التنوع الثقافي بين الشعوب:

اللغة: تعتبر اللغة وسيلة هامة للتواصل بين الافراد وتبادل المعلومات والافكار والتعبير عن المشاعر، لذا نجد أن كل حضارة ولها لغتها الخاصة بهـا، وبالتـالي

تعتبر مظهر مهم من مظاهر الاختلاف بين الامم، فالحضارة السائدة هي الحضارة التي حافظت على لغتها وتناقلتها جيلا بعد جيل، وبالتالي لا تعتبر اللغات مجرد أداة للاتصال فهي تمثل النسيج الحقيقي لمختلف اشكال التعبير الثقافي، وهي الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم، كونها ترتبط بحياة الافراد وتجاربهم وبيئاتهم الفكرية والثقافية، فاللغة ترتبط اولا بالهوية وثانيا بالثقافة.

فاللغة أحيانا تكون عاملا مثيرا للصراعات الثقافية والعرفية، كما قد تصبح عامل مشجع على الاستقرار والوحدة عندما تصبح مشتركة بين الافراد، ما يساعد على خلق نوع من الثقافة القومية المشتركة، وفي المقابل فمن الصعوبة بمكان خلق ثقافة قومية موحدة، دون أن تكون هناك وحدة في اللغة بين أفراد التجمع البشري ومن شأن التجانس اللغوي أن يهيئ لخلق نوع من التجانس الثقافي.[11]

الدين: يعتبر الدين أحد الرموز القوية للحضارات ويقصد به المعتقد الذي تؤمن به جماعة من الافراد، ويؤثر على سلوكياتهم وحياتهم، ويرتبط بمختلف مناحي حياتهم وكثيرا ما يكون سبب للتصادم بين الحضارات، نظرا لاختلاف الأديان وتشير الملاحظة إلى ان اشتراك أفراد جماعة ما في العقيدة الدينية يمثل بحق مقوما بارزا من مقومات الذاتية الاثنية لهذه الجماعة، ذلك أن العقيدة الدينية تؤثر تأثيرا بالغا في سلوك الجماعة، وعلى نحو يفوق في بعض الاحيان تأثير اللغة أو السلالة ففي ظل مواقف أو أوضاع معينة، قد يتغاضى المرء في سلوكه عن رابطة السلالة او اللغة او حتى الايديولوجية من اجل العقيدة الدينية، فما بالك اذا ما تعرضت العقيدة للتهديد أو الاحتقار من طرف جماعة دينية أخرى فهذا حتما سيولد صراعات طويلة الأمد ومستعصية الحل.[12]

العادات والتقاليد: نقصد بالعادات والتقاليد ما توارثه افراد المجتمع من سلوكات وطقوس ومظاهر وعقائد، وهي من اهم ما يميز الثقافات الانسانية عن بعضها لذا يسعى كل مجتمع إلى الحفاظ على عاداته وتقاليده.

لم تعد قضية التنوع الثقافي تلك المسألة الشائكة التي لطالما شكلت بؤرة صراع بين الشعوب، نتيجة لانغلاق افراد المجتمع وإنما أصبحت اليوم سببا لالتقاء الحضارات وتبادل الخبرات والمعارف.

تعد الثقافة عاملا هاما في تصنيف اختلاف الشعوب عن بعضها البعض وذلك لما تحمله من قيم ومعايير فردية واجتماعية اذ ان الثقافة بمفهومها الواسع هي عبارة عن منظومة متكاملة تضم النتاج التراكمي لمجمل موجات الابداع والابتكار التي تناقلتها اجيال الشعب الواحد وتشمل بذلك كل مجالات الابداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الانسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للأمة لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية وتطلعاتها المستقبلية ومكانتها بين بقية الامم فهي ارث تاريخي يحمل معه الطابع الخاص بكل أمة [13]

ان الثقافة كمفهوم اجتماعي فهي تعكس مدى معرفة المجتمع للقيم التي يؤمن بها والمعايير التي يستند اليها في تنظيم حياته وضبط سلوكاته ومعرفة عاداته وتقاليده واعرافه كما ينبغي على افراد هذا المجتمع ان يتعاملوا مع مختلف الثقافات الاخرى في خدود ما تقتضيه اعرافهم والتأقلم مع التجديد الحاصل في المجتمعات بهدف التطوير والتعايش السلمي، و هذا ما يبرر التداخل الحاصل بين الثقافة والمجتمع كون ان افراد المجتمع هم من يتبنون الثقافة ويسعون للمحافظة عليها بالمقابل الثقافة هي التي تعكس هوية هذا المجتمع وتحافظ على بقائه من هنا فان الثقافة لا توجد الا بوجود المجتمع ثم ان المجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة وهذا ما يجيب عن الاشكالية هل الثقافة هي من تصنع المجتمع ام ان المجتمع هو الذي يصنع الثقافة؟

أهمية تعزيز التنوع الثقافي بين افراد المجتمع: يمكن ان يكون التنوع الثقافي سببا للصراع والتناحر بين افراد المجتمع الواحد خاصة في المجتمعات المنغلقة التي تنبذ الآخر وثقافته على عكس المجتمعات المنفتحة اذ تبدو قضية التنوع

الثقافي اكثر فاعلية وحضورا وربما يعود ذلك الى طبيعة النظام السياسـي القـائم على احترام التعددية واللجوء إلى الحوار الفعال، وبالتالي فـإن الاقـرار بصـحة التنوع الثقافي والقبول به وحمايته وتنميته بين الاقليات وأثنيـات المجتمـع كافـة سينتهي ببناء مجتمع متحرر يتحلى بمزايا عصرية تيسر له اللحاق بالركب المتقدم للمجتمعات الحرة[14].

كما لا يمكن انكار دور التنوع الثقافي في تحقيق التنميـة للمجتمعـات نتيجـة التلاحم بين مختلف الثقافات وتبادل المعارف والخبرات كما يشجع الابداع الانساني في مختلف المجالات وهذا بالفعل ما اشير إليه في إعلان اليونيسكو العـالمي " إن التنوع الثقافي يوسع نطاق الخيارات المتاحة لكل فرد، فهو أحد مصادر التنمية، لا بمعنى النمو الاقتصادي فحسب وإنما من حيث هي أيضا وسيلة لبلوغ حياة فكريـة وعاطفية وأخلاقية وروحية مرضية"، وهذا ما يبرر اهمية التنوع الثقـافي كونـه عاملا ايجابيا في المجتمعات يغذي القيم والقدرات البشرية .

ونحصر هنا اهم الصراعات التي تنجم عن عدم احترام ثقافـة الاخـر وعـدم الاعتراف بالتنوع الثقافي:

- يمكن ان يؤدي استبعاد ثقافة الآخر وعدم احترامها الـى تفكـك المجتمـع والمساس بالوحدة الوطنية
- يمكن ان يؤدي إلى غياب الاستقرار ونشوب النزاعات الداخلية بين الافـراد بذريعة ان القوانين لا تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الثقافية الحاصلة بين الافراد.
- كما يؤدي إلى انغلاق كل فرد على ثقافته ورفضه للآخر بعيدا عن الاطـار الذي يحدده المجتمع الواحد مما ينجم عنه مجموعات انفصالية.
- يؤدي إلي نشوب الصراعات والحروب الأهلية ومحاولة خلق قوانين جديدة.

في حين ان الاعتراف بالتنوع الثقافي داخل المجتمع الواحد يؤدي الى تحقيـق العديد النتائج الايجابية نذكر بعضها:

- يؤدي إلى تعزيز الحوار والتبادل بين الثقافات والانفتاح على الآخر.
- التعرف على مختلف الثقافات الموجودة في المجتمع الواحد والاستفادة منها.
- الموازنة بين الثقافات من حيث الحقوق والواجبات وعدم استبعاد اي منها في تشكيل قوانين ودساتير الدولة.
- يؤدي إلى احترام لحقوق الانسان الثقافية، هذا ما يضمن كرامة الافراد وتحقيق حريتهم الخاصة.
- يؤدي إلى ضمان التعايش السلمي بين مختلف الطوائف والاقليات وبالتالي تحقيق الامن والاستقرار.
- تعزيز الحوار بين الشعوب وتشجيع التفاعل والتبادل الثقافي ونقل الخبرات والتقنيات المستحدثة.
- الحفاظ على الارث الثقافي للمجتمع الواحد.

التنوع الثقافي وحقوق الانسان: لم تعد مطالب الافراد تنحصر ضمن الحق الاجتماعي والسياسي، وانما تصاعد ليشمل الاعتراف بهوياتهم الثقافية واحترامها من دين ولغة ومعتقد والعادات والتقاليد المتوارثة، وحتى أساليب العيش وحتى تتحقق هذه الحقوق لا بد من الاعتراف بالتنوع الثقافي وتجسيده والدفاع عنه، كونه لا ينفصل عن كرامة الانسان واعتبار الحقوق الثقافية كجزء هام من منظومة حقوق الانسان، كما أنها ركيزة هامة في تركيبة هوية الأفراد، وبالتالي احترام تعددية الثقافات واللغات والديانات ومختلف القيم والمعايير الفكرية والفنية واجب على كل الشعوب كما أن ذلك يلغي أية محاولة للتعصب والهيمنة.

فالاعتراف بالتنوع الثقافي يقتضي احترام كل الثقافات رغم تواضعها، ومهما كان نوعها لأنها تشكل جزء من التراث الانساني المشترك.

لقد اضحى الحق في التنوع الثقافي اليوم قاعدة من قواعد القانون الدولي وذلك استنادا إلى ميثاق الامم المتحدة والعهود والاتفاقيات التي تحكم علاقات التعاون

الثقافي بين المجموعة الدولية، وفي كفالة هذا الحق من حقوق الانسان تأكيد علــى الخصوصية لكل شعب من شعوب العالم، وإبراز للهويات الوطنيــة ذات الســمات الحضارية التي تشكل في مجموعها الهوية الانسانية العامة القائمــة علــى أســاس وحدة الجنس البشري والصفات المشتركة في الطبيعة الانسانية.

خاتمة: ما يمكن قوله من خلال هذه الدراسة أن تحقيق الاستقرار والامن داخل المجتمعات، يقتضى احترام التنوع الثقافي للأفراد والعمل على زيادة التوعية مــن اجل الحقوق والحريات، من خلال اشراك جميع الأطراف من مختلف الانتمــاءات من أجل تكثيف وتنسيق الجهود والبحث عن حلول لربط شرعية مطالــب التنــوع والوحدة اي الوصل الى وحدة سياسية مقابل التنوع الثقافي.

الاحالات:

---

[1] المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار المعلمين، القاهرة، 1994، الجزء 06، ص 51.

[2]عاطف محمد، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة، مصر، 2006، ص97.

[3] طلعت رضوان، التنوع الثقافي في الوطن الأم، مجلة الحوار المتمدن، العدد 2012/382 ص76.

[4] إكرام بركان، تحليل النزاعات المعاصرة في ضوء مكونات البعد الثقافي في العلاقات الدولية مذكرة ماجستير، جامعة باتنة، سنة 2010/2009، ص 74.

[5] صابر أحمد، المواطنة في اطار التعددية الثقافية، من الموقع الالكتروني: http:/ kenanaonline.com

[6] مراد وهبة، المعجم الفلسفي دار قباء، القاهرة، 1988، ص719.

[7] الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1990، ص 278.

[8] القرآن الكريم، سورة المائدة، رقم 28.

[9] عمارة فوزي، التنوع الثقافي كمصدر خلاق للإبداع، اعمال المؤتمر الدولي الثامن: التنوع الثقافي/ طرابلس، 21–23 ماي 2015، ص 11.

[10] عبد العزيز بن عثمان، الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منظمة الايسيسكو، ط2 2015، ص 17.

[11] احمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، أليكس لتكنولوجيا المعلومات الاسكندرية، 2007، ط1، ص65.

[12] احمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، ص 100.

[13]ساطع الحصري، اراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية ط2، بيروت، لبنان، 1985، ص 133.

[14]عمارة فوزي، التنوع الثقافي كمصدر خلاق للابداع، ص 12.

الضمانات المقررة
في قانون المؤلف لاستمرارية الإبداع الثقافي

د. أيت تفاتي حفيظة
جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

مقدمة: استمرارية الإبداع الثقافي في مختلف تجلياته وأشكاله التعبيرية كالأدب المسرح، الموسيقى، العمارة، الرقص، الغناء الصناعة التقليدية، الترجمة....) نابعة من ارتباطه بشخصية الأفراد في أي زمان ومكان، مما يجعل لكل جيل في مرحلة زمنية معينة نصيبه من الإبداع الذي يثري المكون الثقافي للأمم والمجتمعات.

هذه الاستمرارية في الإبداع تجعل المكون الثقافي يتضمن شقين، الأول يعرف بالتراث الثقافي التقليدي ويشمل مجموع المعارف وأشكال التعبير التي أبدعتها الأجيال السابقة والتي تعد ملكا مشاعا للمجتمع الذي آلت إليه، وهو ملزم بالحفاظ عليها وصونها ونقلها للأجيال القادمة حاملة بصمته وخصوصيته العقائدية والبيئية والحضارية، أما الثاني فيتكون من مجموع المعارف وأشكال التعبير التي يبدعها أبناء الجيل الحالي، والتي تختلف عن التراث الثقافي التقليدي في حداثة إبداعها وتعبيرها عن خصوصية بيئة وزمن معين، وفي اعتبارها مشروع تراثي يورث للأجيال القادمة.

ولضمان استمرارية إنتاج الثقافة في جميع العصور لتضاف للمخزون والرصيد الثقافي المورث عن الأجداد، لابد من قوانين تحمي المبدع (المؤلف وأصحاب الحقوق المجاورة) عند الإبداع أو عند إبلاغ إبداعه الثقافي للمجتمع، خاصة وأن العملية الإبداعية في العصر الحالي لم تعد تتولد لتلبية حاجات شعورية والتعبير عن تجارب إنسانية عن طريق الاحتكاك والتعامل مع معطيات البيئة وبالاعتماد على أدوات بسيطة وتنتقل بالملاحظة والاستماع ضمن نطاق المجتمع الواحد كما في العصور الماضية

بل أصبحت موردا اقتصاديا هاما ذا تأثير كبير على الثروة الوطنية وتنمية الاستثمار مشكلة ما يعرف باقتصاد الثقافة، وهو ما أدى إلى زيادة كبيرة في تداول الإبداعات الثقافية على الصعيد الدولي.

وقد ساهمت القيمة الاقتصادية والتداول التجاري الدولي للإبداعات الثقافية في ارتفاع تكاليف إبداعها وتعرضها للسطو والسرقة، مما يجعل تدخل قانون المؤلف ضروري لتوفير الضمانات التي تحمي حقوق المبدع وتحافظ على استمرارية الإبداع الثقافي في مناخ يوازن بين حقوق المبدع وبين حاجة المجتمع للإبداع، وفي الجزائر تم سن الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق[1] المجاورة لتوفير الحماية للمبدعين وتشجيعهم على العطاء الفكري ، فما هي الضمانات التي أقرها هدا الأخير لتحقيق هذا الغاية؟.

سنحاول الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال تقسيم الموضوع إلى محورين، الأول يتعلق بنص الأمر 05-03 على توسيع نطاق العملية الإبداعية لتشمل كافة أشكال الإبداع الثقافي الحالية والتي قد توجد مستقبلا وفقا لشروط مرنة تتوافق مع طبيعة الإبداع، والثاني يتضمن الحقوق المخولة للمبدع سواء كانت معنوية أو مالية.

المحور الأول: الاعتراف بالحماية القانونية لكافة أشكال الإبداع الثقافي:

استمرارية إنتاج الثقافة يستوجب عدم حصر الحماية القانونية على الأنماط الإبداعية التقليدية، بل لابد من مراعاة التطور الحاصل في مختلف المجالات سواء العلمية أو التكنولوجية والاقتصادية والتي تؤدي بالضرورة إلى ابتكار أنماط تعبير ثقافية جديدة من ناحية المضمون والشكل، تعكس هوية وخصوصية البيئة التي ابتكرت فيها، وقد راع الأمر 03-05 تأثير البيئة ومعطياتها على تطور أشكال الإبداع الثقافي وتنوعه من خلال الاعتراف بالحماية لكافة الأشكال الإبداعية الثقافية **(أولا)**، التي تستوفي شروطا محددة **(ثانيا)**.

أولا: حماية جميع الإبداعات الثقافية الموجودة أو التي قد توجد مستقبلا: الإبـــداع الثقافي يطلق عليه في الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحماية الملكية الأدبية والفنية وقـــانون المؤلف مصطلح "المصنف"، و"الآداء"، ولم يورد الأمر 05-03 تعريفا للمصـــطلحين بل اكتفى بذكر قائمة من المصنفات ومجموعة من الأعمـــال الإبداعيـــة التـــي يمكـــن اعتبارها أداء، وتحضى بالحماية المقررة في نصوصه عندها استيفاءها شروط محددة.

فالإبداع الثقافي قد يكون مصنفا أو أداء، والمبدع قد يكون مؤلفا أو صاحب حقـــوق مجاورة، وقد نصت المادة (4) من الأمر 03-05 على بعـــض الأشـــكال الإبداعيـــة الثقافية التي يمكن اعتبارها مصنفات محمية قانونا مميزة بين الأشكال الإبداعية الثقافية الأصلية (المصنفات الأصلية)، والمشتقة (المصنفات المشتقة).

يستخدم تعبير المصنفات الأصلية[2] للدلالة على الأشكال الإبداعية الثقافية التي تقوم بذاتها ولا تستند في وجودها على مصنف أخر[3]، وتتعلق بعـــدة مجـــالات كـــالأدب والمسرح والموسيقى والفن والدراما والعلوم والقطاع السمعي البصري... إلـــخ، وقـــد قسمتها المادة 4 من الأمر 05-03 إلى ما يلي:

- الأشكال الإبداعية الثقافية الأدبية المكتوبة والشفوية، ويندرج ضـــمنها الأشـــكال التي تتخذ من الكتابة وسيلة للتعبير عنها كالمحاولات الأدبيـــة، الروايـــات، القصـــص القصائد الشعرية، وبرامج الحاسب الآلي، أما تلك التي تبدع في قالب شفوي فـــيمكن أن يدخل في نطاقها عدة أشكال إبداعية كالمحاضرات والخطب والمواعظ.

- كل الأشكال الإبداعية الثقافية التي تتعلق بالمسرح والدراما والـــدراما الموســـيقية والإيقاعية، والتمثيليات الايمائية.

- الأشكال الإبداعية الموسيقية، المغناة أو الصامتة.

- الأشكال الإبداعية السينمائية والسمعية البصرية الأخرى، سواء كانت مصـــحوبة بأصوات أو بدونها.

- الفنون التشكيلية والفنون التطبيقية، كالرسم، الرسم الزيتي، النحت، النقش الطباعة الحجرية، وفن الزرابي.

- الأشكال الإبداعية التي تتجسد في صورة رسوم أو رسوم تخطيطية ومخططات ونماذج هندسية مصغرة للفن والهندسة المعمارية ومنشآت تقنية، ورسوم بيانية وخرائط، ورسوم متعلقة بالطبوغرافية أو الجغرافية أو العلوم.

- الأشكال الإبداعية التصويرية، والمعبر عنها بشكل يماثل التصوير.

- الأشكال الإبداعية المتعلقة بالألبسة والأزياء والوشاح.

أما الأشكال الإبداعية المشتقة (المصنفات المشتقة)، فهي تلك التي تشتق أو تؤخذ من غيرها من الإبداعات[4]، أي أنها لا تقوم بذاتها بل تستمد وجودها من إبداعات موجودة سابقا، وقد تناولتها المادة (5) من الأمر 03-05، التي ذكرت بعض الأمثلة عنها وهي الترجمة، الاقتباس، التوزيعات الموسيقية، المراجعات التحريرية، وكل التحويرات الأصلية للأشكال الإبداعية الثقافية الأدبية والفنية، المجموعات والمختارات من المصنفات، مجموعات من مصنفات التراث الثقافي التقليدي، قواعد البيانات الإلكترونية والتقليدية.

وبخصوص الإبداع الثقافي الذي يتخذ شكل الأداء، وينسب لفئة من فئات الحقوق المجاورة والتي تسمى بفنان الأداء، عرفته المادة (107) من الأمر 03-05 أنه: "كل فنان يؤدي أو يعزف مصنف من المصنفات الفكرية أو مصنفات التراث الثقافي التقليدي"، وأضافت المادة (108) قائمة لبعض المبدعين اللذين يمكن إدراجهم ضمن فئة فناني الأداء كالفنان المؤدي لأعمال فنية أو العازف، الممثل، المغني، الموسيقي الراقص، وأي شخص أخر يمارس التمثيل أو الغناء أو الإنشاد أو العزف أو التلاوة وأي شخص يقوم بأي شكل من الأشكال بأدوار مصنفات فكرية أو مصنفات التراث الثقافي التقليدي.

فالإبداع الثقافي في قانون المؤلف قد يكون أصليا أو مشتقا، أو أداء، وهذا التقسيم راجع لطبيعة الإبداع الذي قد يكون أوليا سابقا في الوجود، أو مشتقا، ويهدف الاشتقاق لخلق أشكال إبداعية جديدة مبنية أساسا على تلك الموجودة سابقا، أما الأداء فيعتبر صورة من صور إبلاغ العمل الإبداعي إلى الجمهور مع إضافة لمسة إبداعية للفنان أو الموسيقي أو العازف أو الممثل، فالأداء شيء غير ملموس ولا يعتبر مصنف، ويمكن القول أنه ينقل فكرا سبق التعبير عنه بواسطة المبدع بصورة كاملة إلى الجمهور، فننان الأداء عبارة عن وسيط بين الجمهور والمؤلف ووجوده ضروري لأنه يثير لدى الجمهور المتلقي للعمل الثقافي حسا جماليا ولكنه لا يضيف أي شيء جديد للعناصر التي يتكون منها، وأحيانا تكون قيمة الأداء الفنية أكبر من قيمة العمل الإبداعي الذي يؤديه للجمهور، كأن ينجح الفنان المؤدي في ابتكار أسلوب مميز خاص به[5].

هذا التقسيم للإبداع الثقافي وإن كان راجع لاختلاف الأحكام القانونية التي يخضع لها كل نوع من الإبداع لكنه يدل على اتساع الحماية لتشمل كافة الإبداعات الثقافية الموجودة والتي يمكن أن توجد مستقبلا، فلم تعد الحماية مقتصرة على أشكال التعبير الثقافية التقليدية التي يقوم بها الكتاب والمسرحيين والفنانين والرسامين والموسيقيين، بل تطورت لتشمل أعمال تقوم بها فئات أخرى فرضت نفسها في حقل العمل الإبداعي الثقافي بفعل التطور التكنولوجي الذي جاء بوسائل جديدة لاستنساخ وتبليغ الإبداعات الثقافية كالنقل السلكي والنقل بألياف بصرية والتسجيل السمعي والسمعي البصري وتعرف هذه الفئات بأصحاب الحقوق المجاورة والتي تشمل إلى جانب فناني الأداء منتجي التسجيلات السمعية وهيأت البث الإذاعي.

والاعتراف بالحماية لهذه الفئات من شأنه خدمة استمرارية الإنتاج الثقافي لأن عملها يعد نشاطا مساعدا للإبداع الثقافي الأدبي والفني، فهي تنقله إلى الجمهور وتساعد في نشره والتعريف به على نطاق واسع، كما أن نشاطها يتطلب ترخيصا

بالنسبة للإبداعات (المصنفات) التي لا تزال مدة حمايتها سارية، وهذا ما يضمن عائـــد مالي لمبدعيها أو ورثتهم ويشجيع على تقديم المزيد من الإبداع.

كما أن قائمة الإبداعات الثقافية المذكورة في نصوص الأمر 03-05 وردت علـــى سبيل المثال لا الحصر، وهذا ما يتماشى مع طبيعة العملية الإبداعية القابلـــة للتطـــور باستمرار من ناحية الشكل أو المضمون نتيجـــة للتفاعـــل مـــع مختلـــف التحـــولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والتكنولوجية التي تطرأ على البيئة التي تتم فيها، والملاحظ من قائمة الأعمال الإبداعية المذكورة وجود أشكال إبداعية جديدة ناتجة عن التطور التكنولوجي كقاعدة البيانات الالكترونية ، برامج الحاسب الآلي، التوزيعات الموسيقية التي أصبحت تعتمد على المزواجة بين العزف والتكنولوجيا.

فتوسيع الحماية لتشمل كافة أشكال التعبير الثقافي الموجودة حاليا أو تلك التي يمكـــن ابتكارها مستقبلا يعد أحد الضمانات الأساسية التي تساعد علـــى اســـتمرارية العمليـــة الإبداعية وتطورها لقدرتها على مسايرة أي تحول قد يطرأ على بيئتها التي تنتج فيهـــا وتجدر الإشارة أن المتصفح للأمر 03-05 يجده ينص على حماية المكـــون الثقـــافي التقليدي والذي أطلق عليه مصطلح مصنفات التراث الثقافي التقليدي في المادة (8) منـــه ولكن هذه الحماية تختلف عن باقي أشكال التعبير الثقافي الجديدة، والتي يوفر لها هـــذا القانون حماية شاملة من لحظة إبداعها إلى غاية سقوطها في الملك في شـــقها المـــادي فيما تبقى حماية الشق المعنوي المتعلق بها أبدية، أما فيمـــا يتعلـــق بـــالمكون الثقـــافي التقليدي فمهمة صونه والحفاظ عليه من الاندثار تولاها قانون التراث(6)، أمـــا قـــانون المؤلف والحقوق المجاورة فقد نص على حماية خاصة عند استغلالها التجاري(7).

ثانيا: إقرار معايير مرنة لحماية الإبداع الثقافي: الإبداع الثقافي مهما كان شـــكله لا يتمتع بالحماية إلا إذا استوفى شروط محددة في الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، حيث نصت المادة (7) منه على ما يلي: "لا تكفل الحماية للأفكـــار والمفاهيم والمناهج والمبادئ والأساليب وإجراءات العمل وأنماطـــه المرتبطـــة بإبـــداع

المصنفات الفكرية بحد ذاتها إلا بالكيفية التي تدرج بها أو تهيكل أو ترتب في المصنف المحمي، وفي التعبير الشكلي المستقل عن وصفها أو تفسيرها أو توضيحها"،

وأضافت المادة (3): "يمنح كل صاحب إبداع أصلي لمصنف أدبي أو فني الحقوق المنصوص عليها في هذا الأمر، تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف ونمط تعبيره ودرجة استحقاقه ووجهته، بمجرد إبداع المصنف سواء كان المصنف مثبتا أم لا بأية دعامة مادية تسمح بإبلاغه إلى الجمهور".

من النصين نستنتج أن الإبداع الثقافي يكون متمتع بالحماية القانونية بموجب الأمر 03-05 متى توفرت فيه شروط معينة وهي إفراغه في قالب شكلي، وأن يتمتع بالأصالة، وبمجرد توفر الشرطين يعد محميا دون استيفاء أي إجراء شكلي وبغض النظر عن نوعه وتوجهه ودرجة استحقاقه، ونمط تعبيره.

1- حماية أشكال الإبداع الثقافي التي تفرغ في قالب شكلي: يعد هذا الشرط أحد أسس حماية الإبداعات الثقافية ويضمن تطورها واستمرارية إنتاجها، حيث يتطلب إفراغ الإبداع في قالب شكلي سواء كان مكتوبا أو شفويا أو أي شكل من أشكال التعبير، وبالتالي لا تتمتع الأفكار بالحماية حتى تكتمل العملية الإبداعية وتتجسد في قالب معين.

بالرجوع إلى نص المادة (2/3) من الأمر 03-05 نجدها تنص على أن المصنف يتمتع بالحماية " مهما كان نمط تعبيره" و"سواء كان مثبتا أم لا على دعامة مادية تسمح بإبلاغه إلى الجمهور"، وهذا ما يفيد أن كل أشكال التعبير التي يمكن أن تتجسد فيها الإبداعات تكون متمتعة بالحماية سواء كانت مكتوبة أو شفوية أو تخطيطية، أو تصويرية، ولا يؤخذ بعين الاعتبار تثبيت المصنف في شكل مادي لمنح الحماية[8] وبالتالي فالحماية تشمل الإبداعات التي تجسدت في قالب شكلي يدركه الإنسان سواء سمعا أو نظر أو كتابة[9].

كما لا يعتد بنوع هذا القالب الشكلي الذي تجسدت فيه أفكار المبدع، فقد يكون أدبي أو فني أو موسيقي، ولا بتوجهه الفكري فيتمتع بالحماية سواء كان غرضه نفعي أو تجاري، أو تعليمي أو ثقافي وهو ما أشارت إليه صراحة المادة (2/3) "تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف.... ووجهته".

فالأمر 03-05 يحمي شكل التصور وتجسيده في مصنفات مادية قابلة للاستنساخ أو الأداء أو العرض أو الإذاعة[10]، وليس الأفكار التي يتضمنها، فالأفكار لا يمكن أن تكون منتجا ثقافيا ولا يمكن أن تكون محلا للحماية لأنها استخدامها حر ولا يمكن أن تكون محل ملكية أبدا حتى لو كانت جديدة[11].

هذا الشرط من شأنه ضمان استمرارية الإبداع الثقافي، لأنه يفتح الباب واسعا للتعامل مرات غير محدودة مع الفكرة ذاتها من طرف كل مبدع، مما يثري المجال الإبداعي الثقافي بأشكال مختلفة مبنية على فكرة واحدة وتعبر عن شخصية مبدعها ويمكن كل جيل من الإسهام بنصيبه في تكوين الرصيد الثقافي للأمة، لأنه لو تم إقرار حق ملكية على الأفكار لأدى ذلك إلى شل العملية الإبداعية لأن استعمال الفكرة سيتطلب الحصول على ترخيص من مالكها الذي قد يرفض منحه أو يطلب أداء مالي كبير.

2 – حماية أشكال الإبداع الثقافي التي تتمتع بالأصالة: يشترط الأمر 03-05 لحماية أشكال الإبداع الثقافي أن تتمتع بالأصالة، ويكون الابتكار أصيلا إذا تولد عن جهود المبدع الشخصية ويحمل بصمته وطابعه الشخصي، ولا يشترط أن تكون الأصالة مطلقة، لأن الإبداع الفكري الثقافي يرتكز على عناصر موجودة سابقا ولكن جهود المبدع في تقديمه بشكل يظهر شخصيته ومجهوداته كأسلوب عرضه للأفكار وطريقة تناولها وتحليلها يجعله مميزا عن باقي الإبداعات السابقة وليس مجرد نسخ عنها أو تقليدا لها[12].

ولا يتم تقدير الأصالة بالطريقة نفسها في جميع الإبداعات، فهي تختلف حسب طبيعة الإبداع سواء كان علمي أو أدبي أو فني، أو كان أصلي أو مشتق.

وتختلف الأصالة عن الجدة التي تعني أن الابتكار لم يسبق التوصل إليه مـن قبـل وهي مناط حماية الاختراعات[13]، كما أنها تختلف عن القيمة الفنية أو الجـودة والتـي تعتبر مسألة ذوق تخضع لتقدير الجمهور وتختلف من شخص إلى أخر، والتي لا يمكن أخذها بعين الاعتبار عند منح الحماية أو تقدير الأصالة، وهو ما أشارت إليـه المـادة (2/3) "تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف ... ودرجة استحقاقه".

شرط الأصالة من شأنه ضمان تحقيق استمرارية العملية الإبداعيـة الثقافيـة عـن طريق خلق إبداعات جديدة بالاعتماد على أفكار قديمة وموجودة، لأن المطلـوب هـو خلق إبداعات ثقافية متميزة عن الإبداعات السابقة وليس مجرد نسخ عنها وتقليد لها.

3- استقلالية صفة المصنف عن درجة استحقاقه وتوجيهــه وطريقــة تعبيــره: يقصد باستحقاق المصنف قيمته الثقافية والفنية، وهو ما لا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند اعتبار الإبداع مصنفا وبالتالي الاعتراف بحمايته القانونية، لأن الاستحقاق يعتبـر مسألة ذوق يرجع تقديره للجمهور وليس للقانون أو القاضـي[14]، كمـا أن المصـنف محمي مهما كان توجهه سواء كان ثقافي أو لصالح المنفعة العامة ومهما كانت طريقة التعبير عنه سواء شفاهة أو كتابة أو بأية طريق أخرى، وهو ما نصت عليـه المـادة (2/3) من الأمر 03-05 "تمنح الحماية مهما يكن نـوع المصـنف ونمـط تعبيـره ودرجة استحقاقه ووجهته، بمجرد إيداع المصنف...."

4- عدم تعليق حماية الإبداع الثقافي على استيفاء أي إجــراء شــكلي: تخضـع الحماية المقررة لأشكال الإبداع الثقافي لمبدأ التلقائية، فبمجرد اكتمال العملية الإبداعيـة واتخاذها شكلا معينا يتمتع بالأصالة يعتبر مصنفا أو أداء محميا دون الحاجـة لإلـزام المبدع بإتباع إجراءات معينة للحصول على الحماية، والانتساب للديوان الوطني لحقـق المؤلف والحقوق المجاورة ليس إجراء لازما للحماية، وإنما مجـرد إجـراء لإشـراك الديوان في عملية حماية الإبداع الثقافي فقط، فلا يتدخل الديوان في عملية منح الحمايـة أو رفضها لأنها مسألة مرتبطة بالإبداع.

كما أن إيداع المصنفات المنصوص عليه في الأمـــر رقــم 96-16[15] لا يعتبـــر إجراء تعلق عليه حماية المصنفات وإنما يكتسي طابع حفظ المصنف المودع فقــط، ولا يمس بحمايته[16].

فسهولة الحصول على القانونية التي تتقرر للإبداع من لحظة إيداعه وعدم تعليقهـــا على إجراءات تتطلب الوقت والتكاليف من شـــأنه أن يحفــز المبـــدع علـــى النشـــاط الإبداعي.

المحور الثاني: الضمانات المرتبطة بالحفاظ على الإبداع الثقافي واستغلاله التجـــاري: استمرارية إيداع الثقافة هو حق للمبدع وأفراد المجتمع، وواجب يقع على الدولة الوفـــاء به، ويوفر القانون رقم 05-03 ضمانات أساسية للموازنة بين حق المبدع فـــي إنتـــاج الثقافة وحق المجتمع في استهلاكها، عن طريق الاعتراف بمجموعـــة مـــن الحقـــوق المعنوية للمبدع التي تعتبر بمثابة صمام آمان تمكنه من الحفاظ على سلامة إبداعه مـــن أي تحريف أو تشويه، والتعريف بشخصه وممارسة الرقابة الذاتية على اكتمال العمليـــة الابدعية **(أولا)**، والحقوق المالية التي تضمن له عائدات مادية لقـــاء جهـــوده الفكريـــة وبما أن هذه الفئة من الحقوق مرتبطة بإبلاغ الإبداع للمجتمع فقد أحيطت بمجوعة من القيود التي توازن بين الحق في إنتاج الثقافة والحـــق فـــي اســـتهلاكها مـــن طـــرف الغير **(ثانيا)**.

أولا: الاعتراف بالحقوق المعنوية لصاحب الإبداع الثقافي: الحوافز المعنوية التـــي تمنح للمبدع قد تكون أكثر تأثيرا في نفسيته من الجوانـــب الماليـــة، فمـــنح الاحتـــرام والتقدير والمكانة في قلوب من يتلقون إبداعه، وضمان إبلاغه للمتلقي دون تغييـــر أو تحريف، وترك الحرية كاملة للمبدع في تقدير اللحظة التي تكتمل فيها العملية الإبداعية وتصبح جاهزة للكشف عنها للمجتمع ليست مجرد دافع قوي للإبداع فقط، وإنمـــا هـــي غاية يرجوها كل مبدع عند الكشف عن إبداعه والإعلان عنه للمجتمـــع، وهـــذا مـــا يشجع استمرارية العملية الإبداعية في مناخ صحي وآمـــن ثقافيـــا وفكريـــا، وتتمثـــل

الحقوق المعنوية التي اعترف بها القانون 05-03 للمبدع (المؤلف وفنان الأداء) فيما يلي:

1- الحق في الكشف عن الإبداع الثقافي للمجتمع: نصت على هذا الحق المادة (22) من الأمر 03-05: "يتمتع المؤلف بحق الكشف عن المصنف الصادر باسمه الخاص أو تحت اسم مستعار...".

فهذا الحق يمكن المبدع من اختيار اللحظة والطريقة التي يكشف فيها عن إبداعه الثقافي للمجتمع، فله وحده الحق في الإبقاء عليه في طي الكتمان أو التعريف به لدى دائرة ضيقة من محيطه ومعارفه، أو الإعلان عنه للمجتمع[17]، وعند اختياره الإعلان فهو وحده من يقرر وقت اكتمال العملية الإبداعية وجاهزيتها للعلانية والخروج للجمهور، والطريقة التي يتم بها هذا الكشف.

وإذا توفي المبدع دون أن يمارس الحق في الكشف عن إبداعه الثقافي يمكن لورثته القيام بالكشف عنه للمجتمع ما لم يحدد طرف أخر يؤول إليه هذا الحق في وصيته [18]و عند تعلق الأمر بإبداع يشكل أهمية للمجموعة الوطنية ورفض الورثة الكشف عنه يتدخل القضاء للفصل في مسألة الكشف بناء على إخطار من وزير الثقافة أو ممثله أو بطلب من الغير[19]، وإذا لم يكن للمبدع ورثة يتدخل وزير الثقافة لإخطار الجهة القضائية لتمنحه الإذن بالكشف [20].

2- الحق في أبوة الإبداع الثقافي: نصت عليه المادة (23) من الأمر 03-05: على ما يلي:" يحق لمؤلف المصنف اشتراط ذكر اسمه العائلي أو المستعار في شكله المألوف وكذا على دعائم المصنف الملائمة.

كما يمكنه اشتراط ذكر اسمه العائلي أو الاسم المستعار فيما يخص جميع أشكال الإبلاغ العابرة للمصنف إذا كانت الأعراف وأخلاقيات المهنة تسمح بذلك".

ويعرف كذلك بالحق الانتساب أو البنوة، تشبيها بعلاقة الآباء والأبناء، فالعمل الإبداعي الثقافي يحضى بقدسية خاصة لدى مبدعه لذا تم إقرار هذا الحق الذي يحمي

الرابطة المقدسة والوثيقة بين المبدع وثمرة نشاطه الفكري، ويتم ممارسة حق الأبوة عن طريق ذكر اسم ولقب المبدع والمعلومات التي يرغب في معرفتها الجمهور على كافة دعائم العمل الإبداعي[21].

كما يتوجب احترام رغبته في إخفاء هويته عن الجمهور وذلك بعدم ذكر أي اسم أو اختيار اسم مستعار لينسب له عمله الإبداعي[22].

تكمن أهمية هذا الحق المعنوي في مكافئة المبدع على جهوده وتشجيعا له على مواصلة الإبداع بنسبة مصنفه إليه، ومنع أي شخص غيره من نسبته إليه أو ترجمته أو تحويره دون إذن منه حتى لو كان من الورثة، وتكون ممارسة هدا الحق خلال حياة المبدع، وبعد وفاته يتكفل ورثته أو الشخص المحدد في وصيته بالدفاع عن هدا الحق ومتابعة كل شخص يقوم بنسبة الإبداع إليه قضائيا، وفي حالة عدم وجود ورثة أو وصية يتدخل الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة بالدفاع عن هذا الحق[23].

ويعترف كذلك بالحق في الأبوة للفنان المؤدي أو العازف على أداءه دون أصحاب الحقوق المجاورة الأخرى لأن عمله ينطوي على إبداع وله الحق في ذكر اسمه العائلي أو المستعار وصفته إلا إذا كانت طريقة استعمال الأداء لا تسمح بذلك[24].

3- الحق في احترام سلامة الإبداع الثقافي: يعد من الحقوق الأساسية التي أقرتها المادة (25) من الأمر 05-03: "يحق للمؤلف اشتراط احترام سلامة مصنفه والاعتراض على أي تعديل يدخل عليه أو تشويهه أو إفساده إذا كان ذلك من شأنه المساس بسمعته كمؤلف أو بشرفه أو بمصالحه المشروعة".

قدسية العلاقة بين المبدع وثمرته الإبداعية والتي تشبه علاقة الوالد بابنه، تجعله يتأذى معنويا من أي فعل قد يلحق ضررا بسمعته وشخصيته الإبداعية[25]، وهو ما قد يخلق لديه خوف وتردد من الإقدام على عملية الإبداع ذاتها أو عدم الإعلان عن إبداعه ومشاركته مع الجمهور مما يؤثر سلبا على ثراء وتنوع الرصيد الثقافي

والمعرفي للمجتمع الذي ينتمي إليه، لذا أقر الأمر 03-05 هذا الحق الذي يضمن سلامة الإبداع بمنع أي تغيير وتشويه أو تدخل فيه قد يلحق ضررا بشرف المبدع وسمعته ومصالحه المشروعة.

فهذا الحق يشجع المبدع على الإبداع في محيط سليم يحمي إبداعه من أي تغيير ويضمن للجمهور الحق في التمتع بثمار الإبداع الفكري في تعبيره الأصلي.

كما اعترف الأمر 03-05 في المادة (112) لفناني الأداء بهذا الحق، فلهم اشتراط احترام سلامة أداءهم والاعتراض على أي تعديل أو تشويه أو إفساد من شأنه الإساءة إلى سمعتهم كفنانين أو إلى شرفهم.

5- الحق في سحب الإبداع الثقافي من التداول: نصت على هذا الحق المادة (24) من الأمر 03-05: "يمكن للمؤلف الذي يرى أن مصنفه لم يعد مطابقا لقناعته أن يوقف صنع دعامة إبلاغ المصنف إلى الجمهور بممارسة حقه في التوبة أو أن يسحب المصنف الذي سبق نشره من جهة الإبلاغ للجمهور عن طريق ممارسة حقه في السحب.

غير أنه لا يمكن للمؤلف ممارسة هذا الحق إلا بعد دفع تعويض عادل عن الأضرار التي يلحقها عمله هذا بمستفيدي الحقوق المتنازل عنها".

الإبداع الفكري يتطور باستمرار وقناعات المبدع قد تتغير أو زوايا رؤيته الإبداعية قد تتسع بعد الكشف عن إبداعه للجمهور، لذا منحه الأمر 03-05 الحق في سحب إبداعه من التداول له وحده فقط دون ورثته أو أي طرف أخر إذا كان قد تم إبلاغه للجمهور، أو إيقاف عملية الإبلاغ للجمهور قبل الشروع فيها، ويمكنه سحبه بصورة نهائية أو سحبه لأجل تعديله كتوضيح بعض المفاهيم أو حذف بعض البنود أو إضافة أخرى أو تغيير بعض الأفكار[26].

تجدر الإشارة أن الحقوق المعنوية تتمتع بحماية أبدية، أي أنها تضل قائمة حتى لو سقط الإبداع في الملك العام في شقه المادي فهي تضل طيلة حياة المبدع وبعد وفاته

لمدة غير محددة زمنيا وكل مساس بها في أي وقت يعتبر تعـــدي يســـتوجب المتابعـــة القضائية.

ثانيا: الاعتراف بالحقوق المالية للمبدع: يعترف القـــانون رقـــم 05-03 للمبـــدع سواء كان مؤلفا أو صاحب حقوق مجاورة بمجموعة من الحقـــوق الاســـتئثارية التـــي تخوله وحده دون غيره أو ورثته بعد وفاته خلال مدة الحماية القانونية المحـــددة بحيـــاة المبدع وخمسين سنة أخرى من تاريخ الوفاة استغلال الإبـــداع الثقـــافي أو التـــرخيص للغير باستغلاله، وتزايدت أهمية الحقوق المالية في الوقت الراهن بعد ما أصبح الإبداع الثقافي محل استثمار من شأنه تحقيق عائدات اقتصادية للدولة، ومن شأن هـــذه القيمـــة الاقتصادية الرجوع بربح كبير على المبدع وهو ما يعد حـــافز كبيـــر علـــى العطـــاء الفكري.

وتتعلق الحقوق المالية بالطرق المختلفة لاستغلال واستخدام العمل الإبداعي الثقـــافي فهي تعكس في أغلبها تكنولوجيا الاتصال، حيث اتسع نطاقها على مـــر الـــزمن مـــع التطور التكنولوجي، ويتوقف العائد المالي الذي يستحقه المؤلـــف علـــى مـــدى تقبـــل الجمهور لعمله وظروف استخدامه.

وتكمن أهميتها في منح الحق للمبدع (المؤلف) وحده في التـــرخيص للغيـــر بكـــل استخدام، حيث يتوجب الرجوع للمؤلف خلال حياته أو ورثته بعد وفاتـــه أو الـــديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة للحصول على موافقة بالنسبة لكل اســـتخدام يتصل بالحقوق المالية المخولة للمبدع. ووتتمثل الحقوق المالية المخولة للمبـــدع الـــذي يصنف في خانة المؤلفين في ما يلي:

1- الحقوق المادية المخولة للمؤلف: يتمتع المبدع المؤلف بالحقوق المادية التـــي حددتها المادة 27 من الأمر 03-05، حيث يخول له الحق الاستئثاري في التـــرخيص للغير للقيام بمجموعة من الأعمال التي تنقسم لقســـمين رئيســـين وهمـــا الحـــق فـــي الاستنساخ، وحق الأداء العلني للجمهور.

أ- **الحق في استنساخ الإبداع الثقافي:** يمكن للمبدع المؤلف وحده القيام باستنساخ إبداعه أو الترخيص للغير بصنع نسخ منه، ويقصد بالاستنساخ استحداث صورة أو أكثر للعمل الإبداعي مطابقة للأصل، بأي شكل من الأشكال، فحق الاستنساخ هو التثبيت المادي للمصنف المحمي بأية وسيلة يمكن من خلالها نقله للجمهور[28]، والعمل الإبداعي محل الاستنساخ قد يكون عبارة عن مخطوط أدبي أو علمي أو موسيقي، أو برنامج إعلام آلي، أو رسم أو تصوير، أو مصنف سمعي أو سمعي بصري.

ويشمل الاستنساخ عدة حقوق منفصلة نابعة من تعدد الأساليب الإبداع وتطور وسائل الاستنساخ، ٬قد أشار الأمر 05-03 في المادة (27) إلى بعض أساليب الاستنساخ التي تتطلب رخصة من المؤلف أو من يمثله قانونا وهي:

- النشر بأية وسيلة كانت سواء خطية أو من نوع أخر كالاسطوانات.
- الاستنساخ الآلي للمصنف في شكل تسجيلات سمعية أو سمعية بصرية.
- انجاز نسخة أو عدة نسخ ثلاثية الأبعاد في مصنف ثنائي الأبعاد.
- إدماج مصنف أو جزء منه في نظام إعلام آلي.

يرد على حق الاستنساخ بعض القيود التي تمكن الغير من استنساخ المصنف في مدة الحماية دون ترخيص من المؤلف أو ورثته أو من آلت إليه الحقوق المالية، ويتعلق الأمر بالنسخة الخاصة والمقصود بها استنساخ نسخة من المصنف لغرض الاستخدام الشخصي وليس لأغراض تجارية، والنسخ لاستخدام الجمهور ويدخل في إطارها الأخبار اليومية والأحداث المختلفة التي تتناقلها الصحافة والتلفزيون والإذاعة لتبليغها للجمهور دون ترخيص من المؤلف، شريطة ذكر المصدر واسم المعني والاستشهاد بفقرات قصيرة من مصنف سابق تم وضعه في متناول الجمهور بصورة مشروعة، واستخدام المصنف لغرض تعليمي[29].

ب- **حق الأداء العلني للجمهور:** الحق في الأداء العلني للجمهور يشمل في نقل الإبداع الثقافي للجمهور في مكان عام خارج دائرة الأسرة أو مجموعة الأصدقاء

والمعارف، و يشمل كذلك استقبال الجمهور لهدا الإبداع[30]، ويتعلق بالأعمال الإبداعية التي يمكن تقديمها في صورة أداء علني والأعمال الأدبية والتمثيلية والموسيقية والفنون التشكيلية والصور المتحركة، وسائر الأعمال الإبداعية السمعية البصـــرية والصـــوتية وفنون الرقص الأداء.

والأداء يغطي مجالا واسعا من الإبداعات كالتلاوة العلنية لعمل أدبي أو عزف أحـــد المصنفات الموسيقية، أو عرض لوحة فنية، أو إذاعة إبداع معين عن طريـــق الراديـــو والتلفزيون، وقد ذكرت المادة (27) من الأمر 03-05 بعـــض صـــور الأداء العلنـــي للجمهور وهي:

- إبلاغ المصنف إلى الجمهور عن طريق التمثيل والأداء العلنيين.

- إبلاغ المصنف إلى الجمهور عن طريق البث الإذاعـــي الســـمعي أو الســـمعي البصري.

- إبلاغ المصنف المذاع إلى الجمهور بواسطة الوســـائل اللاســـلكية أو الأليـــاف البصرية أو التوزيع السلكي أو أية وسيلة أخرى لنقل الإشارات الحاملة للأصـــوات أو للصور والأصوات معا.

- إبلاغ الإبداع الثقافي المذاع بواسطة البث اللاسلكي من قبل هيئة أخـــرى غيـــر هيئة البث الأصلية.

- إبلاغ الإبداع الثقافي المذاع للجمهور بواسطة مكبر الصوت أو مذياع أو تلفـــاز موضوع في مكان مفتوح.

- إبلاغ الإبداع الثقافي للجمهور بواسطة أية منظومة معالجة للمعلومات.

- الإبلاغ للجمهور عن طريق الترجمة والاقتباس والتوزيع وغيرها من التحويلات المدخلة على العمل الإبداعي والتي تتولد عنها مصنفات مشتقة.

2- الحقوق المادية المخولة لأصحاب الحقوق المجاورة: اعترف الأمـــر 03-05 لأصحاب الحقوق المجاورة بمجموعة من الحقوق المادية تختلف من فئة إلـــى أخـــرى

لكنها تصب كلها في خانة التبليغ إلى الجمهور، رغم أنه لم يعترف بالحق المعنوي إلا لفناني الأداء، لأن عمله ينطوي على الإبداع الذي يفتقر إليه عمل صاحب التسجيل السمعي، وصاحب التسجيل السمعي البصري، وهيأت البث الإذاعي السمعي والسمعي البصري.

أ- **الحقوق المادية لفناني الأداء:** يتمتع فنانو الأداء بحقوق استئثارية في إبلاغ أداءهم إلى الجمهور سواء عن طريق الاستنساخ أو البث الإذاعي أو السمعي البصري، ولهم الحق في منع الغير من استغلال أداءهم بأية طريقة دون ترخيص مكتوب منهم، ولهم الحق فيما يلي:

- منح تراخيص للغير بتثبيت الأداء أو العزف غير المثبت.
- منح تراخيص باستنساخ التثبيت.
- منح تراخيص بالبث الإذاعي السمعي أو السمعي البصري للأداء أو العزف وإبلاغه للجمهور بصورة مباشرة.

ب- **الحقوق المادية لمنتجي التسجيلات الصوتية:** منح الأمر 03-05 لمنتجي التسجيلات الصوتية الحق الاستئثاري في القيام بما يلي:

- استغلال تسجيلهم السمعي عن طريق الاستنساخ
- إبلاغ التسجيل السمعي للجمهور عن طريق البث الإذاعي أو عبر أجهزة الحاسوب.
- تأجير وبيع نسخ التسجيل السمعي ونسخه وتأجيره أو البث الإذاعي له أو إتاحته عبر أجهزة الحاسوب ويقوم بهذه الأفعال بنفسه، ويمنع على الغير القيام بها وإلا اعتبر متعديا على حقه، وله أن يرخص للغير بموجب عقد ترخيص مكتوب، والقيد الوحيد في ممارسة هذه الأفعال هو احترام حقوق مؤلفي المصنفات المثبتة في التسجيل السمعي.

ج- **الحقوق المادية لمنتجي التسجيلات السمعية البصرية:** لمنتجي التسجيلات السمعية والسمعية البصرية الحق الاستئثاري في القيام بأنفسهم باستنساخ تسجيلهم والحق في إبلاغه إلى الجمهور بأي وسيلة كانت ويمكن أن يدخل في إطار هده الوسائل البث الإذاعي والتلفزيوني، والتأجير والبيع، الأنترنات.

وله الحق في ممارسة هده الحقوق دون قيد سوى احترام حقوق مؤلفي المصنفات المثبتة في التسجيل السمعي والبصري، ويمتنع على الغير القيام بها دون ترخيص مكتوب منه وإلا اعتبر متعديا على حقوقه.

ج- **الحقوق المادية لهيآت البث الإذاعي السمعي والسمعي البصري:** هيآت الإذاعة والتلفزيون لها الحق في بث وتثبيت الحصص المذاعة، استنساخ الحصص المذاعة والمثبتة من طرفها، وإبلاغ حصصها المتلفزة إلى الجمهور، وتمارس هذه الحقوق بصورة استئثارية دون قيد سوى احترام حقوق مؤلفي المصنفات التي تتضمنها البرامج المثبتة، ولها الحق في الترخيص للغير بواسطة عقد مكتوب للقيام بهذه الأعمال كلها أو بعضها.

تعتبر الحقوق المالية خاصة في الوقت الراهن الذي ارتبط فيه الإبداع بالتجارة والاقتصاد وأصبح يتمتع بقيمة مالية واقتصادية من أهم الحوافز التي قد تحفز المبدع على إنتاج الثقافة وبالتالي الحفاظ على استمراريتها، ولكن في المقابل تجعل من الإبداع الثقافي عرضة للسطو والتقليد من طرف الغير ورغم النص على تجريم هده الأفعال ومنح للمبدع أو ورثته حق اللجوء للتقاضي، لكن التطور التكنولوجي جعل مسألة الاستنساخ والأداء العلني للجمهور يسيرة وسهلة وفي متناول الجميع وهو ما يدعو للتفكير في ضمانات تواكب هده التحولات العلمية والتكنولوجية السريعة في وقتنا الحالي.

خاتمة: الإبداع الثقافي حق من حقوق الأفراد من ناحية إنتاجه أو استهلاكه، فأبناء أي مجتمع في أي عصر المشاركة في الإنتاج الثقافي وتقاسمه ومشاركته مع الآخرين وقد جاء قانون المؤلف والحقوق المجاورة لتكريس هدا الحق من خلال مجموعة من الضمانات التي تكفل استمرارية إبداع الثقافة والحفاظ على هذا الإبداع والحصول على عائدات مالية منه خاصة في الوقت الراهن نتيجة للقيمة الاقتصّادية التي أصبحت مرتبطة به.

فقانون المؤلف والحقوق المجاورة يعد ومن خلال الضمانات التي أقرها أهم آلية للحفاظ على استمرارية الإبداع الثقافي عبر الأجيال المختلفة والحفاظ عليه، مما يكفل نقله للجيل القادم في شكله الأصيل.

الهوامش

[1]– أمر 03–05 مؤرخ في 19 جويلية 2003، يتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، ج ر عدد 44، صادر في 23 جويلية 2003.

[2]– يستعمل مصطلح المصنفات الأصلية للدلالة على الإبداعات الأولية الأصلية، وقد يثير هذا المصطلح الخلط مع الأصالة التي تعتبر شرط للحماية يجب أن يتوفر في كل الإبداعات سواء أولية أصلية أو مشتقة، لدا تسمى أيضا هذه الإبداعات بالمصنفات سابقة الوجود، أو مصنفات اليد الأولى.

[3]– أنظر : دليا ليبزيك، حقوق المؤلف والحقوق المجاورة، ترجمة: محمد حسام لطفي، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2003، ص ص (78–79).كذلك: نواف كنعان، حق المؤلف، النماذج المعاصرة لحق المؤلف ووسائل حمايته، الطبعة الثالثة مكتبة دار الثقافة، عمان، 2000، ص 210.

[4]– منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ،المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، ، باريس، 1981 ص 36.

[5]– داليا ليبزيك،لمرجع سابق، ص 387.

[6]– قانون رقم 98–04 مؤرخ في 15 جوان 1998، يتعلق بحماية التراث الثقافي، ج.ر.ع 44 الصادر سنة 1998.

[7] – جاءت المواد (139 حتى 142) من الأمر 03–05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة بأحكام خاصة فيما يتعلق باستغلال مصنفات التراث الثقافي التقليدي التي تخضع لترخيص ورقابة من الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، لدي تخول له صلاحية رفض منح الترخيص أو إيقافه عندما يتبين أن الاستغلال مضر بالمكون الثقافي التقليدي، وفي كل الأحوال يتعين على صاحب الترخيص احترام سلامة هدا المكون وأصالته عند إبلاغه للجمهور.

[8] – تركت اتفاقية برن المتعلقة بحماية حقوق الملكية الأدبية والفنية للدول الأعضاء فيها حرية الاختيار لاشتراط ما إذا كان تثبيت المصنف في شكل مادي ضروري أو غير ضروري لحمايته حيث نصت المادة 2/2 منها على ما يلي:" تختص مع ذلك تشريعات دول الاتحاد بحق القضاء بأن المصنفات الأدبية والفنية أو مجموعة أو أكثر منها لا تتمتع بالحماية طالما أنها لم تتخذ شكلا ماديا معينا".

[9]–

[10]– داليا ليبزيك، مرجع سابق، ص ص (71–72).

[(11)]- نواف كنعان، المرجع السابق، ص ص (201-202).

[(12)]- أنظر: داليا ليبزيك، مرجع سابق، ص 75، كذلك: نواف كنعان، مرجع سابق، ص 189.

[(13)]- سعيد عبد السلام، الحماية القانونية لحق المؤلف والحقوق المجاورة، دار النهضة العربية القاهرة، 2004، ص 44.

(14)- كلود كولومبيه، المبادئ الأساسية لحق المؤلف والحقوق المجاورة في العالم، دراسة في القانون المقارن، ترجمة: المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة والعلوم، تونس واليونسكو، باريس، 1995 ص 23.

[(15)]- أمر رقم 96-16 مؤرخ في 2 جويلية 1996، يتعلق بالإيداع القانوني، ج ر عدد 41، صادر في 3 جويلية 1996.

[(16)]- وهو ما توضحه المادة 6 من الأمر رقم 96-16 المتعلق بالإيداع القانوني التي تنص على ما يلي:" يكتسي الإيداع طابع الحفظ، ولا يمس بحقوق المؤلف، ومنتج الوثائق المودعة".

[(17)]- داليا ليبزيك، مرجع سابق، ص 167.

[(18)]- المادة (2/22) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(19)]- المادة (22/ 4) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(20)]- المادة (5/22) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(21)]- نواف كنعان، المرجع السابق، ص 105.

[(22)]- داليا ليبزيك، مرجع سابق، ص 174.

[(23)]- المادة (26) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(24)]- المادة (112) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(25)]- المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، مرجع سابق، ص 25.

[(26)]- أنظر: داليا ليبزيك، مرجع سابق، ص 177، كذلك: المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، المرجع السابق، ص 25.

[(27)]- أنظر: المواد (54 إلى 60) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

[(28)]- شحاتة غري شلقامي، الملكية الفكرية في القوانين العربية، دراسة لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة ولخصوصية حماية برامج الحاسب الآلي، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2008، ص 31.

[(29)]- المرجع نفسه، ص 135.

(30)- بالنسبة للقيود والاستثناءات الواردة على الحق المالي للمؤلف أنظر: المواد (33 إلـــى 53) مـــن الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

(31)- نواف كنعان، مرجع سابق، ص 160.

المثاقفة وزعزعت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق

د. لبصير نورالدين
جامعة امحمد بوقرة، بومرداس

المقدمة: يعدّ مفهوم المثاقفة من أكثر المفاهيم الذي أثار جدلاً حاداً، ونقاشات بين الباحثين، والنقاد، والمفكرين في الآونة الأخيرة؛ لأنّ استعارة مصطلح من نسق ثقافي اجتماعي إلى نسق ثقافي اجتماعي آخر يؤدي إلى جملة من الإشكالات التي تفرض تأصيلاً لهذا المفهوم ضمن السياق الذي ورد فيه، إذ ليست الثقافة بمعزل عن مسيرة الأمة، ونحن بأمس الحاجة لتجلية هذا المفهوم.

وتبقى المثاقفة رافداً من أهم روافد الثقافة، لذلك تسعى كلّ أمة من الأمم من خلاله للتفاعل، والاستفادة من انجازات الآخرين، واستثمار ما لديه في تنمية كيانها، من أجل ذلك تتوق المجتمعات إلى المثاقفة، والتواصل مع الآخر، فقد عرفتها، ومارستها مختلف الحضارات الإنسانية عبر تاريخها الطويل.

وقد ظلّت المثاقفة ظاهرة إنسانية تفاعلت معها الشعوب، والأمم على مرّ الحقب الزمانية المتعاقبة، ذلك أنّ الكائن الحي السوّي لابدّ له أن ينفتح على الآخرين، ويتثاقف معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير، والتأثر، والأخذ والعطاء، لأنّ الوعي بالآخر شرط ضروري، وأساسي لوجود ذاتنا، والوعي بالذات شرط ضروري وأساسي لإثبات الهوية، لذلك لا تستطيع أية أمة تبحث لنفسها عن مكانة أن تنغلق على نفسها، وتتقوقع داخل ذاتها، وتدعي القدرة على الاستمرار، لأنّ هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتم.

يبقى مصطلح المثاقفة من المصطلحات التي تعبر عن أوجه التبادل الثقافي (الأخذ والعطاء) بين الحضارات البشرية المتعددة، ومع ذلك يبقى تمايز الأمم، والشعوب

واختلافها أمر طبيعي، وهو آية من آيات الله تعالى:﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[1]، وهذا التمايز في الخلقة يستتبع اختلافاً في الثقافات، والنظم؛ قال الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾.[2]

وعلى الرّغم من هذا الاختلاف، والتمايز لا يمكن للمجتمعات أن تعيش منعزلةً عن بعضها البعض، وخصوصاً في ظلّ تحوّل العالم إلى مدينة كونية، وليس مجرد قرية كونية؛ بل هي تسعى لتتبادل الخبرات، والتجارب مع بعضها البعض تؤثر وتتأثر وعلى الرّغم من محاولات الشعوب للحفاظ على نقاء العرق، وصفاء الثقافة، إلاّ أنّ حتمية التغيير الناجمة عن مثاقفة الآخر، التي زعزعت جيولوجيا المجتمعات، وبدّلت مصائرها في كثير من الأحيان، وأحياناً أخرى تلغي وجودها لتنصهر، وتذوب في ثقافة الآخر.

ويأتي الحديث في هذه الورقة البحثية عن المثاقفة، وزعزعت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق، والانغلاق المطبق ليس مضيعةً للوقت، وإهداراً للطاقات دون فائدة، وليس فضولاً من العلم، ولا ترفاً فكرياً، لأنّها لا تقل أهمية عن حوادث الكون الكبرى لدراسة أحوال الامتزاج، والنفور، والصدام بين الشعوب، لذلك يبقى موضوع تلاقي الثقافات، وتعايشها، وتضادها، وتنافرها، والتأثرات المتبادلة بينها سلباً، وإيجاباً أحد الموضوعات التي جلبت اهتمام الباحثين، حيث كان موضوعاً للبحث في عديد العلوم، ونشأة البحوث المتداخلة جاءت من هذا.

ومازال الفكر العربي يطرح التساؤل نفسه خلال السنوات الأخيرة حول المثاقفة مع الآخر ضمن إطاريْن ضيقين، ومستويين أحاديين، فإمّا أن تنفتح هذه المثاقفة على الآخر في شكل كامل، ومكتمل مع الغرب، وإمّا أن تنغلق في إطارٍ محدّد، وثابت، له مرجعيته الحضارية، والثقافية.

فلا الإقبال الشغوف، واحتضان الثقافة الغربية بكامل صـــورها، وكأنّهـــا معطـــى مصمت لا يتفاوت، ولا التضايق، والتضييق، والتعنت، والعدمية، والرفض للمثقافة، قد أفاد فعل المثاقفة.

وبين هذين الإطارين المتجاذبين لم يتبلور بعد خطاب ثقافي جديد يحاول أن يســـاءل مفهوم "المثاقفة" عقلانياً بعيداً عن كلّ تهريج، وتشنج، وخارج التبعية للغرب، والشـــرق معاً.

إنّنا نريد المثاقفة التي لا تسعى إعادة رسم ثقافة الآخر، ومكانه، نريد المثاقفة التـــي تكون وسطاً لا تؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر، وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر، والعالم بأسره حتى لا نسقط في مقبرة التبعية، ولكـــي لا نستمد أصالتنا من المناسبة التي استدعته ولكن من الثقافة التي أبدعته.

وأمام رفض الأنا المعلن للآخر، وفي ظلّ إصرار الآخر على الهيمنة علـــى الأنـــا تظلّ المثاقفة يتجاذبها كلا الاتجاهين ممّا يفضي إلى مصادرة المثاقفة، والقضاء عليها.

أهمية الدراسة:

- تشهد قضية الثقافة أو بالأحرى قضية الثقافات انبعاثاً راهناً سواء على الصـــعيد الفكري، نظراً لحيوية النزعة الثقافية.

- إمكانية التلاقح الحضاري دون ذوبان.

- إماطة اللثام عن مسلمات تحقير، وإذلال الذات، والدونية التي يشعر بها الأنا مـــن جانب، وتفاهة دعاوى التعالي، والعظمة، والغلبة التي يتماه بها الآخر من جانب آخر.

- تقييم العلاقة بين طرفي المثاقفة: (الذات، الأنا، النحن، والأخر، الهو، الهم)، وفي ظلّ مفهوم المثاقفة المعاصرة يصبح من الضروري التساؤل كيف ننظر لجدلية (الأنـــا/ الأخر) باعتبارها إشكالية كبيرة.

- إعادة النظر إعادة النظر في مفهوم الثقافة في ظلّ الدراســـات المتعلقـــة بوقـــائع المثاقفة؟

- **أهداف الدراسة:** تهدف هذه الدراسة لتحقيق جملة من الأهداف يمكن إجمالها في ما يلي:

- الحياة اليوم في ظلّ ما تعرفه من تطور يفرض على الإنسان، والشعوب عمليـــة المثاقفة، والتواصل فيما بينها؛ وهو تواصل يجري بأشكال شتى على مختلــف الصُـــعُد السياسية، والثقافية، والعلمية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والتقنية.... لكـــن دون انصهار، أو ذوبان في كيان الآخر، لأنّ من جملة مـــا يعنيـــه الهزيمـــة النفســـية والانكسار الحضاري، والموت البطيء.

- الانفتاح الثقافي الذي يلغي الخصوصيات الثقافية، والحمولات الفكريـــة، ينتـــزع المفاهيم من سياقاتها ليس أقل ضلالاً في اعتقادنا من الانغلاق المطبق والتشيّع الأعمى للذات أو للآخر

إشكالية الدراسة: إن هذه المداخلة الموسومة ب (المثاقفـــة وزعزعـــت جيولوجيـــا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق) تطمح للإجابة علـــى جملـــة مـــن التساؤلات التي نراها مشروعة: هل المثاقفة تسعى لنشر ثقافة الأخر، وإلغاء ثقافة الأنا يعززها شعورهم الوهمي بالتفوق، وشعور الأنا بالانهزامية؟ ما حدود الانتماء الثقـــافي؟ إلى أي الثقافتين ننتمي: ثقافة الذات أم ثقافة الآخر؟ ما المأزق الفكريّ والثقـــافيّ الـــذي نعانيه في مجتمع الذات؟ ما نوع الثقافة التي يتلقاها الفرد منتجة في ظل ثقافة الآخـــر؟ وهل المثاقفة جعلت المفكر العربي يستهلك ثقافة الآخر أكثر مما يستهلك ثقافته، وجعلته يبحث عن إجابة لأسئلتها المعاصرة عند أولئك أكثر مما تجد ذلك عند أهلها؟ هل تؤدي المثاقفة إلى محو ثقافة أخرى؟ هل انقلبت المفاهيم، فلم نعد ننطلق مـــن الثقافـــة لفهـــم المثاقفة؛ بل من المثاقفة لفهم الثقافة؟ فهل المثاقفة تفاعل بـــين الـــذات، والآخـــر؟ هـــل المثاقفة تقوم على تلاقح، أم؟، وأما هيمنة الآخر) الأنا (و) الآخر (على استلاب مختلف الثقافات؟، وهل هي قائمة على الشراكة الضمنية بين

على ثقافة الأنا هل تحولت المثاقفة إلى أحادية الجانب؟، هل هــي نزعــة تســعى لإخضاع سائر الثقافات لثقافة القطب الواحد؟، ففي هذه المداخلة نحاول الإجابــة هــن هذه التساؤلات وغيرها خاصة أن مصطلح المثاقفة أحذ حيزاً لا بأس به من الدراســة والمناقشة، شعوراً مني بأنّه مازال بحاجة إلى استئناف في النظر والتقييم، والنقد وأنــا أقرأ ما كتب عنه من مؤلفات حديثة، وإحساساً مني أنّــه ينطــوي علــى معضــلات تعترض القارئ، فهل كان لزاماً البحث عن مثاقفة متكافئــة تجلــب الأنــا للحضــور والمشاركة الفاعلة في المثاقفة كلّ ذلك يدفع للتساؤل عن جدوى دراســة تمفصــلات المثاقفة وزعزعت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق، والانغلاق المطبق.

مفهوم المثاقفة: (Acculturation)

1- في الفكر العربي: تعني: "الأخذ، والعطاء الثقافي بين الذات، والآخر المتعــدد"[3] "فالمثاقفة تمثّل التفاعل بين الذات، والآخر من أجل صــياغة جديــدة تعكــس رؤيــة تطورية، وحضارية للعالم، وتلاقح ثقافات مختلفة، تقوم علــى أســاس مــن الشــراكة الضمنية بين الأنا، والآخر بغية إنتاج معرفة موضعية تهدف إلى الارتقــاء بالإنســان وشروط حياته، كما تعنى بالتواصل الثقافي بين الأمم، والثقافات، وهو ما ذهبــت إليــه الكثير من الكتابات الفكرية تختزل واقع تعايش الأنتروبولوجية".[4]

كما عرفها محمد عارف أيضاً بأنّها: "التغيير الثقافي في تلك الظواهر التــي تنشــأ حين تدخل الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى الجماعتين، أو فيهما معاً".[5]

ويفهم من قوله أنّ المثاقفة تقوم على تداخل الأنماط الثقافية، كما أنّهــا تقــوم علــى الشراكة، والتفاعل بين ثقافتين.

في الفكر الغربي على أنّه:"علاقة بين ثقافة متفوقة، وثقافة متخلفة".[6]

في الفكر الغربي: يسوّق مفهوم المثاقفة: ليعبر عن معنى الصراع الذي لا تتســاوى أطرافه.[7] (Kazimirski) جاء مفهوم المثاقفة في معجم كازمرسكي

فالمثاقفة في الفكر الغربي عملية تفكك بنيتها، ثمّ إعادة بناء تلك البنيـــة، هـــي فـــي الواقع، عملية دائمة من التفكك، والبناء وإعادة البناء، أما الذي يتنوع فهو أهميـــة كـــل مرحلة تبعاً للحالات.

وربما علينا اســـتبدال كلمـــة acculturation ثقافة culture بتثقيف culturation التي تتضمنها كلمة مثاقفة[8] بهدف الإشارة إلى هذا البعد الديناميكي للثقافة

فالمثاقفة الغربية باعتبارها ثقافة غالبة عمدت لتصدير ثقافتها عبر ترسانة إعلاميـــة تكرس الاستعلاء، والغلبة، وتمارس إرهاباً فكرياً، وغسيلاً عقلياً منظماً يزلـــزل القـــيم ويتلاعب بالعقول.[9]

لذا المثاقفة في الفكر الغربي ترى: أنّ الشعوب المغلوبة قد ترفض الحضارة الغالبة فتفنى، وقد تقبلها وتتكيف معها، وقد لا تتكيف؛ لأنّها لا تطابق حاجتها، ومزاجها؛ يرى شكري عيّاد أنّ هذا مفهوماً اســـتعمارياً للتغيـــر الحضـــاري قدمتـــه الأنتروبولوجيـــا الحضارية الغربية[10]؛وهو الفكر الذي ظلّ سائداً في ظلّ هيمنة المركزية الأوروبية.

هيمنة الخطاب ما بعد الكولونيالي الذي يضاعف تبعات الاســـتتباع، والاســـتقطاب المثاقفة الحضارية أثرت والهيمنة، والتغطية على الخصوصـــيات الثقافيـــة، وعناصـــر الهوية القومية.[11]

ليست المثاقفة التي تبناه الغرب مع الأخر حوار بين الحضارات المختلفة، وتبـــادل ثقافات، وخبرات، والتي من شأنها أن تتلاقح فيها الحضارات، والثقافات مع الاحتفـــاظ بالخصوصيات، وإنّما هي ذو توجه واحد سيطرت على فعل المثاقفـــة حيـــث ســـعت للعموميات، وتذويب الخصوصيات ممّا أدى لهيمنة نمط حضارة واحدة بكل ما تحملـــه من ازدواجية في المعايير، وتناقض في القيم، وفوضى في الحياة الاجتماعية، وهذا كلّه أدى لفشل المثاقفة، وولّد روح المقاومة والمغالبة من الآخرين، خاصة عنـــدما تشـــعر بعملية الاختراق، والتحدي اللغوي، والثقافي، والفكري والاقتصادي، والسياسي.

لا يقوم الإشكال في تعريف المثاقفة في الفكريين السابقين المختلفين؛ بل في تأويل نتائجهما، الذي يستولّد منه المثاقفة غير السوية، والمتكافئة، أو المثاقفة الأحادية ممّا يؤدي لإلغاء شروطها.

فإذا كان الاعتراف المتبادل في الفكر العربي بين الهويات الثقافية المتغايرة شرطاً للمثاقفة، ومقدمة لها، وهذا ما نلمسه في الدلالات اللغوية لمفهوم المثاقفة، لأنّ المثاقفة مفاعلة، هذه المفاعلة لا تكون إلا من اثنين غالباً[12]، كلّ واحد منهما يفعل بصاحبه مثلما يفعل به صاحبه، والتي نلمس فيها المشاركة، لأنّ المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة [13]، وهي تدل على حصول الفعل من جانبين [14]، وتبادل المهارة.

وقد تكون المفاعلة هنا بمعنى التفعيل التثقيف، وهي أقوى من مثاقفة في المعنى لأنّ معناها حمل الأخر على التبادل، وإن كانت المفاعلة على بابها، فهي أبلغ لما عرف غير مرة، وإن كانت بمعنى التفعيل، فهي وافية بالمعنى الذي أردنه.

إنّ المفاعلة قد تطلق، ولا يراد بها وقوعها من الجهتين كما في كثير من الاستعمالات العربية، وما تدل عليه

واقع المثاقفة العربية، ولذلك تحتاج هذه المثاقفة إلى الفطنة، والحذق، والذكاء، لأنّ ثقف في كلام العرب تأتي على عدة معاني، منها: الحَذَق، يقال: ثَقِفَ الشيء، أي حَذَقَه. ورجل ثَقِف: رجل حاذق فَهِم، ذو فطنة وذكاء.[15]

وقال الراغب: الحَذَق في إدراك الشيء وفعله، ـومنه استعير المثاقفة، فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة. [16]

وثقف تمكن من فهم الشيء أو العثور عليه، وبما أن العثور على الشيء تمكن منه فأصلهما واحد.

وجاء في المعجم الوسيط (الثقافة) العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها (مج.[17] وهي أيضاً تدل على القوة لأنّ ثاقفه مثاقفة لاعبه بالسلاح.[18]

وكانت العرب تقول: مُثاقَفة الرجال أَقوم من تَسْطير المقَال[19]، ومنها: الأخذ والظَّفَر والغلبة، والقدرة[20]؛ قال تعالى: ﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[21]؛ قال الطاهر بن عاشور: هذه المادة تدلّ على تمكّن من أخذ الشيء، وتصرّف فيه بشدّة.[22]

وقوله تعالى: ﴿**يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ**﴾[23] فهي بمعنى التمكين، أي: إن يتمكنوا منكم وتحصلوا في ثقافهم[24]؛ وبمعنى الظفر، أي: إن يظفروا بكم، والعرب تقول: فلان ثقف لقف، إذا كان سريع الأخذ.[25]

وكلا المعنيين متّجه لمفهوم المثاقفة حتى تكون فاعلة ; فإنّ انقلاب المفهوم في الفكر الغربي بين مقولتي الأقوى، والأضعف، والغالب، والمغلوب...، كلّ ذلك أدى بالفكر الغربي في عملية المثاقفة إلى تقسيم العالم إلى ثنائية قطبية نحن، وهم، وجعلها قسمةً ثابتةً مستقرةً لا تقبل التبدّل، أو التغيّر، هذا التصور المتشبع بالهيمنة والقهر والتعالي، والاعتزاز بالذات، وتحقير الآخر أفضى إلى اجتثاث شروط المثاقفة، وفرض مرجعاً ثقافياً وحيدًا يحق للإنسان المتفوق إخضاع الآخر، والتصرّف فيه.

وبهذا المفهوم اللغوي الذي ذكرنا طرفاً منه لا يبعد المعنى المتداول على الألسنة في المجتمع العربي، والغربي لمفهوم المثاقفة.

أهمية المثاقفة: وتأتي أهمية المثاقفة من كونها:

- ضرورة حيوية لمختلف الشعوب والحضارات، من منطلق أنّها تشكل ظاهرة صحية إيجابية.
- تكتسب المثاقفة أهمية علمية، وإنسانية بالنسبة للفرد، لأنّها تنمي معرفته بالآخر.
- وسيلة فعالة من وسائل التقارب، والتواصل، وتبادل المعارف، والخبرات.
- تعدّ عاملاً قوياً من عوامل تطور، وازدهار الحضارات الإنسانية.
- الانفتاح على الآخر يمنح الأنا معرفة ذاته، ومقومات هويته بشكل أفضل وأكمل.
- ترسخ قيم الانتماء، والمواطنة.

– تعد المثاقفة وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة، والتسامح بين الأفراد، والجماعات.

–تزيل كثيراً من الأوهام، والأمراض، والمخاوف التي تعيق عملية التواصل بين الشعوب ، والأمم.

– هي باب من أبواب التواصل، والحوار ، والتفاهم بين الشعوب .

– تفعيل القواسم المشتركة بينها .

– تساعد على إزالة بؤر التوتر ، والعداوة التي غالباً ما يغذيها التقوقع ، والانعزال ، والجهل بالآخر، والأحكام

المسبقة والسلبية عنه .

– مد جسور الحوار ، والتبادل بين الأمم.

– نحن بحاجة للمثاقفة التي تقوم على الانتفاع لا الانبهار، والتي تفرق بين مستويات الإنتاج في الحضارات الأخرى.

– نحن بأمس الحاجة إلى المثاقفة كمنهج ينمّي فينا الإحساس بالذات، ويعلّمنا أدب الحوار، وفقه التخاطب،

وفن الأخذ ، والعطاء.

– يغرس فينا التسامح ، والتواضع ، والاعتراف بالآخر .

المثاقفة وزعزعت جيولوجيا المجتمعات:إنّ التحولات المتدافعة التي تميز العصر الذي نعيشه قد تداعت فيه الحواجز المكانية، والزمانية نتيجة الثورة المذهلة في تقنيات الاتصال التي جعلت من الكوكب الأرضي قرية كونية صغيرة؛فإنّ هذه التحولات زلزلت ، وزعزعت جيولوجيا المجتمعات كلّ ذلك يفرض علينا إعادة النظر في الكثير من أفكارنا التي درجنا عليها...خصوصاً بعد أن تضافرت العوامل السياسية والاقتصادية، والثقافية مع آليات التحولات التقنية على نحو غير مسبوق في تاريخ البشرية كلّها بوجه عام، وتاريخ وطننا العربي بوجه خاص، وهو وضع يحتم علينا معرفة المتغيرات ، والصراعات، والأوضاع الجديدة بوعي عميق

والتي لم تتكشف كاملة بعد كما يقول جابر عصفور.[26]

أثر الثقافات المعاصرة في اللغة العربية: والأثر في حالتنا هذه للأسف غير حميد لأنه يجافي قواعد المثاقفة الرشيدة، والتواصل الحضاري.

لم تكن اللغة يوماً نافلة في مجال التدافع الحضاري، وساحة الصراع الأيديولوجي إلا عند من لا يفقه سنن المغالبة بين الأمم والشعوب؛ بل كانت ولا تزال من أهم مواقع الصراع الفكري، ومن أخطر أسلحة الاحتواء الاستراتيجي لثقافات الشعوب وتمييعها لإخراجها عن طبيعتها وصبغتها؛ ولولا ذلك لما كانت الفرنكوفونية اليوم تجري في تنافس محموم مع الأنجلوسكسونية؛ لاحتلال مواقع التأثير الثقافي في العالم.

لا ينبغي علينا قراءة مضامين الخطابات المدونة بالعربية على أنّها مجرد نسق لغوي، أو مجرد شيء من الأشياء؛بل هو صراع من أجل الحصول على السلطة كما يرى فوكو.[27]

و لعل هذا ما دفع جابر عصفور أن يعتقد أن الاهتمام باللغة هو في الحقيقة بالوجود الذي تجسّده ، وتتجسد

فيه، وهو أيضاً اهتمام بالمضامين المجسدة للفكر، والذي يواجه شروط هذا الوجود كي يستجيب إليها استجابة

التحدي، والتمرد.[28]

ولذلك لم تتوان العولمة في ظلّ تراكم نتائجها في إيقاع متسارع، في ترك آثارها على اللغات الوطنية، والقومية، فتغزوها التراكيب، والمفردات القادمة من اللغة السائدة التي تتجسد فيه مقولات العولمة ، وثقافتها ، والتي تسعى لفرض نموذج ثقافي مهيمن ..والنتيجة اتساع الغزو اللغوي من اللغة الصاعدة عولمياً ...[29]

إنّ الاعتزاز باللغة اعتزاز بالانتماء القومي الذي يميزه عن غيره: فاللغة باعتبارها نصوصاً واصفة؛ تقوم بدور"تشكيل وعي الجماعة وسلوك أفرادها، أي علاقة اللغة بالثقافة كأداة؛ لتوحيد الجماعات في مجتمع خاص بهم".[30]

يبدو لنا من خلال هذا التعريف أنّ اللغة وعاء للأمة تجعل فيه أفكارها، وثقافتها ومعارفها، وتاريخها، وبها تصاغ مقومات وخصائص وجودها، ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أن من يبتعد عن لغته إنما يفقد ذاته. وفقدان الذات يحمل معه فقدان الثقافة وتشتت اللغة يعني انفصام الرباط الذي يجمع بين متكلميها، والنتيجة الحتمية هي اندثار الثقافة التي يمثلونها. وإن العامل اللغوي كان ولا زال أهم العوامل في توحيد الشعوب والجماعات البشرية، والتقريب بين أفرادها.

الهوية بين الثوابت والمتغيرات الكونية: إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا والأخر ؛كما يقول دانيال هنري باجو:" أسسها التميز والاختلاف، فإن حصل التوافق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج، ويكتسب المقلد

هوية الأخر، أو يكسب هوية مشوشة ترنو إلى معاجلة هوية الأخر".[31]

وتأتي أهميَّة التربية على الهويَّة، أو التربية من أجل تعزيز الهويَّة بكل أبعادها من أجل مواجهة ما تفرضه المثاقفة ، إنّ العولمة في أبسط معانيها تسعى لذوبان الخصوصيات، ولذلك تسعى للانتقال من الخصوصيات إلى العموميات، ومن الجزئيات إلى الكليات، وعلى النقيض تماماً الهويات تسعى للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الجزئيات إلى الكليات، وعلى النقيض تماماً الهويات تسعى للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الكليات إلى الجزئيات، وفي ظلّ هذا التجاذب الحاصل بين طرفي نقيض تأتي أهمية البحث في هذه الإشكالية باعتبارها من أكثر المواضيع حضوراً ومناقشةً بين النخب المثقفة في الآونة الأخيرة، لأنّ أمر يتعلق بطبيعة الصراع والتجاذب الحاصل بين مفهومي العولمة والهوية.

لقد سارع الإعلام الجديد بكل توجهاته إلى إفراغ الهويات من محتوياتها وخصوصياتها إذ تعمل على اكتساحها، وهي مشحونة بإرادة الهيمنة، فإنّها تحولت إلى أيديولوجيا قمعية، وهي تسعى إلى أمركة العالم وتقسيمه إلى مركز وأطراف، بفرض الحراسة والعقاب على المعتقدات، والاستثمار في القيم المقلوبة، وهل تفلح مواقع

التواصل بما تملكه في تقليص الهويات في هوية واحـــدة متجانســـة ثقافيـــاً، وسياســـياً واجتماعياً، ولغوياً؟ وهل ستفلح في تذويب الحدود، والحواجز الثقافية؟أم تقـــوم الهويـــة بدور صناعة المناعة للفرد، والجماعة؟، وفي اعتقادي هذا هو التحدي الأكبـــر لهويـــة الأمم، والشعوب، فكان لزاماً أن نوجه سؤال الهويـــة اليـــوم لتحريـــر الإنســـان مـــن الاستلاب، والاغتراب، والهيمنة التقنية في ظلّ تحول الصراع من صراع الثقافات إلى صراع الهويات.

وكل من يختار التفرد، والخصوصية يصور كحالة شاذة، ومنبوذة، لأنّه يقـــف دون أن يدري ضد إيديولوجيا

المجتمع الاستهلاكي، وموجهاته الخفيـــــة فالرفض الفكري، والانفعالي للامتثاليـــة يبدو وكأنّه علامة عصاب وعجز كما كان يقول ماركوز.[32]

إنّ وضوح المرجعية الهوياتية تمكّننا من المثاقفة العادلة بين الأنـــا، والآخـــر، ولا توقعنا في عملية الانصهار،

والذوبان، ولاتؤدي إلى هيمنة الآخر على الأنا هيمنة تسلبه كلّ معالمـــه التكوينيـــة وتطمس ملامح هويته الحضارية التي تشكلت مدة قرون من العطاء، ومن ثمّ نســـتطيع تجاوزتلك الإشكالية التي ظلّ يتخبط ويعاني منها المنهزم الذي قد يتخلى عن مرجعيتـــه بسهولة ليلتحق بمرجعية الآخر، وحتى نصل إلى حصانة ، ومناعة فكرية لا بدّ لنا من بناء المرجعية الهوياتية الخاصة بذواتنا في زمان تتهاوى فيه الخصوصيات.

إنّ المرجعية تبقى جزءاً لا يتجزأ مِن هويتنا، وثقافتنا، فإذا كانوا يتحدثون اليوم عمَّا يُسمَّى اليوم بصناعات العموميات، فإنَّه من الضروريّ أن نمحور نحن الســـؤال عـــن الخصوصيات، والبحث عن المرجعية الهوياتية التي اعتمدتها الأمة، وهو في الحقيقـــة مشروع حضاري، لذا أعتقد أن ّالمرجعية الهوياتية تبقى الحصن المنيـــع التـــي تمنـــع انهدام بناء المجتمع، وتمنحه الزاد الفكري، والعقلي، والمعرفـــي، والثقـــافي...، وهـــي القادرة على تشكيل الحصانة، والمناعة، والقـــوة، والبقـــاء، والعطـــاء، والاســـتمرارية

للمجتمع، لهذا فإنّا بأمس الحاجة اليوم للحديث عن المرجعية الهوياتيــة التــي حكمــت النتاج الحضاري، والثقافي، والفكري للأمة العربيــة، والإســلامية عبــر عصــورها المختلفة.

ويكتسي اليوم موضوع تأصيل المرجعية الهوياتية في خضم صراع الهويات أهمية كبيرة خاصة في مرحلة أصبحت العولمة تعمل، وتــأجج، وتشــجع ذوبــان الهويــات وإلغاء الخصوصيات الهوياتية، لتصطنع هوية كونية لا جذور لها.

في زمان العولمة الذي أفضى لتداول المواقع الفاعل صار مفعــولاً، والمفعــول صار فاعلاً، وفي ظلّ غياب الأنا الذي استلزم حضور الآخر، كلّ ذلك يدعونا لإعــادة النظر في مفهوم الهوية في عصر المادية، والذي تحول فيه العــالم لقريــة كونيــة لا مكان فيه للخصوصيات، والمتعاليات، والمقدسات...، من شأنه أن يضع مفهوم الهويــة الإسلامية التي نبحث عنها- في زمان الاغتــراب- فــي قلــب التحــولات الفكريــة والاجتماعية، والفلسفية، والإيديولوجية للمجتمعات الإسلامية سواء في مرحلة الصــراع مع الآخر في إثبات الهوية، أم في البحث عن هوية الأنا التــي ضــاعت فــي زمــان الاستلاب الحضاري، أم في سبيل البحث عن إعادة الاعتبار لمكانة الهوية الإســلامية، ومن ثمّ النهوض بالمجتمعات العربية، والإسلامية، ويتسنى لنا إعادة الأنا للحضور لقــد أصبح من الصعوبة بمكان على المجتمعات الإسلامية المعاصــرة أن تعــيش خــارج الحداثة العولمية الكونية، دون أن تتأثر، أو تندرج في مساراتها.

فممّا لا شك فيه أنّ حجر الأساس لتحول كبير في مفهوم الهوية يليق بالعالم الجديــد قد وُضِع، وتبدو مسألة الهوية في هذا السياق كعملية تكيف مع العــالم المقبــل، ومــا يرافقها من صخب، وضجيج يشبه ما حدث عند المنعطفــات الكبــرى فــي التــاريخ الإنساني كلِّها؛ إذ لم تولد دولة المدينة من غير ضجيج وآلام، ولم تولد الــدول القوميــة من غير ذلك، ولم تولد الإمبراطوريات الكبرى من غير معاناة. [33]

إنّ كثيراً من المضامين التي يتمّ تداوله حول الهوية نابعة من ضعف الانتماء للهوية الوطنية الأمر أدى لظهور ظاهرة الاغتراب، والإحباط حيث يعيش الفرد في فضاء غريب عنه بعيد عن بيئته الطبيعية الواقعية، وهويته الأصلية الحقيقية، ويصبح بذلك تائهاً، ومشرداً بين عالمين، لذا تواجه المجتمعات العربية، والإسلامية تحديات كبيرة تؤثر في مسار تنميتها، وتطورها، وتماسكها، وهويتها، وثوابتها ....، خاصة مع ظهور أنماط جديدة من الاتصال، والتواصل من ذلك الهوية الافتراضية حيث يعملون على سحب بعض القضايا من الواقع إلى المجتمع الافتراضي الذي يعدّ بوابة جديدة لتحقيق المواطنة.[34]

فقد ذابت ثقافات في نسيج ثقافات غالبة، وفقدت هويتها، كما حدث مع غالب ثقافات العالم الثالث، ونجحت ثقافات أخرى في المثاقفة ، عندما قامت على أسس محكمة، كما تحقق للثقافة اليابانية ، والثقافة الكونفوشوسيّة في الصين عندما تثاقفت مع ثقافة الغرب.

تفكيك البنية المجتمعية: يعدّ ليفي شتراوس من الأوائل الذين قلوا ملامح النسق إلى الحقل الثقافي في دراسة الأنثربولوجيا البنوية 1957 ، لكن باستيد يخالف ليفي شتراوس وفكرته حول مفهوم البنية الذي يرى فيه مفهوماً شديد السكونية. وعوضاً عن الحديث عن بنية فينبغي الحديث عن بناء الثقافة structuration وتفكيك بناء déstructuration وإعادة بناء. restructuration هي "بناء" تزامني" يتكون كل لحظة من خلال هذه الحركة الثلاثية. ويتفق ليفي شتراوس مع نظريته البنيوية هذه، لذا تجد رؤيته متشائمة حول ظواهر نزع الثقافة في المجتمعات الخاضعة للاستعمار. وهو يعد أن نزع الثقافة هذا لا يؤدي إلا إلى "الانحطاط"الثقافي، وهو "عَرَضٌ" لمرض مشترك بين [المجتمعات المنزوعة الثقافة] كلها[35]:

فالنسق في الفكر الغربي أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي كما يذهب إلى ذلك تالكوت بارسونز لأنّه نظام ينطوي على أفراد متصلين تتحدد علاقاتهم بمواطنهم إدراكهم النابعة عن القواسم المشتركة، والمقررة في إطار هذا النسق.[36]

فالمثاقفة الغربية تطرح سؤال النسق كبديل عند سؤال النص، لذا لا يمكن الحـديث عن القيم في حضارة الإسلام، وتجاهل الرباط الفاعل بين القـيم وبـين الـنص الـذي يؤسس لها لما له من قدرات في بناء الإنسان والإسهام في توجيه العمران الإنساني لذا لا ينبغي أن يتموضع سؤال القيم داخل الحضارة الإسلامية إلاّ داخل القـرآن الكـريم ليكون هو المحرك، لأنّ النسق القرآني، والنسق الأخلاقي في تشكلهما وفـق رؤيـة معرفية، ومنهجية ، ومقاصدية من شأنها أن تمتن العلاقة بين الإنسان والمثل العليا.

إعادة صياغة مفهوم الثقافة: قادت الدراسات المتعلقة بوقائع المثاقفة إلـى إعـادة النظر في مفهوم الثقافة وأصبحت الثقافة من الآن فصاعداً مجموعة ديناميكية متماسـكة نوعاً ما(لكن ليس تماماً) ومتجانسة إلى حد معين.

وقد أدى هذا الانزلاق في إدارة "الثقافة يقول دوني كوش: العناصر التـي تتكـون منها ثقافة معينة لا تندمج دائماً ببعضها تماماً لأنها ذات مصادر متنوعة فـي الزمـان والمكان. وبعبارة أخرى، هناك "فراغ" في المنظومة مع أنها منظومة بالغة التعقيد، هذا الفراغ هو الفجوة التي تتزلق عبرها حريـة الأفـراد والجماعـات مـن أجـل "إدارة الثقافة."[37]

التواصل الثقافي الرشيد بين الانغلاق على الذات والانفتاح المـذموم: إنّ القـرآن الكريم لا يحبذ الانغلاق على الذات، فالتعاون الحضاري، والاتصال الإنساني، مبدأ من المبادئ الجوهرية في تاريخنا الحضاري;قال الله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِـيمٌ خَبِيرٌ** ﴾.[38]

لا يوجد في تاريخنا الحضاري مشكلة في التعامل مع الأطراف الأخرى، فهـو ديـن أنزله خالق الناس، لا يفرق بينهم، ولا يميز أحداً على أحد إلا بالتقوى، والعمل الصالح.

إنّنا كمسلمين لا نحبذ الانغلاق على الذات، فالتعاون العلمي والحضاري والاتصـال الإنساني، مبدأ من المبادئ الجوهرية في تاريخنا الحضاري;قال الله تعـالى:﴿**يَـا أَيُّهَـا**

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.[39]

لا يوجد في تاريخنا الحضاري مشكلة في التعامل مع الأطراف الأخرى، فهو دين أنزله خالق الناس، لا يفرق بينهم ولا يميز أحداً على أحد إلا بالتقوى، والعمل الصالح لكن الانفتاح المذموم هو الذي أدى إلى ذوبان الشخصية الثقافية واللغوية بسبب الانهيار والاغتراب والاستلاب، والانهزام النفسي، عبر منافذ الاختراق والتغريب، والإسلام لا يمنع الانفتاح المحكم الرامي نحو الاستفادة من علوم الآخرين النافعة;قال سبحانه وتعالى:﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾.[40]

إنّ المشكلة الحقيقية لا تكمن في المثاقفة ذاتها؛ بل في الإنسان العربي الذي يعيش مرحلة الانبهار والشعور بالنقص والضعة من انتمائه، فيمارس هذا النقص هروباً من أصالته وهويته، ولغته، وتراثه.

التمادي في عملية التجنيس الحضاري: التي نشهدها حالياً تهدد خصوصية الإنسان التي سرعان ما يفقدها تحت وطأة الشائع، والغالب الذي يكسب سلطته من شيوعه وغلبته؛ لا من أصالته وتميزه.[41]

كلّ ذلك ولّد أزمة معرفية جعلت المثقف العربي غير قادر على الموازنة بين بنائه الثقافي الذي عاش فيه، وصاغ فكره وشخصيته، والبناء الثقافي والمعرفي للأمم والمجتمعات الأخرى.

عدم مراعاة الاختلاف: إنّ الاختلاف بين الأفراد والمجتمعات، حق أقره القرآن الكريم قال الله تعالى:﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾.[42]

إنّ هذا الاختلاف الذي قامت عليه الحضارات، والثقافات والذي استفادت من منجزاته الشعوب والأمم، يصبح لا معنى له عندما يتحول إلى صراع، إنّ التواصل الذي يتأسس على تفاعل حر بين ثقافات مختلفة، ينشد خيراً يتوزع على الجميع دون

زيغ أو محاباة، وهذا التفاعل يكون له أثر لفكر حواري يؤمن بالاختلاف والمساواة في آن، دون أن يرى أن بعض الشعوب أقل شرفاً من شعوب أخرى.

فالاختلاف والتدافع والصراع كانت من سمات الحياة البشرية عبر التاريخ؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [43]

المثاقفة وخطاب الكراهية والتنابذ: إنّ الحوار، والتحاور يبنى على الاختيار الحر اختيار بلا إكراه ، ذلك أنّ الإكراه يستولد النزاع والتنابذ، ولعل هذا من الأسرار؛ذلك أنّ الله عز وجل قال:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[44] ، مثلما أنّ الإكراه تعبير عن إلغاء الاختلاف لا تستطيع ثقافة معينة أن تتفاعل مع ثقافة أخرى إلاَّ إذا تفاعلت معها، دون تعسف ، أو إكراه.

وقد انعكست هذه الكراهية على البناء النفسي، والفكري للمواطن العربي في بُعدين مهمين هما: الاغتراب، والتبعية الثقافية؛ أما الاغتراب، فهو انسحاب من ممارسة الفعل الثقافي في المجتمع، وبناءً عليه فقد المواطن أحد أبرز مقوماته، وهو تفاعله مع مجتمعه، وقضاياه؛ أما التبعية فقد أسهمت الحداثة في إنشاء تصوّر عربي يكاد يتماهى مع التصورات الغربية للوجود، ولعلَّ هذا يفرض علينا تفحّص المنطلقات ، والآليات التي ينبغي توفرها في بنية التواصل حتى يستطيع القيام بفعل المثاقفة دون شعور بالدونية أو الاستلاب.

المثاقفة بين الأنا والأخر: قضية ما يسمى بالآخر شغلت حيّزاً كبيراً، ونقاشاً محتدماً، وجدلاً واسعاً في الطروحات الثقافية على الساحة العربية في الآونة الأخيرة حيث توجه تهمة رئيسة إلى الأنا بأنّه لا يعترف بالآخر، ولا يفقه التعامل معه، لأنّ الانفتاح على الأخر لدينا أضحى نوعاً من التفريط في الذات.[45]

وفي ظلّ الاختلاف الشديد يصعب تحديد مفهوم الآخر بمعزل عن مفهوم الأنا أو الذّات، وهذا راجع لكونهما متداخلين؛ إذ يُسهم كلّ واحد منهما في تكوين، وتنمية

الآخر، فـــ"بقدر ما ينضج مفهوم الذّات ، وترتسم حدوده ، فإنّ مفهـــوم الآخـــر فـــي الجهة المقابلة ينضج بنفس المقدار وترتسم حدوده"؛ [46]

فالمثاقفة تمثّل التفاعل بين الذات، والآخر من أجل صياغة جديـــدة تعكـــس رؤيـــة تطورية، وحضارية للعالم تقوم على أساس من الشراكة بين (الأنا)، و(الآخــر)ولكن المثاقفة الغربية عموماً، والفرنسية خصوصاً حولت، و اختزلت المثاقفة فـــي التعيـــين والتنميط ، والاختزال، بما يخدم مصالحها.

فالأنا لم يصبح في معزل عن العالم، ولم يَعُدْ العالم في معـــزل عنـــه، إنّ قطيعـــة ورفض الآخر هي عزلة للذات، تغييبه حضارياً، وثقافياً، ومعرفياً، وتاريخيـــاً، كمـــا أنّ الاندماج غير الواعي هو تذويب للهوية ، وطمس للخصوصية من هنا كانت المثاقفـــة ضرورة وجود، وإمكانية توائم.

والمثاقفة الراشدة هي التي تقوم على أسس متينـــة وتوظف"جملـــة مـــن النمـــاذج المعرفية، والمناهج الحكميّة، والموازين الدقيقـــة للفصـــل بـــين المطلـــق، والنســـبي والمشترك، والخاص، والمؤقت، والدائم من ذلك التراث، وبـــذلك اســـتوعب المطلـــق والمشترك الإنساني، والدائم المستمر، وتجاوز النسبي، والخاص، والمؤقت ". [47]

ومثاقفة الأنا والأخر ولدت جملة من التجاذبات، والصراعات الثنائيات خاصـــة، وأنّ العالم أضحى قرية صغيرة، ف لم يجدوا من وسيلة ل رسم صورة الآخر يكون خاضـــعاً على الدّوام لتلك المعايير الدّلاليّة الّتي تحدّدها الثّقافة الّتي تنتمي الذّات إليها وحينمـــا تقـــوم الذات بتشكيل صورة للآخر فإنّ ما يتشكّل لديها من صور لذاتها ، أو للآخـــر لا تكـــون دائماً وفي جميع الحالات نقيّة ومحدّدة؛ بل غالباً ما يختلط فيها الواقعيّ بالمثالي، وتتـــداخل فيها رؤيتها لحقيقة نفسها بما تريد إظهاره للآخر من صفات خاصّة وقد تتشـــكّل صـــورة الآخر لديها من عناصر انتقائيّة هي ما تريد أن تثبتها في ذهنها عن هذا الآخر، في حـــين تغيب عنها عناصر أخرى لا تراها ، أو لا تريد الاعتراف بها. [48]

إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا، والآخر ;كما يقول دانيال هنـــري بـــاجو: "أسســـها التميز، والاختلاف، فإن حصل التوافق بينهمـــا بالتقليـــد، كانـــت الأفضـــلية للنمـــوذج ويكتسب المقلد هوية الأخر، أو يكسب هوية مشوشة ترنو إلى معاجلة هوية الأخر".[49]

ليس القضية، والمشكلة في المثاقفة الحاصلة بين الأنا، والآخر;بـــل القضـــية هـــي اعتراف الآخر بالأنا، والتسليم بوجود طرف محاور متكافئ، فـــالآخر لا يعتـــرف إلاّ بنفسه، ولا يحاور إلاّ ذاته، هي الطرف، والطرف الآخـــر فـــي نرجســـية حضـــارية تاريخية شديدة، الآخر هو مجالها الحيـــوي، والمحقـــق لحاجاتهـــا، وامتـــداد نشـــاطها الايدولوجيا الكولونيالية هي الأنا والآخر، الـــذات والموضـــوع، الشـــمال، والجنـــوب الموافق، والمعارض، المماثل، والمختلف.

إنّ هدف هذه الورقة البحثية تريد أن يتحول مفهوم المثاقفة مـــن التفاعـــل الثقـــافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبـــة فـــي الهيمنـــة، والســـيطرة، ومحـــو الآخـــر واستبعاده، وفرض التبعية عليه...، إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح، والاحترام المتبادل ، والندية، والتكافؤ...

إنّ المثاقفة التي تتوخاها هذه الورقة البحثية بين الأنا، والآخر، لا تنحاز إلـــى فئـــة دون أخرى;لا تنتصر للأنا على الآخر، ولا للآخر على الأنا، ليس هـــذا هـــدفها، ولا غايتها;بل تسعى جاهدة لتطهير العلاقات ، وتفعيل الحوار المتبادل الذي يخضع لقـــانون التوازن ، والاتزان، الأخذ والعطاء ، والتفاعل ، والاحترام...وليس اســـتعمار فكـــري نتائجه أخطر من الاستعمار السياسي، والعسكري يصدروا لغتهم ، وثقافتهم من جانـــب واحد إلى البلدان التي فقدوا احتلالها العسكري المباشر.

الحرب على المقدسات: إنّ جوهر الصراع اليـــوم كـــان محـــوره قضـــيتي"الهوية والانتماء" إذ تركزت جهود التغريب، والحداثة على محاولة فصل الأمة عن ثوابتهـــا.. إذ يرى محمد بنيس أنّ همّ الحداثة هو هدم المقدس ، والثابت[50]؛ ولذلك تراهم يـــدعون لإعادة رسم خريطة المقدسات[51]؛ يقول عبد المجيد الشرفي:"لا يغرنّك ما يقال، ويكتـــب

من ضرورة المحافظة على الأصالة، والهوية، والوفاء، والقيم الذاتية ...العامـل علـى نحت مصيره نحتاً.. "[52]، ومن بينها إلغاء الوحي، وبالمقابل تركزت جهود المخلصـين من أبناء الأمة على تحصين ثوابت الهوية، وإبراز مقوماتها.

فإنّ هدم المقدس لا يكون إلا باللغة الحامل لهذا المقدس، ولهـذا كثـرت مطالـب الحداثين بالتخلي، والطعن، والتشكيك، والتجديد، والطعن، والنقد..في هذه اللغة؛ يقـول أدونيس: وإذا تذكرنا صلتها في الوعي العربي الأصلي بالمقدس، وتحديداً القرآن أفلا نرى في جهلها، أو الدعوة إلى تغير بنائها إحلال العاميات محلها نوعاً من القول بوعي آخر، وهوية مغايرة.[53]

كما لا يتردد محمد أركون، وهو يطالب من المفكرين بنقل التراث كلّه -بمـا فيـه القرآن، وصحيح السنة- من ساحة اللا مفكر فيه إلى ساحة المفكر فيه أي: من سـاحة المسلمات إلى ساحة المشكوك فيه القابل للنقد، ولذلك فلا يصح اعتبـار الإسـلام، ولا النظر إليه كنموذج حقيقي مكتمل، لأن التراث بنظره مفتوح وغير محدد بشكل نهـائي مغلق، فهو قابل للزيادة خاضع للتغير المستمر الذي يفرضه التاريخ.[54]

وانظر لما تقوله واحدة من المدافعين عن الحداثة خالـدة سـعيد:"عندما كـان طـه حسين، وعلي عبد الرزاق يخوضان معركة زعزعة النموذج (الإسلام)، بإسقاط صـفة الأصلية فيه، ورده إلى حدود الموروث التاريخي، فيؤكدان أن الإنسان يملك موروثـه ولا يملكه الموروث، ويملك أن يحيله إلى موضوع البحث العلمي والنظر، كمـا يملـك حق إعادة النظر في ما اكتسب صفة القداسة، وحق نزع الأسطورة عن المقدس، وحق طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة".[55]

الفكر الحداثي يعمل على طرح القداسة في كل شيء؛ فكل شيء يخضـع لعمليـة الفرز.[56]

يقول أدونيس في قصيدة طرف العالم:

نمضي ولا نصغي لذلك الإله

تقنا إلى رب جديد سواه

إنّ أدونيس الجريء على الله هو نفسه أدونيس الذي يحرص أشد الحرص أن تظلّ سمعته السياسية مَرْضية عند الأنظمة العربية، ويحرص أن يظل ذوو القداسة من السياسيين مقدسين، ويلح أشد الإلحاح على أن الأدب يجب أن يظل بعيداً عن الإيديولوجية، أي بعيداً عن القداسة السياسية، ولا مانع عنده من تمريغ

القداسة الشرعية في التراب، وسنقف على بعض أقواله في ثنايا البحث. [57]

عن الشعوب الأخرى في القرن(**David Hume**) **سيطرة المركزية الأوروبية:**
حين تحدث الفيلسوف الإنجليزي : تشكل الأمم الأوروبية هذا الجزء من الكرة الأرضية الذي يقتات بشعور (**Hume**) الثامن عشر ؛قال هيوم الحرية، والشرف والإنصاف، وبقيم تتفوق على قيم البشرية جميعاً.[58]

إنّ القيم الأوروبية التي تتفوق على ما تبقى من القيم هي التي تسمح باحتكار مصائر الشعوب الأخرى؛ لأنهّا قيم تمثّل الفضائل جميعًا، غير أنّ هذه القيم، التي تؤكد الشرف ، والإنصاف، تفصل بين القول، والفعل؛ لأنّها مطمئنة إلى مبدأ التفاوت الذي يضع شعباً فوق آخر، وعازفة عن مبدأ المساواة الذي يعترف بحقوق متساوية لثقافات مختلفة.

ولهذا تتأسس المثاقفة وفقاً لتصورات هيوم (**Hume**)على ثنائية المعلم الشريف والتلميذ المحتمل؛إذ على الأوروبي أن يعلّم غيره القيم التي يحتاجها، وأن يتوسل العقاب الملائم كي يعلّم التلميذ القيم المتفوقة؛ وإذا كان هيوم (**Hume**) قد وضع التفاوت في حقل القيم، فإنّ برنارد لويس(**bernard lewis**) –وبعد أكثر من قرنين– رفع التفاوت إلى مقام المواجهة النهائية، متحدثاً عن النصر ، والهزيمة ، والسيطرة وهكذا ظلّت المثاقفة في اتجاه واحد.

وهي التي جعلت المهزوم يقلّد من انتصر عليه، معتقدًا أنّ حقيقة المثاقفة هي حقيقــة الانتصار ، وهذا ما فعله كلّ من رفاعة الطهطاوي، وأحمد لطفــي الســيد، وســلامة موسى، وطه حسين، ومحمود عزمي، وعلي عبد الرازق، ومنصور فهمــي، وشــبلي شميل، وفرح أنطون، وإلياس أبي شبكة...[59] حيث قدم لنا هــؤلاء المثقفــون العــرب الثقافة الغربية نموذجاً مثالياً يجب أن يحتذى به، ولا سبيل أن نحيد عنه، وقــد ارتــبط مفهوم الانهزام لدى هؤلاء المفكرين بالعداء لكلّ انتماء عربي ، وإســلامي، وشــرقي تاريخي، أو ديني، أو أدبي، ووصل بهم الانبهار بفتنة المنتصر الولاء له، فالتقدم عنــد هؤلاء على اختلاف مجالات طروحاتهم مرهون باستنساخ الثقافة الغربيــة، والتمــاهي معها، وكانت النتيجة من هذه التبعية المقيتة، والمثاقفة الذليلة اتساع الهوة الفاصلة بيننــا وبين الغرب بدلاً من تجسير الفجوات، وبناء القناطر، وهذه واحدة من المعوقات التــي أعاقت التفاعل البناء بين الأنا، والآخر.

وخير مثال يمكن الوقوف عليه الأسرة:

الأسرة من تذويب المفهوم إلى ديناميكية الإجراء:إنّ نظام الأسرة الــذي شــرعه الإسلام هو النظام الذي يتفق، ويتلاءم مع الفطرة الإنسانية ، وتكوينها ؛ وعندما أتحدث عن الأسرة ونظامها في القرآن، فإن المراد بها الزوج والزوجة، لأنهما الأصــل فــي تكوين الأسرة أيا كانت، وهذا المفهوم ثابت في بنيته المفهومية ، واللّه ســبحانه عنــدما خلق الأشياء خلق من كل زوجين، فهو يركز على اخــتلاف الجنســين قــال تعــالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَــقَ لَكُــمْ مِــنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[60]

الأسرة في المفهوم الإســلامي: هي الجماعة المعتبرة نواة المجتمع، والتــي تتشــأ برابطة زوجية بين رجل وامرأة، ثم يتفرع عنها الأولاد، وتظــلّ ذات صــلة وثيقــة بالقرابة القريبة من الأحفاد، والأسباط، والأعمام، والعمــات، والأخــوال، والخــالات وأولادهم.

إنّنا في زمان كثرت فيه الشبهات، والشهوات، حتى أصبح الزمان يعج بطوفان من الفتن، وعندما تكثر دواعي الانحراف، وتنتشر؛يلزم العقلاء من الأمـة الحـديث عـن الرابطة المقدسة لتبتعد عن مواقعة الحرام، وتعيش في كنف العفاف، لأنه خُلُـقُ مـن أخلاق القرآن، وخلق من أخلاق الأنبياء، والأئمة، والصالحين، وهو خلق رغـب فيـه القرآن، لقد جاء القرآن والبشرية في فوضى عارمة، وانحلال أخلاقي كبير، فكان مـن بين الأهداف التي سطرها القرآن الكريم انقاد البشرية من هذا الضلال، وهذا الانسلاخ، فجعل هذه الرابطة آية من آياته ؛فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُـمْ مِـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ﴾[61] ولا تستعمل لفظة "آية" في القرآن المجيد إلاّ في الأمور الجليلة العظيمة، ليدل على قوة وقدرة الخالق تبارك وتعالى، وقد قرن الله تبارك تعالى آية تكوين الأسرة، بآية تكـوين العالم أجمع، فعقب هذه الآية بقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.[62]

فلم ترد كلمة "من آياته"إلا في الأمور العظام ، كخلق السموات والأرض﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِلْعَـالِمِينَ﴾[63] والليل والنهار وابتغاء الرزق:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[64] ، والآيات الكونية البرق والأمطـار﴿وَمِنْ آيَاتِـهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا إِنَّ فِـي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[65] ، ومنها قيام السموات والأرض بأمره:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُـونَ﴾[66]، السـفن والجواري في البحر﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾[67]، هذا الاقتران بين هذه الآيات والرابطة الزوجية يدعونا للتفكُّر في هذه الرابطة، وفي عِبَرها ومعانيها، عسـى ذلك كلّه أن يقودنا للحفاظ عليها في ظل ما تتعرض له لتقويضها وهـدمها فنحمـد الله سبحانه وتبارك وتعالى ونشكره أن يديم علينا هذه النعمة.

وجعل هذه الرابطة المقدسة نعمة من النعم التي امتن بها على عباده; فقال تعالى:﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾.[68]

ولما كانت الأسرة هي النواة الأولي التي تبنى عليها المجتمعات أحاطها بسياج من القيم والأخلاق والتشريعات.

إنّ الرابطة التي تقوم عليها الزوجية ويسعى القرآن لرسم معالمها لا تقوم على أساس مادي، ولا قانوني، ولا

لمصلحة دنيوية...، بل هي رابطة عظّم القرآن شأنها ، ذلك أن الله جعل العلاقة الزوجية لا تضاهيها علاقة، ولا

يدانيه عقد من العقود إنّه عقد يسمو عليها جميعًا بما أفرغه الله عليه من صبغة" الميثاق الغليظ" ، ولم يرد وصف الميثاق، بالغليظ إلا في عقد الزواج;قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[69] ، إنّ هذه الكلمة التي سماها القرآن الميثاق الغليظ في معرض الحديث عن الرابطة الزوجية، يكفي في الدلالة على ذلك التكريم أنّ كلمة الميثاق، لم ترد في القرآن الكريم إلاّ تعبيراً عن المعاهدة بين الله وعباده؛قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾[70]، الآية في معرض الحديث عن موجبات التوحيد.

وفيما أخذه الله على أنبيائه من مواثيق؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾.[71]

فالأهمية الكبرى التي يوليها القرآن للأسرة، لا يوليه لأية علاقة أخرى، لأنّ الرابطة الزوجية باعتبارها دعامة البناء الاجتماعي مؤثرة في المجتمع وموجهة له يضطرب باضطرابها ويستقيم باستقامتها.

وإذا كانت عصور التراجع الحضاري قد استبدلت المعاني السامية لعقد الزواج المودة ، والرحمة ، والسكن والميثاق الغليظ بذلك المعنى الغريب "عقد تمليك بُضع

الزوجة"! – وعقد أسر وقهر!. فهل نعيد الاعتبار إلى المعاني القرآنية السامية. فنسميه كما سماه القرآن الميثاق الغليظ؟

ولما كان أثر الأسرة على المجتمع ارتباطاً أو انفكاكاً، فقد أحاطها بسياج يقوم على شرع الله، يرسم من خلاله حدود العلاقة التي تربط الزوج بزوجته، **لذلك أفرغت سورة النساء على عقد الزواج صبغة كريمة، أخرجته عن أن يكون عقد تمليك كعقد البيع والإجارة، أو نوعاً من الاسترقاق والأسر حيث أفرغت عليه صبغة "الميثاق الغليظ"**.

هذه الرابطة التي جاء القرآن يرسم معالمها تقوم على منهج الله، لذلك اعتنى بها القرآن الكريم من طور الإعداد إلى حالة التكوين.

فالأسرة أساس المجتمع الإسلامي فلذلك استحقت عناية، ورعاية وإحاطة القرآن فقد شرّع لها من الأحكام ما يساعد على حفظها، ودوامها، واستقرارها، واستمرارها .

والرابطة الزوجية أقوى الروابط بين اثنين، بحيث يشعر كل منهما بأنه شريك للآخر في كل شيء، حتى جعلها القرآن امتزاجاً بين الزوجين.. وهذا الامتزاج يعتز كل منهما بهذه الرابطة المقدسة التي ربطت بينهما: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**[72] **﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾**[73]، **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.[74]

الأسرة في المفهوم الغربي:هذا يجنبنا كثير من الإشكاليات التي تثار حول الموضوع ؛ لاشتماله على بعض النقاط المهمة مثل: الصبغة الإسلامية، حيث حدد العلاقة بين الزوجين بعلاقة شرعية، كما أنه لم يهمل أعراف المجتمع وتقاليده، والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى، كذلك شمل بعض الأقارب من الأسرة خلافاً لتعريفات أخرى حصرت الأسرة في الزوجين والأبناء فقط؛ كل هذه المعاني ظلّت غائبة في المفاهيم الغربية التي تسوق لنا دون الإشارة إلى نوع الرابطة التي تجمع بين الزوجين

لا يهم أن تكون شرعية، أو غير شرعية، وليس بالضرورة أن تكـون بـين الرجـل والمرأة حيث ركزت على الدم والمصاهرة؛ بل قد يكون بين نفس الجنس، انظر مـثلاً ما جاء في معجم لاروس:

La famille personnes unies par le Song et l'alliance.

La famille est fondée traditionnellement sur le mariage, union entre un homme et ne femme, formant un couple dont sont issus les enfants légitimes. or, cette description doit être élargie compte tenu des évolutions de la société .

Le couple peut être lie par concubinage – union libre– o par un pacte civil de solidarité.

Dans ces deux derniers cas, le couple peut être formé de personnes de même sexe–famille homoparentale–

فهم يركزون على الارتباط الحر، ولو كان من جنس واحد ممّا أدى لفشو السـحاق والمثلية، وانعكست هذه المفاهيم على الأسر الإسلامية، والعربيـة، وأصـبحنا نسـمع ونقرأ عن بعض المفاهيم المتعلقة بالأسرة :المتحدين–المتعايشين، المثليـين ، فـإطلاق التسمية، والمفهوم من دلالته يوحي بأنّه لا يمنع الشواذ من تكوين الأسرة التي وتسميها العائلة، وتعد أدوار الأمومة ، والأبوة أدوارًا نمطية يجب استبعاد الالتـزام بهـا حتـى يمكن إقامة مجتمع متحرر من القيود ، والروابط..إنّ علاقات الشذوذ هي شـكل مـن أشكال تكوين الأسرة، وهو موقف مائع من القضية تحت ضغط الـدول الغربيـة. ... وأن الأساس في أي علاقة جنسية مهما كانت هو وجود رغبة مشتركة، ويـدعو إلـى الاعتراف بالصيغ الشاذة في هذه العلاقات، وتوفير الحماية ، والمشروعية، والرعايـة لها، ومعاملتها معاملة الأسرة، وتضغط على الدول الإسلامية، والعربيـة لقبـول هـذا الواقع، ولو اقتضى الأمر فرضه بالقوة..

لاشك أن تقنين هذا الشذوذ جاء بمباركة كثير من الدول التي عملت المستحيل حتى تروج لهذه المفاهيم كمؤتمر بكين، والقاهرة.، وهكذا يبدو مدلول الأسـرة كمـا تقـول جميل تلوت انزاح عن معناه المركزي، وأصبح يكتسي طابعـاً نسـبياً يتغيـر بتغيـر

المجتمعات، والأزمان، والخلفيات، ويتطور بتطورها، ويتقهقر بانحدارها، فهو نمــوذج غير ثابت، وليس له ما يحدد ثوابته.

والخطر الذي يتهدد الأسر أننّا عندما نستورد مفهوم الأسرة من ثقافة مغــايرة بكــل حمولاتها الدلالية، والتي تتعارض مع النسق، والتداول الإسلامي لاشك أنّهــا تؤصــل لمفاهيم لا تنسجم مع العادات، والتقاليد، والتصور المجتمعي الــذي نعــيش فيــه ؛لــذا يتوجب علينا جميعاً حماية اللبنة الأولى في تكوين المجتمع ، كما أردها الحق ســبحانه وتعالى الذي وضع نظاماً واضحاً في خلقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكــوين الأســرة على أساس سليم ، وبنى الإسلام هذا النظام أولاً على ســلامة العقيــدة ، ونصــاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات في مكونات الأسرة فمصدرها الشرع، والأسرة فــي الثقافات المغايرة مصدرها المجتمع، وشتان بين من مصــدره الشــرع ، وبــين مــن مصدره المجتمع؟

تنميط الأسر بين موضات التغيير وموجات التغرير: وفي ظل المــؤثرات الثقافيــة والتعقيدات التكنولوجية التي تزحف ظهرت أنماط جديــدة، وتحــولات فــي الأســرة المسلمة؛ فشهدنا بعض الاختراقات للمفهوم الإسلامي للأسرة، فضلاً عن الممارســات الخاطئة.

ومن الأنماط التي ظهرت مثلاً زواج المسيار، والزواج العرفي، والزواج المؤقــت ونحو ذلك، حيث أصبحا نسمع، ونقرأ عن الأزواج الهاربين مــن القيــد، والزوجــات الباحثات عن الحرية، وأبناء السفاح الذين يعولون أنفسهم بالجريمة؛ كل ذلك من أجــل هدم بنية الأسرة، واقتلاعها حتى تتعطل عن إنتاج الأسر المسلمة،

كسر الثوابت والمسلمات:تعدّ الأسرة نواة المجتمع ، وهذه مسلمة ضرورية بــالطبع إذ على الرغم من أنّ المسلمات، والثوابت العقائدية، والفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية تعدّ مرجعيات ثابتة، ونقاط ارتكاز لأيّ مجتمع، ومن ثمّ يجــب ترســيخها كضــمانة لاستمراره مادام أنّ الواقع اثبــت فعاليتهــا، إلاّ أنّ المنطلقــات العقائديــة، والفكريــة

والاجتماعية، والأخلاقية التي تنطلق منه تصورات الأسرة المعاصرة في المجتمعـــات الإسلامية تعكس تصوراً فكرياً مختلفاً قوامه أن تلــك المســلمات أصــبحت عرضـــة للنقاش، والمساومة، و كسر الثوابت، والمسلمات ممّا قد ينبئ بأنماط من الأسر فيها من الخلل العقدي، والفكري، والاجتماعي، والسلوكي ، علاقات من غير ضرورة الـــزواج أو الارتباط من دون الزواج، والتمرد على كل الأشكال التقليدية

لقد مزقت الحداثة، والتكنولوجيا العالم المقدس الذي كان إلهياً طبيعيـــاً، واســـتبدلته بشرياً عقلياً.

العمل على محو الخصوصيات المميزة على المستوى الأسري، والـــدعوة للتحـــرر الجنسي، والمثلية الجنسية ، والشذوذ الجنسي ، وإباحة الإجهاض تقدم وسائل الإعـــلام المختلفة الشاذين جنسياً على أنهم مجرد مِثْليين يتمتعون بحس عـــاطفي بـــريء تجـــاه أمثالهم في الجنس، ويسعون لاكتساب احتـــرام الآخـــرين، وتفهُّـــم رغبـــاتهم النفســـية والجسدية، وهكذا تدمر الأسرة، وترجم الحياة بألوف مؤلفة من اللقطاء، غير ما اســـتتر أو استعلن من العلاقات الفاسدة الأخرى.. ؛ وأنّ الدعارة مرفوضة في حالة واحدة هي إكراه المرأة عليها، ويعزز ذلك بالمؤتمرات، والأجندة، والاتفاقيات العالمية، لقد حـــدثت تحولات عالمية كبيرة حيث سعت إلى إحداث تغييرات واسعة في مفاهيم الأسرة.

الحملات المسعورة على تفكيك الأسرة: ولهدم القيم الأسرية عُقـــدت العديـــد مـــن المؤتمرات الدولية بهذا الخصوص، مثل مؤتمر نيروبي عام 1985م، مؤتمر القـــاهرة عام 1994م، ومؤتمر بكين عام 1995م، ومؤتمر اسطنبول عام 1996م، ثم مـــؤتمر نيويورك عام 1999م، ثم مؤتمر بكين، ثم نيويورك أيضاً عام 2000م، ومحور هـــذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل، مركزاً على الحقوق الجنســـية، والحـــق في الإنجاب والإجهاض، والشذوذ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء، والمساواة في الميراث .. إلخ، وكل هذا من منظور الثقافة الغربية العلمانية المادية الإباحية.[75] .

الإباحة الجنسية خارج الرابطة الزوجية: وفي الفصل السابع من وثيقة مؤتمر السكان يتحدث عن هذه الإباحية الجنسية، فيقول: إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد (لاحظ تعبير الأفراد) من جميع الأعمار أزواجاً وأفراداً (كذا) فتياناً وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة (لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية) هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا تجاوز عام 2015م. أي أنه أكثر من مباح، فالسعي لتحقيقه بجميع البلدان في أسرع وقت ممكن، وقبل سنة 2015م، واجب على جميع البلدان بل ولا تكتفي هذه الوثيقة بذلك، وإنما تتجاوز إباحة هذه الإباحية إلى حيث تدعو للتدريب والترويج والتعزيز لهذا السلوك الجنسي المأمون والمسئول.[76] **استغلال التكنولوجيا لزعزعت جيولوجيا المجتمعات:**إذا كان التقدم التكنولوجي المذهل، قد وضع في يد الغرب إمكانية تشكيل العالم، وإعادة ترتيبه، بما يتناسب مع المصالح الذاتية لهذا الغرب، لاسيما من خلال وسائل الاتصال الحديثة، التي تصب على رؤوس الشعوب، شلالاً متدفقاً من القيم وأنماط السلوك (الاستهلاكي)، والتي تحاول أن تشكك بأهمية القيم السائدة، بل إنها تعمل على تسفيهها، باعتبارها قيماً بالية، لا تتماشى مع التقدم ومع الحضارة. كل ذلك جعل العالم يعيش في هذه الآونة، أكثر من أية مرحلة سابقة، ما يمكن أن نسميه زمن المواجهة الحاسمة بين الحضارات، حيث تعمل الحضارة الغربية، وبنموذجها الأميركي الصارخ، بصفتها الحضارة المسيطرة والمستبدة، على الإطاحة بالحضارات المغايرة ومحاولة استيعابها، ومحاصرتها، والعمل على إفنائها، وتبديدها ــ إن أمكن.

إنّ التحولات المتدافعة التي تميز العصر الذي نعيشه قد تداعت فيه الحواجز المكانية، والزمانية نتيجة الثورة المذهلة في تقنيات الاتصال التي جعلت من الكوكب الأرضي قرية كونية صغيرة؛ فإنّ هذه التحولات كما يقول جابر عصفور تفرض علينا إعادة النظر في الكثير من أفكارنا التي درجنا عليها...خصوصاً بعد أن تضافرت

العوامل السياسية، والاقتصادية، والثقافية مع آليات التحولات التقنية على نحـــو غيـــر مسبوق في تاريخ البشرية كلّها بوجه عام، وتاريخ وطننا العربي بوجه خـــاص، وهـــو وضع يحتم علينا معرفة المتغيرات، والصراعات، والأوضاع الجديدة بـــوعي عميـــق والتي لم تتكشف كاملة بعد.

لقد تعاظم في العصر الذي نعيش فيه دور التكنولوجيا، وأصـــبحت ضـــرورة مـــن الضروريات التي لم يعد بإمكان الإنسان المعاصر اليوم الاســـتغناء علـــى كثيـــر مـــن مكاسب التكنولوجيا الحديثة ومنجزاتها، حتى غدا التواصل بغير التقنية الحديثـــة أمـــراً مستحيلاً.

التقدم التكنولوجي المذهل، قد وضع في يد الغرب إمكانية تشكيل العـــالم، وإعـــادة ترتيبه، بما يتناسب مع المصالح الذاتية لهذا الغرب، لاسيّما من خلال وسائل الاتصـــال الحديثة، التي تصب على رؤوس الشعوب، شلالاً متدفقاً من القـــيم، وأنمـــاط الســـلوك (الاستهلاكي)، والتي تحاول أن تشكك بأهمية القيم السائدة؛ بل إنّها تعمل على تســـفيهها باعتبارها قيماً بالية، لا تتمشى مع التقدم، ومع الحضارة.

وهكذا يتحول الخطاب من مجرد خطاب إلى إســـتراتيجية أيديولوجيـــة للســـيطرة والهيمنة، وتتحول السلطة إلى تقنية خطابية تكسر فيها الثوابت، والمسلمات كما يـــذهب هابرماس.

ضرورة التحرر من القيم الموروثة، والتفاعل مع مقتضياته، والمساهمة فـــي بنـــاء قيمه لذلك يدعون إلى إعادة النظر في منظومات القيم الموروثة، أو الســـائدة، والتفكيـــر في بدائلها في ضوء ما يجري في العالم من تحوُّلات.

الأيديولوجية الرقمية ونقل الأسرة إلى مرحلة جديدة تتميَّز بالتحرر من الأيديولوجية الكلاسيكية: وتبقى المضامين الموظّفة في وسائل التواصل الحديثة تمتاز في علاقتهـــا بالحتمية التقنية أنّها تحتل في طياتها أيديولوجيا لأنّ التقنية ليست شيئاً محايداً؛ بل هـــي جملة من الأدوات، والوسائل التي كرست نظاماً عقلانياً للســـيطرة، والهيمنـــة، فقـــد

أضحت التكنولوجيا إيديولوجيا قمعية لا تختلــف عــن الأنظمــة الفاشــية J.irgen Habermas إلاّ بميزة أساسية جعلت من العقل أداة لقمع الإنسان كما كان يعبــر عنــه هابرماس، ولعل كتابه – التقنية والعلم كإيديولوجيا– خير دليل على ذلك.

إنّ الأيديولوجيا التقنية تتغذى من العمل المستمر لتغييــب التأمــل لــدى الإنســان المعاصر بسبب انبهاره وافتتانه بالتكنولوجيا الحديثة.

إنّ الإستراتيجية التقنية التي بنيت على هدم، وتقويض الأسرة هزمت الأيديولوجيــة وفرضت منطقها، فهل هي قادرة على إزاحة منطق الأيديولوجية إذا ما تعارضا، وهل أضحت مهمة منطق الأيديولوجية هي البحث عن صيغة للتعايش مع التكنولوجيا؟.

لقد أسهمت التحولات التكنولوجيا داخل الأنساق المجتمعية في بروز بعض المفاهيم التي لم تكن مطروحة في البيئات الكلاسيكية ، و في عصر نهاية الايدولوجيا، وما بعــد الحداثة، كلّ النظريات تتقلص، ويختفي المركز؛ لذا كان بيير بورديو يطــرح الســؤال من يملك المعلومات، أو المعرفة، أو الأسس التكنولوجية يستعمل الايدولوجيا.

الانحرافات الأسرية :لا يمكن الحديث عن مظاهر الانحرافات التي نراها اليوم دون الرجوع للدور التي تركته الأسرة حين تخلت عن دورها، وتركت أولادهــا، وبناتهــا فريسة للتكنولوجيا دون مراقبة، فشب جيل يعاني من عقد نفسية لا حدود لهــا، ومــن سلوكيات مشينة تحطم الحياة ؛ إنّ الجيل الذي يفقد جو الأســرة يفقــد ميــزان حياتــه ويصبح يعيش في فوضى خلقية، لقد أسهمت التحولات التكنولوجيــة التــي عرفتهــا وسائط الإعلام، والاتصال الحديثة في تمدد وظائفها ، وأصــبحت تشــارك مختلــف الأنساق المجتمعية في تشكيل التصورات، والمفاهيم، والقيم.

إنّ عدم حسن استعمال التكنولوجيا خلق أجيالاً بأكملها لا تســتطيع التعامــل مــع الناس، وفق القيم والأعراف، والعادات الاجتماعية ساهم في الهدم الذي أصاب دعــائم الأسرة.

التردي الاجتماعي: التردي الاجتماعي، والفوضى الجنسية، والخلقية التي زحفت علينا من الغرب، وهناك تقاليد

اجتماعية لابد من إعادة النظر فيها، لتستقيم مع ديننا وأحكامه الصحيحة.. وهي تقاليد تتصل بوضع المرأة وتكوين الأسرة وقد صدق تكهن نبيل علي عندما تحدث عن العوارات الاجتماعية التي سنكتشفها في نهاية الألفية الثانية، والوقوف على الخلل الحاصل بحيث يتعذر معها التستر مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الجديدة.

لقد شكلت التكنولوجيا فجوة كبير بين الإباء، والأبناء، وقضت على أشكال التواصل الأسري بحيث اختفت العلاقة القائمة على حرارة المشاعر، وصدق الأحاسيس والمحبة، وحلت محلها برودة المشاعر، والجمود، و النزعات... العنف، والاغتصاب والقتل...

يمر العالم بمتغيرات كبيرة شملت كل مناحي الحياة حتى وصفت هذه التغيرات العميقة، والتحولات الكبيرة التي حدثت في المجتمعات نتيجة للتدفق الحر للمعلومات بالثورات العملاقة الأمر الذي أدى إلى التفكير فيما ستكون عليه منظومة الأسرة في المجتمعات الإسلامية، والعربية في الحقبة الزمنية القادمة، إذ لم تسلم الأسر من آثار هذا التغيير خاصة في ظلّ ما بات يعرف اليوم بوسائل الإعلام الجديد؛ في الواقع يمثل التدفق الحر للمعلومات أبرز سماته حيث تؤثر هذه التكنولوجيا على الكثير من الأسر المسلمة المعاصرة من تحديات قيمية، وأخلاقية، وتشريعية، وقانونية..، لصياغة نماذج أسرية دخيلة لا تمت للقيم ، والأخلاق والثوابت التي ينبغي أن تكون عليها الأسر في فوضى عارمة، والسعي لإعادة تأسيسها على المبادئ الجديدة في عالم لا يعرف الاستقرار ، ودائم التغيرات، والتحولات ، كلّ ذلك يدفع لإعادة النظر في الاستراتجيات المعتمدة في تحصين الأسرة ، لأنّه في اعتقادنا يبقى حماية الأسرة من أعظم الواجبات، فهي المدرسة الاجتماعية الأولى الحاملة لقيم، وثقافة، وتراث وعادات، ومعتقدات، وسلوكيات المجتمع.

إذا كان لكلّ عصر علامة فارقة، ومميّزة فإنّ هذا العصر هو مجتمــع تكنولوجيــا المعلومات لما يشهده من ثورة رقمية هائلة قد غيَّرت كثيراً من المفــاهيم، وزحزحــت كثيراً من القناعات، والميولات، وغيّرت كثيراً من المرجعيات، والاتجاهات، والثوابــت والمسلمات، والتي كانت تبدو ثابتــة، ومســتقرة، ونَســفت كثيــراً مــن النظريــات والأطروحات، وأسقطتْ كثيراً من القناعات، والتيارات، نحن في زمن تغيــرات فيــه كثير من المعطيات، فلم يعد جيل اليوم يستقي مفاهيمه حــول الأســرة مــن الكتــاب والمصحف، والمسجد، ومن المدرسة، ومن الجامعة..؛ خاصة مايراه من عمق التقنيــة إذ أصبحت في المدونات، ومواقع التواصل، والبرامج الإفتراضــية...، حتــى غــدت المعبود الذي لا يستغنى عنه، لذا تسعى هذه الورقة البحثية لتوجيه المساقات المعرفيــة لرسم صورة عن التحديات المتسارعة التي تواجه الأسرة المسلمة، والتي أثــرت فــي فكرها، وثقافتها، وعقيدتها، وسلوكها...، وعملت على هدم قيمها، ومبادئها الإســلامية والإنسانية، وجعلتها تذوب، وتتصهر، فقد تعرضت مؤسسة الأسرة للاهتزاز، والــدمار حتى لم يصبح لها ملاذ ، ومنأى عن سيطرة التكنولوجيا.

ففي زمان التكنولوجيا الذي أفضى لتداول المواقع، وفي ظلّ غياب مفهوم الأســرة المسلمة كما رسم صورتها التشريع الإسلامي، والذي استلزم حضور مفــاهيم الأســرة كما تريدها العولمة، كلّ ذلك يدعونا لإعادة النظر في

مفهوم الأسرة في عصر المادية الكونية، والذي تحول فيه العالم لقريــة كونيــة لا مكان فيه للخصوصيات،

والمتعاليات، والمقدسات...، من شأنه أن يضع مفهوم الأمن الأسري الــذي نبحــث عنه- في زمان الاغتراب- في قلب التحــولات العقديــة، والفكريــة، والاجتماعيــة والفلسفية، والإيديولوجية للمجتمعات العربية، والإسلامية التــي ضــاعت فــي زمــان الاستلاب الحضاري سواء في مرحلة الصراع مع الآخر في إثبات الهويــة الأســرية للمجتمعات الإسلامية، أم في البحث عن هوية الأسر الغربية، ومفاهيمها ، وســلوكياته

التي اجتاحت المجتمعات الإسلامية، أم في سبيل البحث عن إعــادة الاعتبــار لمكانــة الأسرة ، ومن ثمّ النهوض بالمجتمعات الإسلامية، ويتسنى لنــا إعــادة دور الأســرة للحضور؟ لقد أصبح من الصعوبة بمكان على الأسر الإسلامية المعاصــرة أن تعــيش خارج الحداثة التكنولوجية دون أن تتأثر، أو تتدرج في مساراتها؛ لذا نسعى من خــلال هذه المقاربة للوقوف على بض التحديات التي تواجه الأمن الأسري في ظــلّ الطفــرة التكنولوجيا، خاصة في ظلّ سيادة مفهوم النّهايات كصيغة جديدة للتعبيــر عــن حالــة الذهول الذي أصاب المجتمعات أمام التحولات التي يشهدها العالم المعولم اليــوم نهايــة الدين، ونهاية النّص، ونهاية العولمة، ونهاية المتعاليات، ونهايــة المقدســات، ونهايــة العلم، ونهاية المدرسة، ونهاية الحداثة، ونهاية التاريخ، ونهاية الهوية، ونهاية الأســرة.. فهل ستختفي الأسر، وتصبح ليس لها وجود؟، وفي ظلّ سلسلة الجنائز المتتالية، مــوت المؤلف، وموت القارئ، وموت الناقد، وموت النّص، وموت الإلــه، ومــوت الهويــة وموت الأسرة، فهل سيموت مفهوم الأسرة، ويختفي مع سيطرة التكنولوجيا؟؛ وهكــذا أصبح خطاب النهايات بما يحمله من أيديولوجية أمراً واقعاً، إذ لا يجد الذين يوظّفــون مضامينه أي حرج في الترويج، والدعوة لمعطياته كلّ ذلك يدفع للتساؤل عن سرّ كــلّ هذه المآتم، والجنائز، فإجراءات التفكيك، وإكراهات التذويب الممارس على الأسر قــد وصل إلى كلّ شيء، فتراهم يلغون الأسرة التقليديــة، ويســتبدلونه بالمثليــة الجنســية والميل الجنسي، وفوضى العلاقات الجنسية، والتخلص من الأجنة، والمواليد، وتشــجيع الزنا، بحيث يصبح لا مجال لتكوين الأسرة، ولا لاســتقرارها، وتتــدحرج منظومــة الأسرة إلى الهاوية ممّا ينذر بظهور أشكال جديدة للأسرة ، فلم يبق إلاّ العبث، ومــن ثمّ كانت الحاجة ماسة إلى ضرورة التأسيس لمفهوم الأمن الأسري، والعمل على تجلية هذا المفهوم، والمحافظة عليه، وبهذا التوقيت بالذات، في خضم التغيرات التي يعرفهــا العالم اليوم .

تحولات القيم: إنّ الحديث عن إشكالية تحول القيم اليـــوم، لا يعــدّ ترفـــا فكريـــاً ولا مضيعة للوقت، بل هو واحد من المواضيع الأكثر حضورًا فـــي الملتقيـــات، والنـــدوات والمؤتمرات العالمية، والإقليمية، والمحلية، وذلك بالنظر لحجم التحولات التي جرت فـــي السنوات الأخيرة والتي فاجأت وأدهشت الجميع، سواء أكاديميين أو باحثين أو مهتمـــين أو صحفيين أو صناع القرار السياسي أو غيرهم. ولعلنا لا نبالغ إذا ما أكدنا علـــى خلاصـــة أساسية، وهي أنّ الصراع الجاري اليوم في العالم، تجاوز مـــا هـــو مـــادي واقتصـــادي وعسكري، وتقني إلى ما هو قيمي ومعرفي بالدرجة الأولى. وقد سبق للعديـــد مـــن، – الباحثين المشتغلين في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية–، أن أكدوا أنّ مستقبل الصـــراع في العالم سيكون في منظومات القيم وقد صدق تكهن نبيل علـــي عنـــدما تحـــدث عـــن العوارات الاجتماعية التي سنكتشفها في نهاية الألفية الثانية والوقـــوف علـــى الخلـــل الحاصل بحيث يتعذر معها التستر مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الجديدة. [77]

وما أكثر التساؤلات حول المثاقفة وهي تؤسس لمنظومة أخلاقية جديدة خاصة فـــي ضوء العولمة، و الخصوصية الثقافية ومدى قدرتها على التواصل مع الثقافات الأخرى فهل بإمكاننا أن نؤسس خطاباً عن الأخلاق يتجاوز النســـبية الثقافيـــة ليطـــرح أســـئلة الأخلاق على العالم أجمع؟

وهل تستطيع المثاقفة ردم الفجوة بين واقعنا القائم على اللاتوازن بـــين الأخـــلاق الروحية ، والأخلاق الاجتماعية، اذا كانت القيم في العصر الحالي فقدت وازعها الذاتي لدى الفرد، ما أحوجنا اليوم في ظل ثقافة المادّة وقيم الدنيا، إحياء روح الأخـــلاق، روح لا تجمد على ثنائي الحلال والحرام، بل تتجاوزه لقيم أخلاقية بدأت بالنفاذ مـــن جعـــب مجتمعنا.

الخاتمة: لا أتصور أن هناك مفكراً يتجاهل أهمية المثاقفة كعنصر من عناصر التواصل بين الأمم ، ووسيلة لمواكبة الواقع، والاستفادة من منجزاته ، ومواكبة حركة المجتمعات والأفراد ، ولكن لا نريد أن يتحول مفهوم المثاقفة الذي أتاحته وسائل التواصل بشكل غير مسبوق من التفاعل الثقافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبة في الهيمنة، والسيطرة، ومحو الآخر، واستعباده، وفرض التبعية، والوصاية، والهيمنة عليه...، إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح، والاحترام المتبادل، والندية والتكافؤ... ؛إلى الشراكة، والاشتراك، وليس تبعية، واستلاب لأنّ المثاقفة لا تتحقق إذا خلت من طرفين، واقتصرت على طرف واحد يضخ ثقافته في الاتجاه الآخر.

نركز في هذه الدراسة على المثاقفة الواعية التي لا تسعى لمحاولة إلغاء الخصوصيات الثقافية، والحضارية بالترغيب والترهيب .

إننا نعتقد أنّ المثاقفة بين الأنا والآخر ضرورة تفرضها الرغبة في التأثير والتأثر بحثاً عن الحكمة، واسترشاداً بالرؤى النيرة، والأفكار الخلّاقة من أجل تشييد بنية ثقافية متماسكة، وواعية بذاتها ، وعارفة ما لدى الآخرين من منجزات وأفكار يمكن توظيفها أو رفع المناعة ضدها ، لما لها من أثر في سلب الهويّة ، وطمس معالم الخصوصيّة.

وبمقتضى الطبيعة البشرية المبنية على النقص ، وعلى حبّ البحث عن الجديد ومعرفة الآخر قامت الثقافات البشرية على " المثاقفة " فأثرت وتأثرت ، واختلفت درجات ذلك التأثير والتأثر باختلاف الرصيد الحضاري ، والشعور بقيمة الذات والحفاظ عليها ، فذابت ثقافات في نسيج ثقافات غالبة ، وفقدت هويتها ، كما حدث مع غالب ثقافات العالم الثالث ، ونجحت ثقافات أخرى في المثاقفة ، عندما قامت على أسس محكمة، ويبقى الانفتاح، والمثاقفة مع الأخر ضرورة ملحة لا يمكن تجوزها والقفز عليها، والاستفادة من المنجزات، والإبداعات، والفتوحات المعرفية للآخر تفرضها المثاقفة باعتبارها أخذ ، وعطاء ، لكن علينا تجاوز الأخطاء التي وقع فيها

الفكر العربي المعاصر؛كما يقول الجابري الذي تحول لمجرد ناقـل، ووسـيط لثقافـة الأقوياء المهيمنين دون نقد ، وتمييز.

النتائج:

–فنحن ليس ضد المثاقفة من حيث المبدأ ولكن ضرورة التفريق بين الانتفـاع مـن دون ضوابط والانبهار لحد الاستلاب.

–لم تنجح المثاقفة في الأخذ والعطاء؛ بل حاولت انتزاع للثقافة بدلاً من المثاقفة. المثاقفة كانت أحادية الاتجاه

– المثاقفة الإيجابية التي تسعى لاستيعاب ما عند الآخر.

– نرفض سياسات الانغلاق كما نرفض سياسات الإلحاق، والمحو الثقافي.

المثاقفة الغربية كانت تسعى لإعادة تثقيف قارة بأخرى.–

التوصيات: توصي الدراسة

–ضرورة التدريب على اكتساب المهارات، والمقومات اللازمـة لإقامـة مثاقفـة متكافئة مع الأخر.

–التخلص من العزلة.

–لم تعد المثاقفة تعرض بل تفرض، ولكن هذا الفرض لا يأتي من خلال اسـتخدام العصا أو السيف، وإنما من خلال استغلال الإغراءات.

–النسق الأوروبي يتعرض لكثير من التحولات، والتشكلات، والتغيـرات، فنقـل هذا النسق كما هو إلى النسق العربي قد لا يكتسب تداولا سريعا أو سليما.

المصادر والمراجع:

– الآثار الكاملة: أدونيس، ط. الأولى، 1971م، دار العودة، بيروت.

– الأدب العام المقارن: باجو، دانيال هنري. ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتـــاب العـــرب دمشق1997.

– الأدب العام المقارن: دانيال هنري باجو، ترجمة غسان الســـيد1997، اتحـــاد الكتـــاب العرب، دمشق.

–الأدب في عالم متغيّر: شكري عيّاد، الهيئة المصرية العامـــة لتـــأليف والنشـــر 1978 القاهرة.

–الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط3، 1988ـــ دار الآداب، بيروت.

–أساس البلاغة: الزمخشري 1399هـــ 1979م، دار الفكر.

–أسس التقدّم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث: فهمي جدعان ط3، 1988 م دار الشروق، عمّان.

–إشكالية التحيّز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المسيري، عبد الوهاب ط2 ، 1417 هـــ – 1996 م، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكيّة.

–الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب: الموصلي علي بن عَدْلان بن حماد بن علي الربعي، تحقيق: د حاتم صالح الضامن، ط. الثانية، 1405هــــ 1985م، مؤسســـة الرســـالة بيروت.

– تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى، الزَّبيدي، تحقيق مجموعة مـــن المحققـــين دار الهداية.

تحرير العقل من النقل: سامر إسلامبولي، دار الأوائل سورية دمشق بلا تاريخ.

– التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بـــن عاشـــور 1997 م، دار ســـحنون للنشـــر والتوزيع، تونس .

–تفسير السمعاني: أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عبـــاس بـــن غنيم1418هــ– 1997م، دار الوطن، الرياض السعودية.

– التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د.محمد رضـــوان الداية، ط. الأولى، 1410، دار الفكر المعاصر، دار الفكر ، بيروت، دمشق.

– الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري1423 هـــــ/ 2003 م، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

–الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعـــات بيروت.

–جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط.الأولـــى 1420 هـــ – 2000

م، مؤسسة الرسالة.

–حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة: محمد بنـــيس، ط.2، 1988 المركز الثقافي

–الحضارة الثقافة المدنية دراسات لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم: نصر محمد عـــارف 1995، منشورات الفكر الإسلامي الولايات المتحدة الأمريكيـــة، الـــدار العالميـــة للكتـــاب الإسلامي، الرياض.

–حول العروبة والإسلام في الحوار القومي الديني: البشري طارق1989، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

–زهر الآداب وثمر الألباب: القيروانـــي، تحقيـــق: أ. د / يوســـف علـــى طويـــل، ط. الأولى1417 هـــ – 1997م دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

–سقوط آسيا صدمة المستقبل المتغيّرات: كالوم هندرسون، ترجمة: فريق 1999م، بيـــت الأفكار الدولية عمّان.

– شبكات التواصل الاجتماعي: د. فيصل معد عبـــد الغفـــار، ط.1، 2005، الجنادريـــة للنشر والتوزيع.

–مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كـــوش، ترجمـــة: د. قاســـم المقـــداد2002 منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

– شرح صحيح البخارى: أبو الحسن بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم1423هـ– 2003م، ط. الثانية، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية.

– الشعرية العربية: أدونيس ط1.– 1985، دار الآداب، بيروت.

– صورة الآخر في شعر المتنبي: الخبّاز، محمّد، ط 1، 2009، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت .

–العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد184، 1994، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

–عصر البنيوية: كوزيل، ترجمة: جابر عصفور، ط.1 ، 1993، دار السعادة، الكويت.

–العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط.1 2007، 2009 عالم الكتب اربد الأردن.

–العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، د. إسماعيل علي محمد، ط. الأولى 1421هـ – 2001م، دار الكلمة للنشر والتوزيع.

– غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، ط. الأولى1416 هـ – 1996 م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

–في عالم الغد: ألفين توفلر، ترجمة: محمد ناصف، تقديم: الدكتور أحمد كمال أبو المجد1990 م، نهضة القاهرة، مصر.

– الفصول المفيدة في الواو المزيدة: العلائي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله، تحقيق: حسن موسى الشاعر ط. الأولى، 1410هـ 1990م، عمان.

– الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح ط3، 1998م، دار الساقي.

–لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد الخازن1399هـ /1979م دار الفكر، بيروت، لبنان.

–لبنات في المنهج وتطبيقه: د. عبد المجيد الشرفي، ط2. ، 2005، دار الجنوب للنشر تونس، ص:13.

-لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط. الأولى.

-اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية ط. الأولى، 2013، المركـــز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.

- المتلاعبون بالعقول: هربرت. أ. شبلر، ترجمة عبد السلام رضـــوان، 1419- 1992 عالم المعرفة الكويت. --المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفىـــ أحمد الزيات ـــ حامد عبد القادر ـــ محمد النجار تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

-مفاتيح الغيب من القرآن الكريم: الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربى.

-المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلانـــي دار المعرفة، لبنان.

- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كـــوش، ترجمـــة: د. قاســـم المقـــداد2002 منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

الملامح الفكرية للحداثة: خالدة سعيد، مجلة فصول، مج الرابـــع، عـــد الثالـــث، 1984م القاهرة.- ندوة مواقف الإسلام والحداثة: مجموعة حداثيين، ط.1 ، 1990 دار الساقي لندن.

-نحو مثقافة مغايرة: جابر عصفور، ط. الأولى1428-2008، الدار المصرية اللبنانية.

- نظام الخطاب: ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا، ط.2 ، 2007، دار التنوير، بيروت.

-وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقـــد بالقـــاهرة ، 1994/9/15م الترجمة العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات.

- dictionnaire Arabe –Français T1 lutter avec un autre à qui e montrera plus ingénieux plus intelligent,

-Le nouveau système du monde (Actuel Marx) P. u. f, Paris, 1994.

الـهوامش :

[1] سورة الروم، الآية:22.

[2] سورة المائدة، الآية: 48.

[3]العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب جامعة اليرموك، عالم الكتب اربــد الأردن، ط.1، 2007، 2009، ص:335.

[4]الحضارة الثقافة المدنية دراسات لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم: نصر محمد عار ف، منشورات الفكر الإسلامي الولايات المتحدة الأمريكة، الدار العالمية للكتــاب الإســلامي، الريــاض، 1995 ص:34.

[5] المصدر نفسه، ص:24.

[6] ينظر: المورد الانجليزي العربي

[7] dictionnaire Arabe –Français T1 lutter avec un autre à qui e montrera plus ingénieux plus intelligent,

[8] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص:96

[9]ينظر: هربرت. أ. شبلر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبــد الســلام رضــوان، عــالم المعرفــة الكويت1419- 1992، سقوط آسيا: كالوم هندرسون، ترجمة: فريق 1999 م، بيت الأفكار الدولية عمّان، صدمة المستقبل المتغيّرات في عالم الغد: ألفين توفلر، ترجمة: محمد ناصف، تقديم: الدكتور أحمد كمال أبو المجد1990 م، القاهرة: نهضة مصر.

[10]الأدب في عالم متغيّر: شكري عيّاد، الهيئة المصرية العامــة لتــأليف والنشــر 1978، القــاهرة ص:22.

[11]الحضارة، المثاقفة، المدينة (دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم): ناصر حامد عارف، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، منشورات الولايات المتحدة الأمريكية، والدار العاليــة للكتــاب الإســلامي الرياض، ص:78 ، ط2.، 1995

[12] انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب: الموصلي علي بن عَدْلان بن حماد بــن علــي الربعي، تحقيق: د حاتم صالح الضامن، ط. الثانية، 1405هــ 1985م، مؤسسة الرسالة، بيــروت ص:68، والفصول المفيدة في الواو المزيدة: العلائي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله، تحقيق: حسن موسى الشاعر، عمان، ط. الأولى، 1410هــ 1990م، ص:79، وشرح

صحيح البخارى: أبو الحسن بن بطـال البكـري القرطبـي، تحقيـق : أبـو تمـيم ياسـر بـن إبراهيم1423هـ- 2003م، ط.الثانية، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية 568/6.

13 لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد الخـازن1399 هـــ /1979 م، دار الفكر، بيروت، لبنان 1/ 33.

14 التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 1997 م، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 2/ 200 .

15لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط. الأولى19/9، تاج العـروس من جواهر القاموس: مرتضى، الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية63/23.

16 المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق محمـد سـيد كيلانـي، دار المعرفة، لبنان، ص: 79، التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المنـاوي، تحقيـق: د.محمد رضوان الداية، ط. الأولى ، 1410، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيـروت، دمشـق ص: 221.

17المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفىـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجـار تحقيـق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة1 /98.

18 أساس البلاغة: الزمخشري 1399هـ 1979م، دار الفكر، ص:74، تاج العروس من جـواهر القاموس: مرتضى الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية63/23،

19زهر الآداب وثمر الألباب: القيرواني، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، ط. الأولى1417 هـــ - 1997م دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان181/2،

20انظر: مفاتيح الغيب من القرآن الكريم: الفخر الـرازي، دار إحيـاء التـراث العربـى499/15 والجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبـد الـرحمن الثعـالبي، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات بيروت105/2، وجامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمـد محمـد شـاكر ط.الأولى ، 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة الرسالة23/14، و غرائب القرآن ورغائب الفرقـان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمـي النيسـابوري، تحقيـق: الشـيخ زكريـا عميـران ط.الأولى1416 هـ - 1996 م، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان411/3،

21 سورة الأَنْفال، الآية: 57.

22التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، 1997 م دار سحنون للنشر والتوزيع، تـونس 55/4 .

[23] سورة الممتحنة، الآية:2.

[24]تفسير الثعالبي 4/ 290، والجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي، تحقيق : هشام سمير البخاري1423 هـ/ 2003 م، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية54/18.

[25]تفسير السمعاني: أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم1418هـ- 1997م، دار الوطن، الرياض السعودية5/ 414.

[26]انظر نحو مثقافة مغايرة : جابر عصفور، ط.الأولى1428-2008، الدار المصرية اللبنانية ص:240-241.

[27] انظر نظام الخطاب:ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا، ط.2، 2007، دار التنوير، بيروت ص:49.

[28] نحو مثقافة مغايرة : جابر عصفور، ، ص: 241.

[29] انظر: نحو ثقافة مغايرة:جابر عصفور، ص:242.

[30]العرب وعصر المعلومات:د. نبيل علي، 1994، ص:293.

[31] الأدب العام المقارن: دانيال هنري باجو ، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب دمشق1997، ص:111.

[32]الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط3، 1988ـــ دار الآداب بيروت، ص:41 .

[33] اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط.الأولى، بيروت 2013، ص:248.

[34] شبكات التواصل الاجتماعي: د.فيصل معد عبد الغفار، ط.1، 2005، الجنادرية للنشر والتوزيع ص:17.

[35]مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص: 97.

[36]عصر البنيوية: كوزيل، ترجمة: جابر عصفور، ط. 1، 1993، دار السعادة، الكويت، ص:411.

[37] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ص: 99.

[38]سورة الحجرات، الآية: 13.

[39]سورة الحجرات، الآية: 13.

[40]سورة الأنعام، الآية: 148.

[41] اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، ص: 34.

[42] سورة المائدة، الآية: 48.

[43] سورة هود، الآية : 118-119.

[44]سورة البقرة، الآية: 256.

[45]حول العروبة والإسلام في الحوار القومي الديني: البشري طارق1989، مركز دراسات الوحـدة العربية، بيروت، ص:41.

[46] صورة الآخر في شعر المتنبي : الخبّاز، محمّد. المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشـر، بيـروت ط 1، 2009، ص: 22.

[47] إشكالية التحيّز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المسيري ، عبد الوهاب.. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكيّة، ط2 ، 1417 هـ - 1996 م ، 1/615.

[48] المرجع نفسه، ص 813.

[49] الأدب العام المقارن: باجو ، دانيال هنري. ترجمـة غسـان السـيد، اتحـاد الكتـاب العـرب دمشق1997، ص:111.

[50]حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة:محمد بنيس، ط.2، 1988، المركـز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص:32.

[51] ندوة مواقف الإسلام والحداثة: مجموعة حداثيين، ط.1، ، 1990دار الساقي، لندن، ص401.

[52]لبنات في المنهج وتطبيقه: د. عبد المجيد الشرفي، ط2. ، 2005، دار الجنوب للنشـر، تـونس ص:13.

[53] الشعرية العربية: أدونيس ط1.- 1985، دار الآداب ، بيروت ، ص:79.

[54] الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون، ترجمة هاشـم صـالح ط3، 1998م، دار السـاقي ص:86.

[55]الملامح الفكرية للحداثة: خالدة سعيد، مجلة فصول، مج الرابع، عـد الثالـث، 1984م القـاهرة ص:26.

[56]تحرير العقل من النقل : سامر إسلامبولي ، دار الأوائل سورية دمشق بلا تاريخ.ص:1.

[57] انظر الآثار الكاملة: أدونيس، ط. الأولى، 1971م، دار العودة، بيروت 1 /413 .

[58] Le nouveau système du monde (Actuel Marx) P. u. f, Paris, 1994. P: 173

[59] فهمي جدعان :أسس التقدّم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، عمّـان، دار الشـروق ط3، 1988 م، ص:392.

[60] سورة الروم، الآية:21.

[61] سورة الروم، الآية:21.

[62] سورة الروم، الآية:22.

[63] سورة الروم، الآية:22.

[64] سورة الروم، الآية:23.

[65] سورة الروم، الآية:24.

[66] سورة الروم، الآية:25.

[67] سورة الشورى، الآية:32.

[68] سورة النحل، الآية:72.

[69] سورة النساء، الآية:21.

[70] سورة المائدة، الآية: 7.

[71] سورة الأحزاب، الآية: 7.

[72] سورة النساء ، الآية: 1.

[73] سورة الأَعراف، الآية: 189.

[74] سورة الروم، الآية:21.

[75] .العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، د. إسماعيل علي محمد، الطبعـة الأولـى 1421هـ - 2001م، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ص: 27

[76] وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقـاهرة ، 1994/9/15م الترجمـة العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات 31-35.

[77] انظر العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد184، 1994، المجلس الـوطني للثقافة والفنون والآداب، ص:254.

إقرار المشترك من القيم الإنسانية في اتصال المؤسسات الدولية
دراسة تحليلية على عينة من المواقع الالكترونية

د. رقية بوسنان
جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

مقدمة: إن الكتابة عن القيم الإنسانية المشتركة ونشرها عبر وسائل الإعلام الالكترونية من الأهمية بمكان، وتزداد هذه الأهمية بكون وعائها الحامل لها يتجاوز الحدود المحلية والاقليمية ليصل بها إلى العالمية حيث يتم تعميمها على الجماهير العريضة باختلاف سماتها السيكولوجية والاجتماعية والدينية والثقافية.

وتعد المؤسسات الدولية السياسية والثقافية والدينية وما تتوفر عليه من وسائط إعلامية واتصالية من اهم روافد وآليات نشر القيم الإنسانية المشتركة، التي لا يختلف عليها مجتمع أو حضارة، تشمل هذه القيم: السلام، والعدل، والحرية والتسامح، والتعايش والحوار، وترفض هذه المؤسسات كل ما يسيء للإنسانية من عنف، وتطرف، وحرب، وعنصرية، وظلم، واستعباد.

وقد شمل البحث عينة من المواقع تشمل، موقع الأمم المتحدة باعتبارها منظمة عالمية تسعى للدفاع عن الشعوب والحد من التوتر بين الدول في دوائرها الكبرى او الصغرى، حيث يشاهد تحركها في مناطق الحروب والصراع التي تشتعل في ظل التناقض في الرؤى السياسية والأمنية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

تتنوع وتتعدد لغة هذه المواقع حيث يمكن للمتصفحين اختيار اللغة التي يفهمها للتعامل مع الموقع وما يوفره روابط تشعبية تحيل إلى الخدمات الإنسانية والاجتماعية، والتي يمكن أن انطلق منها لتحديد القيم المشتركة التي تسعى إلى تعميمها في الزمان والمكان في ظل متغيرات دولية متوترة، تتحول مع حياة الأفراد إلى جحيم في معظم الأحيانا خاصة في مواقع التوتر والحروب.

تستخدم الورقة في إطار عنوانها إلى تحليل الصفحة الاولى من المواقع والتـــي توفر التصور شبه كلي عن الموضوعات والقضايا المثارة عبر الأخبار والتحليلات والتقارير التي توفر مادة هامة عن موضوع البحث، وقد تضـــطر الباحثـــة إلـــى استخدام الروابط التشعبية للإطلاع على التفاصيل التي تخدم الموضـــوع مباشـــرة وتدعم هذه المضوعات عادة، بعناصر عرض مثل الصـــور، والفيـــديوهات التـــي تسهل وتعمق من عملية نشر القيم المشتركة، بالإضافة إلى نوع اللغة التـــي تنشـــر بها، وسوف يت متناول الدراسة وفقا للمحاور الآتية:

أولا: مفهوم القيم الإنسانية وأهميتها في عالم متغير

ثانيا: دور وسائل الإعلام في نشر القيم الإنسانية

ثالثا: الدراسة التحليلية لمواقع المنظمات الدولية

أولا: مفهوم القيم الإنسانية وأهميتها في عالم متغير

1- **مفهوم القيم الإنســـانية:** تتنوع مفاهيم المفكرين حول القيمة ويمكن إعطـــاء بعض التعريفات كالآتي:

- هي بمثابة اتجاه النظر من خلال الواقع أو هي ميزان للواقع بالنسبة للفاعـــل ومشاعره ورغباته واهتماماته وأهدافه وحاجاته وأفعاله، فهي تعبر عن تقـــديره أو عدم تقديره للواقع[1].

- "هي كل ما هو جدير باهتمام المـــرء وعنايتـــه لاعتبـــارات اقتصـــادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية، فهي بالمعنى الواسع ما يجعل أي شيء جديرا بأن يطلب أو يتحقق"[2].

- وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشـــيء مطلوبـــا ومرغوبا عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص، ويطلق لفظ القيمـــة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء صفات تجعله مستحقا للتقدير كثيرا أو قليلا، فإن كان مستحقا للتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقـــة

وإن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية والوسائل التعليمية كانت قيمته إضافية[3].

– الحكم الذي يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي وضعها المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك، وقد بلور"كلاكون" المعاني السابقة في قوله:" القيمة مفهوم تجريدي ظاهر أو ضمني يميز الفرد أو الجماعة للمرغوب فيه الذي يؤثر على اختياراتنا من عدة بدائل لطرق ووسائل وأهداف السلوك" والمرغوب فيه هو الذي يوجه السلوك نحو الأفضل أو الأصوب أو الأجمل[4].

– مجموعة الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية يتشربها الفرد من انفعاله وتفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولا من جماعة اجتماعية معينة حتى يتجسد في سياقات الفرد السلوكية.

وهي تعني في الإسلام الحكم الذي يصدره الإنسان المسلم على شيء ما مهتديا بمعايير شرعية تحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من منطلق القرآن والسنة فالعقيدة هي منبع القيم وهي ثابتة بثباتها[5].

ويقصد بالقيم الإنسانية على محتوى البحث، بأنها معايير للتعامل الإنساني في المجالات المختلفة، الاجتماعية، السياسية والاقتصادية، والتربوية والإعلامية ونشرها عبر مواقع المؤسسات الدولية.

2-أهمية القيم الإنسانية في عالم متغير: إن أهمية دراسة القيم لا تقف داخل نطاق الفكر الفلسفي وحده بل تتعداه، فالقيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية والإعلامية، وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صورها.

ويمر العالم بتغيرات مختلفة، ويوحي السياق بأن ثمة تفوق واضح للغرب في إدارة المرحلة الراهنة، بكل الوسائل والأساليب، ويحاول فرض منظومة قيمه

بإبراز أهميتها في جميع المجالات، وضرورة اعتناقها من أجل حياة أفضل، ولعـــل في انتشار قيم الحرية وحقوق الإنسـان، والامـن والعـدل والسـلام، والحـوار والتعايش، والتعاون، ما يؤكد هذا التوجه وإن كان يخفي في أجندتـه مـا يعطـل تفعيلها من وجهة نظري.

ويروج الغرب لهذه القيم عبر وسائل الإعلام المختلفة في مختلـف المؤسسـات ومنها الدولية، كالأمم المتحدة والبنك الدولي، ومنظمة التجارة، ولست بصدد مناقشة الجوانب السلبية وأثارها على المجتمعات الإسلامية والعربية، فالموضـوع محـدد بالبحث عن القيم المشتركة في إعلام هذه المؤسسات بالتجـاور مـع المؤسسـات الدولية الإسلامية ومنها منظمة التعاون الإسلامي، ويمكن حصر أهمية هذه القـيم في مجالات مختلفة كالآتي:

أ_أهمية القيم الإنسانية في المجال الاجتماعي: تعتبر القيم فـي هـذا المجـال ضرورة اجتماعية، فهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتجاهات، ودوافع، وتطلعـات وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلـب ارتباط هؤلاء الأفراد، وتعبر القيم عن نفسها في قوانين وبرامج التنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعية[6].

وتعمل القيم في هذا المجال كمعايير للضبط الاجتماعي، من خلال ما تقوم بـه من وظائف في حياة الفرد والمجتمع واستقرار النظم الاجتماعية، وهي تشمل بهـذا التكافل والتعاون، والاحترام، والتسامح، ويضع القـرآن الكـريم منظومـة القـيم ولأهميتها في إطار من القداسة، ويعتبرها الطاقة الكبرى لترقية الإنسان والمجتمـع والعالم وضبط حركته على الأرض، والترقية هنا تشمل ضـمير الفـرد وضـمير الجماعة أيضا كما تشمل أيضا دوافع العمل والحركة لبناء الذات وعمـارة الأرض وتحصينها من الانحراف ، فالقيمة ثابتة بذاتها ومتحركة في إطار الفهم والتطبيـق ولا يمكن لأي مجتمع أن يسير للأمام من دون حصانة قيمية، ولعـل الإصـابات

والتحولات التي طرأت على منظومة القيم[7]،هي من أسباب السقوط في الآفات الاجتماعية المختلفة.

إن تخلي الإنسان عن هذه القيم يفقده معنى وجوده في مجتمعه وفي الحياة وأن ما تحض عليه الديانات السماوية هو أن يكون الفرد هو ذاته أينما كان و أن يجتهد في صنع القيم الإيجابية ويعمل على توكيدها، وعند فقدان هذه القيم يكون قد فقد هويته الذاتية، إذ أن الحكم الأخلاقي واتخاذ القرار يجب أن يكونا متأصلين في قدرة الإنسان على التقييم ، وبمقدار ما يحمل المرء في نفسه وتكوينه من قوة وأصالة فإنه يتمكن من تحديد معالم الواقع الذي يعيشه والذي تنعكس فيه القيم، فمن واقعه هذا يتلقى المسببات الأساسية التي تتيح له نسج مقومات القيم الراسخة ، ومن خلال ذلك يستطيع أن يتعلم حدود مسؤوليته الأخلاقية والاجتماعية ، وبممارسة الفرد نشاطه فإنه يتسنى له أن يختار طريقة تحديد وتأكيد ما يسعى إليه من أهداف تحكم وعيه الإدراكي، مما يؤهله في المآل من استبان السبل المفضية إلى كيفية بناء القيم الإيجابية وتعزيز مكانتها[8].

تدفع هذه القيم، الإنسان إلى تغيير واقعه وحاله ليتطلع إلى الكمال المنشود، فهو المخلوق الوحيد الذي يتميز عن غيره من الكائنات بالشعور الواعي والإدراك العاقل بما ينبغي أن يفعله وما ينبغي عليه فعله[9].

ب- أهمية القيم الإنسانية في المجال السياسي: تتضمن القيم السياسية على المستوى الداخلي، مهارات صنع القرار حول القضايا العامة والمشاركة في الشؤون العامة، وهي تعزز في نفوس الناشئة المعتقدات والقيم السياسية التي تمثل حجر أساسي للنظام الديموقراطي ومنها الاعتراف بالحقوق لكرامة الفرد وواجب كل المواطنين نحو دعم المؤسسات التي تجسد الاحساس المشترك بالعدل والمساواة وسيادة القانون[10]، بينما تتضمن على المستوى الخارجي مهارات التعامل الدولي

وتفعيل العلاقات الدولية وفقا للقوانين والاتفقيات التي يجب ان تحترم مـن جميـع الدول.

ويمكن القول أن المجال السياسي من أهم المجالات التي يطرق فيهـا مبحـث القيم، وهو مجال متعدد الحقول، لاعتبار الممارسات السياسية الدوليـة أو المحليـة ومن شأن المعايير المصنفة داخله أن تؤدي إلى ضبطها وترشيدها، وتشمل الأمـن والعدل والسلام والاستقرار، والحوار، واحترام القانون الدولي، وحقـوق الإنسـان وهي تعدل من الغلو الملحوظ والتطرف المنتشر، والمصالح المادية التـي تسـود العلاقات الدولية، والتي تحولت معها حياة الأفراد إلى معاناة دائمة، تشـيع معهـا مظاهر الانقسام والحروب والثورات التي أدت إلى هدم البنى الأساسية في الـدول المستضعفة وهي في جلها تنتمي إلى العالم العربي والقارة الافريقية عموما.

إن التغول الذي فرضته العولمة السياسية عبر المنظمات الدولية، تجعل الباحث يسأل عن جدواها في تهذيب السلوك الدولي وكشف الاجندة الاجنبية التي تمـارس السياسة الاقصائية أو ذات المعايير المزدوجة في ترويج القيم لدى مختلف الـدول فالحديث مثلا عن حقوق الانسان كقيمة سياسية انسانية، تختلف مـن مكـان إلـى مكان، فهي مفعلة في العالم الغربي، ومثبطة في العالم العربـي، فـلا نشـعر إلا بالتوتر إزاء تطبيقها كما هو حال الأمم المتحدة في إعلامها الذي تعرب فيه دائمـا عن قلقها لانتهاكها.

ويعد طرح القيم في هذا المجال، دعوة إلى التخلي عن ازدواجية التعامـل مـع الانسان في أي مكان، فلا يمكن الحديث عن سلام وعدل واستقرار وأمن واحتـرام حقوق الإنسان في بيئات سياسية، وصرف النظر عنها في بيئات اخرى، فالحال هو في تفاعل هذه البيئات، والأثر والتأثر يكون إيجابيا بانتشار القيم الإجابية، ويكـون سلبيا بانتشار نقيض هذه القيم، فالارهاب والتطـرف، والعنـف وانتهـاك حقـوق

الانسان يمكن أن تتعدى البيئة المنتشرة فيها إلى بيئات تظن انها بمناى عنها، وقد شاركت في صناعتها ورعايتها عبر مخابر سياسية وأمنية لا يسع المجال لذكرها.

ج- أهمية القيم الإنسانية في المجال الاقتصادي: يبدو ان توصيف واقع هذا الجانب الحيوي أو عصب الحياة يتطلب تركيزا خاصا لا تسعه هذه الورقات، ومع هذا يمكن عطاء التصور الكلي لهذا الواقع بعيد عن الجزئيات والتفاصيل، فالواقع أن حال الاقتصاد اليوم يوحي ان التفوق هو لصالح الدول الغربية، التي تكارس كل الضغوط لإبقاء التخلف في الدول الإسلامية والعربية والتي تعاني من مشاكل متعددة، ومنها مشكلة الديون، وانخفاض العملة، والاستثمار، والعمالة وغيرها، ولا يمكن ان يحدث التغيير إن لم تتمكن مجتمعة ان تنهض باقتصاد قوي يضمن استقلاليتها من كل الجوانب.

وتقوم القيم الاقتصادية وعلى رأسها قيمة التنمية بدور فاعل لتحرير الدول المتخلفة من التبعية، فهي التي تفي باحتياجات الأجيال الحالية دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على الوفاء باحتياجاتهم، وللتنمية أبعاد مختلفة، ومجالات متعددة تمكن من خلال التخطيط والتنظيم وقيم العمل والاتقان إلى تجاوز الافات المختلفة كالفقر والبطالة والتخلف.

وحتى وإن ظهرت قيم أخرى مصاحبة لها ومنها المساعدات الغذائية التي تقرها المؤسسات الدولية في برامجها، إلا انها ظاهرة غير صحية تحول دون التفكير في تحسي الاوضاع الاقتصادية خاصة في الدول التي تضررت من الأزمات التي ألمت بها، كالتقسيم وانتشار الحروب، بسبب الاطماع الغربية المجسدة في مشاريع لا تسمح بالنهوض الاقتصادي.

إن إشاعة القيم الاقتصادية، تعني الحث على الإنتاج والتسيير بفاعلية لتحقيق شروط التقدم العلمي والثقافي عن طريق تسخير جميع الإمكانات الأولية والإمكانات المستوردة، "وتوجيه نمو الفرد الإنساني وجهة ترتضيها الجماعة

ويتعارف عليها الناس ويقرها النظام السائد في التعامل الاقتصادي، خاصة فيما يتعلق بجانبي الإنتاج والاستهلاك، بوصفهما الركيزة الأساسية لحياة الأفراد والمجتمعات"[11].

د-أهمية القيم الإنسانية في المجال التربوي: تعد التربية من أهم المفاهيم التي ركزت عليها البحوث الاجتماعية وتناولتها الأقلام بالدراسة والتحليل كونها أحد أبرز العوامل التي تهدف إلى بناء الشخصية الفردية والجمعية والأممية والحضارية، فهي منبع أصيل للقيم الانسانية والإسلامية على حد سواء.

ويدل مفهوم التربية على مفهوم التغير في السلوك وعلى تطوير التربية وفق التطور التكنولوجي، ودور التربية الفعال يتمثل في إثراء الخير كأساس لنمو نظم إجتماعية تربوية تتلاءم مع تغير النظم الثقافية[12]، فهي وسيلة وهدف وجهد اجتماعي، وهي تنمية وتهذيب ومشاركة وسلوك، وتغيير وتطوير للفرد والمجتمع.

وتتنوع القيم في هذا المجال لتشمل، حب الوطن، ومحاربة الجهل، والمحافظة على البيئة، والتعليم، وهي القيم التي تعمل على تطوير الأداء المتعلق بالفرد وتوفير بيئة صحية لتنشئته، ومنها الارتقاء بالعمل في الحقل التربوي.

ه- أهمية القيم الإنسانية لفي المجال الاعلامي: يحوز المجال الإعلامي على اهتمام واسع من طرف الباحثين، خاصة بعد التطور الذي شهدته وسائله والتي حولت العالم إلى قرية، وانتشرت معها مفاهيم متعددة وممارسات مختلفة، إيجابية وسلبية، وتعد وسائل الإعلام الوعاء الحامل لمختلف القيم المصاحبة للمعلومة سواء كانت أخبارا أم آراء، ومن اهم القيم الإعلامية التي ركزت الأدبيات الإعلامية على دراستها، قيم الحرية، والمضوعية، والمصداقية، والعدالة، وهي تختلف من نظام إعلامي إلى آخر، وقد حرصت في هذا البحث على التركيز على الإيجابية لتجاوز نقيضها مما يشيع حاليا في وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل التواصل السريع من القذف والتحريض والشتم والسب والاستهزاء وانتهاك الخصوصية الشخصية.

وتحث جميع مواثيق الشرف والقوانين الإعلامية على مسؤولية الكلمة والارتقاء بها لبناء مجتمعات يسودها الاستقرار، والابتعاد عن المعلومات المغرضة والشائعات التي تقوض البناء الاجتماعي وتهدد أفراده، خاصة في ظل التدفق الأحادي الاتجاه الذي يتفوق فيه العالم الغربي في صناعة المعلومة والترويج لها.

ثانيا: دور وسائل الإعلام في نشر القيم الإنسانية

- **الوظيفة الإخبارية:** ومن خلالها يتم عرض المعلومات الآنية والحديثة التي تتضمن مختلف القيم الإنسانية، ، حيث يلفت الخبر كفن إعلامي إلى المادة الخام التي تنشر هذه القيم يتعلق بها، ويعطي مجالا للتحليل والتعليق والتقرير حولها تقوم هذه الفنون بإثراء مناقشة الجانب القيمي في أجندة المؤسسات الدولية والتركيز على اهميتها واستشراف مستقبلها في ظل عالم متغير، تحاول بعض أطرافه فرض منطق القوة وازدواجية المعايير في التسيير.

وتحاول هذه الفنون الإعلامية نقل المشترك من القيم التي تؤمن بها المؤسسات الدولية، وتعميميها في الزمان والمكان، لمحاصرة ومغالبة المشكلات والأزمات التي تعصف بإنسانية الإنسان، وتهدم بنى مجتمعاته، لتحل الفوضى ويحل العنف والتطرف، والتي أصبحت صورا للحياة اليومية لمجتمعات هي الآن بمثابة ساحات للقتال والحروب، كما أريد لها داخليا وخارجيا.

- **الوظيفة الإعلانية:** وهي وظيفة هامة للغاية في التسويق للقيم الإنسانية، تقوم على العرض الفني للمحتوى، مدعما بالصور الثابثة أو المتحركة، ويسهم في توضيح الصورة الحقيقية عن أنواع القيم، التي تعمل المؤسسات المختلفة على دعمها من أجل حياة أفضل، وتراهن الكثير من الجهات على الاعلان لكسب الدعم من الجمهور المشاهد، واعتناقها والامتثال لها.

ويسهم الإعلان عبر أساليبه في إبانة الوضع الحقيقي للمجتمعات التي قدر لها أن تكون مسرحا للأزمات، فالصور المصاحبة تغني عن آلاف الكلمات، وهي تنقل

بدقة الانتهاكات الدولية لما تسميه حقا للحياة الكريمة عبر صور الدمار والأشلاء والجوع والفقر، والجهل، وهذا من شأنه أن يحرك مشاعر كل المنظمات الدولية التي تسعى من خلال برامجها الارتقاء بالإنسان في كل مكان.

– **الوظيفة التثقيفية:** تشمل الثقافة في صيغتها الأنثربولوجية على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة والعادات والأخلاق، كما تشتمل على مختلف موضوعات الحياة اليومية، وهي في جوانبها السيكولوجية تعبر عن كل مكتسب من المبادئ الثقافية والتصورات الجمعية والنماذج والرموز المرجعية[13].

وتتم الوظيفة التثقيفية عن طريق عرض برامج عامة او متخصصة تشيع القيم في جوانبها المادية والروحية، وتعمل على ترسيخ وغرس المعلومات المتعلقة بها لدى الأفراد، ومنها نشر الوعي بمدى الجدوى منها على كل المستويات، وتحرص هذه البرامج على معالجة موضوعات القيم بطريقة احترافية، يكون فيها مستوى التحليل دقيقا، باعتبار عمق الموضوع وتشعبات طرحه.

وتتعدد البرامج الثقافية من ناحية العرض، فهي تشمل البرامج الفنية، والبرامج الوثائقية، والبرامج الفكرية، والبرامج التراثية، وهي حبلى بأنواع القيم الإنسانية التي تعبر عن تقاطع الحضارات وتعايشها، بعيدا عن دعاوى الصراع والتنظير لها، من طرف أعلام الغرب، كهنتغتون، وفوكوياما، وبرنارد لويس، وبعيدا عن سياسات الاستئصال التي تمارسها حكومات بعض الدول الكبرى.

– **الوظيفة التعليمية:** تسعى من خلالها الجهة الإعلامية المسؤولة على تعليم الأفراد كل ما يتعلق بمجال القيم الإنسانية، فتتحول إلى ممارسة من طرف الأفراد ويعتنقها عن دراية مسبقة، فيزال اللبس عن تقاطعها بأشكال قد تتشابه معها، كما يزال عن طرق نشرها بالطرق المشروعة التي وضعت لها، وقد صار عقد الندوات العلمية وبثها عبر الشبكات الاجتماعية ديدن العديد من الجهات التعليمية خاصة على مستوى التعليم العالي.

يتشارك في هذه الوظيفة المؤسسات التربوية، والمؤسسات المدنية، والمؤسسات الدينية، وكلها تحرص على تنشئة الأفراد وفقا لمنظومة قيمية لا تتعارض مع أعراف وعادات المجتمع، كما لا تتعارض مع التوجه العالمي والقانوني في ترتيب سلم القيم الإنسانية، والدفاع عنها وضرورة احترامها من الجميع وخاصة على المستوى السياسي الذي يشهد تناقضا واضحه في توجهاته القائمة حاليا، إذ نشهد فوضى تطبيق القيم وتداولها، وإن أقرتها المنظمات الدولية في مواثيقها.

- **الوظيفة التوجيهية:** تعمل على توجيه مدارك الأفراد إلى فهم أهمية القيم في المجتمعات، والإسهام في تطوير تصوراتها في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية، والإعلامية، وتؤمن هذه الوظيفة ضرورة أن يسلك الأفراد الوجهة الصحيحة في اعتناقها وتمثلها في السلوك، ومن شأن هذه الوظيفة أن تعمل على نشر الوعي بين الأفراد للمحافظة على استقرار مجتمعاتهم وأمنها، بدل الانصات لدعوات الانقلاب والتفرق وإحلال لغة العنصرية.

ثالثا:الدراسة التحليلة لمواقع المنظمات الدولية

1-توصيف عينة الدراسة:

- **منظمة الأمم المتحدة:** الأمم المتحدة هي منظمة دولية انشئت في عام 1945، وتتكون حتى الآن من 193 دولة عضو. وتسترشد الأمم المتحدة في مهمتها وعملها بالأهداف والمقاصد الواردة في ميثاق تأسيسها، ونظرا للصلاحيات المخولة في ميثاق المنظمة وما تتمتع به من طابع دولي فريد، فإن بإمكان الأمم المتحدة العمل على قضايا تواجه الإنسانية في القرن الـ21، مثل قضايا السلم والأمن وتغير المناخ والتنمية المستدامة وحقوق الإنسان ونزع السلاح والإرهاب وحالات الطوارئ الصحية والإنسانية والمساواة بين الجنسين و الحوكمة وإنتاج الغذاء وغيرها كثير.

وتتيح الأمم المتحدة لأعضائها منتدى للتعبير عن وجهات نظرهم من خلال الجمعية العامة ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي وغيرها من الأجهزة واللجان. ومن خلال تيسير الحوار بين أعضائها، واستضافة المفاوضات كذلك، أصبحت المنظمة آلية للحكومات لإيجاد مجالات الاتفاق وحل مشاكلها مع بعضها بعضا.

– **منظمة التعاون الإسلامي:** تُعد منظمة التعاون الإسلامي ثاني أكبر منظمة حكومية دولية بعد الأمم المتحدة، حيث تضم في عضويتها سبعًا وخمسين دولة موزعة على أربع قارات. وتُمثل المنظمة الصوت الجماعي للعالم الإسلامي وتسعى لحماية مصالحه والتعبير عنها دعماً للسلم والانسجام الدوليين وتعزيزاً للعلاقات بين مختلف شعوب العالم.

وقد أُنشئت المنظمة بقرار صادر عن القمة التاريخية التي عُقدت في الرباط بالمملكة المغربية في 12 من رجب 1398 هجرية (الموافق 25 من سبتمبر 1969 ميلادية) ردًا على جريمة إحراق المسجد الأقصى في القدس المحتلة.

عُقد في عام 1970 أول مؤتمر إسلامي لوزراء الخارجية في جدة بالمملكة العربية السعودية، وقرر إنشاء أمانة عامة يكون مقرها جدة ويرأسها أمين عام للمنظمة. ويعتبر الدكتور يوسف بن أحمد العثيمين الأمين العام للمنظمة الحادي عشر، حيث تولى هذا المنصب في نوفمبر 2016.

وجرى اعتماد ميثاق منظمة التعاون الإسلامي في الدورة الثالثة للمؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية في عام 1972. ووضع الميثاق أهداف المنظمة ومبادئها وغاياتها الأساسية المتمثلة بتعزيز التضامن والتعاون بين الدول الأعضاء. وارتفع عدد الأعضاء خلال ما يزيد عن أربعة عقود بعد إنشاء المنظمة من ثلاثين دولة وهو عدد الأعضاء المؤسسين، ليبلغ سبعًا وخمسين دولة عضوًا في الوقت الحالي. وتم تعديل ميثاق المنظمة لاحقًا لمواكبة التطورات العالمية، فكان اعتماد الميثاق

الحالي في القمة الإسلامية الحادية عشرة التي عُقدت في دكار، عاصمة السنغال عام 2008 ليكون الميثاق الجديد عماد العمل الإسلامي المستقبلي بما يتوافق مع متطلبات القرن الحادي والعشرين.

وتنفرد المنظمة بشرف كونها جامعة كلمة الأمة وممثلة المسلمين وتناصر القضايا التي تهم ما يزيد على مليار ونصف المليار مسلم في مختلف أنحاء العالم. وترتبط المنظمة بعلاقات تشاور وتعاون مع الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الحكومية الدولية بهدف حماية المصالح الحيوية للمسلمين، والعمل على تسوية النزاعات والصراعات التي تكون الدول الأعضاء طرفًا فيها. واتخذت المنظمة خطوات عديدة للدفاع عن القيم الحقيقية للإسلام والمسلمين وتصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة، كما ساهمت بفاعلية في مواجهة ممارسات التمييز ضد المسلمين بجميع صورها.

2- **تصنيف فئات الدراسة:** اعتمدت الباحثة في تقسيم انواع القيم على المجالات المختلفة، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية والإعلامية وركزت على انواع صحفية بعينها وأهمها الخبر والمقابلات، بالإضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي، كاليوتيوب في موقع الأمم المتحدة، واليوتيوب وتويتر في موقع منظمة التعاون الإسلامي، واستخدمت وحدة الكلمة والمعنى في تحديد هذه القيم، ثم تم عرضها في الجداول التكرارية، حيث يتم قراءتها كيفيا، كما أضافت الباحثة عناصر لتدعيم هذه القيم من الأشكال التحريرية، والوسائط الاتصالية وانواع اللغة المستخدمة.

جدول رقم1: انواع القيم المشتركة في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
اجتماعية	14	11.86	07	25.92
السياسية	64	54.24	10	37.04
اقتصادية	26	22.03	07	25.92
التربوية	14	11.86	03	11.11
المجموع	118	100	27	100

يشير الجدول إلى أنواع القيم التي تتضمنها اخبار ومقابلات الموقعين، بالإضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي المتمثلة في اليوتيوب وتويتر، والملاحظ ان النسب تختلف من نوع إلى اخر وتساوى في بعضها، وقد جاء القيم السياسية في الترتيب الأول في الموقعين، ويعود ذلك إلى طبيعة المرحلة التي تمر بها الدول وخاصة التي تنتمي للعام الثالث، ومنها الدول العربية كسوريا، وليبيا واليمن، وجاء القيم الاقتصادية في الترتيب الثاني بالنسبة لموقع الامم المتحدة، وتساوت مع القيم الاجتماعية في موقع منظمة التعاون الإسلامي، ويرجع هذا الترتيب إلى كون الاقتصاد قطاع هام يخضع للمتغيرات السياسية، ويتأثر بمنظومة التسيير داخل العوالم المتخلفة أو النامية مما يجعل التركيز كله في هذه العوالم.

جدول رقم2: أنواع القيم الاجتماعية في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم الاجتماعية	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
التسامح	01	07.14	02	28.57
التعاون	07	50.00	04	57.14
التكافل	03	21.43	01	14.28
الكرامة	03	21.43	-	-
المجموع	14	100	07	100

يشير الجدول إلى أنواع القيم الاجتماعية، في موقعي المنظمتين، وتتباين فيما بينها من حيث الترتيب، فنجد قيمة التعاون في الترتيب الاول وهي القيمة التي تظهر في تعاون المنظمات الدولية والمؤسسات السياسية في مجال تطوير المجتمعات وتقديم المساعدات، بينما جاءت بقية القيم بنسب متقاربة، وحلت قيمة التسامح في الترتيب الاخير بالنسبة لموقع الامم المتحدة، وقيمة التكافل في موقع منظمة التعاون الإسلامي.

جدول رقم3: انواع القيم السياسية في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم السياسية	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
الامن	10	17.86	03	33.33
الحرية	02	03.57	01	11.11
السلام	06	10.71	02	22.22
المساواة	03	05.36	-	
الاستقرار	08	14.28	02	22.22
الحوار	04	07.14	01	11.11
حقوق الانسان	14	25.00	-	-
احترام القانون الدولي	09	16.07	-	-
المجموع	56	100	09	100

تتعدد أنواع القيم السياسية في الجدول وتتفاوت نسبها من قيمة لأخرى، خاصة في موقع الأمم المتحدة، وتتطابق معظمها في موقع منظمة التعاون الإسلامي فجاءت قيمة حقوق الإنسان في الترتيب الأول بالنسبة لموقع الأمم المتحدة، ويفسر ذلك بكون انه المجال الاهم الذي تنشط به ويظهر في مواثيقها بشكل جلي نظير التطرف والحروب التي تسود مناطق التوتر ومنها المنطقة العربية وبعض دول

افريقيا، فقد وردت هذه القيم في سياق تشريح الوضع في الـــيمن وســـوريا وليبيـــا بينما جاءت قيمة الأمن في الترتيب.

جدول رقم4: انواع القيم الاقتصادية في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم الاقتصادية	الأمم المتحدة		منظمـــــة التعـــــاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
التنمية	09	34.61	03	42.86
المساعدة(الغذاء)	15	57.69	04	57.14
الرفاهية	01	03.85	-	-
العمل	01	03.85	-	-
المجموع	26	100	07	100

يشير الجدول إلى اهم القيم الاقتصادية التي تحاول المنظمتـــين إبرازهـــا فـــي موقعيها، إلا أنها ظهر بشكل كبير في موقع منظمة الامم المتحدة، حيث ترد فيهـــا الكثير من المعلومات على شكل تقارير واخبار وهي محينة على غـــرار منظمـــة التعاون الإسلامي، وكما هو واضح فقد حلت قيمة المساعدة في الترتيب الاول في الموقعين، هذه القيمة تركزت في المساعدات الغذائية التي تقدم لفقراء العالم، ومنهم فقراء الدول الافريقية على وجه التخصيص وبعض الدول غير المستقر كاليمن.

وجاءت في الترتيب الثاني قيمة التنمية التي تركزت في الخطط التي يجب على دول العالم الثالث الالتزام بها لتطوير مجالات بعينها ومنها مجال الانتاج، ومجـــال المرأة، هذه القيمة وبالرغم من تعدد ورودها والحديث عنها، إلا اننا لم نـــرى لهـــا أثرا على أرض الواقع، خاصة في بعض الدول الفقيرة من افريقا، والسبب بالتحديد يعود إلى الاستعمار ونفوذه واستغلال ثرواتها من غير العمل على التوزيع العـــادل للثروة، وتعد الدعوة لها من باب التوجيه وليس من باب التفعيل.

جدول رقم5: انواع القيم التربوية في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم التربوية	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
حب الوطن	–	–	–	–
محاربة الجهل	01	07.14	–	–
المحافظة على البيئة	06	42.86	–	
التعليم	04	28.57	03	100
الاحترام	03	21.43	–	–
النظافة	–	–	–	–
المجموع	14	100	03	100

بالنظر إلى القيم التربوية على مستوى الجدول، فإنها وردت بشكل قليل في موقع الامم المتحدة وبشكل شبه منعدم في موقع منظمة التعاون الإسلامي، بالرغم من اهمية هذا المجال وقيمه في ترشيد المجالات الأخرى، فالتربية لم يعد مفهوما ضيقا مرتبطا بعملية توجيه سلوك الأفراد، إنما هو مفهوم جامع ومانع لتنشءة مستمرة تعمل على تطوير وتنمية المجتمعات.

وقد جاءت في الترتيب الاول قيمة المحافظة على البيئة الذي اقترنت بتغير العوامل الطبيعية ومنها تغير المناخ والكوارث، حيث حثت منظمة الامم المتحدة على ضرورة الاهتمام بالبيئة وانقادها من العوامل والتغيرات الطبيعية عن طريق وضع مخططات لذلك، وجاءت في الترتيب الثاني قيمة التعليم، فأشار الموقعين إلى ضرورة وضح خطة واضحة لتعميم التعليم واصلاح المؤسسات التعليمة خاصة في المناطق التي تشهد التوتر.

جدول رقم6: انواع القيم الإعلامية في موقعي المنظمتين

المنظمات / أنواع القيم الإعلامية	الأمم المتحدة		منظمـــــة التعـــــاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
المصداقية	02	66.66	–	–
الحرية	01	33.33	–	–
الالتزام	–		–	–
الحياد	–		–	–
العدالة	–		–	–
المجموع	03	100	–	–

ألاحظ من خلال الجدول غياب الاهتمام بالقيم الإعلامية في موقعي المنظمتـــين بالرغم من اهميتها، فالعصر عصر إعلام واتصال بامتياز، والدعوة للاهتمـــام بـــه من الاولويات، فهذا المجال مسؤول عن تحرير المعلومة وتوجيه إدراك الشـــعوب وإطلاعها على القضايا والأحداث التي تسيطر على الساحة الدولية والتـــي تخلـــق احيانا علاقات التوتر بسبب تحريف المعلومات، وتضخيمها والحرص على الإثارة فيما لا يخدم القيم الانسانية في مجموعها، ومع ورود قيمتـــين فـــي موقـــع الامـــم المتحدة كالمصداقية والحرص على المعلومات الجادة، وقيمة الحرية، فهـــو بـــاب التنبيه لاغير.

جدول رقم6: العناصر المدعمة لتسويق القيم المشتركة

المنظمات / انواع العناصر	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
مواقع التواصل الاجتماعي	06	24.00	22	42.31
الصور	07	28.00	14	26.92
البيانات	04	16.00	12	23.08
الوثائق	08	32.00	04	07.69
المجموع	25	100	52	100

تستخدم المنظمتان مختلف العناصر الداعمة لنشر القيم الأنسانية، فتاتي الوثائق في الترتيب الاول بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة، تليها الصور، ثم مواقع التواصل وأخيرا البيانات وذلك بنسب متقاربة، بينما يأتي في الترتيب الأول مواقع التواصل الاجتماعي وتحديدا تويتر في موقع منظمة التعاون الإسلامي وبنسبة مئوية كبيرة تليها الصور ثم البيانات، وأخيرا الوثائق، ويخضع هذا الترتيب تحديدا لحجم العينة المستخدمة، كما يرجع إلى اولوية المنظمة في هذا الاستخدام من أجل نشر القيم ودعمها.

جدول رقم7:أنواع الأشكال التحريرية المتضمنة للقيم

المنظمات / الاشكال التحريرية	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
الأخبار	63	86.30	21	56.76
التقارير	01	01.37	02	05.40
المقابلات	03	04.11	12	32.43
القصص المصورة	06	08.22	00	00
المقالات	00	00	02	05.40
المجموع	73	100	37	100

تتعدد أشكال التحرير الالكتروني في موقعي المنظمتين، وهي الأشكال المساعدة على نشر القيم وتدعيمها وتعميمها، ويعد الخبر من اهم هذه الأشكال حي جاء في الترتيب الأول، ويعد هذا النوع العمود والمنطلق لبقية الأشكال حيث تاخذ منه المادة الخام، وتعيد صياغتها وفقا للقوالب الأخرى، وعادة ما يحمل الخبر سواء كان قصير أو مركبا أنواع القيم وبشكل مفهوم وبسيط ومحدد، ويتفوق موقع منظمة الامم في نشر الأخبار وتحيينها على موقع منظمة التعاون الاسلامي، ويتسم بمواكبة المعلومات المتعلقة بمناطق التوتر تحديدا بالرغم من العناوين الدائمة والمستقرة على إبداء قلق المنظمة من الاحداث فيها.

جدول رقم8:أنواع اللغات التي يستخدمها موقعا المنظمتين

المنظمات / انواع اللغة	الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
	ت	%	ت	%
العربية	1	25.00	1	33.33
الانجليزية	1	25.00	1	33.33
فرنسية	1	25.00	1	33.33
لغات اخرى	10	25.00	0	00
المجموع	13	100	03	100

تتعدد اللغات في موقع منظمة الامم المتحدة، حيث تشمل 10 لغات، وهي تسعى بذلك نحو تعميم نشر القيم باستخدامها، من خلال المحتوى الموحد المتواجد على الموقع، وهو محتوى ثري من ناحية المعلومات والصور والوسائط المتعددة، بينما يكتفي موقع منظمة التعاون الإسلامي على نشر المحتوى بثلاثة لغات هي العربية والفرنسية، والانجليزية، وهو برأيي تقصير واضح، فهناك لغات أقوى يتم عن طريقها تعميم القيم التي تسعى المنظمة نحو نشرها، بدل من اللغة الفرنسية تحديدا.

نتائج الدراسة:

- يعد نشر القيم الإنسانية عبر موقعي المنظمتين، من الاهمية بمكان في ظــل المتغيرات الدولية التي يعيشها العالم، وتعيشها مناطق التوتر والحروب، ومن شأن نشرها أن يخفف من ذلك.

- ينشر موقعا المنظمتان قيما إنسانية مختلفة ومتعددة المجالات، ومنهــا: قــيم الامن والسلام، والمساعدة، والتنمية، وهي القيم التــي يمكــن أن ترتقــي بوضــع المجتمعات التي تعاني الفقر والتخلف بسبب الحروب وازدواجيــة المعــايير فــي التعامل مع الأزمات التي تطغى على الساحة العربية

- يختلف الموقعان في نسبة نشر القيم الإنسانية، ويعود ذلــك حجــم التغطيــة الإعلامية، فنجد موقع منظمة الامم المتحدة قد تفوق بشكل كبير في ذلك، ويفســر الأمر بكون المنظمة أقدم من حيث النشأة ولديها خبرة واسعة وطويلة في التعامــل مغ قضايا حقوق الإنسان، والمطالبة باحترام القوانين الدولية، حتى وإن تجاوزتهــا الدول الكبرى التي تميل إلى فرض القوة والردع في التعامل مع العالمين العربــي والإسلامي.

- يعمل الموقعان على نشر القيم الإنسانية في الدول التــي تعــاني الحــروب مشاكل الفقر واللجوء، ومنها الدول الافريقية، وبعض الــدول العربيــة، كــاليمن وسوريا وليبيا، وما تنشره المنظمتان من قيم لا يكفي بالنظر للأوضــاع الخطيــرة التي تمر بها هذه الدول.

- تعتبر القيم السياسية من أكثر القيم نشر على الموقعين لطبيعة المرحلة التــي تعيشها المجتمعات العربية، وتمثلت أهما في احترام القانون الدولي، واحترام حقوق الإنسان، الذي تتجاوزه بعض الدول من أجل حماية مصالحها، والذي يحــول دون تفعيل هذه القيم التي تدعوا لها المنظمات الدولية عبر وسائل إعلامها.

- يتواني الموقعان عن نشر القيم الإعلامية والاتصالية، بالرغم من أهميتها الراهنة، حيث أصبحت وسائل الإعلام والاتصال التقليدية والحديثة، أبواقا للدعاية وإثارة المشاكل، والتركيز على الاخبار الوهمية والسلبية لخلق المزيد من التوتر داخل المجتمعات التي تعاني من التشتت والتمزق.

- يستعين الموقعان بأهم الوسائط الاتصالية من شبكات التواصل الاجتماعي والصور، والبيانات والوثائق، لتدعيم المعلومات الصادقة، وإضفاء حتمية مواصلة نشر القيم الإنسانية والدعوة لها وفرض منطق الاحتكام للقوانين الدولية.

- يعتمد الموقعان على فنون تحريرية متعددة، تسهم في دعم نشر القيم وتعميمها عبر الزمان والمكان، والتأكيد على ضرورتها في بناء حياة أفضل للإنسان، ويعد الخبر من أهم الفنون الذي تروج لهذه القيم باعتباره خصائصه الفنية المتمثلة في الجدة والآنية والتحديث المستمر.

- يترجم الموقعان المادة المتوفرة إلى عدة لغات، وخاصة موقع الأمم المتحدة الذي يتشتمل على عشرة منها، للتأكيد على قيمة المحتوى ومحاولة إبلاغه إلى العديد من الدول، وهو ما تفتقد منظمة التعاون الإسلامي.

خاتمة: تؤكد الورقة على أهمية موضوع البحث في دور وسائل المنظمات الدولية في خدمة القيم الإنسانية، التي بات نشرها ضرورة سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية وإعلامية في كل انجاء العالم، وخاصة العالم العربي والافريقي التي تعيش بعض دوله مظاهر التخلف والفقر والجوع والتطرف.

وتسعى المنظمات الدولية عبر وسائل الإعلام الحديثة إلى التسويق للقيم الإنسانية، لخلق فرص الشراكة والتعاون الدوليين بالطريقة الصحيحة، بعيدا عن دعوات الإقصاء والعنصرية ضد الشعوب التي لم تتخلص من التبعية المفروضة للدول الكبرى عبر مخططات التقسيم والتهجير واختلاق ظاهرة الإرهاب للتستر على الأجندة الغربية.

وتحاول المنظمات الدولية أن تعمل جاهدة على إقرار القيم المشتركة من تعاون وحوار واحترام حقوق الإنسان، والتنمية، والمساعدات الغذائية، ومحاربة التطرف بكل أشكاله، وتسعى إلى ضرورة تعاون المجتمع الدولي في تطبيقها وفقا لما تنص عليه القوانين والمواثيق، مع التسليم بوجود الضعف على مستوى التفعيل، بسبب تبعية هذه المنظمات إلى دول بعينها عن طريق نسبة التمويل.

وتأمل الباحثة عن طريق هذه الدراسة الاستكشافية إلى ضرورة الاهتمام الجاد والفاعل بمسألة نشر القيم الإنسانية عبر مواقع ووسائل إعلام المنظمات الدولية لتحويل الأوضاع الكارثية التي تعيشها دول العالم الثالث، وتحديدا بعض الدول العربية والافريقية، إلى أوضاع مستقرة تخدم الفرد والمجتمع والأمة وترتقي به إلى حياة أفضل.

المراجع

1. الكيس مكشيللي: الهوية، ترجمة علي وطفة، دار النشر الفرنسية، 1993.

2. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.

3. سعاد جبر سعيد: القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، ط1، جدارا للكتاب العالمي، الأردن،2008.

4. صلاح الدين بسيوني، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990.

5. طارق عبد الرؤوف عامر، المواطنة والتربية الوطنية، ط1،مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، 2011.

6. عبد الغني عبود: التربية الاقتصادية في الإسلام،ط1،مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1992.

7. فايزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، دار المعرفة الجامعية،مصر، 2002.

8. فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

9. محمد الشناوي وآخرون:التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، مكتبة الرازي العلمية، الإمارات العربية، دت.

10. منير سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

11. والف بارنر بيري: آفاق القيمة، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مكتبة النهضة، القاهرة،1967.

مواقع الانترنت

12. موقع الامم المتحدة:

https://www.un.org/ar/sections/about-un/overview/index.html

13. موقع منظمة التعاون الإسلامي:

https://www.oic-oci.org/page/?p_id=56&p_ref=26&lan=ar

الاحالات:

---

[1] فايزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، دار المعرفة الجامعية، مصر 2002، ص 11.

[2]والف بارنر بيري: آفاق القيمة، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مكتبة النهضة القاهرة،1967، ص 13.

[3] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ج2، ص 212،213.

[4] محمد الشناوي وآخرون:التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع الأردن، مكتبة الرازي العلمية، الإمارات العربية، دت، ص 200.

[5] سعاد جبر سعيد: القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، ط1، جدارا للكتاب العالمي الأردن،2008، ص 17-19.

[6]فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص 16.

[7] سعاد جبر سعيد: مرجع سابق، ص31.

[8] المرجع السابق: ص 35.

[9] صلاح الدين بسيوني، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، 1990، ص 5.

[10]طارق عبد الرؤوف عامر، المواطنة والتربية الوطنية، ط1، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع 2011، ص127-129.

[11]عبد الغني عبود: التربية الاقتصادية في الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1992، ص 80.

[12]منير سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص16.

[13] الكيس مكشيللي: الهوية، ترجمة علي وطفة، دار النشر الفرنسية، 1993، ص 27، 28.

سبل النهوض الثقافي في فكر مالك بن نبي

داه. زيّاني محمّد

جامعة الجزائر 2.

مقدّمة: لقد زخر الفكر العربي ولا يزال بقامات وعمالقة كتبوا أسماءهم بماء الذّهب، ملئوا الدّنيا وشغلوا النّاس، وهبوا حياتهم وأقلامهم من أجل النّهوض بالإنسان وإنسانيته، وإذا ذكرنا على سبيل الإشارة فقط، سنذكر حتما؛هشام جعيط من تونس، محمّد العابد الجابري من المغرب، إدوارد سعيد من فلسطين، زكي نجيب محمود من مصر، علي الوردي من العراق، حسن الترابي من السودان مالك بن نبي من الجزائر...وغيرهم كثير، إلاّ أنّ هذا الأخير – أقصد مالك بن نبي– فقداتّخذته مجالا للدّراسة لأنّه تطرّق لمسألة مهمّة ألا وهي الثّقافة والّذي استطاع وبقدرة عجيبة أن يجعل منها نظريّة عُرف بها في العالم العربي، واكتسبت شهرة بين المؤلفين الذين ظلوا يرجعون إليها، ويعرفون بها في كتاباتهم.

ويرى أسامة خضراوي في مقال له بعنوان "مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة" أنّ هذه النّظرية لا تزال تجذب الاهتمام وتستوقف نظر الباحثين والمشتغلين في حقل الثقافة والدراسات الثقافية، وذلك لأهميتها وطبيعتها المتميزة من جهة، ولقلة ونذر وشح السالكين في هذا الميدان كتابةً وفكراً من الثقافة العربية الإسلامية من جهة تانية، ولكون هذه النظرية من النظريات المبكرة والجديدة في مجالها من جهة ثالثة لأن:«... المسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان، إلاّ عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال، يتيح له امتلاك منهج البحث

عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقي الحضاري المنشود من جهة أخرى...»[(1)].

ومن المؤكّد أنّ كل ما تقدّم يستدعي طرح جملة من الإشكاليات:

1-كيف عرّف مالك بن نبي الثّقافة، وما هي نظرته للثقافة الغربيّة؟

2-هل الثّقافة تتطوّر وتتجدّد أم هي ثابتة لا تتغيّر؟

3- ما هي العناصر الأساسيّة التي تشكلالثّقافة؟

4-هل الثّقافة الإسلاميّة كفيلة بأن تقدّم منجزا حضاريا إنسانيا؟.

كلّ هذه الأسئلة سيحاول البحث أن يجيب عنها بنوع من الشّرح والتّفصيل.

1-مفهوم الثّقافة عند مالك بن نبي وموقفه من الثّقافة الغربيّة (الماركسيّة والاشتراكيّة):قبل أن يدلف مالك بن نبي في إعطاء مفهوم للثّقافة، نجده ينطلق أوّلا من نقده للمفهومين في النّظام الرّأسمالي والنّظام الاشتراكي، فالأول يقدّم الجانب النّفسي وبالتّالي الفردي، معتبرا الثّقافة قضيّة الإنسان[(2)]، أمّا الثّاني فيقدّم الجانب الاجتماعي ذاهبا إلى أنّ الثّقافة قضيّة المجتمع، إذْ هو يمثّل في نظرهم صورة اشتراكية بالمعنى التّكويني للكلمة[(3)]. ويقرّ مالك بن نبي من خلال هذه الرّؤية «أنّنا إذا أخذنا بواحدة من هذه التّعريفات انتهى بنا الأمر إلى نظريات عرجاء، إنّه يؤدّي إلى تعريف متطرّف يتّسم بالغلوّ وإلى نزعة إقليميّة ثقافيّة[(4)]».

ومن هنا ينطلق مالك بن نبي في تعريفه للثّقافة بجمعه بين النّظريتين، ويُقرّ بأنّ الثّقافة تشمل فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع في آن واحد، ولذلك نجده يقول: «فالثّقافة إذنتعرّف بصورة عمليّة على أنّها مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعيّة الّتي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أوّلي في الوسط الّذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيّته[(5)]».

ويُضيف: «وهذا التّعريف الشّامل للثّقافة هو الّذي يُحدّد مفهومها فهي المحيط الّذي يعكس حضارة معيّنة والّذي يتحرّك في نطاقه الإنسان المُتحضّر.. وهكذا

نرى أنّ هذا التّعريف يضمّ بين دفّتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي مُعطيات الإنسان ومعطيات المُجتمع، مع أخذنا بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد تحدثه عمليّة التّركيب الّتي تجريها الشّرارة الرّوحيّة عندما يؤذّن فجر إحدى الحضارات[(6)]».

والثّقافة تتدخّل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة فيه كما تعالج مشكلة الجماهير [(7)].

فالثّقافة هي الدّم في جسم المجتمع يغذّي حضارته ويحمل أفكار النّخبة، كما يحمل أفكار العامّة، وكلّ من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتّجاهات الموحّدة والأذواق المتناسبة[(8)].

إنّ الثّقافة «علاقة متبادلة، هي العلاقة الّتي تحدّد السّلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدّد أسلوب الحياة بسلوك الفرد[(9)]».

وخلاصة القول، وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الثّقافة، صار بإمكاننا الآن أن نُعطي مفهوما جامعا مانعا للثقافة تُمثّله المعادلة الرّياضيّة التّاليّة:

الثّقافة= فلسفة الإنسان+ فلسفة المجتمع+ الشّرارة الرّوحيّة

2-تطوّر الثّقافة وتجدّدها: إنّ الثّقافة عند مالك بن نبيّ تتجدّد وتتطوّر فهي حركة مستمرّة(صيرورة)[(10)]، وهناك تجديد مزدوج للثّقافة، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، أمّا التّجديد السلبي فأشار إليها مالك بن نبي قائلا:«ولعلّ أثر هذه النّظريّة قد لوحظ في الثّقافة الغربيّة في عهد نهضتها، حين كان (توماس الأكويني) ينقيها – ولو عن غير قصد منه- لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربيّة، ولم تكن ثوريّة ضدّ ابن رشد وضدّ القدّيس أوغسطين إلاّ مظهرا للتّجديد السّلبي حتّى يستطيع تصفيّة ثقافته ممّا كان يراه فكرة إسلاميّة أو ميتافيزيقيّة للكنيسة البيزنطيّة أمّا التّجديد الإيجابي فيقدّمه قائلا: وأتى بعده (ديكارت) بالتّجديد الإيجابي الّذي رسم

للثّقافة الغربيّة طريقها الموضوعي، الطّريق الّذي بني على المنهج التّجريبي والّذي هو في الواقع السّبب المباشر لتقدّم الحضارة الحديثة تقدّمها المادّي[(11)]».

والحضارة الإسلاميّة نفسها قامت – في نظر مالك بن نبيّ- بعمليّة التّجديد هذه من ناحيتها السّلبيّة والإيجابيّة، إلاّ أنّ الحضارة الإسلاميّة قد جاءت بهذين التّجديدين مرّة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الّذي نفى الأفكار الجاهليّة الباليّة، ثمّ رسم طريق الفكرة الإسلاميّة الصّافيّة الّتي تخطّط للمستقبل بطريقة إيجابيّة[(12)]، وهذا العمل نفسه ضروريّ اليوم للنّهضة الإسلاميّة، والتّجديد السّلبي إذن هو محاولة لتحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا، أمّا التّجديد الإيجابي فليس منه وضع منهاج جديد للتّفكير، وإنّما المقصود رسم طريق الفكرة الإسلاميّة وإبراز عناصرها الجوهريّة حتّى يسير المسلمون وفقا في بناء مستقبلهم وحضارتهم[(13)].

إذن في ضوء التّجديد المزدوج للثّقافة فإنّ «من واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، ممّا فيه من عوامل قاتلة ورمم لا فائدة منها، حتّى يصفو الجوّ للعوامل الحيّة والدّاعية للحياة، ولن تتأتّى هذه التّصفية إلاّ بفكر جديد يحطّم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد هو وضع النّهضة[(14)]».

وبالإضافة إلى هذا، فإنّ لكلّ ثقافة مجالها ووجودها الخاص بها، ويمكن تقسيمها على النّحو الآتي:

أ-**ثقافة المجتمع:** إنّ لكلّ ثقافة وجودها الخاص الّذي تزداد معه قدرتها على التّمييز كلّما تغيّر المستوى الاجتماعي لجانبي الموازنة...إنّ فروق السّلوك تزداد بصورة مذهلة بين فردين من مجتمعين مختلفين، أمّا الموازنة بين فردين في مجتمع واحد فتؤدّي إلى اتّصافهما بسلوك واحد لأنّ جذور شخصيتهما تغور في أرض واحدة هي المجال الرّوحي للثّقافة الإسلاميّة[(15)]، ويورد ماك بن نبي مثالا عن الوجود الخاص بكل ثقافة فيقول: «إنّ المتفرّج الأوروبي عامّة يفكّر في حدّ

من الحساسية الجماليّة، بينما المُتفرّج المسلم يفكر في جوّ من الحساسيّة الأخلاقيّة ومن أجل هذا لا يمكن أن يتشابه سلوكهما أمام المشهد الواحد[(16)]».

ب-ثقافة الذّاتية: هناك مقاييس ذاتيّة للثّقافة هي الّتي تحدّد انتماء الفرد إلى نمط ثقافة معيّنة. وبالتّالي تحدّد سلوكه خلفيّة كان بدويا أو طبيبا أو راعيا، وهذه المقاييس الذّاتية لا يختارها الفرد فينتقيها بناء على عمليّة واعية (فالرّاعي مثلا والطّفل لا يمكن أن نتوقّع منهما عمليّة اختيار واعية لهذه المقاييس الذّاتيّة) بل هو يستنشقها في محيط حياته وفي مجاله الرّوحي الّذي يحوّط وجوده المعنوي كما يتنسّم الأوكسجين في مجاله الحيوي الّذي يحوّط وجوده المادّي[(17)].

وفي نظر مالك بن نبي فإنّ إثراء هذه الذّاتيّة لا يقتصر على الأشخاص والأفكار الّتي تكوّن المجال الروحي فإنّ لدينا حوارا آخر مع الطّبيعة الّتي تنقل إلينا رسالتها مكتوبة بأبجديّة ملغّزة عي أبجدية الألوان والأصوات والرّوائح والظّلال والأضواء والأشكال والصّور، هذه العناصر الطّبيعيّة ذاتها تتجمّع في نفسيتنا ثمّ تذوب وتهضم في صورة عناصر ثقافيّة تندمج في وجودنا الأخلاقي وفي بنائنا الأساسي[(18)].

وهكذا يبدو أنّ الثّقافة تشتمل في معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة[(19)].

جـ- ثقافة البيئة: تعدّ البيئة بمثابة الرّحم بالنّسبة إلى القيم الثّقافيّة، الأمر الّذي يمكنّنا ضمن تعريف إجمال أوّلي من أن نعتبر الثّقافة نفسها كبيئة مكوّنة من الأصوات والألوان والأشكال والحركات والأشياء المأنوسة والمناظر والصّور والأفكار المتفشّية في كلّ اتّجاه...فنحن لا نتلقى الثّقافة وإنّما نتنفّسها ونتمثّلها بنفس الطّريقة الّتي يتمّ بمقتضاها تنفّسنا وتمثّلنا الأوكسجين[(20)].

د- ثقافة التّعايش: وهو تعايش مجتمعين فأكثر متشابهين في النّموذج (أي من حيث تعايش ثقافة مجتمع مع ثقافة مجتمع مجاور يشتركان معا في النّموذج)، فقد

حدث أحيانا أن أحدثت طبيعة الأشياء (تراكيب مهمّة) على حدود ثقـافتين دون أن يسعى الإنسان إليها ودون أن يريدها، إذن بالإمكان استحداث تركيب أرحـب بـين ثقافتين أو ثلاث لها حدودها المشتركة على الخريطة، ولذلك درس مالك بن نبي في كتابه فكرة الإفريقية الآسيوية إمكانية تركيب ثقافتين هما الثّقافة الإسلامية والثّقافـة الهندية من أجل تحديد عمل ثقافي على مستوى إفريقي–آسيوي، يشـتركان أساسـا في النّزعة المعادية للاستعمار وإنقاذ الإنسان من البؤس والفاقة على محور طنجا–جاكارتا، وفق إحداث ميثاق أخلاقي بينهما ليتخذوا وجهة دولية واحـدة، ذلـك أنّ الأديان لا يمكن أن تتنازل كيما تستغل كوسائل لمثل هذه الغايات((21)).

ه–**ثقافة العالمية:** إنّ تفاؤل مالك بن نبي في هذه النّقطة بالذّات جعله يقرّر أنّـه على الرّغم من أنّ الثّقافة في المستوى العالمية نظام ثنائي خلّفه لنا القـرن التّاسـع عشر، إذْ أوجد نوعين من النّاس يختلفان اجتماعيا: نوع كان ولا يـزال مسـتعمَرا ونوع كان ولا يزال مستعمِرا، وعلى الرّغم من أنّ «جميع المشكلات الكبرى للعالم الرّاهن ترد نفسيّا وسياسيا واقتصاديا إلى هذا النّظام الثّنائي الّذي يترتّب عنـه أوّلا السّباق الخطر في مجال القوّة بين الدّول المتقدّمة بهدف الرّقابة علـى الجمـاهير وعلى المساحات التي تملكها الشّعوب المتخلّفة، ويترتّب عنه ثانيا أحقاد مسـتحكمة فنحن نعيش هذا الصّراع اليوم في جميع أشكاله في انتظار ساعة التّركيـب الّتـي تصهر النّزعتين: نزعة القابليّـة للاسـتعمار ونزعـة الاسـتعمار فـي السّـلام العالمي((22))».

ولا نريد الإطالة في هذا العنصر بالذّات لأنّه سيجد مجالا أوسع وأرحـب مـن التّفصيل والتّوضيح في العنصر الأخير من هذا البحث.

ولكن السّؤال الآن الّذي يطرح بعد هذه الإطلالة الموجزة حول تطـوّر الثّقافـة ومجالاتها المتعدّدة: ماهي العناصر الّتي تدخل في تحقيق الثّقافة وتطبيقها عمليّـا؟ وما هي الثّقافة المطلوب تحقيقها وإنجازها في العالم الإسلامي ومن طرفه؟

3-عناصر الثّقافة:

تتشكل المنظومة الثقافية عند الأستاذ مالك بن نبي، من أربع تيماتٍ أساسية وهي:

1- التوجيه الأخلاقي لتكوين نمط الصلات الاجتماعية الراشدة.

2- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام السليم.

3- المنطق العلمي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع.

وسنتطرق إلى هذه التيمات الاصطلاحية لمفهوم الثقافة عند مالك بن نبي بالتدريج وهي:

1- المبدأ الأخلاقي:

إنّ «فطرية الاجتماع غريزة أصيلة في الإنسان، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويرفع من مستواها بالأخلاق ليتجنب الفوضى والاضطراب، وأهدى القيم الأخلاقية المتنزلة على الأنبياء، لأنها تهدف إلى ربط الأفراد بعضهم ببعض[(23)]»، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى مخبراً عن المهاجرين والأنصار:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [(24)]

«والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساس للحضارة، وقد جاء رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلّم، ليتم مكارم الأخلاق ليعلو ويسمو بها الإنسان إلى درجة يتميز فيها عن باقي المخلوقات. ولذا فالثقافة عند مالك بن نبي نظرية في السلوك والأخلاق أكثر منها من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة[(25)]».

وبذلك فالعنصر الأخلاقي يقوم ببناء وتشييد عنصر مهم من عناصر الحضـــارة والإنسان هو الذي يتحكم في الأشياء والتراب في الزمن تحكمه وتنظمه الأخـــلاق وبالتالي الجانب الأخلاقي هو المحدد الرئيسي لاتجاه المجتمع بشكل عام.

2- **الذوق الجمالي**:يرى ابن نبي أن الجمال له تأثير في الـــروح الاجتماعيـــة ويشرح هذه الفكرة بقوله: «إن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار الاجتماعي فتنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجـــود فـــي الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة المستهجنة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان فـــي العمل، وتوخياً للكريم من العادات»((26)).

وبذلك، يعتبر بن نبي أن الذوق الجمالي من أهم التيمات الحيوية فـــي مكونـــات الثقافة، لأنه حسب عزمه يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة ويحقـــق شرطاً من أهم شروط الفعالية، لأنه يضيف إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافـــع ايجابية أخرى.

وفي كتابه (مجالس دمشق) يشير ابن نبي إلى هذا العنصر داعياً الثقافـــة التـــي تمنحنا الذوق الجمالي، وتنمي فينا هذا الذوق، بشرط أن لا نظن حسب زعمه بـــأن الإسلام قد أهمل أو زهد في هذا الجانب، وذلك لترتيب شؤون مجتمعنا، لأن فـــي رأيه أن النشوز إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي، فهـــو يحـــدث أيضـــاً فـــي المستوى الجمالي((27)).

3- **المنطق العلمي**:يشير مالك بن نبي على أن النقص الذي يعاني منه الإنسان المسلم ليس منطق الفكرة، وإنما منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمـــل، بـــل ليقولا كلاماً مجرداً، وأكثر من ذلك أنه قد يبغض الذين يفكـــرون تفكيـــراً مـــؤثراً

والسبب يعود:«... لافتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق...»[(28)].

فالمنطق العلمي يعني أن يكون المجتمع ديناميكياً فاعلياً، فيستغل ما لديه من طاقات وإمكانيات ووسائل، وأن لا يدع الفراغ ينخر وقته، بل يستثمر الفراغ في أمور تعود عليه بالنجاح والنفع.

وفي كتابه (مجالس دمشق) يشير ابن نبي إلى أنه يقصد بالمنطق العلمي الفعالية، لكنه يفضل تسمية المنطق العلمي بوصفه مصطلحاً ينسبه لنفسه، وظل يعرف به حسب قوله منذ ربع قرن[(29)].

4- **التوجيه الفني أو الصناعة:** يعتقد ابن نبي أن المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العلمي، هذه التيمات لا تكوّن لوحدها شيءً من الأشياء حسب عزمه، إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم أو الصناعة، كما في تعبير ابن خلدون هو الذي يمنحنا تلك الوسائل، ويكون عنصراً هاماً في الثقافة، لا يتم من دونه تركيب عناصرها وتحديد معناها، ويدخل في هذا المفهوم كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم، وهذه العناصر الأربعة هي التي بإمكانها أن تساهم في تحديد الثقافة وتركيبها وتحويلها إلى أسلوب حياة في أي مجتمع.

وعملية تحويل العلوم النظرية إلى مهن، وفنون، وصناعات عملية يدوية وتقنية إلى حيزها العملي التطبيقي، واستغلال الطاقات والقدرات والمواهب والإمكانات في العمل الصناعي ركن مهم في تكوين مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي، لأن الصناعة وسيلة لكسب الأفراد ووسيلة للمحافظة على كيان المجتمع واستمراره ونموه[(30)].

ومن هنا نتبين أن مشكلة الحضارة هي مشكلة الثقافة، وإصلاح المنظومة الثقافية أساس لحلول مشكلات الحضارة. وإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية

سوية بين أفراد المجتمع، وإذا ما تكون للمجتمع عبر التاريخ قيم أخلاقيـة تحـافظ على تماسك وانسجام أفراده معاً، فسيعيش متسقاً ضمن جـو محكـم مـن النظـام والجمال والذوق، بحيث تشكل لأفراده منطلقاً أدبياً وعملياً يتفـاعلون مـن خلالـه بفاعلية ما يملكونه من طاقات ومواهب وإمكانيات فيبدعون أعلى وأقصى ما يمكن من الفوائد والوسائل المتاحة لهم، فيحولون كل هـذه القـيم النظريـة والأخلاقيـة والجمالية الذوقية إلى صناعات ومهن وإنتاج سلعي، فإذا فعلوا ذلك أمكـنهم حـل مشكلة الثقافة، ومن ثم حل مشكلة الحضارة، ومن ثم التوقيع على صفحات التاريخ وتأكيد الشهود الحضاري((31)).

وبمثل هذا البناء المحكم، يمكن القول أن هذا التركيب للثقافة وتحديـدها بهـذه العناصر الأربعة، يمثل جوهر ولب النظرية الثقافية لمالك بن نبي، والتـي يصـبو من خلالها إلى تحقيق معالم الشهود الحضاري للأمة الإسلامية.

4- المنجز الثّقافي الإسلامي البديل: استهلّ مالك بن نبيّ حديثه وهـو يطـرح لهذه المسألة البالغة الأهمّيّة، المتعلّقة بسبل النّهـوض الثّقـافي الإسـلامي البـديل بمسألة مهمّة ألا وهي "ثقافة الإمبراطوريّة" والّتي تعتبر نوعا يجدر الإشـارة إليـه قبل الخوض في النّوع الثّاني "ثقافة الحضارة" الّذي وجد فيه العلاج الكفيل لتقـديم حضارة إنسانية، كون أنّ الأولى هي من الأسباب الرّئيسة في إحداث هذا المـرض المستفحل في العالم والّذي سيؤدّي بالضّرورة إلى إحـداث الفجـوة بـين الشّـرق والغرب. ومن أجل التّفصيل والإثراء في هذه الجزئيّة سنفصّل كل ثقافة على حدى حتّى يتبيّن الدّواء النّاجع للارتقاء بالإنسان وإنسانيّته.

1-ثقافة الإمبراطوريّة: يحاول مالك بن نبيّ في هذه المسألة أن يبـرز لنـا أن القوّة المتمثّلة في: التّسلّط والاستبداد، والسّيطرة والنّزعة الاستعماريّة هي قِوام هذه الثّقافة، بحيث يرى: أنّ ثقافة الإمبراطورية ذات الطّابع العسكري المبنيّة على تلـك الأسس والتّسابق الخطير بين الدّول الغربيّة المتقدّمة نحو التّسلّح وامتلاك مخـزون

القنابل الذّريّة إلاّ الدّليل الواضح على نيّة السّيطرة على الجماهير والمجالات الّتـي تنتسب إليها الأصناف البشريّة المتخلّفة[(32)].

إنّ أوروبا الّتي ورثـت تقاليـد النّهضـة الرّومانيّـة بقيـت سـجينة الثّقافـة الإمبراطوريّة، كما أنّ الضّمير الأوروبي لا زال سجين نظريّات القـرن التّاسـع عشر الّذي كان يزخر بآراء " غوبينو" الّذي ترجم أفكـار داروين حـول أصـل الأجناس في التّطوّر البشري، وهكذا ترك للقرن العشرين إرثا ثقيلا مميتا للأفكـار سار على هديه أمثال هتلر، والدّكتور مالن[(33)].

ويشير مالك بن نبيّ في ذات السّياق أنّ التّقدّم العلمي في أوروبا كـان بمثابـة الدّريعة الّتي أدّت به إلى الغطرسة وفقدان الضّمير الإنساني، إذْ يقـول: «تعـيش أوروبا في عالم كيفه عالمها إلا ضميرها يجهل أحد المعطيات الأساسيّة ألا وهـو الإنسان الّذي تعوّدت على اعتباره حتّى الآن مجرّد عضو من أهالى المسـتعمرات فقط، وكعضو فقد الحركة ولن يجدها إلاّ بعد تدريب طويل ومؤلم[(34)]».

إنّ العالم يفهم بعلم وثقافة إمبراطوريّة ومليء بروح الحـرب ووسـائلها ...إنّ الثّقافة على العلم يحدّد الميل نحو ثقافة إمبراطوريّة

«الثّقافة الإمبراطوريّة تظهر في قوّة السّلاح والحرب، وإنّ الحرب جـزء مـن التّجارب الإنسانيّة منذ القدم، وهذا ما يُثير رغبة الأولاد في جميع أنحاء العالم فـي لعبة الحرب، ولا تزال هذه النّفسيّة سـائدة حتّـى الآن فـي جميـع الأكاديميّـات العسكرية ...ونحن نعيش في عالم لا يزال متأثّرا بالإثم الاستعماري حيث لا يُريـد أصحاب الثّقافة الإمبراطوريّة أن يتركوا للشّعوب المُستعمَرة إمكانيّة إنجاز مشروع ثقافة ولا حتّى الحفاظ على جهلهم[(35)]».

2–ثقافة حضارة: إذا كان بن نبي يعرض لثقافة الإمبراطوريّة على أنّ المجتمع يطرح مشكلته بالنّسبة للقوّة، فإن الوجود هو محور وصنو هذه الثّقافـة (أي ثقافـة الحضارة).

وفي نظر بن مالك فإنّ نوعيّة الثّقافة تتحدّد – لكلّ شعب– بحتميّة ناتجـــة عـــن سيكولوجيّته، فالمزاج الرّوماني كان يرغب في صنع الإمبراطوريّة، بيد أنّ المزاج اليوناني كان عليه أن يحقّق المعجزة، فأنتج ثقافة حضارة. ونفس الشّيء يمكن قوله بالنّسبة للعالم الإسلامي (أي أنّ ظهور العالم الإسلامي على شكل إمبراطوريّة ذات صبغة عسكريّة لم يكن محتملا في يوم من الأيّام، ذلك أنّه بغضّ النّظر عن المبدأ الأخلاقي، فإنّ العالم الإسلامي لا يملك مخزونا من القنابل الذّريّة ولا صناعة ثقيلة لإنتاجها، ولذلك يستحيل عليه أن يطرح مشاكله على مستوى القـــوّة، بالعكس فـــإنّ هذه المشاكل تطرح نفسها على مستوى الوجود بطبيعة الحال) ((36)).

إنّ هذا المشكل يطرح نفسه بدون تعقّد من النّاحيّة السيكولوجيّة لأنّ المزاج في العالم الإسلامي لا يحتوي على أيّ تعقيد، ولا على أيّ ذرّة من إرادة التّسلّط يمكن أن تتمخّض عن ثقافة ذات صبغة إمبراطوريّة.

إنّ العالم الإسلامي يواجه قبل كلّ شيء مشكل الثّقافة لا يمكـــن ولا ينبغـــي أن تتحقّق إلاّ من أجل حضارة، وهكذا فإنّ كلّ سياسة ونظام في العالم الإسلامي ينبغي أن يسعى إلى هذه الغاية، وينبغي من ثمّة تحديد عنصر الثّاني أي مجاله، وبمعنـــى آخر إذا كان على العالم الإسلامي أن ينشد إنجاز ثقافـــة حضـــارة عـــوض ثقافـــة إمبراطوريّة فعليه أن يعرف أوّلا مميّزات ثقافة حضارة وخصائصها أي أن يعرف أنّها((37)):

أوّلا– ثقافة عالمية: ذلك أنّ ضمائر النّاس في القرن العشرين لم تعد تتكوّن في إطار وطني أو إقليمي، إنّ مسقط الرّأس الّذي يعيشون فيه يوميّا يُفسّر بدون شـــكّ الدّوافع الأصليّة لمواقفهم الأساسيّة، لكنّ الضّمير الإنساني فـــي القـــرن العشـــرين يتكوّن من في إطار عالمي له متطلّباته، وأنّ هذا الضّمير لن نســـتطيع الانفصـــال عنه من الآن فصاعدا، وفي نفس الوقت فإنّ مصير كلّ مجتمـــع إنســـاني يتكـــوّن جزئيا خارج حدوده الجغرافيّة. إنّ الثّقافة من النّاحيتين الأخلاقيّة والتّاريخيّة تـــدخل

في إطار قالب عالمي لأنّ منابع أفكارها ومشاعرها والتّحدّيات الّتي عليها أن تواجهها والمهام الّتي ينبغي أن تنجزها تتجاوز أبعد مسقط الرّأس[(38)].

ينبغي أن يشمل مجال الثّقافة الإسلاميّة العالم بأسره، وإنّ مهامه ينبغي أن تُقاس بهذا المقياس، مع التّمييز بين مهام تشييد الثقافة الإسلامية والمهام المُتعلّقة بإشعاعها خارج حدودها

إنّ العالم بأسره في نظر مالك بن نبيّ في انتظار ساعة الائتلاف الفكري، وهذا باختصار القالب العالمي الرّاهن الّذي ينبغي على الثّقافة الإسلاميّة أن تندرج فيه وأنّ المهام الّتي تواجهها في هذا الإطار تتمثّل في مشاكل ثلاثة:

1-النّهوض بالرّجل المسلم الّذي تخلّص من نير الاستعمار أو لا يزال يرزح تحته إلى المستوى الاجتماعي للحضارة الرّاهنة.

2-رفع الرّجل المُتحضّر الّذي لا يزال متأثّرا بالأفكار الاستعماريّة إلى المستوى الأخلاقي للإنسانيّة.

3-إدخال المعطيات الإسلاميّة في إطار المشكل الحيوي للسّلم[(39)].

ينبغي إذن على العالم الإسلامي أن يتحرّر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ليتحمّل مسؤولياته الكبرى في التّحرير الأخلاقي للإنسان المُتحضّر، وسيجدون بدون شك في مزاجه وظروف تطوّره الإيحاء الضّروري لكي لا يطرح مشاكل ثقافته بكيفيّة إمبراطوريّة لأنّه ليس في نيّته ومزاجه وإمكانيته أن يضيف مخزونا نوويا جديدا في العالم[(40)].

ويقرّر مالك بن نبيّ أنّ تّعريف الثّقافة الإسلاميّة لا يمكن أن يتمّ بدون الأخذ بعين الاعتبار لهذا العنصر الأساسي في الأزمة العالميّة المتمثّلة في المشكل الأوروبي، إذْ ينبغي على الضّمير الأوروبي أن يُجدّد وعيه وأن يُعيد قيمة الآخرين في العالم الّذي سيطر عليه، وإنّ مهمّة العالم الإسلامي هي مساعدة أوروبا لكي تتمكّن من التّجدّد بأقلّ عناء ممكن، وبهذه الكيفيّة فإنّ العالم الإسلامي يكون قد أنجز مهمّته على الوجه الأكمل

لأنّ رفعه لمستوى الجماهير الإسلاميّة إلى مصاف الحضارة إنّما يعني رفع المستوى والوعي الأوروبي إلى المستوى الإنساني، وذلك بوضع الصّورة الحقيقيّة للإنسان الّذي احتقره المستعمر أمام الرّأي العام الأوروبي ذلك لأنّ كل ما يحضر الرّجل المسلم يساهم في إعطاء الأوروبي مفهوما صحيحا عن العالم الإنساني، وبهذه الطّريقة سيتمكّن العالم الإسلامي أوّلا المساهمة في تكوين الضّمير الإنساني ومساعدة بعض الدّول على التّحرّر من قابليّة التعرّض للاستعمار، وإنقاذ البعض الآخر من دوافعه الاستعماريّة[(41)].

ثانيّا– ثقافة السّلم: ذلك أنّ مشكل السّلم يسيطر على النّشاط الإنساني بمجموعه وهو النّقطة الّتي تلتقي فيها جميع مراحل التّاريخ الاجتماعيّة والثّقافيّة ولا يمكن للثّقافة الإسلاميّة أن تأخذ مكانتها اللّائقة بها على الصّعيد العالمي في الوقت الرّاهن إذْ لم تتّجه نحو هذه النّقطة وتدمج مشكل السّلم بين المهام الإنسانيّة الّتي ينبغي إنجازها[(42)].

وفي نظر مالك بن نبيّ فإنّ هذه المهمّة – مهمّة السّلم – تفرض مشكلا صعبا، لأنّ العالم مليء بروح الحرب ووسائلها وفكر القرن العشرين الّذي يزعم تحقيق سعادة الإنسان بفضل الآلة قد مني بالفشل الذّريع.

لكنّ على الرّغم من هذا المشكل وهذا الفراغ الشّاسع في الوعي فإنّه على العالم الإسلاميّ أن يحدّد ثقافة إسلاميّة مناسبة له، ثقافة لا تقوم على العلم وحده، ذلك أنّ العالم لم يعد ينتظر الرّحمة من العلم، بل من الضّمير الإنساني المُتجدّد[(43)].

ولذلك فإنّ المفهوم الإنساني للسّلم ومشكله ينبغي ألاّ يقوم على العلم بل على الضّمير، وإنّ العالم الإسلامي لا يملك مخزونا من القنابل الذّريّة ينبغي تصفيّته، بل هناك في العالم كمّية هائلة من الحقد والكراهيّة تحتاج إلى تصفيّة، فيوجد في سيكولوجيّة جميع الشّعوب بذور أيديولوجيّة فتّاكة، فالإنسانيّة ليست مهدّدة فقط بسبب الإشعاعات الذّريّة المُسلّطة فوق رأسها بل بجوّ مخنق مليء ببذور الأيديولوجيّة الفتّاكة الموروثة من العهد الاستعماري[(44)].

وباستطاعة العالم الإسلامي أن يخدم السّلم مباشرة بتبديل موقف الإنسان الثّقافي والأخلاقي تّجاه المشاكل الرّاهنة، إذْ ينبغي على الثّقافة الحضاريّة أن تُعطي للسّلم شخصيّته الحقيقيّة وذلك بوضعه تحت ضمان المبادئ.

وهكذا إذا تحمّلت الثّقافة الإسلاميّة المهام الثّلاث المذكورة سابقا فيحقّ لها لقب الثّقافة الكبرى في التّاريخ لأنّها تكون بذلك قد ساهمت في تشييد عهد إنساني أخوي[(45)].

وعلى الرّغم من أنّ مالك بن نبي حين إلقاء محاضرته وكلمته في ملتقى الجزائر لـ" الثّقافة الإفريقيّة" كان قد وصل إلى نتيجة مخالفة لما كان يتوقّعه حين كتب ما كتب حول الثّقافة سنة1959م، إذْ قال في الملتقى: " وبكلمة أخرى فإنّ المهام الّتي أشير إليها الوثيقة السّابقة منذ عشر سنوات تعود إلى ما يلي "

1-أصبح الرّجل المُتحضّر أكثر همجيّة وانحطّ مستواه الأخلاقي أكثر فأكثر.

2-إنّ المستوى الاجتماعي للرّجل الإفريقي لم يرتفع كما كان مُتوقّعا.

3-إنّ فكرة السّلم الّتي سادت باندونغ أصبحت أكثر من أيّ وقت مضى خاضعة لقوّة السّلاح[(46)]".

وفي الأخير يمكن القول, ونحن موقنون بذلك أن الثّقافة الإسلاميّة كانتولا تزال تحمل سمة الصّيرورة، ولا تزال تتمتّع بروح المنقذ لهذا العالم، فقط ينبغي أن تحقّق مبدأي الإرادة والإدارة، فالإرادة تتمثّل في إشعال روح الإسلام الّتي كانت تتمتّع بها الحضارة الإسلاميّة وهي في أوجّها، والإدارة تتمثّل في إيجاد آليّات تتناسبوظروف العصرالرّاهن، ولعلّ أفكار مالك بن نبي – على الرّغم من مرور عليها أكثر من أربعين سنة – لا تزال تشكّل بلسما لهذه الجراحالّتي يعاني منها العالم، نطمح أن تجد رجالا تتبنّى أفكاره، حتّى تنقل الأمم إلى الأخوّة المثالية للإنسانية متخذة مبدأ التفاعل بلا ذوبان والخصوصيّة بلا انغلاق.

النّتائج: وبعد هذه الجولة القصيرة بين دروب الثّقافة، وتقفّي آثارها، وتجلّياتها في فكر مالك بن نبي بغية إيجاد مشروع ثقافي إسلامي بديل، خلص البحث إلى جملة من النّتائج، فنقول وباللّه التوفيق:

1-لقد استطاع مالك بن نبيّ أن يقدّم مفهوما جديدا للثّقافة، لا يقتصر فقط على المفهوم الماركسي ولا فقط على المفهوم الرّأسمالي، بل باحتوائهما مع بعض في وعاء واحد تذوبهما الشّرارة الرّوحية.

2-إنّ التّجدّد عند مالك بن نبيّ يتّخذ مسارين اثنين؛ تجدّد سلبيّ والآخر إيجابيّ يختلف من حضارة لأخرى.

3-إنّ لكلّ ثقافة من منظور مالك بن نبي مجالها ووجودها الخاص، تؤثّر فيها جملة من العوامل أبرزها: المجتمع، الذّاتية، البيئة، التّعايش، والعالميّة.

4- تشتمل الثّقافة عند مالك بن نبي على أربعة عناصر أساسيّة: دوافع العمل فيه هو المبدأ الأخلاقي، وصورته الذّوق الجمالي، وسرعة إنجازه المنطق العملي ووسائله العلم أو الفنّ الصّناعي؛ وبالتّالي يحقق هذا المركّب لبّ النّظريّة الثّقافيّة الّذي ينقل الأمّة الإسلامية من مرحلة الوجود الحضاري إلى مرحلة الشّهود الحضاري.

5-لقد عرض مالك مشروعا ثقافيا إسلاميا بديلا، ينبني على إحداث ائتلاف فكريّ، يقوم على ثلاثة أسس:

أ-النّهوض بالرّجل المسلمالمتحرّر من الاستعمار، إلى مستوى الحضارة، أي إلى المستوى الاجتماعي للحضارة الرّاهنة.

ب-الارتفاع بالرّجل المتحضّر الّذي يزال ملطّخا بإثم الاستعمار، أو الّذي لا يزال متأثرا بالأفكار الاستعماريّة إلى المستوى الأخلاقي للإنسانيّة.

جـ-العمل على تحقيق مبدأ السّلم متّخذا المعطيات الإسلامية إطارا لهذا المبدأ.

هذه نتائج الدّراسة الّتي انتهى إليه هذا البحث المتواضع، ولست أزعم أنّه يُجهر على كل تلك الإشكالات، أو أنّه يُنجز إنجازات جلّى في هذا المظان، فهـذا جهـد المقل، وبضاعة الفقير، الّذي أراد أن يفتح باب البحث والنّقـاش والإضـافة، فـي قضيّة لا تزال تشكّل عائقا في الفكر العالمي والفكر العربي بالخصوص.

والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله .

القرآن الكريم

مكتبة البحث:

1-آفاق جزائريّة: مالك بن نبيّ، ترجمة الطّيّب الشّريف، دط، مكتبة النّهضة الجزائريّـة الجزائر، 1964م.

2-تأمّلات: مالك بن نبيّ، دط، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986م.

3-شروط النّهضة: مالك بن نبي، ترجمة عمر كمال مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق- سوريا، 1987م.

4-فكرة الإفريقيّة الآسيويّة في ضوء مؤتمر باندونغ، مالك بـن نبـيّ، دط، دار الفكـر دمشق، سوريا، 1979م.

5-مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة: أسامة خضراوي، مركز نمـاء للبحوث والدّراسات، 2014/06/28،

http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=422

6-مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً: أسعد السّحمراني، ط4، دار النّفائس، بيروت، 1984م.

7-مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشـق- سوريا، 1984م.

8-موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحـديث: يوسـف محمّـد حسـين، ط1، دار الخلدونية، الجزائر، 2010م.

الهوامش:

---

(1)-مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة: أسامة خضراوي، مركز نماء للبحوث والدّراسات، http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=4222/06/28

(2)-يُنظر: مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق- سوريا، 1984م، ص31.

(3)- يُنظر: المصدر نفسه، ص43.

(4)- المصدر نفسه، ص44.

(5)-شروط النّهضة: مالك بن نبي، ترجمة عمر كمال مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر ط4، دمشق- سوريا، 1987م، ص89.

(6)-المصدر نفسه، ص89-90.

(7)-المصدر نفسه، 93.

(8)-المصدر نفسه، ص93.

(9)-المصدر نفسه، ص43.

(10)-مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق- سوريا 1984م، ص48.

(11)- المصدر نفسه، ص71.

(12)- المصدر نفسه، ص72

(13)-موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ط1، دار الخلدونية الجزائر، 2010م، ص9.

(14)- مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ، ص71.

(15)-المصدر نفسه، ص52.

(16)- المصدر نفسه، ص53.

(17)-المصدر نفسه، ص54.

(18)-ينظر: المصدر نفسه، ص56.

(19)- المصدر نفسه، ص77.

(20)–آفاق جزائريّة: مالك بن نبيّ، ترجمة الطّيّب الشّـريف، دط، مكتبـة النّهضـة الجزائريّـة الجزائر، 1964م، ص125.

(21)–المصدر نفسه، ص107–108.

(22)– مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ: ص119.

(23)– المصدر نفسه، ص79

(24)– سورة الأنفال، الآية: 63.

(25)– شروط النّهضة: مالك بن نبي، ص94.

(26)– مشكلة الثّقافة: مالك بن نبي، ص82

(27)– ينظر: مجالس دمشق: مالك بن نبي، ص110.

(28)– مشكلة الثّقافة: مالك بن نبي، ص87.

(29)– ينظر: مجالس دمشق: مالك بن نبيّ، ص111.

(30)– ينظر: مشكلة الثّقافة: مالك بن نبي، ص88–89.

(31)– مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً: أسعد السّـحمراني، دار النّفـائس، بيـروت، ط4، 1984م ص14.

(32)– ينظر: حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالـك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ط1، دار الخلدونيـة، الجزائـر، 2010م ص229.

(33)–حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالك بن نبـي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص229.

(34)–موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين: ص229.

(35)– المرجع نفسه، ص230.

(36)–حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالك بن نبـي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص230.

(37)–موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص230.

(38)–حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالك بن نبـي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص231.

(39)–موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص232.

(40)-المرجع نفسه، ص232.

(41)-المرجع نفسه، ص232.

(42)-حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالك بن نبـــي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص233.

(43)-المرجع نفسه، ص233.

(44)- المرجع نفسه، ص233.

(45)-المرجع نفسه، ص234.

(46)-حول الثّقافة" ملتقى الجزائر للثّقافة الأفريقيّة": مالك بن نبيّ، نقلا عن: موقف مالك بن نبـــي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ص235.

التنوع الثقافي واللّغوي في المجتمع الجزائر: أسبابه ونتائجه

أ. سارة لعقد
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف

أولا/ الواقع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري: إنّ محاولة الخوض في قضيتي الواقع الثقافي واللغوي للمجتمع الجزائري لابد يجعلنا أولا وقبل أي شيء نعرج على جملة من المصطلحات التي تشكل الجانب النظري لهذا البحث مثل مصطلحي الثقافة واللغة ومصطلحي التنوع الثقافي والتنوع اللغوي؛ وذلك لمدى تعالق هذه المصطلحات ببعضها البعض وبعد ذلك يمكننا أن نستقي من المجتمع الجزائري نماذج تدل على ثقافته ولغته في محاولة لدراسة الأسباب التي جعلته على هذه الحالة دون غيرها.

1. مصطلحات الدراسة: من المصطلحات التي تشكل أساس هذا البحث مصطلحا الثقافة، واللغة وتحديد مفهوم كل منها

1.1 الثقافة: جاء في معجم لسان العرب لابن منظور: «**ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه، ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ: حاذق فهم...وثَقُفَ الرجل ثقافة أي صار حاذقًا خفيفا**»[1] أما في المعاجم الحديثة فقد جاء في معجم (مصطلحات اللغة العربية المعاصرة) فقد عُرّف على أنّه من الجذر: «**ثقُفَ يثْقُف ثقافة فهو ثقِفٌ، وثقُف الشخص صار حاذقا فطنا، وانكب على المطالعة حتى ثَقُّفَ**»[2] حيث نلاحظ أنّ هذا التعريف أقرب من أيّ تعريف آخر في المعاجم الحديثة إلى ما جاء في لسان العرب لابن منظور، حيث يتضح لنا أنّ المعنى اللغوي لمصطلح الثقافة فكلاهما يشر إلى أنّ معنى شخص ثقف حذق وفطن وأضاف المعجم المعاصر إلى أنّه شخص منكب على المطالعة.

أما في موسوعة علوم اللغة العربية «**الثقافة مصدر ثقف بمعنى صار حاذقا والمحدثون يستعملونها اسما من التثقيف وهو التعليم والتهذيب، ومنه قول القائل لولا**

تثقيفك وتوفيقك لما كنت شيئا، فهي عندهم تقابل لفظ Culture عند الفرنج، واللفظة قديمة في معجم العربية إلا أنّ السالفين لم يكسبوها أبعادا أدبية، وفكرية، وفنية وحضارية شمولية، كالتي ترتبط بها في الوقت الراهن فقد وردت في استعمال الجاحظ لها معنى التدرب على احتراف عمل من الأعمال، والتمرّس بكفاءة من الكفاءات المختلفة، كما أنّ للفعل (ثقف) معنى التدريب، والتعهد، والتقويم»[3]، وبالرغم من وجود المصطلح إلا أنّه لم يكتسب أبعاده الأدبية، والفكرية، والفنية، الحضارية إلا حديثا؛ ولعل أهم شيء أشار إليه التعريف أن مصطلح ثقافة استعمل منذ القدم مع الجاحظ حيث كان يدل على التمرّس، والتدّرب، والأهم من هذا كله أنّ أغلب هذه التعريفات تشير إلى العلاقة الموجودة بين الثقافة والتعليم حيث تجعل الثاني من المعاني المرتبطة بالأول. وهو الشيء الذي يشير إليه المعجم الإنجليزي (المعجم اللساني والصوتي) (A Dictinary of Linguistics and Phonetics)[4].

يقابل المصطلح العربي (ثقافة) الفرنسي **Culture** هذا الأخير الذي لطالما كان يرفقه الكتاب العرب المحدثين بالمصطلح العربي في مرحلة معينة، **«كأنّما يبتغون بهذا أن يقولوا: إنّ كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، وهؤلاء المؤلفون يعلمون ما يفعلون حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية؛ فإنّ معنى هذا أنّهم يدركون أنّ الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد»**[5]، ومعنى هذا أنّ الكتاب والمؤلفين في هذا الخصوص في في القرن التاسع عشر كانوا يجدون حرجا في استعمال لفظ الثقافة لم يصبح جاهزا من حيث عناصره المفاهيمية ليكتمل ويصبح جاهزا للاستعمال سواء من جانبه الاصطلاحي أم من جانبه المفاهيمي.

إذا عدنا قليلا إلى أعوام قليلة ماضية سنجد أنّ أهم الجزائريين الذين خاضوا في فكرة الثقافة في العصر الحديث هو «مالك بن نبي» في عديد مؤلفاته أهمها: **(شروط النهضة وفكرة الإفريقية الآسيوية)**، و**(مشكلة الثقافة)**[6]، حيث أشار مالك بن نبي في مطلع الكتاب إلى أنّ الثقافة **«لا تضمّ في مفهومها الأفكار فحسب، وإنّما تضم أشياء أعم من**

ذلك كثيرا، تخص أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحيــة، كمــا تخــص الســلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى»[7]، حيث يشــير مالك بن نبي في هذا القول إلى الجانب النفسي للثقافة؛ فالثقافة ليست فقــط أفكــار بــل أسلوب الحياة أضف إلى ذلك سلوك الفرد والجماعة، وهذا ما أكّدّه مالك بن نبي في غيــر مكان من مؤلف فالثقافة: «**مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التــي تــؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحيــاة فــي الوسط الذي ولد فيه**»[8]. وإلى هذا ذهب معجم المصطلحات التربوية الحديث حين عرّف الثقافة على أنّها: «**نتاج إنساني ينتج من خلال تفاعل الإنسان مع المجتمــع، وتشــتمل على كل أنماط السلوك، والعادات، والتقاليد، والأفكار، والمعتقدات، والقيم، والمثل العليــا واللغة، وكل أساليب الاتصال، والفنون، والآداب، والأشياء الماديــة الناتجــة عنهــا**»[9] ومعنى هذا أنّ للثقافة وجه مادي متمثل فــي المنجــزات الماديــة للإنســان كــالآلات والمنشئات، والأزياء، ووجه معنوي متمثل في أفكاره وآدابه وقيمه والمظــاهر النفســية البادية في الحياة الاجتماعية[10]

وعلى هذا سنحاول النظر في كل من الجانب المادي وتسليط الضوء حــول العمــارة والأزياء، والفن والجانب المعنوي للثقافة بتسليط الضوء حول الآداب والعادات، والتقاليــد والقيم، في المجتمع الجزائري لمحالة بحث الأسباب التي جعلته على هذا الحال.

2.1 اللغة: تعدّ اللغة عصب الجماعة النابض بالحياة في العالم بأسره، فهي الوســيلة الأساسية التي يمكن بواسطتها التواصل فيما بينهم والتعبير عــن حاجــاتهم ومتطلبــاتهم اليومية؛ ومعنى هذا أنّ اللغة تستخدم لتوصيل المفاهيم والمعــاني بواســطة نظــام مــن العلامات ومعانيها من عقل شخص لآخر؛ ومعنى هذا أنّها «**نظام من الرموز المتواضــع عليها والخاصّة بمجال أو بنشاطٍ ما نحو: لغة الفلاسفة، ولغة التربــي، ولغــة الإعــلام الآلي. مجموع الحروف والكلمــات والرمــوز والمكتوبــة أو الخطيــة أو الخطّيّــة أو المنطوقة أو الحركية التي تتلاحم وفق قواعد بهدف تبليغ معلومات**»[11]، أو هي: نظــام

من العلامات الملفوظة المتواضع عليها والمستخدمة لنقل رسائل البشر[12] وفــي محاولــة للكشف عن تلك العلامات التي تتعلق بمختلف الرسائل المتبادلة يوميا في حياتنــا، يحــدد نطاقها في العلامات اللّغوية المنطوقة والمكتوبة منها دون الإشارية.

ثانيا/ نتائج التنوع الثقافيّ واللّغويّ في الجزائر

إنّ قبول التنوع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري يجعلنا دون شك نتقبــل فكــرة التعايش بين مختلف الثقافات واللغات، ولعل هذه النقطة هي الشيء الأساس الــذي جعــل فكرة التعايش اللغوي والثقافي تبدو غريبة؛ بل هناك من عدّها من قبيــل تهديــد وجــود إحدى اللغتين أو الثقافتين؛ فإذا كان لابدّ من الحديث عن التنوع الثقــافي فــي المجتمــع الجزائري فلابدّ من الوقوف على التعليم واللغة اعتبارا من كونّ جــلّ الدارســين للثقافــة وإشكالاتها منذ مالك بن نبي؛ لا بل وقبل زمن مالك بن نبي يجعلون التعليم واللغة دلالــة على مدى ثقافة الفرد والمجتمع فوليام جونز عند حديثه عن اللغة السنسكريتية أشار إلــى أنّها تنمّ عن ثقافة أصحابها قائلا: «**إنّ اللغةالسنسكريتية بنية رائعة أكمل من الإغريقيــة وأغنى من اللاتينية، وهي تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين**»[13]

إنّ الحديث عن التنوع الثقافي كظاهرة طبيعية عرفتها مختلف الشــعوب منــذ القــدم يجعل أهل العلم يتخوفون منه كواقع؛ فبالنسبة «**للعقــل المتشــبع بالأحاديــة والتجــانس والتماثل، فالنموذج المجتمعي الأمثل هو مجتمع بلغة واحدة وثقافة واحدة، على اعتبــار أنّ وحدة اللغة والثقافــة تســمح بالاقتصــاد فــي المــوارد والطاقــات والصــراعات السياسية**»[14]؛ غير أنّ الأكيد أنّ هناك دولا عديدة أقرّت وجود التنــوع الثقــافي وعليــه التنوع اللغوي غير أنّ هذا لم يغير من سيرورة النمو والتطور شيئا؛ بل على العكس مــن ذلك فتعد من أكثر الدول نموا، وعليه فالتنوع الثقافي هو ظاهرة طبيعية راقية تميز أمــة عن أمة أخرى؛ وتتمثل عموما جوانب هذه الظاهرة فــي: التنــوع اللغــوي، والتنــوع العلميّ، والتنوع الفني، والتنوع السياسي...إلخ

1. التنوع الثقافي المادي: إنّ التنوع الثقافي المادي يتمثل في مختلف المنشئات والآلات في الأزياء؛ هذا الأخير الذي تعرف فيه الجزائر تنوعا كبيرا فلكل منطقة من ولاياتها زيّ من الأزياء التقليدية يميزها عن البقية؛ ففي منطقة الأوراس مثلا هناك لباس يعرف باسم "الملحفة" وهو لباس خاص بالمرأة، و"البرنوس"، و"القشابية"، و"الرزة"– الشَاشْ– وهي ألبسة خاصة بالرجل، أما من حيث الطعام فمن أهم الأطعمة "الكسكس"(بربوشة) –في بعض مناطق الشرق الجزائري– (الطعام)–في الجزائر العاصمة–[15]، أيضا "الكاراكو" وهو لباس للمرأة وهو في الأصل لباس المرأة الأندلسية، أيضا "الحايك" وهما من الألبسة التقليدية خصوصا في الجزائر العاصمة، "الشدة التلمسانية"، والجبّة القبايلية –مناطق القبائل–، والقندورة السطايفي– ولاية سطيف وبعض الولايات المجاورة–، الفتلة–التارزي– ولاية قسنطية وبعض الولايات المجاورة. غير أنّنا سنحاول التركيز أكثر حول التنوع الثقافي المعنوي وبالتحديد في جانبه اللّغوي.

كما تعدّ الآثار التي تركها الاستعمار المتعاقب على الجزائر خير دليل على الثقافات التي مرّت عليها مثل آثار جميلة بسطيف، وآثار تيمقاد بباتنة من أعرق الآثار الرمانية فيها، ناهيك عن الآثار العثمانية مثل القصبة بالجزائر العاصمة وغيرها كثير أيضا قصر الآغا بفرجيوة بولاية ميلة...أما الآثار العمرانية التي تركتها فرنسا في الجزائر فكثيرة أيضا للتمثيل نذكر شارع أودان بالجزائر العاصمة...إلخ. وفي ظل كل هذه الآثار فإنّ الآثار التي خلفها الفتح الإسلامي في الجزائر مازال شاهدا إلى يومنا هذا عليه وأهم ما يمكن أن يمثل الحضارة الإسلامية في الجزائر من حيث البناء المساجد، وجدير بالإشارة أنّها الحضارة الوحيدة التي لاقت هذا الاهتمام الدائم والمستمر بل والمتطور من قبل الجزائريين؛ ذلك لأنّ أغلب الجزائريين مسلمون. منذ الدخول الأول للدين الجديد «الإسلام» حيث تشير بعض البحوث إلى أنّ بلغ عدد المساجد والجوامع والزوايا في مدينة قسنطينة قبيل الاستعمار الفرنسي؛ حوالي 80 مسجدا وجامعا بين ما أبقي عليه للعبادة الإسلامية وهذا قليل، مثل: المسجد الكبير بالبطحاء، ومسجد سيدي الكتاني، وبين

ما دمر وهو الأكثر مثل المسجد الكبير بالقصبة، وبين ما حول إلى كنيسة مثل: مسجد سوق الغزل، أما الزوايا فقد بلغ عددها 13زاوية مثل: زاوية أولاد بن باديس، وزاوية باب الواد، وزاوية أولاد بن جلول[16]...إلخ. هذا إنّ دلّ عن شيء فإنّما يدل عن «**حجم البنية الدينية والثقافية العامرة لمدينة قسنطينة قبل احتلالها عام 1837م**»[17]، غير أنّ الاستعمار الفرنسي حاول بشتى الطرق هدم كل ما له قيمة دينية، وروحية، وثقافية بالمجتمع الجزائري؛ حيث عمد إلى هدم المساجد والزوايا والقضاء على المدارس العربية في محاولة للقضاء على هوية هذا الشعب المتمثلة في الدين واللغة، «**فقد ضرب التعليم ضربة قاضية على إثر مصادرة الأوقاف فأغلت المدارس وتوقفت حلقات الدروس الحرة في المساجد وهاجر العلماء ونهبت المكتبات وانشغل الباقون من المتعلمين بحفظ الرمق وخافوا من الكتابة، وإلتحق بعضهم بالمقاومة**»[18] ولعل ما نراه اليوم في الجزائر من مساجد حيث تحوي أصغر البلديات على أكثر من خمس مساجد أنّ كل محاولات الاستعمار باءت بالفشل.

2. التنوع الثقافي المعنوي «التنوع اللغوي»: يعدّ التنوع اللّغوي في مجتمع ما أهم دليل على وجود تنوع ثقافي في ذات المجتمع والعكس صحيح، ومادام الكلام هو الآداء الفعلي للغة فإنّ هذا الآداء؛ فإذا كانت «**دراسة اللغة ترتبط بمفهوم فردي نفسي في اكتسابها، فإنّها ترتبط بمفهوم جمعي في ممارستها...وكل فرد منا يولد في مجتمع يكتسب منه مجموعة من السلوكيات المادية، والقيم والمعتقدات المعنوية التي تصل إلى عقله ووجدانه من خلال اللغة التي تعتبر وعاء لهذه الثقافة**»[19]، ففي الجزائر كغيرها من الدول العربية تعدّ اللغة العربية هي اللغة الأساسية التي تعبر عن الثقافة العربية من جهة، وعن هوية هذه الدول من جهة أخرى يقول الفيلسوف الألماني « رانكه»: «**إنّ الثقافة الإنسانية تعتمد لغتين كلاسيكيتين هما العربية والاتينية، وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية، فقد نفثت اللغة العربية في الشرق روحا فنية، ولا يمكن فهم المصنفات الأدبية الفارسية أوالتركية بدون العودة إلى الكلمات العربية، وخاصة أنها**

وحي القرآن الكريم الذي لا يجارى، يعد بلا مراء أساس العقيـدة الإنسـانية والثقافـة البشرية»[20]، وعلى هذا الأساس حاولنا معرفة كيف كانت اللغة في الجزائر قبيـل قـدوم بني هلال إلى المغرب العربي وبعد ذلك إلى يومنا هذا لمعرفة ومدى تأثير تلك المراحـل التاريخية والتغيرات السياسية والاقتصادية على استعمال اللغة

1.2 اللغة: إنّ البحث في اللغة أو الاستعمال اللغوي في الجزائر سيجعلنا نقف علـى لغتين رسميتين هما اللغة العربية واللغة المازيغية؛ ومما لا شكّ فيه أنّ اللغـة المازيغيـة هي اللغة الأصلية لسكان شمال إفريقيا؛ حيث تكلّموها منذ أقدم العصور، فقـط للإشـارة فإنّ إلقاء نظرة على تاريخ هاتين اللغتين في الجزائر يجعلنا نلاحظ للوهلة الأولى أنّ كـل كتب التاريخ تجمع على أنّ اللغة العربية دخلت الجزائر بفعل الفتوحات الإسلامية لـبلاد المغرب، لكن هاك من يذهب إلى أبعد من هذا فيرى أنّ البربر في شمال إفريقيا عرفـوا العربية مع الكنعانيين الذي أسسوا حضارة قرطاجة؛ بحيث «**تمّ إخـراج الأمـازيغ مـن العصر الحجري، وإدخالهم التاريخ والحضارة، فاستعمل الأمازيغ اللغة الكنعانيـة كلغـة حضارة وثقافة مكتوبة بالحضر، في الثقافة، والعبادات، ودواوين دولهـم، واسـتمروا على ذلك إلى أن جاء العرب المسلمون باللغة العدنانية، فحدث الربط بين اللغة الكنعانيـة العروبية، واللغة العدنانية العربية، وهذا الذي يفسر لماذا تمّ تعريب المغرب فـي وقـت قصير وقياسي، هذا بالإضافة إلى أنّ الأمازيغية هي لغة عروبية قحطانيـة عاربـة**»[21] ومعنى هذا أنّ اللغة المازيغية في أصلها من اللغات السامية وقد علل القائلون بهذا الـرأي إحتوائها على الحروف الحلقية والعبارات الجزلة[22]، ولكي «**تتضح الصورة بجلاء لابـدّ من استعراض قائمة المؤسسات العلمية والتعليمية وسير عدد من أعلام الفكر والثقافـة الذين أنجبتهم المنطقة –القبائل– أو الذين جاؤا إليها أثروا الفكـر والحضـارة العربيـة الإسلامية بأبحاثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم...وكانوا خير خلف لخير سلف حتـى اليـوم**»[23] وإلى يومنا هذا مازالت الجزائر تفخر بأنّ مازال فيها من يحافظون على هذه اللغـة التراثية التي تعتبر أيضا رمزا من رموز الهوية الجزائرية، ففي عـام2002 أصـبحت

اللغة المازيغية لغة وطنية، وفي عام 2016 أصبحت لغة رسمية حالها حال اللغة العربية وهذا وما يطلق عليه اللسانيون التعدد اللغوي والذي يعني أن يكون لدولة ما أكثر من لغـة رسمية.

وفي محاولة تحقق دراستنا سنتطرق إلى جملة من الظواهر اللغوية التي تعد سمة من سمات الاستعمال اللّغوي في المجتمع الجزائر. وأهم هذه الظواهر ما يلي:

1.1.2 التعدد اللّغوي: لقد أصبح من الضروري أنّ نفصل بين هذه التعـدد اللغـوي والازدواجية اللغوية –التي كنا قد حددناها سلفا– والثنائية اللغوية في المجتمع الجزائـري حيث تعدّ الثنائية اللغوية من قبيل استعمال اللغة العربية الفصـحى والعاميـة الجزائريـة بشتى أشكالها، بينما يعدّ التعدد اللغوي من قبيل تعايش لغتين وثقافتين في بلد واحد، حيـث تعد الجزائر من الدول متعددة اللغة حيث تتعايش فيها اللغة العربية واللغة المازيغية هـذه الأخيرة التي أصبحت لغة وطنية عام (2002م) ولغة رسمية إلى جانب اللغـة العربيـة عام (2016م)، وليس هذا بالنقص بل إنه ثراء لا يستوعبه بعض المعارضين للمازيغيـة وبعض المعارضين للعربية؛ «**نظرا لغياب سياسات الترقية اللغوية في الجزائر التي كان من المفروض أن تتأسس على استلهام التراث الأمازيغي والعربي**»[24]، فمن الضـروري أن تتعايش اللغتان والثقافتان فإذا كان القانون التوجيهي على سبيل التمثيل يشـير إلـى أنّ غرض تعليم اللغات هو قدرة التلميذ والفرد عموما على الاضطلاع على ثقافـات الغيـر ومختلف انجازاتهم فكيف لا يصح هذا والمازيغية موجودة قبيل وجود العربية في شـمال إفريقيا؟

2.1.2 الثنائية اللغوية: لقد تعرض عديد الباحثين إلى مصطلح ثنـائي اللغـة فـي محاولة للفصل بينه وبين متعدد اللغات ومزدوج اللغة على النحو الذي قمنا به في مداخلتنا هذه؛ لأنّنا في حالة وصف للواقع اللغوي للمجتمع الجزائري؛ وكنا أشرنا إلى أنّ السـبب في هذا أنّ اللغة من أهم الدلائل التي تنمّ عن مدى ثقافة شعب عن غيـره؛ وعلـى هـذا فمصطلح ثنائي اللغة يعني: «**حالة وجود لغة واحدة بمستويين مختلفين: واحـد عـامّيّ**

والثاني فصيح عند شعب ما، وذلك كوجود اللغة العاميّة بجانب اللغــة الفصــحى عنــد العرب»[25]، وهو حال الجزائر وأغلب الدول العربية التي تتحدث اللغة العربية الفصــحى والعامية الخاصة بهذه الدولة، إذن فاللغة العربية «**لها نمط العربية الفصحى المثاليــة، أو عربية القرآن الكريم، وهذا مستوى عالٍ؛ حيث يحمل الثقافــة التراثيــة فــي مقامهــا الرفيع، كما نجد مستوى أدنى وهو المستوى البسيط الذي لا يتكلــف فيــه النــاطق»**[26] وعليه فإنّ الثنائية اللغوية متمثلة في وجود استعمال المستوى العالي والراقــي ألا وهــو اللغة العربية الفصحى واستعمال المستوى البسيط الذي لا يتكلف فيه صاحبه إنها العاميــة المستعملة في المجتمع الجزائري.

والجزائر غنية بعديد اللهجات فبين شرق الجزائر وغربها اخــتلاف كبيــر م حيــث اللهجة لدرجة أنّ هناك من المفردات التي يتكلمها سكان المناطق الشــرقية فــلا يفهمهــا سكان الغرب والعكس صحيح.

3.1.2 الازدواجية اللغوية: جاء في موسوعة علــوم اللغــة العربيــة؛ الازدواجيــة اللغوية Le Bilinguisme هي: «**وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو جماعة ما فــي الآن نفسه»**[27]، وعندما يذكر التعريف اختلاف اللغتين فهذا يعني أنّ القول بــإنّ تعــايش اللغة العربية الفصحى والعامية لا يعني أبدا وجود الازدواجية اللغويــة ذلــك لأن هــذه العاميات هي أقرب إلى اللغة العربية الفصيحة بل إنّها متفرعة عنها وتصب فيهــا، فــإذا كان هناك عدد كبير من الكلمات الجديدة على اللغة العربية الفصحى في مختلف المواقــف التواصلية في المجتمع الجزائري لا يعني أبدا خلو العامية الجزائرية من وجــود كلمــات كثيرة لها أصول عربية، وهذا التعايش بين العربية الفصحى والعاميــات بتعــددها فــي المجتمع الجزائري يمكن عدّه من قبيل الثنائية اللغوية.

أما الازدواجية اللغوية ومن خلال التعريف الوارد في موسوعة علوم اللغــة العربيــة يمكن عدّه من قبيل تعايش اللغة العربية واللغة الفرنسية، حيث يــتكلم عــدد كبيــر مــن الجزائريين اللغتين معًا، بل إنّ اللغة الفرنسية لغة التعليم في الجامعــات الجزائريــة فــي

التخصصات العلمية والتكنولوجية دون تخصصات العلوم الاجتماعية التي تدرّس باللغة العربية. حيث تعدّ اللغة الفرنسية هي لغة المستعمر المفروضة على الجزائريين في فترة الاستعمار بشتى الآليات؛ والتي أصبح الجزائريون رافضون لها ولأي شيء له علاقة بفرنسا خصوصا مع الحراك الشعبي الذي تعرفه الجزائر منذ 22 فيفري 2019 حيث أصبحت ضرورة التخلي عن اللغة الفرنسية مطلبا من مطالب الشعب، فإنّ هذا ربما يوحي بوعي الشعب الجزائري لمدى خطورة أنّ تكون اللغة الفرنسية هي لغة التعليم في تلك المرحلة وفي غيرها من المراحل، كمرحلة التعليم الثانوي والمتوسط حيث تدرج الكتب المدرسية عددا كبيرا من المصطلحات العلمية.

4.1.2 التداخل اللغوي: عرّف معجم لسان العرب لابن منظور "التداخل" Interférence على أنّه: «**تداخُلُ المفاصل ودِخالُها: دخول بعضها في بعض...وتداخُلُ الأمور: تشابهها والتباسها ودخول بعضها في بعض، والدِّخْلة في اللون: تخليط ألوان في لون**»[28]؛ ومعنى هذا أنّ التداخل في معناه اللغوي المستمد من مادة [د خ ل] يعني الاحتكاك والتشابه والتباس واختلاط شيئين أو أكثر في بعض، وفي المعجم الوسيط جاء: «**تداخلت الأشياء: داخلت، والأمور: التبست وتشابهت**»[29]، وهو نفس ما ورد في معجم لسان العرب لابن منظور؛ إذ يدل تداخل الأشياء على تشابهها و التباسها ببعضها وتشاركها.

أما التداخل اللّغوي أو تداخل اللغات فهو: «**تأثر وتأثير لغة بلغة أخرى مجاورة لها أو في احتكاك معها بسبب تبادل اقتصادي، أو حروب أو غير ذلك. وقد يؤدي تداخل لغتين أو أكثر إلى نشوء لغة جديدة كما حدث في مالطا**»[30]، حيث تعكس هذه الظاهرة ما حدث في الجزائر الاحتكاك[31] المباشر بين اللغة العربية واللغة التركية والفرنسية.

وقد أشار صالح بلعيد في هذا الخصوص أيضا إلى أنّه يمكن أن يحدث نتيجة «تأثر اللغة العربية الفصيحة التي يتكلّمها الطفل العربيّ بلهجته العامية أو باللغة الأجنبية التي يتعلمها»[32]

والتداخل إما أن يكون إيجابيا حيث يثري اللغة المتأثرة باللغة المتأثر بها، وقد يكون سلبيا ين تطغى اللغة المتأثر بها فتصبح أساسا في تمرير الرسائل اليومية، حيث سنحاول الفصل بين الرسائل المتبادلة بين عامة الناس في الحياة اليومية، وبين الرسائل المتبادلة في المجال الأكاديمي خصوصا في المؤسسات التعليمية.

5.1.2 الهجين اللغـوي: إنّ الحديث عن ظاهرة الهجين اللّغوي في كتب علوم الطبيعة والحياة يستدعي منّا أولا وقبل أيّ شيء الوقوف على مفهوم الهجين اللّغوي وهو كما عرّفه صالح بلعيد في مقاله المعنون ب: "التهجين اللّغوي: المخاطر والحلول" «**استيلاد لغة لا هي بالعربية ولا هي بالأعجمية، بالمزج في الخطاب بين كلمات عديد من اللغات**»[33]، واللغة الهجينة هي: «**لغة ذات طابع خاص وتاريخ غير طبيعي حيث إنّها تنشأ من اتصال متحدثي لغتين مختلفتين ببعضهم، علما أّ كل طرف لا يتحدث لغة الآخر، وفي هذه الحالة تنشأ لغة مبسطة تأخذ تركيبها اللغوية من إحدى اللغتين وكلماتها من اللغة الأخرى. وليس لهذه اللغة المبسطة متحدثون يتكلمونها كلغة أصلية ولكن مع مرور الوقت ينشأ أطفال ذلك المجتمع يتكلمونها كلغة أصلية، وفي هذه الحالة تسمى اللغة لغة هجينة**»[34]، **إنّ أهم شيء يمكننا الإشارة إليه هي أنّ للهجين اللغوي علاقة بالتداخل اللغوي وأنّ هذا الأخير مرحلة سابقة للهجين اللغـوي؛ أي أنّ الهجين نتيجة حتمية للتداخل اللغوي، لكنه يمثل التداخل اللغوي السلبي حيث تنشأ من استعمال تركيب اللغة واستعارة كلمات اللغة الأخرى.**

ثالثا/ أسباب التنوع الثقافي واللّغوي في الجزائر: للتنوع الثقافي واللّغوي في الجزائر أسباب كثيرة ساهمت في تشكّل هذا التنوع منها أسباب تاريخية، وأسباب اقتصادية وأسباب اجتماعية، وأسباب سياسية.

1. الأسباب التاريخية: وتتمثل في تعاقب الأقوام المستعمرة على شمال إفريقيا بما في ذلك الجزائر حيث كانت تغرف من كل قوم شيئا بدليل أنّك إذا بحثت في الكلمات الجزائري ستجد منها ما هو روماني وما هو يوناني وما هو فرنسي...إلخ.

2. الأسباب الاقتصادية: بكم التبادلات الاقتصادية فهذا يجبر الجزائريين على الاحتكاك بغيرهم حيث يؤثر كل طرف في الآخر سواء على مستوى اللغة والعلوم والفنون...إلخ.

3. الأسباب الاجتماعية: التأثير والتأثر الدائم والمستمر بين مختلف الشعوب والمجتمعات، ما يجعل المجتمع الجزائري في محاولة من أجل اللحاق بالمجتمعات المتقدمة كالأوروبية والأمريكية.

4. الأسباب السياسية: نظرا إلى السياسات المنتهجة من قبل المستعمر والتي تظهر نيته الطامحة إلى تخلي الجزائريين عن لغتهم الأم في مقابل استعمال لغته، نحو ما قام به الفرنسيون بتبني سياسة "الفرنسة" في المدن، وسياسة "التجهيل" في القرى والأرياف كي تنتهي من العربية بشكل مطلق.

الخاتمة: توصلنا من خلال بحثنا الموسوم: «التنوع الثقافي واللغـوي فـي المجتمـع الجزائري: أسبابه ونتائجه» إلى النتائج التي نجملها في النقاط التالية:

أنّ التنوع اللغوي هو دلالة واضحة للتنوع الثقافي في مجتمع ما، أضف إلى هـذا أنّ كل من التنوع اللغوي والثقافي لا يعني بالضرورة إعلان حالة الخطر في دولة مـا بـل على العكس من ذلك ففي حالة ضرورة التعايش اللغوي بين بعض اللغات على نحو مـا هو حادث في الجزائر حيث توجد اللغة الأمازيغية والتي تعدّ اللغة الأصلية لسكان شـمال إفريقيا وتراث لابدّ من الحفاظ عليه، واللغة العربية التي تعدّ لغة الدين الإسـلامي، ولغـة أهل الجنة، ولغتنا الأم؛ فأغلب الجزائريين يتكلمون اللغة العربية. وكل هذه الأشياء تجعلنا أيضا نعمل في سبيل الحفاظ على اللغة العربية.

إنّ الحالة التي تجبرنا على أنّ نتحرك والتي تشعرنا بالخطر هي حالة زحف استعمال اللغة الفرنسية في مجال التعليم خصوصا التعليم العالي في المجال العلمي والتكنولـوجي. حيث نتج عن هذه الازدواجية استعمال اللغة الفرنسية في الجامعات، وليس هذا فقط بـل ظهر ما يعرف بالتداخل اللغوي الكبير في استعمال اللغتين العربية والفرنسية سـواء فـي المؤسسات التعليمية أم في الحياة العامة.

وعلى هذا فإنني أقترح:

وضع سياسة لغوية تجمع بين اللغتين وتعمل على استثمار التنوع اللغوي والثقافي فـي الجزائر بما يخدم الشعب والدولة ويغرس في المجتمع الجزائري ثقافة تقبل الآخر.

الدعوة إلى التعايش اللغوي بين اللغتين الرسميتين اللغة العربية والمازيغيـة ومحاولـة امتصاص التعصب الذي نلمسه في البعض سواء للغة العربية أم للغة المازيغية، والنظـر إليهما على أنّهما لغتان تعبران عن التراث والحضارة والثقافة.

استثمار وسائل الإعلام والاتصال من أجل ترقي استعمال اللغـة العربيـة وتقريـب اللهجات الجزائرية من اللغة العربية الفصحى.

الاحالات:

[1]–ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنـــان ط3، 1999م، باب الثاء، 2/ 112،111.

[2]– أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، مصـــر، ط1، 2008م المجلد الأول، ص318.

[3]– إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، 9.8/5.

[4] - David Cryctal , A Dictinary of Linguistics and Phonetics , Blackwell Publishing , 6th edition , 2008 , P 124 .

[5]– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شـــاهين، دار الفكـــر، دمشـــق، ســـوريا، ط4 2000م، ص24.

[6]–كان السبب في تأليف هذا الكتاب حسب ما ذكره «عمر مسقاوي» في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب أنّ الطلاب في المعادي بالقاهرة كانوا يرتادون مجلسه «**وأكثرهم يأتيه مستوضحا مفهوم الثقافة فيما كتب في (شروط النهضة وفكرة الإفريقية الآسيوية)، وفي ظل حديثه يوما بعد يـــوم يدلف من خلال تحليل مفهوم الثقافة عبر تطور الحضارات وتدافع الشعوب، إلى أن تكونت لديه فكرة الكتاب». مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص7.**

[7]– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص13.

[8]– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص74.

[9]–أحمد عبد الفتاح الزكي، وفاروق عبده فليه، معجم مصطلحات التربية لفظا واصـــطلاحا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ص142.

[10]– ينظر: أحمد عبد الفتاح الزكي، وفاروق عبده فليـــه، معجـــم مصـــطلحات التربيـــة لفظـــا واصطلاحا، ص142.

[11]– بدر الدين بن تريد، قاموس التربية الحديث–عربي، إنجليزي، فرنسي–، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010م، ص283.

[12] - R. Galisson et D. Coste: Dictionnaire de didactique des langues , Aubin imprimeur , France , éditions n=6 , 1988 , P306.

[13]– أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 2008م، ص17.

[14]– أحمد بوكوس، الهيمنة والاختلاف في تدبير التنوع الثقافي، تـــر: ســـعيد كريمـــي، مطبعـــة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2016م، ص38.

[15]– راضية عداد، الأدب الشعبي في منطقة أم البواقي (النثر خاصة) جمع ودراســة، إشــراف: محمد العيد تاورتة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2005م، ص16.

[16]– ينظر: الطاهر بونابي، ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسـنطينة أواخــر العهــد العثماني، عصور الجديدة، ع8–عدد خاص بقسنطينة–، 2015م، ص126.124.

[17]– الطاهر بونابي، ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسنطينة أواخر العهــد العثمــاني ص123.

[18]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإســلامي، بيــروت، لبنــان، ط1 1998م، 10.9/8.

[19]– كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة: دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافــة العربية، كتب عربية، 2005م، ص37.36.

[20]–أنور الجندي، معالم الفكر العربي المعاصر مع دراسة في الثقافة العربية الإسلامية في معارك التغريب، مطبعة الرسالة، ص207.

[21]–عثمان سعدي، معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية(البربرية)، دار الأمة، الجزائــر، ط1 2007م، ص4.

[22]– ينظر: عثمان سعدي، معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية(البربرية)، ص5.

[23]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيــروت لبنان، ط1، 1995م، 24/1.

[24]–يوسف مقران، واقع حال التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية (نحو بــديل أفضــل: اللغــة الجامعة)، المجلس الأعلى للغة العربية، التعدد اللساني واللغة الجامعة، الجزائر 2014م، 16/2.

[25]– إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 20/5.

[26]–صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائــر، دط، 2008م ص43.

[27]– إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 378/1.

[28]– ابن منظور: لسان العرب: دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، المجلد الخامس، مادة[د خ ل]، ص230.

[29]– مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصــر، ط4 2004م، مادة [د خ ل]، ص275.

[30]– إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 288/3.

[31]– الاحتكاك اللغوي هو: «**ما ينشأ من تأثر وتأثير بين لغتين مختلفتين احتك الناطقون بهما بشكل مباشر أو غير مباشر**» إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 224/1.

[32]– صالح بلعيد، الهجين اللغوي: المخاطر والحلول، المجلس الأعلى للغة العربية، اللغة العربية بين التهجين والتهذيب"الأسباب والعلاج"، الجزائر، 2010م، ص21.

[33]– صالح بلعيد، الهجين اللغوي: المخاطر والحلول، ص22.

[34]– إبراهيم صالح الفلاي، ازدواجية اللغة النظرية والتطبيق، ط1، 1996م، ص18.

واقع وآفاق التعدد اللّغوي وأثره في التنمية التعليمية والثقافية بالجزائر.

أ. فتـــحي بوقفطان

أ. يوسف مربح

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

تُعتبر اللّغة همزة وصل بين الشعوب ومرآة عاكسة لتفكيرهم وثقافتهم، ولها عدّة وظائف أساسية كالوظيفية التواصلية والتّعبيرية والتأثيرية بالإضافة للوظـــائف الثانويـــة الأرخرى، كما تُعتبر اللّغة ذلك النظام الاجتماعي الذي يشترك فيه المجتمـــع اللغـــوي الواحد، فإن العالم اليوم وبفضل التطوّر العلمي والتّكنولوجي أصبح يفرض على الفرد تعلم عدة لغات حتى يمكنه التواصل مع المجموعة الإنسانية بشكل جيد، وذلك لأهميـــة تعلّم اللّغات وفائدته كما قال **غوته الألماني (من لم يعرف من اللغـــات إلا لغتـــه فقـــد جهل حتى لغته)، وقد أشار العلماء العرب القدامى** إلى الطبيعة الصـــوتية الاجتماعيـــة للغة، ودلّوا على أنّها ظاهرة اجتماعية، كما يعرفها ابن جني (ت 392 هـــــ) بقولـــه: "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، صفحة 33). وهذا تعريف دقيـــق يذكر كثيرًا من الجوانب المميزة للغة. فقد أكد ابن جني أولا الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضا أنها تستخدم فـــي مجتمـــع فلكل قوم لغتهم، ويؤكد هذا التعريف الطبيعة الصوتية للغة والوظيفة الاجتماعيـــة للغـــة وتنوع البنية اللغوية من مجتمع إنساني لآخر، دون تخصيص ذكر اللغة العربية علـــى حساب اللغات أخرى.

وبما أن الاختلاف طبيعي بين البشر في ألوانهم وأجناسهم، فإنّ اللّغـــات والألســـن أيضا تختلف من مجتمع لغوي لآخر منذ القدم لقوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّـــمَاوَاتِ**

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22)﴾ (القرآن) سورة الروم.

كما يعدّ التّعدد اللّغوي من أهم الخصائص اللّسانية التي تتميّز بها النصوص المكتوبة والشفوية بغض النّظر عن التّعدد اللّهجي في الجزائر الذي حضي باهتمام بالغ في الدراسات اللّسانية للغة المتخصصة،

والاشكاليات التي سنعالجها في هذه المداخلة هي كالآتي: ما هو التعدد اللغوي؟ وما هي أسبابه، وما هو واقعه بالجزائر؟ وما هي أثاره على التعليم وتنميته؟ وما هي آثاره على الأمن الثقافي؟

وفي ضوء هذا التصوّر سنحاول الاعتماد على المنهج الوصفي التّحليلي للإلمام بموضوع التّعدد اللغوي في الجزائر ومدى تأثيره على تنمية التعليم والثقافة في الجزائر، والذي شهد تطورا وكبيرا في السنوات الأخيرة لدى خاصة باعتبار اللغة المازيغية لغة وطنية من الدولة الجزائرية؛

هذه جملة من الأسئلة التي حاولت بحث إجابة عنها من خلال بحث عن المواضيع والمصطلحات المتعلقة بالتّعدد اللّغوي والتّنمية البشرية والاقتصادية التي تناولها الباحثين العرب والغرب، واختصرت فيه أهم التعريفات للتعدّد اللّغوي وكذلك عناصر التنمية، وأهم المفاهيم التي تهتم بها، ثم انطلقت إلى الغرض الرئيسي وهو دراسة مدى تأثير التّعدد اللّغوي على تنمية التّعليم والنّهوض به ؛ وكذلك تنمية وتحسين الواقع الثقافي الحافل الذي تزخر به الجزائر، بالإضافة إلى إنعاش الاقتصاد الوطني وتطويره لمواكبة الثورة الاقتصادية التي يشهدها العالم.

وعلى هذا الأساس، تبقى الاستفادة من هذا التّعدد اللّغوي ضرورة ملحّة وراهنة بغية استغلال ما يوجد في الأنظمة اللغوية المختلفة من خصائص ومميزات وتوظيفها في تدريس اللغة المراد تعليمها. فأين يتجلى اللبس الدلالي للتعدّد اللغوي؟ وكيف يمكننا

أن نستغل هذه الظاهرة في تعليم وتعلم اللغات؟ ثم كيف نوظّف هذه المعطيات في إطار ما يسمى بديداكتيك اللّغات؟

العرض منظم على الشكل التالي: في البداية، نقدم تصورا عاما ومفهوميا عن مفهوم التعدد اللغوي وما يحويه من مفاهيم تتداخل معه، ونقدم بعد ذلك إشكالية اللّبس الدّلالي الذي يحدثه التعدد في تنمية التعليم والثقافة، للننتقل إلى الحديث عن كيفية تجاوز المشكل انطلاقا من استغلال التعدد في التنمية التعليمية والثقافية والاقتصادية مثلما فعلت كبريات الدول المتطورة.

1- التّعدّد اللّغوي:

مفهوم التعدد اللغوي Purilinguisme: يشير مفهوم **التّعدّد اللّغوي** في الأدبيات اللّسانية عامة إلى وضعيات تواصلية لغوية مختلفة، تختلف فيها اللّغة المستعملة حسب الوضعية والسّياق أو الحاجيات والغايات والأهداف، أي أننا نتحدث بأكثر من نظامين لغويين، وعلى هذا الأساس، نجد أن التّعدد اللّغوي يحتوي ما يسمّى بالأحادية اللّغة والثنائية اللّغوية والازدواجية اللغوية، وهو ما يفرض علينا الوقوف عند كل واحد من هذه المفاهيم.

فالأحادية اللغوية يتم فيها غياب مستوى آخر من الأنظمة اللغوية، أي حضور مستوى واحد وأوحد، غير ان هذا يغيب بشكل أو بآخر، لأن كل لغات العالم تتميز بخاصية التعدد اللغوي، وإن كان هناك اختلاف واضح بين أنظمة اللغة وخصوصية كل دولة على حدى.

أما الثنائية اللغوية يمكن تحديدها بأنها " وضعية لغوية يتناوب فيها متكلمون من مجموعة لغوية ما على نظامين لغويين مختلفين " (الشيباني، صفحة 133)، إذ نلاحظ أنها ظاهرة أكثر شيوعا في مجموعة من المجتمعات خصوصا العربية التي تتوفر على مجموعة من الأنظمة اللغوية.

وفيما يخص الازدواجية اللغوية (Diglossie)، فيقصد بها "تواجد نظامين أو نوعين لغويين مختلفين في مجتمع ما تجمع بينهما أواصر قرابة وعلاقة نسب" (الشيباني صفحة 111)، وهي بهذا من الظواهر التي تفرض نفسها بحدة داخل المجتمعات بصفة عامة، بل إن معرفتها تعتبر من الأمور الضرورية لمعرفة إنتاج المتعلم من اللغة، ومن تم استغلالها في عملية التعلم. ونشير إلى أن ظاهرة الازدواجية اللغوية سمة تتميز بها كل اللغات ولا تقتصر على لغة معينة دون غيرها.

كما يعدّ التّعدد اللّغوي ظاهرة اللّغوية تشهدها عدة دول ومنها الجزائر، وذلك لطبيعة التركيبة اللّغوية التي تتكون منها مجتمعاتها، والتي تتميّز عادة بوجود لغتين أو أكثر كالعربية والفرنسية والأمازيغية، وقد اصطلح عليه العلماء اللغة بازدواجية اللغة لوجود عدة تعاريف ومفاهيم تختلف من باحث لآخر، وقد عرّف التّعدد اللّغوي حديثا بـ " هو **التّعرف على أنظمة لغوية متعددة قد لا تكون بالمستوى نفسه، ولا القيمة نفسها ولا درجة الإتقان نفسها...و لكنها القدرة على التواصل و التحاور والفهم والقراءة والكتابة...والذي يحرك القدرة ويجعلها فعالة و مثمرة هو التعلم والتعرف والرغبة...وغيرها من المستويات التي تسهم في تحقيق التناغم بين اللّغات التي يتوسل بها إلى الانفتاح على تجارب الآخرين ومعارفهم وطبيعة مجتمعاتهم...فالنّظام اللّغوي إذا شيء مركزي:حيث ينبغي التفريق بين اللغات التي لا تمتلك نظاما على مستوى الكتابة، واللّغات التي بحوزتها هذا النظام، فالفرق شاسع بينها: لأن الأولى تتدرج في الانقراض، فلا شيء يسعفها ويقوي شأنها فهي هالكة لا محالة بهلاك من يروج لها، بينما الثانية فماضية في علوها ورفعتها وبسط قوتها بين مثيلاتها لامتلاكها نظاما لغويا معينا تتحرك فيه ووفقه. و هي تسعى من خلاله خلق تقابلات صوتية، وانسجام أصواتي، وتحديد سمات دلالية وخصائص مميزة...تقيمها بين مختلف اللغات الطبيعية ذات الأنظمة المشتركة أو التي تجمعها ؛على الأقل بعض الخاصيات المشتركة.** (الاسماعيلي، الصفحات 01-02)

2- **واقع التّعدد اللّغوي في الجزائر:** يمكن تقييم واقع التّعدد اللّغوي في الجزائر من خلال آراء بعض الباحثين المختصين في ميدان اللغة خلال انعقاد النـدوة الدولية سنة 2012م بالجزائر بعنوان: "التعدّد اللّساني واللغة الجامعة" وتمحورت النّدوة بتذكيرهم على أهمية التّعدد اللّغوي شريطة الحفاظ على خصوصية اللّغة الجامعة وفي هذا الصّدد، تحدّث السيد عثمان سعدي باحث و رئيس جمعية الدفاع عن اللغة العربية بالجزائر عن التعدد اللساني بالجزائر وعلاقته باللغة الجامعة مفسرا ذلك بأن اللغة الجامعة هي اللغة الرسمية والألسنة الأخرى محاطة بها كلهجات داعمة لها.

وتابع السّيد عثمان سعدي حديثه بأن الجزائريين قبل غزو الفرنسيين لهم كانوا ينظرون للغة العربية كـ "لغة وحيدة محاطة بلهجات عربية وأمازيغية تعتبر روافد لها."

أما السيد عبد القادر الفاسي الفهري أستاذ بجامعة محمد الخامس المغربية فأكد بدوره على ضرورة معرفة كيفية تدبير شؤون اللغة الجامعة داخل الوطن العربي. وحث على الاعتراف بالتنوع اللغوي الموجود داخل الوطن العربي خاصة اللغات الأجنبية كالفرنسية والانجليزية المستخدمة في مختلف المجالات العلمية وهذا دون إهمال اللهجات المحلية التي هي لغة التفاعل والحياة داخل المجتمع باعتبارها "مغنية للغة الجامعة وليس مفقرة لها."

ويرى السيد الفهري أن اللغة يجب أن تكون عامة في التعليم أفقيا وعموديا أي تنطبق على جميع المواد وعلى جميع أسلاك التعليم ولتقوية هذه اللغة إلى جانب الفكر بالوطن العربي داعيا في الوقت ذاته إلى الاستعانة باللغات العالمية لدعم اللغة العربية الجامعة خاصة في مجال العلوم التقنيات الحديثة.

ومن جانبه، أشار السيد الحبيب النصراوي أستاذ بجامعة قرطاج التونسية إلى أهمية التعدد اللساني في تطوير اللغة العربية التي قال أنها تتطور بما يتاح لها من انفتاح على اللغات الأخرى ضاربا المثل بالواقع التونسي الذي تعبر فيه اللغة الحالية عن عديد

الثقافــــات التــــي تــــداولتها الحقــــب الزمنيــــة والحضــــارات المختلفــــة. وأضاف السيد النصراوي أن التعدد اللساني بحاجة إلى إيجاد آلية للأخذ مــن اللغــات الأخرى دون فقدان الهوية و في الوقــت ذاتــه بعيــدا عــن التقوقــع عــن الــذات. أما السيد صالح بلعيد أستاذ بجامعة تيزي وزو ومنسق الندوة أن اللغة الرســمية وهــي اللغة الجامعة لها دور ايجابي انسجامي في المجتمع مضيفا أن التعدد اللغوي لا يــؤثر سلبا على المجتمع سيما إذا استغل عقلانيا عن طريق إنزال كــل لغــة محلهــا حيــث تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية بينما تستخدم باقي اللغات الأجنبيــة فــي المجــالات العلميــة والتقنيــة التــي لا تغطيهــا اللغــة العربيــة خاصــة بــالجزائر. وأردف السيد حسن البشير أن التعريب الشامل للتعليم المدرســي والجــامعي و إنشــاء مجمع اللغة العربية القومي و توطين البحث العلمي المتقدم في اللغة القومية (العربيــة) إضافة إلى تحرير الخطاب القيادي بالعر من جانبه، حمل الســيد حســن بشــير مــن جامعة الخرطوم بالسودان في ورقته المعنونة "السياسة اللغوية منهج للتأمل والتطــوير ومواكبة العصر" الأمة العربية مسؤولية رسم وتطبيق السياسة اللغوية العربية الموحــدة التي تتلاقى فيها أفكار النخب في الوطن العربي خدمة للغة الجامعــة المشــتركة بــين أقطارها (الأنباء، 2012).

وأوضح المتحدث أن السياسة اللغوية العربية الموحدة التي دعا إليها تحتــاج إلــى رسم الخطط المنهجية الدائمة والخطط المرحلية المرتبطة بالنشاط العربي المتجدد.

3- **التنمية البشرية:** كان مفهوم التنمية الاقتصادية يأخذ في النظر نمو الإنتاج في البلاد وزيادة الدخل القومي .ولكن هذا المفهوم قد تطور ليشمل الجوانــب الاجتماعيــة والثقافية والسياسية لتكون التنمية شاملة بحيث يطلق عليها اسم (التنميــة البشــرية) أو (التنمية الإنسانية) التي تتّخذ من الرفاه الاجتماعي معياراً لها، ليعبر عن إشباع حاجات المواطنين الأساسية من سكن وغذاء وتعليم، وتمتّعهم بالرعايــة الصــحية والضــمان الاجتماعي والخدمات الأخرى .وتتّصف التنمية البشرية بالشمولية، (القاسمي، صفحة 2)

فهي لا تقتصر على عنصر من عناصر الإنتاج، بل تشمل الإنسان والأرض معـــاً، ولا تكون لفائدة فئة من المواطنين دون غيرهم، ولا لمصلحة جهة دون أخرى، بل يشارك فيها جميع المواطنين رجالاً ونساء في جميع أنحاء البلاد، وتعم فائدتها جميع المواطنين وهدفها تحسين نوعية الحياة، لتمكين كلّ مواطن من العيش بطريقـــة تليـــق بالكرامـــة الإنسانية، وينطبق عليها القول العربي القديم الذي يجعل من مهمة الدولة (استصـــلاح العباد وعمارة البلاد)

يؤكِّد القاسمي أن تحقيق التنمية البشرية يتطلَّب أن تتـــولّى الدولـــة نشـــر التعلـــيم الإلزامي الجيد في كل أنحاء البلاد وباللغة الوطنية الفصـــيحة المشـــتركة فـــي جميـــع مراحل التعليم ومستوياته وتخصُّصاته، وعلى نفقة الدولة. وهذا ما فعلته فنلندا وكوريـــا مثلاً، اللتان تستخدمان اللغة الوطنية المشتركة في جميـــع مرافـــق الدولـــة التعليميـــة والإدارية والاقتصادية، مع تمكين الطلاب من اللغات الأجنبية. ولا يجوز فـــي كوريـــا مثلاً، أن ينخرط الطالب في مدرسة أجنبية. فالمدارس الأجنبية فـــي كوريـــا للأجانـــب (القاسمي، 2012).

فالدولة هي التي تخطط للتنمية البشرية وتنفّدها وترعاها .وطبقاً لتقريـــر البرنـــامج الإنمائي للأمم المتّحدة، يعكس معدلُ التنمية البشـــرية إنجـــازات الـــبلاد فـــي التعلـــيم والاقتصاد والثقافة.

4- **آثار التعدد اللغوي على تنمية التعليم:** إنّ التعليم المتعدد اللّغات عادة ما يُحيـــل على البرامج التعليمية التي تستعمل لغات أخرى غير اللغة الأولى كوســـائل للتلقـــين أو تدريس لغات إضافية ضمن المناهج المدرسية أو تدريس الكفاءة التواصلية في أكثر من لغتي،وتعليم اللغات الأجنبية حتمية لابد منها وهذا لا يعتبر إنقاصا من قيمـــة لغـــة الأم (العربية)بل إضافة لها.

ولتحقيق هذا الهدف، فإن هذه البرامج تستعمل مخططـــات تعليميـــة معقـــدة بغيـــة استيعاب الأهداف اللغوية المتعددة ومواد المناهج التربوية واستراتيجيات التـــدريس.

وقد يطرح هذا المسعى تحديا كبيرا على اعتبار أن التعليم المتعدد اللغـــات يـــرتبط بسياقه الاجتماعي واللغوي، آخذا بعين الاعتبار وضعية واستعمال اللغات المعنيـــة كتعليم اللغات الأجنبية بالجزائر.

من الممكن جدا استعمال وتوظيف التعدد اللغوي في المنظومة التربويـــة التعليميـــة شريطة مراعاة خصوصية المتعلمين وحمولتهم اللغوية والثقافيـــة ومســـتواهم العقلـــي والعلمي.

وتعتبر المقارنة والتداخل ميزتين أساسيتين لفهم التعالق القائم بين اللغات وتأثير كـــل نظام من هذه اللغات على الآخر، غير أن هذا لا يلغي الالتباس الذي قد تحدثـــه هـــذه العملية، فالمتعلم يعمل على نقل "بنية اللغة الأولى إلى اللغة الثانية فإذا كان هناك تشـــابه في بنى اللغتين فهذا يسهل عملية التعلم بينما إذا كان هناك اختلاف سيضـــطر المتلقـــي لتغيير عاداته اللغوية ويصبح الفرق والاختلاف مصدرين للخطأ والتـــداخل" (دوشـــين، 2002، صفحة 153).

وتتميز المقارنة التي يقوم بها المتعلم عند محاولته فهم نظام مختلف عما يعرفه عن لغته التي تعلمها وتكلمها منذ نعومة أظافره، بما يسمى معالجة المعطيات انطلاقا مـــن توظيفه لإستراتيجيات معرفية يواجه فيها اللغة المتعلمة، وما مدى تشابه بعـــض مـــن عناصر الأنظمة اللغوية مع اللغة المراد ضبط نظامها، بعدها يوظف استراتيجيات فوق معرفية يعرف بها ما مدى نجاحه في عملية التعلم، أو فشله في هذه العملية.

وعلى هذا الأساس، يبقى لزاما على مدرس اللغة كيفما كان نوعها الإلمام بالأنظمة اللغوية التي تتداخل مع اللغة التي نود تعليمها، كما يجب أن يعي أن عدم معرفته بهـــذه المعطيات يؤدي به في غالب الأحيان إلى الفشل في مهمته.

وهذا ما يبرز لنا فشل كثير من الإستراتيجيات التي تقـــارب تعلـــيم اللغـــة، نظـــرا لإبعادها هذه الجوانب المهمة في اللغات، ونخص بالذكر عدم الاهتمام باللغة الأم بصفة عامة وباللهجات المحلية بصفة خاصة، لأنها تتوفر على عناصر أولية قد تفيد إلى حـــد كبير في تعليم اللغة بشكل جيد ومضبوط (بلفقير، صفحة 02).

إذن، فاستغلال التشابه الموجود في الأنظمة اللغوية المختلفة يعتبر عتبة أساس، وأوليات مهمة في تعلم اللغة المراد تعليمها، خاصة وأن اللغة المتعلمة في بلد تكون في بعض الأحيان قريبة من اللغة الرسمية، وإن كان هناك تباعد بينها وبين ما هو موجود من لغات ولهجات مختلفة.

كذلك، فمعرفة النظام النحوي لهذه اللغات يسعفنا كثيرا في تدريس النحو لفئة مستهدفة، فإذا كان في لغة يعرفها المتعلم ويتحكم في نظامها، أن الفاعل والفعل يتطابقان يسهل على المتعلم فهم الظاهرة صياغة المثنى مثلا، انطلاقا من قيامه بعملية المقارنة والنقل، لكن إذا كان هناك اختلاف يصبح لزاما على المدرس ان يتلافى هذا التداخل، وذلك بشرحه القاعدة بضرب أمثلة على هذا الاختلاف من الدارجة إن اقتضى الأمر ذلك.

ويرى دارسوا اللغات أن الغالب في الشخص الذي يستعمل عددا من الألسنة أنّه قد لا يتقن أي لغة منها إتقانا جيدا أو متعمقا، على الأقل تكون معرفته باللغات التي يستعملها متساوية القيمة وهذا ما يجعلنا في التعليم المعاصر القائم على الثنائية التعددية وأمام وضع يتخرج التلميذ فيه من المؤسسة التعليمية او الثانوية أو الجامعية وهو لا يتقن لغته الوطنية ولا أية أخرى إتقانا جيدا، وفي هذه الحالة يحدث ما يطلق عليه كثير من الباحثين اسم (انعدام الأمن اللغوي) الذي أسال حبر كثير من الباحثين في السنوات الأخيرة (الودغيري، صفحة 66).

5- **آثار التعدد اللغوي على تنمية الثقافة بالجزائر:** يعد التعدد اللغوي في الجزائر من بين أسباب التّنوع الثقافي الذي تزخر به، فاللغة العربية تحمل ثقافة العرب وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم في المنطقة، واللغة الأمازيغية تحمل ثقافة الأمازيغ وحضارتهم، فالتنوع الثقافي ظاهرة طبيعية وسمة أساسية في المجتمعات البشرية ويشير مفهوم التنوع الثقافي إلى التعدد والاختلاف الثقافي بين أفراد المجتمع الواحد الذين على الرغم من اختلاف خلفياتهم الثقافية، إلا أنهم يشتركون في عوامل متعددة

ومنها: اللغة، القومية، وتقوم العلاقات بين الأفراد من ثقافات متنوعـــة علـــى أســـاس الاحترام، والتشارك، والتسامح، إضافةً إلى تمتعهم بحقـــوق متســـاوية دون أي تمييـــز وباختصار تعتبر اللغة الهوية الثقافية لمجتمع ما (موضوع، صفحة 01).

يعتبر التّعدد اللّغوي المظلة التي تجمع أفراد المجتمع علـــى اخـــتلاف خلفيـــاتهم الثقافية. والعلاقة بين التنوع اللغوي والتنوع الثقافي علاقةٍ وطيدة، فكل لغـــة لا تكتمـــل إلا بالثقافة، ولعلّ أبرز ما يميّز اللّغة قدرتها على استيعاب التنـــوّع الثّقـــافي للشـــعوب ووظيفتها التي ترتكز على حفظ ثقافة المجتمع اللّغوي مـــن الانحـــلال فـــي الثقافـــات المختلفة والاضمحلال، لتبلور لهم في النهاية هوية ثقافية واحدة تجمعهم مسجلة كحفـــظ التراث والتاريخ الإغريقي في إلياذة هوميروس، ولعلّ أبرز مثال علـــى العلاقـــة بـــين التنوّع اللغوي والهوية الثقافية الجزائرية، التي جمعت قوميات متعددة، وخلفيات ثقافيـــة متنوعة داخل هوية ثقافية واحدة، وهي الهوية الجزائرية، مظاهر التنوع اللغوي وأبعاد الهوية الثقافية تسود الجزائر اليوم العديد من الثقافات المتنوعة، فلا وجود لثقافة واحـــد سائدة بل لكل جماعة إنسانية خصوصية تميزها عن غيرها من الثقافات، بحيث يجمعها مركب متجانس من القيم، والمعارف، والرموز، فقد نجد بعض الثقافات منتشرة بكثـــرة جغرافيا كالثقافة العربية، والبعض الآخر تتواجد بأقاليم معينة كالثقافة الأمازيغيـــة فـــي بلاد القبائل، ويوجد تنوع ثقافي في إطار الوحدة اللغوية كما هو حاصـــل فـــي الثقافـــة العربية بصفة عامة، بالإضافة إلى شعوب توارق التي لها خصوصيات التنوع نفســـها في إطار لغة موحدة، وعلى الرغم من أنّ التنوع اللغوي والثقافي ضرورة بشرية، فقـــد أظهر التاريخ وجود صدامات متكررة بين الثقافات المتنوعة غالباً ما ينجم هـــذا النـــوع من الصراعات نتيجة لعدم تقبل الآخر، وبالتالي الدخول معه في زوبعة من الحـــروب والنزاعات مثلما وقع في زمن الفتوحات الإسلامية مع السكان الأصليين لشمال إفريقيـــا فالتعدد الملاحظ على مستوى اللغات بين الأفراد، والجماعات، والشعوب موجود منـــذ الأزل وهو طبيعي في تنمية ثقافة كل مجتمع بالحفاظ على تراثه وتاريخه عن طريـــق

الكتابة أو الرسومات والنقوش، فتاريخ الأمازيغ وحروف الأمازيغية (تيفيناغ) تعود للأصول الفينقية التي كان البربر يستعملونها في كتاباتهم على ألواح المقابر..ثم تطورت إلى الكتابة المعيارية ثم إلى الأمازيغية الحديثة (بلعيد، هل تشتعل حرب الحروف، 2016، صفحة 41).

6- **محاسن التعدد اللغوي:** كما للتعدد اللغوي أضرار ومساوئ كتشجيع الهيمنة والتعصب والعنصرية والفتنة بين المجتمعات والأقاليم اللغوية المختلفة نجل له محاسن كثيرة ذكرها الدكتور صالح بلعيد منها ما يلي: (بلعيد، 2015، صفحة 44)

1- تطوّر اللغات الوطنية والاستفادة من تجارب ولغات الشعوب، وإحداث التوازن والتعايش السلمي والحفاظ على الموروث الثقافي من الإنقراض.

2- تعدد الألسنة تسهيل الحصول على وظيفة.

3- التنوع داخل الوحدة فضيلة ويساهم في بناء لغة واحدة جامعة.

4- التعدد أن يخرج من أفواه الشعب عن طريق الحوار وهو رأي النخبة الوطنية.

5- الاختيار المستقبلي للأجيال في اللغات الأجنبية.

6- اختيار اللغة العلمية ذات الآفاق العلمية الدقيقة.

7- مراجعة السياسة اللغوية بخصوص اللغات الأجنبية (حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله).

8- القرار السياسي المُلزم، والالتزام بما يصدر في الدّستور.

وهذه المحاسن تختلف وتتفاوت من دولة لأخرى بحسب السياسة اللّغوية المنتهجة لأن التنوّع اللغوي يسهم في تقوية اللّحمة الوطنية بتقوية الروابط الثقافية والحضارية إذا لقي الاهتمام البالغ من قبل الدولة والشعب لأن الدول الكبرى تسعى لتوحيد لغاتها مثلما وحّدت عملاتها وأسواقها كأمريكا والاتحاد الأوربي.

خاتمة: ختاما لكل ما سبق نستنتج أنّ التّعدّد اللّغوي بالجزائر قد ساهم في تنمية في بعض المجالات كالتعليم والثقافة والسياسة، والذي يعتبر نتاج تلاقح لغات وثقافات وحضارات عبر الأزمنة، والعلاقة بين التعدد اللغوي والأمن الهوياتي علاقة وطيدة استثمرتها بعض الدول المتقدمة كالولايات المتحدة الذي يبنى على ما سبقه من بحوث ونظريات. ونتيجة لذلك أذكر ما خلص له البحث من نتائج ووصايا:

- التّعدد اللّغوي ظاهرة لغوية إيجابية استفادت منها عدة علوم ومعارف في شتى الميادين والمجالات كالتعليم فقد استفاد من التّعدد اللّغوي بإثرائه باللغات والمصطلحات والمفاهيم مما زاده شساعة وثراء ؛
- يجب اعتماد لغة ذات مرجعية وتتميز بالعلمية والتطور لتواكب الركب الحضاري العالمي وهذا لا يعني إبادة اللغات واللهجات المحلية الأخرى ؛
- أحسن وسيلة لتوطيد أمن الأمة وهويتها هو التوحيد اللغوي والثقافي لمجتمعاتها المختلفة؛
- يجب على الجزائر أن تحذو حذو الدول المتقدمة باستثمار التعدد اللغوي الموجود بها باتخاذ سياسة لغوية رشيدة، تخرجها من طريق الصراع اللغوي وتحقق لها الأمن الهوياتي بالجزائر .

وأخيرا يعتبر الهدف من هذا البحث المتواضع التعريف بالتّعدد اللغوي والثقافي وأهميته وأسباب وجوده ومحاسنه، وكذلك تبيين العلاقة بين التّعدد اللّغوي والتنوّع الثقافي الكبير، وكذلك إظهار مدى تأثير التعدّد اللّغوي على إرساء الأمن والاستقرار للهوية في الجزائر، وتوضيح المفاهيم المتعلقة به في الأوساط الجامعية والتعريف بها للأساتذة والطلبة للإعتزاز بها حفاظ عليها وتثمينها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم ؛

1. ابن جني (أبو الفتح عثمان)،الخصائص، تح:محمد علي النجار، دار الكتب العربي،2000 بيروت .

2. ابن فارس بن زكريّا أبو الحسين أحمد (1418هـ/1997م): الصَّحابّي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحق، أحمد حسين بسبح، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، لبنان؛

3. القاسمي علي، السياسة الثقافية في العالم العربي، مكتبة لبنان،2012.

4. الاسماعيلي، قناة هبة بيرس الالكترونية، التعدد اللغوي بين الممارسة و التطبيق:نظرة المجتمع و التحديات الراهنة،www.hibapress.com/details-2902.html

5. ينظر الودغيري (عبد العلي)، لغة الأمة ولغة الأم عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،2013. .

6. وكالة الأنباء الجزائرية، أهمية التعدد اللغوي شريطة الحفاظ على اللغة الجامعة، جزايرس 2012

7. رقية دوشين: بعض العناصر الأولية للاكتساب اللغوي عند الطفل، تعليم وتعلم اللغة العربية والتعليم المتعدد، عبد القادر الفاسي الفهري، ج 1،.2002 .

8. صالح بلعيد،اللغة الجامعة،مخبر الممارسات اللغوية، تيزي-وز،2015.

9. ينظر صالح بلعيد، هل تشتعل حرب الحروف،دار الأمة، الجزائر،2016.

10.عبد العزيز بلفقير، التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلم، العدد 2311،2012 جريدة المثقف الالكترونيةwww.almothaqaf.com/qadayaama

11.– محمد الشيباني: اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية (مجموعة من الباحثين)،.

12.مجلة **موضوع** الالكترونية،مظاهر التنوع الثقافي في العلم وبعض إبعاده الثقافية ص.http://mawdoo3.com01

الثقافة العامّة

بين التعصب الثقافي الفرعي والتنازع على السّلطة

أد. عبدالناصر بوعلي

جامعة تلمسان.

1 – **تمهيد:** تمرُّ الأمة بأزمة ثقافيّة وحضاريّة عميقة، شهدت تراجعات تظهر جلياً في مستويات عدَّة، وتشير الإحصائيات الصّادرة عن المنظمـات الثّقافيـة والتّعليميـة العالميّة إلى واقع مُؤلم لأوضاع الثقافة العربية، من ناحية الإنتـاج الثقـافي والعلمـي والإبداع بجميع ضروبه، وغياب وعي ثقافي هادف يؤمن بالحرية، والحـوار، والعلـم والممارسة الديموقراطية. وهو ما نودّ طرحه بالدراسة والتحليل ضمن هذا المداخلة.

2- **تعريف الثّقافة:** تتعدّدُ تعاريف الثقافة في اللغة العربية فهي من الفعل الثُّلاثي ثَقَفَ الذي يدل على الفطنة، والذّكاء، والحذق، والتّهذيب، والتَّعلُّم، والعلم. والثقافة من الثَّقْـفِ وله عدة معان في لغة العرب وفق ما هو وارد في المعاجم الموثوق بها عنـد علمـاء اللغة ومنها: تسوية الشَّيء وتقويم اعوجاجه، يقال: ثقفْتُ الرُّمْحَ أو القوسَ أو أيِّ شـيء معوجٍ، إذا قَوَّمْتُهُ وسَوَّيْتُ من اعوجاجهِ فيغدو مُثَقَّفاً مُقَوَّماً وعلى هذا اُسْـتعيرت لفظـة "مُثَقَّف" إلى كل ما مستقيمٍ صلب[1]. ومنه الحَذْقُ والمهارةُ في اتقـانِ الشَّـيء، وثَقَـفَ الشَّيءَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقوفَةً حذِقَهُ، ورَجُلٌ ثِقْفٌ وثَقِفٌ، وثَقَفَ الرّجلُ ثقافةً، أيْ صارَ حَاذِقاً فَطِناً فهوَ ثَقِفٌ وثُقُفٌ.[2]

وأمَّا في الاصطلاح فإنَّ مفاهيمها تتنوع أيضاً فقد فتعني:

- مدى الإلمام بجميع قضايا الحياة والرُّقي في الأفكار.
- اكتساب مجموع العادات والتّقاليد والأعراف، والمعارف، والعلوم المنتشـرة فـي المجتمع.

- مجموعة العادات والمعتقدات والتجهيزات والمعارف والعلوم والفنون والأخـــلاق السائدة في مجتمع[1].

- الثقافة هي مجموعة من القيم والعقائد والمعارف التي يشكل منها وعي المجتمـــع تساهم في وعي الأفراد وتكسب الإنسان أسباب العيش السليم في الحياة، بما نحمله مـــن قيم المحبَّة والودِّ والرحمة والتعاون بين الأفراد في المجتمع الواحد.

- الثقافة هي ذلك النّشاط البشري الذي يسعى لإيجاد معـــادلات أو صـــيغ رمزيـــة للأفكار، والقيم والأهداف، داخل أي مجتمع. وهي نتاج لكلِّ ما في هذا المجتمـــع مـــن معارف ومعتقدات وتقاليد وأخلاق، أي باختصار كل الصِّفات التي تؤهِّله وتنقلـــه مـــن مرحلة الشخص الفرد إلى العضو الجماعة.[2]

3- **أهمية الثقافة:** لن أخوضَ كثيراً في أهميّة الثَّقافة في ترسيخ أركان المجتمـــع فالبعض يجعل وظيفتها محدودة ويقصرها على النُّخبة من النَّاس، وآخرون يجعلونهـــا وعاءً شاملاً لكلِّ ما يحيط بالمجتمعات البشريَّة، فهي تشمل كل ما يوجد فـــي المجتمـــع من تراثٍ وتقاليد ومعارف، وكل ما يكتسبه الفرد من معتقدات تجعله عضوًا ناجحاً في المجتمع الذي يعيش فيه.

غاية الثقافة تهذيب الحسّ والارتقاء بالذّوق العام، وتنمية القدرة على الحكم، ومهمـــا كان المفهوم العام للثَّقافة فإنها تتنوع بتنوع الأمم والشعوب والجماعات العرقيـــة وبقيـــة التجمعات الرابطة بين الأفراد[3].

4- **الحياة الثقافية:** أيُّهما يصنع الآخر، هل الحياةُ التي تشكل الثقافةَ أم الثقافةُ هـــي التي تطبعُ الحياةَ، تلازمٌ ليس من السهل فكُّـــه، فعلماء الاقتصـــاد يـــرون أنَّ المـــوارد والحاجات هي التي تضبط سلوك الناس في مجتمع ما نتيجة الحاجة التي تدير المعيشـــة وأمَّا علماء الاجتماع فيرون أنّ المفاهيم التي تقدمها للنّاس حول الموارد والحاجات هي التي تمكنهم من تبرير نمط حياتهم.

بعض العلماء المحدثين يأخذون بالافتراضين معاً، بمعنى أنَّ الوضع المــادي هــو الذي يصنع عناصر ثقافة المجتمع، كما أنَّ ثقافة المجتمع هي التي تُقرِّر الكثيــر مــن الشكل المادي الذي يسود المجتمع، فالاثنان يؤثر كل منهما في الآخر.

إنَّ المجتمع الزّراعي الذي يعتمد على الأمطار يُوفق بين موارده وحاجاته بإشــاعة نمط ثقافي يعتمد على الصَّبر والقناعة والنصيب. في الوقت الذي يقوم فيــه المجتمــع الصِّناعي مثلا على اعتماد قيم ثقافية لها علاقة بالتنافس، وخلق حاجات جديــدة ليــتمَّ إشباعها عن طريق إنتاج جديد.

لذلك فمن الرَّأي أنْ نقول: إنَّ الثقافة بمعناها العام هي الحافز، أو المعوق للنمو فــي المجتمع، فالثقافات البدائية التي تُمارس في المجتمعات الأفريقية المتخلفة والتــي تقــوم على الخرافات والأساطير تسهم إلى حدٍّ ما في الإبقاء على التّخلــف، والعكــس فــإنَّ الثقافات التي تمجد العقل وتحرره من الطابوهات تُسهم إلى حدٍّ بعيد في تطــوير هــذه المجتمعات.

5- **الثّقافة والتّاريخ:** هل يحقُّ القول: إنّ مجتمعاً بلا ثقافة هو مجتمع بلا تــاريخ؟ قد يكون ذلك حقيقة، فثقافة التَّوارق في الجنوب الجزائري ما كانت لتبقى لولا أنَّ الفنان التّارقي خلَّد النقوش والحلي والملابس، وحــافظ علــى العــادات والطبــائع، ولــولا الأهرامات والمعابد والمدافن ما كنَّا لنعرف تاريخ مصر.

تحرصُ الدول على بناء المتاحف وجمع الآثار، وإحياء الفنون، لأنّها تَحفظُ التاريخ. نقرأ أنّ هناك حضارات وشعوباً سادت ثم بادت لأنها لم تخلف من المعالم الثقافية شــيئا وهو ما يتعلق بالهنود الحمر في قارة أمريكا الذين أُريدَ لهم الزَّوال.

وهو الأمر الذي تفطنت له إسرائيل، فبعد أنْ كادت ثقافتها تضــمحل فإنهــا اليــوم تُخصِّص أعلى الميزانيات لإعادة بناء الثقافة اليهودية في لغتاها وعمرانهــا وعاداتهــا ومأكلها وملبسها.[4]

فالثقافة تؤكد التاريخ وتدعمه ولعل ذلك ما حذا ببعض الأقليات في العديد من المجتمعات للنضال من أجل الحفاظ على عاداتها وتقاليدها ولغاتها ولهجاتها وأن يقاوموا الأكثرية ويلقوا اللوم على السلطة كلما أحسوا بقلة الالتفات إلى مقوماتهم.

6- **الثقافة والتغيير:**

هل الثقافة أداة تغيير في المجتمع أم استمرارا له؟ هي إشكالية درست مرارًا والإجابة عن هذا السؤال تأتي بنعم أو لا.

فإن كان المجتمع راضيا عن نمط حياته، مقتنعا بالنموذج الأوفى القادر على تأمين الضروريات والحافظ على الأمن العام للمجتمع والانسجام بين أفراده، فالثقافة هنا هي العنصر المحافظ على الأوضاع ودوام الاستمرار في الأحوال القائمة.

وعندما يعتقد المجتمع أن نمط العيش، وشكل العلاقات والوضع العام التي يعيشها ينتابها التعقيد وهي مدعاة نحو الضعف والتخلف فهنا تغدو الثقافة أداة تغيير. وبذلك تعد الثقافة في كلتا الحالتين الإسمنت الذي يرسم للمجتمع مساره فيصبح مبدأ: التغيير والاستمرار من الثقافة.

إن ثقافة التغيير نحو الأفضل هي من خصائص المجتمع الجزائري تؤكدها النصوص الدينية فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[5] وقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[6] وورد في الحديث الشريف «من رأى منكم منكرا فليغيره، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان»[7] تمارس ثقافة التغيير بإحدى الطريقتين إما التغيير القسري وذلك عند استفحال الحال وتعفن الوضع والتغيير التدريجي وفيه يلتفت أصحاب التغيير إلى مناهج التعليم فيغير فيها حسب ما يريد النظام الجديد فيثبت أو يلغي، يزيد أو ينقص، يظهر أو يخفي.

على أن الثقافة نفسها عرضة للتغيير، فالتغيير سنة الحياة ولا يوجد شيء يبقى على حاله، فأنماط الحياة تتنافس، ينمحي بعضها ويتدفق الآخر، يسميه البعض المنافسة ويسميه آخرون الصراع، ولكنه يبقى في الأخير ثقافة.

7- **الثقافة في ظل التطور التكنولوجي:** السؤال المطروح كيف تستطيع الثقافة القيام بدور توجيه وعي الجماعة وتوحيدهم في المجتمع في ظل هندسة المعلومات لقد مرت الثقافة البشرية بثلاث مراحل أساسية:

1- المرحلة الأولى هي الشفاهية وفيها كان التواصل مباشرا.

2- المرحلة الثانية هي مرحلة الكتابة التي تطورت بظهور الطباعة وفيها دخل القارئ سطوة النص.

3- المرحلة الثالثة وهي مرحلة التواصل الالكتروني، وطرفه الأساسي هو ذلك المرسل الذي يملك الجهاز ويديره وعلى المرسل إليه أن يتلقى وفقط، وهنا دخلت المجتمعات في الثقافة المقولبة التي فرضتها العولمة وهدفها توجيه الشعوب نحو مقصد معين مستعملة في ذلك السطوة الإعلامية التي يملك الأقوى في العالم.

إنّ هذا الأمر يُلغي الحدود الخصوصيّة والتّمايز بين الثقافات وينتج نمطاً عالمياً مشتركا في الأذواق والمعارف، وبذلك تفقد الثقافات جمالها وبريقها وهو الأمر الذي ينبغي أن نستعدّ له ونواجهه من الآن.

«إنّ تكنولوجيا المعلومات ستحطم الكثير من الحواجز الفاصلة بين الثقافات وسيترتب على ذلك ظهور توليفات علمية ومنهجية مستحدثة، تؤدي إلى أفكار منضبطة تحت راية واحدة سرعان ما تبعث على الملل وانعدام الذّوق الجمالي الذي كان يفوح من التنوع المعرفي والثقافي»[8].

8- التعصب الثقافي:

أ/ **تعريف التعصب:** التَّعصب من العُصبة وهي أنْ يدعو الفردُ إلى نصرة عُصبته التي ينتمي إليها، وتربطه بها رابطة من روابط العرق أو الدين أو التاريخ أو المذهب

أو الحزب أو اللغة أو بعضها. فيتألَّب معهم على من يعارضهم ظالمين كانوا أو مظلومين يقال: تعصَّبوا عليهم تجمَّعوا عليهم[9].

ومنه العصبية القبلية التي عاشها الأقدمون نتيجة عوامل متعددة، أبرزها الجهل والأمية وسيطرة العواطف والأهواء، فقد كان الفرد يذوب في القبيلة يحمل ما يحملون ويناصر من يناصرون ويعادي من يعادون، وفي ذلك قال شاعرهم:

وَمَا أَنَا إلاَّ من غُزِيَّة إِنْ غَوَتْ *** غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غُزَيَّة أُرْشُد[10].

ب/ وفي الاصطلاح فالتّعصب شعور داخلي يجعل الفرد يتشدد، فيرى نفسه دائما على حق، ويرى الآخر على ضلال بدون أيّ دليل ولا حُجَّة ولا برهان[11].

يتجلَّى هذا الشُّعور في شكل ممارسات ومواقف متزمتة، ينطوي عليها احتقار الآخر وعدم الاعتراف بحقوقه الاجتماعية والثقافية والسياسية.

التعصب ضد التّسامح، وعدم قبول الآخر، ورفض مَعالمه ومكونات شخصيته الثقافية والاجتماعية، وعدم التواصل معه وحتى الإنصات له، إنَّه شعور الفرد بأنه على حق والآخر على خطأ، يفسره علماء النفس على أنَّه وضعية اجتماعية مريضة تولد الكراهية والعداوة والبغضاء في العلاقات والروابط الاجتماعية والثقافية والسياسية، لذلك مَقتَها الدين الإسلامي، فقد ورد في الحديث الشريف: «ليس منّا مَنْ دعا إلى عصبيته أو من قاتل من أجل عصبيته أو من مات من أجل عصبيته»[12].

ج/ أسباب التعصب: ترجع أسباب التعصب إلى مجموعة من العوامل أبرزها:

1- انتشار الجهل والأميَّة بين أبناء المجتمع الواحد مما يدفعهم إلى الانغلاق وعدم التفتح على الآخر، وسوء إدراك الحقائق.

2- النشأة الخاطئة التي تُسهم فيها الأسرة والمحيط الاجتماعي والتربوي القاصر الذي يؤدي إلى سوء تنمية الأفراد عقليا وثقافيا.

3- سوء فهم النصوص التي يستمد منها الأفراد ثقافاتهم من دين وعادات وتقاليد وأعراف اجتماعية.

4- عدم وجود أهداف سامية في الحياة ترسمها الأنظمة القائمة وتسهر على توفيرها لشعوبها.

5- الشعور بالنقص وتفضيل المصلحة الذاتية بفعل ضيق مساحة الحرية التي يعيش فيها العديد من الأفراد في بلدانهم.

د/ طبيعة التعصب الثقافي: إنَّ التعصب الثقافي هو التقوقع في العقائد والهويات والأفكار والأيديولوجيات، تقوقع نابذ للآخر ومتكئ على شعور زائف بالتفوق.

أخطر ما في التعصب الثقافي أن ينطلقَ من تبرير ديني مانحاً الثقافات ماهيات دينية ليس إلاّ، فيكون المنطلق السياسي لبعض الحركات هو الحضارة الإسلامية في صراعها مع الحضارة المسيحية، أو الحضارة المسيحية مع الحضارة الإسلامية.

هناك من يرى في الاختلاف التّاريخي في البلد الواحد ذريعة لرفع هذا التعصب إلى اختلاف ثقافي هوياتي، وقد يكون من بين هؤلاء من يمارس السياسة أو الاقتصاد وبذلك يتحول هؤلاء السياسيون إلى متعصبين ويشرعون في إصدار الأحكام بعناد زائد يفوق ما تستحقه، وتتحول مواقفهم من رؤى دفاعية إلى رؤى نقدية للآخر.

فقد تحوَّل كثيرٌ من المثقفين إلى مدافعين عن أراء متعصبة لأفكار ضيقة متهكمين بالآخر، وبثقافته وقناعاته، وحوّل هؤلاء أنفسهم إلى دعاة حق تساعدهم في ذلك الآلة الإعلامية، فغدا الأبيض أسودا وصار الأسود أبيضا، وكان قوس قزح لا يحوي أي ألوان أخرى.

وصار الدِّفاع عن الثقافة الجزئية يخفي تحته مصالح ذاتية أو فئوية، وتمَّ استخدام العلم سلاحاً سياسياً انطلاقا من دوافع أيديولوجية، والأسْوَء عندما يتم استخدام هؤلاء المثقفين آخرون لأداء مهمة الانحياز، نظير أجر في صراع يهدف إلى المصالح لا إلى الحقيقة. ويتحول هؤلاء إلى كذابين ومأجورين حتى داخل أروقة المعاهد والجامعات العلمية بدعوى إنهم علماء من أهل الاختصاص في التخصصات العلمية، من فقهٍ واقتصادٍ، ولسانيات، وتاريخ... .

9- **صراع الثقافة الفرعية مع الثقافة المشتركة:** الصراع والاختلاف لـيس نبتـا عربيا إسلامياً، كما تحاولُ كثيرٌ من القوى في الغرب الترويج له والتأكيد عليه، وإنمـا هو جين أصيل في الجنس البشري على مرِّ الأزمان وفي كل مكان، وحينمـا نتأمـل الصراعات التي تجتاح العالم، سنجد أنَّ أساسها الأول هو الاختلاف في الفكر والـرأي والمخالفة في العقيدة والأعراف واللغات، واتساع الفجوة بين الهويات التي تَحْيىَ تحـت سماء واحدة، ثم تكتشف أنَّ هذه الصراعات تُشعِل جذوتها مصالح اقتصادية وسياسـية تتخذ تلك الاختلافات حجة لتحقيق مآربها في السيطرة والتحكم وفرض النفوذ ومن هنـا نتساءل: كيف لا تصبح ثقافة الأمة الواحدة وطنا أكبر حاضنا لتلك الهويات المختلفـة؟ باعتبارها الثقافة العامة.

هذا هو السؤال الأهم في عالم بدأت تتعالى فيه نعرات الأقليات ونـداءات القضـاء عليهم، نظرا لحملهم ثقافات فرعية قد تقترب من الثقافة العامة، وقد تختلف، فمـا هـي الثقافة الفرعية وما علاقاتها بالثقافة الكلية.

أ/ الثقافة الفرعية: ينضوي تحت مفهوم هذا المصطلح مجموعات من الأفراد ذوي خصائص مماثلة مثل العمر، والطبقة، والعـرف، أو الـدين واللغـة، أو المعتقـدات وبإمكان هذه الجماعة أن تُكوِّن ثقافة فرعية مناهضة للثقافة السائدة في المجتمع. فهـي ثقافة خاصة ضمن ثقافة عامة، ولا يخلو أي مجتمع من هذه الثقافة الفرعيـة، ويطلـق على حامليها مصطلح الأقلية.

تكاد هذه الظاهرة أن تكون سمة لكل دولة، حيث لم تفلح أي دولة في خلـق ثقافـة عامة مشتركة تستوعب جميع الثقافات المحلية وتكون نموذجا يُحْتَـذَى به.

ففي العالم العربي، وعلى الرغم من المقومات الموجودة التي يمكن أن تـدفع نحـو أشكال وحدوية ثقافية، كون شعوب الدول العربية يتحدثون لغة واحـدة، ولهـم تـاريخ مشترك تقريبا، وأغلبيتهم يدينون بدين واحد، مع أقليات دينية أخرى، إلا أنّ كل ذلك لم

يستثمر في خلق ثقافة تذيب الفوارق الثقافية الموجودة. ويمكن تحديد أبرز أوجه تلك الثقافات فيما يأتي:

-بعد انحسار الحركة القومية العربية تم تعزيز الدولة القطرية برزت الثقافة القطرية بشكل قوي محدثة شرخاً بين أبناء الشعب العربي، فأصبح لكل قطر ثقافته وشخصيته المتميزة.

ذلك ما شجعته الأنظمةُ الحاكمة للترويج لحكمها والمحافظة على وجودها، وبذلك أصبحت الشعوب العربية كيانات منفصلة تتنافس القيم المشتركة وتتصارع مع بعضها ولعل أسطع الأمثلة على ذلك ما تفعله الرياضة عندما تتحول المنافسات الرياضية إلى معارك سياسية وقطرية إلى حدّ العنف.

ب/ من الثقافة القطرية إلى الثقافة في القطر الواحد، ففي كل قطر عربي لا توجد ثقافة عامة مشتركة يمكن أنْ يلتفَّ حولها أفراد دولة عربية ما. فعلى الرغم من ترسيخ الثقافة القطرية لكل دولة عربية ما. فعلى الرغم من ترسيخ الثقافة القطرية لكل دولة فإنها لم تنجح في إنهاء التباين الثقافي بين مكونات المجتمع، لأن معظم الأنظمة العربية قامت إما على الطائفية، أو القبلية، أو الأقلية العرقية، أو التشكلية الاجتماعية في هيمنتها على دواليب الحكم. وحتى تحافظ على سلطتها خلقت حالات من التفرقة والصراعات الاجتماعية والسياسية وشكلت الموالاة والعارضة. ثم حولت كيان الدولة إلى نظام من المحاصصة خصوصا بعد تسييس التّشكيلات الاجتماعية.

تخللت هذه الثقافات الفرعية أصناف من العصبيات والمفاهيم الإقصائية ثم تجذرت في العديد من المجتمعات العربية، فتكونت الطوائف والمذاهب، وأفضت إلى بروز سلوك العنف والمصادمات الدموية كما حدث في دول المشرق العربي سوريا ولبنان والعراق وحتى الجزائر.

10- **هل التعدد الثقافي معيقا للنهوض الشامل:** ليس التعددُ الثقافي هو الذي يعيق النهوض الشامل للأمة، بل إنّ طبيعة الثقافات التي تنطلق منها هي التي تمثل العائق

الحقيقي لتحقيق ذلك، فلو تفحصنا الثقافات المنتشرة في المجتمع العربي سنجدها تحوى عناصر تقف عائقا أمام تطورها، فهي تشجع التعصب والانقسام، وتدعو إلى التفاضل على أساس الانتماء والعرق، وتمجد الحاكم وتنزهه عن الخطأ.

إنّ هذه الثقافات يغلب عليها الطابع الميتافيزيقي على الواقع، وهي حبلى بمفاهيم غير واقعية، وبعضها يتنافي حتى مع المنهج العقلي، وإن هي وضعت في سياقها التاريخي نجد الكثير منها تمثل المرحلة التي سبقت الحضارة العلمية الحديثة، وقد تسبق العهد الرُّشدي إن لم نقل حتى الإسلام الذي مجد العقل كثيراً.

إنَّ في الثقافات العربية مفاهيم تقوم على أسس فئوية ونخبوية، وتفاضل بين الناس على معايير وهمية، وتُجذر التعصب والتمييز بين الأفراد، وتقوم على الذاتية وتمجد الحاكم وتقدسه، وتعيق الاجتهاد والحريات.

10 – تحديث الثقافة العربية: إنَّ أي عملية للنُّهوض بالمجتمع نحو التَّقدم والرقي أساسها ثقافي، فالثقافة السائدة في مجتمع ما تعكس طبيعة قيم هذا المجتمع، وتخلق البيئة التي تحتضن عملية التغيير نحو الأفضل، وإذا لم نستطع تجاوز الثقافات التقليدية وما تحتويه من مفاهيم جامدة، وأفكار بالية تعيق النهوض الشامل للأمة، فلن يكون هناك تغيير حقيقي في مجتمعاتنا، فالثقافات الجامدة السائدة هي المعيق الحقيقي للتغيير ولن تستقيم الأمور إلا بنقدها والتخلي عن مظاهرها السلبية التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه.

والسُّؤال الذي يطرح نفسه في ضوء ما سبق هو: هل نحتاج إلى ثقافة بديلة؟ كي نلتف حولها، يبدو هذا السؤال كبيراً، يصعب الإجابة عليه، لذلك ارتأيت أنْ استعمل مصطلح **تحديث** الثقافة القائمة، و**التحديث** يتم عن طريق تبني ثقافة مدنية كان قد بناها الإنسان بنفسه بعد انفصاله عن الطبيعة، وهذه الثقافة تقوم على:

- لا تتضمن أيَّ أبعاد للتفرقة بل تتوخى نظرة تستبعد كل عوامل التفرقة وتدعو إلى المساواة في الحقوق والواجبات.

●تبني طرق التفكير الحديثة العلمية والعقلانيـــة فـــي النظـــر للإنســـان والواقـــع ومشكلاته.

●تجاوز المسألة القطرية، والجهوية، والمذهبية، والطائفيّة، والعرقية، إلـــى نظـــرة إنسانية شاملة، وإلى نظرة وطنية جامعة ذات بعد حضاري واسع.

●عدم إلغاء معتقدات الأفراد، أو ثقافاتهم الخاصة، بل نُبقي عليهـــا وتضـــعها فـــي إطارها الذي جاءت من أجله، بحيث لا تتجاوز الجوانب الاجتماعيـــة إلـــى مؤسســـات المجتمع السياسية والاقتصادية والعلمية.

11 – الخلاصة:

- لا يُمكن أنْ ندير ظهورنا لهذه التغيرات الحادثة في العالم التي فرضـــتها التقنيـــة المستحدثة، فإذا كانت الآلة التجارية احتلت مكان العضلات في الجسم البشـــري فـــإن الكمبيوتر احتلَّ مكان العقل.

- لابد أن نحاول إيجاد موطن لهذه التكنولوجيا ضمن إطارنـــا الثقـــافي العـــام، وأن نستخدم نظم المعلومات هذه لعمل مسح شامل للأوضاع الثقافية الراهنة كأساس لوضـــع خططنا الدفاعية ضد هذا الغزو الثقافي.

- إننا في حاجة إلى بناء دوائر معلومات وطنية، تلك الدوائر التي تخـــرج الـــنص والصورة والصوت، وفي حاجة إلى استخدام أفضل للأقمار الصـــناعية العربيـــة فـــي مجال الثقافة.

- نحن في حاجة إلى استخدام البرمجيات التعليمية ثنائية اللغة لتعليم أولادنـــا كيـــف يقتحمون العرض بلغاتهم.

- الأهمّ كله أنْ ندرك أهمية الدور الذي تؤديه الثقافة في حياتنا، وأن نثق في ثقافتنا.

- المساهمة في تطوير تيار فكري فلسفي يصلح أرضية لخلق ثقافة يتم من خلالهـــا تجاوز الواقع الحالي.

- تحتاج المجتمعات العربية إلى انتهاج سياسة التَّحديث الثَّقافي مـــن أجـــل تجـــاوز الأشكال الثقافية التقليدية التي تحمل عناصر التعصب والتفرقة بـــين الأفـــراد وفئـــات المجتمع.

- الابتعاد عن ثقافة الخرافات وتبني الثقافة العقلية، لأنها مفتاح العصر فمن لا يفكـــر بطريقة عصره، سيبقى في مُؤخرة الركب الذي يسير بخطوات متسارعة أكثر من ذي قبل، فإذا لم تتزامن التطورات الثقافية مع التطورات المادية، فسنظل فـــي مكاننـــا بـــل سنسجّل تراجعاً تلو آخر لأن التقدم يحتاج إلى بيئة ثقافية معينة يترعرع فيها.

وفي الأخير أقدَّمُ دعوةً لكل المهتمين من أجل إعلاء الدَّور الثقـــافي وجعلـــه يأخـــذ نصيبه اللائق به ضمن الأنشطة الإنسانية الأخرى، لأن من دونه لن يكـــون هنـــاك أي معنى لبقية هذه الأنشطة.

هوامش البحث:

1- ابو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق حسن السندوسي، طبعة مصر، 1929، ص 401

2 – ابن منظور، اللسان، (ثقف).

3- عليوي معاذ، العلاقة بين التربية والثقافة، موقع الألوكة، اطلع عليه بتاريخ: 2019/05/06.

4 – نفسه بتاريخ: 2019/05/08.

5 – عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1977، 48/6.

6- إن ما تقوم به اسرائيل من حفريات في القدس الشريف يهدف إلى ترسيخ التاريخ العبـــري عـــن طريق تأكيد الوجود الفعلي للهيكل.

7- آل عمران 110.

8- الرعد 11.

9- رواه مسلم في صحيحه،

10- مجلة العربي الكويتية، العدد 482، يناير 1999، ص26.

11- ابن منظور، اللسان (عصب).

12- الأصفهاني، الأغاني، 105/9.

13- مجلة العربي، العدد 640، مارس 2012، ص57.

14- مسلم، صحيح مسلم، شرح محمد فؤاد عبد الباقي، المجلد الأول، ص117.

التنوع الثقافي التراثي في الجزائر تثبيت للهوية وحفظ للذاكرة من الضياع

ـ الجنوب الجزائري الكبير أنموذجا ـ

د. هاجر حمداوي.

الجامعة الطارف.

الكلمات المفتاحية: التنوع الثقافي؛ التراث؛ الهوية؛ الجنوب الجزائري الكبير.

الملخص: تهدف المداخلة إلى إبراز أهمية التنوع الثقافي الجزائري الذي يـــنعكس على التراث المادي وغير المادي في البلاد، فالتنوع الثقافي يشمل الطـــابع العربـــي الشاوي، القبائلي، التارقي، المزابي، الوهراني القسنطيني التلمساني ....وتنوع بـــذلك الغناء إلى أندلسي، مالوف، حوزي، صحراوي، شعبي، شاوي، قبـــائلي تـــارقي..... ولا يخلو هذا التنوع من الشعر بشقيه الفصيح والشعبي في كل ربوع الجزائر لاسيما المناطق الداخلية وكذلك نجد الصناعات التقليدية وجها من وجوه التعبير الثقافي الذي يعكس تراث المناطق المختلفة كما تتوفر على أكثر من خمســين موقعــا للســياحة العلاجية (الحمامات المعدنية) وكذلك تحوي بالجزائر سبع مواقع مصنفة تراثا إنسانيا في منظمة اليونسكو، وهذا ما أسهم في ظهور التنوع التراثي الذي يعد هوية الشعوب والذاكرة المحفوظة التي تحدد انتماءنا، من تنوع في اللغات والثقافات في كل مجتمـــع ورقعة جغرافية في الجزائر وقد ركزنا على الجنوب الجزائري الكبير لأنـــه يحمـــل تشكيلة متنوعة من الأجناس البشرية سواء في لهجتها أو لونها أو تقاليدها وعاداتهـــا وعلية كانت مداخلتنا تحمل العنوان الآتي: التنوع الثقافي التراثي في الجزائر تثبيـــت للهوية وحفظ للذاكرة من الضياع ــالجنوب الجزائري الكبير أنموذجاــ

مقدمة: يزخر الوطن العربي بثقافة شعبية ظهرت منذ الأزل، وتعاقبـــت بتعاقـــب الحضارات والثقافات فالتراث بمثابة البصمة التي تدل على هوية صـــاحبها، وتزيـــل الغموض وتحل محل الوثائق المكتوبة عند فقدان هذه الأخيرة، والجزائر كغيرها من

الدول العربية تتميز بتراث موغل في أعماق الزمن، فلكل منطقة من مناطقها ثقافة شعبية تميزها عن الأخرى ومن أغنى المناطق تراثا نجد الصحراء الكبرى التي تتفرد بطقوس خاصة وتنوع ثقافي من عادات وتقاليد ومعارف شعبية ومعتقدات فنجد الثقافة اللامادية حاضرة بقوة ومن ذلك موسيقى الإمزاد عند قبائل الإموهاغ هذه الآلة الموسيقيةأدرجت ضمن التراث العالمي كونها ساحرة وغامضة ومن موسيقى الإمزادإلى رقصة السِبِيبة عند قبائل الميهان التي تحمل الكثير من الطقوس والمعاني وتتعدد الثقافات بتعدد القبائل ومن أقدمها نجد موسيقى القُمبري العتيقة المتواجدة في منطقة تاغيت في الصحراء الغربية الجزائرية وكون هذه الآلة تاريخية وحلقة اجتماعية تتفاعل فيها مختلف مكونات المجتمع الصحراوي.

ثقافة كل شعب تنبثق عن مصادر أوجدتها، كما أن ثقافة أي مجتمع تكونها مجموعة مكونات ومرجعيات.

للثّقافةُ مصادر كثيرة تعتمدُ عليها من أبرزها نجد:

1- **اللّغة** :تعد اللغة مصدرا رئيسا من مصادر الثّقافة عموماً؛ على اعتبار أن كافة شعوب العالم نقلت ثقافتها إلى باقي الشّعوبِ الأُخرى اعتماداً على لغتِها[1].

2- **الفكر الإنسانيّ**؛ وهو مجموع المعارف المؤدية إلى تشكيل الثّقافة الإنسانيّة، والمسهمة في تباين الشّعوب بعضها عن بعض؛ بالحرص على الخصوصية المميزة لكُلِ شعبٍ من شعوب المعمورة.

تتكون الثقافة من ثلاثة مكونات رئيسة، يمكن جمعها في:

أ- **مكونات مادية**، وهي المكونات المستخدمة بشكل يومي، كالمأكل والمشرب، والملبس، والمسكن وغيرها.

ب- **مكونات فكرية**، مثل الفن، واللغة، والعلم، والدين، وغيرها[2].

ج- مكونات اجتماعية، وهي تلك المكونات التي تشتمل على البناء الاجتماعي وهيكله، كما يمكن أن تصنف بصفة أوسع وفقا للمكونات الآتية:

1- **الأفكار** :هي مجموعة النتائج التي يتوّصل لها العقل بعد التّفكير والتّمحيص الطَّويل للمعلومات التي تلقّاها.

2- **العادات والتّقاليد** :وهي الأسلوب المُتّبع لدى أيّ أمّةٍ أو شعبٍ فـــي الحيـــاة الاجتماعيّة وقوانينها.

3- **اللُّغة** :وهي مجموعة الحروف والرُّموز التي يتمّكن أف ا رد المجتمع من خلالها من التّواصل فيما بينهم، وتنقل كُلَّ ما يتعلّق

بهم لمن بعدهم.

4- **القانون** : وهي مجموعة الأحكام التي تضبط المجتمع وتحميه من الـــدَّاخل والخارج وعرفت العادات مقرونة بالتقاليد أيضا كما يلي ":هي مجموع الســـلوكيات الثقافية التي تخص المجتمع الذي

ننتمي إليه، ترثها الأجيال عن بعضها البعض والتي تميزها عن بقية المجتمعات

5- **الأعراف** :هي مجموعة الأحكام والضّوابط التي تعارف عليها مجتمع مـــا فأصبحت بمثابة القانون يلتزمون بها . التزاما كاملًا؛ بحيث تكون هذه الأعراف عونًا للقانون في منع الجريمة الانحراف والمساعدة على نشر الفضيلة والخير.

أ –في تعريف العادات وأهميتها وفروعها وخصائصها ووظائفها:

ظهرت العادات لخدمة أغراض معينة، فأصبحت ذات أهمية وتفرعت وتميــزت بجملة من الخصائص.

العادات لغة: هي ما يكرره الإنسان العودة ا إليه مرارا، أو اصطلاحا هي سلوك اجتماعي متكرر يتم توارثه،ويمكن أن تكون العادة فردية، أو هي ســلوك اجتمـــاعي جبري ملزم، تتكون انطلاقا من قيم دينية وعرفية تجعل الأفراد تبعا كعادات الزواج يجسدها الأفراد في مختلف طبقات المجتمع ومستوياته وأنماطه الحضري والريفي.

تكمن أهمية العادات في كونها الدعائم الأساسية التي ينبني عليها التراث الثقـــافي في كل بيئة تتفرع العادات لتشمل ما تواضع عليه المجتمـــع مـــن عـــادات اتفاقيـــة وأعراف ومحرمات وسنن وتقاليد وشعائر وطقوس.

ويتم تصنيفها بحسب الجدة والقدم إلى:

-عادات قديمة متوارثة وتعرف بالعادات التقليدية.

-عادات جديدة وتعرف بالموضات.

للعادات خصائص أبرزها:

-**التلقائية** : تتكون بصورة غير واعية في المجتمع.

-**الإلزام والجبرية:** شعور كل فرد بأنه ملزم ومجبر على اتباعها، فهو لم ينشئها بل فرضت عليه فرضا.

-**الاتصال بنواحي أسطورية وعناصر خرافية** : معظم العادات تكـــون متصـــلة بمناحي أسطورية خرافات واعتقادات فاسدة.

-**التنوع والنسبيّة** : تختلف العادات من مجتمع لآخر وتتنوع من إقليم لثان ،كما تتغير من زمن لأخر أيضا في كل من الطعام الشراب والملبس والمسكن والنشاطات المختلفة كالاحتفالات.

-**الرغبة في التمسك بها:** انطلاقا من اعتقاد معظم الشعوب والأمم بان عاداتهـــا وتقاليدها هي الأفضل نشأ عندها الرغبة في التمسك بها ،والحفاظ عليها.ولها وظائف شتى منها الاقتصادية، والتربوية الإرشادية ومنها الجمالية.[3]

التقاليد لغة جاءت من قلد غيره يقلده تقليدا أي اتبعه فيما يقول من غير أن يقدم له لا حجة ولا دليل . واصطلاحا هي سلوك فردي تبنته الجماعة وتوارثته جيلا عـــن جيل، مثلما هو الحال في الشعائر الدينية، واستخدام الرموز والاحتفالات.

التقاليد هي طائفة من قواعد السلوك التي تخص طبقة معينة، أو تــرتبط ببيئــة محدودة النطاق، تتميز عن العادات في كونها أقل إلزاما منها، يتم تناقلهــا بانتقــاء عكس العادات التي تتميز، وعند عدم مراعاتها واتباعها بقوة[4].

غالباً ما تكون التقاليد مختصة بإقليم معين أو طبقة معينة، عكس العــادات التــي يجسدها الأفراد في مختلف طبقات المجتمع ومستوياته وأنماطه الحضري والريفي.

على الرغم من التقارب بل والتداخل الشديد بين بين الاع ا رف والعادات إلا أنه يتم التفريق بينهما.

العرف هو" نظام اجتماعي غير مكتوب، يتكون من المعتقدات والأفكار المستمدة من فكر الجماعة وت ا رثها وعقيدتها، وتمثل العرف في معايير اجتماعيــة تحــدد الأفعال المرغوبة وغير المرغوبة والسلوك الصحيح والخطأ بالنسبة لثقافة المجتمــع ويحدد العرف بالعلاقات ما هو جائز وما هو غير جائز، كما يحدد العرف في كثير من الأحيان نوعية العقوبات التي يمكن أن تحدث للشخص[5].

ومما يتميز به العرف عن العادات"أنه أشد قوةً من العادة، نظرً لارتباطه بنــواح عقائدية يؤمن بها المجتمع من أشهر العادات والتقاليد والأعراف الجزائرية:

-تحتفل العائلات الجزائرية بعيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ليــوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ميلادي كل عام بإقامة مآدب العشاء والتفنن بإعداد الأكلات التقليدية والحلويات، مع اشعال الشموع ،وتزويــد الأطفــال وحتــى الكبار بالمفرقعات

-كما أن المجتمع الجزائري له طقوس وعادات في الأفراح وخاصــة الــزواج انطلاقا من لباس العروس والعريس، تختلف من منطقة إلى أخرى.

-ويتميز الجزائريون ببعض الملبوسات التقليدية، كالقشابية والبرنوس والحايك.

–دون أن ننسى الاحتفالات الدينية الأخرى والوطنية وما يحيط بها من عـــادات وتقاليد متوارثة، يسهر الخلف على الحفاظ والإبقاء عليها كأداة تثبت تواصله بالسلف وتبين ترا بط وتعالق الأجيال.

مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنـــوب الشـــرقي الجزائري، العدد: التاسع جوان

1- الموسيقى في الجنوب الجزائري:

آلة الإمزاد: تعد آلة الإمزاد من أقدم الآلات الموسيقية عند التوارق، أين انفـــردت المرأة التارقية بالعزف عليها، ويرافقها الرجل بالغناء على أوتارها، تتميز آلة الإمزاد أنها وحيدة الوتر . وهي ترمز للسيادة فهي شيء مقدس بالنســبة للمجتمـــع الترقـــي آونهـــا تجسيد للجاه والشرف "شحنة إلتحام النغمة بالروح والجسد .يرجع تاريخ آلـــة إمزاد إلى قصة رجل منهار القوى متأثر بجراحه والعطش والجوع الشديد إقترب إلى أحد الخيام ليسمع أنغام الإمزاد أين انت نسوة الخيام يعزفن عـــلى هـــذه آلة ليـــرفهن على أنفسهـــن، فجمع هـــو الآخر ما في أنفاسه ليتمكـــن من الوصول إليهن وليغني على إيقاع عزفهن للتعبير على حالته المزرية، ليقمن بعد بـــذلك النســـوة بإســـعاف الرجل، ومنذ ذلك الزمن أصبح الرجل الترقي يغني على إيقاع آلة الإمزاد[6]

2- **الأسماء البارزة في مجال عزف آلة الإمزاد:** تعرف المنطقة عـــدة أســـماء لعازفات اشتهرن في العزف على آلة الإمزاد أبرزهن

1- **داسين:** التي تعد من أعرق العازفات على آلة الإمزاد

2- داودي شادمه (إليزي)،

3- أوسلي تاتة (من منطقة برج الحواس (أوسلي تاتة من منطقة برج الحـــواس العازفة ترزع من منطقة جنت (الأمتن خولن، دمياه إدبير، شتيمة بوزيد، بيات إدبير تمنراست.[7]

3-واقــع آلـــة الإمزاد: تعد آلة الإمزاد من الآلات المهددة بالزوال لموت العديــد من العازفات على هذه الآلة نذآر منهن **:دحماني دميه عائلة إنضن من منطقة إليــزي** تحمل قاعة السينما بإليزي إسم هذه العازفة **.داودي سونة عائلة إنضــن مــن منطقــة إليزي**، تحمل قاعة المسرح بإليزي إسم هذه العازفة **.زقــري عــــائشة** مــن بــرج الحــواس متحصلة على الجائــزة الأولى من طرف جمعــية أصــــدقاء الصـــحراء آما أصدرت أسطوانة للفنانة من طرف الديوان الوطني لحظيرة التاسيلي .ونظرا لكبــر سن العازفات الحاملات لهذا الفن أصبح الإمزاد في طريقه إلى الزوال لدرجة أن هــذه الآلة مرشحة للتصنيف ضمن التراث الإنساني العالمي من قبل منظمة اليونسكو.

أ- **تاسنفرست نلمس** الناي: آلة موسيقية هوائية ذات أحجام مختلفة، تصنع مــن نبات القصب البري وهي عبارة عن قصبة جوفاء مفتوحة الجوانب . يرجع تــاريخ هذه الآلة إلى الحضارة البابلية والحضارة الفرعونية بمصر، تستعمل آلة تاسنفرست لدى أهل المنطقة في الأفراح والأعراس، آما يستأنس بها البدو ورجال القوافل فــي سفرهم لعبور المسافات الطويلة والصحراء القاحلة، وللسمر عند التخيــيم ولتنشــيط جلساتهم الليلية حول الشاي[8].

ت- **أشكـــــال إلتزامارت:** تعرف هذه الألة عدة تسميات آالغيطة والزرنة حسب مناطق الوطن، وتتكون التزامارت من ثلاثة أجزاء الجزء ألأول : يســمى الصــياح وهو عبارة عن قصبة نحيلة وقصيرة توصل الهواء إلى جوف القصبة الأم فيخــرج صوتا حادا وسريعا . الجزء الثاني: يسمى القصبة هي نفسها بدون تغيير آالناي وإنما يكمن الفرق فقط في حجم اتساع فتحة دائرة الآلة حسب المقاييس المرغــوب فيهــا لتنسيق ترآيبة مختلف عناصرها الجزء الثالث: يسمى الموزع الصوتي.

هو طبع من الطبوع الإيقــاعية الترقية، يتم العزف على إيقــاع التنــدي بتجمــع النسوة في حلقات مغلقة في الهواء الطلق في الأعياد والأفــراح، بالمقابــل يرافــق الرجال النسوة برقصة رآبي الجمال هذه الرقصة تعتبر من أفخــر الرقصـــات فـــي

المنطقة، أين يقوم الرجال بتجهيز المهاري (الجمال) وتزينها بأحلى آسوة، وفي حالة عدم تواجد المهاري يرافق الرجال النسوة بالرقص على الألحان التي تعزفها النسوة وهذا ما يقودهم أحيانا إلى فقدان السيطرة على حرآاتهم .

3- **القلق (جنجن):** ألة إيقاع من شكل أخر وهي عبارة عن حلقة مستديرة تصنع من مادة الخشب، تغلف بجلد المعز، مدة صنع هذه الآلة تقدر من ثلاثة إلى أربعة أيام

3- **تهيجالت:** انبثقت هذه الآلة من الأواني المنزلية وهي إناء آبير الحجم صنع من مادة الخشب، توضع به مواد غذائية صلبة آالقمح أو حتى السوائل آالماء والحليب هذا فيما يتعلق باستعمال العادي وفي توظيفه آآلة إيقاع موسيقية، تغلف فتحة الإناء بجلد بعير أو بقر، يكبس جيدا بحرآة الأيدي حيث يصدرمن خلاله صداءات تبعث البهجة والسرور في نفوس الحضور.[9]

موسيقى القمبري:

آلة القمبري الآلة الإيقاعية الوترية المنسوخة عن آلة القيثار والتي تمتاز بطابعها البربري الصحراوي الامازيغي. هي ليست لغزا من الأساطير الملتبسة بل هي من سرائر الوجد حيث نرفان الحالمين العاشقين. هي بصمة على الروح لا تتكرر. هي ليست إيقاعات فارغة ولا أوتارا أنينه تفتش إعجابك وتقضب دواليب خباياك بل هي معزوفة عميقة كالهاوية بريئة كالفردوس كسرعة الضوء تخترقك دون أن تكسر نوافذك كرياح تداعب أشرعتك ...هكذا كما وصفها كبار عازفيها والباحثين فيها.



2- الأساطير: تميز النص الأسطوري عن غيره، وحافظ على استمراريته، نظرا لما خلفه القدماء من أغاني وأناشيد وحكايات، لكنها جلها قد اضمحل مع موت الرواة إلا أن هذه الأخيرة بقت مستمرة بتعاقب الأجيال، وقد سطت الأسطورة على النفس البشرية حتى في كوكب العلم الحديث فهي مازالت تسطير على العقول، بل واستمرار الناس في الحفاظ عليها من الضياع وذلك من خلال ممارسة بعض الطقوس مثل طقوس الاستسقاء والفلاحة والاستمطار، فهذه لطقوس مازالت تمارس في شمال إفريقيا(مصرالمغرب، الجزائر، ليبيا، ماليو النيجر) وبالأخص الطوارق في الجنوب الجزائري وكان سلاحهم للحفاظ عليها استخدام الكلمات السحرية بما أن بما أن اللغة ذات وجهين: دلالي وسحري ،فإن الاسطورة تستعمل اللغة السحرية القادرة على الايحاء بمعان غير مباشرة واستثارة المشاعر فالطابع السحري للميث وأثرها الفعال في توصيل الأفكار المجردة وتثبيت المعتقدات، وأكثر الفئات تأثرا واستهدافا هم الشبابو قد عمد حافظت أمازيغ الصحراء الجزائرية وحرصوا أشد الحرص على نضوب الفكر الأسطوري وتفعيله في شتى أنحاء الصحراء رغم تراجع الأسطورة عن مواقعها القديمة للحياة الفكرية في المجتمعات وقام العلم بالاستيلاء على معظم ميادينها ومع هذا فالأسطورة دراسة للإنسان ودراسة الماضي إلى فهم الحاضر واستشراق للمستقبل.

أسطورة الاستمطار في الجنوب، كان يتغنى بها سكان الصحراء نظرا للطبيعة القاسية الشديدة الجفاف وهي **أسطورة تسليث وآنزار وهي "طقس** استسقائي أمازيغي قديم، يرجع إلى أسطورة آنزار إله المياهوالأمطار عند الأمازيغ القدماء اسمه حرفيا يعني مطر، ملخصها أن فتاة عذراء كانت شديدة الجمال مغرمة بالماء فكانت تخرج كل يوم إلى النبع حيث البحيرة العذبة، فتلعب وتغتسل وفي المساء تعود وكان الإله آنزار يراقبها كل يوم، ووقعت في نفسه موقعا حسنا فأحبها، وذات يوم أظهر نفسه لهاو خطبها لنفسه، وتحت الصدمة والحياء، والخوف من رد فعل الناس

رفضت الفتاة، فصعد آنزار إلى السماء ومنع مياهه، فتوقف المطر عم الجفاف، فجاء الناس من كل منطقة يرجون الفتاة أن تقبل عرض آنزار، قبلت في الأخير، فألبسوها لباسا أبيض، وحزام أسود، عصابة حمراء وأخذوها إلى البحيرة يزفونها عروسا لإله المطر آنزار، نزل آنزار من عليائه سعيدا، فأخذ عروسه وعاد إلى السماء وصارت عروسه تظهر معه في كل مرة يحضر، فهي قوس قزح المعروف عند الأمازيغ ب تسليث ءوآنزارعروس آنزار)، فاللون الأزرق من زرقة عينيها، والوردي لون خديها، والأحمر لون شفتيهاو هكذا كل لون يمثل شيئا من صفاتها."[10]

كلماعم الجفاف يخرج سكان الصحراء يناجون الإله آنزار بدمية يلبسونها الأبيض ويضعونها ثم يقومون بترديد هذه الكلمات:

Ay anẓar ay anẓar	يا آنزار يا آنزار
attut hametna g udrar	فليسقط المطر على الجبل
w am usuggas iƐaddan	ومثل العام الماضي
essezlaneɣd iɣeẓran	أَجْري لنا الأنهار
ay anẓar ay anẓar	يا آنزار يا آنزار
hamurt attay haqqur	هاهي الأرض وقد جفت
att iɛadda fellas yur	ومر عليها شهر
aɣenja jar iɣezran	المرفع بين الأودية
a rabbi neffud aman[11]	أيها الرب عطاشى ونحتاج الماء

وبعد هذه التهاليل يذهب الأطفال وإذا وجدوا الدميه فإن آنزار لم يقبلها إذا لم يجدوها فإنه قبلها وسوف ينتهي عهد الجفاف وتمطر عليهم.

هذه ما تسمى أسطورة الاستمطار وهي في شكل طقوس تقام في كل سنة أو شهر أو فصل، آمن بها الأمازيغ منذ زمن طويل وتواصلت هذه الطقوس، وتداولت شفاهه إلى أن دونت وأصبحت تدرس من طرف الباحثين والنقاد وتقارن بالأديان كذلك.

لعل هذه الأسطورة أقرب للخرافة فالبطلة وهي عروسة الماء تشكل نموذجا متخيلا بعيدا عن الواقع، ولعل وظيفة هذه الأسطورة في شكلها الطقوسي هو السلوك المستقل ورد الفعل من طرف العروسة والذي ورد عنه رد عنيف من طرف إله الماء وهو حرمان الناس من الأمطار التي يرتزق منها الناس ويعيشون بها، ولعل السلوك في هذه الأسطورة موجها لينتقل الوعي من الانفعال الغير المباشر وما ينتج عنه من مخاطر، فمعظم الأساطير تحمل دلالات ترافق الوعي وكلما مارس سكان الصحراء هذه الطقوس كلما اتسع الوعي وزادت رقعته ويتضح وينتظم.

أسطورة الاستسقاء: تلا غنجا

إن بعض الممارسات الطقوسية المعهودة في الجنوب الجزائري وبالأخص الأمازيغ، فإن معظم

هذه الطقوس لها جذور ترجع لأساطير تناقلت عبر الأجيال ولعل هذه الممارسات جعلتها خالدة ومن بين هذه الأساطير نجد أسطورة الاستسقاء أو تلا غنجا.

"تلا غنجا: لها دلالات كثيرة في الامازيغية، منها تّل أغنجا، وتفيد غط المغرفة الذّكر، وتلا أغنجا بحيث تدغم في كلمة واحدة، وتعني تزوجت المغرفة الذكر واقترنت به. أما اللفظ "تلا" لوحده، فيعني اسما أمازيغيا من أسماء الأمازيغيات ومازال متداولا، يأتي هذا الاسم منفردا أو مستقلا ليدل على ملكية مقدرة، فنقول: إن " تلا" تعني مالكة لشيء ما مقدر، كأن نقول " ذات السعد" أو ذات الخير أو ذات الأبناء وغيرها من المقدرات"

الاسم	الصورة	الوصف
وقد يكتب "أهليل غرارة": هو تراث شعري وغنائي منطقة قورارة الواحية الجزائرية التي تبعد عن العاصمة باتجاه الجنوب الغربي بحوالي ألف كلم		**اهليل قورارة** :يكتب أيضا"أهليل غرارة": هو تراث شعري وغنائي من منطقة قورارة الواحية الجزائرية التي تبعد عن العاصمة باتجاه الجنوب الغربي بحوالي ألف كلم .كان هذا النوع من الغناء منتشرا في منطقة تميمون وما جاورها، منذ القديم، وكان يعرف قبل الإسلام باسم أزنون ليحمل بعده الاسم الحالي أهليل [6] . ويرى البعض أن هذه التسمية مشتقة من "أهل الليل" باعتبار أن هذا الغناء يؤدى في الليل، بينما ربطها البعض الآخر بالهلال، ويذهب آخرون إلى أن الكلمة جاءت من التهليل لله ومن عبارة "لا إله إلا الله . والأهليل هو نوع من الغناء الموروث بالصحراء الجزائرية .تتناول كلماته

		المغناة سير الصحابة والأولياء الصالحين [6] وهو ما جعل أحد المختصين يعتبره من الغناء الصوفي المستلهم من الطريقتين "التيجانية" و"القادرية" المنتشرتين في الجزائر ومنطقة المغرب العربي
م تصنبف العادات الصوفية المتعلقة ب**الزاوية الشيخية** ضمن قائمة "روائع التراث الشفهي اللامادي للإنسانية "في الجزائر بعد تقديم الملف من طرف الجزائر ودراسته، ثمت المصادقة عليه من طرف لجنة منظمة اليونسكو للتراث العالمي سنة 2008، [1] وقد عرفت هذه الزاوية إشعاعا روحيا في فترات من		تم تصنبف العادات الصوفية المتعلقة ب**الزاوية الشيخية** ضمن قائمة "روائع التراث الشفهي اللامادي للإنسانية "في الجزائر بعد تقديم الملف من طرف الجزائر ودراسته ثم المصادقة عليه من طرف لجنة منظمة اليونسكو للتراث العالمي سنة 2008، [9] وقد عرفت هذه الزاوية إشعاعا روحيا في فترات من الزمن، وكانت مقصد طلاب الروحانيات والتربية الذوقية، وتسعى إلى المحافظة على التراث وتعزيز القيم المجتمعية مثل

الزمن، وكانت مقصد طلاب الروحانيات والتربية الذوقية، وقد تخرج على يد عبد القادر بن محمد السماحي شيوخ كثر، نشروا طريقته الذوقية والصوفية في المناطق الصحراوية على الحدود المغربية الجزائرية.		حسن الضيافة والممارسات الجماعية كالتسابيح، وتلاوة القرآن الكريم، والأغاني والرقصات التقليدية والفلكلورية ولا سيما المبارزات ومسابقات الفروسية
السبيبَة بكسر الباء الأولى وفتح الثانية، هو احتفال تقليدي سنوي يقام بمدينة جانت الجزائرية، وتعتبر تقليدا تراثيا، من أهم المناسبات المحلية العريقة التي تحتفل بها طوارقالصحراء بالجنوب الجزائري، الذي يصادف كل سنة اليوم العاشر من محرم في التقويم		هو احتفال تقليدي سنوي يقام بمدينة جانت الجزائرية، وتعتبر تقليدا تراثيا، من أهم المناسبات المحلية العريقة التي تحتفل بها طوارق الصحراء بالجنوب الجزائري، الذي يصادف كل سنة اليوم العاشر من محرم في التقويم الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة إلى السلم المدني والسلام والالتحام الاجتماعي، وتعود

الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة إلى السلم المدني والسلام والالتحام الاجتماعي، وتعود الاحتفالات إلى قرون عندما تعاقدت قبائل الطوارق في الجنوب الجزائري على الصلح والسلام بين سكان القصرين العتيقين "أزلواز" و"الميهان"		الاحتفالات إلى قرون عندما تعاقدت قبائل الطوارقفي الجنوب الجزائري على الصلح والسلام بين سكان القصرين العتيقين "أزلواز" و"الميهان."[16] .وإلى جانب رمزية السلام والالتحام بين قبائل الطوارق، يرى باحثون متخصصون، أن الرقصة تعبر عن حالة من السعادة عندما استطاعت قبيلة الطوارق "آجر" الإنتصار في معركة حاسمة عند تعرضها لخطر تهديدات فرعون مص

12

خاتمة: من خلال ما سبق توصلنا إلى النتائج الآتية:

ترتبط الهوية الثقافي بالتنوع الثقافي بعلاقةٍ وطيدة، فكل هوية لا تكتمل إلا بالثقافة، ولعل أبرز ما يميز الهوية الثقافية قدرتها على استيعاب التنوع الثقافي للشعوب، ووظيفتها التي ترتكز على جمع أفراد المجتمع من الثقافات المختلفة، لتبلور لهم في النهاية هوية ثقافية واحدة تجمعهم. لعل أبرز مثال على العلاقة بين التنوع الثقافي والهوية الثقافية الهوية الإسلامية، التي جمعت قوميات متعددة، وجنسيات مختلفة، وخلفيات ثقافية متنوعة داخل هوية ثقافية واحدة، وهي الهوية الإسلامي

الاحالات:

[1]مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان2017،ص

[2]مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 2017،ص

[3]مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان7102

[4]مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان7102

[5]مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان7102

[6] http://elajyale.mam9.com/t2135-topic

[7] http://www.aranthropos.com/

[8]http://www.aranthropos.com/موسيقى-الإمزاد-شمس-الطوارق-التي-لا-تغرب

[9]http://www.aranthropos.com/موسيقى-الإمزاد-شمس-الطوارق-التي-لا-تغرب

[10]https://www.facebook.com،ليلى حسن، الأديان والميثولوجيا والتاريخ، 29 جويلية 2015.

[11]المرجع السابق.

[12]قائمة_التراث_الثقافي_اللامادي_في_الجزائر/https://ar.wikipedia.org/wik

التعدد اللّغوي والتنوع الثقافي
بين الإثراء والصدام.

داه. زينب بوتشيش
داه. مجاهدي فايزة
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان.

الملخص: تعدّ اللّغة وسيلة من وسائل الاتصال والتواصل الإنساني، وتطورت منذ العصر الحجري إلى يومنا هذا ابتداء من الرسوم الجدارية ثم الإشارات وصولا إلى الحروف. مما جعلها جسرا للتواصل بين مختلف الأمم والشعوب، أما الثقافة فهي عملة التطور العام الفكري والروحي والجمالي الذي يشهده مجتمع معين وهي أسلوب الحياة السائد لدى أمة معينة في حقبة زمنية محددة.

في بحثنا هذا سنحاول توضيح مدى أهمية التعددية اللّغوية لنمو الثقافات وتطور الشعوب وتواصلها وكيف أنّه لا يمكن لأي حضارة أن تنشأ في معزل عن التواصل الثقافي مع الأمم الأخرى. وإلى أي مدى يمكن للتعدد اللّغوي أن يكون حجرة عثرة لازدهار حضارة ما؟

الكلمات المفتاحية: اللّغة، التعدّد، التنوع، الثقافة، الحضارة.

مقدّمة: تعدّ اللّغة وسيلة من وسائل التّواصل البشري وإن اختلفت من دولة إلى أخرى، فقد بدأت هذه اللّغة بإشارات ورموز جدارية ثمّ تطوّرت إلى الحروف وهي تمثّل هوية الشّعوب تقوى بقوّتها وتضعف بضعفها. واللّغة كائن حيّ يتطوّر وينمو وينتشر أو يتلاشى، وهي أيضا ألفاظ يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم ومكنوناتهم، وتعدّ جسرا للتّواصل بين الأمم والحضارات.

أمّا الثّقافة فهي الإيمان بهذا الاختلاف وتطويعه من أجل الحوار والتّواصل والتعدّدية اللّغوية ضرورية لنموّ الثّقافات وتواصل الشّعوب، ثمّ إنّ الحضارات لا

تتطوّر بمعزل عن التّواصل الثّقافي مع الأمم الأخرى، فالتنوّع الثّقافي والتعدّد اللّغوي خطّان متوازيان من خطوط الحضارة الإنسانية.

فالعقل البشري يتألّف من عدّة ثقافات شرقية وغربية وهو بمثابة حديقة تتنوّع فيها جميع الأزهار وتتألّق بجمال التنوّع والاختلاف لتكوّن من الإنسان طاقة إبداعية خلاّقة، لأنّ العقل البشري يجمع بين مختلف القوى الحضارية والتّآلف بينهما يحقّق التّكامل في ظلّ تنوّع الثّقافات والحضارات.

والعالم عبارة عن مجموعة من الدّول متعدّدة الأعراق والطّوائف والمعتقدات والعادات والقوميات، وتضمّ عددا من اللّغات والأديان واللّهجات، وهذا التنوّع هو الذي يخلق نسيجا اجتماعيا متجانسا يضمّ مختلف الثّقافات الإنسانية.

لذلك يعدّ التنوّع الثّقافي من أهمّ مميّزات البشرية التي تكون عادة سلاحا ذو حدّين، فإذا تعاملنا معه بطريقة إيجابية حصدنا نتائج إيجابية، أمّا إذا نظرنا إليه على أنّه اختلاف فستكون العواقب وخيمة.

ومن مظاهر التنوّع الثّقافي في العالم اللّغة التي هي وسيلة التّواصل فتعدّد اللّغات ينتج عنه تنوّعا في الثّقافات والإبداع، فالتعدّد يسهم في تطوّر الحضارات وتقوّي العلاقات الإنسانية.

ومن هنا نطرح التّساؤلات التّالية: ما علاقة التعدّد اللّغوي بالتنوّع الثّقافي؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون هذا التنوّع شيئا إيجابيا في ظلّ الاختلافات اللّغوية والعرقية والعقائدية؟ وهل التنوّع الثّقافي والتعدّد اللّغوي في المجتمعات يفضي إلى الثّراء الإنساني أم يؤدّي إلى صدام حضاري؟

1/ التنوّع الثّقافي كظاهرة إنسانية وأهمّيتها في التّواصل الحضاري: إنّ التنوّع الثّقافي جميل كجمال ألوان الطّبيعة تتناغم فيها الأشكال والألوان كلّ حسب خصوصيته، فالإنسان منذ القدم تبادل الخبرات والاكتشافات والثّقافات والعلوم في ظلّ التّعايش الثّقافي وجعل مصلحة البشرية فوق كلّ مصلحة.

*/ **مفهوم التنوّع الثّقافي:** التنوّع الثّقافي هو"الاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية في الأنماط الثّقافية السّائدة فيها، ويتجلّى هذا التنوّع من خلال أصالة وتعدّد الهويات المميّزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألّف منها الإنسانية، فهو مصدر للتّبادل والإبداع.كما أنّه ضروري للجنس البشري مثل ضرورة التنوّع البيولوجي بالنّسبة للكائنات الحية، وبهذا المعنى فإنّ التنوّع الثّقافي هو التّراث المشترك للإنسانية وينبغي الاعتراف به والتّأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل"[1].

وهذا يعني أنّ الحضارة الإنسانية منقسمة ومتنوعة ومختلفة، وهذا ما جعل المنظّمات غير الحكومية تولي اهتماما بقضايا التنوّع الثّقافي وإدارة هذا التنوّع كآلية لحفظ السّلام والتّعايش بين الأمم.

والتنوّع الثّقافي هو "عبارة عن اتّسام الثّقافة البشرية بسمة التنوّع، أي كونها تتباين وتختلف كما تتشابه وتتطابق مضمونا وشكلا على نحو يجعلها تتمايز إلى أنواع"[2].

ومن هذا التّعريف لا يعدو أن يكون التنوع الثّقافي وصفا للتواصل البشري من زاوية التّطابق والاختلاف وهذا الالتباس والتّشابه في الثّقافات يمكن أن يلاحظ عند الأفراد والجماعات.

*/ **مظاهر التنوّع الثّقافي:** للتنوّع الثّقافي مظاهر متعدّدة تتجلّى في ما يلي:

اللّغة:هي إحدى أهمّ مظاهر الاختلاف بين الأمم لأنّها تخصّ كلّ قوم، وتعتبر الركن الأساسي الذي تقوم عليه الثّقافة، كما أنّها مظهر من مظاهر الاختلاف بين الحضارات والشّعوب.

الدّين:لكلّ دولة دين تدين به لذلك تعدّدت الأديان والمعتقدات حتّى إننا لنجد في الدولة الواحدة عدّة أديان، فالعالم يحوي أديانا مختلفة ويعدّ التعرّف على معتقدات الآخر وسيلة من وسائل التّعايش وتلاقي الشّعوب.

العادات والتّقاليد: هي على رأس الاختلاف الثّقافي والحضاري بين الأمـم فكـلّ شعب له عاداته وتقاليده ورثها عن أجداده، وتحرص كلّ أمّة علـى الحفـاظ عليـه وتعريفه لباقي الشّعوب.

***/ الهوية الثّقافية:**

لكلّ إنسان هوية يتميّز بها ويختلف بها عن غيره من البشر في درجة اسـتوائها أو مناسبتها للمعايير النّموذجية للهوية السّوية.يقول عز وجل:﴿ **وَنفْسٍ ومَا سَـوَّاهَا فَألْهمها فُجورَها وتقْواهَا**﴾[3]، فالهوية تعني تعريف الإنسان لنفسه فكـرا وثقافـة وأسلوبا وحياة.

ولكلّ أمّة هوية تتميّز بها عن غيرها. يقول تعالى:﴿ **لكلٍّ جَعلْنا مـنكم شـرعة ومنهاجا**﴾[4]، فالهوية تدلّ "على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر تميّزهم عن مجموعات أخرى"[5].

***/ التنوّع الثّقافي وعلاقته بالإبداع:** يقوم علم الاجتماع منذ القدم علـى فكـرة العيش بسلام والتّعاون والانسجام بين مختلف الأطياف البشـرية، لـذلك تعـاون الجميع بغضّ النّظر عن الانتماءات العرقية والايديولوجية والدّينيـة إلـى تطويـع الطّبيعة وتذويب الفوارق بين البشر، كما عملت الدّول والمنظّمـات المتخصّصـة كاليونسكو على وضع برامج لتقييم التنوع الثّقافي وجعله حـافزا للتّنميـة والعمـل المشترك من خلال الاستثمار في التنوع الثّقافي.

ويعتبر التنوع الثّقافي مصدرا مهمّا للإبداع وتبادل العلوم بين البشـر فالعامـل الأهمّ هو الثّقافة "بمفهومها الشّامل بدءا بالعامل الاجتماعي وانتهـاء إلـى العامـل الثّقافي الذي لا يختلف اثنان على أنّه يرتكز على الانفتاح الأدبي والفكري ليشـكّل بذلك الوعاء الذي يتضمّن كلّ عناصر التّعبير التي تحمل خصوصية ومثل وقيم أي مجتمع وتتمحور أساسا حول التّكامل والتّسامح والأخوة والعدالة والمساواة واحترام

العقل وكرامة الإنسان، ورفض الظّلم والعدوان"[6]، فأهمّية الثّقافة هي القدرة على التأقلم وتهذيب النّفس وتكوين أرضية صالحة للتّعايش السّلمي بين الإنسانية جمعاء.

*/ **أهمّية التنوّع الثّقافي:** تنمو الثّقافة مع النموّ الحضاري للأمّة فهي التّراث الذي تتميّز به جميع الأمم، وتختلف طبيعتها في كلّ مجتمع، وذلك للارتباط الذي يربط بين واقع الأمّة وتراثها الفكري والحضاري، لذلك تتباين الثّقافات الإنسانية تباينا واسعا بفعل عوامل إقليمية وجغرافية ودينية "فالثّقافة تحافظ على الهوية الإنسانية وبشكل أدقّ على الأشياء الأكثر خصوصية فيها، وتحافظ الثّقافات على الهويات الاجتماعية في أدقّ تفاصيلها"[7].

ويمكن أن يكون التنوّع الثّقافي عاملا للصّراع والتّنافر بين المجتمعات، أمّا في حال الإقرار بأهمّيته والقبول به فإنّ ذلك سيؤدّي إلى بناء مجتمع يتحلّى بمزايا عصرية، والتنوع الثّقافي أقرّته اليونسكو على أنّه ميزة حضارية توفّر توسّع نطاق الخيارات المتاحة لكلّ فرد، وجعلته أحد مصادر التّنمية البشرية.

ويشكّل التنوّع الثّقافي عاملا مهمّا يساعد على التّنمية بمختلف أشكالها، وهو يؤدّي إلى خلق منظومة حياتية مكتملة ومتطوّرة في آن واحد، كما يتيح للفرد أن يعبّر عن آرائه سواء عبر الفنّ أو الثّقافة أو السّياسة أو الوسائل الأخرى.

ويعتبر التنوع الثّقافي ميزة ضرورية وقوّة محرّكة للتّنمية وهو وسيلة لعيش حياة أكثر اكتمالا، كما يسهم في خلق حوار بين الحضارات والثّقافات وبلوغ الاحترام والتّفاهم بين الأمم.

2/ التعدّد اللّغوي: يعدّ التعدّد اللّغوي آية من آيات الله في أرضه إذ جعل لكلّ شعب لسانه وثقافته التي تميّزه عن باقي الشّعوب، لذلك فهو ظاهرة طبيعية في دول العالم، ولا ضير أن يتّخذ التعدّد اللّغوي مسلك التّطعيم وانفتاح الثّقافة الوطنية على الثّقافات الأجنبية. ويطلق مصطلح التعدّد اللّغوي على مجتمع تسود فيه أكثر من لغة للتّعبير عن متطلّباته ومقاصده، ومن هنا يمكن تعريفه بأنّه استخدام لغات

متعدّدة في مجتمع واحد.ويعرّفه جون ديبوا بقوله:"عندما تجتمع أكثر من لغة في مجتمع واحد، أو عند فرد واحد ليستخدموها في مختلف أنواع التّواصل والمثال المشهور هو دولة سويسرا حيث الفرنسية والإيطالية والألمانية هي لغات رسمية بها"[8]ونجد تقريبا نفس التّعريف عند الباحث المغربي محمد الأوراغي في قوله: "التعدّد اللّغوي المقابل العربي للّفظ الأجنبي Multilinguicime، وهو يصدق على الوضعية اللّسانية المتميّزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إمّا على سبيل التّساوي إذا كانت جميعها لغات عالمية كالألمانية والفرنسية والإيطالية في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وإمّا على سبيل التّفاضل إذا تواجدت لغات عالمية كالعربية بجانب لغات عامّة مثل الهوسا والعورمانشه والسوناي زراما والتماشيق والغولفولدة والتوبو في جمهورية النيجر[9].

وعرّف د. صالح بلعيد التعدّد اللّغوي بقوله: "إنّ التعدّد اللّغوي هو مجموعة من اللّغات المتقاربة أو المتباينة في مجتمع واحد"[10] فالتعدّد اللّغوي أمر حتمي وواقع ولقد أكّد الاسلام على قيمته حين ربط بين اختلاط الألسن فقال تعالى: "**وَمِن آياته خَلَقُ السَّماواتِ والأرض واختلاف ألسنتكُم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين**"[11].

ولا يخلو أي مجتمع من التعدّد اللّغوي فكلّ مجتمع يحتوي على لغتين أو أكثر بسبب تعدّد الأجناس والثّقافات، فهو "قضية حتمية فرضتها تداخل اللّهجات واللّغات مع بعضها فله الفضل في إغناء اللّغة ومساعدة المتعلّم في تعلّمه كما يفرض على معلم اللّغة أن يكون على دراسة ومعرفة ضمنية بهذا التعدّد، لكي ينجح في أدائه مهمّته على أكمل وجه، كما يمكن أن يؤدّي التعدّد للبس صرفي أو دلالي نتيجة تداخل الأنظمة اللّغوية فيما بينها[12].

وتعرّف جولييت غرمادي التعدّد بقولها: "إنّ الثّنائية اللّغوية أو التعدّدية اللّغوية أي أنّ استعمال منظومتين أو أكثر من جانب المتكلّمين في متّحد واحد"[13]، ويرى هارالد هارمان أنّ التعدّد اللّغوي ليس مجرّد تعدّد لغات، وإنّما تعدّد ثقافات أيضا

إذ أنّ"تعدّد اللّغات في العالم ليس واقعا يجب العيش معه وحسب، بل إنّه أيضا أداة اللهوية الإنسانية...إنّ خسارة تنوّع اللّغات في العالم ما قد يحدث من تقليل لقدرة الإنسان على إقامة جماعة ذات صبغة محلية."[14] فالتّنوّع اللّغوي ليس فقط في تنوّع اللّغات بل أيضا اختلاف الثّقافات والعادات والتّقاليد.

*/ **أسباب التعدّد اللّغوي:** وللتعدّد اللّغوي أسباب منها الرّحلات بين البلدان والهجرة والتّجارة وطلب العلم وغيرها من الأسباب التي أسهمت في إثراء المجتمعات والثقافات حيث"تحفل البلدان بطوائف متعدّدة وأقلّيات أجنبية، تعيش فيها جنبا إلى جنب مع شعوبها، وتحمل معها ثقافاتها المتعدّدة ولغاتها المتباينة"[15]، فتدخل اللّغات في صراع مع بعضها ينتهي إمّا بغلبة إحداهما أو التّعايش فيما بينها.

وكان للعامل الاجتماعي دوره في التعدّد اللّغوي، حيث نجد مثلا الزّواج بالإضافة إلى العامل النّفسي الذي يؤثّر كثيرا على شخصية الفرد وبالتّالي على اختياره للّغة التي يتحدّث بها، أمّا أخطر عامل هو العامل التّربوي الذي أسهم في انتشار لغات متعدّدة"لكن المشهد التّعليمي الجامعي في البلاد العربية يتناقض مع هذه الوجهة، إذ أنّ كثيرا من التخصّصات تدرس بلغات أجنبية لاسيّما التخصّصات العلمية حيث تدرّس باللّغة الفرنسية ممّا يجبر الطّالب على الثّنائية وذلك في استعمال المصطلحات بلفظها الأخير بالإضافة إلى أنّ هناك مصطلحات لا مقابل لها ممّا يفرض عليه استخدام المصطلح باللّغة الأجنبية دون محاولة تقريبه"[16].فالتعدّد اللغّوي تفرضه الظّروف الاجتماعية والثقافية بالإضافة إلى التّركيبة المختلطة للمجتمع المتكوّنة من جنسيات مختلفة ما رسم لوحة فنّية رائعة امتزجت فيها كلّ الثّقافات.

3/ التعدّد اللّغوي وعلاقته بالتنوّع الثّقافي وأثرهما على تطوّر الحضارة الإنسانية: يمكن للغّة كظاهرة اجتماعية أن تكون موضوعا للدّراسة أو لغة تدريس واتّصال، فاللّغة تؤثّر في المجتمع والثّقافة وهي وسيلة يعبّر بها النّاس عن أنفسهم

وميولاتهم وأفراحهم وأحزانهم إلخ، فمن المهمّ أن يتعلّم الفرد لغته الوطنية بالإضافة إلى اللّهجات المحلّية واللّغات العالمية، باعتبار أنّ اللّغة هي التي تنتج المعرفة وهي التي تحافظ على الثّراء الثّقافي.

وأثبتت الدّراسات اللّسانية المعاصرة أنّ اللّغات الإنسانية لغات طبيعية وكلّها سواسية ولكلّ واحدة خصائصها وميادين استعمالها، لأنّ اللغة هي وعاء للثّقافة المحلّية والهوية.

وأكّد الباحثون أنّ التنوّع الثّقافي والتعدّد اللّغوي في المجتمعات هو عامل توحيد وتناغم وليس عامل تفرقة وتصادم، حيث إنّ الثّقافة تظلّ إحدى المكوّنات الأساسية في إغناء رصيد التنوّع والتعدّد اللّغوي في المجتمعات لأنّها تسهم في حماية الهوية الحضارية لأي بلد، فالتنوّع الثّقافي والتعدّد اللغوي يشكّلان مصدر عزّ وثراء للحضارة الإنسانية فالهدف الأساسي هو أن يرى الإنسان ما الذي سيستفيد منه من الآخر وليس الخطر الذي سيأتي منه.

فالتعدّد واقع ورهان يومي يحتاج إلى نوايا صادقة لإثرائه وجعله أحد مكوّنات الهوية المجتمعية، فالتعدّد يبدأ من القبول بالآخر واحترام الاختلاف وحماية مختلف الأشكال والتّعابير الثّقافية والفنّية للمكونات التي تشكّل الهوية الوطنية.

ولأنّ اللّغة تمثّل "موضوعا ثقافيا يعتمد على الثّقافة بالمعنى الذي يميز الإنسان عن غيره من الحيوانات ولأنّ إخراج المجتمع من لغته أو إخراج لغته منه لتحل مكانها لغة أخرى هو أشبه بالتّهجير القسري من الوطن أو الحمى، فلا يوجد مجتمع إلاّ ولديه لغة ودين وربّما كان تغيير اللّغة أصعب من تغيير الدّين لأنّ الإنسان يسكن لغته"[17].

ولأنّنا نعيش في عالم واحد وجب علينا معرفة أكبر عدد من اللّغات حتّى لا نفهم التعدّد اللّغوي فهما سطحيا خاطئا أي"تجميع لعدد من اللّغات على حساب العمق المعرفي والمردودية التّعليمية لنجرد التّظاهر والتّباهي، بل يجب تقليص

الدّور الذي يجب أن تضطلع به اللّغة أو اللّغات الأجنبية، وتحديد الهدف من تعليمها واستعمالها، وهو التفتّح على العالم والتّواصل معه والاستفادة منها فـــي اكتســـاب أنواع الخبرة المحتاج إليها، والاستعانة بها في البحث العلمي والتّبادل التّجـــاري وعدم تجاوز هذه الحدود بالسّيطرة أو الهيمنة أو الحلول محـــلّ لغـــة السّـــيادة أو تهميشها كما هو واقع العربية حاليا"[18].

ويمكن أن يكون التعدّد اللّغوي تفريطا في اللغّة الأم وإهمال الهوية القومية لكننا قد نجد في بعض الدّول عدّة لغات رسمية تسهم في تنوّع الثقافات، فالتعـــدّد يمثّـــل توسيعا لآفاق الفكر ووسيلة حوارية بين الثّقافات والشّعوب عامّة.

لذلك يجب أن نستثمر التعدّد اللّغوي في ترجمة إرثنا العربي إلى لغات الآخـــر بل وإلى كلّ لغات العالم حتّى يقرأنا الآخر الذي يملك فكرة خاطئة عـــن العـــرب والمسلمين ولغتهم وثقافتهم ودينهم، وعلى العموم تظلّ العملية التّعليمية في حاجّـــة ماسّة إلى اصطناع الازدواجية المتوقّعة بين مصادر الثّقافـــة العربيـــة ومصـــادر الثّقافات الأجنبية، ممّا يحتّم على الدّارس ضرورة تعلّم إحدى اللّغات الأجنبية–على الأقل–وإتقانها نطقا وكتابة لتكون سندا له في الاطّلاع علـــى الثّقافـــات الأجنبيـــة، ومحاولة اختراق حواجز المكان واقتحام مجالات الفكر ومناقشة فكر الآخر عن فهم ووعي من قبيل الإثراء لفكر الأمّة ولغتها، وهو ما يتأكّد من خلاله منطق الانتمـــاء للثّقافة الأمّ من جانب، وما قد يضيف إليها بما يثريها ويزيدها عمقا ونضوجا مـــن جانب آخر"[19].

وتعدّ التّرجمة من وسائل الانفتاح على الثّقافات الأخرى"وهـــي نافـــذة فكريـــة ومدخلا حضاريا نطلّ منه على فكر العالم من حولنا، أو يطلّ علينا ذلك الفكر مـــن خلاله كما يضمن لهويتنا العربية مزيدا من التّواصل وعدم الانغلاق، كما يضـــمن لها مزيدا من الصّقل والانفتاح على كلّ ثقافات الآخر ومناهج فكره ومواد إبداعه، فالتّرجمة ركن أساس يضمن للمكتبة العربية المزيد من النّضج والاكتمال والثّـــراء

من خلال تزايد إيقاع التّفاعل المعرفي والحوار العقلي وحتّى الوجداني مع معطيات الثّقافات المحيطة بنا"[20].

ولأنّ اللّغة عامل مهمّ في التّواصل فهي تساعد على عيش كلّ فرد بسهولة وإقامة علاقات وروابط اجتماعية، وهي تدفع نحو التّقارب بين الشّعوب والثّقافات فالعلاقة بين التعدّد اللّغوي والتنوّع الثّقافي علاقة تبادلية، فالتعدّد اللّغوي يؤدّي إلى تنوّع الثّقافات والتنوّع الثّقافي يدفع بك إلى إتقان لغات عديدة بالإضافة إلى اللّغة الأمّ.

ويعتبر البعض التعدّد اللّغوي والتنوّع الثّقافي مخلّفات سلبية من تبعات العولمة، إلاّ أنّ التعدّد اللّغوي يبقى ضروريا للتّواصل لكون اللّغة لا تعرف حدودا جغرافية بل هي تملك الأفق الرّحب للانتشار.

والثّقافة هي تلك الممارسات اليومية التي نعيشها فنحن مجبرون على قبول الثّقافات الأخرى وفهمها بما يسمح للتّقارب بين الأمم بعيدا عن الصّراعات والاختلافات.

خاتمة: يرى البعض أنّ التعدّد اللّغوي يعبّر عن سعة الفكر وتطوير الذّات، أمّا التنوّع الثّقافي فيراه البعض انسلاخ عن الهوية الجماعية، فلم لا نجعل من اللّيمون الحامض شرابا محلّى؟ كما قال (ديل كارنيجي)، لما لا نسعى لفهم ثقافات الآخر والانفتاح عليها بدل الخوف والانغلاق على الذّات؟ لما لا نتعلّم لغة الأقوام الأخرى ونعرّفهم على لغتنا حتّى يسهل التّواصل بيننا؟. إنّ اتّخاذ المواقف السّلبية اتّجاه ثقافات الآخر هو بحدّ ذاته خطأ لذا وجب الانفتاح على اللّغات الحيّة وتعلّمها وقبول الثّقافات الأجنبية والتّفاعل معها بما يخدم الهوية الوطنية، وأخذ منها ما يهمّنا ويتماشى مع ثقافتنا، ومن هنا يكمن القول أنّ التعدّد اللّغوي والتنوّع الثّقافي خاضعان لمعتقدات وخلفيات وحدود فكر كلّ واحد منّا.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1/ التنوع والتعايش.حسين الصفار.دار الساقي، بيروت، لبنان، 1999م.

2/ التعدد اللغوي وانعكاساته على النّسيج الاجتماعي.محمد الأوراغي..مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط/1، 2002م.

3/ التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلم.عبد العزيز بلفقير .www.almothaquaf.com.

4/ في الثقافة والخطاب:عن حرب الثقافات:حوار الهويات في زمن العولمة.عبد الرزاق الداودي..عبد الرزاق الداودي.المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط/1 بيروت ، 2013م.

5/ الدولة والتعدد الثقافي.باتريك سافيدان.تر :مصطفى حسوني، دار توبقال للنشر المغرب، 2011.

6/ اللغة العربية وأسئلة العصر.العناتي وليد، برهومة عيسى.دار الشروق، عمان ط/1، 2007م.

7/ اللغة والدّولة المفقودة.(الإنسان يسكن لغته).الفضل شلقات. مجلة النهضة، دار المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ع/9، 2014م.

8/اللغة والمتغير الثقافي:الواقع والمستقبل.عبد الله التطاوي.الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط/1، 2005م

9/ اللسانيات الاجتماعية. جولييت غرمادي.تر:خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط/1، 1990م.

10/ تاريخ اللسانيات ومستقبلها. هارالد هارمان.تر:سامي شمعون، المجلس الوطني للثّقافة والفنون، قطر، 2006م.

11/ علم الاجتماع. لويس جان كالفي.تر:محمد يحياتن، دار القصبة للنشر 2006م.

12/في الأمن اللغوي.. صالح بلعيد. دار هومة، الجزائر، د.ط، 2010م.

13/ لغة الأمة ولغة الأم(عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية).عبـــد العالي الودغيري. دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2014م.

14/ نظرية الثقافة: تحديات ومفاهيم. صبرينة بوقفة. مجلة دليل الكتـــاب، المركـــز الجامعي سوق أهراس.

الهوامش:

---

[1]/ التنوع والتعايش.حسين الصفار.دار الساقي، بيروت، لبنان، 1999م، ص55.

[2]/ الدولة والتعدد الثّقافي.باتريك سافيدان.تر :مصطفى حسوني، دار توبقال للنشر، المغرب 2011، ص44.

[3]/ سورة:الشمس. الآية:7-8.

[4]/ سورة المائدة.الآية:48.

[5]/ في الثّقافة والخطاب.عن حرب الثقافات:حوار الهويات في زمن العولمة.عبد الرزاق الداودي.المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط/1، بيروت ، 2013م، ص25.

[6]/ فن الثقافة والخطاب.عن حرب الثقافات:حوار الهويات في زمن العولمة.عبد الرزاق الداودي.ص111.

[7]/ نظرية الثقافة:تحديات ومفاهيم.صبرينة بوقفة.مجلة دليل الكتاب، المركز الجامعي سوق أهراس.

[9]/ التعدد اللغوي وانعكاساته على النّسيج الاجتماعي.محمد الأوراغي.مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط/1، 2002م، ص11.

[10]/في الأمن اللغوي.صالح بلعيد.دار هومة، الجزائر، د.ط، 2010م، ص224.

[11]/سورة الروم.الآية:21.

[12]/ التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلّم.عبد العزيز بلفقير .www.almothaquaf.com.

[13]/ اللسانيات الاجتماعية. جولييت غرمادي. تر:خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط/1، 1990م، ص115.

[14]/تاريخ اللسانيات ومستقبلها.هارالد هارمان.تر:سامي شمعون، المجلس الوطني للثّقافة والفنون قطر، 2006م، ص49.

[15]/ علم الاجتماع.لويس جان كالفي.تر:محمد يحياتن، دار القصبة للنشر، 206م ، ص27.

[16]/ اللغة العربية وأسئلة العصر.العناتي وليد، برهومة عيسى.دار الشروق، عمان ، ط/1 2007م، ص106-107.

[17]/ اللغة والدولة المفقودة(الإنسان يسكن لغته).الفضل شلقات. مجلــة النهضــة، دار المعــارف الجديدة، الرباط، المغرب، ع/9، 2014م، ص15.

[18]/ ينظر:لغة الأمة ولغة الأم(عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثّقافية).عبد العــالي الودغيري.دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2014م، ص58.

[19]/ اللغة والمتغير الثقافي: الواقع والمستقبل. عبد الله التطاوي. الدار المصرية اللبنانية، القــاهرة ط/1، 2005م، ص58.

[20]/ نفسه. ص108.

التراث والحداثة: المفهوم والعلاقة

أ. عبد القادر سرير عبد اللّه

جامعة علي لونيسي ـ العفرون

مقدمة: لقد كثر تداول هذا الثنائي (التراث ــ الحداثة) تحت مسميات أخرى كثيرة، مثل الأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد، والأصولية والعقلانية، وغيرها من المصطلحات، كما عقدت الندوات، وألقيت المحاضرات، وأُلِفت الكتب ونُشرت المؤلفات في ا الموضوع الحساس، ولكن رغم كل ذلك لم يستطع الخائضون في هذا الموضوع الاتفاق على كلمة سواء ومازال الأمر على ما يبدو محتاجا إلى مزيد من النقاش والحوار، وتبادل الرؤى، علّنا نصل يوما إلى أرضية اتفاق وتفاهم، أوعلى الأقل أرضية تقارب وتوافق على مبادئَ ومعاييرَ عامة تمكن المشتغلين في هذا المجال الحيوي من التحاور والتشاور والتنسيق فيما بينهم.

نتطرق في هذا البحث إلى أهم مفاهيم ومدلولات كل من مصطلحي " **التراث**" و"**الحداثة**"، كما عرفها ثُلةٌ من المفكرين العرب والغربيين، ثمّ نعرض لمختلف الآراء التي ترسم العلاقة التي تربط بين المصطلحين لدى الاتجاهات الفكرية العربية التي تبحث في هذا الموضوع الذي مازال يثير الكثير من النقاشات والتساؤلات ويشكل دائما موضوع الساعة، لأنّه يطال بشكل مباشر وعميق قضايا الهوية والانتماء من وِجْهة، ولا علاقة وطيدة بحياتنا الراهنة بكل تجلياتها.

وبناءً على ما سبق، فقد جاءت خطة البحث بعد المقدمة كالآتي:

ــ أولا: مفهوم التراث.

ــ مفهوم الحداثة.

ــ مواقف المثقفين العرب من الحداثة.

ــ علاقة التراث بالحداثة.

ــ محاولة تركيب (خاتمة).

ــ **أولا ــ مفهوم التراث:** يطلق لفظ التراث على مجموع نتاج الحضارات السابقة التي يتم وراثتها من السلف إلى الخلف وهي نتاج تجارب الإنسان ورغباته وأحاسيسه سواء أكانت في ميادين العلم أو الفكر أو اللغة أو الأدب وليس ذلك فقط بل يمتد ليشمل جميع النواحي المادية والوجدانية للمجتمع من فلسفة ودين وفن وعمران... وتراث فلكلوري واقتصادي أيضا.

والأصل من التراث هو كلمة مأخوذة من (ورث) والتي تعني حصول المتأخر على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه "الواو والراء والثاء : كلمة واحدة، هي الوِرث. والميراث أصله الواو، وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب. قال:

مرِثْاهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا "[1].

أما الأصل التاريخي لكلمة تراث فهي تعود إلى أقدم النصوص الدينية حيث وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم ﴿ **وتأكلون التراث أكلا لمــا**﴾ – الفجر 19 – حيث كان المقصود بها الميراث[2].

حيث كان الأصل في البداية استخدام لفظ الميراث نيابة عن كلمة التراث ولكن مع تقدم العصور أصبحت) التراث (هي الكلمة الأكثر شيوعا للدلالة على الماضي وتاريخ الأمة وحضاراتها وما وصل إلينا من الحضارات القديمة سواء أكان هذا التراث متعلق بالأدب أو العلم أو القصص أي كل ما يمت للقدم.

أما عن المعنى المعاصر لكلمة تراث فهو التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة ومبتورة فوصلت إلينا بأشخاصها.

ومن الجدير بالذكر أن التراث هو ليس الطابع أو الخصائص القومية بل هو أعمق من ذلك فهو يعبر عن مجموع التاريخ المادي والمعنوي لحضارة معينة منذ

أقدم العصور فكثير هي الحضارات التي حكمت منطقة أو مكان واحد ومع أن هــذه الحضارات قد ولت إلا أن التراث اعادها.

إن **التراث** الشعبي ثروة كبيرة من الآداب والقيم والعادات والتقاليــد والمعــارف الشعبية والثقافة المادية والفنون التشكيلية والموسيقية، وهو علم يدرس الآن في الكثير من الجامعات والمعاهد الأجنبية والعربية لذا فإن الاهتمام به من الأولويات الملحة.

وهذا تعريف آخر للكاتب صالح زيادنة حول تعريف التــراث هــو مــا ينتقــل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب وفنون ونحوها مــن جيــل إلــى جيــل، نقــول : " التــراث الإنســاني " التــراث الأدبــي، التــراث الشــعبي"، وهــو يشــمل كل الفنون والمأثورات الشعبية من شعر وغناء وموسيقى ومعتقدات شّعبية وقصــص وحكايات وأمثال تجري على ألسنة العامة من الناس، وعادات الــزواج والمناســبات المختلفــة ومــا تتضــمنه مــن طــرق موروثــة فــي الأداء والأشــكال ومــن ألوان الرقص والألعاب والمهارات.

وبمفهومه البسيط هو خلاصة ما خلَفتــه (ورثتــه) الأجيــال الســالفة للأجيــال الحالية. **التراث** هو ما خلفه الأجداد لكي يكون عبرة من الماضي ونهج يســتقي مــن الأبناء الدروس ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل. والتراث في الحضارة بمثابــة الجذور في الشجرة، فكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشــجرة أقــوى وأثبــت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمان "إنّ التراث كل هذه الثقافات التــي نتعامــل بهــا ومن خلالها وانطلاقا من قيمنافيما بيننا وبين المم الأخرى، إنّ التراث كل هذه القــيم التي تميزنا عن غيرنا فلا نذوب ولا نفنى .أمْ من حــق الأبنــاء أنْ يَعقّــوا الآبــاء، والأحفاد أنْ يَعقوا الأجداد، فيزهدوا فيما تركوا فيمسوا وهم يبحثــون عــن تشــكيل شخصية جديدة أو شخصية أخرى لهم لا يمكن أنْ تتكوّن في الحقيقة إلاّ مــن خــلال التمسك بالتراث، والسعي إلى توظيف الجوانب المشرقة منه في حياتنــا المعاصــرة دون الذهاب بعيدا، بحيث إنَّ المناداة بتبنيه كلِّه يُفضي إلى قطيعة المعرفة الإنســانية

المعاصرة، ونحن كما لا نريد أنْ نذوبَ في غيرنا فنتمسك بقيمنا الأصيلة، فإننا لا نريد أنْ نرفضَ ثقافة الآخر ومعرفتهم)[3] .

في ضوء هذا النص لعبد المالك مرتاض، ندرك أن التراث ليس مادة واحدة منسجمة، بل فيه الثابت والمتغير والبشري والمقدس، وفيه المقبول والمردود والمطلوب منا في العصر الراهن أن نميّز بين تلك المستويات من التراث، فما كان مقدسا، ثابتا أخذنا به، والتزمنا به، لأنه هو سبب بقائنا وتميزنا عن غيرنا وما كان يدخل في غير ذلك فعلينا غربلته، وتصحيحه، او رفضه ونبذه إذا اقتضت الحالجة إلى ذلك.

ثانيا ــ مفهوم الحداثة: لا يزال العالم اليوم يلهث وراء مصطلحات التجديد والحداثة؛ التي تَذهبُ بالعقولِ وتأخذ الأفئدةَ بدعوى التقدم والرقي.. وقد انتشرت موجات عاتية من المصطلحات الوافدة والموضات السافرة والتغني بمنجزات الغرب وتحريف الكلم عن موضعه بانتهاج مناهج التقعر في الكلام، واستخدام أساليب تتنافى والذوق العام، وتصطدم بصحيح اللغة ومورد الكلام. .

وأمام هذا اللهث والانقياد والمتابعة للغرب شبرا بشبر وذراعا بذراع، والتي طالت كل شيء، حتى القيم والعبادات. و**أمام** الغزو –بصوره المختلفة– الذي يحيطنا من كل جانب مستهدفًا مكامن عزتنا ومواطن فِخارنا (اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا) معتمدًا على التكنولوجيا باعتبارها مظهرًا من مظاهر التقدم، مستخدمًا أساليب الحداثة والرقي؛ فقد بات الاهتمام باللغة العربية –مثلاً– مثار سخرية وازدراء والتمسك بها رجعية وعودة للوراء.

وبناءًعلى ما سَبق ذكره تتجدد الحاجة لتقنين هذا الأمر الذي بُحث كثيرًا من قبل لحاجتنا الآنية لما يعيد الأمور إلى نصابها، ويجدد الأمل فى تراث أمتنا العتيق وموردنا العذب ومنهلنا الطيب حتى تبرأ الأمة من سقم وتسيقظ من سبات.. فماذا عسانا أن نجني جراء إضاعتنا لثرواتنا وتراثنا وأعمارنا؟ والجري وراء أوهام

الحداثة الحداثة الغربية " التي فقدت قيمتها الإنسانية والأخلاقيـــة والروحيـــة، وكـــان هدفها الوحيد هو تحقيق الإثراء غير المشروع والمكاسب المادية على حساب القـــيم والأخلاق المثلى والفضائل السمحة"[4]

ومع زيادة الإقبال عالميًا على وسائل العصر ومستجداته في كل المجالات علميًـــا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا، بما يعنى الكثير من الوسائل والأدوات والمصـــطلحات بل والثقافات أمست الحاجة ملحة لضبط مصطلح ومدلولاته، ومن ثم معرفة كيفيـــة، ونسب التعاطي معه بما يحفظ علينا ثقافتنا وديننا.

أ ــ **الحداثة لغة:** جاء في لسان العرب مادة " حدث":

الحديث: نقيض القديم.حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة، وأحدثه هو، فهو مُحدث وحديث، وكذلك استحدثه .

والحدوث كون الشيء لم يكن.

وأحدثه اللّه فحدث.

وحدث أمر أيْ وقع"[5]

فمادة "حدث" ومشتقاتها المختلفة تُحيل كلها على معاني الجدة، ومخالفـــة الْقُدْمـــة ووقوع شيء لم يُسْبَق له وجود، وهذه المعاني كلها لهـــا علاقـــة وطيـــدة بـــالمفهوم الاصطلاحي للحداثة كما سنرى فيما بعد.

وإن كانت الحداثة تعنى عند أهل العلوم والأدب الْمُعاصَرَةُ وَتَبَنِّي أَشْكالٍ وَأَساليبَ حَديثَةٍ في الكِتابَةِ تُلائِمُ مَفاهِيمَ العَصْرِ، فإنها تعدت هذا لتشمل التحديث والتجديد فـــي كل مجالات الحياة وإطلاق العقل طاقته ليجول بخاطره لما وراء المتوقـــع، فهـــي– مثلاً– عند كمال أبو أديب طرح للأسئلة القلقة التي لا تطمح إلـــى الحصـــول علـــى إجابات نهائية، بقدر ما يفتنها قلق التساؤل وحمى البحث، فهي إذًا جرثومة الاكتنـــاه الدائب القلق المتوتر، وهي حمى الانفتاح.

ب. الحداثة اصطلاحا: لكنها في اصطلاح الغربيين تدور حول عدة معانٍ أبرزها أنها: "انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه، كما عند رولان بارت" [6]

كما أنها وردت بمعنى تجسيد صورة نسق اجتماعي متكامل، وملامح نسق صناعي منظم وآمن، وكلاهما يقوم على أساس العقلانية في مختلف المستويات والاتجاهات، كما عند «ماركس» و«إميل دور كايم»، و«ماكس فيبر»، لكن «جيدن» اعتبرها :تتمثل في نسق من الانقطاعات التاريخية عن المراحل السابقة حيث تهيمن التقاليد والعقائد ذات الطابع الشمولي الكنسي.

وقد اعتبر الفيلسوف الألماني «كانت» وهو من آباء الحداثة الغربية أن شرط الحداثة والتنوير اللازم هو "الحرية"، في دلالة على أن العقل عنده يجب أن يتحرر من سلطة المقدس ورجال الكهنوت والكنيسة وأصنام العقل، فيما يرى ناصيف أن الحداثة "هي خروج من التقاليد وحالة تجديد، وتتحدد الحداثة في هذا المعنى بعلاقتها التناقضية مع ما يسمى بالتقليد أو التراث أو الماضي"[7].

ج ـ مفهوم الحداثة في الإسلام: ومصطلحات التجديد هذه وإن كانت جديدة نسبيًا على ثقافتنا نحن المسلمين من جهة اللفظ، فإنها قديمة من حيث الأصل والمضمون بقدم هذا الدين؛ ففي واقع الأمر استودع الله دينه ما يدعو لمواكبة ما يستجد من أمور ومعايشة الواقع باحترافية واقتدار.. بل إن الإسلام سبق لحث أتباعه على صنع الجديد واعدًا بالثواب والأجر الجزيل.. لكن وأمام حالة الضعف العامة التي مُني بها المسلمون أصبح من الصعب نسبيًا تَصدُّر هذه المجالات واكتفينا بالمشاركة في صناعة أدوات الحداثة ووسائلها أحيانًا، والمتابعة والاستهلاك أحيانًا أُخر!

لكن، وبالنظر للتعاريف السابقة التى اعتمدت على ذويع حالة الضعف، فإن يتجلى ما بين هذه المدلولات المتعددة للحداثة من مساحة تؤكد التحلل والتحرر من الثوابت بإطلاق سراح العقل في مجالات الحياة، وهذا الأمر وإن كان ظاهره التقدم والرقي

والوقوف على نهايات التطور، فإن باطنه من قبله العذاب إن لم يُضبط بضابطٍ شرعيٍ وعرفيٍ يتفقُ وتعاليم ديننا وتقاليد وعادت شعوبنا العربية والإسلامية.

ومن هنا وجب بيان منطلقاتنا نحن المسلمين قبل الولوج في هذا البحر الذى لا ساحل له، مصطحبين ما ذخر به الإسلام من معان التعايش والتقدم مستنيرين بنصوص الوحي الزاخرة، بما يغلق الطريق أمام موجات التغريب الساحقة وطعنات التشويه المتوالية، فمفهوم الحداثة العربية والإسلامية يتعين بجملة من العناصر التي ينبغي أخذها في الاعتبار في عملية النهوض الحضاري: وأوّل هذه العناصر هو الوحي؛ قرآناً وسنة، وثانيها هو الواقع العربي الإسلامي، وثالثها هو الانطلاق من الإنسان. ورابعها هو الانفتاح على العالم.

فمفهوم الحداثة إذًا عندنا يعتمد على النموذج المعرفي للإنسان باعتباره الأساس الذي يقوم عليه ومن أجله، وهو ما يختلف -في اعتقادنا- مع المفهوم الغربي الذي يستبطن العلمانية، ويستبعد كل أثر للدين في حركة الحضارة

ــ **واقع مخزٍ**: وبعد وقوفنا على مفهوم الحداثة بين الإسلام والغرب؛ بين الأصل والفرع، يجدر بنا وصف ما عليه الحال الآن.. فإننا وإن كنا بصدد ظاهرة عالمية تجتذب العالم أجمع فإنه يعنينا في المقام الأول ما عليه حال المسلمين تجاه هذا الأمر فمن غير الخفى ما ابتلي به بعض المسلمين من الانسياق التام وراء هذه المصطلحات حتى باتوا دعاة للغرب في بلادنا، فقذفت بهم الحيرة إلى متائه من الشطحات هي ظلمات بعضها فوق بعض، فتاهت بهم السبل وكثرت بهم الأزقة وتخطفتهم الدروب بمسميات شتى ودعاوى متغايرة، التقدم والحداثة إحدى صورها ووسائلها حتى وجدوا أنفسهم صرعى على أعتاب ما ذهبوا يبغونه.

نعم، إن واقع أمتنا اليوم لينبئ عن تردٍ مزرٍ، "فإذا ما بحثت عن أمتنا في حقول المعرفة فلا تجدها، وفي ساحات الإنتاج فلا تحسها، وفي نماذج الخلق الزاكي والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة اليانعة... فتعود صفر اليدين!! بماذا

شغلت نفسها؟ بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى.. واستغرقها هذا كله، فلم تعط عزائم الدين شيئًا من جهدها الحار، وشعورها الصادق.. فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضاريًا وخلقيًا واجتماعيًا آخر أهل الأرض فى سلم الارتقاء البشرى"[8]!!

فقد أطلت التكنولوجيا الحديثة برأسها على رأس البسيطة وراحت تُبرِق عيونَ المسلمين الذين لم يكن لهم يد في صناعتها، وهنا مكمن الخطر وموضع الشرر، وفي سبيل ذلك أجمع الغرب عدتهم وراحوا يكيدون لكل ما يرتبط بالمسلمين وتاريخهم ولغتهم كيدًا.. وانطلقوا وهو يتخافتون حتى ساد القوم ببضاعتنا وتبوأوا مكانتنا.

وهو ما أردت التنويه إليه حتى لا تجرفنا رياح التغريب لوادٍ غير ذى زرع فنصبح وقد صرنا ألعوبة في يد الغرب تتلقفنا أياديهم، ننشد ودهم ونتغنى بإنجازاتهم دونما اعتبار لدين أو عرف، وهو ما يعد مسخًا نوعيًا وسَحْقًا للثوابت والأركان.

ـــ **سمات الحداثة المنشودة:** ولهذا، فأوّل سمة من سمات الحداثة المنشودة هو أن تكون قائمة على المرجعيّة الدينيّة، المبنيّة أساسًا على التوحيد، على اعتبار أنه "يمثّل حجر الزاوية في تكوين وبناء الرّؤية الكلّية عن الكون والحياة والإنسان، وفي الوقت نفسه يحقّق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية، لبناء فاعلية الإنسان وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية، والثقافية السليمة لدى الإنسان"[9] ".

فلا يمكن حل أزمة الفكر إلا بالتوحيد، ولا يستنير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه، ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلالمه، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تتحقّق عدالة إلاّ بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرّر أو مساواة إلا على قوائمه. فهو (أي التوحيد) ينعكس على الفكر فيقيّمه، وعلى التصوّر فينقّيه، وعلى الاعتقاد فيصحّحه ويطهّره، وعلى الوجدان فيحرّره، وعلى السلوك فيعدّله، وعلى الخلُق فيحسّنه، وعلى الحياة فيجعلها

حياة طيبة، وعلى نظم الحياة فيجعلها صالحة قائمة على الهدى، والحق، والعدل والأمانة، وتساوي الخليقة ووحدتها، ووحدة الحقيقة ومناهجها.

وعليه، فلابد أن تعتمد الحداثة على التراث الإسلامي بكل ما يحمله من رؤية معرفية، ومنظومة قيمية، وفلسفة في الوجود فهو أصل الرسالات ومبتغى الرسل والديانات وبه وحده النجاة وبتعاليمه وحده تسمو طبائعنا وترسو سفينتنا وسط هذه الموجات العاتية والصفات النابية.

ثالثا ــ الموقف من الحداثة: لقد تعددت وتموعت مواقف الدارسين والباحثين العربر في هذه المسألة، بسبب الروافد العلمية والثقافية لكل واحد منهم، وقد أحصينا ستة من تلكم المواقف المتباينة، سنحاول تلخيصها فيما يأتي:

1 ــ أسلمة الحداثة: يرى أصحاب هذا الموقف أنّ" الإسلام هو دين الحداثة بامتياز؛ والدليل على ذلك ما يتضمنه القرآن الكريم من حقائق التقدم والازدهار والتنمية الحقيقية، كالحث على طلب العلم، وتكريم الإنسان، والحث على العمل وبذل الجهد في بناء الكون وتعميره ...كما دعا الإسلام إلى استخدام العقل وتأمل الطبيعة والكون"[10]

ويمثل هذا الاتجاه ثلة من المفكرين، مثل حسن حنفي، طه عبد الرحمن، ومحمد عمارة ...و غيرهم.

2 ــ تمجيد الحداثة الغربية: يرى أصحاب هذا الموقف الثاني أنّ تراثنا العربي الإسلامي قد عرف عرف أصواتا حداثية بارزةكابن رشد في الفلسفة، والشافعي في أصول الفقه " وقد تمثلها الأوروبيون في بناء نهضتهم، إلا أننا في عصرنا لا يمكن الاعتماد على الرشدية في بناء الحداثة أو ممارسة فعل التحديث المعاصر، وكذلك الشافعي لا يمكن تمثل تصوراته الأصولية والفقهية في عملية العصرنة والتقدم، فلكل زمان حداثته التاريخية والفكرية "[11]، ولعل أبرز من يتبنى هذا الطرح المتطرف والإقصائي في التعامل مع التراث العربي الإسلامي هو محمد أركون الذي يرى

بأنَّ الإسلام تاريخا وفكرا وممارسة غير صالح لبناء الحداثة المعاصرة ،و أنه مجرد تراث ينبغي تجاوزه لتحقيق الحداثة الحقيقة والتي تمثلها الحضارة الغربية اليوم .

3 ــ **الرفض القاطع للحداثة** : يمثل هذا الموقف المتطرف المقابـل والمنـاهض للموقف الثاني مجموعة من الدعوات الدينية المنغلقة على ذواتها، والتي تسجن نفسها في التراث، وترفض الحداثة جملة وتفصيلا، سواء أكانت هـذه الحداثـة غربيـة أم عربية، ويتبنى أنصار هذا الرأي المتشدد خطابا تكفيريا عموما، تحول فـي بعـض المناطق من العالم إلى ممارسة إرهابية عنيفة .

3 ــ **التوفيق بين الحداثتين العربية والغربية:** يقول أنصار هذا الموقف الوسطي المعتدل أن للحداثة الغربية سلبيات وإيجابيات ،ولها مساوئ **و**محاسن، مثلها مثـل كل التجارب الإنسانية الأخرى ؛ وعليه فلا مناصً من الاسـتفادة مـن منجـزات الحداثة الغربية على المستوى العلمي والتقني والمنهجي، في حين يجب علينا الالتزام بالمبادئ والأخلاق الإسلامية، وعدم الانخداع بالنظريات والمـذاهب الغربيـة التـي تدعو صراحة إلى مخالفة التعاليم الدينية عموما، وتعاليم الدين الإسلامي خصوصـا وهذا يعني أن أصحاب هذا الموقف يرون أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة تكامـل وتعاون ،و ليست علاقة تناقض وصراع " لأن الحداثة تَنْبني علـى الـتلاقح وعلـى المثاقفة والتناص والتكامل والتفاهم والتعاون والتواصل"[12]

إن واقع الحضارة الغربية يؤكد هذا الرأي، لأنها نِتاج مشاركة وتعـاون شـعوب وحضارت مختلفة، فالحداثة الأمريكية اليوم شارك في إنجازها مجموعة من الباحثين والعلماء من أقطار ودول وشعوب مختلفة، تختلف دياناتهم وثقافاتهم ولغاتهم " ويعني هذا أنّ الحداثة قاسم مشترك بين الشعوب والأمم والمجتمعات الإنسانية بدون تمييـز أو تفريق أو تفضيل "[13]

إذا تقوم هذه المشاركة في صناعة الحداثة على مجموعة من القواعد والمعـايير يمكننا جمعها فيما يلي:

العطاء، الاستقلالية، الأصالة، التعاون، التواصل، التكامل، مع احتـرام معتقـدات الآخر وأعرافه، وتاريخه وثقافته وهويته .

الخاتمة: كانت ثنائية الأصالة والمعاصرة، أو التراث والحداثة، وستظل موضوع نقاش وجدال وحوار بين المفكرين والباحثين، نظرا لمختلف المفاهيم والدلالات التـي تحملها تلك المصطلحات، من وجهة، ونظرا لاختلاف روافد وثقافات المشتغلين فـي هذا المجال الفكري الحساس، من وجهة أخرى .و لكن مهما يكن من أمـر، يمكننـا استخلاص مجموعة من النتائج العامة نوجزها فيما يأتي:

ــ مصطلح التراث ليس شيئىا واحدا، لكن يحوي على الثابت والمتغيـر، الأول مقدس لا يمكن الخروج عنه أو تغييره، أما الشق الثاني منه المتغير، فيمكننا بل يجب علينا نقده وتجديده بحيث يساير مقتضيات ومتطلبات العصر.

ــ يمثل التراث في عمومه المرجعية التاريخية والقيمية لكل أمة، تستند إليه فـي بناء حاضرها، وفي تطلعاتها وتصورها للمستقبل.

ــ الحداثة مصطلح متعدد المعنى، كل يفهمه حسب خلفياته الفكريـة، وقناعاتـه الإيديولجية، وخبراته الحياتية فلكل ثقافة أو حضارة حداثتها .

ــ الحداثة الغربية هي المهيمنة اليوم على العالم، بكل قيمها الإيجابيـة والسـلبية الثقافية والاقتصادية، والقيمية.

ــ تعددت مواقف المفكرين والباحثين العرب والمسـلمين إزاء الحداثـة الغربيـة فمنهم الممجد لها، ومنهم الرافض لها، ومنهم من يحاول التوفيق بنهـا وبـين القـيم والمبادئ الإسلامية.

هوامش البحث:

[1] ــ انظر مقاييس اللغة، مادة " ورث ".

[2] ــــ انظر تفسير صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، سورة الفجر الآية 19.

[3] ــــ عبد المالك مرتاض، مائة قضية وقضية، دهر هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص117.

[4] ــــ جميل حمداوي، الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار التنوير، الجزائر، 2014،ط1 ص 20.

[5] ــ محمد ابن منظور، لسان العرب، انظر مادة " حدث ".

[6] ــ عدنان رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية 1992، ط1، ص 35.

[7] ــ انظر مقالة " الحداثة بين المفهوم الإسلامي والغربي " لمحمد جمال حليم، منشورات موقع " إسلام أون لاين".

[8] ــ محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، المقدمة، ص3، وما بعدها بتصرف.

[9] ــ طه جابر العلواني، مقالات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص35.

[10] ــ جميل حمداوي، الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، م س، ص 75.

[11] ــ جميل حمداوي، الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، م ن، ص 80- 81.

[12] ــ جميل حمداوي، الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، م س، 93.

[13] ــ جميل حمداوي، الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، م ن، ص 93.

شخصيّـة المُثقّف

بين التمسّك بالأصالة والانفتاح على التحضّر

د. يوسف بن نافلة

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف.

الملخّص: تروم هذه الورقة البحثية إلى الحديث عن مفهوم الثقافة لغـة، وفـي اصطلاح علماء الأنتروبولوجيا، ثم مفهوم الثقافة بين الصفوة والعامة، ثم التطـرّق إلى روافد الثقافة، وجذورها، ومصادرها الأساسية لدى كلّ مجتمع، ثـم ضـبط مصطلح "شخص مثقّف "، وما معنى قولهم أمّة مثقفة لا تُظلـم، ولا تُسـتعبد، ولا تبقى في آخر الرّكب .ثم الخصائص المميّزة للثقافة، والحضارة، ومستويات الثقافة وأنواعها، ومفهوم الثقافة الفرعية ومدلولاتها، وكذا المخاطر التي تهـدّد الثقافـة والخصائص المميّزة لمفهوم كلّ من الثقافة والحضارة.ثم الحديث عـن المقصـود بالرّجل المثقف حقيقة، وكيف يكون في صـراع بـين ثقـافتين ثقافـة الأصـالة والتحضّر، وثقافة الاستيلاب والضياع، مركّزا في كلّ ذلـك أيضـا عـن مفهـوم "الأصالة " ومفهوم "التحضّر"، ومفهوم "الاطّلاع على ثقافة الآخر"

الكلمات المفتاحية: الثقافة– التنوع –الأمن الثقافي –حـوار الثقافـات– التنميـة الثقافية– التعايش الثقافي.

المقدّمـــة: من المتعارف عليه لدى أهل الاختصاص أنّ الثقافة ركن أساسي في حياة المجتمعات، والأمم، والمقصود بالثقافة ليست مجرّد تـراكم المعلومـات أو الخبرات، بل إنّ الثقافة أسلوب في التفكير، ومجموعة من الـرؤى، وأنمـاط مـن السلوك، والعُرف الاجتماعي، والتراث، فهي محصّلة قِيم مادية وروحية، ووسائل لإنتاج هذه القيم، واستخدامها، ونقلها وهي تتطور، وتزدهر، وتورث من جيل إلى جيل . وتتضمّن الثقافة كلّ ما يحمله المجتمع من تراث وعلاقة هذا التراث بالزمان

والمكان، انطلاقا من الكثير من الأسس التي تشكّل ثوابت المجتمع وأصوله، وتوجد ضمن الثقافة العامة ثقافات فرعية مختلفة لكنها تتحـرك فـي دائـرة الثقافيـة والحضارية.

أما الثقافة الفرعية فهي نمط فرعي متّسق يسير وفق مجموعة مـن الأهـداف والغايات التي توجّه، وتضبط سلوك العناصر البشرية داخل المجتمع المحلـي، أو الجماعة الخاصة في ضوء متطلبات الأغراض المميزة للثقافة السّائدة في المجتمع.

وعلى هذا الأساس وجب علينا التركيز أساسا على المقصـود مـن دلالـة "الرّجل المثقّف" حين يكون في مهبّ الريح، وصراع بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة الأصالة، والتمسك بالهُوية الدائمة المفيدة لشخصـه وأمتـه، وثقافـة الاسـتيلاب الحضاري التي تهوي به في براثين الفساد، والضياع، فلا هو ربح شخصيته، ولا اندمج مع ثقافة غيرنا دون غربلة، ولا تمحيص . ذلك أنه لابدّ مـن جهـة ثانيـة تحديد مفهوم مصطلح " الأصالة"، ودلالته، ومرتكزاته، ودعائمه المتينـة للحفـاظ على الشخصية السوية، والهُوية الوطنية، ثم ضبط مصطلح "المعاصرة "، و كـذا دلالة التماشي مع الحضارة، والعصر الذي نعيشه وإلاّ اتهمنا بالرّجعيـة، والتّعقيـد والتأخّر،والانغلاق على الذات في عصر الرقمنة والتكنولوجيا .

أما الإشكال الذي أودّ طرحه في هذه الورقة فيتمثل في الآتي:

1-ما المقصود بالشّخص المثقّف في مجتمعنا؟

2-ومتى نقول عن الشخص أنه يحمل إرهاصات الثقافة والنخبوية في بلاده ؟

3-وهل تمسّك الشّخص بأصالته يعدّ فعلا أنه مثقّف؟

4-وهل الانفتاح على ثقافة الآخر دون تمحيص يعدّ استيلابا حضاريا؟

5- وما السبيل الأنجع لحفاظ المثقّف على شخصـيته، وهُويتـه،وتاريخ أمتـه المجيدة؟

6-وما دور التنوع الثقافي في تحقيق التعايش بين الأمم،والتنمية الشاملة بينهم ؟

مفهوم الثقافة:

أ–في اللّغة: جاء في لسان العرب : (ثقِف الشيء ثَقفا، وثِقافا، وثُقوفة : حذقــه ورجل ثَقْف، وثَقِفٌ، حاذق فهم، وأتبعوه فقالوا : ثقف، ورجل ثَقْفٌ لَقْــفٌ إذا كــان ضابطا لما يحويه قائما به .ويقال :ثَقِفَ الشـــيء وهـــو ســـرعة الـــتعلم. وثَقِفــتُ الشيء:حذقته، وثَقَفته :إذا ظفرت به، قال تعالى :(فإما تثقفنّهم في الحرب) وثَــقُف الرّجلُ ثقافة أي صار حاذقا خفيفا مثل ضخم، فهو ضخم، ومنه المُثاقفــة .وثقِــف أيضا ثقفا مثل تعب تعبا أي صار حاذقا فطنا، فهو ثقِفٌ، وثقُفٌ مثل حذِرٌ، وحَذُرٍ .وثقُف الخلّ ثقافة، وثقِفُ فهو ثَقِيف، وثِقِّيف بالتشديد الأخيرة على النسب : حذَقَ .

وثقِفَ الرجل : ظفر به، وثقِفته ثقفا :أي صادفته .وثقفنا فلانا في موضع كذا أي أخذناه، ومصدره الثّقفُ، وفي التنزيل العزيز (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) .

والثَّقاف والثَّقافة : العمل بالسيف . وفي الحديث :(إذا ملك اثنا عشر من بنـــي عمرو بن كعب كان الثّقف، والثّقاف إلى أن تقوم الساعة) يعني الخصام والجِــلاد .والثَّقاف : حديدة تكون مع القوّاس والرَّمَّاح يقوّم بها الشيء المعوّج .والثّقاف : ما تسوّى به الرماح، وتثقيفها : تسويتها ...)[1]

وجاء في (المصباح المنير) (ثقفتُ الشيء ثقفا من باب تعب أخذتــه، وثقفــت الرجل في الحرب أدركته، وثقفته ظفرتُ به، وثقفــتُ الحــديث فهمتــه بســرعة والفاعل ثقيف، وبه سمّى حي من اليمن، والنسبة إليه ثقفي بفتحتين، وثقفته بالتثقيل أقمتُ المعوّج منه.) [2]

وفي (المعجم الوسيط) :(ثقف ثقفا :صار حاذقا فطنا فهو ثَقِفٌ، ووثقف الخلُّ: اشتدّت حموضته فصار حرّيفا لذّاعا، فهو ثقيــف، وثقــف العلــم والصــناعة : حذقهما، وثقف الرّجل في الحرب : أدركه، وثقف الشيء : ظفر به .وثقف فلان : صار حاذقا فطنا . وثاقفه مثاقفة، وثِقافا : خاصمه، وجالده بالسلاح، وثاقفه: لاعبه إظهارا للمهارة، والحذق . وثقّف الشيء : أقام المعوّج منه، وسوّاه، وثقّف الإنسان

: أدّبه، وهذّبه، وعلّمه . وتثاقفوا :ثاقف بعضهم بعضا .وتثقّف فلان: ويقال تثقّف على فلان، وفي مدرسة كذا .والثقافة: العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها .والثُّقافة: الملاعبة بالسّيف.) [3]

يتّضح مما سبق أنّ المدلول اللغوي لكلمة (الثقافة) هي أنها تشمل على جملة من المعاني من الفقه والفهم، والحذق، والعلم، والصناعة،والفطنة، وكذا إدراك جوانب الحياة التي تتعلق بالجماعة المختلفة التي تخص موضع البحث في التنوع الثقافي في البيئة العربية .

ب-**في الاصطلاح:** ذكر العلامة ابن خلدون لفظة (الثقافة) حيث قال: (وأما الجيل الثالث فينسونعهد البداوة، والخشونة ...ويلبسون على الناس في الشارة والزي، وركوب الخيل، وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ...) ويقول أيضا : (فلا تفرق بينهم وبين السوقة من الخضر إلاّ في الثقافة والشارة.)[4]

أما العلامة الجزائري مالك بن نبي فقد خصّص كتابا في هذا الموضوع عنونه باسم (شروط النهضة) الصادر باللغة الفرنسية في باريس سنة 1949 م، ثم خصص كتابا لهذه المسألة وهو كتاب (مشكلة الثقافة) الصادر باللغة العربية في القاهرة سنة 1959م .ويقول هو نفسه في كتابه الأخير:

(إنما قصدتُ به أن أضع بعض معالم الإنذار على بعض المطبّات التي تجعل سير المجتمع مستحيلا، فلعلّ القارئ العربي يعيره بعض الاهتمام .)[5] ويعرّف مصطلح (الثقافة) بقوله: (مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثّر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.)[6]

أما التعريف الصادر عن الأليسكو في الخطة الشاملة للثقافة العربية فهو :

(الثقافة تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع وما يتصل بهما من مهارات أو يعين عليهما من وسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها .)[7]

وورد في (المعجم الفلسفي) تعريف الثقافة على النحو الآتي: (كلّ ما فيه استنارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد، والحكم لدى الفرد أو المجتمع وتشتمل على المعارف، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه . ولها طرق ونماذج عملية، وفكرية، وروحية، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي، وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر، وهي عنوان المجتمعات البشرية) [8]

ولعلّ أقدم تعريف حدّد مفهوم الثقافة هو التعريف الذي ذكره عالم الأنتروبولوجيا الإنجليزي (تايلور) Taylor) حيث قال : (هي حصيلة الكل المركّب من المعرفة، والمعتقدات، والفنون،والأخلاقيات، والقانون، والعادات، وجميع القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع)، وكذلك تعريف (رالف لينتون) الذي لم يخرج كثيرا عن تعريف(تايلور) فصرّح قائلا : (الثقافة هي حاصل مجموع المعرفة، والاتجاهات، وأنماط السلوك المشتركة، والمنقولة بين أعضاء مجتمع معيّن .)[9]

أما الباحث " برهان غليون" فيرى أنّ المقصود الثقافة : مجموعة من ملامح مميّزة، مادية، وفكرية، وروحية تميّز مجتمعا أومجموعة اجتماعية، وتسمح لأي متحّد بأن يعرف ذاته، ويتعرّف إليه غيره.)[10]

أما (أنتوني غدنز)(Antony guedenz) فيرى أنّ الثقافة في رأي علماء الاجتماع (تعني جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلّم لا بالوراثة ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون

والتواصل، وتمثّل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع، وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل المعتقدات، والآراء، والقيم التي تكوّن المضمون الجوهري للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل الأشياء والرموز، أو التقانة التي تجسّد هذا المضمون .)[11]

أما د/صالح بلعيد فيشير إلى مصطلح "الثقافة " في حديثه عن دلالة (الأمن الثقافي) قائلا: (الأمن الثقافي: يتكوّن مصطلح الأمن الثقافي من كلمتين ذات معنيين مختلفين هما: الأمن والثقافة، **فالأمن** هو توفير الجو لتداول الحريات التي نمارسها، ودلالته تشير إلى الدفاع، وتوفير الحماية المطلوبة . **وأما الثقافة** فتتضمن النشاطات المتعدّدة التي ينتجها الفكر في وقت ما، وعبر التاريخ . وتبعا لهذا الربط، فتعدّ الثقافة قوّة لا يستهان بها في مختلف الشؤون، والعلاقات، واللغة غير مفصولة عما تحمله من مضامين، وتوجّهات، وأفكار، وهنا نقول بأنّ الثقافة واللغة وجهان لعملة واحدة، وكلتاهما تدخلان في تحديد الأهداف، ورسم السياسات، وتحديد الأولويات، وأسلوب الأداء، مما يجعل الوصف الأقرب للثقافة هي الأفكار التي تحمل المضامين، وأنّ اللغة هي الحروف التي ندوّن بها تاريخنا البشري .)[12]

وجاء في (دليل الناقد الأدبي) أنّ (مفهوم "الثقافة "بالنسبة إلى "ويليامز" كما هي بالنسبة إلى غيره، نظام دلالي محدود بحدود نظامه، إذ تصبح الثقافة مقصورة على هذا النظام الذي تفرزه حالما يحدها، ويؤطّرها، فيمنعها تبعا لذلك خصوصيتها (أي يغلقها على ذاتها، وهذه هي خاصية النظام عموما كما أكّد ذلك البنيويون) .والنظام منذ أن نظر فيه البنيويون وهو مجموعة أعراف يلتزم بها مَن هو جزء منه، كالنظام اللغوي، أو المؤسسة بكافة أشكالها . وبمجرّد أن نتحدّث عن العُرف والأعراف، أي عن النظام الدلالي، فإننا لا محالة نتحدّث عن الثقافة في ضديتها للفطرة .فهناك الثقافة أو المؤسسة الأكاديمية، والمؤسسة

التجارية، والمؤسسة القضائية، والمؤسسة المهنية، بل هناك أيضا حتى المفاهيم التي تسود مؤسسة معينة أو حقبة خاصة، كالاستشراق مثلا الذي أثبت إدوارد سعيد كم هو مشبع بالتمركز الثقافي المحدد، والمقنّن . وهكذا فكلّ مجموعة لها شفرتاها الخاصة، حتى لو تكونت من شخص واحد، هي بالضرورة مؤسسة ثقافية (ومؤسسة، وثقافة مفردتان مترادفتان)[13]

وذكر سلامة موسى لفظة **Culture** التي كانت تستخدم في الغرب في مجال الاهتمام بالسلوك، ونمط الحياة الاجتماعية في الفكر إلى لفظة (ثقافة) فقال: (كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه، فإني انتحلنها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ **Culture** الشائعة في الأدب العربي .)[14]

بيد أننا (لم نجد علماء العربية والإسلام –في الزمن الماضي– من خلال مؤلفاتهم، وضعوا مفهوما اصطلاحيا للثقافة، وقد يرجع السبب ف يذلك إلى أنّ هذه الكلمة لم تكن شائعة الاستعمال في تراثهم الأدبي، فلم نجدهم ينعتون العلماء أو الباحثين بها، كما أنهم لم يتناولونها بدراسة مستقلة أو مميزة، وعلى هذا جاء تعريف "الثقافة" بالمعنى الاصطلاحي تعريفا حديثا، وتعددت تعاريفها، إلاّ أنها اتفقت بالمضمون غالبا، وإن تنوعت الصياغات .)[15]

أما عن مفهوم الثقافة في الفكر الغربي فقد ذكرت الأستاذة جميلة بنت عيادة الشمري أنه (استعملت كلمة (Culture) في اللغة اللاّتنية للدلالة على العناية بالزراعة والماشية، وفي العهد الروماني القديم أضيف إليها معنى آخر هو فلاحة الأرض . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ارتبطت الثقافة في فرنسا بالدلالة اللاتنية (الزراعة والماشية) . ومع بداية القرن السادس عشر تحولت كلمة الثقافة من الدلالة على الحال إلى دلالة الفعل،أي فلاحة الأرض، ومع انتصاف القرن تكون المعنى المجازي لكلمة الثقافة إشارة إلى تطوير الكفاءات، وإنمائها. وهكذا

استمرت كلمة الثقافة في القرن السابع عشر تختص بالزراعة، وفلاحة الأرض واستنباتها متنقلة من الثقافة باعتبارها حالة إلى الثقافة باعتبارها فعلا.

ومع القرن الثامن عشر اتّخذت كلمة "الثقافة" منحنى يعبّر عن التكوين الفكري عموما، وعن التقدّم الفكري للشخص عموما، وعما يتطلبه ذلك من عمل وما ينتج عنه من تطبيقات، وعلى هذا المعنى تمّ إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية (نشرة 1718م) متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل مثل : ثقافة الفنون، وثقافة الآداب، وثقافة العلوم،وانتقلت نتيجة للتطور إلى حصيلة عملية التنمية العقلية، والذوقية لتدلّ على المكاسب العقلية، والأدبية، فتحررت كلمة "الثقافة " تدريجيا من علاقتها بالمضاف، واقترنت بأفكار التقدّم، والتطوّر، والتربية والعقل التي احتلّت مركز القلب في فكر العصر .

ثم أخذت كلمة "الثقافة" هذه الكلمة تتوسع في اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية لتشمل تنمية الأرض بالمعنى المادي أو الحسي، وتنمية العقل، والذوق والأدب بالمعنى المعنوي .

وظلت كلمة "الثقافة" في القرن الثامن عشر تستخدم في صيغة المفرد وهو يعكس عالمية النزعة الإنسانية للفلاسفة، لأن الثقافة شيء خاص بالإنسان، دون أن يعني هذا أي تمييز بين الشعوب، والطبقات، ثم طوّر معناها فلاسفة العصور الحديثة، فأصبحت تعني مجموعة عناصر الحياة، وأشكالها، ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات .

خلاصة القول في المفهوم اللغوي الغربي للثقافة أنها قد تعددت دلالاتها وتطورت معانيها في اللغات الأوروبية كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية وتطورت حتى أصبحت مصطلحا علميا حاضرا في الدراسات الأنتروبولوجية (علم دراسة الإنسان) [16]

أما ما يتعلق بمفهوم "الثقافة" في الاصطلاح الغربي فتصرّح الباحثة جميلة بنت عيادة قائلة :

(لقد شهدت كلمة الثقافة ازدهارا، وانتشارا، وتداولا واسعا، فتعددت تعريفاتها لما يصل إلى أكثر من مائة وستين (160) تعريفا، ويرد ذكرها على سبعة أصناف: وصفية، وتاريخية، وتقييمية وسيكولوجية، وبنيوية، وتكوينية، وجزئية غير كاملة، فبرزت بعض التعريفات، وتميزت عن غيرها بوصفها للثقافة وشمولية التعريف لعناصر الثقافة ومنها:

1-أقدم هذه التعريفات وأكثرها ذيوعا حتى العصر هو تعريف الإنتروبولوجي الإنجليزي (إدوارد تايلو)[17] الذي قدمه في كتابه "الثقافة البدائية" عام 1871م، ذهب فيه إلى القول:

(الثقافة هي ذلك الكلّ المركّب المشتمل على المعارف،والمعتقدات، والفنّ والقانون، والأخلاق، والتقاليد، وكلّ القابليات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع .) مشيرا إلى نزعة الواقعية للثقافة.

2-ومن التعريفات ذات النزعة المثالية بأبعاد جديدة هو تعريف (كروبير وكلوكهون) اللذان يعدان من أبرز رواد الاتجاه التجريدي في تعريف الثقافة، فبعد تحليلهما للأكثر من مائة وستين (160) تعريفا كتبت باللغة الإنجليزية قدّمها علماء الاجتماع، والأنتروبولوجيا، وعلم النفس، والطب النفسي، وغيرهم، أمكنهم تصنيف التعريفات وفقا لاهتماماتها الرئيسية، فهناك تعريفات اهتمت بالحصر والوصف، وأخرى تارخية، وثالثة معيارية، ورابعة طابع نفسي، وخامسة بنائية وأخيرة تطورية، وقد أكّد أنّ الثقافة هي : "نسق تاريخي مستمدّ من الأساليب الظاهرة، والكامنة للحياة، التي يشارك فيها كلّ أعضاء الجماعة أو بعضهم "[18]

أما المفكّر الكبير محمد عابد الجابري فيذهب إلى أنّ كلمة (ثقافة) ترتبط في أذهاننا اليوم بشؤون الفكر عامة ولكنها مع ذلك لا تثير فينا مضمونا

واضحا محدّدا، ولعلّ السبب في هذا راجع إلى أنّ هذه الكلمة حديثة العهد في خطابنا العربي .فمعاجمنا القديمة لا تعطينا عن أصل هذه الكلمة، ومشتقاته إلاّ هاتين الدلالتين أو ما يشبهما : "يقال ثقف الولد، إذا صار حاذقا، وثقف الكلام: حذقه، وفهمه بسرعة، ويقال كذلك : ثقف الرمح إذا قوّمه، وسوّاه "، وهكذا نلاحظ أنّ نلاحظ أنّ معنى (الثقافة) كان يعني التقويم، والتسوية، وهو خاص بالرّمح، والعود ، ولم يعثر على ما يفيد امتداد هذا المعنى –معنى تثقيف الرمح– إلى الفكر أو الذهن، فالكلمة التي كانت مستعملة في هذا الشأن هي (التأديب)، كما أنّ"الأدب" كان يضم ما نعنيه اليوم بالثقافة، فضلا عن معناه السلوكي الأخلاقي، ومنه (المؤدِّب) بمعنى المُربّي، والمُعلّم ...كلّ ذلك يدلّ على أنّ كلمة "ثقافة" لم تكن في أصلها العربي مصطلحا لشيء من الأشياء الفكرية، ولا مفهوما يتمتع بقوة المفهوم، أي بدلالة معينة محددة عامة، ومجردة . ومن هنا يتأكّد ذلك الرأي القائل : إنّ كلمة (الثقافة) في الاستعمال العربي الأصلي لكلمة الحذق، والتسوية، والمعنى الجديد الذي صيغت للدلالة عليه .

إنّ كلمة Culture تعني في الأصل الزراعة والفلاحة وقد تطور مدلولها، ابتداء من القرن السادس عشر، لتفيد معنى مجازيا هو تنمية بعض القدرات العقلية بالتدريب والمران، ثم لتدلّ بعد ذلك على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن تنمية روح النقد، والقدرة على الحكم.

لقد نقلت الكلمة الفرنسية إذن من زراعة الأرض، واستغلال خيراتها إلى تدريب الفكر، وحني ثمراته، ومن نتاج الأرض إلى نتاج الفكر، وسرعان ما وقع التأكيد على أنّ مدلولها ف يميدان الفكر يجب أن ينصرف إلى فعل الإنتاج أكثر من الإلحاح على الإنتاج نفسه.بمعنى أن المقصود منها يجب أن يكون ما يكسبه العقل من قدرات على التفكير السليم، والمحاكمة الصحيحة، بفضل المعارف التي يتلقاها، والتجارب التي يخوضها، لا ما يضمنه الفكر بين طياته من معارف، ومعلومات . لقد ألحّ كثير من

الكتاب الفرنسيين منذ عهد النهضة على هذا المعنى، ويكفي أن نشير إلى تلك التفرقة الشهيرة التي أقامها (مونتني Montaigne) بين ماأسماه "الرؤوس المصنوعة جيدا، وما أطلق عليه، (المسيو Herriot) ل"الثقافة" حين قال: "إنها ما يبقى لدينا بعد أن ننسى كلّ شيء" هذا بالإجمال ما يتعلق بالمعنى الفرنسي للكلمة ولابدّ من أن نطلّ هنا على ذلك المعنى الخاص الذي يستعمله فيها علماء الأنتروبولوجيا، خاصة الإنجلوساكسون منهم، إنها تدلّ عندهم على مختلف المظاهر المادية، والفكرية لمجموعة بشرية معينة تشكّل مجتمعا بالمعنى السوسيولوجي للكلمة. يقول (تايلورTaylor) في نصّ متداول بكثرة:"إنّ الثقافة هي ذلك المركّب الكلي الذي يتضمن المعارف، والعقائد، والفنون، والأخلاق والقوانين، والعادات، وأي قدرات، وخصال يكتسبها الإنسان نتيجة وجوده عضوا في مجتمع ". وعلى العموم إنّ كلمة "ثقافة" في الاصطلاح الأنتروبولوجي تعني ما نعبّر عنه نحن اليوم ب"حضارة" إنها ليست البناء الفكري، وحسب، بل أيضا السلوك الفردي، والمجتمعي، وما يرتبط بهما من تقاليد، وأعراف، وأخلاق، وقد يضاف إلى ذاك كلّه أدوات العمل والإنتاج .

وقد كان النظر إلى الثقافة بوجه عام، أعني الثقافة بمعناها المعرفي، والوطني يتمّ من على ثلاث مستويات :

1-هناك الثقافة على المستوى الفردي، والمقصود تمثل الفرد الإنساني لذلك لمضمون الثقافة (الوطنية والإنسانية) أو لأي جزء من أجزائه، ومشاركته في إغنائه، وإثرائه . إنّ المثقّف بهذا المعنى هو مَن يمثّل ثقافة وطنه خاصة، والثقافة الإنسانية عامة، ويشارك في تنمية هذه، وتلك بشكل من أشكال المشاركة .

2-وهناك من جهة ثانية : الثقافة على المستوى الشعبي من حيث كونها تعكس واقع المجتمع الذي تنتسب إليه، تعكس وضعيته، ومطامحه، واتجاه مسيرته، والحق أن الثقافة مرتبطة دوما بوضعية اجتماعية معينة، وبمرحلة

تاريخية محددة، ارتباطا عضويا، إنها تعبر بشكل ما، عن الوضع القـائم، وعـن حركة المجتمع، حركته في الزمان، وتحرك أفراده، ومجموعاته في إطار العلاقات الاجتماعية القائمة، وانطلاقا من هذه الملاحظات نستطيع القـول إنـه لا يمكـن الحديث عن ثقافة مجتمع ما بكيفية مطلقة .إنّ الثقافة هي دوما ثقافـة فئـة، ثقافـة عصر، إنها الخاصة أو ثقافة العامة بالتعبير القديم، ثقافة النخبة، أو ثقافة الجمهـور بالتعبير الحديث .

3-أما في المستوى الثالث،ونعني بها المستوى الإنساني العام بقطع النظر عن الزمان والمكان، فإن الثقافة هي الأعمال الفكرية، والفنية الخالدة أي تلك الأعمـال التي تعبر عن موقف الإنسان إزاء الطبيعـة، ومـا وراء الطبيعـة، إزاء نفسـه ومصيره.)[19]

نخلص مما سبق ذكره أنّ الثقافة في المجتمع هي مجموع العـادات،والأعراف والفنون،والتقاليد،و حتى الذهنيات الخاصة بالأفراد، وكـلّ مـا يتعلّـق بالبيئـة والمجتمع ومنه يُعرف ما يسمى بعلم الاجتماع الثقافي، وعليه فإنّ المثقّف هو من النّخبة والحاذق الفاهم لأمور لقضايا بلاده، وأمته، ومعتزّا بهُويته، ويقـاس تمـدّن الأمم عند بعضهم بنوعية مثقفيها، ودرجة وعيهم، وفهمهم لدرجة المسؤولية التي ألقيت على عاتقهم .

طبيعة الثقافة: يحدد د/ طارق عبد الرؤوف عامر طبيعة الثقافة في عناصـر أساسية يجملها فيما يأتي:

1-السمة الثقافية: وهي أبسط عناصر الثقافة،وهناك سمات مادية، وأخـرى غير مادية كالمسمار، والانحناء لسيدة، والحد الفاصل بين السمة الماديـة، وغيـر المادية، وهمي، فهما يتّحدان ليكونا كلاّ معقّدا فمعظم السمات المادية تتصّـل بهـا عادات أو وسائل أو سلوك .

2- **النمط الثقافي :** تتصل السمات بعضها مع بعض، وتتصل عادة حول ميول رئيسة تصبح نقطا محورية للنشاط، وهذا الميل أو الاهتمام المحوري هو القوة الدافعة التي تثير نشاط الإنسان، ويطلق على هذه المجموعة من السمات المتّصلة التي تعمل بطريقة وظيفية اسم النمط الثقافي، ويمكن أن يعرف النمط الثقافي بأنه عدد من السمات الثقافية التي جمعت حول مصادر الاهتمام الرئيسة.

ويتضمن النمط الثقافي انتظاما في السلوك لا يمكن أن يحدث إذا كان شخص يعمل بطريقة عشوائية، وبأسلوب فردي .و لكل ثقافة مجموعة من الأنماط التي تفرضها على الفرد، والجماعة، وبذلك تتأكّد في حدود معقولية من أنّ هناك حدّا لوحدة السلوك . والأنماط الثقافية أمور غير محسوسة تقوم فقط في عقول الأفراد الذين يكونون جماعة ما، ولا يمكن رؤية هذه الأنماط إلاّ إذا اتّخذت لها شكلا ف يسلوك الأفراد حيثما يعملون في نشاط منتظم تحت تأثير مؤثر عام.

وتختلف الأنماط الثقافية بعضها عن البعض الآخر في درجة الاقتباس،وفي الوسط الاجتماعي الذي يحدث ذلك الاقتباس .

أ-النمط الثقافي القومي : وهو النمط الثقافي الذي يتكوّن من كلّ الأنماط الفردية من أمة ما، وتخالف الثقافات بسبب وجود الاختلاف في الأنماط المكونة لها، وبسبب اختلاف العلاقات بين هذه الأنماط . وهناك وحدة تماسك بين الأنماط الفردية المكونة للنمط القومي،وضمن الاستمرار التاريخي لنمط معين درجة معينة من الوحدة.

ب- النمط الثقافي العام: يشمل عناصر موجودة في كلّ الأنماط الثقاف ية العامة، وهوشاهد على الوحدة الأساسية للإنسان وحدة مشكلات الحياة الأساسية التي تواجهه بصرف النظر عن العصر، والبيئة التي يعيش فيها .)[20]

خصائص الثقافة: يمكن إجمال أهم الخصائص العامة للثقافة يما يأتي:

1-**الثقافة ذات خاصية مادية ومعنوية معا:** ثقافة المجتمع تحدد نمط وأسلوب الحياة في هذا المجتمع، والعناصر المادية هي عبارة عن تلك العناصر التي أتت نتيجة للجهد الإنساني العقلي، والفكري وفي الوقت نفسه لا تكتسب الثقافة وظيفتها، ومعناها إلاّ بما يحيطها من معاني، وأفكار، واتجاهات، ومعارف وعادات هذا فضلا عن أنّ العناصر المادية تؤثر بدورها في مفاهيم الأفراد وقيمهم، واتجاهاتهم، وعلاقاتهم أي أنّ الإحالة متبادلة بين العناصر المادية واللاّمادية داخل البناء الثقافي، ومن ثم فإن البناء الثقافي يشمل العنصرين معا في آن واحد .

2- **الثقافة عضوية:** إذا كانت الثقافة تشمل على العناصر المادية، واللامادية معا فإن كلا من العناصر المادية، وغير المادية يرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا فيؤثر كلّ عضو في غيره من العناصر كما يتأثر به.،فالنظام الاقتصادي يتأثر بالنظام السياسي، والعكس صحيح كما أنّ النظام التعليمي يتأثر بالنظامين معا، ويؤثر فيهما ومن جهة ثانية فإنّ العادات، والتقاليد تؤثر ف ينظام الأسرة من حيث طريقة الزواج، والعلاقة بين الكبير والصغير، وإذا تغير أي عنصر من هذه العناصر فإنه سيتبعه تغيرا حتميا في النظم الأخرى،أضف إلى أنّ التغيّر في أساليب المعيشة يتبعه تغيرا في القيم، والعادات، ومن ثم فإن عناصر الثقافة يرتبط بعضها بالبعض ارتباطا عضويا يتّسم هذا الارتباط بالدينماكية وليس بالإستيتيكية .

3-**الثقافة مكتسبة:** الثقافة ليست فطرية في الإنسان بل يتعلمها الأفراد وينقلونها من جيل إلى جيل، ويخطئ من يذهب إلى اعتبار الثقافة فطرية في الإنسان يكتسب الثقافة منذ سنواته الأولى حتى تصبح جزءا من شخصيته كما يصبح هو عنصرا من عناصر هذه الثقافة.

4- **الثقافة تراكمية:** تتميّز بعض عناصر الثقافة بالتراكم ذلك أنّ الإنسان يبدأ دائما من حيث انتهت الأجيال الأخرى، وما تركته من تراث، وبتراكم الجوانب المختلفة تتطور بعض جوانب الثقافة ، وتختلف درجة التراكم، والتطور،من عنصر إلى آخر فمثلا تتطور اللغة تراكمي يأخذ طريقا غير تراكم القيم، وغير تراكم التطور العلمي، والتكنولوجي، ومعنى هذا أنّ الإنسان لا يبدأ حياته الاجتماعية، والثقافية من العدم وإنما يبدأ من حيث انتهت الأجيال الراشدة الحية التي ينتمي إليها ومن التراث الاجتماعي الذي يعبر عن خبرات الأجيال السابقة فبعض عناصر الثقافة في أي مجتمع تعبر عن خلاصة التجارب، والخبرات التي عاشها الأفراد في الماضي بما تعرضوا لبه من أزمات، وما رسموه من أهداف، وما استخدموه من أساليب، ومتا تمسكوا بهم نقيم، ومعايير، وما انظموه من علاقات، وتتراكم الجوانب المختلفة على هذا النحو بطرق وصور مختلفة.

5-إمكانية انتقال عناصر الثقافة بالاحتكاك: فكلما زاد الاحتكاك، والتعامل بين مجتمع وآخر كلما زادت درجة الانتقال الثقافي بين هذين المجتمعين، لكن المجتمع ذو الثقافة الأقوى، والأفضل يؤثر بدرجة أكبر في المجتمع ذي الثقافة الأقل نجاحا، وقوة، وبالتالي فالثقافة ديناميكية متغيرة.

ومن خصائصها أيضا:

-أنها إنسانية أي خاصة بالإنسان فقط فهي من صنع الإنسان.

-مشبعة لحاجات الإنسان.

- أنها مكتسبة يكتسبها الإنسان بطرق مقصودة أو غير مقصودة عن طريق التعلم، والتفاعل مع الأفراد الذين يعيشون معهم.

-أنها قابلة للانتقال، والانتشار من خلال اللغة، والتعليم، ووسائل الاتصال الحديثة، وتنتقل من جيل إلى جيل، وفي المجتمع الواحد من فرد إلى فرد.

- تطورية أي تتطور نحو الأحسن والأفضل .

-الثقافة متغيرة فهي في نمو مستمر، وتغير دائم فأي تغير في عنصر من عناصرها يؤثر على غيره من العناصر.

-أنها تكاملية تشبع الحاجات الإنسانية، وتربح النفس الإنسانية لأنها تجمع بين العناصر المادية، والمعنوية.

- تنبئية : بما أنها تحدد سلوك وأسلوب الأفراد بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد معين ينتمي إلى ثقافة معينة .

-أنها تراكمية: إنّ الثقافة ذات طابع تاريخي تراكمي عبر الزمن فهي تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الذي قبله وهذا يساعد على ظهور أنساق ثقافية جديدة.[21]

ويحدّد (ميردوك) أحد علماء الاجتماع خصائص للثقافة أحدهما تكمل الأخرى متداخلة فيما بينها وليست منفصلة وتتمثل في الآتي:

1-إنسانية 2 - مكتسبة 3-قابلة لانتقال 4-اجتماعية

5-مشبعة لحاجات الإنسان 6- متطورة ومتغيرة 7- متكاملة [22]

عناصر الثقافة في المجتمع: تصنف الثقافة في المجتمع إلى ثلاث أصناف:

أولا: العموميات الثقافية:

هي العناصر الثقافية التي يشترك فيها عموما أبناء المجتمع مثل الدين ومصطلحات اللغة، والعادات، والتقاليد، والأفكار، وأنماط السلوك، والزّي والتحية، والقيم، والعلوم، وكذلك المنتجات الصناعية، والمادية الشائع استعمالها في المجتمع.

-أهمية العموميات الثقافية (وظائفها):

1-تحقيق وحدة التكامل بين أفراد المجتمع.

2- إيجاد الميول والاهتمامات المشاركة بينهم.

3-تكوين الطابع القومي لأبناء المجتمع الذي يميزهم عن المجتمعات الأخرى.

4-تدعيم الكيان الاجتماعي والمساعدة في تماسكه.

-دور التربيـــة اتجاه العموميات الثقافية:

1-نقل العموميات الثقافية للناشئة، وأفراد المجتمع.

2-إكساب أبناء المجتمع بالمعلومات، والمعارف لتمييز الحقّ من الباطل.

ثانيا: الخصوصيات الثقافية: تشمل الظواهر التي لا يشارك فيها ســوى أفــراد من فئة متميزة معينة حيث تتميز فئة معينة من المجتمع بثقافة معينـــة عــن بقيـــة المجتمع، والثقافات الفرعية تشترك جميعها في أصل واحــد وهــو العموميـــات وتنقسم إلى قسمين:

أ-الخصوصيات الثقافية الطبقية: هي العادات،والتقاليد التي تخصّ طبقة معينـــة من طبقات المجتمع دون غيرها من السكان فثقافة أهل الحضر تختلف عن ثقافـــة أهل الريف، وثقافة الطبقة الغنية تختلف عن الطبقة الفقيرة وغيرها.

ب- الخصوصيات الثقافية المهنية: هي العناصر الثقافية التي تستلزم لممارستها خبرات، ومهارات فنية، ومصطلحات سلوكية خاصة دون اعتبار لأصحاب هــذه المهارات من الأفراد فهي ليست وفقا على أحد مثل زي مهنة الطب، والمحامـــاة والقضاء، ولغة الصيادين، أي ا، الخصوصية تفرضها طبيعة المهنة، وتتميز هــذه الخصوصية بأن تسمح لأفراد المجتمع دخولها أي ليست حكرا علـــى فـــرد دون غيره عكس الخصوصية الطبقية التي تحكمها هذه الخصوصيات، وليست الصـــفة المهنية.

ثالثا: البدائل أو المتغيرات: تشمل الأشياء التي لا يشارك فيها إلاّ عدد محدود من الأفراد مثل بعض التقاليع، والموضات الجديدة (الدخيلة على المجتمع)، وهـــي أكثر جوانب الثقافة عرضة للتغيير فقد تزول إذا لم يقبلها المجتمع، وقد تنتقل إلى الخصوصيات أو إلى العموميات بحسب أهميتها في تحقيق وظائف هامة للمجتمـــع أي لأنها لا ترتبط بثقافة معينة، وتنتقل إلى ثقافة أخرى عن طريـــق التفاعـــل أو

الغزو أو وسائل الإعلام، ولا يعني كثرة المتغيرات، والبدائل الثقافية في المجتمع دليلا على انفتاح هذا المجتمع على الثقافات الأخرى فقد تكون ثقافة المجتمع ضعيفة إلى حدّ أنها لا تستطيع مقاومة الغزو الثقافي، وكذلك العكس قلة البدائل ليست دليلا على قوة ثقافة المجتمع فقد يكون مجتمعا مغلقا مثل (إسبرطة، الصين القديمة) [23]

أما **عن مكونات الثقافة** فيرى بعضهم أنها تتكون من ثلاث مكونات رئيسة هي:

1-المكونات المادية: وهي كلّ ما يستعمله الإنسان في حياته اليومية من أساس ومسكن، وملبس، ومباني وغيرها.

2- المكونات الفكرية: وهي تشتمل على اللغة، والفن، والدين، والعلم، وغيرها.

3- المكونات الاجتماعية: وهي البناء الاجتماعي، وهو هيكل المجموعة الاجتماعية من الناس.[24]

مفهوم المثقف (الناقد الاجتماعي) في الفكر العربي: يذكر الأستاذ عبد الفتاح العلمي في مقال بعنوان (واقع ومستقبل المثقف العربي في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية) الجدل الكبير الذي أدى إلى غموض في مفهوم المثقف وإلى التباين في إطاره العام، وأنّ هذا المفهوم عرف العديد من التعريفات تتفق في المضمون غير أنها تختلف في الشكل، وأول من استعمل هذه كلمة " مثقف " هو "كليمانصو" Clemenceau عندما كتب يقول:

"أليست هذه إشارة كلّ هؤلاء المثقفين الذين جاءوا من كلّ الاتجاهات، واجتمعوا للدفاع عن فكرة ".ولتحديد هذا المفهوم في المجتمعات العربية ينبغي الإشارة إلى مرجعين أساسين لهما وزنهما في الفكر الأكاديمي المتخصّص وفي حقل الثقافة العامة سواء في الثقافة العربية أو الثقافة الغربية، وهذان المرجعان هما غرامشي (Gramsci)، وسارتر(Sartre) .

ميّز غرامشي (Gramsci) بين صنفين من المثقفين العضوي وهو الذي يعمل على إنجاح المشروع السياسي، والمجتمعي الخاص بالكتلة التاريخية المشكلة من الفلاحين، والعمال مقابل المثقف التقليدي الذي يوظف أدواته الثقافية للعمل على استمرار الهيمنة الثقافية لهذه الكتلة هذه القراءة امتدّ تأثيراتها من إيطاليا إلى فرنسا إلى الوطن العربي.

أما سارتر (Sartre) فقد كان لكتابه" دفاع عن المثقفين "(Plaidoyer pour les Intellectuels) نصّا متميّزا في بيان وظيفة المثقف داخل مجتمعه يعتبر المثقف "كلّ شخص بلغ الشهرة بفضل أعماله في مجال الفكر،ويستعمل تلك الشهرة للتدخّل في أمور خارج مجال تخصّصه، أو باختصار التدخّل فيما لا يعنيه " .

وقد تنوعت هذه التعاريف بين المفكرين، والباحثين فقد اعتبره (فيبر) "Weber" بأنه المفكّر المتميّز .والمتسلّح بالبصيرة، وبارسونز Parsons بمفهوم المفكّر المتخصّص في أمور الثقافة، والفكر المجرّد البعيد عن أمور الحياة، وباسكال أوري Pascal ory بالشخص الذي يعمل على إيصال ما يفكر فيه إلى الآخرين .

أما في البلاد العربية فقد استخدم مفهوم المثقف في سياقه العربي، للدلالة على دور شغله أهل الرأي، والفقهاء، ورجال الدين، وهو استخدام حديث العهد نسبيا دخل إلى العربية ليحلّ محلّ ألفاظ عديدة نجدها في التراث العربي مثل الفقيه الإمام، المتصوف،العالِم، المتكلّم، الشيخ، الفيلسوف، وقد توصّل محمد عابد الجابري في بحثه (المثقفون في الحضارة العربية) إلى النتيجة الآتية:

كان الأمراء هم العلماء، وكان الصحابة أمراء، وعلماء في الوقت نفسه يحكمون بالشرع، ويشرّعون للحكم، ثم حصل خلاف حول الحكم، فاستأثر الأمراء بالسلطة، وتمسّك العلماء بالرّأي، وحصل استبداد بالأمر أدى إلى استقلال الرّأي، فانفصل العلم، والثقافة عن السياسة، وبدأت فئة المثقفين الأوائل في الإسلام بالظهور .

أما عن تعريف المثقف عند بعض المفكرين العرب فقد اتّخذ عدّة أسس فمنهم مَن اشترط توفر معيار التعليم، والثقافة، ومنهم مَن يرى بأن المثقف هو الذي يسعى إلى التغيير، وبالتالي لابدّ من وجود معيار التغيير، والبعض الآخر مَن يطرح معيار المشاركة في بناء المجتمع، وأخيرا مجموعة أخرى تعتبر أنّ للمثقف دورا هامّا في المجتمع يتركز على نقد السلطة، وأن يظل دائما لها، وليس مبرّرا لسلوكها .[25]

أما أهم التعاريف التي تناولت مفهوم المثقف في المجتمعات العربية كما يراه البعض المفكرين، والكتاب العرب يوردها أ/ عبد الفتاح العلمي كما يأتي :

1-يعتبر د/ زكي نجيب محمود من أكثر الكتاب الذين اهتموا بموضوع المثقف، وأفرزوا له حيّزا كبيرا من التعريفات فقد وصفه في أحد تعاريفه " بالشّخص الذي يحمل في أفكارا من إبداعه هو من إبداع سواه، ويعتقد إنّ تلك الأفكار جديرة بأن تجد طريقها إلى التطبيق في حياة الناس فيكرّس جهده لتحقيق هذا الأمل."وفي تعريف آخر للمفكر نفسه يرى فيه أنّ المثقف هو "الشخص الذي يروّج للقيم العليا (أخلاقية أو جمالية)، وفي هذا يكون الفرق بين المتخصص الذي وقف عند تخصصه في فرع من العلوم، والمثقف الذي ينشر الفكر ليس لمجرّد لأنه أي فكر، وكفى، ولكن لأنه في نظره هو الفكر الذي يتيح حياة أفضل" .وعرّفه أيضا :"بأنه هو من أدرك مثلا للحياة الإنسانية ثم لا يقف عند مجرد الإدراك، بل حاول تغيير الحياة وفق ما أدركه شريطة أن يجيء هذا التغير في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ .

2- أما المفكّر حيدر إبراهيم فيرى في المثقف هو:" ذلك الشخص الذي يتحلى بالمعرفة مضافا إليها العمل، والممارسة، وفقا للثقافة المكتسبة، فالمثقف هو متعلّم أو متخصّص، وزيادة، أي صاحب قضية اجتماعية، وسياسية يعمل أجلها وفق رؤية للعالم، ولذلك يعتمد تحديد معنى المثقف على التطوّر التاريخي أو مستوى

للمحددات الاقتصادية والاجتماعية لكل مجتمع،كذلك يتغير دور المثقفين وتـــأثيرهم حسب هذه المعطيات ".

3-أما أحمد موصللي ولؤي صافي فقد عرّفا المثقف بأنه: "الشخص الذي يهتم بتفكيك، وإظهار التناقضات المجتمعية، وموظفا في ذلك هواجسه، واهتماماته "

4-أما إدوارد سعيد فيرى أنّ " المثقف فرد له في المجتمع دور علني محــدّد لا يمكن تصغيره إلى مجرد مهني لا وجه له، أو كعضو كفؤ في طبقة ما لا يهتم إلاّ بأداء عمله، ويرى أنّ الحقيقة المركزية بالنسبة لي هي أنّ المثقف وهب ملكة عقلية لتوضيح رسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي، ويشترط على المثقــف أن يمتلك صفة التمثيل أي أن يقوم المثقف بتمثيل وجهة نظر ذات طبيعة معينـــة ويعبر بجلاء لجمهوره عن تلك الأفكار التي يمثلها برغم الحواجز والعوائق ."

وانطلاقا من التعريفات السابقة للمثقف يرى عبد الفتاح العلمي بأن التعريف الذي يعتبر المثقف بأنه المتعلم الحاصل على الشهادة الجامعية هو تعريف ســطحي لأنــه يعني ضمنيا أن كل متعلم مثقف غير أن للمثقف وظائف أخرى تميزه عــن بقيــة المتعلمين، ويخلص في الأخير إلى أنّ المثقف هو ذلك الشخص المتعلّم الذي يــدرك ما يحيط به، ويستوعبه، ويشارك بوعيه في بناء، وتغير الأوضاع المحيطة به .)[26]

أما ما يتعلّق بنماذج المثقفين فقد حددها د/ معن خليل عمر في أربع نمــاذج هي:

1-نموذج ذو منطلق موقفي : وهو المتميز بمواقفه الدقيقة تجاه ثقافة مجتمعه واتجاه الثقافات الأخرى،والتي من خلاله يحدد هدف المثقف، ومركــزه الخــاص من المثقفين في مجتمعه .

2-المثقف ذو المنطلق السلطوي: هذا الصنف ينتشر بكثــرة فــي المجتمعــات العربية بحيث يعمل على استحواذ أعمال، وتجارب، وأفكــار الآخــرين وينســبها لأفراد لم يساهموا في طرحها أو استعمالها دون الإشارة إلى أصحابها .

3-المثقف ذو المنطلق الادعائي: يعبر هذا النموذج عن المثقفين الذين يـدعون بالتخصيص في ميادين أخرى دون تخصصهم الأصلي.

4-المثقف ذو المنطلق الموقعي: وهو المثقف المتخصص الذي يداهن المواقـع الإدارية، والمعرفية لكي يصل إلى مستويات إدارية، ومعرفية رفيعة مدافعا عـن السلطة تابعا منصاعا لأوامرها دون أن يفيد مجتمعه أو يثري المعرفة بشيء.[27]

التنوع الثقفي علامة حضارية للشعوب والأمم: يـذكر أهـل الاختصـاص أن المقصود بالتنوع الثقافي هو وجود العديد من الثقافات في مؤسسة معينة أو في مجتمع أو في العالم، وهو عبارة عن مجموعة من الثقافات المختلفة، والمتنوعـة ومن أبرز الأمثلة على التنوع الثقافي الثقافات المتجانسة، والثقافة العالمية، وقـد تشير إلى وجود العديد من الثقافات المتنوعة، والتي تحترم بعضـها الـبعض ويتم استخدام هذا المصطلح في الكثير من الأحيان في الثقافات المجتمعية، كمـا أنها من الممكن أن تكون من الأسباب الرئيسة للعولمة، وتختلف الثقافة بشـكل تام في الكثير من المجتمعات مثل التقاليد، واللباس، واللغة، ويوجد العديـد مـن الاختلافات بين المجتمعات في كيفية تنظيم أنفسهم، وتصورهم للأخلاق بالإضـافة إلى كيفية تفاعلها مع البيئة .[28]

وجاء في تقرير اليونسكو العالمي تحت عنوان: (الاستثمار في التنوع الثقـافي والحوار بين الثقافات) مفهوم التنوع الثقافي على أنه بالدرجة الأولى حقيقة واقعيـة فهناك مجموعة واسعة متباينة من الثقافات المتميزة التي يمكن التمييز بينها علـى أساس الملاحظة الأثنوغرافية ... وقد أصبح التنوع الثقافي شاغلا رئيسـيا مـن الشواغل الاجتماعية المعمول بها داخل المجتمعات وفيما بينها.

وأكّد التقرير على أنّ التنوع الثقافي ليس ببساطة مجرّد ميزة إيجابيـة ينبغـي الحفاظ عليها بل هو مورد يجب تعزيزه بما في ذلك المجالات البعيدة عن الثقافـة

بمعناها الضيق.كما أنّ ثمة حاجة إلى اتّباع نهج جديد إزاء التنوع الثقافي وهو نهج يراعي طبيعته الدينامية، وتحديات الهُوية مما يرتبط بدوام التغيّر الثقافي. "[29]

أما مظاهر التنوع الثقافي فتتمثل في الآتي:

1-**اللّغة:** حيث تميزت الحضارات والأمم بلغاتها الخاصة على مرّ العصور والأزمان، حيث تعتبر هي الركن الأساس الذي تقوم الثقافة عليه، كما أنها تعدّ أحد مظاهر الاختلاف بين الحضارات، والأمم، حيث نجد كل أمة تفتخر وتتباهى بمزايا لغتها بالإضافة إلى أنها تحرض على تعليمها للجميع بشكل دائم فهي البوابة التي تستخدم للتعرف على جميع الحضارات، والتمازج بين الشعوب في كافة أنحاء الأرض.

2- **الدّين:** يعتبر أمر التعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء الأرض من أفضل السبل لتلاقح الشعوب، والأمم، بالإضافة إلى التعرّف على العديد من الحضارات، وعوامل الاختلاف الحضاري .

3-**العادات والتقاليد:** تعتبر على رأس الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم حيث إنّ الأمم تحرض على توريث جميع عاداتها وتقاليدها.[30]

الجوانب الإيجابية والسلبية للتنوع الثقافي: يمكن إجمال أهم **الجوانب الإيجابية** للتنوع الثقافي فيما يأتي:

-الاعتراف بشرعية الثقافات الموجودة في المجتمع، حيث أنها تمثل جزء مهما من المجتمع.

-التعرّف على عادات الثقافات الأخرى وقيمتها، وتقاليدها.

-إعطاء فرصة تعمل على تحقيق المساواة، والحريات بين جميع الثقافات الموجودة داخل المجتمع كسنّ القوانين على سبيل المثال.

-وجود الاحترام بين الثقافات المختلفة داخل المجتمع بالإضافة إلى التحقيق الذاتي لفرد، وتطوّر النقد الذاتي.

أما **عن النواحي السلبية** للتنوع الثقافي فمكن إجمالها فيما يأتي:

-من الممكن أن يؤدي الصراع الثقافي إلى حرب أهلية عند وجود دستور موحد،وقوانين موحّدة للدولة.

-قد يؤدي إلى فوضى وعدم استقرار اجتماعي، أي لا يوجد أية قوانين موحدة لجميع الثقافات بسبب وجود اختلاف في العادات والقِيم.

-قد يؤدي إلى تفكيك وحدة المجتمع، والنسيج الاجتماعي مما يؤدي إلى جعل المجتمع كالفسيفساء، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ لكل ثقافة نمط حياة، وعادات وتقاليد.

-تساهم في تكوين إطار خاص للثقافة، وانغلاقها على نفسها، مما يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك وهو الدولة.[31]

" وكانت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو أصدرت الإعلان العالمي للتنوع الثقافي في عام 2001 لتعزيز التنوع الثقافي بين الشعوب وتعزيز دوره التنموي، وإيجاد حوار بين الثقافات المختلفة.

واعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في الحادي والعشرين من ماي في عام 2002م اليوم العالمي للتنوع الثقافي لتحقيق الحوار، والتنمية بين الثقافات المختلفة.

وقد أكّدت اليونسكو أهمية التنوع الثقافي بأن يكون التنوع الثقافي ضمانة للتفاعل بين المجتمعات التي تتزايد تنوعا يوما بعد يوم، والعيش معا بين أفراد ومجموعات ذوي هُويات ثقافية متعددة، ومتنوعة، وديناميةـ، معتبرة أنّ السياسات التي تشجع على دمج كلّ الموطنين، ومشاركتهم تضمن التماسك الاجتماعي وحيوية المجتمع المدني، والسلام.

وفي المجتمعات المنفتحة نجد أنّ قضية التنوع الثقافي تبدو أكثر فاعلية وحضورا، إذ تبرز قيمة التأثير المتبادل عبر حوار حيوي واضح، وجلي في تفاصيل صغيرة من حياة البشر، ويعود الأمر إلى طبيعة النظام السياسي القائم

على احترام التعددية، كما هو الحال في عدد من الــدول الأوروبيـــة، مثــل الســويد والنرويج، والدانمارك، وغيرها من البلدان.

والتنوع الثقافي لكي يكون فاعلا يحتاج إلى بيئة متحــررة تكفــل حريـــة الــرأي والاختلاف، والتعبير ف يظلّ أنظمة ديمقراطية تحقق للجميع فرصا متساوية في كافة المجالات، وكلما كان التنوع الثقافي متاحا، ومحميا من طرف السياسيين على وجــه الخصوص كلما كان أكثر ثراء، وتأثيرا في تجديد أنشطة المجتمع وأفكاره، وتوجهاته.

وهذا من شأنه أن يكون نسيجا اجتماعيا متجانسا، وإن كان ذا ثقافات متعددة وهنـــا سيكون التنوع السكاني العرقي، وغيره داعما للتنوع الثقافي، وبـــالعكس بـــدلا مـــن أن يكون التنوعان في، وصراع يقودان المجتمعات إلى حالة من التأخر والتردي لا يمكن توقع عواقبها.

ويتاح للفرد داخل المجتمع المتحرر التعبير عن آرائه سواء عبر الفنّ أو الثقافـــة أو السياسة، أو الوسائل الأخرى التي يضمنها له النظام الــديمقراطي، ولا يحميهـــا فقــط وإنما ينشرها، ويجعلها متاحة للجميع من دون استثناء فتشكل عامل قوة متبادلـــة بـــين السياسي، وسلطته، وبين التنوع المجتمعي من خلال تنوع ثقافاته.

أما المجتمعات التي تتسّم بالانغلاق فالصورة فيها قائمة، ومليئة بالشـــك والكراهيـــة والارتياب من الآخر نتيجة تأثير الأنظمة السياسية فيها، وهذا نجده في منطقة الشـــرق الأوسط، مناطق أخرى في آسيا وإفريقيا. ففي هذه المجتمعـــات التـــي تنبـــذ الآخـــر وثقافته، ولا تقرّ بها، وتتطلّع إليه يعمّ التناحر بين النسيج المجتمعـــي، وتبـــدو قضـــية التنوع الثقافي سببا إضافيا للصراع داخل المجتمع الواحد، وهذا يجعل مـــن الصـــعب القبول، وينتهي الأمر إلى حالة مرتبكة ثقافيا بجانب ارتباكها اجتماعيا.

و ليس من شكّ في أنّ تفعيل التنوع الثقافي في المجتمعات، وتعزيزه، والمحافظـــة عليه، وحمايته من المخاطر المهددة له يوفر الأسباب لتقوية وشائج التعاون الدولي، من خلال الحوار، والتقارب بين الثقافات الذي ينتهي إلى التحالف بـــين الحضـــارات

من أجل بناء مستقبل آمن للإنسانية التي تتخبّط اليوم في متاهات عالم غير آمن وغير عادل، مليء بالدمار، والحروب، والكوارث .

كما أنّ التنوع الثقافي في المجتمعات المتحضّرة، والفاعلة بشكل عاملا هاما مساعدا على التنمية بأشكالها، وأنواعها المختلفة، ولا ينحصر ذلك في تنمية الثقافة وحدها طالما أنّ هذا التنوع يساعد على تنمية المواهب، والإبداع الإنساني في المجالات كلها.

وربما تتعلّق قضية التنوع الثقافي بالإضافة إلى إشكالياتها الفكرية بالجانب الأخلاقي للمجتمعات الذي يحتم على ذوي العلاقة الإيمان بأهمية التنوع أولا والعمل علة تطويره، وعدم السماح بالمساس بقدسية مفهوم التعددية، والأمر منوط أولا بالسياسات، ويتطلّب تعاونا جادا مع المعنيين من مثقفين، ومفكرين عبر آليات عملية لكي تصبح نهجا ثقافيا، ومجتمعيا، وحتى سلوكيا يتبناه الناس بمختلف مشاربهم واتجاهاتهم المعنيين من مثقفين، ومفكرين عبر آليات عملية لكي تصبح نهجا ثقافيا ومجتمعيا، وحتى سلوكيا يتبناه الناس بمختلف مشاربهم، واتجاهاتهم، وانتماءاتهم."[32]

ومن أقسام علم الاجتماع ما يُعرف بعلم الاجتماع التربوي الذي استخدم لأول مرّة في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك عام 1910 م كعلم يقوم البروفيسور "هنري سوزالو" بتدريسه، ثم استخدم للدلالة على فرع مستقل من فروع علم الاجتماع. ويقصد بعلم الاجتماع التربوي العلم السلوكي الذي يدرس الإنسان في علاقته بإنسان آخر، أي أنه إطار تربوي هدفه تكوين الخبرة أو المعرفة، أو الثقافة أو التعليم أو التدريب سواء كانت هذه العلاقة بين تلميذ وآخر أو بين تلميذ، ومعلم أو بين التلاميذ أنفسهم أو بين المعلمين أنفسهم أو بينهم وببن غيرهم من العاملين في المؤسسة التربوية وكذلك بين كلّ الأُطر التربوية، والمؤسسات الاجتماعية في المجتمع الكبير.[33]

يتّضح مما سبق أنّ التنوع الثقافي يعدّ بحق رافدا من روافد التنمية الشاملة والتحضر، ذلك أنه يساهم في رقي الأمم، ويساهم في حوار حضاري، وتحقيق أمن سلمي، وتعايش بين الأمم، والشعوب، واحترام عادات وتقاليد الآخر، وبالتالي الابتعاد عن التطاحن والخلافات، والنزاعات، والعداوات، والأحقاد النتنة.

كما أنّ الثقافة لدى كثير من جهابذة علماء الاجتماع هي تلك الكلّ المركّب الذي يتضمن المعرفة، والعقيدة، والفنّ، والقانون، والأخلاق، والعادات، والتقاليد والأعراف، وغيرها من القدرات التي يتحصّل عليها المرء كعضو في جماعة وبيئة محددة، ولعلّ التعريف الشامل للثقافة يتمثل في أنها طريقة، ومنهاج الحياة الكلية للمجتمعات بجوانبها المختلفة الفكرية، والمادية وهي تشمل مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات، والتقاليد، والعادات،والنظم، والمهارات، وطرق التفكير، وأسلوب الحياة، والعُرف، والأدب، والرواية، ووسائل الاتصال، وانتقال وكلّ ما توارثه الإنسان، وصنعته يده،وأنتجه فكره .

الخاتمة: في خاتمة هذه الورقة البحثية يمكن تحديد جملة من النتائج أجملها فيما يأتي:

1-إنّ المدلول اللغوي العربي للفظة (الثقافة) تشمل على جملة من المعاني أشهرها الفطنة، والحذاقة، والذكاء، والفقه، وسرعة الفهم،والتعلم، والتمكن من الشيء، والظّفر به، وإدراكه إدراكا وافيا، والإلمام بالمسألة بكل أسرارها، وكذا التقويم والاصلاح.

2-الثقافة من وجهة نظر أهل الاختصاص هي طريقة الحياة الكلية للمجتمع بجوانبها الفكرية والمادية، وهي تشمل مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات والتقاليد، والعادات، والأخلاق، والنّظم، والمعارف،، والعقيدة، والقانون، وطرق التفكير، وأسلوب الحياة، والفن، والأدب، والرواية، ووسائل الاتصال، والانتقال

وغيرها من القدرات، والمهارات، والكفاءات، والملكات التي يتحصّل عليها الإنسان باعتباره فردا من أفراد المجتمع في بيئة معيّنة.

3-إنّ الثقافة في الفكر الغربي تعني المصطلح المتداول وهو (Culture) للدلالة على العناية بالحياة الزراعية، وبالمواشي، وفي العهد الروماني القديم أضيف إليها معنى آخر هو فلاحة الأرض، وخدمتها . بعدها ارتبطت الثقافة في فرنسا بالدلالة اللاّتنية التي هي الماشية والزراعة، ومع بداية القرن الثامن عشر اتّخذت كلمة (الثقافة) دلالة معينة تعبر عن التكوين الفكري، وتقدمه لدى الشخص المثقف.

4-الثقافة بمعناها المعرفي لدى المفكر محمد عابد الجابري يتم وفق ثلاث مستويات أساسية:الثقافة على المستوى الفردي (أي تمثل الفرد الإنساني لذلك المضمون الثقافي)، والثقافة على المستوى الشعبي من حيث كونها تعكس حقيقة المجتمع وواقعه الذي تنتسب إليه،والمستوى الثالث هو المستوى الأإنساني العام بصرف النظر عن الزمان والمكان .

5- مفهوم المثقف العربي لدى كثير من النخبة العربية هو ذلك الشخص الذي يتحلى بالمعرفة، والعلم، مضافا إليها العمل، والممارسة، وفقا للثقافة المكتسبة وأنّ المثقف في نهاية المطاف هو متعلّم، أو متخصّص، وصاحب قضية اجتماعية وسياسية، وناقد اجتماعي بارع، وممحّص لقضايا أمته .

6-إن التنوع الثقافي ليس مجرّد ميزة إيجابية يجب الحفاظ عليها، وإنما هو مورد هام، ومنبع صاف يجب تعزيزه، بما في ذلك الميادين المختلفة البعيدة عن الثقافة بمعناها الضيق .أضف إلى ذلك أنّ هناك علاقة متينة، وأواصر قوية بين التنوع الثقافي والهُوية الثقافية حيث أنّ الهُوية لا يمكن أن تكتمل إلاّ بوجود الثقافة، وتتميّز الهُوية بأنها تمتلك القدرة على فهم التنوع الثقافي لكافة الأمم كما أنها تعمل على جمع جميع الأفراد في المجتمع بغية تبلور هُوية ثقافية تجمعهم.

الهوامش والإحالات:

[1]– لسان العرب لابن منظور، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة،ط1423هـ–2003م 684/1

[2]– المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث القاهرة، الطبعة 1424هـ–2003م ص54

[3]– المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية،القاهرة 131/1

[4]– المقدمة لابن خلدون، ص212–214

[5]– مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط12، ص12.

[6]– مشكلةالثقافة ص74، وينظر : شروط النهضة، مالك بن نبي ص 83.

[7]– الخطة الشاملة للثقافة العربية، الموقع الإلكتروني للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو).

[8]– مجمع اللغة العربية، ص58.

[9]– مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان، دار الشروق، عمان، 1992، ص156

[10]– الوعي الذاتي، برهان غليون، الطبعة الثانية، دار الفارابي، عمان، 1992،ص90

[11]– علم الاجتماع،أنتوني غدنز، ترجمة فايز الصبّاغ، ط4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2005، ص82

[12]– كتاب(الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي) مجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس 2018،ص9.

[13]– دليل الناقد الأدبي، د/ ميجان الرويلي، د/ سعد البازعي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب،ص141.

[14]– المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، زكي الميلاد، ص23

[15]– ينظر المقال الإلكتروني :(مفهوم الثقافة في الفكر العربي والفكر الغربي)، أ/جميلة بنت عيادة الشمري،موقع الألوكة .

[16]– المقال السابق على موقع الألوكة .

[17]– عالم أجناس بشرية (أنتروبولوجيا) بريطاني (1832–1917) أستاذ علم الإنسان في جامعة أكسفورد منذ عام(1896–1909م) أسهم في دراسة الثقافة وكان أحد رواد الاتجاه التطوري

وقال بالنظرية البيولوجية، وأسهم في تطوير الدراسات للأديان من مؤلفاته : أبحاث في تاريخ البشرية القديم (ينظر : الموسوعة العربية العالمية)

[18]- ينظر المقال الإلكتروني للأستاذة جميلة بنت عيادة الشمري على موقع الألوكة.

[19]- مفهوم الثقافة..وقاموس اخطاب العربي المعاصر، د/ محمد عابد الجابري، على الموقع الإلكتروني: www.aljabri abed .net/culture1.htm

[20]- المقال الإلكتروني:(الثقافة : مفهومها وخصائصها وعناصرها)، د/ طارق عبد الرؤوف عامر.

[21]- المقال نفســه .د/ طارق عبد الرؤوف عامر (على الشابكة)

[22]- الثقافة: مفهومها، خصائصها، عناصرها مقال إلكتروني على الموقع: www.u.Uobay lon.edu.iq

[23]- المقال الإلكتروني نفسه على الموقع ذاته.

[24]- ينظر المقال الإلكتروني (الثقافة : مفهومها وخصائصها وعناصرها)، د/طارق عبد الرؤوف عامر.

[25]- ينظر:المقال الإلكتروني (واقع ومستقبل المثقف العربي في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية) على الشابكة،ص158 وما بعدها .

[26]-المقال السابق ص159-160

[27]- المقال السابق ص162.

[28] ينظر المقال الإلكتروني على الموقع : www.rjeam .com -

[29]-ينظر التقرير على الشابكة (الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات) ص3

[30]- المقال نفسه على الموقع نفسه.

[31]-المقال نفسه، والموقع نفسه.

[32] -ينظر المقال على الموقع: http: //middle-east-online.com

[33]-مدخل إلى علم الاجتماع للجامعيين، د/ صلاح الدين شروخ، دار العلوم للنشروالتوزيع حجّار، عنابة ص86.

مكتبة الورقة البحثية :

1-لسان العرب لابن منظور، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة 1423هـ-2003م .

2- المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع القاهرة،1424هـ-2003م .

3-المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، القاهرة، دارالدعوة 1972..

4-الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي، أعمال اليوم الدراسي،المجلس الأعلى للغة العربية منشورات المجلس .2018.

5-في الموطنة اللغوية وأشياء أخرى، د/ صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر2008م

6- في الأمن اللغوي، د/صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية 2012م.

7- معركة المصير والهُوية في المنظومة التعليمية الصراع بين الأصالة والانسلاخ في المدرسة الجزائرية، د/علي بن محمد، دار الأمة، برج الكيفان الجزائرالطبعة الأولى 2001م

8- مدخل في علم الاجتماع للجامعيين، د/صلاح الدين شروخ، دار العلوم للنشر والتوزيع الحجّار، عنابة.

9-دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا،د/ ميجان الرويلي د/ سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،الطبعة الخامسة 2007م.

10-مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع مؤسسة الكتب الثقافية مكة المكرمة، الطبعة الرابعة 1426هـ-2005م.

11-تقرير اليونسكو العالمي :الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة .

12-مشكلة الثقافة مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية عشر .

13-شروط النهضة، مالك بن نبي .دار الفكر

14-مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان، دار الشروق، عمان .1993
15-الوعي الذاتي، برهان غليون، الطبعة الثانية، دار الفارابي، عمان .1992
16-مقال إلكتروني بعنوان (مفهوم الثقافة في الفكر العربي والفكر الغربي) أ/ جميلة بنت عيادة الشمري، شبكة الألوكة.
17-مقال إلكتروني بعنوان (الثقافة مفهومها، خصائصها، عناصرها)
18- مفهوم الثقافة، وقاموس الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري (مقال إلكتروني)
19-الثقافة مفهومها وخصائصها وعناصرها، د/ طارق عبد الرؤوف عامر، (مقال إلكتروني)
20-تبسيط مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي دراسة في مفهوم الثقافة وعناصرها، د/ حورية بكوش (جامعة أحمد دراية أدرار)، مجلة رفوف،مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار، الجزائر، العدد العاشر، ديسمبر2016م
20-واقع ومستقبل المثقف العربي ف يظلّ التحديات التي تعيشها البلاد العربية،أ/ عبد الفتاح العلمي،(مقال إلكتروني)
21- التنوع الثقافي يبرز السمة الحضارية للشعوب المنفتحة (مقال إلكتروني)
22-مقال إلكتروني(التنوع الثقافي مظاهر:إيجابياته وسلبياته)
23- مشكلات الحضارة مالك بن نبي حديث في البناء الجديد، وهي مجموعة محاضرات ألقاها المفكر جمعها وترجم لمؤلفها:عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت .
24- مشكلات الحضارة مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، طرابلس، لبنان.
25-مذكرات شاهد القرن الطالب، مالك بن نبي،ترجمة بقلم المؤلف،دارالفكر، لبنان.

التنوع الثقافي
بين هاجس الاستيلاب وأمل الاستيعاب

د. عابدة قرسيف

جامعة بسكرة.

ملخص: إنّ ما يميز كل حضارة من حضارات الأمم الحمولات الثقافية التي تتسم بها كل حضارة؛ فالعالم العربي الإسلامي مثلا تتعدد ثقافاته محليا وإقليميا ودوليا كما أنه يختلف عن ثقافة الحضارة الغربية. إذ إنّ لكلٍ شرائعه وعقائده الدينية كما أنّ لكل منها قِيّمه وعاداته وتقاليده الاجتماعية، وأسسه ومبادئه الاقتصادية .....إلا أنّ التّجاذب الحاصل بين الأمم لاسيما في عصرنا الراهن والمتسم بعصر التكنولوجيا التي قربت المسافات وأزالت الحدود بينها، قد ساعدت بشكل كبير في تفعيل جدلية المعرفة الثقافية بين الأنا والآخر إلى حدّ الانبهار بثقافة الغير، أو الاعراض عنها لما يعتقده بعضهم من تصورات خاطئة عن تلك الثقافات الوافدة عليهم على نحو: ثقافة الحضارة الإسلامية التي أُلصق بها مفهوم الإرهاب ،أو كما يحلو للبعض تسميتها بالإسلامفوبيا. وعلى هذا الأساس جاءت هذه الدراسة لتقف عند سلبيات وإيجابيات التنوع الثقافي وكيفية خلق حوار بين الثقافات من أجل التنمية في جميع المجالات إضافة إلى الحدّ من الصراعات القائمة بين شعوب العالم؛ فكان من أبرز الإشكالات: كيف يمكننا إيصال ثقافتنا للآخر بمنظور إيجابي يوطّد جسور التفاهم؟ وهل استيعاب ثقافة الآخر يعني بالضرورة الانسلاخ عن الذات؟

Ce qui distingue chaque civilisation des nation ,ce sont les chargees culturelles qui caractérisation chaque utilisation par exemple le monde arabo-islamique ses cultures sont diversifiées localement

régionlement et internationalement et différent de celles de la culture occidentale.

Toutes ses lois et croyances religieuse ont la méme.leurs valeurs,contunes, tradition sociales, fondement,et pricipes économique….,mais l'aspect qui produit entre les nations en particulier dans l'ere actuelle de la technologie qui a apporté des distances et des frontieres supprimées a grandement contribué à actives la dialectique des connaissances culturelles entre l' ego et l'autre dans l'étendue de la fascination pour la culture des autres, ou les symptômes de ce que certains d' entre aux pensent des manuaires a propos des ces cultures qui viennent à eux : la culture de la civilisation islamique qui à été collé à la nation de terrorisme ou comme certains voudraient le nommer comme Islamophobie, et sur cette basse et cette étude est venue se tenir sur les négatifs et les avantages de la diversité culturelle et comment créer un dialogue entre les cultures pour le développement dans tous les domaines aux que la réduction des conflits entre les peuples du monde l'un des problèmes les plus important : comment pouvons nous communique motre culture à les autre avec une perspective positive qui consolide les ponts de compréhension ? comprenez-vous la nécessairement une auto-rupture?

إنّ الناظر في أحوال العالم يدرك أنه مؤسس على مبدأ الاختلاف والتنوع، إلا أنّ ذلك الاختلاف والتنوع لا يؤدي إلى تنافر الموجودات مع بعضها البعض؛ وإنما يخلق تناغما وتكاملا بينها. والرائي في واقع المجتمعات البشرية يلحظ تجلي ذلك التنوع في طريقة عيشهم وطريقة نظرهم للكون وللشرائع، إضافة إلى تنوع عاداتهم

وتقاليدهم، وحتى في ألسنتهم المعبرة عن المعاني ذاتها. وقد يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان ضمن ثقافة تجمعهما وتعكس علاقة الاتحاد بينهما؛ ليعبر بذلك عن حضارة الأمم التليدة، والتي تحمل في ثناياها إيديولوجية المجتمعات المنتمية إليها .وبما أن لكل حضارة ثقافتها الفكرية والدينية واللغوية ..... فإن حاصل هذا التنوع قد يخلق صراعات بين الأمم من أجل فرض السيطرة، خاصة على الشعوب الضعيفة؛ وهذا ما أدى إلى نشوء الحروب واتهام بعض البلدان بالإرهاب. وقد ظهرت هيئات ومنظمات تسعى إلى خلق الحوار بين الأمم وتقبل ثقافة الآخر من أجل تنمية اقتصاد العالم، ومن أجل تحقيق السلام.

أولا التعدد اللغوي والانتماء الديني: أشكاله وإشكالاته: يشهد العالم انقسامات عديدة: جغرافية ولغوية ودينية؛ فكل دولة من دول العالم لها حدودها الجغرافية، كما أن لها لغة رسمية تتحدث بها ودين تتقيد بشرائعه؛ ولعل هذا الأمر في كثير من الأحيان أدى إلى ظهور النزاعات بين الدول من أجل فرض السيطرة. وقد يكون الأمر خلاف ذلك؛ إذ قد تحدث المثاقفة بين الدول، نتيجة لعوامل وأسباب متنوعة من قبيل الفتوحات الإسلامية، أو مجاورة البلدان لبعضها البعض.

1-التعدد اللغوي: أشكاله وإشكالاته: تتمظهر الأشكال اللغوية في مختلف المقامات التخاطبية من خلال جملة الممارسات اللغوية، التي يتخذ أصحابها شكلا لغويا واحدا ، أو ثنائيا، أو قد يعرف تداخلا بين عدة أشكال لغوية متجانسة أو غير متجانسة. ومن أمثلة تلك الممارسات اللغوية ما نجده من استخدامات لغوية ؛ إذ تستخدم في: « بلدان المغرب الحالي ثلاث لغات، العربية والفرنسية واللغة الأم، أما الأوليان فلغة الثقافة، وهما لغتان مكتوبتان، وتستخدم الفرنسية أيضا لغة المحادثة غير أن اللغة الأم الحقيقية التي يستخدمها الناس دائما في خطابهم اليومي لهجة هي العربية أو البربرية وليست هذه اللغة الأم إلا في حالات نادرة جدا لغة مكتوبة[1]»كما هو الحال مع اللغة المكتوبة عبر شبكات التواصل الاجتماعي ، أين نجد ظهور شكل

جديد من اللغة ،والتي أطلق عليها مسمى: الهجـين اللغـوي أو الفرانكـو أراب أو العرابيزي .

وإن كان هذا الشكل اللغوي الجديد يرجعه المختصون إلى انبهار الفرد بـالمنجز الأجنبي. وقد خلقت هذه الأشكال اللغوية تعددا لغويا على مستوى المجتمـع الواحـد وحتى للفرد الواحد حيث أصبح للمجتمع لغات عدة في البلد الواحد ، وأصبح الفـرد يتكلم عدة لغات؛ ليعرف بذلك الفرد والمجتمع ما يصطلح عليه بالتعدد اللغوي، وهو: "المقابل العربي للفظ الأجنبي Multilinguisme، وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانـت جميعها لغات عالمة كالألمانية والفرنسية والايطاليـة، فـي الجمهوريـة الفدراليـة السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغـات عامية مثل الهوسا والغورمانتشه والسوناي زارما والتماشيق والفولفولدة والتوبو في جمهورية النيجر" [2] ؛ إلا أن هذا التعدد اللغوي الموجود في الدولة الواحدة قد يـؤدي إلى خصومات قبلية أو دولية ،« إذ غالبا ما تركب اللغة لتحقيق أغـراض سياسـية وتتخذ ذريعة لإذكاء نزعات قبلية، وتثبيت هويات إقليمية ، كالباسـكية فـي إسـبانيا والكردية في العراق وتركيا، والأمازيغيات في الجزائر والمغـرب، حتـى إذا أخـذ المجتمع في التصدع أعيد جبره بواسطة لغة السلطة التي يكتب لها الذيوع والانتشار بعوامل ثقافية وسياسية ودينية واقتصادية.» [3] وبهذا فالتعدد اللغوي داخل المجتمع قد ينشب نزاعات قبلية، إلا أن هذا الأمر لا يعني بالضرورة « القول أنه السبب الوحيـد لهذه الحرب، ولكنه الشرط الضروري لحصولها"[4] ، إلى جانب أسباب أخرى تسـاعد على إذكاء النزاع والخلاف بين المجتمعات على غرار: الانتماء الديني.

2 الانتماء الديني: أشكاله وإشكالاته: لقد مثل الدين لعقود من الزمن محل خلاف بين البشر جراء الاختلاف العقائدي بينهم؛ حيث كان من إحـدى عوامـل الحـروب بينهم، كما كان نتيجة لصراعات لا تزال آثارها إلى اليوم. فقد شكل الـدين قضـية

كبرى في المجتمعات، وفي ظل هذه النزاعات فإن هناك من الديانات ما لـم تعـرف السلام فيما بينها على نحو: الإسلام والمسيحية ، والإسلام و اليهودية على الرغم من أن الإسلام يدعو إلى التسامح قال تعـالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ **[النحل:125]** كما أنه لا يفرض على المسيحي أو اليهـودي اعتناقه الإسلام بـالقوة قـال تعـالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ **[العنكبوت:46]** إلا أن الإسلام ظهر بصورة غير التي يدعو إليها بسبب ما لحقه من ادعاءات باطلة عنه، خاصة منذ أحـداث 11 سبتمبر، أين انتشر مصطلح الإسلاموفوبيا، وأصبح المجتمع الغربـي ينظـر إلـى الإسلام ومعتنقه بأنه: إرهابي، ومع توغل هذه الفكرة عنـد هـؤلاء صـعب معهـا استبعادها، وإزالة ذلك المعتقد الذي لا يعكس حقيقة الدين الإسلامي ، و« أمـام هـذه الظاهرة الخطيرة التي يراد منها تجحيم حركة المسلمين في العالم حتى لا يكون لهـم تأثير في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولتشويه دينهم حتـى يقـف المـدُّ القياسـي للإسلام في العالم مقارنة بغيره من الأديان، كان لابد للمنظمـة الإسـلامية للتربيـة والعلوم والثقافة–إيسيسكو– من أن تدرس هـذه الظـاهرة فـي أنشـطتها الثقافيـة المتخصصة للوقوف على أسبابها وطرق علاجها، وعلى الأخص من خلال أنشـطة الحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات، وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام فـي الغرب بما يدحض الصورة النمطية عنه ، ويصحح المعلومات الخاطئـة عـن هـذا الدين الحنيف"[5] ،الذي شوهه الحاقدون على الإسلام والمسلمين .

كما عملت «الإيسيسكو على تفعيـل دور المسـلمين فـي الغـرب وجمعيـاتهم ومراكزهم الثقافية خارج العالم الإسلامي في مواجهة الإسلاموفوبيا وتغيير الصـور

النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين، مع التركيز على إشراك الكفـاءات المسـلمة خارج العالم الإسلامي التي أعدتها المنظمة الإسـلامية، واعتمـدها مـؤتمر القمـة الإسلامي العاشر المنعقد في بوتراجايا في ماليزيا عام 2003 وتم تكليف الإيسيسـكو بمهام تنفيذها"[6] من أجل تحقيق السلام بين الأديان وتثبيت مبدأ الحوار وتقبـل ثقافـة الآخر.

ثانيا التنوع الثقافي وأثره على المجتمعات: لقد ساعد التطور التكنولوجي الـذي شهده العالم الإنسان في الانفتاح على الآخر ومعرفة ثقافته ، وبذلك« يمكن القول إن مسألة الحوار الحضاري والثقافي، هي مسألة التفاعل الإنساني والثقافي بـين أتبـاع الحضارات والثقافات المختلفة ، وإن مسألة قيم هذا الحـوار، هـي مسـألة التقائهـا أساسه "العولمة الثقافية "أو العولمة المتبادلة "، تلك العولمـة التـي لا تسـوي بـين الثقافات، وإنما تجمع بينها على المشترك الإنساني الكوني ؛حيث مبدأ "فحص أوجـه الشبه والاختلاف" يمكن الحديث عنه أيضا ، عن قـيم حواريـة حضـارية وثقافيـة مشتركة، تهدف إلى تغيير النظرة الاستعدائية والتخلـي عـن التصـنيف النمطـي المتوارث من مخلفات الماضي ، والمشاركة في التأسيس لرؤية مسـتقبلية لمشـروع الوحدة الإنسانية المرتقبة"[7] ولذلك فإن حوار الثقافات ظاهرة بـرزت جـراء تنـوع ثقافات الأمم والحضارات وقد« برز التنوع الثقافي كانشغال رئيسي في مطلع القرن الجديد.على أن المعاني التي ارتبطت بهذا المصطلح الذي يكاد يشـمل كـل شـيء متنوعة تماما كما أنها كثيرة التغير، فالبعض يعتبر التنوع الثقافي عاملا إيجابيا فـي حد ذاته، فهو يدل على تقاسم الثروة التي تجسدها كل ثقافة من ثقافات العالم، وبـذلك يوضح الروابط التي توحدنا جميعا في سياق عمليات التبـادل والحـوار. ويعتبـر آخرون أن الفوارق الثقافية هي التي تجعلنا نعجز عن تبيين إنسانيتنا المشتركة وهـي بالتالي تكمن في جذور كثير من النزاعات »[8] . فرؤيتنا لثقافة الآخر هي التي تحـدد

مدى فاعلية رفض الآخر أو قبوله؛ إذ إن الحوار بين المجتمعات من شأنه أن يساعد على استيعاب الآخر ومن ثم تتجسد روابط التفاهم للعيش معا في سلام.

ثالثا حوار الثقافات وسبل تعزيز التعايش بين المجتمعات: لا جــرم أن الحــوار الثقافي المؤسس على مبدأ التسامح وتقبل قيم وعادات وتقاليد الآخر، إضافة إلى تقبل انتمائه الديني من شأنه أن يساعد الأفراد والمجتمعات للتعايش بسلام ولتحقيق أهداف اقتصادية تساعد على التنمية بين البشر وفي ظل هذا التعايش«يمكن القول إن هنـــاك مستويين من هذا التفاعل الحواري:

أ-تفاعل حواري مباشـــر: يشمل بالتالي، مضامين قيمية حوارية مباشرة، كقيمـــة التواصل، التضامن، التعارف،...إذ لا يمكن تصور حقيقة لهذه القـــيم دون وصـــلها بمستواها الفعلي/ العملي المباشر، وهو ما تعكسه دلالاتها الصرفية في الحقل البياني العربي لكلمة "تفاعل" التي تقضي الاشتراك في الفعل؛ ويندرج تحت هــذا التفاعــل الحواري النمطي كل من القيم الاجتماعية(التعارف، التواصل ،التضـــامن...) والقـــيم السياسية(الديمقراطية ، المواطنة ، السلوك المدني...) والقيم الدينية (العقيدة الإيمانيـــة الموحدة، الأخلاق..)،والقيم الاقتصادية (التنمية المستدامة...)

ب-تفاعل حواري غير مباشر: يمكن القول إنه يشمل مضامين قيميـــة حواريـــة ولكنها لا تطال الآخر بشكل مباشر، أي إنها تحمـــل فـــي طياتهـــا، إرادة للتفاعـــل الحواري الحضاري والثقافي؛ ويندرج تحت هذا الإطار الحواري التفاعلي، كل مـــن القيم المعرفية والفكرية /النظرية(الاهتمام بالمعرفة والعلم، تقدير العلمـــاء...) والقـــيم الجمالية/الفنية (الاهتمام بالطبيعة، الاهتمام بالألوان والأشكال والإبداع ،...)، بمعنـــى أن هذه القيم الأخيرة، تعتبر قيما حاملة للبعد الحواري الثقافي والحضـــاري، خادمـــة لقيم محورية ومركزية في الحوار الثقافي"[9] ، وقد يتخذ الحوار الثقافي أشكالا متعددة تتجسد مثلا في محاولة الدول لنقل وتصوير ثقافتها للآخر على نحو: ما يعرض على التلفاز وشبكات التواصل الاجتماعي أو ما تقوم به بعض المنظمـــات علـــى نحـــو:

اليونيسكو حيث«كانت منذ بدايتها مقتنعة كل الاقتناع بالقيمة المتأصلة للتنوع الثقــافي وبضرورته، ويتحدث دستور المنظمة(الصادر عام 1945م)عن "التنوع المثمر فــي ثقافات العالم". ويبقى اليوم هذا الاقتناع على نفس الدرجة من الأهمية كما كان علــى الدوام حتى وإن كان تعريف الثقافة قد توسع كثيرا وإن كانت العولمــة قــد أدخلــت تغييرات هامة على الوضع الذي كان قائما بنهاية الحرب العالميّــة الثانيــة"[10] أيــن عرفت المجتمعات حوارا ثقافيا أذكاه التطور التكنولوجي الذي شــهده العــالم علــى خلاف ما كان يعرفه من قبل .

وعموما يمكن القول أن للتنوع الثقافي أبعاده الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية يمكن استثمارها بالمنظور الإيجابي الذي يسهم في تنمية شتى المجالات وفي تحقيــق السلام بين الأفراد والمجتمعات دون الانسلاخ عن القيم الذاتية والتخلي عــن الهويــة إضافة إلى استيعاب الآخر وتقبل ثقافته اللغوية والدينية والمجتمعية.

الاحالات:

[1]- لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، مراجعة سلام بزي حمزة ، مركز دراسات الوحدة اللغوية، بيروت ط1، 2008، ص89.

[2]- محمد الأوراغي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب واللغات بالرباط، ط1، 2002، ص11

[3]-محمد الأوراغي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي ، ص12.

[4]- لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية ، ص61.

[5]- حسن عزوزي، أعمال الندوة الدولية ظاهرة الإسلامو فوبيا وسبل التعامل معها ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1436ه، 2015م، ص5، 6.

[6]- حسن عزوزي، أعمال الندوة الدولية ظاهرة الإسلامو فوبيا وسبل التعامل معها، ص6.

[7] – عمر بيشو ، النظر الكفائي المقاصدي ودوره في تعزيز قيم الحوار الثقافي والحضاري مؤمنون بلا حدود مؤسسة دراسات وأبحاث ، قسم الدراسات الدينية ، الرباط ، المغرب، ط1 دت، ص3.

[8] – تقرير اليونسكو، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، بإشراف فرانسواز ريفيير، ص1

[9]- عمر بيشو، النظر المقاصدي ودوره في تعزيز قيم الحوار الثقافي والحضاري، ص4، 5.

[10]- تقرير اليونسكو، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، بإشراف فرانسواز ريفيير، ص1.

إشكالية التواصل بين المتعلمين
في ظل التنوع اللغوي والثقافي

داه. إيمان بلحداد

جامعة باتنة1

ملخص المداخلة: تناقش هذه الورقة مسألة جوهرية، وعلى غاية من الأهمية والحيوية، وهي مسألة التواصل بين المتعلمين في مختلف بقاع العالم، في ظل تصادم الاختلاف اللغوي، والتنوع في الثقافات والديانات، وذلك من خلال توضيح طبيعة العلاقة بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، وهذا بعد مناقشة آراء المفكرين في قضية التوافق بين هذه الشعوب، وخاصة الفئة المثقفة منها والمتعلمة، ومن ثمة فإن الإشكال الذي يطرحه هذا البحث هو: إلى أي مدى تتحقق إمكانية التواصل بين الشعوب المختلفة في اللغات والثقافات؟ ويتفرع عن هذا الإشكال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

-ما طبيعة العلاقة بين الدول المختلفة اللغات؟

-هل اختلاف اللغات والثقافات يؤدي إلى حتمية النزاع بين الحضارات أم أنه يجعل اللغات تتكامل فيما بينها؟

-كيف يمكن تحقيق الأمن والسلام بين اللغات المتنوعة وناطقيها في ظل العولمة؟

وتنتهي الورقة بتقديم خلاصة لما تمّ استعراضه، وعدد من التوصيات الرامية إلى ترسيخ أن فكرة التنوع تغني الحياة وتثريها، بل وتجعل اللغات تتكامل فيما بينها، وبهذا على الجميع احترام هذا التعدّد، وتقدير اللغات وشعوبها الناطقة بها.

الكلمات المفتاحية: التواصل – المتعلمين– التنوع اللغوي –التنوع الثقافي.

مقدمة: يعيش العالم اليوم حالة تمايز اللغات والثقافات؛ بتعدد حـروف اللغـات والطريقة المعبّرة بها وأشكال التعبير التي تخصّ جماعات إقليمية، وهذا ما يمثّـل حقّ كل واحد ينتمي إلى لغة وطنية معيّنة أوهوية ثقافية ما.

وفي ظل التواصل بين المتعلمين والتبادل للمعارف والعلوم يظهر تباينا واضحا في اللغة والثقافة، وهذا ما يحتاجه كل مترجم؛ إذ يستدعي منه الإلمام بثقافة الآخر لنقل المعرفة نقلا صحيحا، ولكن هذه الفجوات الثقافية من شأنها أن تخلـق سـوء تفاهم بين الأفراد، وهو الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة الاتصـال والتواصـل بـين مختلف الثقافات؛ من حيث اللغة أو معاني كلمات ومصطلحات كل ثقافـة، وهـذا الأمر قد يخلق تنافسا في إنتاج المعرفة بين المتعلمين والبـاحثين، ممـا يجعلهـم يعيشون صداما حضاريا ونزاعات قد تطول لتمس الحكومة والسلطة الحاكمة.

أولا: ما طبيعة العلاقة بين الدول المختلفة اللغات والثقافات؟: إن لكل مجتمـع طبيعته المختلفة في طريقة التفكير والعيش واللغة التي تخـص حيّـزه الجغرافـي وهذا ما ينتج مجتمعات متنوعة ، وبهذا انقسم العالم إلى قسـمين همـا: المجتمـع العربي والمجتمع الغربي.

1-بين العرب والغرب: يمثل العرب مجموعة كبيرة مـن الأشـخاص الـذين يتكلمون اللغة العربية، ويعتنقون الديانات المختلفة كالديانة الإسلامية التـي يتبعهـا العدد الأكبر منهم، والديانة المسيحية التي يعتنقعا عدد أقل، وينتشر العرب في قارة آسيا وقارة إفريقيا، أما الغرب فهم مجموعة كبيرة من الأفراد الذين يتكلمون لغات متعددة، ويعتنقون ديانات مختلفة كالديانة المسيحية التـي يعتنقهـا العـدد الأكبـر والأعداد الأخرى يعتنقون ديانات متنوعة كالديانة البوذية واليهودية، وهناك عـدد قليل من الغربيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وينتشر سكان الغرب فـي قـارة أوروبا وأمريكا وأستراليا وغيرها من القارات.[1]

2-العلاقة بين العرب والغرب: يعتقد الغرب أن قوة العرب تكمن في عقيدة الدين الإسلامي، تلك هي الإجابة "الشافية" التي توصّل إليها الغرب، بعد أن انكبّ على دراسة أسرار تفوق العرب حضاريا وماديا في غضون قرن من ظهور الإسلام، بعد أن كانت ضعيفة متفرقة، وبعد أن شكّل انتشار الإسلام "صدمة فجائية"؛ فالعرب أرسوا "صدمة عفوية" للغرب، في إطار دعوتهم للدين الإسلامي لكنهم تلقوا "صدمة مقصودة".[2] إذ نجد أن (ابن رشد) و(ابن سينا) لهما الفضل في تطور العلوم الغربية؛ فالأول في الفلسفة والثاني في الطب.

وفي ظل هذة الظروف ظهرت ثلاث تيارات فكرية عربية؛ أولها دعا إلى التغريب لمواكبة التقدّم الغربي، وثانيها نادت بالأصالة الإسلامية والعودة إلى ماضي السلف، وثالثها تيار قومي ركزّ على الوحدة العربية[3]، كما ظهر تيار حديث يمثّل العلمانية (فصل الدين عن الدولة) بمفهومها الإسلامي وليس تحت إطار العلمانية الغربية المتطرفة وخير مثال ماليزيا وتركيا، وترجع إلى المفكّر (جمال البنا) و(طه حسين) والمصلح الإسلامي (محمد عبده).

فثمة تيارات فكرية دينية وثقافية وأكاديمية، وبعض من دوائر صنع القرار خاصة في الغرب تحاول أن تصدّر الصراع وتغذيه باستمرار تحت عناوين" الصدام الحضاري والثقافي" و"الخطر الإسلامي على الحضارة الغربية" أو الخطر الغربي على الحضارة العربية"، وإنتاج مفاهيم من نظير" الإرهاب" ، الإسلام فوبيا التخلف العربي...إلخ، أو الغرب الملحد، الأصولية المسيحية، كما يرى الكثير من الغربيين في أوروبا والولايات المتحدة، أن التهديد العربي ازداد قوة نحوهم بسبب ارتباطه بالتطرف الديني[4]، كالذي ظهر في أفغانستان بتمويل سعودي-أمريكي وهذا التيار يمثّل الأصولية الإسلامية اليمينية.

ويرى الغرب أيضا، أن العرب والمسلمين لا يقدرون على ممارسة الديمقراطية ولا يستحقون حقوق الإنسان، فيما يعتقد بعض المنظّرين في الغرب أن حقد العرب

مرجعه الاستقرار السياسي والتقدّم التكنولــوجي والاقتصـــادي وحيـــاة الرفاهيـــة الغربية[5]، وبهذا يقول عبد الوهاب المسيري:"الحداثة الغربية...تقدّم رؤيـــة ماديـــة ترى العالم باعتباره مادة، وقد عرّفت هذه الرؤية الهدف من وجود الإنســـان فـــي الكون بأنه تعظيم المنفعة واللذة، وعرّفت التقدم بأنـــه تصـــاعد معـــدلات الإنتـــاج والاستهلاك، مما ولّد شراهة استهلاكية عند الإنسان الغربي ليس لها نظيـــر فـــي التاريخ".[6]

حيث نجد الغرب أخلاقيا يعتمد على أفكار الفيلسوف(أبيقور) مبدأ الألـــم واللـــذة وهذا مبدأ نفعي مادي، إضافة إلى الاتجاه الاقتصادي الليبرالي الذي شرح فيه (آدم سميث) حرية العمل والإنتاج للخاص، ومن هنا تبلورت النظرة البراغماتية للحيـــاة التي تعتمد تقديس العمل، فهذان الاتجاهان لعبا دورا كبيرا في معنى أنطولوجيـــة – أي وجودية– الفرد الغربي.

كما أن بعض المتشددين لدى الغرب يجدون صعوبة في تقبّل الإســـلام كعقيـــدة سماوية كاملة، ويصف البعض عقيدة الإسلام ب" الهرطقة"، ونفس الشـــيء مـــع العرب المتشددين إذ "يصنفون الإنجيل على أنه كتاب مقدس محرّف، وأن الإســـلام هو الدين الصحيح".[7] حيث نجد في الطرف الآخر أن الغرب العلمانيون يرون بـــأنّ الإسلام هو امتداد للمسيحية الآريوسية، ويعتبرون هذه الأخيـــرة تـــأثّرت بالعقيـــدة اليهودية، كما يعتقدون أن الأديان الســـماوية الإبراهيميـــة (اليهوديـــة، المســـيحية الإسلام) مجرّد ثقافات اجتماعية ممتدّة جذورها إلى الديانات الشرقية كالزرادشـــتية والمانوية والشامانية.

ثانيا: هل الاختلاف في اللغات والتنوع في الثقافات يؤدي إلى حتميـــة النـــزاع بين الحضارات أم أنه يجعل اللغات تتكامل فيما بينها؟

تعدّ كلّ من اللغة والثقافة من الأمور المهمة التي تأخذ حيزا كبيرا مـــن تفكيـــر المتخصصين، أو حتى الناس العاديين، فهما معا يؤثران بشكل مباشر فـــي تفكيـــر

الإنسان وهويته وشخصيته، إذ اللغة تمثّل مجموعة متناسقة من الرموز والإشارات، وهي أداة المعرفة الأولى للأفكار الإنسانية المختلفة، أما الثقافة فهي مجموعة سلوكيات وأفكار ومبادئ وقيم، يتبناها الإنسان في حياته، حيث تكون قادرة على رسم الطريق أمامه، وقد وجد أن هناك علاقة وطيدة بين اللغة والثقافة.[8]

1-العلاقة بين اللغة والثقافة: قبل الإجابة عن السؤال-نتيجة الاختلاف في اللغات والثقافات بين المتعلمين- تجدر الإشارة إلى العلاقة بين اللغة والثقافة، فاللغة تعتبر الوسيلة التعبيرية الأولى عما يجول في خاطره من أفكار، ومن هنا فإن اللغة هي الناطق الرسمي باسم الثقافة، فبها يمكن للإنسان أن يشرح للآخرين وجوه التميّز الثقافي لدى أمته، ويتعرف أيضا على الثقافات الأخرى الموجودة في هذا العالم، كما أن الثقافة توظّف وبشدة عند تعليم اللغات للأجانب الراغبين في تعلمها وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى التكامل بين الثقافة واللغة، فهما من الأمور المتلازمة التي لايمكن الفصل بينها مهما حصل، إلى جانب ذلك فإنّ ثقافة شعب من الشعوب تسهم في تطوّر لغته وإثرائها، من خلال العديد من المفردات الجديدة إليها، فاللغة على الدوام تقتبس مفرداتها من ثقافة الشعوب الأصلية التي تتكلم بها، وما اللغة العربية وبحر مفرداتها الذي لا حصر له إلاّ مثال واضح على ذلك.[9]

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة به، تحمل مميزات ليست موجودة في مجتمع آخر. وبهذا فاختلاف اللغات دليل على تنوع الثقافات، فاللغة تبقى جوفاء إن لم تجد روحا وفكرا وثقافة تحرّكها، وإلاّ بقيت راكدة كاللغات اللهجات الإفريقية الميّتة قريبة الانقراض.

2-التنوع الثقافي وصراع الحضارات وتعايشها: إن الصراعات التي سجلها تاريخ الشعوب لم تكن صراعا حضاريا بين ثقافات الشعوب، وإنما كانت صراع

المصالح الاقتصادية للدول والإمبراطوريات، والسعي إلى النفوذ والسيطرة للقوى التي تمسك بزمام السلطة السياسية لهذه الدول، أليست "الحروب الصليبية" أحد أشكال صراع الحضارات بطابع ديني، ولكننا لو عدنا لأدبيات الدول العربية الإسلامية نجد عبارة "حرب الفرنجة" لوصف تلك الحروب، وقد استخدمت كلمة " الحروب الصليبية" لأول مرة في أدبيات الاستعمار الغربي في العصر الحديث والذي استخدم هذه التسمية للتضليل وإثارة الحساسية والتمزق في مكونات مجتمع لاسيما وأن المكون المسيحي هو مكون أساسي وهام من مكونات مجتمعنا، ويعود في أصوله العربية إلى ما قبل الإسلام، وقد تمت ترجمة هذه التسمية "الحروب الصليبية" بأمانة من قبل المؤسسات التعليمية العربية، وهكذا دخلت هذه التسمية التحريفية إلى كتب المدارس والمعاهد التعليمية في العالم العربي بالطريقة التحريفية التي تخدم المصالح الغربية.[10]

وتركيبا لكلّ هذه المواقف نجد أنّ الصّراع الاقتصادي والديني والثقافي بين الحضارتين الغربية والشرقية قد ترجم وأسقط على المنظور الديني، حيث نجد جماعة فرسان الهيكل يريدون استرجاع مدينة القدس لقدسيتها الدينية، وكذلك في الطرف الآخر يتجلى نفس القدسية بالنسبة للمسلمين (صلاح الدين الأيّوبي).

يظهر صدام الحضارات في الاختلاف في المعتقدات الدينية والقيم السياسية بالإضافة إلى الصراع المتنامي بين الهويات الحضارية والثقافية المختلفة، وذلك بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ومن العوامل التي أدت إلى زيادة واحتدام الصراع بين الإسلام والغرب نوجزها فيما يأتي:[11]

-ازدياد الاتصال بين المسلمين والغرب، مما أدى إلى نمو شعور كل طرف بقيمته وهويته، كما أدى ذلك إلى تأكد اختلاف كل طرف عن الآخر.

-تنامي الجهود الغربية في رفع شأن مؤسساتهم وقيمهم، بالإضافة إلى سعيهم للحفاظ على تفوقهم العسكري، ومن ثم التدخل في النزاعات العالمية، وخاصة في العالم الإسلامي.

والشاهد على ذلك ما لاحظناه من تدخلات من قبل التّحالف الأمريكي في حل النزاعات في الوطن العربي كالعراق وفلسطين، لكنه في حقيقته غطرسة وتدخّل واحتلال غير مباشر.

ثالثا: كيف يمكن تحقيق الأمن والسلام بين اللغات المختلفة وناطقيها في ظل العولمة؟

يتعين في عالم يسوده التباين الثقافي أن نضع استراتيجيات تتجاوز الصراع الحضاري بإعادة النظر في طرق التواصل بين الثقافات وتوعية الأمم بالقاسم الثقافي المشترك بين تلك الحضارات، ويمكن أن نقترح الحوار بين الثقافات والتفاعل بينها كبديل وحل لمشكل التصادم بين اللغات والثقافات، ويمكن حصر تلك المقترحات في الاستراتيجيات الساعية لتحقيق الأمن والسلام في النقاط الآتية:

-العمل على الاستثمار في التنوّع الثقافي، عن طريق إقامة حملات توعية وندوات عالمية تعرّف بالثقافات المختلفة وتروّج لها كلّ في مناسبة تاريخها، لفتح باب الحوار والتفاعل بين الشعوب المختلفة، وفي ذلك ضمان للممارسة الفعلية لحقوق الإنسان المعترف بها عالميا.

-الإقرار بحرية التديّن واحترام حقوق الإنسان وحرياته في جميع دول العالم.

-تعزيز التماسك الاجتماعي بين جميع الثقافات المتنوعة وشعوبها من قبل السلطات الحكومية والهيئات المختصة بحقوق الإنسان.

-مواجهة صراع الحضارات بين العرب والغرب، باحترام كل طرف للهوية الثقافية والدين واللغة.

-الدعوة لبناء مشروع سياسي يدعو إلى تكامل اللغـات وثقافاتهـا فـي ظـل العولمة، تشارك فيه كل دول العالم، ويكون لها حضـور تعـاوني بـين العـرب والغرب.

-تقوية البعد الثقافي لحقوق الإنسان؛ من عادات وتقاليـد وديانـات، لضـمان استمرار التمتّع بالهوية الثقافية .

-تعزيز السلام العالمي في مختلف دول العالم بمحاربـة الانتهاكـات بحقـوق الإنسان التي تخصّ الهوية الثقافية والمعتقدات.

-المساواة في المكانة الثقافية بين كل المجتمعات ، وتعزيـز أسـباب التعـايش السّلمي والأمن الديمقراطي داخلالأمم المتنوعة اللغات والثقافات.

-تبني استراتيجية التحالف بين الفئة المثقفة في بناء المعارف وتطـوير العلـوم وذلك بإقامة علاقة تكاملية تبادلية سلمية بين المتعلّمين في مختلف بقاع العالم.

-البحث عن أسباب الثقة بين متعلّمي الثقافات واللغات المتعدّدة، بكونه أسـاس نجاح العلاقات بينهم.

-تثمين القدرة على الانفتاح والاستماع للطرف الآخر ذو اللغة والثقافة المختلفة بانتهاج طريقة واعية في التعامل مع مختلف الخصائص الثقافية.

الخاتمة: بناء على ما تقدّم، يمكن القول أن التنوع في اللغات والثقافات ضرورة لابد من تقبّلها، في ظل تصادم الحضارات والعولمة التي تفرض توحيـد الثقافـات وفرض ثقافة الغرب على الشعوب العربية، إذ أن كل هذه المساعي تبقى انتهاكات وتجاوزات لحقوق الشعوب وحرياتها، وعليه فإنّ الحلول المناسبة للصراعات تكمن في تجاوز الاختلافات الثقافية، والعمل على استثمار التنوع الثقافي بشكل إيجـابي يرجع بالنفع على جلّ شعوب العالم. كما لابد من التفاعل بين الحضارات في شكل حوارات رسمية من قبل الهيئات المسؤولة عن حقـوق الإنسـان لضـمان تجـدد الثقافات وتنوعها في كل زمان ومكان.

النتائج والتوصيات:

-التسليم بفكرة الاختلافات الثقافية بين المجتمعات، ومحاولة تصـــدي المشـــاكل التي تعترض أفرادها أثناء التواصل والتبادل المعرفي عن طريق تبني ثقافة العمل الجماعي بإدماج الثقافة المشتركة مع احترام الخصوصيات الثقافية.

-الاستثمار في التّنوّع الثقافي يدلّ على تقاسم الثروة التي تجسّدها كل ثقافة من ثقافات العالم، كما أنه يوضّح الروابط التي توحدّنا جميعا في سياق عمليات التبادل والحوار.

- ترسيخ أن فكرة التنوع تغني الحياة وتثريها، بل وتجعل اللغات تتكامل فيمـــا بينها، وبهذا على الجميع احترام هذا التعدّد، وتقدير اللغات وشعوبها الناطقة بها.

-خلق توازن فعلي بين الخصوصية اللغوية والدينيـــة، مـــن خـــلال استشـــعار المواطنين والمتعلمين خاصة بضرورة بناء مجتمع تعدّدي وعادل.

-تحقيق الأمن اللغوي والثقافي بمحاولة جادة لمسايرة ركب التطوّرات التقنية-الرقمية الجديدة واستثمارها في البحوث النظرية والعملية خاصة، ومن ثمّة التأكـــد من إمكانية التواصل بين الحضارات.

-تطوير الإبداع بين المتعلمي اللغات المتعددة في حلقات علميـــة ومجموعـــات متعاونة ومتّحدة.

-تحويل التصادم الثقافي إلى تحالف ثقافي من خلال ثلاثة إجراءات:

*توطيد الانسجام الاجتماعي بين المتعلّمين والأساتذة والباحثين العرب والغرب.

*إثراء الثقافات في العالم؛ بالتعريف بالثقافات الخاصة للأمم الأخرى.

*تحسين الاتصال بين المثقفين العرب والغرب ورفع درجة الانتماء لديهم.

-اتخاذ الإجراءات اللازمة للابتعاد عن العنصرية وتهميش الهوية الثقافية على حساب أخرى، ومحاولة الإنصاف بين جلّ الثقافات واللغات المتحدّث بها من قبـــل المتمدرسين والطلبة والباحثين.

الهوامش:

[1].زايد مصطفى، الفرق بين العرب والغرب، 13 ديسمبر2015موقع موضوع على الرابط الآتي: http://mawdoo3.com

[2].عبد الرحمن الوائلي، العرب والغرب: إشكاليات المعرفة وملابسات المــنهج، مجالــة الكلمــة قبرص، العدد23، ربيع1999، نقلا ع ن الرابط التالي:
www.kalema.net/v1/?rpt=388&art

[3].المرجع نفسه

[4].منعم سري، صراع الحضارات: سوء تفاهم بين الإسلام والغرب، من كتاب: الإسلام والحداثة: الانسحاب الثاني من مواجهة العصر، دار الأهلية للنشر، عمان، 2010، ص69.
عبد الرحمن المسيري، .www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/12/26
الإسلام والغرب، موقع الجزيرة نت، وجهات نظر، 2004/12/26، نقلا عن الرابط

[5].المرجع نفسه

[6].المرجع نفسه.

[7].انظر:في اللغات والثقافة والآداب، اطّلع بتاريخ2018/7/24، www.univ-annaba.org

[8].قضايا اللغة والثقافة، اطّلع بتاريخ2018/7/24، www.alarabiahconference.org

[9].أميمة سميح الزين، التنوع الثقافي...إثراء إنساني أم صدام حضاري، أعمال المــؤتمر الــدولي الثامن: التنوع الثقافي، طرابلس، 21- 23مايو2015، ص13

[10]انظر:هنية مفتاح القماطي، أزمة الحوار الحضاري في عصر العولمة، ص9-13

ملحق: صور توضيحية للتنوع اللغوي والثقافي في العالم

قناع "ملك الشمس" في كرنفال ريودي جانيرو بالبرازيل مهرجان شارع كوكولو في سان بيدرو دي ماكوريس بالجمهورية الدومينيكية





المدينة المحصنة في آيت بن حدو بالقرب من ورزازات في لمغرب



أحد تماثيل بوذا التي تعود إلى القرن السادس في باميان، وهي تماثيل مدرجة في قائمة اليونسكو للتراث



أطفال صغار يلعبون في أليس سميرينغس بأسترالي أطفال صغار يلعبون في أليس سميرينغس بأستراليا

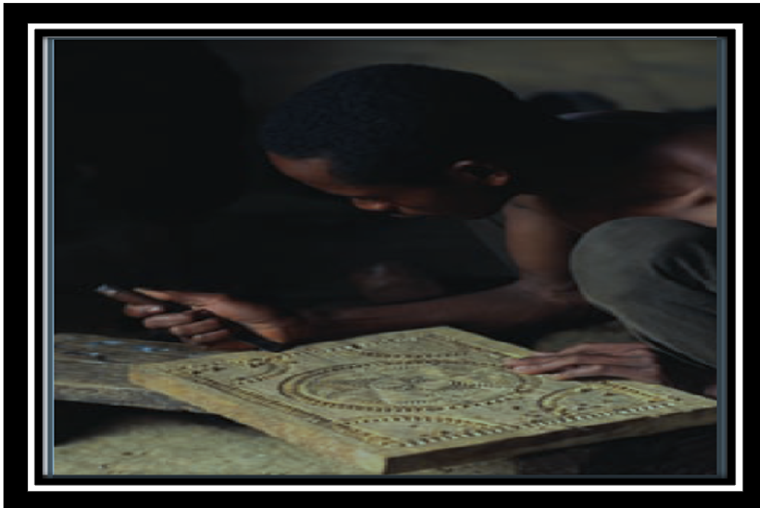


طفلان يلعبان في موقع محلي لإلقاء النفايات في مابوتو بموزمبيق





الحرف الخشبية من طراز زافيمانيري في مدغشقر



راوي قصص يروي قصة أمام جمع من الناس في ساحة جامع الفنا في مراكش بالمغرب



الإنشاد التعدّد الأنغام والطقوس التقليدية في منطقة الشوببلوك ببلغاريا



تماثيل للسيّدة مريم العذراء في متجر للهدايا التذكارية في لورد بفرنسا

مسلمون يؤدون الصلاة في جاكارت/







ا

لسامبادي رودادي ريكونكافو دي باهيا في البرازيل

مهاجرون أفارقة يقفون في طابور في ميناء لامبيدوسا قبل نقلهم إلى صقلية بإيطاليا



امرأة من هنود السابارا وهي تنسج في إكوادور أناشيد الهدهد للإيفوغاو في الفلبين

إمرأة أندونيسية تصنع سلة







مزارع بن من العاملين في إطار التجارة المصنّفة يقوم بفرز البذور الطبيعية في مزرعة للبن



التنوُّع اللغوي وإسهامه في الثراء الثقافي للمجتمع الجزائري ولاية غرداية أنموذجا

داه. يوسف باعمارة
جامعة غرداية.

ملخص: تُعرَف ولاية غرداية بالـــجنوب الجزائري بتركيبة سُـكانية مـــختلفة ومتنوعة تظهر في عدة مستويات: اجتماعية ومذهبية ولغوية، ومـمَّا يــميز هـذه التركيبة الثراء اللغوي البارز الذي يتكون من تنوع لساني عربي ومازيغي (مزابـي) يؤهلها لتكون نـموذجا لتعاطي فنيات الـحوار والتنمية والسَّلام عكس مـا يشـيعه الـمرجفون من كون التنوع سببا في الفتن والقلاقل الاثنية والصراعات الـجهوية فاستغل هؤلاء ولاية غرداية الآمنة لزرع بُؤر الفتنة العمياء التي انـجرَّت عنها الأحداث الألـيمة الأخيرة.

وعطفا على ما تقدَّم سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نبرز دور التنوع اللغوي العربي والـمازيغي بولاية غرداية في إسهام ثقافة التعايش والـحوار مـن خـلال التبادل الثقافي والـمعرفي على الـمستويين اللغوي والاجتماعي؛ وستحمل مـداخلتنا الـمباحث التالية:

- نبذة تعريفية عن ولاية غرداية وتاريـخها وحضارتـها.
- إسهام اللغة العربية في التنوع الثقافي من خلال الـموضوعات والـمضامين الـمختلفة.
- إسهام اللغة الـمازيغية في التنـوع الثقـافي مـن خـلال الـموضوعات والـمضامين الـمختلفة.
- خاتـمة وتوصيات.

1- **نبذة تعريفية عن ولاية غرداية وتاريـــخها وحضارتـــها:** تقع ولاية غرداية -المعروفة بهذا الاسم باللسان العربي المبين، أو تَاغَرْدَايْتْ باللسان الأمازيغي- فـــي جنوب الجزائر، وتبعد عن العاصمة بـــ600 كلم، يحدُّها من الناحية الشمالية ولايـــة الأغواط، ومن الناحية الجنوبية ولاية أدرار، ومن الناحية الشرقية ولاية ورقلة، ومن الناحية الغربية ولاية البيَّض، وقد كانت تابعة إداريا لولاية الأغـــواط قبـــل أن يـــتم اعتمادها رسميا سنة 1984م، ويبلغ عدد ســـكانها[1]: 363598 نســـمة فـــي مســـاحة تـــتـــربع على86105 كلم²، وتعتبر منطقة ثرية بتنوعها الاثني: المازيغي والعربـــي والمذهبي: الإباضي والمالكي، والقَبَلي المتمثل في وجود أعراش وقبائل من مختلـــف المناطق والنواحي، وتتميَّز بإشعاعها الفِكري وطابعها السِّياحي والاقتصـــادي الـــذي استلهم أنظار الزائرين من مختلـــف الأقطـــار، كـــل هـــذه المعطيـــات التاريخيـــة والمواصفات الحضارية أهَّلت المنطقة بأن تُصنَّف كتراث وطني سنة 1971م وضمن ممتلكات التراث العالمي من طرف منظمة اليونيسكو سنة 1982م[2].

وتُعرف كذلك ولاية غرداية بتسمية أخرى وهي: واد مزاب؛ حيث يتواجد الـــواد الكبير الذي يقطع قصورها السَّبعة وهي:

1- العطف أو "تَاجْنِينت" باللسان المحلي؛ ويقصد بها المكان المنخفض تأسســـت سنة 402هـ/ 1012م.

2- غرداية: أو "تَاغَرْدَايْتْ" وهي الأرض الواقعة على حافة الوادي؛ وقد تأسست سنة 447هـ/ 1053م.

3- بنورة أو "آتْ بُنُور" تأسست سنة 457ه/ 1065م؛ ونُسِبت إلى الرِّجال الـــذين أسَّسُوها وبنوها.

4- بني يزقن أو "آتْ اِجْدَنْ"، وسميت كذلك لأنَّ عـــدد ســـكانها يعـــدل نصـــف السَّاكنين في وادي مزاب آنذاك، وقد تأسست سنة 720ه/ 1321م.

5- مليكة أو "آتْ مْلِيشَت" وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مليكش أحد زعماء قبيلة زناتة الأمازيغية، وقد تأسست سنة 756هـ/ 1355م.

6- القرارة أو "إقْرَارَنْ" وهي عبارة عن جبال بَيضَوِيَّة بجوارها سهول صغيرة يستقر فيها الماء، وقد تأسست سنة 1040ه/1631م.

7- بريان أو "آتْ بَرْقَان" وتعني الخيمة المصنوعة من الوبر؛ وقد تأسست سنة 1060ه/ 1690م، وتُعتبر آخر القصور والمدن المزابية نشأة[3].

وهذه القصور موجودة إلى يومنا هذا شاهدة على تاريخ المنطقة عَبْر القُرون وسمِّيت بالقصور لأنها مبنية على شكل مُحصَّن بأسوار تحيط بكل المدينة، وبها أبواب مختلفة، وتغلق في أوقات معلومة وتفتح في أوقات معلومة كذلك، ولها أمناء يحرسون على حمايتها ونظامها من مختلف طبقات الناس، وقد كان المزابيون قديما مستوطنين في حافة الوادي لأجل قربهم من الآبار ومواطن المياه؛ ولكن الاعتداءات المتكررة والغارات المتواصلة جعلتهم يتمَسَّكون بنظام القصور؛ حيث تُبنى في الجبال لأجل الابتعاد من مواطن الإغارة والخطر، وقد اندثرت قصور كثيرة جراء تلك الاعتداءات التاريخية، وبقي لها آثار إلى اليوم مثل: أَغَرْمْ نَتْلَزْضِيتْ، أَوْلَوَالْ، أَغَرْمْ نَوَدَّايْ... [4]إلخ.

أما كلمة مْزَاب؛ فإنها تنسب إلى بني مُصعب؛ وهو الاسم القديم الذي أطلقه كُتَّاب السِّير على قبيلة بني مزاب الزَّناتية، وهي النسبة التي اعتمدها المؤرخون والشيوخ المزابيون أنفسهم، وأثبتوها في تراثهم المدوَّن وحفظته الأجيال فيما تتناقله عبر الألسنة، ويذهب العلامة ابن خلدون إلى هذا الرأي؛ فيرى أن أصل مْزَاب هو مُصَاب؛ على أن يُنطق حرف الصاد زايا مفخما، ويُعرِّف بِنَسَبِهم فيرى أنَّه يجتمع مع تُوجِين وزَرْدَال وبني عَبد الوَاد في بادين بن محمد، ويجتمع هؤلاء مع بني راشد في محمد، ويرتفع نسبهم جميعا إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وكانوا معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين؛ والأشهر في الاستعمال هو كلمة مُزَاب بضم

الميم وتفخيم الزاي؛ وهي كلمة منقلبة عن مُصَاب المتحوّل من مُصعَب[5]، وسبب هذا التغيير في الاسم يرجع إلى طريقة نُطق المزابيين لحرف الصاد المفخم الذي يُحوّل إلى حرف زاي مفخَّم مثل: الصَّلاة تُنطَق "تْزَالِّيت"، الصَّوم "أَزُومي"، القَصْعَة "تْزِيوَا"...إلخ

وأسهم سكان وادي مزاب بشكل لافت في الحركة العلمية والثقافية والفكرية بمنطقتهم؛ حيث حافظوا على اللغة العربية الفصيحة كتابة وأداء ونطقا وإنشادا وغناء، وهذا يُحيلنا إلى أن السياسة اللغوية المتعلقة بالعربية والمازيغية كانت متناسقة من أربابهما سواء العربي أو المازيغي قبل أن تتدخَّل السياسة المقيتة وتوظف التنوع الاثني للصراع الطائفي؛ والإنسان المزابي أمازيغي اللسان والمنشأ؛ لكنَّ هذا الانتماء لم يمنعه في الحفاظ على اللغة العربية ونشرها؛ "لكونها لغة القرآن الكريم ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وبهذا الاعتبار لا تبدو اللغة العربية حقيرة أو مهانة بالنسبة للأمازيغ أو البربر"[6].

2- **إسهام اللغة العربية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات والمضامين المختلفة:** تعد اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي التي اصطفاها الله تعالى لتحمل رسالة الدين وتبلغه في كل صقع وربع؛ وقد وردت في القرآن الكريم عدَّة آيات تدلُّ على مكانتها التي بوَّأها الله لها لنشر دينه تبشيرا وتنذيرا للعالمين، قال الله تعالى:﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾[7] وقوله كذلك:﴿**حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**﴾[8].

وقد أقرَّ القرآن الكريم على لسان اللغة العربية التنوع والاختلاف في مختلف مجال الحياة، وجعله من باب التعارف لا التعارك والصِّراع، فقال عزَّ من قائل:﴿**يَا**

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[9] وقال كذلك: **﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾**[10]؛ ومع كل هذا فإنَّ التنوع الذي يؤدِّي إلى الشِّقاق والصِّراع منبوذ وممنوع مهما كان مصدره؛ لأنَّه سيؤدي إلى تمزيق شتات الأمَّة الواحدة وتفريقها إربا إربا، ونجد نهي الله عز وجل في قوله: **﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[11].

وقد اهتم سكان الجنوب الجزائري الكبير عامة باللغة العربية – رغم كون جُلِّهم مازيغيين– وهذا الانتماء لم يمنعهم من التخلي عن مبادئهم الأصيلة ولغتهم الأم، بل زاد من قيمتهم ورفع من شأنهم؛ لكونهم يُسهمون في الحفاظ على التنوع الثقافي الجزائري، ومن هذا الاهتمام نلمس عناية سكان وادي مزاب بها؛ من خلال نَظْم الشِّعر وفنونه، والغوص في أعماق النثر وأشكاله؛ "**فالشِّعر يجعلك تتخيل أنك في سوق عُكاظ، والنثر يُذكِّرك بعهد الجاحظ والمُبرِّد وأبي علي القالي، ولو بحثنا عن سوق نافقة للأدب العربي في الجزائر المعاصرة لوجدناها في مزاب، فالقوم لا يزالون على عهدهم بالشِّعر الجميل والنثر الجزيل، يُحسُّون بوقع الكلمات وموسيقى النَّبرات وجلال المقاطع، لقد جعلت منهم الصحراء الصافية، والمعاهد العلمية التي تخرجوا منها وحافظوا عليها بالنواجذ؛ جعلت منهم بحق بلابل الأدب العربي في الجزائر ينشدونه عن حب وسليقة، ويكتبونه عن رغبة وصدق، ويحفظونه عن فخر واعتزاز**"[12] ومن خلال هذه الشَّهادة الصَّادقة سنبرز اهتمام بعض شعراء وادي مزاب باللغة العربية، ودورهم في إبراز التنوع الثقافي.

أ- **الأمين أحمد بن يحي: (و:1969م–ت: 2009م):** يشيد الأمين بالتنوُّع الثقافي الذي تزخر به الجزائر في تاريخها وتنوع لغاتها، واختلاف عاداتها وتقاليدها

ويراها جديرة باللقاء وليس بالفراق أو الصِّراع؛ فيبرز أشكال ذلك التنوع في القصيدة التي بين أيدينا قائلا:

عِنْدَ الْجَزَائـِرِ يلْتَقِي الأَحْبَابُ
وَعَلَى هَوَاهَا تُفْتَحُ الأَبْوَابُ

هِيَ قِبْلَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَرْنُو لَهَا
كُلُّ الْعُيُونِ فَيَنْتَشِي الإِعْجَابُ

هِيَ جَنَّةٌ حَوتِ الْجَمَالَ وَسِرَّهُ
سِحْرُ الْمَفَاتِنِ فِي الْفُؤَادِ يُذَابُ

انْزِلْ بِهَا تَرَ كُلَّ شِبْرٍ نَاطِقًا
تَارِيخَهُ لِلسَّائِلِينَ جَوَابُ

مِنْ غَابِرِ الأَزْمَانِ يُسْهِمُ شَعْبُهَا
نَحْوَ الْعُلاَ مَهْمَا اعْتَرَتْهُ صِعَابُ

شَعْبٌ يُضَحِّي لاَ يُبَالِي ثَائِرًا
أَنْ يَسْتَمِيتَ وَلاَ يَهُمُّ حِسَابُ

مَجْدُ(الأَمَازِيغِ) الأُلَى دَانَتْ لَهُمْ
آيُ الْفَخَارِ فَأَرَّخَتْ أَحْقَابُ

وَتَحَرَّرَ الأَفْذَاذُ بِالإِسْلاَمِ إِذْ
مَزَجَ الدِّمَا فَتَمَيَّزَ الإِنْجَابُ

(تَاهَرْتُ)أَوْ(مَزْغَنَّةٌ) وَ(بِجَايَةٌ)
وَكَذَا(تِلِمْسَانٌ) لَهَا أَقْطَابُ

وَالثَّـــــورَةُ الْكُبْـــــرَى (نُفَمْبَـــــرُ) جِـــــذْوَةٌ

بِالْحُـــــبِّ ذَوَّبَـــــتِ الْجَمِيـــــعَ فَـــــذَابُوا

فَتَشَـــــكَّلَتْ وَطَنًـــــا وكَانَـــــتْ وَحْـــــدَةً

هَيْهَـــــاتَ أَنْ يَغْتَالَهَـــــا الإِرْهَـــــابُ[13]

يشير الأمين في هذه الأبيات إلى تنوع الأماكن والأحداث والأزمنة المختلفة التـــي أسهمت في بناء الجزائر، وكانت سببا في بقائها صامدة أمام كيد الأعادي؛ فقد ذَكـــر فيها الأمازيغ والعرب وهما اللذان يُشكِّلان اللحمة الأساسية داخل الوطن الجزائـــري ويمثلان قوته وبنائه عَبْرَ التاريخ، وقد جمع بينهم الإسلام فذابوا فـــي بوتقـــة واحـــدة ويذكُر الأمين في هذه القصيدة كذلك تعاقب الدول المختلفة في أرض الجزائر، وتنوع مشاربها ومذاهبها وقبائلها وحضائرها العلمية والثقافية، وتتجلى في:

تَاهَرت: معقل الدولة الرستمية، وهي أول دولة إســـلامية بـــالغرب الجزائـــري (تيارت حاليا).

– بِجَايَة: كانت تُسمى في القديم "النَّاصِرِيَّة"؛ أسَّسَها الناصر بن علناس بن حمـــاد بن زيري سليل الدولة الحمادية.

– **تِلِمْسَان:** وهي مدينة تاريخية عريقة تعاقب عليها الرومان والوندال، والـــدُّوَل الإسلامية كالأدارسة والموحدين والمرنيين والحماديين؛ وفيها الكثيـــر مـــن الآثـــار والشواهد الدالة على تعاقب تلك الدُّول.

– **مَزْغَنَّة:** قبيلة تعود إلى الصَّنهاجيين المؤسِّسين للجزائر قديما.

– **نُوفَمبَر:** رمز تاريخي لاندلاع الثورة التحريرية المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954م؛ وبفضلها تخلص الجزائريون من الاستعمار الفرنســـي الـــذي جـــثم علـــى صدورهم قرنا ونصف قرن من الزمن.

- الإرهاب: وتمثِّل حقبة تاريخية سوداء مظلمة عاشها الشعب الجزائري في تسعينات القرن الماضي، انتهت بالوئام المدني والمصالحة الوطنية.

ب- **خرازي مسعود بن بلحاج: (و:1960م)**: دعا هذا الشَّاعر في ديوانه الموسوم "متى الصُّبح يا وطني" إلى تلافي الاختلاف والدَّعوة إلى وحدة الأمة الجزائرية رغم تنوع أعراقها، لكن كل هذا لا يمنع من العمل سويا يدا بيد من أجل بناء الجزائر، وقد انطلق الشَّاعر من المحنة الوطنية وسنوات الدم والقتل التي شتتت الشَّعب الجزائري لأسباب سياسية مقيتة جرعته مرارة الحسرة والأسى، وعاش سنوات عجافا لا يعرف طعم الأمن والسَّلام؛ فأعطى الشَّاعر مسعود خرازي حلاًّ مثاليا في حل كل الأزمات التي تعصف بالجزائر قائلا:

نَشَأْنَا نُحِبُّ الْجَزَائِرَ دِينًا ... نَرُدُّ بِهِ بِالْمُنَى كُلَّ غَادِرْ
إِذَا فَرَّقَتْنَا السِّيَاسَةُ يَوْمًا ... فَلاَ يَنبَغِي أَنْ نَخُونَ الجَزَائِرْ[14]
ولَيْسَ يُعِيدُ اخْضِرَارَ بِلاَدِي ... سِوَى أَنْ نوَحِّدَ فِيهَا الْمَشَاعِرْ
وَنُخْلِصَ لِلَّهِ صُنْعًا وَنُصْفُو ... فمَنْ غَيرُ رَبِي يزِيحُ الدَّيَاجِرْ[15]

ودعا كذلك إلى احترام القناعات، وعدم التعصُّب للأفكار والخلفيات؛ بل يجب الحوار والذي من شأنه أن يفهم كل واحد محاوره بالتي هي أحسن، وهو ما يضمن التباعد من الشحناء والبغضاء والعداوة التي تُبعد المجتمع عن العيش الآمن، وترمي به في دوامة الشِّقاق والصِّراع، وصولا إلى نتيجة لا تحمد عقباها؛ يقول في قصيدة بعنوان "شجاعة":

إِنِّي لَأَعْـــــمَــــــلُ مَا بِـــــوُسْـــــعِــــي
أَنْ أَسْـــــمَــــــعَــــــكْ
وَأَظَـــــــلَّ مُـــــجْـــــتَـــــهِــــــدًا
لِـــــكَـــــيْ لَا أُنْـــــكِـــــرَكْ
هَــــيَّـــــا تَــــشَـــــجَّـــــعْ
أَنْ تُـــــبَــــــدِّدَ غَـــــيْـــــمَـــــتَــــــكْ
فَالـــــدِّيـــــنُ عَــــــلَّـــــمَــــــنَا
– وَإِنْ نَــــــحْــــنُ اخْــــــتَـــــلَـــــفْـــــنَـــــا–
أَنْ أَحْـــــفَـــــظَـــــكْ
وَأَصُـــــــونُ عِـــــرْضَـــــكَ جَـــــاهِـــــــدًا
أَنْ أَفْـــــهَـــــمَـــــكْ
وَتَـــــرَى يَـــــدِي مَـــــــمْــــــدُودَةً
تَـــــرْجُـــــو يَـــــــدَكْ
هَــــيَّـــــا تَــــشَـــــجَّـــــعْ
لَا تُــــحَـــــاوِلْ
أَنْ تَـــــرَى الدُّنْـــــيَـــــا فَــــقَـــــطْ مِــــــنْ
فِــــــكْـــــرَتِـــــكْ
فَأَنَا وَأَنْـــــتَ
بِـــــحُـــــبِّـــــنَـــــا
يَـــــنْـــــمُـــــو الْــــوَطَــــــنْ[16]

نلمس في هذه الأسطر الشِّعرية دعوة الشَّاعر إلى تجسيد ثقافة الحُــب والاحتــرام المتبادل لأجل العيش في سلام داخل وطن يجمع أبناءه وإن اختلفوا في التصــورات والقناعات، وتنوعت مشاربهم المذهبية والسياســية، إذ يجــب علــيهم ألا يمارســوا

الإقصاء والتهميش والإنكار؛ بل عليهم أن يشدُّوا الأيدي متآزرين متعـاونين لخدمـة الوطن، ويدَعُوا جميع خلافاتهم جانبا.

ويشير الشَّاعر خرازي في موضع آخر من ديوانه إلى دور الثـورة التحريريـة الجزائرية في جمع شتات النَّاس رغم تنوعهم الجغرافي والثقافي واللغوي والمـذهبي والإيديولوجي؛ فذابت كل الاختلافات في بوتقة المجتمع الجزائري المتحد ضد الغزو الاستدماري الفرنسي لأرض الجزائر الطاهرة، يقول:

فِي الْـبَدْءِ عَلَّمَنِي الأَوْرَاسُ مَا وَطَنِي — كَـيْفَ الْحَـيَـاةُ بِـمِلْحِ الْعِزِّ تُـنْشِيـنَا
أَوْرَاسُـنَا مُـلْـتَـقًى لِلْـمَجْـدِ مِنْ أَزَلٍ — مَـنْ يَعْشَقِ الْمَجْدَ فَـلْـيَـقْرَبْ ضَوَاحِينَا
صَـحْـرَاؤُنَـا أَمَلٌ أَحْـيا مَـدَائِنَـنَـا — ولَمْ تَزَلْ بِـعَـطَـايَـاا تُـغَـذِّيـنَا
مِيزَابُ فَارِسُهَا الْـمِـغْـوَارُ حِيـنَ بِـهَا — هُـمُ الْـغُـزَاةُ لِـتُـقْصَى مِنْ مَـغَـانِينَا
يَـبْغِي الْـجَـزَائِـرَ فِي الدُّنْيَا مُوَحَّدَةً — مَـا أَضْيَعَ الْعُمْرَ إِنْ ضَاعَتْ صَحَـارِينَا
وَفِـي الْـقَـبَائِلِ سِحْرٌ صَاغَ ثَـوْرَتَـنَا — عِـشْـقًا يَـجِيءُ مَـعَ الأَيَّامِ يَـحْـمِينَا
وَالْوَنْـشَرِيسُ يُجَارِي الشَّوْقَ مُمْـتَـشِقًا — نُورَ الإِلَـهِ فَكَانَ الْمَجْـدُ حَـادِيـنَـا
وَهرَانُ حَـاضِـنَةُ الأَشْـوَاقِ أَذْكُـرُهَـا — مَـرْسَى الكَـبِيـرُ بهَا لَا زَالَ يُغْـرِيـنَا
يُـزْجِي الْـمَحَـبَّةَ لِلأَبْطَالِ فِي شَـغَـفٍ — فَأَبْدَعـوا لِلْـوَرَى نَصرًا وتَـمْـكِيـنَا
سَـتُشْرِقُ الشَّمْسُ إِنْ عُـدْنَا لِوَحْدَتِـنَا — مَا أَتْـعَـسَ العُـمرَ إِنْ طَالَتْ مَآسِينَا!
كُـلُّ الْعَـوَاصِفِ نُـلْغِي فَـصْلَ سَطْوَتِهَا — إِنْ نَحْنُ عُدْنَا كَـمَا كُـنَّا مُحِـبِّيـنَا[17]

فقد ذكر الشَّاعر مناطق الجزائر التي احتضنت الثورة التحريريـة وآزر أبناؤهـا بعضهم بعضا لدحر شوكة الاستعمار الفرنسي، وبقيت إلى اليـوم أيقونـة النِّضـال والمقاومة، وتتجلى تلك المناطق في: (الأوراس، الصَّحراء، مزاب، الجزائر، القبائـل الونشريس، وهران).

ت- **دواق سليمان بن عمر:** يعتبر هذا الشّاعر كثير الإسهاب الشِّعري بقصائد كثيرة، ودواوين تولد بين الفينة والأخرى، وتحمل أغلب موضوعاته حب الوطن الجزائري والانتماء إليه، واحترام تنوعه الثقافي والايديولوجي، والتحذير من أصحاب الفتن والأقلام السَّوداء الذين يريدون بالجزائر شرًّا في استقرارها وأمنها يقول سليمان دوّاق في معرض حديثه عن تجنب الصِّراع والخلاف:

وَيَحزُّ فِي قَلْبِي أَرَاهَا ضَحِيَّةً	**لِلْمغرِضِينَ فَرِيسَةً تُسْتَهْدَفُ**
يَحْلُو لِبَعْضِ النَّازِلِينَ بِأَرْضِهَا	**نَفْثُ السُّمُومِ فِي لُؤْمِهِمْ قَدْ أَسْرَفُوا**
هُمْ يَعملُونَ بِخِسَّةٍ لِقَطِيعَةٍ	**بَيْنَ الأَحِبَّةِ كيْ يَسُودُوا وَيُشْرِفُوا**
لَكِنَّ رَبي عَالِمٌ بِشُرُورِهِمْ	**وَعَدَالَةُ الرَّحْمَنِ لا تَتَخَلَّفُ**
لَا شَكَّ يأْخُذُهُمْ ولَا مَنْجَى لَهُمْ	**أَخْذَ الْعَزِيزِ بِشِدَّةٍ لَا يَعْطِفُ**
يَا أَهْلَ مَوْطِننَا الْحَبِيبِ تَضَامَنُوا	**وتَعَاوَنُوا بِنزَاهَةٍ وتَآلَفُوا**
لَا تَستَجِيبُوا لِلَّذِي يَدْعُوكُمُ	**لِعَدَاوَةٍ مِنْ أَجْلِهَا قَدْ يُرْجِفُوا**
إِنْ مَا أَرَدْتُمْ فِي الْحَيَاةِ سَعَادَةً	**فَعلَى هُدَاكُمْ أَمْرُهَا يَتَوَقَّفُ**[18]

يرى الشَّاعر سليمان دوّاق أنَّ المغرضين والفاسدين يستغلون تنوُّع الشَّعب الجزائري واختلافه في الرؤية الفردية والمنهج الفِكري لاختلاق الفِتن وزرع بُؤر الصِّراع بين الأحبَّة، ويدعو الجميع إلى لمِّ الشَّمل والتعاون والتضامن، واعتبار الجزائر قبل كل شيء؛ وعليه فالسعادة متوقفة على ترك العداوات وسفاسف الأمور جانبا من أجل بناء لحمة وطنية واحدة، وإن لم يفعل المجتمع ذلك فإنهم سيتركون وطنهم الآمن فريسة مستساغة في أيدي الأعداء المتربصين بالوطن كل شر وحقد.

ويتحدث دوّاق عن دور وسائل الإعلام في تمزيق لحمة الأمة والوطن بنبش التاريخ المظلم والاشتغال بمواضيع الفتنة المقيتة التي تنذر بمصير مشؤوم؛ والفتنة أشدُّ من الحرب وأعظم وأنكى! هذا إن رأينا الصّحافة بمنظورها السلبي الذي تقوم به

بعض الوسائل الإعلامية من صحف ومجلات وقنوات وشبكات عنكبية... ونستثني منهم النزهاء الذين يعملون لرفع راية الوطن الجزائري عاليا بالمحافظة على كيانه ووحدة ترابه، وفي هذا الصَّدد يقول سليمان دوَّاق:

فَأَيْـنَ النُّصْحُ لِلْـوَطْنِ الْمُفَـدَّى؟ وَأَيْنَ الْحَقُّ وَالْـقَوْلُ الـنَّجِيـبْ؟
أَيا آلَ الصَّحَافَةِ لا تَـكُـونُـوا معَـاوِلَ فتنَةٍ ظُـلْمًا تُـصِيـبْ
فَـتَبًّا لِلصَّـحَافةِ إِنْ تَـرَدَّتْ وَشَـبَّتْ مِنْ نَذَالَتِهَا الْـحُـرُوبْ
نُرِيدُ مِنَ الـصَّـحَـافَةِ كُلَّ خَـيْـرٍ وَنَـأْبَـى أَنْ يَـكُونَ بِـهَا مَـعِيـبْ
فَـمَـا خُـلِـقَتْ لِـغَيْرِ الْحَقِّ أَصْلًا حَرَامٌ رُشْـدُها يَـوْمًا يَـغِـيـبْ
إِذَا حرمَتْ صَحَافَـتُـنَـا ضَمِيـرًا فَـلَنْ يَبْقَى لَـنَا إِلَّا الـنَّحِيـبْ
لِأَنَّ الْـوَطْـنَ قَـدْ أَضْحَى قَـتِيـلًا وَقَـاتِـلُهُ بَنوهُ وَذَا عَـجِيـبْ[19]

فالشاعر يؤكد هنا بإلحاح على حضور الضمير المهني في العمل الصحفي وتوظيفه لإحقاق الحق ونشر الخير والفضيلة، وأهم من ذلك كله الحفاظ على الجزائر آمنة مطمئنة.

وقد نظم الشَّاعر سليمان دوَّاق عدَّة دواوين شِعرية تتحدَّث عن استغلال التنوع الثقافي والجغرافي والمذهبي مطية لزرع بذور الفتنة العمياء، وبنى حديثه هذا على الأحداث الأليمة التي عصفت بولاية غرداية بين سنتي 2013م و2015م؛ وفي هذا الصَّدد يقول:

مَـا جَـرَى فِـي وَادِي مْـ ـزَابَ مِنْ هَـوْلٍ شَـدِيـدْ
هُـوَ نَـفْخٌ فِي عُقُولِ البَـ ـعْـضِ لِشَـيْطَانٍ مَـرِيـدْ
أَضرَمَ النَّارَ بِـحِـقْـدٍ حَسْـبُـنَا اللهُ الـوَحِـيـدْ
إِنَّهَا الْـفِـتْـنَةُ شَـرٌّ لَيْسَ مِـنْهَا مُـسْـتَـفِيـدْ
غَـيْـرُ أَعْـدَاءٍ لِـدِيـنِ اللَّـ ـهِ وَالْـوَطْـنِ الْـمَـجِيـدْ
مَا سَـمِعْـتُ الْيَـوْمَ حَـقًّـا مُذْهِـلٌ فَـوْقَ الْـخَـيَـالْ

إِخْوَةٌ صَــــارُوا خُـــصُــومًا   فِي صِــرَاعٍ وَاقْــتِــتَــــــــــــالْ
أَيْــنَ مِــنَّا مَــنْ يُـــــزِيــــلُ   الصَّــــدْعَ يَــسْـــــعَى لِلْوِصَــــالْ؟
إِنْ تَــقَاعَــسْــــنَا لَعَـــمْـــرِي   عَـــمَّ فِــــي الْـــوَطْنِ الْوَبَـــالْ[20]

يستغرب الشّاعر من استغلال الوضع لإشعال الفتنة التي فرقت مجتمعا وزرعت صراعات دموية يقف عند حجم خسائرها الحليم حيرانا، وكل هذا بسبب توظيف التنوع وسيلة للفرقة والتفرقة حيث إن "**فتنة مزاب أسالت الكثير من الحبر، وتناولتها بإسهاب أقلام متعددة المشارب ومختلفة المراتب؛ أعطاها البعض صبغة دينية وعرقية، والبعض الآخر عزاها إلى أسباب اقتصادية واجتماعية كما نسبها آخرون إلى أياد أجنبية، وغيرهم رأوها نتيجة أهداف سياسية محلية مبيَّتة، لعل كل هذه الطروحات واردة من قريب أو بعيد، أمَّا الذي لا شكَّ فيه، فهو أنَّ الذين خطَّطوا لهذه الفتنة اختاروا لها التربة الملائمة بحكم تشكيلتها الاجتماعية القابلة للاشتعال آملين أن يمتد لهيبها إلى سائر ربوع الوطن، لكنَّ الله سلَّم وأراد الخير للجزائر فلم يكتب لهذه الفتنة الشيطانية أن تنتشر**"[21]

3- **إسهام اللغة المازيغية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات والمضامين المختلفة:**أشار القرآن الكريم إلى اختلاف الألسن واللغات النَّاطقة واعتبرها آية من آيات الله عز وجل الفريدة من نوعها في الخلق؛ بل قَرَن عظمة الاختلاف اللغوي والتنوع اللهجي بعظمة خلق السماوات والأرضين فقال عزَّ من قائل:﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾[22]. والمازيغية جزء لا يتجزَّأ من تلك اللغات الفريدة التي تقوم بأداء دور ريادي من خلال نشر القيم والرسائل المعبِّرة التي تتجلى في موضوعاتها ومضامينها المختلفة.

وتُعتبر اللغة المزابية جزءا لا يتجزأ من المازيغية أو البربرية؛ وهي اللغة الأصلية لسكان وادي مزاب؛ ولا شك أن هذا الانتماء "**سَيُسْهِم في التوجيه والتربية**

انطلاقا من تجربة ميدانية بسيطة وعبقرية عالمية؛ باستعمال عبارات وجيزة لها مدلولها ووقعها في النفوس"[23] ذلك لأنَّها لغة التخاطب اليومي؛ إذ تكون أقرب للتأثير والتأثر، وبطبيعة الحال؛ فإن الموضوعات التي ستُنتج من خلالها ستكون صمَّام أمان لإبراز التنوع الثقافي واللغوي؛ اللذين يتجلَّيان في الموضوعات المعبِّرة عن قيم السِّلم والتَّسامح والتضامن والتَّآخي وكل ما من شأنه أن يقضي على إرهاصات الفتن العمياء ما ظهر منها وما بطن.

وسنبرز –هنا– دور الشُّعراء المزابيين الذين كتبوا باللغة المازيغية قصائدهم التي نحت هذا المنحى واتجهت نحو هذا السبيل القويم.

أ– عبد الوهاب بن حمُّو فخَّار(و:1951م)

يقول في قصيدة بعنوان: "دْزَايَرْ تَلاَّ أَنَّغْ" أي **(الجزائر مُلكنا):**

نُوفَمْبَرْ لَوْجهْ يَتْشر يَسَّتْشَرْ ... دْيِيضَانْ إِڤَّنْ دْزَايَرْڤَّاعْ تَنْتَرْ
إِوْرِيرَنْ لوْرَاسْ زَڤَّانْ بَرْكَاتْ ... أَجَنَّا لَقْبَايَلْ زَڤّانْ بَرْكَاتْ
أَمَّاسْ وَادْ مْزَابْ زَڤَّانْ بَرْكَاتْ ... أدَّايْ لَسْحارِي زَڤَّانْ بَرْكَاتْ
سَ شَّرْقْ لَلْغَرْبْ زَڤّانْ بَرْكَاتْ ... بَرْكَاتْ بَرْكَاتْ بَرْكَاتْ
رَبِّ أُولَنْسن ڤَّاعْنْسَنْ غَارَنْ ... وِي بَدَّنْ أَبْرِيدْ أَدِّوْلْ دَارَنْ
وُونِي أَدْونَّاتْ دَانِي أَدِّنَّاتْ ... أَنْبَدْ أَرْجَازْ إِڤَّنْ أَوَالْ إِڤَّنْ نَنَّاتْ
نَشْنِينْ دلْحَبَّاتْ أَمَّاسْ وَرَّمُونْ ... تِلْمِيتْ تَطْفانَغْ تِلْمِيتْ دَدْزَايَر،[24]

ينوِّه الشَّاعر في هذه الأبيات على أهمية التنوُّع الجغرافي واللغوي والثَّقافي للشَّعب الجزائري الذي وظَّفه إيجابا لنصرة قضيته الوطنية وهي قضية الثورة التحريرية المظفَّرة التي جمعت شتاتهم، وكان نوفمبر واسطة العقد؛ حيث اتحد أبناء الأوراس في الشرق مع أبناء القبائل في الشَّمال، وأبناء مزاب في أعماق الصحراء والتحمت الجزائر كلها بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها معلنة النفير والجهاد ضد فرنسا الظالمة، واتحد هؤلاء على كلمة واحدة وهي كلمة التوحيد التي جمعتهم في لحمة موحَّدة، ووصف الشاعر هذه اللحمة بحبّة الرُّمَّان التي تجمع داخلها حبَّات

عديدة مختلفة في شكلها ونوعها، وتلك الحبَّات تُمثل الشَّعب الجزائري باختلافه الثقافي والجغرافي والإيديولوجي واللغوي، والجامع لتلك الحبَّات هي قشرة الرُّمان وقشرة الرمان للشَّعب هي الجزائر التي وحَّدتهم وجمعت كيانهم وقوَّت أواصرهم.

وفي سياق آخر يُقدِّم الشَّاعر عبد الوهاب فخَّار مثالا عن التنوُّع اللغوي بالجزائر المتمثل في ثنائية اللغة العربية والمازيغية على اختلافها اللهجي، والتنوُّع المذهبي الإباضي والمالكي، ولكن لا ينبغي أن تُتَّخذ هذه التفرعات اللغوية والمذهبية ذَريعة للصراع بل هي وسيلة لِلمِّ الشَّمل والوحدة تحت ظلال الوطن الجزائري الكبير والدين الإسلامي الواحد، يقول في هذا الصَّدد:

وَغَـا يَّـخْـسَـنْ أَمُّـو
أَسَـزْلَـغْ إِغَـالْـنِيـكْ
سُ غَـجَّـاريكْ اَدْيَـشْ
رْنِيـغَـاسْ آمَـنْـس!
"جَـابَـرْ" اَدْ "مَـالَـكْ"
"اَمَـازيـغْ" اَدْ "وَعْـرَابْ"
تَـامَـمْـتْ آيْ تَـزْعَـمْ
سَـغَ تَّـافْ تْـلُـوسِّ!
آتْ دَان دَاتْ دِنَّـاتْ
خْـسَغْـتَـنْ ڤَّـاعْ نْـسَنْ
سَ دْجَـرْوَنْ دِ"لسْلاَمْ"
"لْـسْـلاَمْ" دَ طَّـبْـس
اَتَـمْـزَابْ سَ تِّـيـلِي
تـشْـل نَّـغْ اَتُّـون
فْ تْمُورْتْ نْ "لْـسْلاَمْ"
آنْ كُـوسْ دَ كُـوس[25]

معنى هذه الأبيات أنَّ الذي يحبُّ الإنسان الجزائري يُحبُّه بتنوُّعه العربي والمازيغي، وقد شبههما بالعَسل المصفَّى والسَّمن الصَّافي؛ حيث يقدَّمان خليطين في وجبة واحدة؛ ليكون الطعم لذيذًا والمذاق حلوا والشَّهيَّة طيبة، وأشار الشَّاعر عبد الوهاب فخَّار كذلك إلى الانتماء المذهبي الجزائري، إذ هناك من يعتمد مرجعية الإمام جابر بن زيد الأزدي صاحب المذهب الإباضي، وهناك من يعتمد مرجعية الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي، وإن لم يكن كذلك فإنهم ينتمون كلهم إلى دين الإسلام الذي شبهه بطبق الطَّعام "الطَّبْسِ" يجمع أشهى المأكولات وألذَّها بأشكال مختلفة وألوان متباينة يُفَضَّل بعضها على بعض في الأُكْل إلا أنَّها تُسقى من ماء واحد؛ وهذا دليل واضح على تنوُّع المذاهب وتعدُّد المشارب واختلافها شكلا، واتفاقها مضمونا، كما أكَّد الشَّاعر على أهمية الحفاظ على أرض الوطن "تَمُورتْ" التي تضم أبناءها بين جنباتها؛ وقد شبههم بالطائر الذي يضم فِراخه في عُشٍّ آمن يحميهم من مخالب النُّسور وأنياب الأُسود والضِّباع.

ويُشدِّد الشَّاعر عبد الوهاب فخَّار على الحَذر من الوقوع في مخططات الأعداء الذين يتربَّصون بالجزائر شرًّا مستغلين التنوُّع والاختلاف في المبادئ والمنطلقات والآليات سببا لزرع بذور الفتن والصِّراعات؛ لأنَّ هؤلاء الأعداء لا يرتاح لهم بال حتى يمزِّقوا لحمة الأُمَّة إربا إربا كما قال في هذه الأبيات:

خْسَنْ أَنِّيلِ دِفْرَاشْ تَمُرْتُو | **لَمْدَنْ جَرَانغْ أَزَنْزِ دْ وَسْغَا**
سَ دَوْتَنْ اِدَارَنْ تَبَجْنَ اتِّينَزْ | **اَلَمْ سَغَدْ يِيخْ أَيَّزْهَلْ اِوَنْغَا**
تَدَّارْتْ آيْ تَشْتَمْ أَتَوَّاتْ تَمُرْتُو | **سَغَ اَتَّافدْ جَاجَسْ وَسِ يَسْمَنْغَا**
خْسَنْ اَغَنْ رَڨْبَنْ اَتَوَّاتْ نَتُّوزُونْ | **اَكَرْشُوشْ دِ فَلْيَانْ اَيَّزْهَلْ اِوَرْغَا**[26]

يتحدَّث الشَّاعر في هذه الأبيات عن سَعي الأعادي لقيادة النَّاس واستعبادهم مثل الكباش في السُّوق يتنافس التُّجار في أسعار بيعها وشرائها وهي لا تعلم ما يُكاد لها هذه هي الصُّورة الأليمة التي رَسمها الشَّاعر للنَّاس، والصورة الثانية أبلغ منها شَكلا وأعمق مضمونا؛ حيث شبَّه المجتمع المتفكك الذي يسير وفق مخططات أعدائه

بالجمل الذي يُناخ فيبرك مستسلما لصاحبه وهنا يستطيع أن يذبحه ويقضي عليه فيسهل موته وفَناؤُه، كما يَستنكِر الشَّاعر تصدُّع الدَّار وقربها من الانحدار والسُّقوط والدَّار تشبيه للوطن؛ فكما تجمع الدَّار العائلة والأبناء؛ فإن الوطن يجمع شتات أبنائه ويضم إليه شعبه، وعبَّر كذلك في هذه الأبيات عن حرص الأيادي الداخلية والخارجية بإشغال فتيل الفتن من أجل تطبيق القاعدة السياسية التالية (فرِّق تَسُدْ) فيفرِّقون الأمة إلى فرق متصارعة، ويمزقون شملها المتلاحم إلى أحزاب متضاربة وكل حزب بما لديهم فرحون؛ وقد شبَّه هنا الأُمَّة بالنَّخلة وتنوُّع شَعبها وأبنائها بالجذع الذي تتماسك بواسطته أطراف النَّخلة وتبقى صامدة مدى الدَّهر، أو تتفتت جذوعها فتكون آيلة للسقوط في أي وقت فتضر نفسها وتضر ما تسقط عليه من متاع أو عقار أو كبد رطبة...

ب- **يوسف بن قاسم لَعسَاكر** (و: **1971**م): يقول مُنشدا لأمه الجزائر التي يراها عروسة الأوطان، ومصدر التفاؤل والأمل الذي يبدو في شروق شمسها وجمال لَيْلِها وبياض أيامها:

دْزَايرْ أَتَّسلَتْ إِدْوَطانْ سِ جَنْوَانْ | **سوبْهانّمْ إِسلاَنْ نَ دُّونِّيتْ أَتْمَنْغَانْ**
أَسِّيجَمْ أَتْفُويْتْ تَفّالْ تَمَلِّيسْ | **أَتَّلمْ تَسْشُورَا وَسَّانْ دْ ييضَانْ**
أَشّم أَتَجَمِّينَّغْ غَفمْ أَلانْ أَتَّالْسَنْ | **آتْ دَاني دَاتْ دِنَّاتْ أُولَا سِ مُودَانْ**
أَشَّمِّي أَطرَانَّغْ أَشَّي تُّوكِينَّغْ | **أَشَّمِّي دَهَاتِينَّغْ دُودْهَانَّتْ نْ ييمَانْ**
تَسْلَمْدَدْ إِمِدَّنْ أَصْشِي إِوَزْدَاغْ | **سْ تَرْسَالْ نَ تْغَدِّي دُسَرْسِي نْ ييمَانْ**
أَسِّيجَمْ إِمُّوزْرَا دِدْبَابْ نْ تِنْزَارْ | **دِنِنِّي أَتُّوغَنْ تَسُّولْسَانَّمْ دِتْرَانْ**[27]

يتحدَّث الشّاعر يوسف لَعساكر عن الوحدة في ظلال الجزائر التي هي بستان الأمن والأمان والسِّلم والسَّلام الذي يجمع بين مختلف الناس من جميع بقاع العالم حيث يرون الجزائر حاضنة آمنة لمن وجدوا في بلادهم المآسي والحروب

والأزمات، هي الجزائر التي منحت لبنيها الحبَّ والعطاء والهناء واطمئنان النَّفس، فكانت نتيجة ذلك السَّعي لبناء الوطن وتشييده وتطويره مواصلة على درب الشُّهداء الذين حرَّروه من الظلام الدَّامس، ومنحوه الاستقلال النَّاصح الذي شبَّه ببياض البدر في كبد السَّماء.

وفي قصيدة بعنوان "تَابْرَاتْ ئِي يَدْبَابْ نْ وَرْكَا" (رسالة لأصحاب الذُّل والاحتقار) يهمس الشَّاعر يوسَف لعساكر إلى هؤلاء في آذانهم قائلا:

نَلاَّ نَتْهَاتَا دَ دْجِيضْ ادُوڤَّاسْ نَتْزَالاَّ

اغَنْتَجَّمْ بَاتَّا غَرْوَمْ بَسِّي نَ تْمَلاَّ

وَلْ نَلِّي نَسُّودْجُومْ اسَّجْوَمْ دَايْ اتَّزْوِيمْ

بَاتَّا ادْجَايْ اوَّمْ ئِزُوڤَّغْ دْ مَزُّوغْ يَتْسَلاَّ

وُولاَ تَرْكِيمَ–انَغْ تَدْجِيمْ دَجْنَغْ تَاشَتْمِي

اجْتَانَغْ تُوغِيمْ تَانَمِّيرْت أَيْ يدْبَابْ نْ وزلَا[28]

هذه الأبيات التي يوجهها الشَّاعر للذين يقومون بإذلال النَّاس وظلمهم واحتقارهم بأن النَّاس المظلومين لهم أمل عريض ودعاء لا ينقطع لله ليلا ونهارا أن ينتقم من الظلمة الذين يزرعون في أوساط المجتمع الفتن والقلاقل لتفريق لحمته وكسر شوكته، ويوجه لهم رسالة إن كانت لهم آذان مصغية وأسماع واعية أن يتركوا المجتمع وشأنه يعيش في سلام ووئام، ولهم منهم الدعاء بالحفظ والبركة، أو العكس من ذلك؛ لأن دعوة المظلوم لا ترد.

وفي السِّياق ذاته يواصل الشَّاعر خطابه قائلا:

هَـــامِي يُــوعَــــرْ فْ وَرْجَازْ ادْيـــــرَضْ تَـــاشَـــــتْــمِي نَا؟

اتِّـــــيــغَــــنَّـــاتِيــنْ؟ تَــلِّيــــــمْ تْــوَادْجَــــمْ اتَّـــاغْــلُــولَا؟؟

بَاتَّا تْــــسَـــاجِّيــمْ اينِيــنوٌّ؟ ئِــنِــتِي بَاتَّا تْــــسَـــاجِّيـــمْ؟؟

دَايْ تِيشِيبَاضْ نْ وَاضُو سُودْجَــــمْـــتَاسْ ئِي تِسُّوبْلاَ

اتْــسَتْ غَــفْـــنَغْ ئِــمْــرُوضَــنْ نْ وَرْكَا نْـــــوَمْ؟ تَــــقْــلَمْ

مَانَشْ غَادِّيسُّـــوضْ سْ وَرْكَا نْوَمْ اضُو نْ تْـــــلَاَّ؟[29]

ومدلول هذه الأبيات أنَّ الظلم سهل والفتنة نائمة سهل إيقاظهـــا، لكــنَّ الرِّجـــال الأحرار الذين لهم وعي ضمير وصحوة فكر وعمق إيمان لا يقبلون على ذلك لمجرَّد اختلاف لغوي أو عرقي أو مذهبي أو جغرافي؛ وإن فَعــل هــؤلاء المفتتــون ذلـــك فسيعلمون أنَّ سعيهم بمثابة زق ممتلئ بهواء فارغ تأخذه الريـــاح ذات اليمـــين وذات الشّمال، سرعان ما تمسّه إبرة حادة تقطِّع جلده وتمزق أشلاءه، وهــذا هــو ســعي المفتتين المغرضين في تفريق الأمَّة الذي شبهه كذلك بريح عاتية تقتلع جذور ظلمهــم للناس وقهرهم وإذلالهم.

ت- **<u>عمر بن سليمان بوسَعدة (و: 1976م):</u>** يتحدَّث الشَّاعر عمر بوسعدة عن النَّظر بعين ثاقبة إلى أيام الحياة قائلا:

أُوسَّانْ نْ تَـمُدُّورْتُو إِلاَّنْ أُوسِينْدْ — أُونَّـسِّيـنْ بَـاتَّـا غَـــدَّاوِيـنْ
وَالْ تِـزَّارْ لَتْـشَـتمِي وَالْ تَـجَّاتْ — أَدَيْـمُونْ أَوَتِّـزُونْ دِفِـلْـيَـانْ
مَـنَّـشْـتْ مِـدَّنْ أَمَّـنْـغَـنْ — أُوسِـنْدْ أُوسَّانْ دْوْلَـنْدْ دِمَدُّوتْـشَالْ
أَسَّـنْ أَيُـوَّا أَيُـوَّا أُولْ — أَمَـلاَّلْ أَدْيَـشْ أُولْ أَبَـرْشَـانْ
أُوجامْ إِترَّا فَـتْـمَـشْـرَاسْ — تِـمَـشْـرَاسْ أَتَّاسَـنْتَـدْ سَ شْحَانْ
أَجِـدْ سْ غَـرْتْشْ أَتَّـافَـدْ — تِيِـفَـاوْتْ أَقُّـودْ إِمُـودَانْ[30]

ومدلول هذه الأبيات أنَّ الدنيا دائرة لا تستقر على حالة واحدة، وأيامها القادمة غيب لا يعلم النَّاس كنهه؛ ولذا عليهم ألا يستبقوا الأحداث بسوء الظن بينهم؛ لأنه يفكك العلاقات الحميمية ويُحوِّل الأصدقاء إلى أعداء، ولذلك فالشَّاعر يُحذِّر من كيد الشَّيطان الذي يُفرِّق بين الأحبَّاء والأصدقاء ويُشتت شَعثهم، وينصح النَّاس المتخاصمين بالعودة إلى رُشدهم وزرع ثقافة المحبة والمودَّة والسلام بينهم، كما يدعو كلَّ إنسان بصيغة أخي(**أَيُـوَّا أَيُـوَّا**) مؤكَّدة مرتين ليعي هذا النِّداء الدَّاعي إلى تصفية القلوب وتنقيتها من أدرانها؛ لأنَّ القلب الأبيض -حسب رؤية الشَّاعر- يتغلب على القلب الأسود الممتلئ بالشَّحناء والبغضاء والحقد والكراهية؛ ولن يتمَّ هذا إلا بالتَّحلي بالصَّبر العميق والحكمة في حل الأمور والتبصُّر بالعواقب، وطلب العذر والعفو والصَّفح والإحسان مع النَّاس جميعا، وبهذه الصفات يتم التغلُّب على جميع مشاكل النَّاس المستعصية حلُّها، وتنفض النزاعات وتذوب آثار الخصومات، ويجد النَّاس نور المحبَّة والسَّلام والعيش الكريم في دنياهم وأخراهم.

يَلَّـــــهْ أَيـــــوَّا أَنَّزْدِي جَـــــارْ أُولاَوَنْ
أَجْــرَوَانَّـــغْ يَــلَّا اتِّــــيتِي إِيــوْشَشَّاضْ
أَتَّاتْ أَيْنِي ازْوَانْ تْحبرَمْ ڨَّاعْ غَلْدَسَّاتْ
أَنَّــغْ تــغِيلَمْ إِمَارْ يَــطَّسْ تِــسَــنْبَــاضْ
آيَــبْــهَا تَوَّاتْ مِي جَــرْوَنْ دُرُّ إِڨَّـــنْ
أُولْ تِّفِدْ دِيـــسنْ آشْ إِڨَّـــنْ سُــوجمَّاضْ
نَسَّنْ ڨَاعْ أَهَاتِي أُولِ سْجُورِي تَاسِيرْتْ
تَــاضْفِي أَتْنَافْ سَ نِّيلِي ڨَاعَنَّغْ نَــزَّاضْ
أَنَّمْتَرْ يوشْ أَغَـــــنْيَــــهْــدَا إِجَــرْوَانَغْ
فْ وِيوَالْ إِڨَّنْ أُونْ تِّيــوَضْ غَلْ وَجْمَاضْ[31]

ويدعو الشَّاعر عمر بوسعدة النَّاس إلى تآلف القلوب قائلا:

يعلل الشَّاعر – من خلال أبياته- أنَّ تآلف القلوب واجتماعهــا تعطــي ضــربة قاصمة للأعداء الذين يريدون عكس ذلك، والحل الأمثل لتلاقي القلوب هــو نســيان الماضي جريا على القاعدة الإلهية "عَفا اللهُ عمَّا سَلف" والنظر إلى المســتقبل بــوعي عميق وأمل عريض وفكر دقيق، لأنَّ آفات الزمن وعواقبه لا يأمنها النَّاس إن كــانوا متفرقين مختلفين؛ لكنهم إن كانوا في قالب واحد لن يجد أيُّ عدو مفتن مكانــا بيــنهم ليُصدِّع بناءهم أو يقوِّض أركانه، ويشبِّه الشَّاعر بوسعدة قوة النَّاس –في وحدتهم التي يجنون منها فوائد جمة- بالرَّحى المتماسكة في حجارتها وثقالها؛ ومن ثمَّ تكون الفائدة عظيمة حيث يكون الناتج قمحا أو شعيرا وليس حصى مفتتا ناتجا عن تدهور الرَّحى وتلاشيها، ويختم الشَّاعر أبياته بالدُّعاء لله عزَّ وجل بالهدايــة إلــى وحــدة الصَّــف والكلمة؛ حيث تمنعان النَّاس من الضَّلال في الفُرقة والصِّراع، وتجمعهما في ظــلال الألفة والسَّلام والمحبة الصَّادقة.

ويلتجأ الشَّاعر عمر بوسعدة إلى ربِّه ضارعا قائلا:

ما غَــنْــتخْسَدْ أَيُوشْ أُونْــتَقّلْ غَلْ مدِّنْ
بَــتَّ دِنيــــنْ أَسِّــيوْلَنْ أَنغْ أَسَّــغْــدَنْ
تِيدَتْ تَلاَّ غَرْتَشْ أَوَحْدِي نَّغْ دْوَاشُڨْدَنْ
مانَا أَنيلِي أَغَــنُڨْــدَنْ إِشَــشَّــاضَــنْ
أَجَّــانَغْ أَيَــا جَــلِّيــدْ جَارْ مِدَّنْ دِنَــارَنْ
مَانِي دِيسْ تَــوَحْدِيتْ نشْنِينْ غَ أَدزَّارَنْ
مي دَّلْفَانْ إِدْوَطَانْ أَتَّــشنينْ دِسْــفَــارَنْ
أَنَّــرْ جَارْ تَــوَّتْ نَّغْ نِيـــــلِيتْ دِوَارَنْ[32]

فمحبة الله تنعكس في قلوب عباده بالمودَّة والأُلفة والسَّلام وكل ما مــن شــأنه أن يجعلهم أقوياء أمام أعدائهم؛ ولن يتمَّ ذلك إلا إذا خاف النَّاس ربهم واتبعوا صــراطه المستقيم؛ فبذلك ترتعد فرائص الأعداء ويرون أن قوة مناوئيهم لا يستطيعون ردَّهــا لأنهم بمثابة الأسود الأقوياء تكتُّلا وتجمُّعا لا يقوى عليهم أحد، ويضيف الشَّــاعر أنَّ تلاحم النَّاس وتكتُّلهم يعدُّ بمثابة المناعة القاضية على الأمراض المستعصــية التـــي تنخر جسد المجتمع وتهدُّ كيانه.

خاتمة: يعتبر التنوع اللغوي مؤشرا فعَّالا في نشر ثقافة السِّلم والحوار والاحتــرام المتبادل بين جميع الأطراف؛ لأنَّ اللغة تمثلا مشتركا إنسانيا جماعيا لجميع الأفــراد والجماعات؛ وبفضلها يتم التواصل على المستوى المحلي أو الوطني أو الإقليمــي أو العالمي؛ وإنَّ التنوُّع الثقافي ليدل على الثَّراء الفكري واللساني والاجتماعي فـــي أيَّـــة أمة أو مجتمع؛ وبالتالي فإنه من السذاجة والغبــاوة أن توظَّــف الثنائيــات اللغويـــة والاختلافات اللهجية لخلق بؤر الصِّراع والشِّقاق في أي مكان من أصقاع العالم.

وقد قدَّمنا في ورقتنا البحثية نموذجا واقعيًّا حيًّا للتنوع اللغــوي بولايـــة غردايـــة بالجنوب الجزائري؛ حيث تفتخر بلغتيها العربية والمازيغية اللتين تعتبــران صـــمَّام أمان للمجتمع الجزائري عموما لأنهما تحملان القيم المختلفة والمضـــامين المعبِّـــرة فضلا عن كونهما تعكسان سيادة المجتمع الجزائري ومبادئه وثوابته الرصينة التـــي تضمن له البقاء والاستقرار والأمن في كنف السَّلام والتَّسامح والتقبُّل.

وقد أسهم الشُّعراء: الأمين أحمد بن يحي، وسليمان بن عمر دواق، ومسعود بـــن بلحاج خرازي في خدمة التنوع الثقافي الجزائري بقصائدهم المكتوبة بلغـــة عربيـــة فصيحة، وتحمل في مضمونها قيم التَّسامح والمحبَّة والوفـــاء لمجـــتمعهم ولأمـــتهم ووطنهم؛ ونجد هذا النَّسق عند شعراء المازيغية: عبد الوهاب بن حمو فخار ويوسف بن قاسم لعساكر، وعمر بن سليمان بوسعدة الذين عبَّروا عن بنات أفكـــارهم بلســـان مازيغي مزابي يعكس انتماءهم المحلي وتموقعهم الجغرافي الجزائـــري؛ إذ وظفـــوا

المازيغية في أشعارهم للوحدة والتآلف وزرع قيم التسامح والابتعاد عن الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اقتراحات وتوصيات:

-نثمِّن مجهودات المجلس الأعلى للغة العربية على تنظيمه لهذا الملتقــى الــذي يعطي مسحا شاملا للتنوع الثقافي في الجزائر وكيف يُسهم في نشــر ثقافــة السَّــلام والتعايش والتَّسامح، ونجدِّد له الشُّكر مرَّة ثانيا على طرحه لهذه المواضــيع الراقيــة بطريقة جريئة ومنهجية علمية.

-الدَّعوة إلى إبراز التنوُّع الثقافي بشكل عام واللغوي بشكل خاص؛ وهذا بطباعة المخطوطات التي تحوي كنوز الثقافة الجزائرية المتنوعة بعد تحقيقها ودراستها.

-تنظيم طبعات متتالية لهذا الملتقى، وتسليط الضَّوء أكثر على الموضوع نظــرا لأهميته وحساسيته خاصة في الوقت الراهن.

-توجيه الطلبة والباحثين في مختلف مراحــل التكــوين (الليســانس، الماســتر الدكتوراه) إلى دراسة أثر التنوع الثقافي في المجتمع الجزائري ودوره في زرع قــيم التَّسامح والسَّلام...إلخ.

-تخصيص شهر جوان من كل سنة للاحتفال بالــيوم العالميّ للتّنوّع الــثَّقَــــافي مــن أجل الحوار والــتّــنميَــة، وتقديم حلول للإشكالات العالقة في الموضوع.

-تسليط الضَّوء أكثر على مختلف الولايات والمناطق الجزائرية التي تحتوي على التنوع اللغوي والثقافي من باب خدمته والتنويه بفضله في جمع الجزائريين على مــر العصور التاريخية.

الهوامش:

[1] وهذا بناء على الإحصاء الذي قامت به المصالح الإدارية المعنية بولاية غرداية سنة 2008م.

[2] مديرية الثقافة، وادي مزاب آثار ومظاهر، ولاية غرداية، د.ط، 2004، ص: 04.

[3] ينظر بشير بن عمر مرموري، الفتاة في مزاب تنشئتها وتعليمها بين الثابت والمتغير، نشر جمعية التراث، القرارة- غرداية، ط01، 1426ه/2005م، ص: 65، 66.

[4] ينظر يوسف بن بكير الحاج سعيد، الهوية المزابية، أهمُّ عناصرها وتشكّلها عبر التاريخ المطبعة العربية، غرداية، د.ط، 1432ه/2011م، ص: 12.

[5] عن مُصاب؛ ينظر عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان د.ط، 1968م، ج: 06، ص: 122.

[6] ينظر بحاز إبراهيم بن بكير، الدولة الرستمية (160-296ه/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، دار لافوميك- الجزائر، ط01، 1404ه/1983م، ص: 350.

[7] سورة الشُّورى، الآية: 07.

[8] سورة فُصّلت، الآيات: 01، 02، 03، 04.

[9] سورة الحجرات، الآية: 13.

[10] سورة هود، الآية: 118، 119.

[11] سورة الأنفال، الآية: 46.

[12] هذه الفقرة من مقال نُشر بجريدة الشعب بتاريخ: 1990/06/07، وصاحب المقال هو الدكتور أبو القاسم سعد الله، وقد وضع د. محمد صالح ناصر هذا المقال في كتابه الموسوم بـ"مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية"، مُركَّب المنار، الحميز- الجزائر، ط 02، 1434ه/2013م ص: 88.

[13] الأمين أحمد، ديوان مُدُّوا الأيدي نتصالح، تح: خرازي مسعود، وابن ادريسو مصطفى، نشر عشيرة آل خالد، بني يزقن- غرداية، ط01، 1433ه/2012م، ص: 42.

[14] للقيمة الفنية والجمالية والنخوة الوطنية التي يحملها هذا البيت صدى كبير؛ حيث كان يستشهد به عدَّة نواب في مداخلاتهم البرلمانية بالمجلس الشعبي الوطني.

[15] مسعود خرازي، ديوان متى الصبُّح يا وطني؟، المطبعة العربية، غرداية، ط01، 2002، ص: 21، 22.

[16] نفسه، ص: 81، 82.

[17] نفسه، ص: 39، 40، 41.

[18] سليمان بن عمر دوّاق، ديوان نفَحات ولفحات، جمعيــة التــراث، القــرارة- غردايــة، ط01 1430ه/ 2009م، ص: 83.

[19] نفسه، ص: 80، 81.

[20] سليمان بن عمر دوّاق، ديوان لميزاب رب يحميه هو حسبه ونعم الوكيل، المطبعــة العربيــة بنورة- غرداية، ط01، 1436ه/2014م، ص: 66، 67.

[21] سليمان بن عمر دوّاق، قراءة لميزاب الضحية حول الفتنة الجهنمية 2013-2015، المطبعــة العربية، بنورة- غرداية، د.ط، 1437ه/2015م، ص: 07.

[22] سورة الرُّوم، الآية: 22.

[23] يُنظَر صالح بن ح عمر ترشين، رواية قلب ذهبي عند المرحومين أُمِّي وأَبِي، مطبعة الآفــاق بني يزقن- غرداية، ط01، 2015م، ص: 72.

[24] عمر بن سليمان بوسعدة، أَحُوَّفْ نْ وَغْلاَنْ، المطبعــة الجابريــة، بنــورة- غردايــة، ط01 1425ه/2005م، ص: 95.

[25] عبد الوهاب بن حمو فخار، اِمَطَّاوَنْ اِزُوقَّاغَنْ (الــدُّموع الحمــراء)، ط01، 1990، ص:36 .37

[26] نفسه، ص:21، 22.

[27] عمر بن سليمان بوسعدة، مرجع سابق، ص: 94.

[28] يوسف لعساكر، ئدُورَّان نْ تْسَكْلاَ (أنثولوجيا الأدب المزابي)، مديرية الثقافة لولاية غرداية، ط 01، 1433ه/2011م، ص: 104.

[29] نفسه، ص: 104، 105.

[30] عمر بن سليمان بوسعدة، مرجع سابق، ص: 49.

[31] نفسه، ص: 51.

[32] عمر بن سليمان بوسعدة، قصيدة "أوَنِّي تْسَلاَّنْ"(يا مــن يَســمع)، نســخة مرقونــة بتــاريخ: 2007/07/27، تحصّلت عليها من الشاعر مباشرة بتاريخ: 2018/01/24.

القيم الإنسانية في المنهج الإسلامي

د. أحمد سعدي
جامعة الشلف، الجزائر

مقدمة: يحمل كثير من المسلمين وغير المسلمين تصورات خاطئة ومتطرفة عن المدن الإسلامية في المنهج القرآني، فلا يوجد فيها حسب تصورهم سوى الإسلام والمسلمين. ولا وجود فيها لأي تنوع ثقافي أو ديني. وكأنها مدن مفصولة عن العالم ولا يدخلها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا من فوقها ولا من تحتها، ولا من يمينها ولا من يسارها، بمعنى انها مدن معصومة. ولذلك يتصورون أن المدينة الإسلامية هي مصدر رعب وخوف لغير المسلمين، ولأصحاب الأهواء أو الهوايات المكروهة من المسلمين. وهذا التصور المتطرف يجعل من المدن الإسلامية فزاعة مخيفة، وبعبعا مرعبا، ومدنا منفرة بسبب انعدام الأمن الذي يشعر به البسطاء من الناس، والمختلفون، حيث لا فرق بين الاختلافات و المخالفات.

ولكننا نقرأ القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة نتأكد من خطإ هذه التصورات المجحفة، والمقولات الضالة في حق الدين الإسلامي الحنيف الذي يحمل شعار " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وعندما نطالع الأوضاع الاجتماعية في المدينة المنورة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنها كانت تتشكل من مزيج متعايش من الطوائف والأقليات، وان المرأة ــ مسلمة كانت أو غير مسلمة ــ تتسوق آمنة حتى في أسواق اليهود، والعكس صحيح.

وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم مظاهر سلبية في أسواق المسلمين من المسلمين ومن غير المسلمين في المدينة المنورة وهي مدينة إسلامية مسلمة بالدرجة الأولى ولكنها لم تستأصل الشعر والغناء والمنافقين واليهود، وغير ذلك من المظاهر السلبية والممارسات المخالفة لتعليم الإسلام الحنيف. وربما كانت فيها

معاص ومنكرات لا يعلمها إلا الله كانت تمارس خفية. إن الإجراءات الأمنية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم عقب هجرته إلى المدينة المنورة تعتبر دستورا وميثاقا لمفهوم المواطنة وأساسا للقانون المدني وقانون الرحمة الأحوال الشخصية لجميع المواطنين في المدينة أو الدولة التي يحكمها المسلمون، كما أن المسلمين يعاملون بالمثل في المدينة أوالدولة التي يحكمها غير المسلمين.

1.مقاصد الشريعة الإسلامية الأمنية: المقصدية مصطلح لساني حديث في تحليل الخطاب ولسانيات النص. ولولا وجود المقصدية ما كان للخطاب معنى ولا للنص انبناء ووجود. والنص القرآني هو أمتن النصوص وأرفعها وأنفعها وامتعها وأكثرها إحكاما وحكمة. والنص القرآني منزه عن النقص والتقصير والتفريط ولإفراط، ميسر للذكر والعمل. وهو رسالة في غاية الأهمية من الخالق سبحانه وتعالى إلى الإنسان في آخر الزمان، وقد بلغه عنه تعالى أحسن تبليغ وأبلغه خاتم الأنبياء والرسل عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وأمر الناس بقراءة القرآن الكريم والعمل به من أجل ان يحيَوا حياة كريمة، ويبنوا أسرا ومجتمعات ومدنا ودولا يسودها الخير والعلم والعدل والصلاح والحرية النافعة التي ليس فيها ضرر لأي كان. يحمل فيها الإنسان الأمانة التي كلفه الله تعالى بحملها، ويتحمل مسؤولية الخلافة في الأرض التي شرفه الله بها وأعانه عليها، لكي يبني ولا يهدم ويصلح في الأرض ولا يفسد فيها بعد إصلاحها.

ومقصدية النص القرآني في تحقيق الأمن والتعايش بين كل الناس تتجلى أحيانا بأسلوب مباشر عن طريق التشريع وأحكامه، وأحيانا أخرى تكون المقصدية ضمنية عن طريق الوعظ والإرشاد والرسائل النصية القصيرة والطويلة التي يقدمها القرآن الكريم، والاعتبار الذي دعي إليه أولو الأبصار.

تحمل لسانيات النص أدوات قراءة النص والنفاذ إلى عالمه الداخلي، ويحتاج النص القرآني منا إلى قراءته بأدوات القراءة الجديدة. وفي موضوع المقاصد

بصفة عامة يمكن إعادة بناء هذا العلم على ضـــوء لســـانيات الـــنص ومصـــطلح المقصدية. وسوف نجرب توظيف مصطلح المقصدية وندرس على ضوئه المقاصد القرآنية، ومقصدية الحديث النبوي الشريف في تيسير حياة الإنسان الاجتماعية فـــي المدينة والقرية والريف وفي كل مكان، وكيف يتمدن ويتحضر، لأن القرآن الكريم قد بنى حضارة من تحت الصفر، وهي اليوم ليس لها مثيل.

فالقرآن الكريم يامر المسلمين بالتعاون علـــى الخيـــر، والتعـــايش، والتســـامح والنظام، وطاعة أولياء الأمور، واحترام القانون، والمحافظة على البيئة، وإعطـــاء الطريق حقها، وغيرها من التعليمات القرآنية التي ترسي قواعد النظـــام والتمـــدن وتحقق الأمن والرفاهية في المجتمع. وعلى ضوء التوجيهـــات القرآنيـــة نســـتطيع تصوّر المعالم الكبرى والخطوط العريضة للمدينة الفاضلة أو اليوتوبيا التي كانـــت حلما جميلا في الفلسفة المثالية، وقد بناها القرآن الكريم وجعلها واقعية يتنعم فيهـــا عباد الله، لا ينكرها إلا جاحد أو جاهل. هذه المدينة الفاضلة والمدنية العادلة يرفـــع فيها الآذان على مسامع الناس خمس مرات في اليوم، يذكرهم بدخول وقت الصلاة ويدعوهم بلطف إليها. وتجتمع ساكنتها على صيام شهر كامل في توافق عجيب في الإمساك والإفطار. والمدينة المنورة التي بناها الرسول صـــلى الله عليـــه وســـلم وأسسها على لبنات الوحيين الكتاب والسنة في ظرف وجيز بناء على المقبولية التي قبلت وقوبلت بها مقصدية النص القرآني فقلبت حياة الناس عقبا على رأس بعـــدما كانت رأسا على عقب.

يعتبر القرآن الكريم معجزا في ألفاظه ومعجزا في معانيه، ويحتاج الناس دائمـــا مهما كان مبلغهم من العلم إلى من يعينهم على فهم مقاصده ومعانيه. وقد ظهر علم التفسير ليسد هذه الحاجة الملحة، وما زال التفسير إلى اليوم علما ضـــروريا لفهـــم معاني القرآن الكريم ومقاصده "**وإن أقدم تفاسير القرآن الكريم يبدي وعيا مســـبقا بالتعارض بين ما يقوله الناس وما يقصدون قوله ويرمـــون إليـــه. وطالمـــا أن**

المفسرين كانوا مهتمين فقط بالكشف عما قصده الله تعالى في القرآن الكريم، فإن منهجهم في رصد مثل هذا التعارض كان ينطوي على إعطاء شرح دلالي للـنص ويبين فيه القصد الضمني."[1] ويحتاج الناس إلى التفسير والاجتهاد فيه لفهم مقاصد القرآن الكريم الضمنية التي يسمونها في بعض الأحيان "أسرار القرآن الكريم"، وإن كانت كلمة أسرار تعبر عن المقاصد وغيرها.

2.**بناء المجتمع القرآني المتنوع ثقافيا:** هو مجتمع إنساني قرآني، حيث يقصد القرآن الكريم بناء مجتمع إنساني إيماني طاهر، وتأسيس مجتمع الفضيلة. قال الله تعالى: "**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم**" [2] إن التأسيس على قواعد وأسس متينة يضمن للباني دوام البناء وأمانه وسلامة المتواجدين فيه وأمنهم وسعادتهم. إن من مقاصد الشريعة الإسلامية بناء مجتمع راق تسود فيه الرحمة ومكارم الأخلاق والقيم الخالدة، ويكسب فيه الإنسان ذكرا وأنثى كرامته وقيمته الحقيقية التي فطره الله عليها وشرفه بها. قال الله تعالى: "**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.**[3] ولام التعليل في الآية الكريمة قرينة دالة على المقصد الاجتماعي القرآني وهو تنوير المجتمع الإنساني ليس بالقضاء على الظلمات نهائيا، ولكن بإخراج الناس منها.

وواضح أن الظلمات التي يقصد القرآن الكريم إخراج الناس منها كي يعيشوا سعداء مطمئنين ليست بالظلمات الطبيعية التي جعل الله للناس الشمسَ والقمرَ والعينَ والبصرَ كي يخرجوا منها عند الحاجة إلى النور. وظلمات الليل والبحر وظلمات الرحم الثلاث، وغيرها من الظلمات الطبيعية قد اهتدى الإنسان بعقله إلى التغلب عليها والتحكم فيها باختراع الكهرباء وصناعة وسائل وأجهزة الإنارة العمومية والخصوصية. وصار الإنسان عندما يحتاج في الليل أو في النهار إلى

النور يستعمل المصابيح والأضواء الكاشفة التي تزيل الظلام وتحيل الليل إلى نهار.

والمجتمع لا يحتاج إلى الإنارة العمومية والخصوصية هذه فحسب، لأن هذه الإنارة حسية متعلقة بالبصر، ولكنه محتاج إلى تنوير البصيرة، إلى التنوير الداخلي العقلي والروحي، وهذه الإنارة هي إنارة معنوية. وقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه نور في قوله تعالى: "**ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم.**" [(4)] والقرآن الكريم يقصد تنوير المجتمع كله بأنواره الهادية الشافية. ومن أهدافه في بناء المجتمع إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الضيق إلى الفرج.

والظلمات المعنوية التي تصيب الإنسان وتعمي البصيرة كثيرة منها: ظلمات الجهل، وظلمات الظلم، وظلمات الهوى، وظلمات الكفر والشرك، وظلمات الغضب، وظلمات الفوضى والتشويش، وظلمات الفقر والفاقة، وظلمات الرذائل والفواحش، وظلمات، وظلمات الجريمة، وغيرها من الظلمات. إن مقاصد الشريعة الإسلامية تساعد على فهم المنهج القرآني وأبعاده الأمنية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وبالفعل إن "**كتب المقاصد تبرز لنا وسائل الاجتهاد، وأسباب الاختلاف بما يفسح المجال في تعميق أسرار الشريعة، وفهم مغزاها. وهي من المراجع المهمة يستنير بها المتفقهون في الشريعة عندما يقع الاختلاف في وجهات النظر بتغير الزمان والمكان. وهذا من شأنه أن يقلل الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ويدرب أتباعهم على الإنصاف في الترجيح والاختيار.**"[(5)] وهذا يعني أن يكون كل فرد في المجتمع الإسلامي واسع الصدر، يتقبل الآخر مهما وافقه أو خالفه، ولا يضيق صدره بمن ليس يؤذيه أو يظلمه بالفعل ولا بالقول، لأن الله خلق وفرق، وجعل الاختلاف ظاهرة طبيعية في الحياة الإنسانية. وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم عند مرور جنازة، ووقف لها تعزية وأدبا واحتراما، إذ لم يكن بمقدورها أن يتبعها

فلما قيل له أنها ليهودي من اجل ثنيه عن الوقوف لها، غضب صلى الله عليه وسلم وقال أو ليست نفسا؟ ثلاث مرات.

إن المجتمعات التي تتعارض مع القرآن الكريم كلها مجتمعات معتلة مريضة والمجتمع القرآني هو المجتمع السليم المعافى الذي يحفظ للإنسان كرامته وحقوقه وقيمه الإنسانية الخالدة. ومن الحقائق الثابتة التي لا ينكرها عاقل منصف أن القرآن الكريم قد نزل عندما كانت المجتمعات البشرية كلها على حافة الهلاك وعلى مشارف الهاوية. يقول الدكتور أحمد شلبي: "**في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت. ولم يكُ ثمّ ما يعتد به مما يقوم مقامها. وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ كانت القبائل تتحارب وتتشاجر، لا قانون ولا قيم. أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام. وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي كان خير دواء لهذا الداء.**"[(6)] **وقد نسب هذا القول إلى مجموعة من المستشرقين الغربيين المنصبين الذين** اعترفوا بأن الإسلام دواء، وأن القرأن فيه شفاء للناس. ومن هؤلاء المستشرقين المنصفين رجاء غارودي وزيغريد هونكه وغيرهما كثير.

3.**منهج التغيير القرآني:** لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم من اجل إحداث التغيير الإيجابي في الكون، والحيلولة دون التغيير السلبي الذي يكون من الأسباب المباشرة للدمار. يقول الله تعالى: "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.**" [(7)] كل شيء في الكون يتغير ويتبدل باستمرار، ويتحول وفق سنن جعلها الله تعالى نظاما للحياة يسمى بعضها السنن الكونية، وبعضها الآخر يسمى السنن

الشرعية. ويمكن وصف النوع الأول بالتغير الطبيعي الذي لا يستطيع الإنسان مخالفته لأنه من قدر الله تعالى ومشيئته الكونية. فالإنسان يتغير ويتحول من طور إلى طور في تغير مطرد عام، والكائنات الحية الأخرى من نباتات وحيوانات كلها تتغير، والأشياء الجامدة والسائلة والغازية كلها تتغير تغيرات كيميائية أو فيزيائية. والطعام يتغير عندما يتجاوز مدة صلاحيته ولم يحظ بالحفظ المناسب فيتغير طعمه ولونه ورائحته ويفسد، وتنشأ فيه الروائح الكريهة والديدان العفنة والسموم القاتلة.

والجنة وحدها هي التي لا يتغير فيها شيء إلا إيجابيا يزيد في نعيم أهلها وسعادتهم الأبدية، مثل قوله تعالى: "**وأنهار من لبن لم يتغير طعمه.**"[(8)] في إشارة قرآنية بليغة إلى أن الجنة ليس فيها أي فساد مهما كان نوعه، وأن لها نظاما آخر لا يشبه نظام الكون في الدنيا.

والإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض، جعله الله كذلك، وخلقه لذلك، ليحافظ على النعم التي وهبها الله له ولغيره من الكائنات الحية التي تتعايش معه ويتعايش معها، ولكنه هو المسؤول الأول في الأرض بإرادة الله تعالى الكونية والشرعية. فيحافظ على أمن الكائنات فيها، ولا يتركها تتحول من الصلاحية إلى الفساد، وعليه باستعمال مسخراتها ومقدراتها الاستعمال الشرعي المطلوب قبل فسادها وقد حرم الله عليه إفساد أي شيء إلا بمبرر شرعي وقانوني. كما حرم الله تعالى عليه البخل بالخير على مستحقيه والمحتاجين إليه، وألزمه بالإحسان والإتقان ما دام فيها.

4.المدينة الفاضلة والمدنية العادلة: لقد أجهد المفكرون عقولهم وأتعبوها عبثا دون جدوى في محاولة توصيف المعالم الكبرى والتقاسيم المحددة والمعرفة بالمدينة الفاضلة حسب أخيلتهم وتصوراتهم الإنسانية الطيبة، وفلسفاتهم، ومذاهبهم وآرائهم، وتوجهاتهم السياسية والدينية والاجتماعية المثالية. ولكنهم لم يفلحوا في حفر أسس هذه المدينة، ناهيك عن وضعها، أو رفع أعمدتها وأركانها. ولم يصدر من التفكير البشري رغم اجتهاده أي نموذج نظري منهجي وواقعي للمدينة الفاضلة

المزعومة أو المنشودة. وكل التصورات العقلية للجمهورية الفاضلة كانت طوباوية أو شبه مثالية تستعصي على التجسيد والتطبيق، لأنها كانت كلها نابعة من التصورات البشرية. وكان يعوزها عامل الوحي والتوجيه الرباني الحكيم الذي هو أدرى واعلم بمصالح الناس ومنافعهم من الناس أنفسهم.

إن المدينة الفاضلة في حقيقتها ومعناها الحرفي هي المدينة المنورة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم في القرن الأول الهجري. وقد كانت المدينة المنورة أرضا خصبة وبلدا طيبا. سقاها القرآن الكريم فأنبتت نباتا حسنا بأغلبية لا أقول ساحقة، وإنما أقول بأغلبية عاقلة عادلة فاضلة من سكانها الذين بادروا إلى الاستجابة الطوعية للدعوة المباركة، والامتثال لمتطلباتها، وتحمل مسؤولياتها المادية والمعنوية، وتبنيها وبنائها. وقد سماهم القرآن الكريم "**الأنصار**"، ووصفهم بكل صفات الخير والفضل والفضيلة. ومما جاء تنويها بهم في النص القرآني قوله تعالى: "**والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم. ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا. ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.**"[(9)] لقد اتسم المجتمع المدني بخصائص تؤهله ليكون اللبنة الأولى النموذجية لبناء وتأسيس المدينة المنورة التي آوت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن سبقه أو لحق به من المهاجرين قبل الفتح والمستوطنين بعد الفتح. فتم إخماد الحرب، وجمع الكلمة، والتعاون على البر والتقوى. وقد صدقهم الله تعالى كل وعوده ووعده القرآني القائل فيه:" **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (الآية)**"[(10)] فالمدن إنما تتنور بنور القرآن الكريم عندما يكون مواطنوها مؤمنين صادقين صالحين مصلحين من أهل الفضل والفضيلة.

ومازال خير القرون وخير المدن وخير المدنيات وخير المجتمعات والأجيال كلها شاهدة على البصمة القرآنية والبسمة الإنسانية التي تحققت عند فهم مقاصد

الشريعة الإسلامية في تلك الحقبة المنيرة المشرقة المشرفة من التاريخ. يقول احمد الريسوني: "**فمنذ أن أحس علماء المسلمين بعد العصر الأول بوقوع الفصام بين تعاليم الإسلام وقواعده ومبادئه، وبين واقع المسلمين وممارساتهم الحياتية وجهود أولئك العلماء متصلة لرتق الفتق، ورأب الصدع، وإعادة الاتصال الوثيق بين الإسلام والمسلمين. ذلك الاتصال الذي جعل من مسلمي الصدر الأول مصاحف تمشي على الأرض بأخلاق القرآن، وسلوك القرآن، وتعامل القرآن.**" (11) هذا هو السر الذي يخفيه كثير من الناس اليوم لتخويف الناس من المسلمين ونشر ما يسمى بالإسلاموفوبيا. لقد كان المسلمون في عصر النبوة إلى عهد تابعي التابعين متصلين بالقرآن الكريم متصفين بأخلاقه، وقد كانوا مجتهدين في تمثيل الإسلام أحسن تمثيل.

وينبغي أن لا تتوقف الدعاية والدعوة إلى الإسلام الحنيف بالطريقة التي أمر الله تعالى بها وطبقها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، واقتدى بهم العلماء الربانيون. وهذه الطريقة المثلى في التربية والتعليم والدعوة إلى الإسلام هي الحكمة والموعظة الحسنة لا الخشنة. يقول أحمد الريسوني:" **وقد كان أهم وأبرز وسائل العلماء في تحقيق ذلك: بيان علل الأحكام وغايات الإسلام ومقاصد الشريعة وأهدافها. فبينوا أن لكل حكم من أحكام الإسلام وظيفة يؤديها، وغاية يحققها، وعلة ظاهرة أو كامنة يعمل لإيجادها، ومقصدا وهدفا يقصده ويستهدفه لتحقيق مصلحة للإنسان، أو دفع مفسدة ومضرة عنه.**" (12) وقد تحقق كل ذلك في ظرف قياسي وجيز معجز لا يمكن تحطيمه. إن جلب المصلحة ودرء المفسدة والمحافظة على المصالح المرسلة لجميع أفراد المجتمع هي الأسس الثابتة التي يبنى عليها المجتمع في المنهج الإسلامي.

وهذا الخير كله قد أنجز في ثلاث وعشرين عاما فقط، هي كل عمر الدعوة المحمدية في حياته صلى الله عليه وسلم، وعمر التنزل القرآني المبارك من السماء

إلى الأرض. لقد استطاع القرآن الكريم تجسيد وتحقيق مقاصده كاملـــة، وتقـــديمها للعيان، ليظهر النموذج بوضوح، وتتجلى الصورة الحسنة والقدوة الخالدة التـــي لا وجود لقدوة خير منها. فقد وحد القبائل، وبنى الأمة، وأسس المدن والمدنيات عندما وجد المجتمع الإيماني الرباني الذي يجعل القرآن الكريم بين يديـــه، وبـــين عينيـــه وفي قلبه، للتلاوة والعمل، وليس للتلاوة وتزيين الأصوات به فقط.

لقد انغمس هذا الجيل الفريد في القرآن الكريم، حتى أصبحوا قـــرآنيين، وعلـــى رأس هذا الجيل الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفـــاء الراشـــدون، والصـــحابة أجمعون. وقد كانوا قرآنا يمشي، ومصاحف بشرية تتحرك وتعمـــل بـــه. وقـــدموا أروع الأمثلة وأبلغها وأنقاها وأرقاها في الارتباط به، وفهم مقاصده، وتطبيقه. ولم يغفلوا عنه لحظة واحدة.

وخير المنازل التي يجتمع فيها البشر هي المدن التي تطيب فيها الحياة وينشـــأ فيها الأطفال على الخير والعلم والتربية والأمل والعمل. وكل هذه المعايير متوفرة في المدينة المنورة التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية كلها في المدينة والمدنية. ولا يكون التطور البشري سوى فـــي المـــدن العامرة التي يسوسها العدل ويسودها النظام والتعاون.

إن أبناء المدن وساكنتها متطورون ومتقدمون إذا ما قيسوا إلـــى أبنـــاء القـــرى وساكنتها، وإن كان لبعض القرى إيجابياتها الأخلاقية والنفسية والصحية والسياحية كما أن لبعض المدن سلبياتها ونقائصها التي تجعل أحيانا مـــن القريـــة المفضـــولة مسكنا أطيب وموطنا أرحب من المدينة الفاضلة؛ لكن القرية أضعف وأفقـــر مـــن المدينة في كل شيء. وأهل القرى متجانسون متقاربون، أما أهل المدينة فيتمتعـــون بالتنوع والتعدد والثراء والغنى والاختلاف في كل شيء. وأهـــل المـــدن أجنـــاس ولغات ومصالح مختلفة يجمعها الأمن والعدل، والفضول وحب الاطلاع والتعـــرف والثقافات والعلوم والفنون، والفرجة والفرحة.

يقول أحمد أمين مبينا خصائص المعيشة في المدن:" **إن الدين والفن والعلم والأدب تنبع دائما من المدن، وتزدهر فيها. كان ذلك في القديم، وهو كذلك في الحديث. فأنت الآن ترى الأفكار الجديدة وآراء المصلحين إنما تنشأ في المدن أوّلا. وكذلك معاهد العلم والأدب والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف، إنما تعظم وتكثر في المدن لا في القرى.**" [13] ولا يجتمع الناس في بلدة ويستقرون فيها دون سواها، ويحتاجون راغبين أو مضطرين للإقامة فيها إلا لمصلحة ومنفعة متحققة في هذه البلدة، و"**المورد العذب كثير الزحام.**" على رأي المثل العربي القديم.

والمدن يتكاثر عليها الطلب، وتحلو فيها الحياة، وتكثر فيها المرافق، والمصالح والمؤسسات، ويحس عامة الناس فيها بالأمن والطمأنينة والحرية والحياة الكريمة المتجددة التي لا روتين فيها ولا ملل ولا فراغ. يذكر أحمد أمين بعض أسباب نشأة الدين والفن والعلم والأدب في المدن دون القرى قائلا:" **ولذلك أسباب أهمها: أن المدن أكثر ناسا وأوفر عمرانا. وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن، إما لسبب مباشر كخصب الأرض وجودتها وكثرة غلاّتها؛ أو غير مباشر، كأن تتبادل المدينة مصنوعاتها مع أمة أخرى خصبة الأرض كثيرة الغلاّت، أو نحو ذلك. وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعا من الغنى يستطيع معه أهله أن يجدوا زمنا يصرفونه في غير كسب القوت. كما يستتبع نوعا من الرقي السياسي يستطيع الناس معه أن يتبادلوا الآراء، والأفكار، وينظروا إلى الحياة غير هذا النظر المادي الوضيع، فينشأ الرأي، وينشأ العلم، ويزهو الأدب.**" [14] وهناك أسباب أخرى لنشأة المدن وتطورها في المدنية والحضارة والعمران زيادة على الرفاهية والغنى. وربما كانت هذه الأسباب الإضافية هي الأسباب الأساسية الأولية التي تنشيء الرفاهية والغنى، ولا يمكن عدها أسبابا إضافية أو تكميلية، وإن كان يعتبرها كثير من الناس كذلك.

5.الأمن والتعايش السلمي في المدن:

يفهم كثير من الناس أن المدن الإسلامية لا يعيش فيها إلا المسلمون المتدينون الملتزمون بتعاليم الإسلام، أما غير المتدينين من المسلمين، أو غير المسلمين فلا يمكن لهم أن يعيشوا مع هؤلاء المسلمين. وهذا خطأ فادح، ودعاية مفتعلة تخالف مقاصد القرآن الكريم، وتخالف دعوته الصريحة للناس إلى التعايش السلمي في ظل الأخوة الجامعة والاحترام المتبادل. يقول الله تعالى: "**وإن أحد من المشركين استجارك، فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه.**"[(15)] وهذه دعوة صريحة في القرآن الكريم للمسلمين أصحاب الحكم والسلطة والقرار، إلى حسن معاملة غير المسلمين، ومعايشتهم وحسن معاملتهم، وصحبتهم، حتى يتعرفوا عن قرب على الثقافة الإسلامية، وحتى يتعرفوا على كلام الله تعالى ومقاصده السامية التي تحقق للناس أمنهم وسعادتهم وكرامتهم. إن الناس يضربون المثل بسويسرا في الأمن الاجتماعي، ولكن المدينة الإسلامية الحقيقية هي النموذج الأفضل للتعايش بين الناس في أمن وسلام.

ولا يمكن أن تنشأ حضارة أو مدنية سوى في كنف التعايش السلمي واحترام النظام العام. يقول محمد الطاهر بن عاشور:" **إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقرأة، أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه.**" [(16)] فالمجتمع الإسلامي، كما يريده القرآن الكريم، قائم على المصلحة العامة المرسلة، والنظام العام الذي يضمن لجميع الناس حقوقهم،

إن الضمان الاجتماعي موجود، والحقوق المدنية مكفولة لكل إنسان في ظل احترام النظام العام " **ولقد علمنا أن الشارع ما أراد من الإصلاح المنوّه به مجرد**

صلاح العقيدة وصلاح العمل كما قد يتوهم، بل أراد منه صلاح أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الاجتماعية. فإن قوله تعالى:(وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل.) أنبأنا بأن الفساد المحذر منه هنالك هو إفساد موجودات هذا العالم. وأن الذي أوجد هذا العالم وأوجد فيه قانون بقائه لا يُظن فعله ذلك عبثا، ولولا إرادة انتظامه لما شرع الشرائع الجزئية الرادعة للناس عن الإفساد. فقد شرع القصاص على إتلاف الأرواح وعلى قطع الأطراف. وشرع غرم قيمة المتلفات، والعقوبة على الذين يحرقون القرى ويغرقون السلع."(17)

وكل هذه الممارسات التي تخل بالنظام العام، وفيها التقتيل العشوائي والتدمير والتخريب لا يرضاها المنهج الإسلامي القويم تحت أي مبرر كان. وليس عجيبا أن يمارسها غير المسلمين، ولكن العجيب أن يمارسها بعض المنتسبين إلى الإسلام باسم الكتاب والسنة وهما منها براء.

خاتمة: الإسلام منهج اختاره الله تعالى للبشر جميعا لحماية مصالحهم المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة، وتحذيرهم من الأخطار والأخطاء التي تهددهم في أمنهم وسلامتهم ومعيشتهم. والمسلم في المنهج الإسلامي هو من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن هو من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. إن المسلمين اليوم عندما يبتعدون عن الإسلام وتعاليمه السمحة الحنيفة وينشرون في العالم ثقافة الخوف والكراهية والفساد يسيؤون إلى الإسلام بالدرجة الأولى وينفرون الناس منه ويجعلونه في قفص الاتهام وهو من أعمالهم وأقولهم وآرائهم بريء. والنصوص الشرعية من قرآن وسنة شاهدة على براءة الإسلام الحنيف مما يصدر عن بعض المسلمين الضالين من جرائم وسلوكات يريدون تمريرها وتبريرها باسم الإسلام وهو منها بريء.

المصادر والمراجع:

1. المصحف الشريف،
2. أحمد أمين، **فجر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشرة 1975.
3. أحمد الريسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1992.
4. أحمد شلبي، **الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية عشرة 1997.
5. الراغب الإصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، المكتبة العلميّة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1400هـ ـــ 1980م.
6. الطاهر بن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
7. عبد السلام محمد الشريف، **المباديء الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.
8. كيس فيرستيغ، **اعلام الفكر اللغوي في التقليد اللغوي العربي**، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان، ج3.

الاحالات:

---

[1] كيس فيرستيغ، **اعلام الفكر اللغوي في التقليد اللغوي العربي**، ترجمة أحمد شاكر الكلابي دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان، ج3، ص80.

[2] سورة التوبة، الآية 109.

[3] سورة إبراهيم، الآية 1.

[4] **سورة الشورى، الآية 52.**

[5] عبد السلام محمد الشريف، **المباديء الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص21.

[6] **الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية عشرة، 1997، ص45.

[7] سورة الرعد، الآية 11.

[8] سورة محمد، الآية 15.

[9] **سورة الحشر**، الآية 9.

[10] **سورة إعراف**، الآية 19.

[11] **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1992، ص1.

[12] المرجع السابق، ص1.

[13] **فجر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشرة، 1975، ص170.

[14] ن م، ن ص.

[15] **سورة التوبة**، الأية 6.

[16] ن م، ن ص.

[17] **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص63.

اللّسانيّات الثقافيّة والتنوّع الثقافيّ اللّغويّ وانعكاساته على الحوار والتنميّة في اللّغة العربيّة.

أ. لامية قداش

د. صلاح الدّين يحي

جامعة أمحمّد بوقرة، بومرداس.

يعدّ البحث في التّنوّع الثّقافيّ من أجل الحوار والتّنميّة، بحثًا في **أسرار اللّغة** لأنّ اللّغة تُمثّل النّسق الحامل للأنساق الثّقافيّة وتنوّعاتها على الحوار والتّنميّة وليست اللّغة أداة التّواصل الحضاريّ للإنسان فحسب؛ بل تحمل أسرار الحوارات على مرّ العصور من جيل لآخر.

تعدّ اللّغة جزءًا مهمًّا من الذّاكرة الشّعبيّة الوطنيّة والإنسانيّة، وتوصف بأنّها وعاء ذوبان للتّعبير الإبداعيّ وقوّة دافعة للثّقافات ولاسيَّما التنوّع الثقافيّ اللّغوي للثّقافة والموروث الماديّ واللاّماديّ؛ حيث يمثّل التّنوّع الثقافيّ الشفاهيّ والمكتوب حياة المجتمع من اللّغة واللّهجات والعادات والأعراف والتّقاليد والطقوس والمعتقدات والممارسات الشّعبيّة والاحتفالات والأعياد الدّينيّة والمِهن والحرف والألعاب والأحاجي والألغاز والأمثال والحكايات الشّعبيّة والشّعر والأدب الشّعبيّ والأدب العامي والغناء والموسيقى وفنون الاستعراض والرّقص الشّعبيّ ... كلُّها جزء من التّنوّع الثّقافيّ اللّغويّ–اللّسانيّات الثقافيّة.

ومن هنا جاء هذا البحث ليجيب عن الإشكاليّة الآتية: كيف تمثّل التّنوّع الثقافي في اللّغة؟ أباعتبار اللّغة أداة تواصل وحوار؟ أم باعتبار اللّغة أداة وصل بين الأجيال؟ أم هي تركيبات التنوّع الثّقافيّ؟ ألم تتجسّد في التّركيبة اللّغوية لكلّ مجتمع؟ أين تكمن أهميّة صون التّنوّع الثّقافيّ؟ هل التّنوّع الثّقافيّ داخل اللّغة الواحدة؟ أم أنّ التنوّع الثقافيّ في التّعدّد اللّغويّ؟ أيكمن التّنوّع الثّقافيّ في اللّهجة أو

اللّهجات في اللّغة الواحدة؟ أيعتبر تنوّع اللّهجات في اللّغة الواحدة مظهرًا من مظاهر التنوّع الثقافيّ في اللّغة؟ كيف، ومتّى، وأين يتمثّل؟

***أوّلا: اللّسانيّات والثّقافة علاقة الثّقافة باللّغة:** يعتبر النّظر في مفاهيم اللّغة والثقافة باعتبارهما مقوما من مقومات المجتمع أداتا تواصل وواصل اجتماعيّ وثقافيّ وإيديولوجيّ سياسي واقتصادي مفهومات بسيطة لا ترقى إلى التّصوّر الدقيق والعلميّ لهما، فاللّغة باعتبارها مفتاح كلّ العلوم؛ يمكن اعتبارها آلية من آليات الخروج-كما نعتقد-وكمبدأ أساسي لكلّ المعارف والعلوم فهي الّتي تحويها في لذاتها ولغيرها، كوسيلة لاكتساب المواد المعرفيّة الأخرى فلا يمكن تحصيلها إلاّ باللّغة كما أنّها لا ترقى إلاّ بها، ولا وجود لأيِّ مادة علمية دون لغة تؤخذ بها ولا وجود لأيّ فوارق أو فواصل تربطها وتفصلها إلاّ اللّغة، كما يذكر رمضان عبد التواب: "أنّ علم اللّغة له صلة وثيقة بعلوم أخرى؛ فقد درسنا من قبل شيئا من علم الاجتماع اللّغويّ، وعلم النّفس اللّغويّ، كما عرفنا أنّ عالم اللّغة لابد له من الإلمام بعلم الفيسيولوجيا، أو وظائف الأعضاء، وعلم التشريح، وعلم الطبيعة في دراسة الأصوات اللّغويّة بأنواعها المختلفة."[1]ومن العلوم الّتي تحظى باتصال مباشر باللّغة هي الثقافة الّتي تمثِّلُ الوجه الآخر للّغة وتتصل بها اتصالا مباشرا؛ وإذا بحثنا عن مفهوم الثقافة في المعاجم اللّغويّة نجده قد تعدّدت دلالات مصطلح الثقافة باختلاف السياقات الّتي نوظف فيها هذه المصطلح لقصد معين فقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور الثقافة من ثقف: "ثَقِفَ الشَّيءَ ثَقْفًا وثِقَافًا: حَذَّقَهُ، ورَجُلٌ ثَقْفٌ، وَثَقِفٌ وثَقُفٌ، حَاذِقٌ فَهِمٌ،... وثَقِيفٌ لَقِيفٌ بَيْنَ الثّقَافَةِ واللَّقَافَةِ."[2] فإذا نظرنا في معاني الثقافة اللّغويّة وجدناها متعدّدة منها على دلالة السّيف والرماح والأثر وكلّها دلالات لغويّة ذكرها ابن منظور، وأمّا دلالة هذا المصطلح فتضبط حسب السّياق المقصود له، ولم يكن مصطلح الثقافة متعدّد الدّلالات في المعاني اللّغويّة له؛ بل نجد انعكاسا كبيرا للمفهوم اللّغويّ على المفهوم الاصطلاحي، "ويعتبر تحليل

مفهومي الثقافة والمثقفين من وجهة نظر السوسيولوجيّة ليس بالأمر اليسـير علـى الإطلاق نظرا لتّعدّد التعريفات واختلافها من ناحية ولاختلاف الباحثين مـن جهـة أخرى، ولاختلاف التوجّهات الأيديولوجيّة من ناحية ثالثة، ولاختلاف الاتجاهـات النّظريّة في مجال علم الاجتماع من ناحية رابعة، ولاختلاف السّـياق الاقتصـادي الاجتماعي السياسي الثقافي من ناحية خامسة، ولاختلاف البعد المكاني الجغرافـي من ناحية سادسة، ولاختلاف البعد الزّماني من ناحيّة سابعة... فالثّقافة كمفهوم من وجهة نظر العامّة تعني الحذاقة والفطنة والفهلوة وكثرة المعلومات والمعرفة.

في حين تعني الثّقافة من وجهة نظر الخاصّـة؛ أعنـي المتخصّصـين الّـذين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: يرى أنّ الثّقافة تعني الجانب الّذي يشمل على العـادات والتقاليـد والأعراف وما إلى ذلك.

القسم الثّاني: فيؤكد أنّ الثّقافة في معناها تتضمن الجانبين (المادي والمعنـوي) بكلّ ما فيهما من تكنولوجيا وآلات وأدوات... الخ، فضلاً عن العـادات والتقاليـد والقيم... إلى غير ذلك.

والقسم الثّالث: يستخدم مفهـوم الثقافـة Culture بوصـفها مرادفـاً لمفهـوم الحضارة Civilization.

ويعتبر الفريد فيبر A.Weber من أبرز هؤلاء الّذين قدّموا تفرقة واضحة فـي هذا الإطار إذ استخدم مفهوم الحضارة بهدف الإشارة إلى المعرفة العلميّة ومـدى سيطرتها على الموارد الطبيعيّة؛ على حين يظهر استخدام **مصـطلح الثّقافـة فـي النتاج الفنّي والدّيني والفلسفي للمجتمع.**"[3]وإذا أردنا ضبط مصطلح الثّقافة اللّغويّ أو الاصطلاحي بما تعنيه من قيم وضوابط المجتمع وفكره وسلوكه الّذي ينتظم بـه من خلالها فلابدّ من ربطها بسياقها اللّغويّ أو النّظام اللّغويّ الّذي تتركب وتتفكّـك من خلاله، "وإذا كان مدلول الثّقافة **(ملكةً)** في العلم وإتقاناً في العمل، **فَغَيْرُ مُمكـن**

أن ترسخ هذه الملكة ويحصل هذ الاتقان بدون لغة، إذ هي (مفتاح عام) لأبــواب العلوم والآداب والفُنون، ورسول أمين لأفكار الإنسان، ومظهر صادق لشــواعره ومرآة صقيلةٌ تنطبع عليها عواطفه وغرائزه.

ولولا اللّغة لبقيت جميع الأشياء مُبهمة الأسماء، مجهولة الدِّلالــة، مُهملــة الوظائِف."[4]وقد توهم العديد من الباحثين والعامّة في أذهانهم أنّ اللّغــة ليســت إلاّ وسيلة أو أداة أو آلية يمكن استعمالها أو اغفالها لا أهمية كبرى لهــا، ولا ركيــزة عليها "وليست علاقة اللّغة بالثّقافة علاقة وسيلة حسب رأي بعض المتطفِّلين علــى العلوم الإنسانيّة؛ إذ قد زعم هذا البعض أنّ اللّغة ما هي سوى وســيلة مــن شــتَّى وسائل الحياة، التي لا تحصى عدًّا.

ومن كان كذلك فلا شخصية له، ومن لا شخصية له فلا ثقافــة لــه، ومــن لا ثقافة له فحظُّهُ في الحياة تقليد أعمى، أعاذنا الله منه! ولسنا بمُخطئــين عنــدما نُصرِّح بأنّ علاقة الثقافة–باللّغة–بمثابة –علاقة–الروح بالجسد.

فالثّقافة روحٌ، واللّغة جسد، فلا يُمكنُ استغناء أحدِهما عن الآخر؛ مــا دامــت الثّقافة ثقافةً، واللّغةُ لُغَةً في مفهومها بالأصالة، إنّ الشرائع السّماويّة والقــوانين الوضعيّة والتقاليد المُتّبَعة والعادات الموروثة؛ كلّها قد تجسَّدَتْ في اللّغة."[5]فاللّغــة علم يجهله العامّة، وقوامها ركيزة يعلمها علماء اللّغة الّــذين لا يســتنكفون ولا يستكبرون ويعجبون من أسرارها، وأما الّذين يستنكفون فهم يجهلون علم اللّغة.

***أوّلا: اللّسانيّات الثّقافيّة والتّنوّع الثّقافيّ:** تدرس اللّسانيّات الثّقافيّة اللّغة مــن زاويّة الثّقافة، واللّغة وعلاقاتها بالثّقافة، ثمّ اللّغة والتّنوّعــات الثّقافيّــة والأشــكال الثّقافة المختلفة؛ كون اللّغة وعاء يحوي الثّقافة والمجتمع، ولاسيّما التّنوّع الثّقــافيّ اللّغويّ للثّقافة والموروث الماديّ واللاّماديّ؛ وأمّا عن قضايا اللّسانيّات الثّقافيّة فهي كثيرة ومتنوّعة، كالتّنوّع الثقافيّ الشفاهيّ أو المكتوب يــأتي فــي قمتهــا اللّغــات واللّهجات والعادات والأعراف والتّقاليد والطقوس والمعتقدات والممارسات الشّعبيّة

والاحتفالات والأعياد الدّينيّة والمِّهن والحِرف والألعاب والأحاجي والألغاز والأمثال والحكايات الشّعبيّة والشّعر الشّعبيّ والغناء والموسيقى وفنون الاستعراض والرّقص الشّعبيّ، فاللّسانيّات الثقافيّة أحد فروع علم اللّسانيّات الاجتماعيّة الّتي نالت اهتماماً ملحوظا في العصر الحديث، وتهتم اللّسانيّات الثّقافيّة بدراسة جوانب التّنوع الثّقافيّ وعلاقاتها باللّسانيّات الجغرافيّة (الأطالس اللّغويّة) واللّسانيّات الأنثروبولوجيّة.

وتعتبر اللّسانيّات الأنثروبولوجيّة Anathropological linguistic في نظر علماء الأنثروبولوجيا بأنّها تدرس العلاقة بين اللّغة والثّقافة،ومن أهم الموضوعات الّتي نالت اهتمام علماء اللّغة الأنثروبولوجيّين، ومجال الأنثروبولوجيا هو دراسة المجتمعات والثّقافة للكشف عن سلوكيّات الناس المتأثرة بالأشكال الثّقافيّة المختلفة فالثّقافة في نظرهم أسلوب حياة.

ومن هنا فإنّ للّغة مكاناً بارزاً في الدرس الثّقافيّ، فإلى جانب كونها وعاء للمعرفة والفكر والثّقافة فهي–أيضا–مرآة لثقافة المجتمع، ترقى برقيه وتتحدر بانحداره، فاللّغة اتصال وعلاقة بالمستوى الثّقافيّ للجماعة، أيضاً للّغة دور في تشكيل ثقافة المجتمع وأسلوب تفكيره؛ حيث إنّ الثقافة واللّغة كلتيهما تلعبان دورا مهما في تكوين المجتمعات الإنسانيّة أو التّجمعات العرقيّة المتميزة Ethnic Groups."[6] أي لا وجود لمجتمع دون لغة وثقافة، ولا وجود للّغة دون مجتمع وثقافة، كما أنّه لا وجود لمجتمع دون ثقافة ولغة، ولا وجود للثّقافة دون مجتمع ولغة.

1–**دوروحدة اللّغة في ثقافات الشُّعوب:** يذكر محمّد بن عبد الكريم الجزائري في العلاقة الجامعة بين اللّغة والثقافة:" فاللّغات ما هي سوى كائنات حيّة، تنمو بنمو ثقافات الأمم وحضاراتهم وتجمد بجمود أهلها،.. والزُّهد في التّراث اللّغويّ واللّغة تحفظ كيان الأمّة، وتحمي أنظمتها وثقافتها من وصمة التقليد الأعمى، وهي

المسئولة أيضا عن جمودها وموتها لا ريب في ذلك."[7] فإنّ غياب ثقافتنا اليوم مـــا هو إلاّ دليل على غياب اعتزازنا بلغتنا؛ حيث أصبحنا نفقد الثّقة بلغتنا، وأصـــبحنا نتنكر للأرومة، ومن حيث إنّ الثقافة تتولد من رحم اللّغة، وتخترع مـــن ألفاظهـــا ومقاطعها وتتجسد في سلوكنا بحسب أمزجته ومتطلّبات معاشنا أثنـــاء حياتنـــا، ولا تستقر ثقافتنا ما لم تستقر لغتنا في المواطنة اللّغويّة للأفراد.

ومن ماهية المواطنة اللّغويّة بمفهومات البسيطة: الإقليم الّذي تقـــيم بـــه اللّغـــة ويتداولها الأفراد الّذين يقيمون بهذا الإقليم الجغرافي، والوطن: "هو المنزلُ تقيم بـــه وهو موطن الإنسان ومحلُّه."[8]ويذكر صالح بلعيد مفهوم المواطنـــة اللّغويّـــة فـــي الاصطلاح: "إنّ المواطنة على وزن مفاعلة؛ أي المشـــاركة مـــن الجـــانبين مثـــل المساهمة، وتعتبر علاقة تبادلية بين فرد وفرد، وبين جماعة وجماعة في علاقـــتهم جميعا بالوطن حتّى يمتزجا في لحمة واحدة."[9]وتوضح المواطنة أوجـــه التشـــارك المعنوية والمادية بين أبناء الوطن في الجوانب المادية والمعنوية كاللّغـــة والثقافـــة والدّين والعرق وكلّ القضايا الاجتماعيّة.

2-**اللّسانيّات الثّقافيّة والثّقافة اللّغويّة:** يشير صالح بلعيد إلى مفهوم خاص من المواطنة وهو المواطنة اللّغويّة فيقول: "وأمّا المواطنة اللّغويّة فتتمثّل في اللّغة الأمّ الّتي نفكِّر بها، ونهرع لاستعمالها أثناء الخوف، ونتعامل بها في الحميميات وهـــي الّتي تتدفّق من متلاغيها اندفاقا، فلا يمكن أن تكون مثل اللّغة الأجنبية حتّـــى لـــو أتقنها المتعلّم اتقانا فتكون شخصيته مفتعلة."[10] وإذن يتبـــيَّنُ أنّ مفهـــوم المواطنـــة مفهوم عام يشمل كلّ ما يلتزم به المواطن من أداءات وظيفية ترتبط بالوطن، "وهذا المصطلح في أصله يستعمله السياسيون بقصد الانتماء للـــوطن، ضـــمن منظومـــة الحقوق والواجبات الّتي هي من حقوق أي مواطن."[11]وعلى رأس هـــذه المفـــاهيم مفهوم المواطنة اللّغويّة الّتي تتم فيها أنظمة المجتمعات، "وليست اللّغة مجموعـــات من الأصوات ومقاطع من الكلمات؛ ينطق بها الشّخص حسب ذوقه وهواه، بل اللّغة

في جوهرها مرآة صقيلة، تنعكس على أديمها عاداتُ الإنسان، وقيمُــهُ، وتقاليــدهُ وتتبلور فيها أنظمة المجتمعاتِ ومُثُلها."[12]فلا وجود لمجتمع ما لم توجد لغة لــه ولا وجود لثقافة ما لم توجد لغة تحويها على مدى العصور؛ لأنّــه لــم تصــلنا ثقافــة المجتمع الجاهلي أو الإسلامي أو الأموي أو العباسي ما لم تصلنا لغة تحمل هــذه الثقافات وغيرها. "وهي اللّغة الأمّ هي تلك الّتي ازدوجت بها شخصــية الإنســان فأصبحت توأمه، وبقية ما أجاده من لغات لا تعدو أن تكون محفوظات يعود إليهــا عند الحاجة."[13] فهي محفوظة في أذهان الناس والأفراد الّذين ورثوها في حيــاتهم عن أباءهم وعن أجدادهم في سيرة حياتهم خالدة في عقولهم مــع لغــتهم. "فكــلّ شخص تنكر للغته فقد شذ عن مجتمعه وفقد عضويته منه، وأضاع شخصيته عــن عمد؛ لأنّ عملا مثل هذا يعدُّ خروجا على ما هو مألوف بين البشر، وتمرداً علــى ما هو ما ألفه الناس حوله، وتوطؤوا عليه؛ من حيث الأساليب، والصّيغ والقواعــد **وكلُّ خارج ومتمّرد على النظام اللّغويّ يعتبر-أيضا-خارجا ومتمّردا على النظــام الاجتماعي**، الّذي-هو-يعيش فيه؛ **فأيّة لغة كانت في العالم؛ ما هي سوى نوعٍ من أنواعِ السلوك الاجتماعي**."[14] فإنّ النظام اللّغويّ لأي مجتمع كــان هــو ضــابطه الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتاريخي وكلّ مقوّمات الحيــاة لديــه فإذا تنكر الفرد أو المجتمع للغته فإنّه يعيش في متاهات بعيدة عن أصوله ومبادئــه لا يثبت لنفسه وجود في هذا العالم.

فالعلاقة بين مفهوم المواطنة ومفهوم الثقافة الوطنيّة هــي علاقــة مشــاركة إبداعية في خلق فضاء وطني جديد متجدّد يتجنب العزلــة والانكفــاء، ويحــارب التعصب والشوفينية، ويؤسس للاندماج والوحدة على قاعدة الديمقراطية واحتــرام التّعدّد وصيانة حقوق الانسان."[15]وحقوق المواطنة "لا شكّ في فاعلية قيم التســامح والعفو والمغفرة والتجاوز والعدل والإحسان، ولا شكّ في قدرتها على خلق منــاخ يستوعب التّعدّد **العرقي والطائفي والدّيني**، لكــن إشــاعة هــذه القــيم لا تؤســس

للاعتراف بالأخر الّذي هو حقيقة التسامح وجوهره، وإنّما تسعى لقبوله وقبول التعايش معه، وثمة فارق كبير بين قبول الآخر والاعتراف به، فالحالة الأولى يفرضها الواقع والمصالح المشتركة، بينما الحالة الثانية تعبر عن وعي لا تخالطه نوازع التعالي الناشئ عن عقيدة التفوق العنصري أو الاجتماعي أو الدّيني أو المذهبي أو الثقافي."[16]وبذلك تصبح المواطنة اللّغويّة بأنّها "استعمال اللّسان في كلّ المؤسسات والأماكن العامّة، وقضاء المصالح الإدارية وإنّ المواطنة اللّغويّة فضاء لغويّ ممتدّ تأخذ فيه اللّغة الرّسميّة النصيب الأوفى انطلاقا من أنّ تربيّة المواطن تحصل أولا باللّغة الرسمية وعدم احتقار الوطنية، وتعزيز الثّقافة الوطنيّة بنقل المفاهيم الوطنيّة للطفل وبثّ الوعي بتاريخ الوطن وانجازاته والاهتمام بمختلف الأنشطة الثّقافيّة، وخاصّة الثّقافيّة الّتي تنسج في الغالب علاقة مميزة بين المواطنين بتحسيسهم أنّه جزء من ذواتهم."[17]وليست اللّغة وسيلة للتّعلم والتّعليم كما ينظر لها بعض الافراد من الناس والمعلمين والمتعلمين فيذكر محمّد كمال بشر دور اللّغة في الحياة، وليس "يقتصر دور اللّغة على تيسير التحصيل والاستيعاب للمواد الدّراسية إنّها بالإضافة إلى ذلك–تمد المتعلم بعامل مهم من عوامل النجاح في الحياة العامّة إذ تمنحه القدرة على أن يتعامل بالكلمة تعاملا لبقا ذكيا، فيتحدث ويناقش بوضوح وتركيز ويقرأ ما تقع يده عليه ويفهمه في جلاء وعمق، وهذ الضرب من استغلال اللّغة وفنونها من شأنه أن يفتح للإنسان في الحياة مجالا أوسع ويسبر به في دنيا الثقافة إلى مدى أرحب."[18] إذ يتبيَّنُ من امتلاك الفرد اللّغة امتلاكا علميا كبيرا للعلوم والمعارف الثقافيّة المتنوِّعة والمتشعبة بكلّ ما فيهما من تكنولوجيا وآلات وأدوات... الخ فضلاً عن العادات والتقاليد والقيم... إلى غير ذلك.

* **ثانيًا: اللّسانيّات الثّقافيّة والمواطنة اللّغويّة في الجزائر (صالح بلعيد ومحمّد بن عبد الكريم الجزائريّ)**: يأخذ موضوع المواطنة اللّغويّة في الجزائر موقعا رئيسيا من بين المواضيع الّتي شغلت أبناء الجزائر منذ القديم حتّى في زماننا هذا

الحديث والمعاصر؛ لأنّ الجزائر كغيرها من البلدان المتقدّمة تتمتع بتنوع وتعدّد لغويّ لا يمكن عدم الإقرار به، وقد شغل هذا الموضوع فكر العديد من الباحثين المعاصرين–على رأسهم صالح بلعيد–إذ يقول: "إنّ اللّغة الأمّ تتمثّل عندنا في لغة الضّاد؛ وهي لغة حيّة تنبض بالقرآن وفي رحمها آليات التّكيف، وهي لغة الثبات والبقاء، ولها المرونة على التغلّب والاشتقاق النّاجح. والاشتقاق سرّ الجمال اللّغويّ ونهضته، وبه ترتبط الأفعال والأسماء بعضها ببعض ومن هنا فأنا في موقف الدفاع عن الحقّ المسلوب للعربيّة من قبل الأباعد والأقارب، فألفت لمن يهمه الأمر بأنّ إحياء العربيّة لا يكون برصف أفكار عربيّة من صنع الخارج، وإنّما بهدف تنمية اللّغة من داخلها باعتبارها من اللّغات المتقدّمة العريقة، ولم يسجّل عليها التاريخ عجزا عند السّلف، بل كانت تتمتع بقوّة جيدة، فاقت كلّ اللّغات، فإذا أدركها الخلل والنّقص فيعود إلى الخلف."[19]ويقر الأستاذ صالح بلعيد بضرورة التمسك بلغتنا العربيّة ولحمولتها الثقافيّة الّتي يرثها أبناء الجزائر على أباءهم وأجدادهم من زمن قديم جدا غيره الاستعمار الفرنسي في أقاليم عديدة من المجتمع الجزائري "هي سياسة فرنسا اللّغويّة والثّقافيّة الّتي تختفي وراء مصالح اقتصاديّة ورغبة في الهيمنة على الشّعوب، وكيف انطلت هذه الخدعة الاستعمارية الخبيثة على الكثيرين حتّى على بعض مثقفي هذه الشّعوب المغلوبة أنفسهم."[20] إذن طمس اللّغة هو طمس للثّقافة والهويّة الوطنيّة للشّعب والمجتمع.

1–التّنوع الثّقافيّ وانعكاساته على الحوار والتّنميّة في الجزائر: ينظر بعض المتزمتين من المجتمع الجزائري إلى البحث في المواطنة اللّغويّة بأنّه بحث عقيم لأنّ اللّغة الأمازيغيّة لغة الجزائر وتحمل ثقافة كلّ الجزائريّين، ومن وجهة نظر هؤلاء الّذين يريدون زرع الفتنة لا الإيمان بأنّ شعب الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي اعتنق الإسلام والعروبة ولم يكن هناك صراع بين اللّغة العربيّة واللّغة الأمازيغية وليس هناك صراع بين الثّقافة العربيّة ولا الثّقافة الأمازيغيّة، وتوّحدت

لغات الجزائر البربرية في اللّغة العربيّة "**فإن قال قائــل:** كيــف تُتكــرون علــى الشُّعوب الّتي استبدلت لغات غيرها بلغاتها، ثمَّ تُحبذون استعمال اللّغة العربيّة فــي الأقطار الّتي ليست للعرب بالأصالة؛ مثل مصــر، وإفريقيــة الشــماليّة، وجميــع الأقطار الإسلاميّة على وجه العموم؟!**قُلنا:** إنّ شعوب هذه الأقطــار وقبائلهــا قــد اعتنقوا الإسلام، ليتَّخذوه دينًا وشريعةً لهم، وليستوحوا منــه **أخلاقهــم وثقــافتهم وحضارتهم وليستفيدوا سعادة في الدُّنيا والآخرة.**"[21] وبعد هذا آمنت هذه الشّعوب باللّغة العربيّة إذ غدت لغة حياتهم، ولغة ثقافتهم وعــاداتهم الّتــي اكتســبوها مــن الإسلام، فلا تجدهم يقيمون عاداتهم وأخلاقهم وأعرافهم وممارساتهم الاجتماعيّة إلاّ في نطاق هذه الثقافة العربيّة الإسلامية الّتي اعترف بها الأمــازيغيون وأصــبحت تمثِّلُ نظامهم الاجتماعي والثقافي، بعيــداً عــن النّــزاع بــين اللّغتــين العربيّــة والأمازيغيّة. يقول صالح بلعيد: "**اللّغة الأمّ للشعب الجزائــريّ** الّتي جعلته وتجعلــه متِّصلا بوسطه وبأبناء مجتمعه، وعن طريقهــا يكتســب الجزائريــون مــواطنتهم ويتواصلون مع غيرهم من العرب، وبعض المسلمين وبهــا يكتســبون مهــاراتهم ويرتبطون في ما بينهم بتراثهم وحضارتهم.

إنّ من يملك زمام **اللّغة الأمّ يمتلك بالضرورة ثقافة يدافع بها عن عقــل أمّتــه فثقافة كلّ أمّة كامنة في لغتها، والعربيّة أبرز ملامح ثقافتنا، وهي أكثــر اللّغــات الإنسانيّة ارتباطًا بالهُّويّة الثّقافيّة، وإذا وقع تركيزي على الجانب الثّقافي لمعرفتي بما للهويّة من أثر نفسي ومادي؛ باعتبارها تــربط الحاضــر بالماضــي وتحفــز الهمّة في الحال، وتنير الدرب، وتعمل على تغييــر الواقــع، فالهويّــة الثّقافيّــة (اللّغويّة) مبدأ ثابت، وحقّ من الحقوق الّتــي أكّــد عليهــا الشــرع والأعــراف والقوانين؛ لأنّ اللّغة نافذة الشّخصيّة ومرآة العقل؛ وهي المقوِّمُ الأهــمّ لتشــكيل الأمّة والحفاظ على وحدتها، وبناء ثقافتها.**"[22]واللّغة عامل من عوامــل اكتســاب الثقافة والشّخصيّة لدى المجتمع إذ ضاعت اللّغــة ضــاعت شخصــية المجتمــع

وضاعت ثقافته السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والتاريخيّة "نحن لا نرتاب-أبدا-في أنّ وحدة اللّغة عامل من العوامل الأساسية لازدهار ثقافة كلّ أمّة وانتشار حضارتها عبر الأجيال والعصور، منذ بداية التاريخ البشري، ومنذ استئناس الإنسان بأخيه واحتكاكه به."[23]ولم يكن ببعيد ولم يكن بالمستحيل على المجتمع الجزائري بتنوع لغاته ولهجاته وثقافاته البربرية من الأمازيغية والشاوية والميزابيّة والترقية والشّلحية... وغيرها أن توحدها اللّغة العربيّة.

والمراد بوحدة اللّغة توحيدُ مُختلف اللّهجات المحلِّيّة، وصهر جميع اللّغات الأجنبية في لغة وطنيّة واحدة، قابلةٍ للقراءة والكتابة بالأصالة.

فجميع اللّهجات المحلّيّة-عندنا في شمال إفريقيا مثلاً-كالعاميّة والبربريّة؛ بما فيها القبائليّة والشاويّة، والميزابيّة، والشلحيّة، والتوارقيّة؛ كلّها ليست لغة ثقافة بالنّسبة إلى شمّال إفريقيّة؛ **لأنّها غير قابلة للقراءة والكتابة؛ زيادة على عدم توحيد ألفاظها وأساليبها.**" وهذه حقيقة ملموسة عند هذه الشّعوب في شمال إفريقيّا وخاصّة في الجزائر الّتي زُرعت فيها الفتنة بين اللّغة العربيّة واللّغة الأمازيغيّة البربريّة المتعدّدة اللّهجات فهي أكثر من ستة لهجات مختلفة منتشرة في أقاليم مختلفة من الجزائر

1-القبائلية: إقليمها الجغرافي ما بين /تيزي وزّو/بجاية/ بويرة/وجزء من /سطيف/ وبرج بوعريريج/ و/بومرداس/ وجيجل/

2- الشاويّة إقليمها الجغرافي ما بين/باتنة/ تبسة/خنشلة/أم بواقي/ وجزء من /بسكرة/وميلة/وسطيف/وقالمة/وسوق أهراس/،

3- الميزابيّة: إقليمها الجغرافي /غرداية/ وما جاورها من المناطق الحدودية لها،

4- الترقيّة (توارق) إقليمها الجغرافي /تمنراست/ إليزي/ أدرار/.

5-الشلحيّة: إقليمهـــا الجغرافـــي /البليدة/المديّة/البيض/النعامـــة/وترتكز أكثـــر في/بشار/تلمسان/عين الدفلى/تيبازة/تسمسيلت/شلف/.

6-الشنوية: إقليمها الجغرافي تعرف بقبائل التل الشناوة (اشـــنوين) والشـــلوح السواحلية (اشلحين) وهي لا تزال تستعمل بكثرة في ولاية /تيبـــازة/ المديـــة/عين الدفلى/ شلف/ شرشال/. كلّها ليست لغة ثقافة؛ لأنّها ولأسباب علميّـــة شـــهد بهـــا القدماء وهي كالآتي:

-لأنّها لغات شفاهية ليست مدونة؛

-لم تكتب بأي خط كان، منذ بدايات وجودها الأولى فهي عبارة عن طلاسم؛

-لم تكتب بخط واحد، وتخلف حروفها وأصواتها ودلالاتها كتبت بـــأجزاء مـــن الحرف اللاتيني والحرف العربي، ثم الحرف اللاتيني؛

-تختلف أقاليمها في الجزائر بين الشّمال والجنوب، والشّرق والغـــرب، وفـــي المناطق الوسطى وبين الشّمال الشّرقي والشّـــمال الجنـــوبي والجنـــوب الشّـــرقي والجنوب الغربيّ؛ ومن حيث زمن وجودها التاريخي؛

-تخلف في نطقها وفي دلالة مصطلحاتها مثلا الشاويّة تختلف عن الأمازيغيّـــة اختلافا شاسعا؛

-عدم توحد ألفاظها وأساليبها؛

-كلّها ليست لغة الثقافة الجزائريّة؛

-لأنّها لغات غير قابلة للقراءة والكتابة بالأصالة؛ أي حروفها الأصلية التيفيناغ مثلاً.

وقد أقر الأجداد قديما بتوّحدها على يد اللّغة العربيّة، كما توّحدت لغات العـــرب في لغة واحدة؛ ألاّ وهي لغة قريش. وأمّا اللّغات الأكثر شيوعا في الأسرة اللّغويّـــة البربرية في شمال إفريقيا هما اللّغتان الآتيتان:

أ-الشاوية Chawi وتنتشر في نيجيريا، ويتكلم عشرة آلاف. وبعــض الأقــاليم الوسطى والشرقية من الجزائر.

ب-الأمازيغية Tamasheq وتنتشر في منطقة القبائل في الجزائــر والمملكــة المغربية، ولها وجود في مالي والنيجــر، والنــاطقون بهــا يتجــاوزون مليــوني نسمة."[24] وهما رغم انتشارهما الواسع يختلفان أكثر ما يتفقان مــن حيــث المبنــى والمعنى اللّغوي والأقاليم الجغرافية والأزمنة.

وإنّ عامل توّحد اللّغات الجزائريّة لدى القدماء في لغة وطنيّة واحدة هي اللّغــة العربيّة باعتبار "أنّ اللّغة عامل ثابت ومؤثر من عوامل التقدّم والتّحوّل إلى مجتمع المعرفة وهي أداة التبادل المعلوماتي والمعرفي، فكلّما كانت اللّغة ثريــة موحّــدة أصبحت عمليّة إشاعة المعارف عملية ميسورة، ومن ثمّ يتكوّن مجتمــع المعرفــة القائم على حسن استخدام اللّغة."[25] وإنّ اللّغة العربيّة وبمكانتهــا القديمــة والحديثــة والمعاصرة قد ألمت شتات اللّغات العربيّة القديمة، وألمت شــتات اللّغــات شــمال إفريقيا والأكثر من التّنوع الثّقافي وانعكاساته على الحوار والتنمية بين اللّغات، "إنّ اللّغة عنصر أساس في جوهر الهوية الوطنية، فعن طريقها يعي المــواطن تــراث آبائه، وبها يعيش عصره، وفيها يتنفس مواطنته، إلى جانب أنّ اللّغة هي الوســيلة المشتركة بين الأفراد؛ والّذين قد لا يجمعهم الدّين أو التــاريخ، ولكــنّهم تجمعهــم المصالح المشتركة، واللّغة خير من بجسّد لمّ شمل من اختلفت مشاربهم؛ ومن هنــا فإنّ اللّغة أقوى عوامل الهوية، باعتبارها واقعا وطموحا، وخاصّة عندما تكون مثل العربيّة لغة الدّين، فهي لا تحيد عن المعتقد والأصالة، وهي لغة المستقبل باعتبارها لغة الواقع والخطاب المعاصر."[26] وقد حفظت اللّغة العربيّة كلّ التنوعــات الثّقافيّــة البربريّة الأمازيغيّة التّراثيّة الجزائريّة؛ لأنّ الاكتساب اللّغويّ العربيّ الّذي حصــل لأجدادنا عند اعتناقهم للإسلام، واللّغة العربيّة ليسا لطسم الهويات الثّقافيّة ولغاتها أو لمسحها وقصر حصر انتشارها بقدر ما كانت اللّغة العربيّة تكافُؤ وتكيف وتعــايش

للاندماج مع اللّغات الجزائريّة الأخرى وتنوعها الثّقافي، وخير دليل على ذلــك أنّ اللّغة العربيّة في أرقى عصور ازدهارها لم تطمس لغات الإغريق والهنود والفرس واليونان والرومان بقدر ما احتفظت بها وبعلومها، وخير دليل على ذلــك وجــود ألفاظها في القرآن الكريم فقد حافظت على علومها يقول هارالدموللر فــي كتابــه تعايش الثّقافات مشروع مضاد لهنتنغنون: "يمثّل العرب أمّة غنية في العالم، وقــد حفظت اللّغة العربيّة، والعلماء العرب كنوز المعرفة الّتي حققها الإغريق والرومان في العصور القديمة عندما كانت أوروبا تغط في (عصورها المظلمة)، ومــن دون هذا الجهد التاريخي الّذي قام به العرب، ما كان لنا أن نكون عليه الآن."[27]حتّى إنّ اللّغة العربيّة حملت هذه الحضارات من الثقافات ما لم تحفظه لغاتها الّتي انــدثرت واضمحلت بزوال أصحابها.

ومن التّنوع الثّقافيّ في الجزائر وجود العديد من الأفراد مــن مختلــف الأقــاليم الجزائريّة يتكلمون اللّغة الفرنسية ويتباهون بالثقافة الفرنسية في الجزائر على اعتبار أنّ اللّغة الفرنسيّة والثقافة الفرنسية أرقى من اللّغات الجزائريّة كلّهــا حتّــى اللّغــات الجزائريّة الأصليّة الّتي وحدتها اللّغة العربيّة، ومعلوم أنّ اللّغات الحديثــة الفرنســية والإنجليزية والألمانية والبرتغالية والإسبانية لغات مصطنعة ليست أصيلة أي أنّها في الأصل كانت لهجات تتفرع من اللّغة اللاتينية الأصل وهــي فــروع عنهــا "فاللُّغــة الفرنسيّة مثلاً ليست لغة ثقافة بالنّسبة إلى شعوب المغرب العربي؛ لأنّهم لا يتكلّمونها بالأصالة، وليست هي لغتهم الوطنيَّة، النابعة من صميم مجتمعهم، بل هي شعار مــن شعارات العدُّوِ الغازي لأوطانهم؛ من أجل احتلالها واستعباد النّسمات بها.

ومن الخذلان الفظيع أن تبقى هذه اللّغة عالقة بألسنتنا مُكرَّمةً بيننا، مقدّمة فــي مدارسنا ومعاهدنا مبجّلة في جامعاتنا، وإداراتنا، مستعملة فــي مختلــف شــؤونِنا الوطنيّة، ثمّ من المستغرب جدًّا أن تبقى هذه اللّغة معمولا بها في معاملاتنا اليوميّة وأن تبقى رائجة بين أسرنا في منازلنا!"[28]إنّه من العيب الوخيم والعار العظــيم أن

تكون هذه اللّغة–الفرنسية–الّتي أراد المستعمر أن يفرضها فرضا علينـــا أن تبقـــى لزماننا والّتي أراد المستعمر بها أن يمحو نحو طمس الثقافة والهويّـــة الجزائريـــة وينشر نحو الأميّة.

2–نماذج من التّنوع الثّقافي في الجزائر: الجزائر بلد غني بالتنوع الثقافي بين مختلف لغاته الأصلية الّتي وحدتها اللّغة العربيّة مع دخول الإسلام، فجمعت اللّغـــة العربيّة بين التّنوع الثقافي القبائلي والشاوي والميزابي والتـــوارقي وغيرهـــا مـــن التّنوعات الثّقافيّة في الجزائر الّتي يتداولها الجزائريون اليوم والّتي ورثوهـــا عـــن آباءهم وعن أجدادهم، والحديث في التّنوع الثّقافي لا يمكن حصرهُ، شأنُّه في ذلـــك شأن الحديث عن الثقافة، وما تحويه من فنون وآداب وعلوم وصـــناعات تقليديـــة وغيرها من الأدب الشّعبي والأدب العامي، ونختصر هذا البحث في مجال الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة فهي: "وقد انتقى الزّمان هذه الأقوال المأثورة ووضع لها أساطير ارتبطت بها وما بقي منها ولم يزل فإنّه لا يزال قويا جذابا على الرغم ممّا أصـــابه الدهر ومرور السنين إنّها جواهر، قد حفظت من التلـــف باندساســـها فـــي ذاكـــرة الأجيال المتتالية وهي كنز ثقافي ذو قيمة كبيرة تتراءى فيها الملامح الخاصّة بكـــلّ قوم، وذلك لأنّها وليدة لظروف معينة وبالتالي وليدة التاريخ والجغرافية والمناخ.

إنّ خاصيتها الأساسية هي الإيجاز: فهي قليلة اللّفظ كثيرة المعاني، وهي تحتوي على نمط من الأخلاق وعلى فلسفة بل على فن الحياة."[29] فالأمثال الشّـــعبيّة تمثّـــل ذاكرة هذا المجتمع الثقافيّة الّتي لا تزول بزوال أصحابها أي قائليها، فقـــد يمـــوت قائل المثل ولا ينسى؛ لأنّه ترك شيئا يذكر به كالعالم الّذي يموت ويبقى علمـــه أو الشاعر الّذي يموت ويبقى شعره، ومن الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة الّتي قيلت قـــديما وما زالت متداولة عندنا اليوم: "الأيام ناقصة من عمري وأنا نعد فيهـــا، (الأيـــام تمضي من حياتي وأنا أحسبها) عندما يكون أحدنا منتظرا لحدث سعيد كـــزواج أو ولادة أو قضاء عطلة أو عودة غائب... الخيتمنى أن تمر الأيـــام بســـرعة دون أن

يشعر بأنّها تقرب الشّخص من الموت، وهم يتقبلونهـا خاضـعين بـذلك للقضـاء والقدر."[30]ويتضحُ معنى هذا المَثل في الّذين يحتفلون بيوم عيد ميلادهم يضنون أنّهم يحتفلون بسنة مولد جديد تزيد من أعمارهم، ولكن هي في الحقيقـة نقصـان مـن أعمارهم الّتي يعيشونها فهم ينقصون من أعمارهم حتّى تحـن سـنة أجلهـم هـم يقتربون منها سنة بعد سنة.

ومن الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة: "أبواب الله واسعة، (معناه أن منافذ الخـلاص الّتي يعطيها الله واسعة، وقدراته غير محدودة يكفي أن نبتهـل إلـى الله بصـدق لتشطنا عنايته؛ وهو قول يؤتى به للتشجيع والمواساة."[31]ويقال هـذا المَثـل اليـوم عندما يطلب إنسان من إنسان أمرا أو شيئا ما ولا يلبي له ذلك الإنسان ذلك الأمـر أو الشّيء فيقال له أبواب الله واسعة ما يسد باب يفتح باب.

ومن الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة: "أح من بَطني، أح مـن ظَهـري، وأح مـنهم قـاع، (وَيْحِي من بَطني وَيْحِي من ظَهري، يا وَيْحِي منهما معاً) المـرأة الحامـل تتألم من بطنها مرّة، ومن ظهرها مرّة أخرى وأحيانا منهما معاً، يقال للتأكيد علـى أنّ المشكل عويص وأنه مهما كان الحل فلن يكون شافيا كافيا."[32]

ومن الأمثال الشّعبيّة أيضا: "اللي يَغويك رُخصه في ركنـه يبقـى نصـه، (أي الشّيء الّذي اشتريته لو خفض ثمنه ستلقي بالنصف منه في ركن مـا)... ويقـال: (اللي يعجبك رخصه في الدار ترمي نصفه)."[33]ويقال هذا المَثل لكلّ من ذهب إلـى السوق واشترى شيئا ما بثمن زهيد يقال له هذا المَثل: اللي عجبـك رخصـه فـي السوق خليت نصفه. من الخضر أو الفواكه أو غيرها من الأغراض المنزلية.

ومن الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة أيضا: "اصبر تجبر، (اصبر وستلتئم جراحـك) أب بإذن الله وبالصبر ينال الإنسان مراده."[34] ويقال أيضـا فـي منطقـة بسـكرة وضواحيها (الصابر جابر).

ومن الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة أيضا: "إذا أروات في الينابر نَقّص من الخمـــايَر وزد في المطاير (أي إذا ارتوت الأرض من المطر في الأيام الأولى مـــن ينـــاير، فانقص من ذخيرة المطامر وزد في أخاديد الحرث). المشاهدة للطبيعة تؤدي الفلاح إلى اكتشاف أسرارها، فيتمكن بفضل التجربة البحتة أن يقيم رزنامة للحالة الجويـــة فيستعملها في شتّى أعمال الزراعة وتربية المواشي."[35] وفي هذا المَثَل على ســـبيل المثال لا الحصر حصل اندماج بين اللّغتين الأمازيغية والعربيّة ولـــو بحثنـــا فـــي العديد من الأمثال لوجدنا أغلبها كذلك إن لم نقل كُلَّها، وليس على مستوى الأمثـــال فحسب بل في الشّعر والحكمة والأحاجي والألغاز ... الخ.

ومن الأمثال الشّعبيّة أيضا: "أحرث والا نبَعْجَك، (أي الأبقار قد ترفض الحرث إذا لم ترب على ذلك، وقد تموت بين الأثلام يقتلها الفلاح الشديد الغضب، ويستعمل هذا المثل بشيء من التوسع ويكون معناه؛ أفعل كذا رغم أنفك، وإياك أن تتركه."[36] وتوضِّح هذه الأمثال الشّعبيّة العديد من التنوُّعات الثقافيّة لدى المجتمع الجزائـــري وبالخصوص في حيز الأمثال الشّعبية ناهيـــك عـــن الشّـــعر والحكمـــة والألغـــاز والأحاجي والحكايات والأساطير والخرفات الشّعبيّة المتعدّدة من الموروث الثقـــافي الجزائري من كلّ لغات الجزائر القبائلية والشاوية والميزابية والترقيـــة والشـــلحية وغيرها الّتي جمعتها اللّغة العربيّة وجمعت معها موروثها الثقافي كلّه حتّى الغنـــاء والموسيقى والرقص والصناعات التقليدية والحرف والمهن... من التّنوع الثّقافي... الخ. وحتّى يعبر هذا الموروث الثّقافي عما يزخر به التّراث الجزائري من ثـــورة فكريّة لغويّة إنسانيّة عظيمة.

الخاتمة: تعتبر الأمثال الشّعبيّة من أكبر القضايا الثّقافيّة أهمية وقيمـــة ومكانـــة سامية، والّتي تعتبر ركيزة كبرى من ركائز المجتمع ومن تنوعه الثّقـــافي، ومـــن دسائسه الّتي تمثل الثروة الحقيقية للأفراد والمجتمعات.وقد وردت لفظ الأمثال فـــي القرآن الكريم في أكثر من عشرة سورة وفي أكثر من أحد عشر آية مختلف مـــن

سور القرآن الكريم دلالة على أهميتها وقيمتها في الحيـــاة الفكريّـــة والاجتماعيّـــة والاقتصاديّة والأدبيّة واللّغويّة وعادات النـــاس وعقائـــدهم وحكمـــتهم وأخلاقهـــم ٹٱٹٱ ٱئى ئي بر بز بم بن بى بي تر تز تمتنتى تي ثر ثز ثم ثن ثى ثي فىفي قى قي كا كل كم كى كي لم لىلي ما مم نر نز نم نننى نى ىٰ ير يز يم ين [37]ٹٱٹٱ به تج تح تخ تم ته ثم جح جم حج حمخج خم سج سح سخ سم صح صخ صم ضج ضح ضخضم طح ظم عج عم غجغم فج فح فخ فمقح قم كج كح كخ كل كم لجلح لخ ﱠ لم مج مح [38]

ٹٱٹٱ لخ لم لى لي مج محمخ مم مى مي نج نح نخ نم [39]ٹٱٹٱ ئى ئي بر بز بم بن بى بي تر تز تم تن تى تي ثر [40]ٹٱٹٱ هج هم هى هيـيج يح يخ يم يى يي ذٰ رٰ [41]ٹٱٹٱ مخ مم نج نح نخ نم نه هج هم هٰ [42]

ٹٱٹٱ ئح ئخ ئم ئه بجبح بخ بم به تج تحتخ تم ته ثمجح جم حج حم خج خم سج سح سخ سم صح صخ صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم عج عمغج غم فج فحفخ فم قح قم كج كحكخ كل كم لج لحلخ ﱠ لم مج مح مخ [43]ٹٱٹٱ ثم جح جم حج حم خج خم سج سح سخ [44]

ٹٱٹٱ كم كى كي لملى لي ما مم نر [45]ٹٱٹٱ يم ين يى ييئج ئح ئخ ئم ئه بج [46]يبين لنا سبحانه وتعالى عظمة الأمثـــال ومكانتهـــا وقيمتهـــا ودرجة علمها ومعرفتها فلا يعرف ولا يعلم الأمثال إلا العالمون، وليس العامة من الناس تعقـــل الأمثـــال، ٹٱٹٱ ثن ثى ثي فى في قى قي كا كل كم كى كيلم لى لي ما مم نر نز نم [47] ويبين لنا سبحانه وتعالى مكانـــة الأمثـــال السامية بين الشعوب فالقرآن الكريم ضرب لنا الأمثال من كل الحضارات والأمـــم لأخذ العبر والمواعظ من تلك الشعوب وتلك الأمم التي بعـــث الله فيهـــا الأنبيـــاء والمرسلين. فالأمثال في القرآن الكريم تلخص حياة الشعوب في الجهـــل والظـــلام

فضرب لنا الأمثال عنها باعتبارها حكمة وخلاصة تجارب وثروة وثمرة لا يعقلها إلا العالمون المتفكرون فيها، ومعجزة الأمثال أنها لا يدركها إلا العالمون لحكمة بالغة وحجة داحضة.

وأمّا حقيقة التّنوع الثّقافي في الجزائر فهي قضية تضرب بجذورها في التاريخ منذ القديم والجزائر بلد يزخر بالتنوع الثقافي واللّغويّ والفكريّ والحضاري والجزائر بلد يؤمن بهذا التّعدّد والتّنوع الثّقافي واللّغويّ والحضاري، و"ليست ظاهرة تعدد الكيانات الثّقافية وتنوعها واختلافها جديدة اطلاقا، فجذورها تضرب في أعماق التاريخ الاجتماعي للبشر. وهي بالتأكيد إحدى الخصائص الأساسية للمجتمعات البشرية منذ البدايات الأولى لنشأتها. فالثقافات وضمنها اللّغات، أخذت أشكالا متنوعة عبر الزمان، ويظهر هذا التّنوع في تمايز لافت للهويات الثّقافيّة للمجموعات الّتي تتشكّل منها المجتمعات البشرية، وفي عصرنا الحالي ثمّة إجماع عالمي على اعتبار التّنوع الثّقافي تراثا مشتركا للبشريّة جمعاء وشرطا للازدهار حضاراتها.

أكد هذه المسألة بوضوح الإعلان العالمي للتّنوع الثّقافي الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربيّة والثقافة والعلوم (اليونيسكو) في عام 2001م.[48]

الهوامش والإحالات:

1- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغــويّ، مكتبــة الخــانجي، ط3 القاهرة، 1417ه-1998م ص147.

2- عبد الله محمّد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي ابن منظــور، لســان العرب، تح: عبد علي الكبير، محمّد أحمد حسب الله، هاشم محمّد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة 1411ه-1981م، ج6، ص492.

3- عفت محمّد الشرقاوي، الثّقافة العربيّة بين الوّحدة والتّعدّد في حوار المشرق والمغرب، إشراف محمّد محمّد سيد خليل دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص31-33.

4- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، دار الشهاب، باتنة، الجزائــر، (د. ت)، ص8.

5- المرجع نفسه، ص9.

6- محمّد محمّد داود، العربيّة وعلم اللّغة الحديث، دار غريب، القاهرة، 2001م، ص93.

7- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص7.

8- ابن منظور، لسان العرب، ج52، ص4368.

9- صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنشد التّغيّير، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة فــي الجزائــر تيزي وزّو، 2014م ص119.

10- المرجع نفسه، ص119.

11- صالح بلعيد، في المواطنة اللّغويّة وأشياء أخرى...، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2008م ص7.

12- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص8.

13- صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنشد التّغيّير، ص120.

14- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص8.

15- الصافوط محمّد، المواطنة والوطنية، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضــاء، المغــرب 2007م، ص71.

16- ماجد الغرباوي، التسامح ومنابع اللاتسامح فرص التعايش بين الأديــان والثقافــات، الناشــر الحضارية للطباعة والنشر بغداد، العراق، 1429ه-2008م، ص75.

[17]- صالح بلعيد، في المواطنة اللّغويّة وأشياء أخرى...، ص19.
[18]- كمال بشر، دراسات في علم اللّغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القــاهرة، 1998م ص218.
[19]- صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنشد التّغيّير، ص120.
[20]- عبد العلي الودغيري، "الفرانكفونية في إفريقيا"، مجلة الموقف، المغرب، 1992، العــدد13-14. نقلا عن صالح بلعيد قراءة معاصرة تنشد التّغيّير، ص121.
[21]- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص11.
[22]- صالح بلعيد، في المواطنة اللّغويّة وأشياء أخرى...، ص4-5.
[23]- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص12.
[24]- سمير شريف استيتية، اللّسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج، ص623.
[25]- صالح بلعيد، في المواطنة اللّغويّة وأشياء أخرى...، ص5.
[26]- المرجع نفسه، ص7.
[27]- هارالدموللر، تعايش الثّقافات مشروع مضاد لهنتنغنون، تر: إبراهيم أبو هشهش، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، 2005م، ص4.
[28]- محمّد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كلّ أمّة روح ثقافتنا، ص12.
[29]- قادة بوتارن، الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة بالأمثال يتضح المقال، تر: عبــد الــرّحمن الحــاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ابن عكنون، الجزائر، ص5.
[30]- المرجع نفسه، ص9.
[31]- المرجع نفسه، ص15.
[32]- المرجع نفسه، ص25.
[33]- المرجع نفسه، ص32.
[34]- المرجع نفسه، ص37.
[35]- المرجع نفسه، ص42.
[36]- المرجع نفسه، ص51.
[37]- سورة البقرة، الآية 26.
[38]- سورة الرعد، الآية 17.
[39]- سورة إبراهيم، الآية 25.

[40]– سورة إبراهيم، الآية 45.

[41]– سورة النحل، الآية 74.

[42]– سورة الإسراء، الآية 48.

[43]– سورة النور، الآية 35.

[44]– سورة الفرقان، الآية 9.

[45]– سورة الفرقان، الآية 39.

[46]– سورة العنكبوت، الآية، 43.

[47]– سورة الحشر، الآية 21.

[48]– رمزي منير بعلبكي، امحمّد جبرون، عبد القادر فاسي الفهري .... وآخرون، واللّغة والهويّة في الوطن العربيّ إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط1، الدوحة، قطر، 2013،ص233–234.

قيّم التسامح في الثقافة الإسلاميّة وأهمّية اللُغات في إثراء التنوع الحضاري

ـنماذج من التبادل اللّغوي والحوار الحضاري في الأندلسـ

د. محمد سيف الإسلام بوفلاقـة
جامعة عنابة

مُقدمة: موضوع هذا البحث هو«قيّم التّسامح في الثّقافــة الإســلاميّة وأهمّيــة اللُغات في إثراء التّنوع الحضاري–نماذج من التّبادل اللّغوي والحوار الحضـــاري في الأندلس– »، وهو بحث يُركز على ثقافة التسامح، و الحوار التي جــاءت فـــي ديننا الإسلامي الحنيف، الذي يدعو إلى ترسيخ قيم التعـــايش الســلمي، والحـــوار الحضاري بين الأديان، والثقافات، لا انطلاقا من مواقف آنية، أو ظروف محـــددة، أو عابرة ولكن تجسيدًا لوحدة النوع الإنساني، وترسيخًا لأسس العدالة، و سواسية الناس في الخلقة، وتحقيقا لإرادة الله عزَّ وجلّ في جعلهم شعوبًا، وقبائل ليتعارفوا، ذلك التعارف غير المقصود لذاته، أو لغايات اعتباطية، وإنّمَا لما يُثمر من تعـــاون وتضامن، يُساهم في تعميم الخير، والسلام على كافة الأمم، والشعوب.

ولا ريب في أن ديننا الإسلامي الحنيف الذي انتشر بوساطة التسامح، و الحوار الحضاري، يحتل موقعاً متميزاً في العطاء الحضاري الإنساني، والعالمي، فممـــا لا يشوبه شك أن الإسلام قد أرسى دعائم حضارة باذخة، تعايشـــت فيهـــا الأجنـــاس والأديان، وتثاقفت فيها اللغات، والثقافات، والحوار بين الحضارات، والثقافات هـــو الآن ضرورة ملحة للعيش في عالم آمن، ومستقر، ومشاهد العنف، والفزع العالمية لا تُبقي مكاناً لحياة إنسانية ذات معنى، لذلك فإن الحوار بين الحضارات، والثقافات ليس ضرورة في المساحات الجغرافية، بل ضرورة في المساحات المعرفية، ونحن بحاجة ماسة لأن نجيب على ما يُحيط بنا من أسئلة عميقة، وواقعيـــة، وأن نرصـــد

مسيرة التحولات كما ينبغي، فالعالم اليوم متعطش إلى السلام، والصداقة، والحرية والعدالة، ويصر على أن ينال حريته، وحقوقه الإنسانية، لكن حقيقة السلام، والحرية والعدالة، لا تُنال بالحرب، والتعنت، والتمييز، والسلام الذي يتحقق بالحرب هش دائماً وغير متين، أما السلام القائم على العدالة، والإنصاف، والحوار، والمنطق فهو السلام الحقيقي الدائم(1)، ولاشك في أن« مبدأ الحوار بين طرف وآخر، هو مبدأ يدل على توفر حضارة وثقافة لدى الطرفين، والحضارة تقود إلى الفهم والتفاهم وتبعد شبح الاختلاف الذي يؤدي إلى الصدام، فالحوار بين الأديان والثقافات صفة حضارية متقدمة جداً، وكثيراً ما أوصلت أطراف الحوار إلى بر السلام من حيث الاحترام المتبادل ومن ثمة الاعتراف بقدسية الأديان كلها، وإذا رجعنا إلى مبادئ الأديان الأساسية نجد أنها جميعاً تصب في مصلحة الإنسان الذي خلقه الخالق في أحسن تقويم»(2)، وفي عصرنا الراهن ما فتئت دائرة الاهتمام بقيّم التسامح، و حوار الثقافات، والديانات، تتسع وتتصاعد يوماً بعد يوم، حتى أضحى هذا الموضوع في المرحلة التاريخية الراهنة هاجساً إنسانياً مُشتركاً، ومطلباً عالمياً مُلحاً، لا يُمكن الحياد عن تداوله، وتناوله، والانخراط فيه، ومناقشة قضاياه وأبعاده، حيث إنه أضحى في مقدمة سُلم قضايا الألفية الثالثة متجاوزاً مُختلف الحدود الجغرافية، و الفوارق المذهبية، والاختلافات العقائدية والعرقية وأدرج«ضمن أولويات المشاريع الأممية، فقد أيقن الجميع بأن لامناص للبشرية من صراعاتها التاريخية الدامية بغير الانفتاح على الآخر، والدخول معه في حوار جاد، وبناء من أجل المصلحة المشتركة بعيداً عن كل أشكال التوحد، والحسابات الضيقة.ولا غرو أن إعلان الأمم المتحدة، ومنظمة اليُونسكو تحديداً أن تكون السنة الأولى من الألفية الثالثة سنة حوار الثقافات قد قدم الدليل الواضح على أهمية القضية وحساسيتها وأولويتها في أجندة اهتمامات المجتمع الدولي، إن فكرة الحوار بين الثقافات، والأديان لم تبن من فراغ، ولم تكن أبداً–ولن تكون–ضرباً من

الاعتباط الفكري، والإغراءات الانفعالية، وإنما هي نتيجة حتمية، ومباشرة لجُملــة من العوامل الموضوعية التي اعتملت فيها »[3]

وهذا ما يُلقي على الباحثين، والكتّاب مسؤولية الكشف عن العوامل التي جمعــت بين الشعوب، ووحدت أهدافهم، ورؤاهم، و يــدفعهم إلــى التنقيــب عــن الأســس والمرتكزات التي أفرزت قاعدة صلبة لحوار الحضارات والثقافــات عبــر مراحــل التاريخ، ولاسيما في ظل التحولات التي وقعت في العالم في السنوات الأخيرة حيث احتد النقاش، والجدل، وكثرت التساؤلات على المستوى العالمي، وفي أوساط النخب وداخل مؤسسات البحث، والتكوين، عن القيّم التي ينبغي التركيز عليها وترســيخها، والدفاع عنها في إطار ما أصبح يُصطلح عليه بزمن العولمة، الأمر الذي خلق عــدة تساؤلات أخرى من أهمها:هل يتعلق الأمر بقيّم كونية، تُطبق على كل المجتمعــات؟ أم أن خصوصية هذه المجتمعات تستدعي إقرار قيم أخــرى تختلــف عــن الأبعــاد و المقاصد الكونية للقيم، قصد احترام مبدأ الاختلاف، والتعدد؟ [4].

لأجل كل ذلك، يسعى هذا البحث إلى إبراز قيّم التّسامح في الثّقافة الإســلاميّة ويُركز على أهمّية اللّغات في إثراء التّنوع الحضاري، من خلال تقديم عدة نمــاذج من التّبادل اللّغوي، والحوار الحضاري في الأندلس، فتسليط الضــوء علــى قــيم الحوار الحضاري مع الآخر، والتعايش السلمي، الذي يكتســي طابعــاً حضــارياً و يتصل بمسألة التسامح، والحوار الثقافي بين شتى الأمم، والأعراق له ما يُبــرره فالحوار بين الثقافات، والديانات المختلفة كان من المواضيع المحترمة في المجتمع الإسلامي الذي لم يعرف التعصب الديني، إلا في حالات استثنائية قليلــة، وشــاذة وتزداد أهمية هذا الموضوع خاصة عندما نعلم بأن العالم المعاصــر يســعى إلــى تأسيس نظام جديد- كما سبقت الإشارة إلى ذلك-، كما أن الإســلام، والمســلمين يتعرضون إلى حملات شعواء ترمي إلى تشويه صورتهم، وتقديم نظرة خاطئة عن مُمارساتهم، بالإضافة إلى رواج بعض النظريات التي تسعى إلى التنكر لهذا العطاء

الحضاري الإنساني الفريد من نوعه، فثقافتنا الإسلامية في العصر الراهن تقف أمام مجموعة من التحديات الكبيرة من أهمها:الحفاظ على الهوية في الشكل والمضمون، والتصدي لكل ما هو خطير عليها، ومحاورة الآخر على أُسُس صلبة وسليمة، ووفقاً لمنظور يُبنى بين الطرفين على الموضوعية والإنصاف، ويبتعد عن التجني، والإجحاف[5] .

أولاً: قيّم التسامح في الثقافة الإسلامية: إن للتسامح، والحوار في ديننا الإسلامي الحنيف قواعده، وآدابه، ولعل من أبرز هذه القواعد والآداب ما ورد في سورة سبأ، حيث كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يُحاور غير المؤمنين شارحاً، ومبيناً، ومبلغاً، ولكنهم كانوا يُصرون على أن الحق إلى جانبهم، فحسم الحوار معهم على قاعدة النص:﴿وإنَّا أو إيَّاكُم لعلى هُدى أو في ضلال مُبين﴾[6] لقد وضع الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم نفسه في مستوى من يحاور تاركاً الحكم لله سبحانه، وتعالى، وهو أسمى تعبير عن احترام حُرية الآخر في الاختيار، وعن احترام اختياره حتى، ولو كان على خطأ، وذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال سبحانه، وتعالى في القرآن الكريم:﴿ **قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾[7]، فكان من آداب التسامح، و الحوار، بل من المبالغة في هذه الآداب أن وصف اختياره للحق، وهو على حق بأنه إجرام(في نظرهم)، ووصف اختيارهم للباطل، وهم على باطل، بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله:﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق، وهو الفتاح العليم﴾ [8] إن احترام حرية الاختيار هنا ليس احتراماً للخطأ، فتسفيه وجهة نظر الآخر، ومحاولة إسقاطها ليسا الهدف الذي لا يكون المحاور مجدياً إلا إذا تحقق، إن من أهداف الحوار تعريف الآخر على وجهة نظر لا يعرفها، ومحاولة إقناعه بالتي هي أحسن بموقف ينكره، أو يتنكر له.وهو أمر يشكل في حد ذاته أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري والتكامل الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس، ومن دون ذلك يركد الذهن ويفقد العطش إلى المعرفة عود

الثقاب الذي يلهبه، وتتحول مساحات الفكر إلى بحيرات آسـنة، فـالاختلاف بـين الناس، وما يشكل الاختلاف من تدافع، يُشكلان أحد أهـم موجبـات عـدم فسـاد الأرض، وهناك فوارق كثيرة بين علاقة الإرادة وعلاقة الفرض، فالعلاقة الأولـى هي نتيجة حوار وثمرة تفاهم، ومن ثمة فهي فعل إرادي تحقق المحبة والاحتـرام والثقة، أما العلاقة الثانية فهي حال تنكر لحق الآخر وتجاهل لتمايزاته ولخصائصه ' وتجاوز للحوار كوسيلة لفهمه وللتفاهم معه، فهي حال مفروضة، وكل مـا هـو مفروض مرفوض من حيث المبدأ، ومن حيث الأساس، ولذلك فإنها لا تحقق سوى البغضاء والكراهية وعدم الثقة.وقد أرسى مجتمع المدينة المنورة في عهد رسـولنا محمد صلى الله عليه وسلم قاعدة تقوم على التسامح[9]، من أجل إقامة نسق تعاوني بين فئات الناس من مؤمنين، وأهل كتاب في أمة واحدة، «فالوثيقة النبويـة أقـرت أصحاب الآراء على آرائهم وتكفلت بحمايتهم كما هم، فقد قام مجتمع المدينة علـى قاعدة نشر الدعوة مع احتضان الاختلاف، وليس مع تجاهله ولا مع محاولة إلغائـه فقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران في بيته في المدينـة المنـورة وأحسن وفادتهم، وعندما حان وقت صلاتهم لم يجد النبي أي غضاضة في دعوتهم كما تذكر روايات ثقة إلى أداء صلاتهم...، فعلى قاعدة هذه السابقة النبوية في دولة المدينة الأولى، فإن الإسلام لا يضيق بتنوع الانتماء العقـدي، ولا يـؤمن بالنقـاء العرقي(لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).فإذا كان التنوع من طبيعة تكوين المجتمع، فإن الحوار هو الطريق الوحيد الذي يؤدي بالاختيار الحر وبالمحبة إلـى الوفاق والتفاهم والوحدة، ذلك أن البديل عن الحوار هو القطيعة والانكفـاء علـى الذات، وتطوير ثقافة الحذر والشك والعداء للآخر»[10]. ولا ريب في أن من أبـرز مقومات الحضارة العربية الإسلامية الاهتمام بالآخر واحترامه، و السعي إلى خلق جسور تواصل، وتكامل معه، و نبذ كل ما من شأنه أن يسيء إليه، ويشـهد تعـدد الأقليات الدينية، والإثنية في العالم الإسـلامي، ومحافظـة هـذه الأقليـات علـى

خصائصها العنصرية، وعلى تراثها العقدي، والديني، وعلـــى لغاتهـــا، وثقافاتهـــا الخاصة، على هذه الحقيقة وأصالتها.فاعتراف الإسلام بالآخر، ومحاورته بالتي هي أحسن، وقبوله كما هو لا يعود بالضرورة إلى تسامح الملمين، بـــل إلـــى ســـماحة الإسلام، وإلى جوهر الشريعة الإسلامية[11].

ينطلق التسامح، والحوار في الرؤية الثقافية الإسلامية من قواعد منطقية وعلمية تعتمد على الحجة، والدليل، والبرهان، ويتوسل الجدال بالتي هي أحسن، والموعظة الحسنة، كما لابد لكي ينجح نهج التسامح، أن يتم الحوار فـــي الأجـــواء الهادئـــة ويكون بتريث، وحكمة، من أجل إبعاد الغضب، ونزع الأجواء الانفعاليـــة التـــي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل، وتبصر، وتفكير، فقد اعتبر القرآن الكريم أن اتهام النبي بالجنون سببه الجو الانفعالي، والعدائي لخصومه، لذلك قـــدم لهم دعوة إلى الانفصال عن هذا الجو، والتفكير بانفراد، وهدوء، والمنهج القرآنـــي في التسامح، و الحوار يُوجه دائماً إلى إنهائه بمهمة، وأداء رسالة تظل راسخة في الضمير، وإن لم يظهر أثرها في الفكر، فهو أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته، واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسؤولية ليتحـــرك الجميـــع فـــي إطارهـــا وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال، ففي ثقافة الحوار في الإسلام جملة مـــن الآداب والقيم والمناهج الأخلاقية التي تحترم الإنسان وتقدر حريته فـــي الاختيـــار كما تحترم حقه في الاختلاف وفي المجادلة [12] .

لقد شجع القرآن الكريم على التسامح، و الحوار، بمعنى الكلام، وتبادل الـــرأي من أجل التوضيح، والإفهام، والوصول إلى الحقائق كما هي بعيداً عـــن التزييـــف ورسولنا محمد- صلى الله عليه وسلم- عُرف بتســـامحه، و حـــواره الحضـــاري الراقي مع الأديان الأخرى، وهو المثل الأبرز، والمُشرق الذي ينبغي أن نقتدي بـــه ففي بدايات هجرته إلى المدينة المنورة وفدت عليه الكثير من الوفـــود كـــان مـــن بينهم، وفد من نجران جلسوا إلى رسول الله -صلى الله عليـــه وســـلم- يحادثونـــه

ويسألونه عن الدين الجديد، وأوجه الاختلاف بين هذا الدين، والدين المسيحي الذي يدينون به، ثم حدثوه عن شخصية عيسى عليه السلام، وبعد حوار أخوي رأوا كما أخبروا النبي أن يبقى هو على دينه، ويظلون على دينهم، ونتيجة لكون الحوار ودياً بين الطرفين استضافهم الرسول–صلى الله عليه وسلم– بجواره، حيث أقـــام لهـــم خيمة يسكنون فيها قرب منزله، وفي جزء من مســـجد المدينـــة[13].وبنـــاءً علـــى مقترحات المفكر الدكتور(محمد جابر الأنصاري)، فيما يتصل بالتســـامح، والســـلم فقبل محاورة الغرب، أو الشرق علينا القيام بتأسيس حوار جديد ومختلف مع أنفسنا يقوم على الأسس التالية:

أولاً: تربية العربي المسلم على تقبل العربي المسلم الآخـــر، وكـــذلك مواطنـــه الآخر غير العربي أو غير المسلم، إن تقبل(الغير)من المواطنين في الوطن–تعايشاً وتحاوراً وتسامحاً–هو الشرط الأول لأي مشروع حوار حضاري أو سياسي مـــع الغرب أو الشرق، ومن يلغ أو يضطهد مواطنه (الآخر)فكيف يمكنـــه أن يحـــاور ويعايش الآخر المنتمي إلى قوميات وديانات وحضارات أخـــرى؟ إن العصـــبيات والمذهبيات، والطوائف، والإثنيات، لا يُمكن أن تكون(القاعـــدة)، والمرجعيـــة لأي مجتمع يُواجه تحديات العصر الحديث، فلا مفر من التعايش مع الآخر في الوطن.

ثانياً: أن تضع السياسات التربوية في المجتمعات العربية في مقدمة أهدافها تقديم مقررات في الثقافة العامة تشرح مختلف عناصر التراث الإســـلامي، والحضـــارة الإسلامية، بصورة موضوعية رصينة، ومسؤولة إلى الأجيال الجديدة...

ثالثاً: التنوير الثقافي العام بشأن المعطيات الحضارية الإنسانية المختلفـــة التـــي صبت في كيان الحضارة الإسلامية سواء من حضارات الشرق الأدنى القديم مـــن بابلية، وسومرية، ومصرية قديمة، أو من الحضارات الفارسية واليونانية والهنديـــة والصينية التي اقتبس منها العرب والمسلمون باختيارهم ومن موقع القـــوة والثقـــة بالنفس...[14].وكما يرى الدكتور(أحمد طالب الإبراهيمي)، فالتســـامح، و حـــوار

الإسلام مع الأديان الأخرى، لن يكون مجدياً، إلا إذا كان مسبوقاً بحوار آخر بـــين المسلمين في دوائر ثلاث:داخل المجتمع الواحد بين الأفراد، مما يعني نبــذ عقليـــة الإقصاء والتهميش لأية فئة من المجتمع، ثم العمل الـــدائم بـــالحوار بـــين الـــدول العربية، والعالم الإسلامي من أندونيسيا إلى موريتانيا، كما أن الحوار بين الأديـــان كمكون أساسي للثقافات والحضارات في حياة الشعوب ليس تماثلاً مع هذا الدين أو ذاك، أو سعياً لفرض نمط ثقافي معين، بل هو اخـــتلاف وتنـــوع، واتفـــاق علـــى التعددية، ومن المفترض أن يجري بين طرفين، أو أكثر على قدم المساواة، وفـــي كنف الاحترام المتبادل لماضي كل طرف، وتراثه، وخصائصه، سعياً لإيجاد أفضل الصيغ للتعايش السلمي(15). ومن الشروط الرئيسة التي ينبغي أن تتـــوفر لتحقيـــق التسامح، و الحوار مثمر بين الثقافات، والأديان، الاعتراف المتبـــادل بالإســـهامات التي قدمتها كل حضارة إلى رصيد القيم العالمية المشتركة، وهـــذا الأمـــر يتجلـــى بشكل واضح بالنسبة إلى الحضارة الإسلامية التي كان لها الفضل الكبير في التقدم العلمي، و تطوير المعارف الإنسانية، إضافة إلى جعل الدائرة العلمية بما تتمتع بـــه من موضوعية، ومصداقية، الأساس الذي تستند إليه الدوائر، والمستويات الأخـــرى لتحقيق النتائج المرجوة من الحوار بين الثقافات والحضارات، وتكوين أجيال تكون مؤهلة للعمل المثمر بمبادئ الحوار بين الثقافات والحضارات، وهو ما يســـتوجب إدراج معاني الحوار الثقافي، والحضاري بشتى أبعاده فـــي البـــرامج، والمنـــاهج التربوية، لإعلام الناشئة بأهمية الإسهامات الحضارية والإبداعية لمختلف الشـــعوب والأمم، وتربيتها على التعاون والتضامن والتكامـــل والتســـامح (16). ومـــن بـــين الشهادات التي أدلي بها في العالم الغربي عن قيّم التسامح فـــي الإســـلام، وتشـــييد جسور التواصل مع الحضارة الإسلامية ما كتبه الأمير(تشارلز)، ولي عهد المملكة المتحدة، في محاضرته المعنونة ب:«إحساس بالمقدس: بناء الجسور بين الإســـلام والغرب»:«إنني أبدأ من الاعتقاد بأن الحضارة الإسلامية..تحمل رسالة هامة إلى

الغرب، تكمن في الطريقة التي احتفظت فيها برؤية موحدة ومتكاملة لحرمة العالم من حولنا، وإنني أشعر بأننا في الغرب يمكن أن نلقى عوناً على إعادة اكتشاف فهمنا الخاص، بتقدير احترام التراث الإسلامي العميق للنواميس الأبدية للنظام الطبيعي.وأعتقد بأن تلك العملية يمكن أن تساعد في مهمة التقريب بين ديننا ويمكنها كذلك أن تساعد–نحن أهل الغرب– على إعادة التفكير، ونحو الأفضل، في عنايتنا العملية بالإنسان، وبيئته في ميادين الرعاية الصحية، والبيئة الطبيعية والزراعة، وكذلك في العمارة والتخطيط الحضري»[17].

فالأمير(تشارلز)من خلال هذا النص يعترف بقيم التسامح، وثقافة الحوار في الإسلام، إذ يؤكد على الرؤية الإسلامية المتكاملة للعالم، والتي تبتعد في نظرتها عن التجني، والإجحاف في حق الديانات الأخرى، وتقترب من الإنصاف، والعدالة مع الجميع، وبهذا يمكن تأسيس علاقات وطيدة للحوار بين الثقافات، والحضارات كما يؤكد من جانب آخر على أن الثقافة الإسلامية قد :«ناضلت في شكلها التقليدي للحفاظ على الرؤية المتكاملة للعالم بطريقة لم نرها ملائمة في الأجيال حديثة العهد في الغرب.إن ثمة كثيراً مما نستطيع أن نشترك به مع الرؤية الإسلامية للعالم في هذا الصدد، وإن هناك كثيراً في تلك الرؤية للعالم يمكن أن يساعدنا على فهم العناصر الأبدية والمشتركة بين ديننا، وبذاك المسعى المشترك، فإن مجتمعينا الحديثين الإسلامي والغربي يستطيعان أن يتعلما على نحو جديد النظرات التقليدية للحياة، والمشتركة بين دياناتنا، ويتعلما كذلك مسؤولياتنا المقدسة إزاء العناية بالعالم من حولنا وتدبيره»[18]. وقام الدكتور (عبد العزيز بن عثمان التويجري) بدراسة عن: «العولمة وحوار الحضارات: رؤية من خلال الإسيسكو»، وقد بين في دراسته أن الحوار الذي نسعى إليه، ونحرص على المشاركة فيه لابد أن يُراعي ما يلي: أولاً: ربط أهداف الحوار بالمصالح العليا للأمة الإسلامية، بحيث لا يقع أي تعارض بين الأهداف المرسومة لأي حوار بين الحضارات والثقافات

يشارك فيه الجانب الإسلامي، وبين القضايا الرئيسة التي تجتمع حولها إرادة الأمة الإسلامية...

ثانياً: الاتجاه بالحوار نحو الجانب الإنساني، فلا يبقــى دائــراً حــول القضــايا الفكرية، والعقائدية، التي لا تنفع طرفاً من الأطراف، ويدخل ضمن ذلــك تحديــد الموقف الإيماني الخالص مــن حقــوق الإنســان، ومحاربــة الظلــم، والعــدوان والاضطهاد، والإفساد، بكل أشكاله، بحيث يقع الحرص دائماً على إصدار بيانــات مشتركة في أعقاب كل جولة للحوار تحدد مواقف أهل الإيمان مما يجري في العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان في كل مكان، ومما يقوم به الظــالمون، والمعتــدون والمفسدون في الأرض من بغي ومنكر، من وجهة نظر الحــق والعــدل، والقــيم الدينية المشتركة، وليس فقط من وجهة النظــر السياســية، والقانونيــة الوضــعية ومصالح الأقوياء، وذوي النفوذ في العالم.

ثالثاً: التنسيق بين أطراف الجانب الإسلامي في كل ما يتعلــق بــالحوار بــين الحضارات، والثقافات، بحيث تقوم الجهة الإسلامية الرسمية، أو الشــعبية، التــي تدخل في حوار على هذا المستوى، بإبلاغ كل الجهات، أو أهمها وأكبرها وأوسعها نشاطاً، وحضوراً في ســاحة العمــل الإســلامي العلمــي، والفكــري، والثقــافي بموضوعات الحوار، وبموعده، وبالأهداف المرسومة له، وبالجهة التي تُنظمه حتى يُمكن الانضمام إليه، والمشاركة فيه لمن أراد، وتوفرت له الأســباب، فــإذا ســار الحوار بين الحضارات في هذه الاتجاهات، أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية تخــدم في المقام الأول المصالح العليا للأمة الإسلامية، وقضاياها، وتُعزز الجهود المبذولة على مستويات كثيرة للدفاع عن هذه المصالح، ونُصرة هــذه القضــايا [19]. وفــي دراسة أنجزها الدكتور (مفرح بن سليمان بن عبد الله القوســي) عــن: «العلاقــة الفكرية الثقافية بين العالمين الإسلامي والغربي فــي العصــر الحاضــر:الحواجز والجسور»، أبرز فيها أن المنطلق الصحيح لتكوين علاقة سلمية مع الغيــر، هــو

الاعتراف بهذا الغير، واحترامه، وقبوله كما هو، ومن ثم قبول الاختلاف معه ولذا يجب على الغرب أن يعترف بالإسلام بوصفه ديناً سماوياً كسائر الأديان السماوية، التي جاءت من عند الله خالق الكون، وأن يعترف بالمسلمين باعتبارهم جزءاً من المنظومة البشرية، وشريكاً في الحياة على ظهر هذا الكوكب لا يُمكن تجاهله، كما يجب على الغرب أن يعترف بالخصوصية الثقافية للمسلمين، وأن يحترم ثوابتهم الدينية، وأن يُغير ما تقوم عليه سياساته من إيمان بتعددية ذاتية لا مجال فيها للآخر، وقد نبه إلى ضرورة قيام الغرب بمعرفة الإسلام معرفة صحيحة، بالاعتماد على المصادر الصحيحة، وتفهم رسالته السماوية العالمية والوعي بحضارته، وهذا يستلزم تغيير مصادر معرفة الغرب بالإسلام المتمثلة بكتابات المستشرقين، والمتعصبين من رجال الكنيسة، والساسة، وغيرهم، وكذا وسائل الإعلام المتنوعة التي غالباً ما يقوم عليها يهود صهيونيون، فلمعرفة الإسلام لابد من الاعتماد على المصادر الموضوعية السليمة، التي تقدم الإسلام بكل أمانة وحيادية [20]. وقد درس المفكر الدكتور (مصطفى الشريف) جُملة من القضايا، التي تتعلق بالتسامح، وحوار الثقافات، والحضارات في كثير من مؤلفاته، إذ عرض في كتابه:«ثقافة السّلم ليتعلّم الشباب الحوار»، مختلف إشكاليات ثقافة الحوار والسلام، حيث تناول الموضوع من وجوه مختلفة، فقد قدم بدقة الرؤى الإسلامية لثقافة الحوار، والسلام، واتسم عرضه بمقدرة فائقة، وبشمولية مختلف التصوّرات والتعريفات، وهو ينطلق من التأكيد على ضرورة أن يُدرك الشباب أن الإسلام هو السلام، حيث يفتتح مقدمة كتابه بالقول: «على الشباب أن يعرف أن الإسلام هو السلام، كلمة الإسلام من نفس جذر كلمة السلام، تاريخ الإسلام يُبرهن أنه يعطي الأولوية للسلام، القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة يركزان على السلم من مختلف مستويات العلاقات الإنسانية، والاجتماعية، يجب على كل مثقف، ومفكر وعالم أن يشرح للعالم كله، ثقافة السلم، إن أحد أسماء الله الحسنى السلام، وأحد

أهداف رسول الله(صلى الله عليه وسلم) هو بناء أمة، ومجتمع يتسم بحقوق واضحة مبنية على السلم، والسلم الحقيقي مبني على قواعد واضحة، بحقوق ، وواجبات والحق الشرعي للدفاع عن المصلحة العليا للأمة، السلم لا يعني التخلي عن حقوق الأمة، الواجب الأسمى لكل مفكر مسلم هو تقديم الصورة الحقيقية للإسلام للعالم بأسره، وإنه أحد ملامح العلم النافع، تاريخ الإسلام ثري، وغني، وبعض المصادر الأجنبية، تتجاهل هذا البرهان، وتركز فقط على بعض التصرفات غير العقلانية وبعض الانزلاقات المنحرفة، والبعيدة عن ديننا الحنيف»(21). كما يؤكد على أن موضوع السلم معروض، ومنصوص عليه بطرائق عدة في القرآن الكريم، وتتمثل المسألة في الإسلام، على شكل ازدواجية وحدة /تعددية، والآخر المختلف هو في لبّ اختبار الحياة على الأرض، وبالدرجة الأولى فإن الاختلاف هو اختبار طبيعي، ومن خلال تحليل القرآن الكريم، نرى أنه الوحدة المتجلية في التنوع، أو التنوع المحلول في الوحدة، فهذه الرسالة الموحدة تمثل خطاً أساسياً للشكل والمضمون، ويرى أنه من الضروري بالنسبة إلى ذهنية المسلم أن يتم تكوينها وتوجيهها، وتنويرها بعمق من طريق بيداغوجية القرآن الكريم، وعلى الفرد المسلم أن يدرك أن مفهوم السلم يتعدى في الإسلام كل المفاهيم الأخرى:إنه ديني وإنساني، وسياسي، وأبعد من ذلك تلتقي كل صفات المؤمن الكريم، والمضياف والطيب بالدلالة التي يؤديها في تأسيس السلم مع الذات، ومع الآخر، ومع العالم، إذ أن المسلم المخلص الذي يقرأ القرآن الكريم يدرك أن كل البشر هم من النوع نفسه، لهم نفس الأصل، ونفس المصير :العودة إلى الله الواحد، خالق الحياة، إذ يخاطب القرآن الكريم البشرية جمعاء دون استثناء، ومن المنطقي أن يكون المسلم متشبعاً بفكرة أن الله قد خلق البشر متماثلين في إنسانيتهم، وهم ينحدرون من أصل واحد، و من أجل مصير مشترك، و هنا كان لزاماً استقبال، واحترام الآخر دون قيد، أو شرط، ويلفت الدكتور(مصطفى الشريف) الانتباه إلى نقطة مهمة، وهي أن

انتشار الإسلام، وهيمنته على أراض شاسعة، وعلى شعوب، وثقافات، وديانات متنوعة، كان بالحوار الحضاري، ويشير إلى ما قام به بعض الكتاب، من أجل تشويه الحقيقة التي تبقى مغيبة عن بعض الملاحظين، ويستشهد في هذا الصدد بنظرة موضوعية قدمها الأستاذ(أندري ميكال)، حيث يقول: «يجب أن ينظر إلى الإسلام، ويوصف، ويفهم من الداخل-بداهة- وليس كقطعة، أو تحفة تم جلبها من أفقنا نحن الغربيين، في العمق، فإن نجاح الإسلام آت دون ريب، مما وجد كدين تجاوب بصفة واسعة مع بعض رغبات الشعوب، بالنسبة لشعوب الإمبراطورية البيزنطية، فالأمر كان يتعلق آنذاك بتحرير حقيقي »[22]. ونبه الدكتور مصطفى الشريف إلى ضرورة الابتعاد عن الانطواء، والذوبان، فقبول الآخر المختلف عنا ليس بمعطى ثانوي، بل إنه أولي، وجوهري، وقد جاء الإسلام لفتح أفق العالم وليس لسده، ومن هنا فالجماعات التي تستعمل العنف، وتُوظف الدين فهي تسير ضد المرجعيات المؤسسة.

ثانياً: أهمّية اللُّغات في إثراء التّنوع الحضاري: نماذج من التّبادل اللّغوي والحوار الحضاري في الأندلس: تحتل الأندلس العربية موقعاً متميزاً في العطاء الحضاري الإنساني، والعالمي، فمما لا يشوبه ريب، ولا يخامره شك أن دولة الإسلام في الأندلس قد أرست دعائم حضارة باذخة، تعايشت فيها الأجناس والأديان، وتثاقفت فيها اللغات، والثقافات، وانصهرت فيها الطاقات على تنوعها فأثمرت مجتمعاً حياً، متفاعلاً، مبدعاً تحققت للإنسان فيه، كإنسان كرامته، وكفلت له حريته، وحقوقه، وثمن سعيه، وعطاؤه، ولعل أبرز جوانب هذه الحضارة قيمة وإشراقا، ما يتعلق بمسألة التسامح الذي ساد الأندلس الإسلامية تُجاه النصارى واليهود، الذين كانوا يُشكلون شريحة هامة من شرائح المجتمع الأندلسي، فقد عاش اليهودي، والنصراني إلى جنب المسلم، حياة ملؤها التآزر والتعاطف، والتراحم والمُشاركة الفاعلة المثمرة، فقد هيأت الحضارة الأندلسية، منذ مراحلها الأولى

الإطار الأنسب للتفاعل الحضاري الإيجابي؛إذ اندمج اليهود والنصارى، في جو من الحرية، والسماحة، وتكافؤ الفُرص فـي المجتمـع الأندلسـي الجديـد؛ يتعلمـون ويتثاقفون، ويُسهمون في البناء دون عائق، أو عقدة، وهـو الأمـر الـذي جعـل الكثيرين منهم يحظون بمكانة عالية، ويتقلدون مناصب عليا في الإدارة والسياسـة فقد عاش الذميون الأمن، والاستقـرار في دولة الإسلام يتمتعـون بحُرية العقيـدة والتعبد منذ الفتح الإسـلامي لإيبيرية، وقـد مُورس الحـوار بين مختلف عناصر الشعب الأنـدلسي طـوال عصور المسلمين في الأنـدلس في أزمنة السلم وأزمنة الحرب، وبين المنتصرين، والمهزومين، ولعـل حضـارتنا وثقـافتنا العربيـة الإسـلامية في الأنـدلس هي الأعلى صوتـا وفـعـلاً فـي رسالتهـا (الحـوارية)، وعلى مدى قرون عديدة، حيث إن الفسحة الأندلسية، شـكلت حيّـزًا إنسانيا مُمتـازًا للحـوار، والتفـاعل بين الأديـان السـمـاوية الثـلاثة، وأكثـر منها، فـقـد شهـدت هـذه الفسحـة العصر الذهبي للثـقـافة العبريـة التـي اتخـذ شعـراؤها، وأدبـاؤها، وعلمـاؤها، ومفكـروها العـربية أداة تعبيـر، وتواصـل وتفكـيـر دوّنـوا بها خير مـا جـادت بـه قـرائحهم.بل إنَّ كـثـيـرا من النّصارى، واليهـود، والصقالبة، احتلّوا مراكز سامية في الحكـم وتبوأوا مراتب مُمتازة في الحيـاة العامـة، فكـان مـنهم الـوزراء، والشـعراء والشاعرات، والأطباء، وقد بدا الأندلسيون في الأعين منصفين بأمّ فضائل المدنية فضيلة التسامح المطلق، والحوار، والتفاعل مع العناصر الأخرى إلى درجة أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء على نحو ما ذهب إليه (غوستاف لوبون) [23]. وقـد ذكرت الباحثة الكوبية (ماريا روزا مينوكال)، في كتابها الموسـوم ب:«الأنـدلس العربية:إسلام الحضارة وثقافة التسامح»، عدة نماذج من الحوار، والتسامح بـين الأديان الثلاثة التي تعايشت في الأندلس، ومن التساكن الذي غلب على تجاور القيم الثقافية المُتنافرة، والمنتمية لشعوب، وجماعات إثنية متباينة. وبينت الإقبال الكبيـر

الذي كان على الثقافة، واللغة العربيتين، من قبل الجماعات غيـــر العربيـــة، التـــي أتقنت اللغة العربية، ولبست اللباس العربي، وأقبلت على الفنون العربية من شـــعر وغناء، ومعمار، وبستنة. وكان لهذا التأثر عدة نتائج على نهضة الفنـــون، والآداب بأوربا فيما بعد، ويُقدم عمل مينوكال «درساً قوياً لمن يُحسن استخلاص الـــدروس حول الدور الذي لعبته الترجمة في تمرير الثقافات، وسيرورات التملـــك المعرفـــي المنشئة لأسس التسامح، والحوار. وتتبع الكاتبة المصائر المتشـــعبة لعينـــات مـــن الذخائر العربية المنقولة من قبل المعربين من اليهود، والمسيحيين اللاتينيـــين فـــي لغات عالمية، ومحلية.فهي حركة غير معزولة عن مخاض تشكل، وتطور اللغـــات في أوروبا الوسيطية، وتدافعها، وتجددها المتصل المُفضي إلى العصـــر الحـــديث وهو مسرح شاسع خشبته طليطلة، معهد الترجمة العالمي، وقبلة المنقبين عن كنوز العربية رمز عقلانية الفكر، وحداثته يومئذ، وأطرافه إشبيلية وغرناطة، وصـــقلية ونورماندي، وباريس، فعلى هذا المسرح عبرت لغات، و تلاقحت، وسكبت تـــراث اليونان والعرب في أقداح بعضها البعض، في حمية تغذي وحـــدة أبنـــاء إبـــراهيم وتكرس التسامح الحضاري»[24].وقد نبهت الباحثة مينوكال إلى المكانة المرموقـــة التي تمتعت بها اللغة العربية، وأشارت إلى دورها في إثراء التنوع الحضـــاري، إذ تقول:«كانت العربية لغة محترمة، تستعمل في الإمبراطورية كلها، وموصولة بباقي الحضارة. وعلى مرمى البصر، بل في ما وراء ذلك، كانت اللغة العربيـــة اللغـــة المشتركة عالمياً، وفي كل مكان تقريباً من شبه الجزيرة المفعمة بالحيوية، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدالة على الرفعة والســـمو داخـــل الجماعـــات مـــن الديانتين. ولم تترك الإدارة الإسلامية الجديدة اليهود والمسيحيين على قيـــد الحيـــاة فحسب، بل إنها، في إطار تنفيذها لما ورد فـــي القـــرآن، عملـــت عمومـــاً علـــى حمايتهم؛فعرفت الجماعتان، يهود الأندلس، ومسيحيوها، تعريباً واسعاً بعد ســـنوات على وصول عبد الرحمن إلى قرطبة. وفي أواسط القرن التاسع، في أحـــد أشـــهر

وثائق ذلك العصر، نجد بول ألفار القرطبي يشكو من عجز الشبان المنحدرين من الجماعات المسيحيين عن كتابة رسالة واحدة باللاتينية، في حين أنهم يكتبون قصائد بعربية فصحى تضاهي تلك التي يكتبها المسلمون»[25]. وقد شكلت اللغة العربية جسراً من جسور التواصل الحضاري بين المسلمين، والمسيحيين، واليهود، وهذا ما نُلفيه في حديث بول ألفار القرطبي المسيحي من خلال كتابه:«الدليل المنير» والذي أشار إلى أن المسيحيين يعشقون قراءة الأشعار، والقصائد العربية، يدْرسون الفقهاء، والفلاسفة العرب، لا من أجل الرد عليهم، أو مجادلتهم، وإنما من أجل اكتساب عربية جيدة، وأنيقة، وفي هذا الشأن أشارت الكاتبة إلى أن العرب قد حملوا إلى إسبانيا شيئاً لم تكن مملكة القوط تملكه في يوم من الأيام، وهي اللغة التي يُعبر بها الإنسان بأناقة عن كل حاجاته الأساسية، وقد كان اليهود يعشقون اللغة العربية؛حيث تشير في هذا الشأن إلى أن«التعلق الذي كانت تحس به العشيرة اليهودية إزاء العربية، وهي العشيرة الآمنة والنافذة، لم يثر أي رد فعل مماثل لرد فعل بول ألفار القرطبي، ذلك أن الجماعات اليهودية عرفت المنفى منذ الأزل تقريباً، وكانوا يعرفون التكلم منذ أمد بعيد بلغة الآخرين دون أن يتنكروا لعقيدتهم اليهودية.بل أكثر من هذا، لقد طور قرن من الهيمنة الأموية الوضع الاجتماعي والحياة اليومية لليهود بصورة واضحة.فالجماعة التي كانت حتى هذا الحين تعيش في الفقر المدقع والعبودية أصبحت ترتقي بسرعة في السلم الاجتماعي، إلى درجة أن يهودياً سيصير يوماً الوزير الأكبر لخليفة أموي»[26].كما اهتمت الباحثة مينوكال بالدور الكبير الذي لعبته الترجمة في نقل العلوم، والمعارف من الأندلس ومن قرطبة تحديداً إلى أوروبا، وهذا ما أثر أيما تأثير في الحياة الفكرية، والعلمية لأوروبا ككل، فقد اتسع مشروع الترجمة أيما اتساع، وتمت ترجمة آلاف الكتب من العربية إلى اللاتينية، وهذا ما مكن مختلف المسيحيين من الإطلاع على عدد كبير من المصادر، وتشير المؤلفة إلى أن الكتب التي ترجمت يصعب تخيلها، وهي

مصادر تعد غاية في الأهمية، ومن الكتب النفيسة مثل الأعمال الكاملـــة لأرســـطو وهي غنية بشروح ضافية لكتاب مسلمين، ويهود، ومثل مصـــادر أخـــرى قديمـــة ومعاصرة، وتشير مينوكال إلى أنه بإمكان الباحث أن يذهب إلى مدينة (طليطلـــة) في بداية القرن الثالث عشر، ويجد بها إضافة إلى كثرة المترجمين الموهوبين ثقافة ترجمة برمتها، وقد قدمت مثالاً بمكاييل سكوت الذي حلّ بطليطلة بغـــرض تعلـــم اللغة العربية، ودراسة أسرار الترجمة المزدوجة، أو المتحـــدة، وكانـــت الطريقـــة المتداولة في غالب الأحيان، أن يترجم يهودي في البدء النص العربـــي إلـــى لغـــة محلية مشتركة هي القشتالية، ثم يأخذ المسيحي تلـــك الصـــيغة، ويُترجمهـــا إلـــى اللاتينية، ولم يقتصر المترجمون الآتون من مدرسة طليطلة على ترجمة نصـــوص مفردة، بل إنهم يترجمون الثقافة كلية، وكـــان المترجمـــون المســـيحيون يُحســـون تدريجياً أن الأعمال التي يشتغلون عليها، إنما هي ترجمـــات إلـــى العربيـــة مـــن نصوص إغريقية، تعبق بالثقافة الأندلسية، وتؤكد المؤلفة على أن الترجمة قد لعبت دوراً كبيراً خلال القرون التي كان فيها المسلمون يعتبرون العلوم العقلية، والفلسفة عنصراً ضرورياً لمكانتهم، هـــذه الثقافـــة القائمـــة علـــى الترجمـــة، المتســـامحة بالضرورة، هي التي أسرت الآن المسيحية اللاتينية، وانتقلت بفضلها العلـــوم مـــن قرطبة إلى سائر الأقطار الأوروبية، وأثرت على الصعيد العالمي ككل، وتؤكـــد أن مشروع الترجمة كان أكثر من مجرد ملائمة آلية بين الشرق والغرب، سواء مـــن حيث نتائجه المباشرة أو البعيدة المدى، وفيما يتعلق بما تمت ترجمته فالكاتبة تشير إلى أن الأمر لم يكن يتعلق بمجرد ترجمات من العربية، لقد كانت هناك نصـــوص تستلهم دعائم ثقافة لتجعلها تدخل ثقافة أخرى، وهكذا فقد حُـــررت دراســـات عـــن تاريخ العالم، وعن مجاميع القوانين، وأبحاث علمية أغنت التراث القديم، بالإضافة إلى أنه كانت هناك مؤلفات لم يُسبق ترجمتها من قبل إلى اللاتينية، لعدم الاهتمـــام

بها، فوجدت اهتماماً كبيراً بها، وانتشرت الكلاسيكيات التخيلية الأولى، ولقيت أصداء طيبة، وقبولاً واسعاً.

لقد أضحت الثقافة الإسلامية منتشرة في شتى أصقاع أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، نظراً لثلاثة عوامل رئيسة:أولها معرفة الأوروبيين للغة العربية فهي لغة المعارف الإسلامية، والدين الإسلامي، وثانيها الاتصال الفلسفي بين أوروبا، والأمم الإسلامية، وثالثها معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية الإسلامية، فاللغة العربية ساعد انتشارها على ربط الاتصال بين المسيحية، والإسلام، حيث نلفي الإسبانيين جيران المسلمين في الغرب، يتخذون كُتّاباً من العرب يكتبون عنهم بالعربية إلى المسلمين في الأندلس، والمغرب، إضافة إلى أن الاتصال الحربي دفع إلى تعلم اللغة العربية، لاقتباس المعارف الإسلامية، ولمُحاربة الإسلام، والتبشير بالمسيحية، فعلى سبيل المثال ريموند لول الإسباني كان يُحسن اللغة العربية وأسس سنة:1276م كلية للرهبان في(ميرامار)لدراسة اللغة العربية، كما أسست أول مدرسة عرفتها أوروبا في (طليطلة) على يد المبشرين، وفيها كانت تُعلم العربية، فانتشار اللغة العربية ساعد على معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية، ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، تُرجم القرآن الكريم إلى اللاتينية، وذلك رغبة في نقده، ومناقشته، كان ذلك سنة: 1143م، وريموند لول تأثر تأثراً كبيراً بالمصادر الإسلامية، وكذلك رايمون مارتان تأثر بكتابات المسلمين، ففي كتابه:«الدفاع عن الإيمان»، يبدو متأثراً، وإلى حد كبير بكتاب:«تهافت الفلاسفة»للغزالي[27]، كما انتقلت المؤثرات الحضارية العربيَّة الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا، عن طريق طلاب العلم الذين وفدوا إلى الأندلس، وقد أسهم في تلقي العلوم العربية، أنهم كانوا يأخذون عن المستعربين الأندلسيين، الذين كانوا على معرفة باللغة العربية، ومن بين هؤلاء الراهب جيربرت دي أورياك، الذي اعتلى فيما بعد كُرسي البابوية، وبيدرو الفونسو القطالوني، وقد أسهمت مدرسة

الترجمة في (طُليطلة) بنقل الثقافة العربية الإسلامية بكل ما احتوته مـن عناصـر معارف اليونان القديمة إلى أوروبا، بالإضافة إلى ما أبدعه العرب في حقول العلـم والمعرفة، وقد اشتهر على صعيد نشاط هذه المدرسة (غونديسا لفـو) أحـد كبـار اللاهوتيين في كاتدرائية طليطلة في الفترة مابين: 1120 و1170م، فقد قام بنقـل كثير من المعارف الفلسفية إلى أوروبا، وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينيـة تتم عن طريق الواسطة، بحيث تجري الترجمة الشفوية إلى الاسبانية الدارجة، ومن ثم يُترجم الكلام إلى اللاتينية، ويُسجل[28]، ومما يدل أيضاً على عناية الأوروبيـين بكتب المسلمين أن كُتب (محيي الدين بن عربي)كانت حاضرة فـي بـلاد الـيمن والروم، وقد ذاع صيتها بشكل عظيم، وكان المؤلفون الأندلسـيون يعتمـدون فـي مؤلفاتهم في كثير من الأحيان، على كتب الأوربيين، ومن ذلك لسـان الـدين بـن الخطيب، عندما رغب في التعريف ببعض ملوك النصارى، وكذلك اعتمد أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ابن جلجل في كتابه:« طبقات الأطباء والحكماء»، على بعض الكتب الأوروبية، مثل كتاب: هروشيوش، وكتاب ايسدور الاشـبيلي، ومـن جهة أخرى اعتمد الباحثون الأوروبيون على المصادر الأندلسية في مؤلفاتهم، فقـد اعتمد ألفونسو العاشر الحكيم في كتابه:« التاريخ العام»على مصادر عربية، مثـل كتاب: آداب الفلاسفة، لحنين بن اسحاق، وكتاب« المسالك والممالك» لأبـي عبيـد البكري، وكتاب إبراهيم بن ناصف شاه المصري عن تاريخ مصر[29].وفي زمـن ألفونسو العاشر المعروف بالحكيم، أو العالم ملك قشتالة (1252-1284م)، شهدت الترجمة من العربية نشاطاً واسعاً، حيث ترجمـت كليلـة ودمنـة سـنة: 1251م والسندباد سنة: 1253م، وقد اقترن نشاط الترجمة بتأليف معـاجم لغويـة عربيـة أوروبية، من بينها ورقة مازالت موجودة في المكتبة الوطنية بمدريد مـن معجـم عربي ألماني مؤرخة في شوال 906هـ/ أيار 1501م، وقد اقتضـت الأنشـطة الثقافية، والعلمية المختلفة تعلم لغات الأوروبيين، وأن يـتعلم الأوروبيـون اللغـة

العربية، فقد كانت هناك ازدواجية لغوية داخل المجتمع الأندلسي، نظــراً للتعــايش والامتزاج الثقافي بين عناصر المجتمع الأندلسي من الإسبان، والعرب، وغيــرهم حيث عرفوا لغات بعضهم، وقد كان كثير من الأندلسيين الذين طافوا ببلاد أوروبــا طلباً للعلم يعرفون لغات كثيرة، وكان الصقالبة فــي الأنــدلس يعرفــون العربيــة وبعضهم كان يكتب، ويؤلف بها، فقد ألف حبيب الصقلبي كتاباً سماه:« الاســتظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة»، وفي رحلة ابن جبير ذكر أن ملك صقلية كان يتحدث اللغة العربية، ويعرفها[30]. لقد كانت اللغة العربية، بوصفها لغة العلــم والمعرفة، والثقافة، والأدب، تحتل مكانة متميزة، وهي في طليعة اللغات في ذلــك الزمن، مما دفع بغير أصحابها إلى تعلمها، والتمكن منها، وإجادتها، فبالنسبة إلــى النصارى، فليس يُلفي الباحث شاهداً دالاً على ما كان من حرصهم، و دأبهم علــى تعلم اللغة العربية أقوى من صيحة الاحتجاج التي رفع بها القسيس القرطبي(ألقرو) عقيرته مُستنكراً على أبناء جلدته النصارى إفراطهم فــي حُــب اللغــة العربيــة والشغف بأدبها، وجمع كُتبها، فيقول:« يا للحســرة، إن الموهــوبين مــن شــبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويُقبلون عليها في فنهم، وهم يُنفقون أموالاً طائلة في جمع كُتُبها، يا للألم، لقد أنسي النصارى حتــى لغتهم، فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجدٌ فيهم عدداً عظيماً يُجيدونها فــي أسلوب مُنمق...» [31].لقد كان المجتمع الأندلسي مؤلّفا من عناصر بشرية شــتى وهم : العرب، والبربر، والنصارى، واليهود، والصقالبة، والغجر...، وغيرهم وقد أدى هذا التلاحم في الحوار، والوئام إلى نقل الثقافة، والحضارة الأندلســية إلــى الغرب المسيحي، فقد كان النصارى إبان الفتح الإسلامي يؤلفــون أغلــب ســكان إسبانية، وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه فــي بقعــة إســلامية أخرى، وقد جرى بينهم، وبين الفاتحين من الاختلاط، والتأثير المتبادل الطويل مــا لم يجر مثله في أي صقع إسلامي آخر. وقد أظهر الإسلام تجــاههم كثيــرا مــن

التسامح على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام مـــن تلك البلاد[32].وتكثر الأدلة على التسامح العظيم الذي أبداه المسلمون نحو نصـــارى الأندلس، فقد تركوا لهم حرية العقيدة، والتعبد منذ الفتح الإسلامي، وظل العهد الذي أخذه عبد العزيز بن موسى بن نصير على نفسه قبلهم من حرية العبـــادة والحفـــاظ على معابدهم، قائما طوال عصور المسلمين في الأندلس، فقــد كـــانوا يرحمـــون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم معهم، وما إلـــي ذلـــك مـــن الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة مؤخّرًا[33]، ومـــن مظـــــاهر هـــــذا التسامح، والوئام بين العناصر، والأديان في الأندلس، وهـــو يدعـــو إلى الإعجاب، المثال الذي يقدّمُه(أولاغي)المـــؤرخ الإسباني مـــن قرطبـــة، فيقـــول : « فخـــلال النصف الأول من القرن التـــاسع كـــانت أقـــلية مسيحية مهمة تعيش في قرطبـــة وتُمارس عبادتها بحرية كاملة» [34].فلقد بهرت الثقافة الإسلامية جماعة المسيحيين الذين عاشوا في كنف المسلمين، فقلدوهم في كثير من مظاهر ثقـــافتهم، فاتخـــذوا أزياءهم، ولغتهم، ونمط حياتهم في كثير من الأحيان، برغم احتفاظهم بدينهم، وقـــد برز من شعـــراء النصرانية بالعربية في الأندلس(ابن المِرْعِـــزَّى الإشبيلي)شـــاعر المعتمد بن عبّاد، ومن أثر الثقافة الإسلامية في النصارى أيضـــاً أن بطـــره الأول ملك أرغونة (ت499هـــ–1104م) كان لا يعرف الكتابة إلا باللغة العربية، وكذلك فقد كان العنصر اليهودي كبيرا في الأندلس، وقد استقبل اليهود الفاتحين المســـلمين كمحرّرين، لأنَّ القوط كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب، فكان ملوكُهم يعاملونهم نفس السوء الذي يعاملُهم به أهل سائر البلدان النصرانية في أوربة، بل إنَّ العامـــة كانت تعاملهم بمنتهى القسوة، وكان القائمون على الكنيسة وحُكام الدّولـــة ينهبـــون ويتلقون أموالهم بلا حياء ولا رحمة . ولهذا فقد كان إحساسُ اليهود صادقًا عندما توقَّعُوا خيرًا على أيدي المسلمين الفاتحين، فَقَدَّمُوا لهم المساعدة، وقد كـــان تـــأثيرُ الثقافة العربية الإسلامية في اليهود واضحا وجليا[35]، وقد لعبوا دورًا مهمـــاً فـــي

الأحوال السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، حيث تَمتَّــع كثيــر مــنهم بالجـــاه والمناصب السامية، وقد تولَّى ثلاثة من اليهــود الوزارة في الأندلس على الأقــل، ولعلَّ أوَّلهم الوزير الشاعر الكاتب (حسداي بن يوســف بــن حســداي) وكان وزيرًا للمستعين أحد الملوك الأمويين الذين عاشوا زمن الفتنة، وقــد تــولَّى المستعين إمرة الخلافة مرتين خلال سنتي (400) و(407) هــ، وقد لقّب حسداي نفسه بأبي الفضل بعد أن صار وزيرًا، وله شعر جميل يذهب فــي بعضــه إلـــى الصورة الزاهية، ويعمد في البعض الآخــر إلـــى الصــنعة البديعيــة الغاليــة ... والوزيــر اليهــودي الثـــاني الذي تــولى الوزارة في الأنــدلس هو(ابن نَغْرَالَّة)، وذكره المقري تحت اسم نغدلَّة، والاسم الأول، هو الأصوب، تــولّى(ابن نَغْرَالــة) الوزارة في غرناطة (لباديس بن حــبــوس)، الذي ولي أمــرها سنة (429 هــ) بعد أبيه [36]. ومن بين الفلاسفة، والعلماء، الذين أسهموا فـــي التنـــوع الحضـــاري والثقافي بالأندلس ابن باجة(ت533هــ-1138م)، ففي عصـــر المـــرابطين كـــان الفيلسوف ابن باجة الذي افتتح عهداً جديداً في الفلسفة لما بني التفكير الفلسفي على الرياضيات، والطبيعيات، ثم فصل البحث في الدين عن البحث في الفلسفة، وكـــان لابن باجة أثر كبير في الفكر الغربي، بعد نقل كتابه: (تدبير المتوحد) إلـــى اللغـــة العبرية، واللاتينية، وكان لهذا الكتاب أثر بالغ في ألبرت الكبيــر، وفـــي التفكيـــر الأوروبي من خلال فلسفة ألبرت الكبير، فابن باجة يعد رأس الفلاسفة العقليين فـــي العصور الوسطى، وكذلك الشأن بالنسبة إلى ابن رشد، الفيلسوف صاحب الـــرؤى الثاقبة، والعميقة، فليس في تاريخ الفكر الإنساني مفكر ترك على التفكير الغربـــي (الأوروبي) أثرا مثل أثر ابن رشد، فحسبك أن تعرف أن الفكر الأوروبي قد خضع لأثر فلسفة ابن رشد أربعة قرون كاملة متوالية : كان الفكـــر الأوروبـــي قـــرنين كاملين يذهب مذهب ابن رشد، ثم جاء قرنان كـــاملان أيضًـــا نصـــبت الكنيســـة الكاثوليكية في أثنائهما لابن رشد عداء شديدا، ومع ذلك فإننـــا نتبـــين فـــي الفكـــر

الأوروبي إلى اليوم ملامح من فلسفة ابن رشد، وإن كـــان هــؤلاء المفكـــرون لا يقولون إنهم أخذوا من ابن رشد، فقد كان ابن رشد يرى أن الفلســفة شـــيء، وأن الدين شيء آخر. ولو كان الدين هو الفلسفة، لما كان لهما اسمان، ولكان لهم اســم واحد، غير أن ابن رشد قال إن المرء محتاج إلى الدين (وهو السلوك العملي فـــي الحياة الدنيا ليعيش الفرد والمجتمع سعيدين نافعين)، ثم هو محتاج أيضا إلى الفلسفة (وهي التفكير النظري في المدارك العامة). وبينما نجد الدين – كما يقول ابن رشد أيضا – فرضا على جميع الناس، نجد الفلسفة خاصة بطبقة من الناس بلغ أفرادهـــا من الاستعداد العقلي مبلغا يُمكنهم من البحث النظري من غير أن يُضـــر بحيـــاتهم العملية. هذا الأخذ الكامل بما يوحيه الدين إلى جانب الأخذ المتفاوت مـــن الفلســـفة (بالمقدار الذي يحتاج إليه كل فرد بحسب استعداده العقلي)، قـــد سمـــاه ابن رشد: «الجمع بين الحكمة » (الفلسفة)، والشريعة (الدين). ثم جاء نفر من الغربيين، ومن العرب أيضا فسموا هذا « الجمع » توفيقا، تسمية خاطئة[37].وقد كان ابن طفيل من جبابرة الفكر في العصور الوسطى (في الشرق وفي الغرب، وفي الإســـلام، وفـــي النصرانية). وقد ترك الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا منه، وهو قصة (حـــي بـــن يقظان)، أثرا بالغًا في الفكر الإسلامي، وفي الفكر المسيحي، و لقد نقلت (قصة حي بن يقظان)، على أنها قصة بارعة إلى عدد من اللغات، ثم قلدها نفر من مشـــاهير رجال العلم، والأدب. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى كتـــاب: (إميـــل للكاتـــب الفرنسي جـــان جـــاك روسو)، وإلى قصة (روبنص كروزو للكاتـــب الإنكَليـــزي دانيال ديفو) [38].

التوصيات المقترحة: بعد هذه الجولة مع يّم التّسامح فـــي الثّقافـــة الإســـلاميّة وأهمّية اللُّغات في إثراء التّنوع الحضاري، يوصي الباحث بما يأتي:

1–العمل على الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يُسبب استفزازاً لمختلف الأديـــان من خلال سن قوانين صارمة تُحرم، وتجرم كل من يُسيء إلى الرســـل والأنبيـــاء

والمقدسات الدينية، وتُعاقب كل من يسعى إلى إثارة المشاعر الإيمانية، والدينية، مع احترام أماكن العبادة، والمقدسات الدينية كافة، وحماية كل من يرغب في الوصول إلى مقدساته، والحرص على عدم الإساءة إلى الأديان، ولاسيما من قبل وسائل الإعلام، فمن غير المعقول أن ندعو إلى التسامح، وحوار الثقافات، ونلفي مجموعة من وسائل الإعلام الغربية المرئية، والمسموعة والمقروءة، تعمل على تشويه صورة الإسلام، وتقدم أفكاراً مغلوطة عن مبادئه وقيمه السمحة.

2-ترسيخ قيم التسامح، والتعاون بين الغرب، والعالم الإسلامي، وتقدير القيم الإنسانية المشتركة مثل:العدالة، والمساواة، والتسامح.

3-التركيز على الأدوار الفاعلة التي يُمكن أن تلعبها الجاليات المسلمة في الغرب، من خلال تقديم صور حضارية عن الإسلام، وقيمه السمحة.

4-استغلال تكنولوجيات الاتصال الحديثة في تقديم الصورة الحقيقية للدين الإسلامي، من خلال إشاعة الفكر الوسطي، والمعتدل، وتسليط الضوء على أخلاقيات التعايش السلمي، وقيم التسامح التي تجلت في ديننا الإسلامي الحنيف مثل:إنشاء مواقع على الشابكة(الأنترنت)، بلغات متنوعة للتعريف بالقيم الحضارية للإسلام.

5-العمل على إقامة مشاريع علمية، وفكرية، مشتركة بين العالمين الإسلامي والغربي تتجسد من خلالها قيم التسامح، والحوار الحضاري، ويتجلى فيها احترام حرية الدين، والعقيدة.

6-إقامة ندوات، ومؤتمرات علمية، وفكرية لمتابعة شؤون الحوار بين الثقافات والحضارات، والتعاون الإنساني، من أجل تشييد جسور وطيدة للسلام، والتنمية.

7-العمل من أجل ألا يقتصر الحوار بين الثقافات، والحضارات، على النخب الثقافية، وأساتذة الجامعات، وعامة المثقفين، فحسب، بل لابد من وضع خطط علمية تتسم بمنهجية سليمة تُسهم في نقل الحوار الحضاري إلى شرائح واسعة من

المجتمعات الإسلامية، والغربية، وذلك على مبادئ سليمة تبنى على الاحترام المتبادل، والتعاون.

8-الإكثار من الدروس التي تُرسخ ثقافة الحوار، والتعايش السلمي، والتسامح مع الآخر، وذلك عن طريق تضمينها في المناهج التربوية، وإقامة مُقررات رسمية في المدارس، والجامعات، تُبرز احترام خصوصيات الآخر، وقبوله، والحوار معه.

9-إنشاء قنوات، وبرامج، وحصص إعلامية، تُجسد الحوار الحضاري والتعايش السلمي، وتدعو إلى الحوار، والتسامح مع الآخر، والعمل على أن تكون مشتركة بين الديانات المختلفة، وتُقدم بلغات متنوعة، لتفعيل الحوار مع الآخر وعرض الصورة الحقيقية للإسلام.

10-الإفادة من النشاطات، والفعاليات الثقافية، والمناسبات الدينية، والوطنية في تسليط الضوء على قيم التعايش السلمي، والتسامح بين مختلف الديانات، وتنمية قيم التضامن، والأخوة، والمحبة المتبادلة.

11-إقامة مراكز فكرية، وجمعيات ثقافية في مختلف بلدان العالم، ولاسيما في الغرب، لاطلاع المجتمعات على الصور المُشرقة في الحضارة الإسلامية والتركيز على المحطات التي جمعت الأديان على المحبة والتسامح، والكشف عن القواسم المشتركة بين الأمم، والشعوب، والأديان، سواء في المجال الديني، أو الثقافي.

12-الحرص على تطبيق منهج المحاورة، كما جاء في القرآن الكريم بالتي هي أحسن، ولابد أن يُدرك أطراف الحوار(المحاوِر، والمُحاوَر)أن الحوار بين الإسلام والغرب ليس نابعاً من باب الضعف، وإنما هو تطبيق لسنة نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-الذي كان يُحاور بهدوء عن طريق الحكمة، والموعظة الحسنة، وكان يحترم الآخر، وهذا من شأنه أن يُقرب الدين الإسلامي إلى الآخر، ويرد على الإساءة، والتشويه.

13-دعم الأبحاث والدراسات التي تهـدف إلـى تحقيـق التواصـل الثقـافي والحضاري، بين مختلف الأديان، والأمم، والشعوب، من خلال تقديم منح و تأسيس جوائز لتشجيع أحسن الأبحاث التي تُبرز أثـر الثقافـة الإسـلامية فـي الحـوار الحضاري، والتعايش السلمي، وأوجدت حلولاً للمشاكل التـي تعتـرض طرائـق الحوار مع الآخر، مع تشجيع المُبادرات التي تصب في هذا الباب .

14- الاهتمام بمتابعة الحوار الحضاري، وتكثيفه في بعده التربـوي والثقـافي وتعزيز اللقاءات والأيام الثقافية التي تُعرف بالحضارة الإسـلامية فـي العواصـم الغربية، وتبادل الآراء من أجل تطوير العلاقات بين أتباع الديانات المختلفة.

15-إقرار جملة من المبادئ التي تؤكد على عدم اسـتهداف أشـكال الهويـة الإنسانية التي تتجلى من خلال اللغة، والـوطن، والتـاريخ، والتقاليـد، وغيرهـا والعمل على الرد بطرائق حضارية راقية على المقولات التي تدعو إلـى صـدام الحضارات، وإشاعة العنف، والتطرف.

16-القيام بحوارات داخلية بين المسلمين أنفسـهم لتحديـد أولويـات الحـوار الحضاري مع الآخر، وإبراز أسسه، وقضاياه، وأولوياته، بما يتوافق مع متطلبـات ومصالح الأمة الإسلامية، حيث يمكن تفعيل هذا الحـوار الـداخلي عـن طريـق التنسيق، والتفاعل بين المؤسسات الفكرية، والمنظمات الإسلامية، وتبادل وجهـات النظر، لتحديد أهداف الحوار الحضاري مع الآخر.

17-مراسلة مراكز البحوث، والمؤسسات الفكرية فـي مختلـف دول العـالم وتزويدها بالمطبوعات المتعلقة بالحوار الحضاري مع الآخـر، وتشـجيعها علـى التعاون الفكري، والتبادل الثقافي، من أجل توضيح أثر الثقافة الإسلامية في الحوار الحضاري، والتعايش السلمي.

18-تنظيم منتديات فكرية، وإصدار مجلات علمية تُسلط الضوء على القواسم المشتركة بين الأديان، وتُوضح القيم الإسلامية السمحة للآخر، التي تُبرز حُسن الجوار، والتعايش، والسلام.

19-إدانة التطرف، وأعمال العنف بجميع أشكالها، و الاتفاق على عدم ربطها بدين محدد، انطلاقاً من إدراك المجتمعات، والأمم أن في كل مجتمع غلاة فهمهم قاصر لحقيقة الأديان، ورسالتها الحضارية.

20-الابتعاد عن الغرور، والاعتقاد بتفوق أي طرف من أطراف الحوار على الآخر، فلابد من الاعتراف بالآخر، والإقرار بخصوصيته الثقافية، حتى لا يؤدي هذا الأمر إلى الجفاء، والتجاهل، ورواج الأفكار الهدامة، ويُشجع على الكراهية والأحقاد.

21-التركيز على المحطات التاريخية المُشرِّفة، والمُشرقة بين المسلمين والمسيحيين، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر أننا نُلفي في العصر العباسي كيف أن المسيحيين، قد قاموا بنقل التراث من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، ثم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وقد وجودوا كل التشجيع والاحتفاء، من قبل الخلفاء المسلمين، فأجزلوا لهم العطاء، واحترموا ديانتهم، كما تأثر الكثير من فلاسفة المسيحية بجملة من الأفكار الإسلامية، وكانوا يستشهدون بها، ويُعبرون عن إعجابهم الشديد بما تضمنته.

الهوامش والمراجع:

---

(1)أحمد سلمان كمال:حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي التراث والمعاصرة وحوار الثقافـات منشورات جمعية بيروت التراث، بيروت، لبنان، 2003م، ص:162. وينظر الكلمة الافتتاحية لكتاب أعمال مؤتمر كيف نواصل مشروع حوار الحضارات، ج:01، منشـورات المستشـارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، 1423هـ/2002م، ص:8.

(2)أحمد سلمان كمال:حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي التراث والمعاصرة وحوار الثقافـات ص:162. وينظر الكلمة الافتتاحية لكتاب أعمال مؤتمر كيف نواصل مشروع حوار الحضارات ج:01 ، ص:8.

(3)شكري بوشغالة:حوار الأديان، مجلة الحياة الثقافية، مجلة شهرية تعنى بالفكر والإبداع تصـدر عن وزارة الثقافة التونسية، عدد خاص بالأديـان والقـيم الإنسـانية المشـتركة، العـدد:199 جانفي2009م، ص:49.

(4) عبد الكريم غريب:افتتاحية العدد:17 من مجلة عالم التربية ، مجلة محكمة تعنـى بقضـايا التربية والتعليم تصدر بمدينة الجديدة بالمغرب الأقصى، عدد خاص بالعولمة وحوار الحضـارات والثقافات صدر سنة:2007م، ص:3-4.

(5) د.عبد القادر الشيخلي: ثقافة الحوار في الإسلام، منشورات كتاب الرياض، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط:01 ، 1424 هـ/2003م ص:246 وما بعدها.

(6) سورة سبأ، الآية : 24.

(7) سورة سبأ، الآية : 25.

(8) سورة سبأ، الآية : 26.

(9) د.محمد السماك:ثقافة الحوار في الإسلام:حرية الاختيار وحق الاختلاف، مجلة النشرة دورية تصدر عن المعهد الملكي للدراسات لدينية، عمّان، الأردن، العدد:44، السـنة:11 ربيـع2009م ص:22 وما بعدها.

(10) د. محمد السماك: ثقافة الحوار في الإسلام:حرية الاختيار وحق الاختلاف، المرجـع نفسـه ص:22 وما بعدها.

(11) د. محمد السماك: المرجع نفسه، ص:24.

[12] المرجع نفسه، ص:25.

[13] أحمد سلمان كمال:حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي التراث والمعاصرة وحوار الثقافات ببيروت، ص:164 وما بعدها.

[14] د.محمد جابر الأنصاري:هل نحن في علاقة مشوهة مع النفس، الإسلام والغرب كتاب العربي العدد:49، منشورات وزارة الإعلام بدولة الكويت يوليو2002م، ص:224 وما بعدها.

[15] د.أحمد طالب الإبراهيمي:حوار الأديان، مداخلة ألقيت في مؤتمر حوار الأديان الذي عُقد بقطر في:13مايو2008م، أسبوعية البصائر، العدد: 402، الاثنين 25 رجب-2شعبان 1429هـ/28 جويلية-04 أوت2008م،، ص:05.

[16] عبد العزيز بوتفليقة:الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات، كلمة افتتاح لملتقى الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات، الجزائر الإثنين24مارس2003م، منشورة في كتاب خطب ورسائل، مديرية الاتصال والصحافة رئاسة الجمهورية الجزائرية، 2003م، ص:214.

[17] الأمير تشارلز:إحساس بالمقدس:بناء الجسور بين الإسلام والغرب، منشورات مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، أكسفورد، 1997م، ص:10، نقلاً عن كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص:341.

[18] الأمير تشارلز:إحساس بالمقدس:بناء الجسور بين الإسلام والغرب، منشورات مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، أكسفورد، 1997م، ص:16، نقلاً عن كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص:341.

[19] د.عبد العزيز بن عثمان التويجري:العولمة وحوار الحضارات:رؤية من خلال الإسيسكو أعمال المؤتمر الدولي التراث والمعاصرة وحوار الثقافات، منشورات جمعية بيروت التراث بيروت، لبنان، 2003م، ص:39 وما بعدها.

[20] د.مفرح بن سلمان بن عبد الله القوسي:العلاقة الفكرية الثقافية بين العالمين الإسلامي والغربي في العصر الحاضر:الحواجز والجسور، كتاب صادر عن سلسلة دعوة الحق، كتاب شهري محكم يصدر عن الإدارة العامة للثقافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، العدد:226، السنة الثالثة والعشرون، 1429هـ/2008م، ص:124 وما بعدها.

[21] د.مصطفى شريف:ثقافة السلم ليتعلم الشباب الحوار، منشورات دار هومة للطباعة والنشر الجزائر، ط:01، 2016م، ص:11.

(22) د.مصطفى شريف:ثقافة السلم ليتعلم الشباب الحوار، ص:88.

(23) د.إبراهيم القادري بوتشيش:المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، عدد:11، رجب1414هـ/1994م تونس، ص:22، وما بعدها، وينظر:د. بومدين كروم:ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية، أعمال الملتقى الدولي الحضارة الإسلامية بالأندلس، أيام:14، و15، و16 ربيع الأول1428هـ/2، و3، و4أفريل2007م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر 2008م، ص:21 وما بعدها، وينظر:د.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج32/31، صيف، خريف2005م، القاهرة، مصر، ص:53 وما بعدها.

(24) د.ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة:عبد الحميد جحفة، ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط:01 2006م، ص:6 وما بعدها.

(25) د.ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح ، ص:30 وما بعدها.

(26) المرجع نفسه، ص:60.

(27) محمد الصمدي: تأثير الإسلام في التفكير الديني المسيحي خلال العصور الوسطى، دراسة منشورة ضمن كتاب:الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق: محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب الأقصى، ط:01، 1995م ص:204 وما بعدها.

(28) علي أحمد: المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية والمغربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، دراسة منشورة ضمن كتاب:الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، ، ص:213، وما بعدها.

(29) د.صلاح جرار: زمان الوصل:دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط: 01، 2004م، ص:45 وما بعدها.

[30] د.صلاح جرار: زمان الوصل:دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس ص:46 وما بعدها.

[31] تاريخ الفكر الأندلسي، ص:48، نقلا عن:د.حسن الوراكلي:ياقوتة الأندلس-دراسات في التراث الأندلسي-، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص:20.

[32] د.جودت الركابي : في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966م، ص:41.

[33] غوساف لوبون : حضارة العرب، ص : 342. وانظر أيضا : د.حسن أحمد النوش : التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص : 40، دار الجيل، بيروت، و نصر الدين البحرة : العرب لم يغزوا الأندلس، مقال منشور في مجلة : التراث العربي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد : 69، جمادى الأخير 1418هـ/أكتوبر 1997 م، ص : 22.نقلاً عن: د.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج32/31، صيف، خريف2005م، القاهرة، مصر، ص:56 وما بعدها.

[34] نقلاً عن: د.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص:56 وما بعدها.

[35] غوساف لوبون : حضارة العرب، ص : 342. وانظر أيضا : د.حسن أحمد النوش : التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص : 40، دار الجيل، بيروت، و نصر الدين البحرة : العرب لم يغزوا الأندلس، مقال منشور في مجلة : التراث العربي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد : 69، جمادى الأخير 1418هـ/أكتوبر 1997 م، ص : 22.نقلاً عن: د.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج32/31، صيف، خريف2005م، القاهرة، مصر، ص:56 وما بعدها.

[36] د.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص:58 .

[37] عمر فروخ : الغرب المسلم في إطار التاريخ الإنساني، دراسة منشورة في مجلة المناهل المغربية، العدد 31، ربيع الثاني، 1405 هـ، ص :44 ومابعدها، وص:47.ود.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص:60.

[38] د.عمر فروخ : الغرب المسلم في إطار التاريخ الإنساني، ص:47، ود.سعد بوفلاقة:حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص:61.

تجليات التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر من خلال أدبيات أ. سليمان باعمارة

أ. أحمد امعيز الحاج أحمد،
أ. شرع الله عمر
جامعة غرداية.

لا شكّ أنّ طبيعة الخلق أن يكونوا مختلفين متمايزين، وأنّ لكلّ بعض منهم ما يميّزه ويشكّل شخصيته وخصوصياته مقارنة مع غيره والواجب على كل فريق منهم أن يحافظ على عناصر تميّزه، إذ لا ينبغي له أن يفرّط فيها، فهي إرادة إلهية وسنة كونية، كما أنّ عليه بالمقابل –وفي ذات الوقت– أن يتفاعل مع الفرق والعناصر الأخرى ضمن المجموعة البشرية والتي لها ما يميّزها كذلك، فيقع التأثير والتأثّر بصفة إيجابية، ومنه يحصل النماء والازدهار، إذ أن تلك المميزات تتوزّع على مجالات الاجتماع والاقتصاد والفكر وغيرها، وهو ما يعطي فرصة أكبر للاستفادة والثراء، وكلّ ذلك في ظل الاحترام المتبادل وتكريس ثقافة الحوار والتقارب، فلا الانكفاء على الذات يجدي، ولا استبعاد الآخر بتجاربه وخصائصه وثرائه يفيد، خاصة في هذا العصر الذي نعيشه حيث تيسّرت سبل التواصل والاطلاع على الأمم وثقافاتها.

تزخر الجزائر –من بين ما تزخر به– بتنوع مهمّ من الناحيتين اللغوية والثقافية، وعلى الجزائريين أن يكتسبوا الوعي بأهمية ذلك التنوع، وأن يكرّسوه ويحافظوا عليه، كما أنّ عليهم بعد ذلك أن يتفاعلوا مع الأمم الأخرى ويسوّقوا نموذجهم الثقافي واللغوي العربي–

أمازيغي بجميع أبعاده وثرائه، وبذلك يقع تلاقح الأفكار وتتحقق النتائج المرغـوبة مـن استفادة ونماء وازدهار، فنحن الآن في عصر مفتوح ولابد أن نُحِلّ ثقافتنا ما تستحـق من المكانة بين ثقافـات الأمم والشعـوب.

تساهم الكـتابات والانتاجات الأدبـية أيّما إسهام في صدد التعـريف بالثقـافات فالأدب والأدباء من أحسن السفراء الـذين يعـرّفون بثقافـات الشعـوب وبأبعادهـا المخـتلفة كاللغة والعادات والتقالـيد والقـيم والمبادئ وغـيرها، وعـلى الأدبـاء والكتاب الجـزائريـين مواصلة مهمّـتهم النبـيلة هاته، مقـدّرين أهـمية مـا أنـيط بهم، فـالكاتب يعـكس -بشعـور منه أو بغـير شعـور- مجـمل خصائص بـلاده الفـكرية والثقافـية بحـيث يستطيع أي دارس أن يستـشفّها من ثنايا تلكم الكـتابات.

من الـكتّاب والأدباء الجـزائريـين الذين يمكن أن تحـظى أعمـالهم بدراسـة الباحـثين والمهتمين في هـذا المجال: الأستاذ سليمان باعمارة، ابن قصر آت مليشـت بولاية غـرداية، حيث يصحّ أن تعتبر نموذجا لاحتوائها على اللغتين الجـزائريـتين الوطنيتين والرسميـتين موظّفـتين في انسيابية وسلاسة جميلة وملهمـة، ولاحتوائهـا وتضمّنها أبعادا ثـقافـية زاخـرة، من خلال تعـرضه إلى جـوانب مـن الحـياة اليومية في بيئته القـريبة وادي مزاب بصفة خاصة، وتعرّضه لتلك الجـوانب فـي مخـتـلف ربوع الجزائر بصفة عامة، خـصوصا وأنه جـمع أغـلب ملاحـظاته من خلال تنـقلاته إلى كثير من مناطق الوطن، ومن خلال معـايناته المباشرة لجـلّ ما دبّجه يراعه وسال به قـلمه، مع ما يمتاز به من الغـوص في أبعـاد المـوروث الأصيل واستنطاق كنهه وخـباياه.

سنسعى للكـشف عـن بعض التجليات اللغـوية والثقـافـية في الجـزائر مـن خلال كـتابات وأدبيات الأستاذ سليمان، وستنبني هـذه الورقة البحثية على العـناصر الأساسية التالية:

1. مقـدمة وتمهيد.

2. نظـــرة على الـــتنوع اللغــوي والثقـــافي في الجـــزائر.
3. الأستاذ سليمان باعـــمارة وخصائص كتاباته الأدبية.
4. تجــليات الـــتـــنوع اللغــوي في الجـــزائر من خلال أدبيات الأستاذ سليمان.
5. تجــليات الـــتـــنوع الثـــقـــافي في الجـــزائر مـــن خـــلال أدبيـــات الأســـتاذ سليمان.
6. خاتمة، نتائج، توصيات.

نظـــرة عـــــلى الـــتنوع اللغــوي والثقـــافي في الجـــزائر:

تزخـــر الجزائر بتنوع لغـــوي وثقـــافي مشهود وعريق، فـــــوجود الأمازيغيـــة والعـــربية فـــيها دليل على وجود مجتمع متنوع، فـــوجـــود اللغة يشتـــرط وجـــــود مجـــتمع وهـــــنا يتـــضح الطابع الاجـــتماعي للغـــة، فـــليس هـــناك نظام لغـــــوي يمكن أن يوجد منفـــصلا عـــن جـــماعة إنسانية تستـــخدمه وتـــتواصل به[1]

فـــمنذ أن اتصل الأمازيغ باللغة العـــربية عـــن طريق الإسلام الذي اعـــتنـــقـــوه صارت الروافـــد الثقافية مخـــتلفة ومتعـــددة، فإضافـــة إلى ما تحـــتويه كـــلا منهمـــا من مضامين متنوعة، فإن التلاقح والتفاعل بينها مما زادها ثراء وتـــنوعا.

وقـــد استقـــبلت الجـــزائر عـــبر العصور ثقافات عـــديدة، وكان لكـــــلّ واحـــدة منها بصمتها وما تركته من رواسب ثقافـــية ولغوية امتدت إلى عديد الجـــوانب –وإن اخـــتلفـــت بينها في شدة التأثير– ولنأخـــذ هـــذه الصورة من خلال الفـــقرة التاليـــــة والتي تعطينا فكـــرة عـــن ذلك التنـــوع الذي عـــرفته الجزائر في إحدى فـــــــتراتها ويمـــكننا القياس عـــليه في فترات أخـــرى (..ولعـــل هـــندسة البناء وطريقة التأثيـــث ولغة التخاطب تعطي لنا صورة صادقة عن هـــذا المجتمع خـــلال الفـــترة العثمانيـــة إذ نجد الرخام الإيطالي بجانب الفيانس الهولندي، والزليج التونســـي مختلطـــا بمرايـــا البندقية، وحرير ليون بجـــوار ساعات الحـــائط الإنجليزيـــة، كمـــا أن لغـــة الشـــارع والمرسى المعروفة بلغة الفرنكا هي في الواقع خليط من لهجـــات البروفـــانس وبـــلاد

الإغريق الممزوجة بالتعابير العربية الشائعة والمفردات التركية والكلمـــات الإيطاليـــة والإسبانية والمالطية المحرفة..)[2]

وبالإجمال فإن نظرة بسيطة على الواقع اللغوي والثقافي في الجزائـــر الفــــسيحة تتبؤنا بعميق ما تكتـــنزه وتـــنطوي عليه في هـــذا المجال.

الأستاذ سليمان باعمارة وخصائص كتاباته الأدبية: ولد الأستاذ الأديب سليمان بـــن أحمد باعمارة يوم الخميس 28 أكتوبر 1952م بقصر آت مليشت إحـــــدى قـــــصور وادي مزاب العـــريقة بولاية غـــرداية، نشأ كعادة الجـــزائريـــين في تلـــك الفـــــترة فـــتلقى تعليمه الأول بكـــتّاب مسقط رأسه حـــيث أخــــذ مبـــادئ العلـــوم، فحـــــفظ قـــسطا من القـــرآن الكريم واكـــتسب اللغة العـــربية الفـــصحى، علاوة على المـــواد والعـــلـــوم الأخـــرى. تعـــلم حـــبّ الأدب العـــربي عـــامة واللبناني خاصة على يد أستاذه يوسف بن عـــيسى حـــني دودو، وكان أغـــلب تعـــلمه الأدبي عـــصاميا نظرا لانقطاعـــه عـــن الـــدروس النـــظامية لعدم مساعـــفة الـــــظروف لـــه فـــي تلـــك الحـــقبة، إلا أنه أظهر موهـــبة أدبية ملحوظة منذ ســـنواته الدراســـــية الأولــــــى، إذ يقول كاتبنا عـــن بـــداياته: (... صحّح المعـــلم المرحوم فخـــار صـــالح بـــن الحـــاج عـــيسى.. مواضيع الإنـــشاء في القـــسم ذات يوم وأنا ابن عـــشر... فـــــناداني إليـــه فـــتقـــدّمت إليه خائـــفا وجلا، فـــأخذ يفـــرك أذني اليمنى قائلا: يظهر لي أنه ســـيكون لك شأن في الكتابة مستـــقـــبلا إن شاء الله، فإذا كتبت وعـــزمت فـــتوكل عـــــلى الله ولا تقـــولنّ إلا الحـــقيقة، ولا تكـــذب لتكون لك المصداقية ولكتاباتـــك...)[3] فكـــــان هـــذا التشجـــيع وتلك الوصية نِعم ما أخـــذ بيده في درب الكـــــتابة والأدب، خاصـــة مع التزامه بها وتطـــبيقه إياها، حـــيث يقول في ذلك: (فـــقـــد سعيت بكـــل حـــرص وأمانة أن أذكر الوقائع كما حـــدثت، وأن أجـــسّد جـــذور علاقة فطرية وبريئـــة إزاء ما كانت عليه قـــريتنا في خـــصوصياتها، فكـــلما هـــممت في منزلـــق أن أزيـــد أو

أحــذف، توقــفــني فــرامل وصايا معــلمي، فأعــود إلى الجــادة، فـــمن تلــك الوصية رسمت خــطتي...)[4]

فالــتزام الصدق وتوخي الحقــيقة من بين أهــمّ ما يمــيّز كتابات الأستاذ ســليمان وهــو شأن الأدباء والكتّاب المقــدرين أمانةَ القلم حقّ قــدرها، العارفـــين بقـــيمة الكلمة وخطورتها.

ثم إن الكـــاتب قــد وضع نطاق الدين الإسلامي الحـــنيف والأخـــلاق الســامية إطارا لا يتعــداه، بل وهــدفا رئيسا يتوخاه ويذود عنه، ولا غـــرابة فهــو المتشــبع بالقــيم الأصيلة في مجــتمعــه الجــزائري المحــافظ والحــريص عـــلى المُثــل والفــضائل، ونجــده يتحــدث عــن منهجه ذلــك بقولــه: (.. وأرجـــو ألا يكــون هــنالك خــروج عــن النطاق الإسلامي، أو تعــدّ لــحــدود الرســالة المحـــمدية فــقد قال تعالى "ما يلفظ من قــول إلا لديه رقيب عــتيد"..)[5]. ويؤكــد ذات الأمــر في موضع آخــر من كتاباته بقــوله (..رسمت خــطتي من درب المحــبة والوفــاء واحــترام كل الناس بشتى توجــهاتهم، إلا طاعــنا فــي الــدين، والــدين عـــند الله الإسلام، ملتزما الصدق والقــيم والعادات والتقــاليد والهوية الاجتماعـــية للمجتمــع الذي أنتمي إليه، محــافظا على أصوله وثوابته الاسلامية المتجــذرة فيه، محــذّرا إياه من مسائل تأتي من ورائها في طبائعه وعاداته ومعايشـــه فــتــقـــلبه رأســا علـــى عــقــب، إذ يحـــسبها من أسباب السمو والتقــدم ولكنها [في الحقيقة] مــن أســباب الدناءة والخسّة ... ولهذا كنت رافضا دوما كل ما من شأنه طمس معالمــه الاســلامية وإدماجه في عادات الشرق والغــرب وما وراء البحار..)[6].

هكذا يبدوا لنا الأستاذ في مبادئه الإسلامية وأخلاقه المحـــمدية، واضــعا إياهــا ميــزانا يقــيس به الأفكــار والثقــافات التي تفــد عــلى مجـــتمعــاتنا الاســلامية – ومنها المجــتمع الجــزائري– وتحــاول العــصف بأعــرافـــنا الاجــتماعـــية وتقاليدنا المحــلية المبنية على أسس ربانية مــتينة، فــيحـــــضّ عـــلى التمسّــك

بالأصيل ونبــذ الدخيل، دون أن يُغــفـــــل أهــمية الاستفادة من التجارب المخـــــتلفة شرط وزنها بميزان الثوابت والمبادئ.

ومن بين ما تميزت به كتاباته كذلك: البساطة والعــمق، فلا تكــلف ولا سطحـــية وسماجة في تناول المواضيع، وهـــو يصبغ أغــلب ما يكــتب بصبغـــةٍ ذات طرافـــة تجــذب القارئ وتضفي عــليه ثوب المتعـــة والتشويـــق، وعـــن ذلك يقول الأســـتاذ: (..ولتعــلم كذلك أخي الكــريم بأنني لست ممن يكــتب للتســلية أو التـــرويح عــــن النفــس فقــط، ولا من الذين يكــتبون العــبارات المنمّــقة والمصطــنعة ليجــــذبوا إليهم القارئ بما أوتوا من رونق الكلمة وسحر البيان، ولكـــــني أروي خـــواطر مـــن الواقع بأسلوب عـــذب سلس وسهل الفهم، وأمرّر بين النكـــتة والكلمة الرسالةَ التي من أجلها تناولت ذلك الموضوع...)[7]. وهـــو ما لاحظه وخطّــه الأستاذ الدكتور محمـــد صالح ناصر بربوشة في أسلوب الأستاذ فــقــال: (..وما كــــدت أقـــرأ التقــــديم والمقـــدمة والإهـــداء حتى وجدتني منساقا لتصفح الصفحـــات الواحدة تلو الأخـــــرى مجذوبا بأسلوب كاتبه الممتع.. وقـــد استطاع المؤلف بمواهبـــه وأســـلوبه المتميّـــز أن يجلّي كل ذلك في ثوب سلس جـــذاب، يجعل القارئ منبهرا بوصفه الدقـــيق وخيالـــه الواسع وروحه المداعـــبة الذكية..) [8]

وقـــد جـــمع مؤخـــرا جملةً من مقالاته ونصوصه الأدبية التي تمثل ثمرة إنتاجاته على مدار حوالي نصف قـــرن وطبعها على حـــلقـــتين، تحـــتوي الأولى علـــى 29 نصا وكانت تحـــت عنوان (آت مليشت من ذاكرة الأيام)، أما الأخـــرى فـــاحـــــتوت على 34 نصا وكانت تحـــــت عـــــنوان (من نسمات الفجـــر، نـــاس وحكايـــات). وتولـــّـت النشر والتوزيع دارُ المنارة لمحـــضرة منارة الإيمان بـــغـــرداية.

بعـــد هـــذا العـــرض البسيط لبعـــض ما يميز أسلوب الأستاذ سليمان، ننتـــقــــل لنرى ما تتضمنه كتاباته من أبعـــاد وتجـــليات التنـــوع اللغـــوي في الجـــزائر.

تجـليات الـتـنوع اللغـوي في الجـزائر من خلال أدبيـات الأسـتاذ سـليمان باعمارة: تحوي الجـزائر -كما أشرنا آنفا- تنوعا لغـويا مهمّـا، وقـد صـارت اللغـات وتعـددها في الـمجـتمعات الحـديثة من المظاهـر الدالة على مسـتوى الرقي الفـكري والحضاري، لما تحـمله من دلالات التسـامح والانسـجام والثـراء ثقافـيا واجتماعـيا، علاوة عـلى الثراء اللغـوي ذاتـه، ولابد من انعكـاس ذلـك التنـوع اللغـوي في كتابات الأدباء الجـزائريين وظهـور تجلياته فـي إنتاجـاتهم المختلفة. فـما هـي تلكم التجليات في أدبيات الأستاذ سليمان باعمارة؟

يقـول الأستاذ مبيّنا معـتمده في هـذا الشأن: (.. ولكلّ تعـبير أسلوبه وطريقـة كتابته، وقـد اخترت الألفاظ المناسبة للمعـنى، فاستخـدمت تعابير عـامية وعـربية وأمازيغـية لأصل من ورائها إلى الهدف المقصود..)(9)

فقـد وظّف فـيما كـتبه جـميع ما تزخـر به الجـزائر مـن ثـراء لغـوي ولعـلنا نتطرق فـيما يلي إلى عـرض نماذج من عـيّنة البحـث تظهـر حضـور العـربية والأمازيغـية إضافة إلى العامية الدارجة، جـنبا إلى جـنب.

كانت اللغـة العـربية حاضرة من خلال أسلوب القـرآن الكريم، حـيث وظّفـه الأستاذ في كثير من مواضيعه، فـضمّن بعـض الآيـات كمـا جـاء فـي هـذا المثال:(...فـيتسلل بين طبقات الجو حتى يستـقـر أخيرا في ملكوت الله وقـد أمضـى قوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبيء يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسـلموا تسليما"..)(10) وفـي هـذا المثال أيضا: (..فـقـلت له يبـدو لـي أن هـذا نمـوذج مصغـر عـن قـيام الساعة "وترى الناس سكارى وما هم بسكارى"..) (11)

وأما توظيفه لمعاني الآيات القـرآنية فـنصادفه في كـثير من نصوصه ومقالاتـه ومن ذلك قـوله: (.. وقـف السيد ينظـر إليهم نظرة شكّ وريبة، فأوجـسوا منـه خـيفة..) (12) وقـوله كذلك (.. وأسيح في الأرض ماشيا في مناكبهـا..) (13) وقولـه

(..وعــندها يكون الشكــر أو الكــفــر .. وحينها لا عاصم مــن أمــر الله إلا مــن رحم..)[14]

هــذه عــينة من حــضور اللغــة العــربية من خلال القـــرآن الكـــريم فـــي كتابات الأستاذ، أما عــن اللغة العــربية الفــصحى فكان لها حــضورها الواضح هي الأخرى، إذ أنها المادة الأساسية لكتاباته ومعــتمده في تدبيج أغــلب بنـــات أفكـــاره وهــو يستخــدم أحــيانا بعــض الألفاظ التي تحــتاج إلى شرح وتوضيح من خـــلال العــودة إلى القــواميس، لصعــوبتها وعــدم تداولها في الغالب، ومــن أمثلــة ذلــك قولـــه: (..مضت الأيام والأسابيع والشهور يدفعها **الوخد** إلى مستقــرها..)[15] وكــذا قوله (..فــرب شاة نتج عــنها **الــوقــير**) [16] ونـــجد الأستاذ يضع لتلــك الكلمــات المستصعــبة شروحا في الهوامش تيسيرا للفهم وتقــريبا لمعـــانيها مــن الذهـــن وإثراء لرصيد القارئ اللغــوي.

وقــد نجــد جملا كاملة ذات صياغــة تحاكي أسلوب المتــقــدمين ذي الصــياغة والألــفاظ غــير المعهودة في أغــلب نصوص اليــوم، مثلمـــا يظهــر فـــي هــــذه الفــقــرة (.. وقــربة الماء العــذب.. تأخــذ مكانها في أقـــصى زاويـــة الكتّـــاب ورائحة القــطران تسحّ نسيمَها فتذكي لهف الصوادي، وقــد نــديت هــذه القـــربة بقــطرات متساقـــطة منها متتــابعة كأنها دمع رقــرق جار..)[17].

وقــد كان للأمثال الفــصيحة والشعــر الفــصيح حضور أيضا، مشكّــلين مع ما سبق جانبا من تجليات التنوع اللغوي الذي تقدمه كتابات أستاذنا، وكأمثلة عن ذلك نورد ما يلي: (.. فهمست نفــسي قائلة صه، يكفيك مما لا ترى ما قد ترى.) [18] وكذلك مـــا يلي (.. فــنزلا عــند طلبه على مضض فهو ممن لا تقرع له عــصا..) [19]

كما أن الشعر الفصيح وجد مكانه ومكانته ضمن ما كــتب الأستاذ، فــنرى هــــذا المثال عــن توظيفه الشعر الحــديث:

جزائر لم تزل بالحب تذكر فضلك الخصبا

وتروي مجد أسياد أزالوا الظلم والعجبا

هم الأبطال أهلك يا مليكة فاهنئي قلبا

ففي أكتوبر الذكرى صنعنا الرفض والكسبا[20]

ونورد هــذا المثال عــن توظيفه الشعــر القــديم كــذلك:

وقفـــت بهـــا مــــن بعـــد عشـــرين حجــــة

فلأيـــــا عرفـــــت الــــدار بعـــد تــــوهم

أثــــافي ســــعفا فـــــي معــــرس مرجـــــل

ونؤيــــا كجــــذم الحــــوض لــــم يتــــثلم

فلمــــا عرفـــــت الـــــدار قلـــــت لربعهــــا

ألا انعــم صــباحا أيهــا الربــع واســلم[21]

تلك بعــض تجــليات التنــوع اللغــوي في كــتابات الأستاذ من خلال ما قــدّمنا من نماذج مخــتصرة عــن حضور اللغة العــربية الفصحى، فكــان مــن تجــــليات حــضورها اعــتمادها كلغة رئيسة لأغلب كتاباته، وكذلك مــا تحــــتويه كــــتاباته وتتضمنه من أسلوب قرآني، واحتواؤها ألفاظا وعبارات عميقة مستصعبة في بعــــض الأحيان، وكذا حضور الأمثال والشعــر الفصيح، القديم منه والحديث.

بعــد أن رأينا ذلك سنتعــرض لأمثلة من حــضور اللغــة الأمازيغية في كتابـــات الأستاذ سليمان، مبرزين بذلك وجها آخر من تجــليات الــتــنوع اللغوي في الجزائر.

كان لــتمزيغــت حضور أيضا فــيما أنتجه الأستاذ، فــنجــد له ذكــــر أســماء بــعــض المناطق والأماكن الأمازيغــية مثل: أميــدول، تمســلوت، تغردايــت، آت مليشت، آنو[22] إذ لابــد أن ينعــكس واقــع التعامل اليومي فــي أدبيــات الكــتّاب وهــو ما يتجــلى أيضا من خلال حضور أسماء ومصطلحات متعــلقة بحياة الفــــرد اليومية مثل: اتلخــت توراغت، تبــراتين، إيجاجن أوّقل، نخــل " أدّالت"[23]

وضمن تجليات حضور تمزيغــت نجد للأستاذ توظيفا للأمثال والحكم التي تعــتبر من المظاهر والتجليات اللغــوية المهمة، فــيورد في كتاباته مثلا: (..فــقالوا لهــا: لا تخافي ولا تحــزني، فقد سترك الله وكنتِ في وقــت "اقــل ديــس ودســيل"..) [24]، ويــورد أيضا هذا المثل: (..حتى يتزيّــن حاله لأنه عندنا "د حد وارتيســنت"..) [25]، ويقول كذلك: (..ومن بين هــذا العــنز عنز الرحى "اطغاة ن تسيره"..)، ونخــتم بهذا المثال الذي يقول فــيه (.. والمثل الأمازيغي المزابي يقول: سشيي أنــغ أشــيي..) [26] إلى غــير ذلك من الأمثلة الــتي جاءت على هذا النسق ضمن كتابات الأستاذ.

ونجد من تلكم التجليات شيئا من الشعــر والأهازيج، والتي يخــتص بعضها بإلقائه في بعــض المناسبات، ومن ذلك مثلا:

أكــرد آمزور انعــيسى ن ماريما إن شاء الله

أويد تامشت أويد دال أويد تيخــوتام

أويد تامشت اسنكرض سيس إيسلان

سيوت غــرسن أسينتد إوينتد إزلوان

سيوت غــرسن أسينتد إوينتد إعبان [27]

إلى آخــر هــذه الأبيات التي نقــدمها مثالا دالا عــلى غــيره مما ضمّنه الأستاذ كتاباته من أشعار وأهازيج أمازيغــية، كإحــدى التجــليات اللغــوية هي الأخــرى.

ولعــلنا نخــتم ببعــض الابتهالات التي جاءت في إحدى كتاباته، والتــي يرددهــا تلاميذ المحــاضر مع شيخــهم عــند نهاية الحصة قائلين: (أيــوش أوشــانغ أمــان د لامان، أيوش أوشانغ إكت تلويت أتنفع أولتسضوروت، أيوش أوشــانغ إكــت تلويــت أتشار أولاون ديجدلاون، أيوش اكــفا غــفنغ أيني أونتــنجم...) والتلاميــذ يؤمّنــون بقــولهم: آمين آيوش.[28]

وقــد كان للعامــية الدارجة حضورها كما أشار الأستاذ في مقــدمة حلقته الثانيــة وذلك أيضا انعكاس للواقع اللغوي بالجــزائر، وإحدى تجــليات تنوعــه، فــيورد العــديد من الألفاظ مثل: لعــدال، مصران لعلوش، يا راجل ما تحشمناش[29]...

كما يوظف ما يدخل ضمن نطاق الأمثال والحــكم، مثل قوله: (كل اجديد ليه لــذّة والبالي لا تفــرط فيه) وقوله (لحدايد لشدايد) وكذا قوله:(مرحبا بلي جا وجاب واللــي ما جاب ما عــليه جواب) (30)

وقــد أشار إلى شعر القــوالين أصحاب الشعــر الدارج الملحــون وجاء بشــيء يسير من أقــوالهم، ومن ذلك:

الحمد لله الواحد لوحداني

المبلغ عبدو كل الأماني(31)

وقــبل انتــقالنا لنستشفّ بعــض تجــليات التنوع الثقــافي في الجزائر من خـــلال كتابات الأستاذ، نأتي بأمثلة لمزاوجــته واستخدامه للعربية والأمازيغـــية والدارجــة وهــو ما يقــدم صورة رائعة من التنوع اللغوي الفــعلي.

يقول الأستاذ مثلا: (..ومصابيح أخــرى للإضـــاءة مــن ماشّــووّات للميســورين ومصباح نير نزيت للفــقراء المهلهلين..)، كما يقــول (..وبعض آلات خدمة الصوف من قــرداش، ومغــزل، وأمشض ن ضوفــت، وخلالات طاشّا..) (32)

ويقــول على نفــس المنوال مما يظهر ذلك التنــوع والتكامل (..مــن جــرارات وحبل إيشّر انوجباد من ليف ومسد وتيسرمغــت، ومرود وباسور الزجر ...من لجــام وبردعة، واخراج، واشواري، واعــدال إسناين، وتغــنّاتين، ...مــن ســكة، وفــلات وبالات، واتشبّون، ومناجل...) (33)

فكانت العــربية الفصحى جنب الأمازيغية إلى جانب الدارجة العامية.

هــذا باختصار ما يمكن التطرق إليه بخــصوص تجــليات التنوع اللغــوي فــي الجزائر من خلال كتابات الأستاذ سليمان باعـــمارة، وهــي ثرية وقــيمة كما رأينا.

فــما هــي بعــض تجــليات التنوع الثقافي في الجـــزائر مــن خــلال نفــس الأنموذج؟

تجــليات الــتــنوع الثــقــافي في الجزائر من خلال أدبيات الأســتاذ ســليمان:

عــلى غــرار الجانب اللغــوي، فإن الجانب الثقــافي ينطبع آليــا فـــيما ينتجـــه

ويبدعه الكتاب والأدباء، فهم لا يكــتبون بمعــزل عن واقــعهم وملابساته، بل قــــد يكــونون أصدق من ينقــل ذلك الواقع ويصوّره، فــفي أغلب الحالات يكون الأدبــاء من أقــرب الناس لآلام وآمال شعــوبهم، فــينقــلونها بمــا مُنحـــوا مــن رهافــة مشاعــر وحسن أسلوب، فــتأتي صادقة تهزّ قارئها وتجــعله يعــيش تلــك الوقــائع ويتفاعــل معــها، وهــذا هــو هــدف الكاتب والأديب.

نجــد في كتابات الأستاذ سليمان العــديد مما يقــدم تجليات ثقافـــية جــــزائرية، في مناحــيها المختلفة، وصورها المتعــدّدة، مســاهما بــذلك فــي تقـــديم صــورة تعــريفــية لمن يريد الاطلاع على هذا الجانب المهم، وقــد كــان ذلــك مــن بــين أهــداف كتاباته، حــيث يقــول: (..أرجو أن أكون قــد وفّــقت إلى بغــــيتي التـــي تهدف إلى الاطلاع عــلى جانب من ثقافــتنا للتعــرف عليها، والأخــذ من محاســنها ونشرها إلى ما وراء حدودنا..)[34] وسنحاول فــما يلــي أن نستخــــلص بإيجــــاز بعــضا من تلكم الجــوانب الثقافــية.

يعــدّ التــنوع اللغــوي ذاته من بين التجــليات الثقافــية، فــتــنـــوّع اللغــات دليل على تنوع الثقافات، ويمكن أن نلمس ذلك مــثلا مــن خــلال هــذه الأهزوجــة المقــتــضبة التي تحــتوي أبياتا أمازيغــية وعربية:

أدريم نيمسوردا داني

سلهنا د لعــز إولاّن داني

الحمد لله الواحد لوحداني

المبلغ عبدو كل الأماني[35]

فالقارئ لها يتجــلى له وجــه من أوجــه التنوع الثقــافي من خلال هــذا التنــوع اللغــوي، إضافــة إلى ما يتجلى له حــين تصادفه أهــازيج وأشعار بالعــربية تــارة وبالأمازيغية تارة أخــرى، وبالدارجة أو الشعــر الملحون طورا آخــر، وقــد تكــون كلّها متحــدثة عن نفــس المناسبة مع اخــتلاف المضمون الثقافي من عادات وتقاليــد وهــو من أوجه الثراء والتنوع، مع ما لكلّ لون شعري من مميزات وخصائص.

ويحدثنا الكاتب عن بعض المناسبات والأعـياد المحلية وأبعادها الثقافـية فجـاء على ذكر الحـفلة المقامة عند ختان الصبية، والتي يخـتلف حالهـا علـى حسـب الأوساط الاجـتماعـية في الأرياف والمدن والقـرى[36]، فـذكر بعض تفاصيلها في بيئته من بعض الأهازيج التي تردّد حين التحضير للمناسبة والتي تبدأ بقولهم:

أكــرد أمزور نعيسى نماريما

أويد تامشت أويد دال أويد تيخوتام

أويد تامشت أسنكــرض اسيس إيسلان[37]

إلى آخر تلك الأبيات، إضافــة إلى الأبيات التي تقال حين مباشرة عملية الخـتان من طرف " الزّيان" ثم عــرّج على لباس المخـتون المتكون من عـباءة صوفـية وأخرى من الكتّان والمحتوية كتابات بالزعفران وكذا ما يوضع على رأسه من لحـاف وعلى عاتقه من قرنفل وغـيره، إضافة إلى المأكولات التي تحضّر بالمناسـبة مثـل " تمشولت نومختول"[38]

هـذا نموذج عـن عـدة مناسبات وأعـياد أتى الكـاتب على ذكرها مثل حـفلة "أدريم "وموسم الزيارة[39]، وغـيرها مبرزا أوجها ثقافية متعدّدة من خلالها، تبيّن فـي مجملها ما في الجزائر من تنــوع وثراء، وقد ساهمت مثل هذه الكتابات في إبرازها.

وكان للكـاتب فيما أنتجه نصيب للحـديث عن الألبسة والأطباق التقليدية، وهـي من أبــرز التجليات الثقافية هي الأخرى، فـذكر من بين الألبسة مــثلا: القـشاشيب والبرانيس والباشمار واتشمبير وعـدّد من أنواع الأفــرشة التقليدية كاحنابل وإيسوشـا اتّليس وفــراش عـمراني وغـيرها[40].

وفي نطاق المأكــولات التقــليدية أتى عــلى ذكــر: ألمسُ الزبــدة، و تيــوارين اللبن وتاكروايت والــكرداس دون أن ينسى التعريج عــلى بعــض أنــواع التمــور مثل: أعوشت وتزقاغــت[41]... وذكــر بعض مناسبات خاصة بكــل طبــق مــن الأطباق التقــليدية في توثــيق لتراث مادي وثقــافي يبرز المخــزون الجــزائري الثري.

إذا كانت التجليات الثقافية في كتابات الأستاذ متعـددة فإننا سنختـتم هـذه الجـولة المخـتصرة ببعض ما أورد من صناعات تقـليدية، عسى أن يتولى بعـض الدارسين مستقبلا الغـوص في مثل هذه الكـتابات القيمة، مستخرجـا أوجها ثقـافـية غـنيّة علاوة عـلى أوجه وجوانب أخـرى.

المنسج التقـليدي من أبرز الصناعات التقليدية الجـزائرية، وقـد تطرق الأسـتاذ إليها وإلى بعـض أدواتها[42] كما تطرق إلى ذكر أسماء بعـض الزرابي والأفـرشة التي هي من منتوجات هـذه الصناعة التقـليدية وقـد ذكرنا بعضها آنفا كـما نقـل شيئا مما يتعـلق بأدوات العمل في الآبار التقـليدية واستخـراج الماء منهـا، مثـل: الجـرارات والحبال وباسور لزجـر وغـيرها [43] ليـقف بنا عند صناعة القـرب والدلاء وبعـض مستلزماتها كالقـطران[44]، ولعلنا نختم هـذه الأمثلة بصناعة الفخار التي أفـرد لها مقالا كاملا تحـدّث فـيه عن جوانب متعلقة بهذه الصناعة التقـليدية التي تتجلى من خلالها ومن خلال مثيلاتها مما سبق نماذج وتجليات عـن جوانـب مهمة في الثقـافة الجزائرية، أراد الأستاذ تقديمها والتعريف بها من خـلال كـتاباته.

خاتمة، نتائج، توصيات: بعـد هذه الجولة المقتضبة في كتابات الأسـتاذ سـليمان باعمارة، يمكننا القول أنه استطاع أن يقـدم لنا صورا ونماذج عـن الواقـع اللغـوي والثقافي في الجـزائر من خلال أسلوبه الأدبي، فـرأيناها ثرية ومتنـوعة وجـديرة بأن يطّـلع عليها كلّ جـزائري وأن يعـتزّ بها، ثم تُقدّم للأمم والشـعوب الأخـرى فـقـد احـتوت كتاباته على اللغة العـربية والأمازيغـية، والدارجة كذلك، مـع مـا تتـضمنه كل منها من أساليب لغـوية وأشكال إبداعـية، فـرأينا نماذج من كل منهـا وقـدّمنا نماذج لصياغـته جملا مزج فيها التنوعات اللغـوية المذكـورة بـتـناغـم وسلاسة.

كما رأينا نماذج وتجليات ثقافـية فـرأينا ما احتوته كتابات الأستاذ من أنّ التنـوع اللغـوي ذاته من تجليات الـتنوع الثقافي، إضافـة إلى ما تحويه الثـقافة الجـزائرية

من ألبسة وأفــرشة وأطباق تقليدية وأدوات مختلفة تعــدّ في نطاق التراث، فاســتطاع الأستاذ أن يعــرضها بأسلوب أدبي شيّــق.

وقــد اكــتــشفــنا في الأستاذ سليمان باعمارة كــــاتبا وأديبــا متميّــزا ومبــدعا ومتشبّعا بالأصالة الجــزائرية بأبعــادها المختلفة.

وسنُجــمل بعض النتائج والتوصيات في شكل نقاط كما يأتي:

- ✓ تزخر الجزائر بتنوع لغــوي وثقــافي ثري.
- ✓ تسهم الكتابات الأدبية في التعــريف بالتنوع اللغوي والثقافي وإظهار تجــلياته.
- ✓ احتوت كتابات الأستاذ سليمان باعمارة على جــوانب مهمــة مــن التنــــوع اللغــوي والثقــافي في الجــزائر.
- ✓ يمكــن الاعــتماد على إنتاجات الكــتاب والأدباء الجــزائريــين في تقـــديم صورة عــن الواقع اللغــوي والثــقافي المتنوع للجــزائر.
- ✓ الكتابات الأدبية بوابة مهمة لتمهيد أسباب التواصل والتعايش.
- ✓ نوصي بتكــثــيف ندوات أدبية تتناول التنوع في الجــزائر من خلال الكتابات الأدبية فــهي بوابة للتواصل والتعايش.
- ✓ نوصي بالتعــريف بــكــتابات الأستاذ سليمان باعمارة وأمثالــه مــن الكتــاب ذوي الكتابات الجــزائرية الأصــيلة مــن خــلال أنشــطة فـــي العــالمين الـــواقعي والافــــتراضي.

الهــــــوامش:

[1] محمود فهمي حجاز، مدخل إلى علم اللغة المجالات والاتجاهات، ن: دار قباء الحديثة للطباعـــة والنشر والتوزيع، ط 04، 2007م، ص 8.

[2] ناصر الدين سعيدوني – الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التـــاريخ (العهـــد العثمـــاني)، ن: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 114.

[3] سليمان باعمارة، من نسمات الفجر: ناس وحــكايات، ن دار المنارة للنشر والتوزيع الجــــزائر ط1، ديسمبر 2018 م، ص 215.

[4] نفسه.

[5] سليمان باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، المطبعة العربية غرداية، إشراف قســـم الأعـــلام لمحضرة منارة الإيمان، ط 1، 2017 م، ص 12.

[6] باعمارة، ناس وحكايات، ص 215

[7] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 12

[8] باعمارة، ناس وحكايات، ص 19

[9] باعمارة، ناس وحكايات، ص

[10] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 22

[11] باعمارة، ناس وحكايات، ص 100

[12] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص82

[13] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص91

[14] باعمارة، ناس وحكايات، ص142

[15] نفسه، ص156

[16] نفسه، ص125

[17] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص20

[18] باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص114

[19] باعمارة، ناس وحكايات، ص64

(20) باعمارة، ناس وحكايات، ص30

(21) باعمارة، ناس وحكايات، ص39

(22) نفسه، ص 32

(23) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص120

(24) باعمارة، ناس وحكايات، ص87

(25) نفسه، ص79

(26) نفسه، ص 135

(27) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص35

(28) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص22

(29) نفسه، ص 113

(30) باعمارة، ناس وحكايات، ص117

(31) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص33

(32) باعمارة، ناس وحكايات، ص196

(33) نفسه، ص197

(34) نفسه، 216

(35) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص33

(36) نفسه، ص 33

(37) نفسه، ص35

(38) أنظر نص "حــفلة الخــتان"، آت مليشت، ص 35 وما يليها.

(39) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص32

(40) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص35

(41) باعمارة، ناس وحكايات، ص876

(42) باعمارة، ناس وحكايات، ص 8 و196

(43) نفسه، ص197

(44) نفسه، ص 20.

الوعي الثقافي أداة فاعلة نحو تحقيق السكينة المجتمعية والتنمية المستدامة

أ. درقاوي كلتوم
المركز الجامعي، غليزان.

مقدمة: لاشك أن أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية اليوم هي تحقيق مطلب الوعي الثقافي والتوافق الجمعي، إذ يسعى المثقفون والسياسيون كل بأدواته الخاصة من أجل العمل على خلق سبل التوافق والتعايش الثقافي وتعميم ثقافة قبول الأخر دون استبعاده ورفضه والعمل على تصحيح المفاهيم وخلق مسارات التفاهم بين الأفراد والمجتمعات والحضارات من أجل التنمية الشاملة والمستدامة.

وتأتي هذه الورقة للبحث في سبل تحقيق هذا الوعي والتأكيد على أن قيم التعددية والتنوع الثقافي لا تشكل مطلقا ذريعة لاستبعاد الآخر وإخلال السكينة والتوافق الجمعي بل إن قبول التنوع أساسا هو احترام للوجود الإنساني ولكيانات الأفراد الثقافية وقبول للأخر والتعايش في سلام والعمل على تحقيق التمنية بمختلف أنواعها. فما هي سبل تحقيق التوافق الثقافي؟ **هل إثبات ثقافتي يعني استبعادي للأخر؟ هل قبول التنوع يعني الانصهار في الآخر؟ كيف يمكن تصحيح المفاهيم وتحقيق التعايش الثقافي في ظل ملامح الإقصاء والاستبعاد التي تواجه الكيانات الثقافية؟**

1/ **في مفهوم الثقافة:** لا غرو أن الثقافة بمفهومها العام مظهر من مظاهر المجتمع الإنساني،قد عرفت بأنها طريقة كاملة في الحياة لدى مجتمع معين يتم تعلمها وتقاسمها بين أفراد المجتمع الواحد، فهي بهذا لا تقتصر على جانب دون الأخر بل تشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية وحتى السلوكية للأفراد، بل تمثل أسلوبا كاملا في حياة الناس ،لذا فثقافة مجتمع« هي طريقة حياة أفراده وهي مجموعة الأفكار والعادات والتقاليد التي مولوها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر [1]"»

وقد اتخذ مفهوم الثقافة حيزا كبيرا في دراسات العلوم الاجتماعية والانثربولوجيا الثقافية ولم يجر الاتفاق على تعريف محدد لحد الساعة بل أن مجمل الآراء والتصورات التي قدمت في هذا الشأن تعكس نظرة الباحث وخصوصية الانتماء إلى مدرسة البحث غير أنه يمكن أن نورد أقدم تعريف للثقافة في العلوم الاجتماعية وهو التعريف الذي قدمه الباحث الانجليزي تايلور بأن الثقافة هي حصيلة الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقانون والعادات وجميع القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع [2]

أما أحدث تعريف قدّم للثقافة في وقتنا الحالي هو ما جاء في التعريف الذي اتفق عليه في إعلان مكسيكو في 6 أوت 1982 والذي نصّ على أن الثقافة بمعناها الواسع يمكن النظر إليها على أنها«جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد»[3]

2/الثقافة والمجتمع: يذهب أحد الباحثين إلى أن الثقافة ليست صنع أو إنتاج فردي بل هي عمل جماعي ينتجه المجتمع ويكون نتيجة جهد جماعي ومعتقدات جماعية لا فردية تشكل مخزون جماعي ومشترك للإنسان يعبر الدكتور شماس عن الأمر بقوله «إن الثقافة إنتاج اجتماعي أبدعته جماعة معينة[4] » وهي تصور جماعي مشترك بين أفراد مجتمع واحد تنظم سلوكياته وتميزه عن باقي المجتمعات حتى وان اتفقت بعض المجتمعات في تكوينها وبناءها المجتمعي إلا أن ما يميز كل مجتمع عن آخر هو ثقافته .

وتشكل الثقافة أداة هامة للحفاظ على وحدة المجتمعات وهويتها وتمايزها عن بعضها البعض واسمنت الوحدة الوطنية ووسيلة هامة لبناء المجتمعات وتصالحها ووسيلة أساسية لتحقيق التكيف والاندماج الجمعي بين أعضاء المجتمع الواحد أو الحضارات والثقافات الأخرى فقدرة أي مجتمع على الاستجابة الصحيحة للتحديات

التي تواجهه مرهون بمرونته الثقافية ونمطه وتصورات أفراده في التعايش فيما بينهم وعلاقاتهم مع الاخر وقبوله وفي ذات السياق فإن الثقافة شرط ضروري لأي مجتمع يريد البقاء

كما تضمن الثقافة وحدة المجتمعات واستمراريتها فهي بطاقة الهوية والوجود التي تعرف بها المجتمعات عن بعضها البعض إذ أن « عوامل كاللغة والدين والتاريخ تصقل عبر قرون المادة الفكرية التي يبرز المثقفون انطلاقا منها، وإذا كان لكافة هذه العوامل كيفيات وجودها المتميزة ضمن الأشكال التي تتخذها الدول الآن فإنها كانت قبل اليوم تشكل روابط تضمن الوحدة على مستوى مجالات أكثر اتساعا»[5]

3/الثقافة قوة محركة للتنمية المستدامة: تعد التنمية المستدامة خطوة حيوية تصبو إلى تحقيقها الدول والمجتمعات الإنسانية من أجل ضمان الاستقرار المادي والمعنوي للمجتمعات الإنسانية وإذا ما حاولنا في عجالة الوقوف على مفهوم لها نجد انه مفهوم متعدد ومتشابك يتوزع على أصعدة مختلفة أولها الجانب الثقافي لتقرير لجنة برونتلاند (بالإنجليزية Brundtland : Commission's Report) لعام 1987م تحت عنوان (مستقبلنا المشترك)، أصبح مفهوم التنمية المستدامة معروفاً ومستخدماً، فقد حدّدت اللجنة العالمية للبيئة والتنمية (بالإنجليزية WCED): تعريفاً خاصّاً لها على أنها التنمية التي تُلبي احتياجات الحاضر (دون المساوَمة على قدرة الأجيال القادمة في تلبية احتياجاتهم الخاصة)، ساعد هذا التقرير على فهم أنّه تتدرج تحت التنمية المستدامة عدة ركائز لتحقيقها، مثل: الحفاظ على سلامة البيئة، وإرضاء الحاجات الإنسانية الرئيسة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتوفير التكافل المجتمعي المتعدد. لقد كان من مخرجات هذا التعريف إدراك أن التنمية المستدامة تشمل عدداً من المجالات المتنوعة"[6]

وتشمل هذه المجالات الجانب الثقافي فاستقرار الأمم وتحقيق تنميتها لا يكون إلا من خلال التوافق والوعي الثقافي.

بناءا على ما سبق فإن تقدم المعرفة الإنسانية وتحقيق التنمية المستدامة فـــي دول العالم يستند إلى حد كبير إلى والتوافق الثقافي قبول الآخر وفهم التنوع الثقافي علـــى أنه ميزة ملتصقة بالإنسان وسبيل إلى التفاهم والتوافق وتحقيق الســكينة المجتمعيــة والتطور بمختلف مجالاته.

وفي ذات السياق وقد أثبت فشل بعض المشاريع الجاريــة منــذ الســبعينيات أن التطور لا يترادف مع النمو الاقتصادي وحده، بل هو وسيلة لصــنع حيــاة فكريــة وعاطفية ومعنوية وروحية أكثر اكتمالاً. ولا يمكن بالتالي فصل التنمية عن الثقافة.

ويشكّل تعزيز مساهمة الثقافة في التنمية المستدامة هدفاً تم إطلاقه في إطار العقد العالمي للتنمية الثقافية (1988-1998)، وقد تحقق منذ ذلك الحــين نمــو ملحــوظ بفضل مجموعة من الصــكوك الخاصــة بوضــع المعــايير والأدوات الإيضــاحية كالإحصاءات الثقافية والجردات ورسم خرائط المــوارد الثقافيــة علــى المســتويَين الإقليمي والوطني[7].

هل التنوع الثقافي يلغي التوافق الجمعي؟: إن الوقوف على مفهوم عــام للتنــوع الثقافي أمر صعب ومستعصي إن لم نقل مستحيل ذلك بالنظر إلى عدم الاتفاق علـــى مفهوم مضبوط للثقافة وقد جاء تعريف التنوع الثقافي في إعلان اليونســكو العــالمي بشان التنوع الثقافي« تتخذ الثقافة أشكالا متنوعة عبر المكان والزمان ، ويتجلى هــذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منهــا الإنسانية، والتنوع الثقافي، بوصفه مصدرا للتبادل والتجديد والإبداع وهو ضــروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية، وبهذا المعنى فــإن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية، وينبغي الاعتراف به والتأكيــد عليــه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل »[8]

وهو يشكل قوة محركة للتنمية، ليس على مستوى النمو الاقتصادي فحسب بل أيضاً كوسيلة لعيش حياة فكرية وعاطفية ومعنوية وروحية أكثر اكتمالاً، توفّر ركيزة صلبة لتعزيز التنوّع الثقافي.

من هنا، يُعتبر التنوع الثقافي ميزة ضرورية للحدّ من الفقر وتحقيق التنمية المستدامة. في الوقت عينه، ويساهم القبول والإقرار به – عبر الاستعمال الإبداعي للإعلام وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكل خاص – في خلق الحوار بين الحضارات والثقافات وفي بلوغ تبادل الاحترام والتفاهم[9]

أشكال التنوع الثقافي: تتعدد أشكال التنوع الثقافي في دول العالم وفي المجتمعات نفسها من صور التنوع الثقافي:

أ– التنوع اللغوي: يشكل التنوع اللغوي أبرز المظاهر والأشكال الثقافية التي طالما خلقت اختلالات بين عناصر المجتمع الواحد وتسعى الدول مرارا إلى تسييس الوضع اللغوي من أجل ضمان الانسجام الجمعي والخروج بحلول تقضي بتقبل الآخر ولغته التي تشكل بطاقة هويته خاصة وأنه يشيع في أوساط مجتمعات عديدة إن قبول التنوع اللغوي هو الانصهار في الأخر وتغليب لغة على أخرى يعني تغليب ثقافته على حساب الثقافة السائدة.

غير أن التنوع اللغوي ليست خطرا لا على اللغة والهوية الوطنية إذا ما أحسن استغلاله واستثماره بل هو مفهوم يعبر عن أحد أشكال الممارسة الديمقراطية الثقافية وهذا المفهوم الجديد له من شانه أن يعطي ديناميكية للحياة العامة بشرط أن نفرق ما بين هذا الاختلاف كأصل طبيعي وفطري في الحياة يغني رصيد الأمة الثقافي ويقارب بين أبنائها ويرسخ ثقافة قبول الآخر واحترامه مهما كان ويكون سببا فاعلا في سبيل تقدمها وبين هذا الاختلاف باعتباره وسيلة وظاهرة مفتعلة في جانبها السلبي في يد الأنظمة والسياسات والأطراف التي تدير هذا التنوع وتحسن أو تسيء

استغلاله من أجل الوحدة والحفاظ على طبيعة عناصر الأمة الجامعة أو تفتيتها وخلق واقع لغوي مركب ومتحرك غير متجانس يميل إلى التعقيد والتشنج والانفصال[10] .

ب/ **أشكال التعبير الفني والمعارف العلمية والتكنلوجية:** تعد الفنون بمختلف أشكالها المسرح التمثيل الرسم الأعمال الحرفية والموسيقى....إلخ من أشكال التنوع الثقافي التي تعبر عن الحرية الثقافية والتي ينبغي الحرص على تمكين كل الثقافات والمجتمعات من التعبير عن ذاتها بما فيها من حرية التعبير وإتاحة الفرصة لجميع الثقافات أن تكون حاضرة في وسائل التعبير والنشر وتسخير التكنولوجيا والرقمنة لضمان وصول هذه الثقافات إلى الأخر والعمل على تعزيز سبل قبول التنوع وتعميق فهمه بمختلف أشكاله باعتباره وسيلة للانسجام والتوافق لا تنافر والتطاحن بين المجتمعات

سبل تحقيق الوعي الثقافي: يعد الوعي الثقافي مطلب حضاري عالمي تسعى الدول إلى خلق سبل تحقيقه في العالم والغاية منه احترام الإنسان وتحقيق العدالة في أسمى صورها الثقافية والفكرية وللوصول إلى الأمر يخرج البحث بمجموعة من التوصيات تهدف إلى تحقيق هذا المطلب لدى الجماعات الإنسانية ونجملها فيما يلي :

1- ضرورة التحسيس بأهمية التوافق الثقافي: ودوره في تحقيق الانسجام الجمعي وإبراز أهمية الثقافة في حياة الأفراد وضرورة قبول الآخر بمختلف مميزاته ومهما كان جنسه لونه ثقافته من خلال وسائل الإعلام إقامة مؤتمرات وملتقيات توعية للطبقة البسيطة لشعب وتبسيط المفهوم ليصل المغزى للجميع أو توطيد العلاقات بين الأفراد.

2- ضمان الأمن الثقافي أداة فاعلة لتحقيق الوعي الثقافي ومنه السكينة المجتمعية: يتلخص مفهوم الأمن الثقافي في كونه "الحفاظ على المكونات الثقافية الأصلية في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة والأجنبية المشبوهة وهو بهذا المعنى حماية وتحصين للهوية الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج ، كما يعني الأمن

الثقافي حماية المؤسسات والأدوات الثقافية من الانحراف والارتفاع بها عن العجز والقصور، وتعزيز التوجهات السليمة وانتقاد التوجهات الشاذة والمتطرفة "[11] من هنا فإن الأمن الثقافي صيانة لمؤسسات الثقافة وحفظها من الانفلات بمختلف أنواعه سواء كان داخليا أو خارجيا وتكمن أهمية الأمن الثقافي في تحقيق التوافق الجمعي وحماية التنوع الثقافي مهما كان نوعه والحرص على عدم استغلاله من قبل أعداء الدولة والمتربصين بها في خلق النزاعات وإخلال النظام العام لذا فهو يشكل اسمنت الانسجام الجمعي والسكينة المجتمعية .

3- **تسويغ سياسات في الشأن الثقافي:** العمل على دمج الثقافة في مجمل سياسات التنمية سواء ارتبطت بالتعليم أو العلم أو الاتصالات أو الصحة أو البيئة أو السياحة (بالانجليزية)،

4- **تطوير القطاع الثقافي:** عن طريق الصناعات الإبداعية. مساهمتها في التخفيف من حده الفقر، تنطوي الثقافة على منافع هامة من حيث تحقيق التماسك الاجتماعي.

5-**تعميق مفهوم قيم التنوع الثقافي:** واتخاذ التدابير اللازمة من أجل تعزيز مبادئ قبول الآخر واحترامه واعتبار الحق في التنوع هو حق إنساني ومطلب حضاري يرتبط بوجود الإنسان واحترامه واجب أخلاقي ولا يحق لأي مخلوق أن يحتقر هذا التنوع أو ثقافة على حساب أخرى وان ينتهك حقوق الأقليات الثقافية في مجتمع ما بالقمع والتجاهل وعدم الاعتبار.

6- **تشجيع التبادل الاقتصادي للصناعات التقليدية والسلع الثقافية:** الحرص على التبادل الاقتصادي وعقد اتفاقيات تضمن تبادل السلع ومعالم الثقافة الحرفية (منتجات حرفية، فنون، طبخ،....)من أجل جسر الهوة بين الثقافات والتوافق بين المجتمعات الإنسانية أو ثقافات المجتمع الواحد يضمن قبول الأخر والتعايش معه.

7- تقليص الفجوة الرقمية بين اللغات المندثرة واللغات الرسمية في بلدان العالم: العمل على إتاحة كل اللغات في الوسائل الرقمية والتكنولوجيـــة و إعطـــاء الحريـــات لجميع الأقليات للتواصل بلغتها الأصلية مهما كانت عددها أو حجمها،ذلك أن أي إرغام

8-صون التراث الثقافي للجماعات الإنسانية: الحفـــاظ علـــى العـــادات والتقاليـــد والمعالم الثقافية للافراد وصونها والعمل على التعريف بهـــا والحفـــاظ عليهـــا ونقلهـــا للأجيال القادمة والسعي للتبادل الثقافي واحتكاك المجتمعات والأفراد من اجـــل تعميـــق الوعي بالقبول.

9-العدالة اللغوية من صور التوافق الجمعي : العمل على سن قـــوانين تضـــمن الحقوق اللغوية لمتكلمي اللغة بدلا من الحقوق المجردة للغة في حد ذاتها وفـــي هـــذا المقام يجب أن نفرق بين حقوق هؤلاء المتكلمين في استخدام لغتهم وحقهم في إبقائها وتوريثها لأبنائهم عن طريق التعلم"[12]

خاتمة: يشكل الوعي الثقافي مطلب وضرورة ملحة وحيوية مـــن اجـــل ضـــمان التوافق الجمعي والسكينة المجتمعية وهذا لا يتحقق إلا بتضـــافر الجهـــود وتصـــويغ سياسات لضمان الحريات الفردية بين ثقافات المجتمع الواحد أو بين الثقافات العالمية والحرص على الحفاظ على مختلف الحضارات والثقافات باعتبارها رصيد إنســـاني مشترك للإنسانية جمعاء وأي اندثار لحضارة أو ثقافة هـــو تشـــتيت لهويـــة إنســـان وتشويه لكل صور الديمقراطية وحقوق الإنسان المعروفة.

حان الأوان للاهتمام بالثقافة كأداة فاعلة لتحقيق الاستقرار الأمنـــي والحضـــاري والتطلع لتحقيق التوافق الجمعي وإدماجها ضمن مخططات التنمية المســـتدامة مثلهـــا مثل المخططات الاقتصادية وقد اكدت التجارب العالمية في هذا المضمار أن الـــدول التي عملت على ايجاد حلول وجسر الهوة بين الجماعات الثقافية ونجحت في قبـــول التنوع الثقافي واللغوي ولم شمل مجتمعاتها على الرغم من الاختلافات الثقافيـــة فـــي

الالتحاق بركب التطور وإبراز مكانتها في خارطة الدول الكبري في العالم بعيدا عن جو الاضطهاد والقمع والتعصب في جو يسوده السكينة المجتمعية وقبول الاخــتلاف واحترام الأخر وضمان أمنها الثقافي والحضاري.

- **قائمة المصادر والمراجع :**

- إبراهيم عثمان مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان 1999،

- برنار صبولسكي علم الاجتماع اللغوي تر: عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية ،ط2بن عكنون الجزائر

- هارلمبس وهوليون:سوشيولوجيا الثقافة والهوية،تر:حاتم حميد،محسن دار كوان للطباعة والنشر،ط1 سورية 2010

- سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1، ترجمة بن ناصر الجزائر، دط،

- كلثوم درقاوي أي دور لتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي مقال ضمن أعمال اليوم الدراسي الأمن الثقافي والانسجام الجمعي منشورات المجلس الأعلى 2018

- محمود محمود النيجري الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل ، دط، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1991،1412 ، الرياض

- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2004

- [1] – he Sustainable Development Agenda", www.un.org,2016-01-0 1Retrieved 2019-04-12. Edited.

- https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/background.shtml 2019/05/28 الساعة 20:35

- اتفاقية المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، دورته الثلاثين باريس من نوفمبر إلى تشرين الثاني 2001 للاطلاع أكثر ينظر الموقع التالي:

https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/

- الموقع الأتي يوم 2019/05/28 الساعة 20:50د:

https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/

الهوامش:

[1] – هارلمبس وهوليون:سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر:حاتم حميد، محسن دار كوان للطباعة والنشر، ط1 سورية 2010 ص: 8.

[2] – إبراهيم عثمان مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان 1999، ص:156.

[3] –عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2004ص58.

[4] –عيسى الشماس مدخل إلى علم الإنسان (مرجع سابق) ص:59

[5] – سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1، ترجمة بن ناصر الجزائر، دط، ص48.

[6] – he Sustainable Development Agenda", www.un.org,2016-01-0 1 Retrieved 2019-04-12. Edited.

[7] ينظر : https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/background.shtml 2019/05/28 الساعة 20:35

[8] – اتفاقية المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، دورته الثلاثين باريس من نوفمبر إلى تشرين الثاني 2001 للاطلاع أكثر ينظر الموقع التالي :

https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/

[9] ينظر الموقع الآتي يوم 2019/05/28 الساعة 20:50د:

https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/

[10] كلثوم درقاوي أي دور لتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي مقال ضمن أعمال اليوم الدراسي الأمن الثقافي والانسجام الجمعي منشورات المجلس الأعلى 2018ص277.

[11] محمود محمود النيجري الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل، دط، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1412، 1991، الرياض ص:15 –16.

[12] – برنار صبولسكي علم الاجتماع اللغوي تر: عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية ط2، بن عكنون الجزائر ص:148.

التنوّع اللّهجي في الجزائر والاحتلال الفرنسي (روني باسيه ووليام مارسيه أنموذجا)

Diversité variée en Algérie et l'occupation française
(Modèle René Basset and William Marçais)
Varied diversity in Algeria and the French occupation
(René Basset and William Marçais model)

د. حاج بنيرد
جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

Résumé: Les discussions sur les débuts d'un atlas linguistique arabe ou nord–africain nous amènent à la période d'occupation étrangère, et plus particulièrement aux efforts des orientalistes orientaux. Nous avons constaté que ce travail avait été réalisé par des orientalistes dans divers pays arabes pendant et après l'occupation, indépendamment du caractère scientifique et académique de cette grande recherche. Si nous nous comparons aux recherches menées dans les pays occidentaux, nous ne doutons pas que leurs débuts dans nos pays étaient destinés à des fins et à des stratégies coloniales, et à des investissements politiques et idéologiques à long terme, avec la spécificité de chaque pays. L'occupation française, ainsi que les autres sociétés et comités scientifiques, ont été longtemps actives, par étapes successives, pour explorer le tissu social et consacrer ainsi les efforts de l'occupation et ses objectifs à son expansion et à sa consolidation. Les atlas linguistiques avaient pour objectif de définir l'objectif des atlas linguistiques: les équipes de recherche se sont dispersées entre les différentes instances pour

recueillir le patrimoine populaire de chaque région, pour ensuite l'étudier et l'analyser à l'aide d'approches ethnographiques, en examinant le folklore et la littérature populaire, la poésie, les histoires et les paraboles. A Different humaine, en termes de race, le comportement, la culture et les coutumes, la diversité ethnique et les différents groupes humains dans la société algérienne, ce sont les plus importants intérêts de recherche des orientalistes, par ethnologique Maqarih verser dans le service colonial.

مقدّمة: إنّ الحديث عن بدايات أطلس لغويّ عربي أو جزائري شمال إفريقي يقودنا إلى فترة الاحتلال الأجنبي، وتحديدا إلى جهود المستشرقين الأجانب، فقد لاحظنا أنّ هذا العمل قام به المستشرقون في مختلف البلدان العربيّة في فترة الاحتلال وبعده وبغضّ النّظر عن الطّابع العلمي والأكاديمي لهذه البحوث الكثيرة، إذا ما قورنت بنفسها من البحوث في الدّول الغربيّة، لا نشكّ أنّ بداياتها في بلداننا كانت لأغراض واستراتيجيات استعماريّة، وللاستثمار السّياسي والإيديولوجي الطّويل الأمد، مع خصوصيّة كلّ بلد، أمّا الحديث عن شمال إفريقيا والجزائر بالأخصّ، يعود البحث في هذه المجتمعات أيضا إلى الاحتلال الفرنسي، وما واكبه من جمعيّات ولجان علميّة نشطت لمدّة طويلة عبر مراحل متعاقبة، لاستكشاف النّسيج الاجتماعي فيها، وبالتّالي تكريس جهود الاحتلال وخدمة أغراضه، للتّوسّع وترسيخ أقدامه فيه، فنشأت البحوث اللّغويّة في الفصحى والعاميات وتحديد نطاق استعمالها، -وهذا هو عين الغرض من الأطالس اللّسانيّة-، فتفرّقت فرق البحث بين مختلف الجهات لجمع الموروث الشّعبي لكلّ منطقة، ثمّ دراسته وتحليله، عبر مقاربات إثنوغرافيّة، تبحث في الفولكلور والأدب الشّعبي شعرا وقصّة وأمثالا فصار عامل اللهّجات أساسيا في عيون المستشرقين لتمييز المجموعات البشريّة المختلفة، من حيث العرق والسّلوك والثّقافة والعادات، فالتنوّع العرقي واختلاف المجموعات البشريّة في المجتمع الجزائري، كان من أهم اهتمامات

بحوث المستشرقين، عبر مقارية إثنولوجيّة تصبّ في خدمة الاستعمار، وهذه البحوث مرّت بمراحل هي مراحل الاستشراق نفسه، فمن بحوث أنجزها ضبّاط عسكريّون مثل هانوتو وبورفيقي، لم يكن يهمّهم سوى التّواصل مع المجتمع الجديد، وكانوا غير متخصّصين، فكانت بحوثهم تفتقر إلى المنهج العلمي، وصولا إلى بحوث أكاديميّة أنجزت في مراكز البحث والجامعات، أنجزها باحثون أكاديميّون مثل وليام مارسي وروني باسي وأندري باسي وآخرون؛ اتّسمت بالجدة والمصداقية إلى حدّ كبير تستدعي انتباهنا لدراستها وتقييمها والاستفادة منها، ويهدف هذا البحث إلى التّعرّف على هذه المحاولات مع التّركيز على نموجين، وهما وليام مارسي وروني باسي وذكر ثبت لبعض أعمالهم في هذه الصّدد، ممّا جعلنا نذكر مراحل الاستشراق وذكر الاهتمام بالأدب الشّعبي والعاميات أو اللهجات سواء العربيّة أو البربريّة، مع ذكر نماذج ممّن اشتهروا بهذه الدّراسات، ومحاولة تحليل لبعضها.

1-في مفهوميّة الأطلس اللغوي:

-**تعريف اللّهجة:** مجموعة من الخصائص اللّغويّة يتحدّث بها عدد من الأفراد في بيئة جغرافيّة معيّنة، وتكون تلك الخصائص في مختلف المستويات: الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة، وتميّزها عن باقي اللّهجات الأخرى في اللّغة الواحدة ولكن يجب أن تبقى تلك الخصائص من القلّة بحيث لا تجعل اللّهجة غريبة عن أخواتها عسيرة الفهم على أبناء اللّغة، لأنّه عندما تكثر هذه الصّفات الخاصّة على مرّ الزّمن لا تلبث هذه اللّهجة أن تستقلّ وتصبح لغة قائمة بذاتها، كما حدث للّغة اللّاتينيّة الّتي اندثرت وتفرّع عنها لغات لها كيانها وخصائصها، منها الإيطاليّة والفرنسيّة والإسبانيّة، وكما حدث للّغة السّامية الأمّ الّتي استقلّت عنها لغات كالعربيّة والعبريّة والآرامية وغيرها[1]. وبيئة اللّهجة جزء من بيئة أوسع وأشمل تضمّ عدّة لهجات، ويربط بينها جميعا مجموعة من الظّواهر اللّغويّة الّتي تيسّر اتّصال الأفراد ببعضهم البعض، وتلك البيئة الشّاملة الّتي تتألّف من عدّة لهجات هي الّتي اُصطلح على تسميتها اللّغة[2]. وهي

موضوع علم اللّسانيات الجغرافيّة أو اللّغويات الجغرافيّة Géographie linguistique وهي بدورها فرع من فروع اللّسانيات التّطبيقيّة، وهي دراسة الفروق المحلّيّة أو الإقليميّة الخاصّة بلغة ما وتحدّد اختلاف اللّغات واللّهجات وفروقاتها في خرائط جغرافيّة[3].

- والأطلس اللّغوي طريقة حديثة لتسجيل الظّواهر اللّغويّة على خرائط جغرافيّة وذلك عند الحاجة إلى تحديد مناطق تلك الظّواهر، فتأتي الخريطة وسيلة إيضاح لظاهرة لغويّة لها علاقة بمكان معيّن، وهي من أقوى مظاهر اتّصال علمي اللّغة والجغرافيا[4].

- قد حاولت بعض الدّراسات وضع أطلس لسانيّ صوتي لكلّ المناطق النّاطقة بالعربيّة[5]، في الجزيرة العربيّة وخارجها، وتأثر العربيّة صوتيّا باللّهجات واللغات المختلفة في بلاد فارس وشمال إفريقيا، كإبدال بعض الأصوات؛ إبدال الحاء هاء عند الفرس والبربر والأنباط، وإبدال القاف كافا عند الفرس والبربر وأهل سمرقند ووضع خريطة لبلاد البربر أو شمال إفريقيا على هذا الأساس[6].

- وممّن اجتهد من الغربيّين في رسم أطلس لغوي للهجات العربيّة القديمة في غرب الجزيرة العربيّة تشيم رابين Chaim Rabin، حيث رسم عشرين خريطة عربيّة كخريطة للحميريّة في عصر الهمداني، وخريطة للمناطق الّتي تنصب وتجرّ المثّنى بالألف، ونحوها[7].

استهدفت بعض البحوث منطقة محدّدة وفقا للمنهج الفرنسي، واعتمدت مجالا محدّدا أو حقلا دلاليّا معيّنا جمعا ودراسة وتحليلا، كالأعشاب الطّبّية في منطقة تلمسان، بتتبّع أسمائها وطريقة نطقها، وتعيين الرّاوي أن يكون مسنّا من أهل البلد لينتفي عدم العلم أو الاختلاط بلهجات أخرى مجاورة، وقد شملت الدّراسة ثلاثا وخمسين نبتة، مع التّركيز على النّاحية الصّوتية والمعجمية، ومختلف تأدياتها لستّ مناطق في تلمسان، والملاحظ أنّ أغلب مناطق الغرب تشترك في تسمية هذه النّباتات، إلّا أنّ البحث يفتقر إلى

التّوصيف الصّوتي الدّقيق في تأدية هذه الكلمات ونطقها بحسب المناطق المختلفة، إلّا أنّ قارن بينها مع تبيين نوع الاختلافات الصّوتيّة وخاصّة الصّرفيّة منها؛ من إبدال وقلب وتصغير وإشباع وتفخيم وترقيق ومقاربتها بالعربيّة الفصحى[8]، والملاحظ أنّ من بينها بعض الكلمات من أصول بربريّة وهي قليلة، مثل: تيقنطست، تالغودة، امليلس.

2-مراحل الاستشراق: مرّ الاستشراق الفرنسي في الجزائر بثلاث مراحل[9]:

- **المرحلة الأولى (1830م-1879م):** تزعّمها عسكريّون فرنسيّون وتميّزت بالتّرجمة، وقد سعوا إلى إحلال الفرنسيّة مكان العربيّة في السّلطة والإدارة، واشتغلوا في لجان علميّة، ومجلّات وجمعيّات، وأنشأوا كراسي اللّغة العربيّة، انتهت بإنشاء مدرسة الآداب، والمدارس الشّرعيّة الثّلاث سنة 1879م، وهي العاصمة (ترأّسها جوني فرعون، رينيه، كومباريل، ريشي، هوداس على التّوالي) وقسنطينة (ترأّسها فيينار، شاربونو، ريشي، مارتن، مولاتيلانسكي، كور على التّوالي)، ووهران (ترأّسها هادمان، كومباريل، هوداس، ديلفان، موليراس، بيل) وهناك مدرسة الجزائر أو كولاج الجزائر، وله درسان بالعربيّة الفصحى وبالعربيّة الدّراجة، يُنتقى منهم تلاميذ يدرسون الإنسانيّات، كلّهم فرنسيّون باستثناء بعض الأوروبيّين من جنسيّات أخرى، وهناك الكولاج الإمبريالي تولّاه بيرون سنة 1857م، وأهمّها مدرسة الآداب في الجزائر نشأت على يد قاري سنة 1881م، ثمّ تحولّت إلى جامعة الجزائر سنة 1909م، وتُعنى باللّغة العربيّة العصريّة وعلم الآثار الإسلاميّة والتّاريخ وأُلحق بها معهد اللّغات الشّرقيّة. وخلال هذه المرحلة بدأ اهتمام المستشرقين الفرنسيّين في مدرسة اللّغات الشّرقيّة، وكولاج دو فرانس بالعربيّة الجزائريّة، مثل أعمال الأب بارجيس وبيهان[10]. فقد نشر بارجيس عدّة أعمال عن تلمسان، وأصدر بيهان قاموس (عناصر اللّغة العربيّة) سنة 1851م وقد وجّهه للسياح الأجانب. كما شكّلوا جمعيّات منها الجمعيّة الآسيويّة في باريس سنة 1822م، تزعّمها دو ساسي، شارك فيها بعض المستشرقين الّذين استقرّوا في الجزائر مثل بنجامين، فانيان، شاربونو، والجمعيّة الشّرقيّة في

باريس سنة 1841م، من بين أهدافها التّنسيق بين أعضاء المعهد الفرنسـي والقناصـل والرّحّالة وأصدروا مجلّة الشّرق الّتي اهتمّت بالجزائر، والجمعيّة الجغرافيّـة انصـبّ اهتمامها على استكشاف المغرب العربي تمهيدا لاستعماره، وجمعية قسنطينة التّاريخيّة تأسّست سنة 1852م، من أهمّ مؤسّسيها شـاربونو، ورمـت إلـى استكشـاف بقايـا الحضارات القديمة القرطاجية والنّوميديّة والرّومانيّة والعربيّة على أرض هـذا الإقلـيم من آثار ونقوش، وقد أصدرت هذه الجمعيّة مجلّة (مجموع ومواجيز وأبحاث الجمعيّـة الأثريّة لعمالة قسنطينة) سنة 1852م، والجمعيّة التّاريخيّـة الجزائريّـة أنشـئت فـي العاصمة سنة 1856م، وأصدرت المجلّة الإفريقيّة، واعتبرها غوستاف مرسي مكتبـة تاريخيّة في حدّ ذاتها[11]، وجمعيّة البحث العلمي بعنّابة سنة 1836م، وسمّيت فيما بعـد (أكاديميّة هيبون)، واتّسمت بطابع أثري ديني. وتكوّنت لجـان علميّـة فـي مختلـف المجالات، منها لجنة الاكتشاف العلميّ للجزائر، تأسّست سنة 1837م، وقد شملت كافّة التّخصّصات؛ الآثار، الجغرافيـا، الرّسـم، علـم الحيـوان، النّباتـات، الإثنوغرافيـا الفيزيولوجيا، المعادن، التّاريخ، الهندسة الجيولوجيا، .... وقد باشـرت عملهـا سـنة 1840م، وقدّمت أولى نتائجها سنة 1842م. ولجنة الاحتفال بمئوية الاحتلال، وتـولّى عملها أساتذة جامعة الجزائر ترأّسها شارل بيار، قامت بأعمال واسعة وورشات كثيـرة منها إنشاء الإذاعة الجزائريّة، وإنشاء مدارس وورشـات خاصـة بـالفنون الجميلـة والتّقليديّة، ونشر عدّة بحوث وكتب؛ منها: اللّباس الجزائري لجورج مارسي، وتطـوّر الاستعمار خلال قرن لإميل فيليكس غوتيي، وتطـوّر الجزائـر لإسـبيس، والشّـرق والرّسم الفرنسي خلال القرن التّاسع عشر لإليزار، وكانـت هـذه المرحلـة مرحلـة استكشاف للمجتمع الجزائري، من خلال لهجاته وعاداته وتقاليـده وتاريخـه، وغالـب المستشرقين كانوا عسكريّين ومترجمين، اشتهر من المترجمين في العربية منها وإليهـا جوني فرعون (ت1846م) وشارل زكار وغبريال زكار (ت1837م) وليـون إيـاس (ت1846م) ومجموعة، ومن البربريّة أحمد خاطري.

- **المرحلة الثّانية (1879م-1930م):** تميّـزت بتوسـيع نشـاط المستشـرقين الفرنسيّين، سواء بإعادة تنظيم المدارس، أو بإنشاء مدارس جديدة لتعلّم اللّغـة العربيّـة أو بعقد مؤتمرات الاستشراق. فقد تمّ إنشـاء مدرسـة الآداب سـنة 1880م ترأّسـها هوداس بمساعدة بلقاسم بن سديرة (1842م-1901م)، وتولّى روني باسـي تـدريس الأدب العربي فيها، ليتولّى رئاستها فيما بعد ويخلفه فانيان. ثمّ حُوّلت سنة 1909م إلـى جامعة، وأصبح باسي عميدا لها، ثمّ أنشأ بمساعدة بن سديرة وبوليفـة كرسـي اللّغـة البربريّة وتولّى تدريسها، واهتمّت بلهجات بني مزاب والقبائـل والأوراس، ودرسـت تاريخ الزّوايا والأولياء والصّالحين. واهتمّوا بالعاميـات العربيّـة فـي بدايـة القـرن العشرين، وتعزّزت هذه الدّراسات على يد وليام مارسـي (1872م-1956م)، الّـذي تحوّل من دراسة القانون إلى دراسة العربيّة العامية بالجزائر والمغرب وتـونس، كمـا حاضر بكولاج دو فرانس في العربيّة الفصحى. ونظّموا مـؤتمر الاستشـراق الرّابـع عشر بالجزائر سنة 1905م، واحتضنته كلية الآداب برئاسة روني باسـيه. وأنشـأوا كرسي اللّغة البربريّة في مدرسة اللّغات الشّرقيّة سنة 1913م، باعتبارها جـوءا مـن عاميات المغرب الكبير.

- **المرحلة الثّالثة (1930م-1962م):** وشهد فيه الاستشراق توسّعا كبيرا وذلـك بإنشاء معاهد متخصّصة، وتحويل المدارس الشّرعيّة الثّلاث إلـى ثانويـات مزدوجـة ومنها إنشاء معهد البحوث الصّحراويّة في مختلف التّخصّصات، وترأسه مير، وشارك فيه أطباء ومستشرقون وضبّاط وعلماء جيولوجيا كلّ في تخصّصه ومعهد الدّراسـات الشّرقيّة، ترأسه جورج مارسي، واهتمّ بالتّاريخ الإسلامي خصوصا، وأصدر حوليـات في عدّة مجلّدات، واللّهجات المنطوقة والمكتوبة في الأندلس[12].

3- **الاهتمام بالعاميات: تولّى** تدريس العامية مجموعة من المستشـرقين الّـذين رافقوا الحملة الاستعماريّة الأولى، مثل جوني فرعون وهو مصـري سـوري سـنة 1832م، ثّم واصله لويس بارنييه (1814م-1869م) منذ 1836م، وقد شـارك فيـه

مجموعة من المستشرقين الّذين أصدروا مجموعة من الكتب التّعليميّة بالعربيّة الدّارجة والفرنسيّة، ولقد انطلقت الدّراسات الاستشراقيّة للهجات المحلّيّة في وقت مبكّر، حــدّدها روني باسيه بسنة 1890م، ونتيجة لذلك أخذ كلّ مستشرق يدرس لهجة أو أكثــر فــي المدن والأرياف، فقد كانوا يحتكّون بالأهالي، أو عــن طريــق تلامــذتهم مــن هــذه المناطق[13].

اهتمّ المستشرقون الفرنسيّون بالعربيّة الفصحى للحاجة إليها في قراءة المخطوطات ونشرها والتّعامل بها في الإدارة والمراسلات والتّقارير ونحوها، وبعد دخــولهم إلــى الجزائر لاحظوا وجود لهجات كثيرة ومتنوّعة، فركّزوا عليهــا لحصــرها ودراســتها ومعرفة الأصول اللّغويّة والعرقيّة للسّكّان ومدى تأثير وتأثّر كلّ منهــا بــالأخرى، أو بلغات أخرى أيضا[14]، **بالإضافة** إلى التّواصل مع هذا المجتمــع، وهــذا يحيلنــا إلــى السّياسة اللّغويّة الاستعماريّة من خلال ثنائيّة الاهتمام والتّدمير؛ فاهتمّوا باللغة الفصحى واللّهجات دراسة وتعليما، ومحاولة تدميرها في الاستعمال العــام بــإحلال الفرنســيّة وتعليمها للمجتمع الجزائريّ لترسيخ وجودهم فيه، فألّفوا في هذا الصّدد عــدّة قــواميس ثنائية اللّغة (فرنسي–عربي)، منهم المستشرق أبراهام دانينــوس Abraham Daninos وجان جوزيف مارسيل J.J. Marcel، سنة 1937م بباريس بعنوان: (مفردات عربيّة وفرنسيّة)، وألّف جوني فرعون أوّل كتاب في نحو بالعامية الجزائريّــة ســنة 1932م وعنونه: (النّحو الابتدائي للعربيّــة الدّارجــة الموجّهــة للفرنســيّين) (Grammaire élémentaires d'arabe vulgaire l'usage des français)، ثمّ قام فيما بعد بتبسيطه وتلخيصه لتعميم الفائدة، وسمّاه: (موجز النّحو العربي البسيط)، ووضع برينيه دراســه حول لهجة وسط الجزائر أو إيالة الجزائر ســنة 1931، وســمّاه: (مــوجز العربيّــة الدّارجة في مدينة الجزائر وفي الإيالة الجزائريّة)، وكتاب آخــر (الــدّروس العمليّــة والنّظريّة للغة العربيّة)[15]، ووضــع كوســين دو بارســوفال Coussin de Perceval كتاب (نحو العربيّة الدّارجة) (Grammaire de l'arabe vulgaire)؛ جمع فيــه بــين

عدّة لهجات[16]، وله عدّة طبعات، وعدّة أعمال أخرى، غير أنّ الحديث عن تنظيم التّعليم والدّراسات العربيّة بدأ سنة 1938م، وقام المستشرق كور A. Cour بعرض مفصّل لهذه المحاولات على شكل ملاحظات؛ بعنوان (ملاحظات على كراسي اللّغة العربيّة في الجزائر قسنطينة، وهران) (Notes sur les chaises de la langue arabe)، ونُشر بالمجلّة الإفريقيّة سنة 1924م، ومنهم لوي جان بريزني L.J. Bresnier (1814م–1869م) من كبار تلامذة دو ساسي، نشر كتاب الآجروميّة ونشر مقال (التّعليم العربي في الجزائر) (l'enseignement de la langue arabe d'alger) سنة 1918م، جعل المحور الأوّل في دروس للتّمرين على النّطق باللّغة العامية وكتاب (رسم اللّغة العربيّة المنطوقة في الجزائر في عهد الوصاية عليها) (Expuisse de la langue arabe parlée à Alger et dans la régence d'Alger)، وسجّل فيه الخصائص الّتي تميّز العامية الجزائريّة عمّا سواها، وكانت كتبه مصدرا لتعليم العربيّة في الجزائر لمدّة طويلة وقاعدة لانطلاق دراسات أخرى[17]، من أوائل المهتمّين بالعاميات جاك أوغست شاربونو J. Aug. Cherbonneau (1813م–1882م) من تلاميذ دو ساسي، انتدبته الحكومة الفرنسيّة لتنظيم مدارسها في الجزائر وفي سنة 1861م كان مدرّسا في المدرسة العربيّة الفرنسيّة بقسنطينة، وبعد سنتين صار مديرا لكولاج دو فرانس في الجزائر، وفي سنة 1871م أصبح مديرا لجريدة (المبشّر)، ولما مات البارون دي سلان خلفه شاربونو في تدرس العامية المغربيّة في مدرسة اللّغات الشّرقيّة بباريس[18]، وله بحوث في هذا الصّدد منها: أصل تكوين العربيّة الإفريقيّة سنة 1885م، والعامية في الجزائر سنة 1861م[19]، واهتمّ بتحقيق ونشر تراث إفريقيا جنوب الصّحراء، ولا سيّما تنبكتو، وله (قاموس فرنسي عربي وعربي فرنسي) و(عناصر الجملة وترجمتها إلى الدّارجة)، وهي عبارة عن مجموعة من القواعد والتّمارين لتسهيل قراءة المخطوطات العربيّة وفهمها، واتّسمت أعماله بالعلميّة والاحترافيّة اللّغويّة والمعجميّة مقارنة بالأعمال التي أنجزت في تلك الفترة

منها: (التّعريف المعجمي لعدّة كلمات (Définition léxicographique de plusieurs mots)، و(رسالة إلى ديفرمري عن النّموذج الثّامن المستعمل في العربيّـــة المنطوقـــة (Lettre à Defremery sur le paradigme d'une 8eme forme usite dans d'arabe parlée)، و(منهجية التّعامل مـــع الاقتـــران العربـــي باللّهجـــة الجزائريّـــة) (Traité méthodique de la conjugaison arabe dans la dialecte algérien).

وظهرت دراسات وأبحاث حول البربريّة، لدراسة النّسيج الاجتمـــاعي المتنـــوّع واستثمارها في إحكام السّيطرة على المجتمع، وتطبيق سياسة فرّق تسـد أي أنّ هـــذه الأبحاث وإن اتّسمت بالعلميّة إلّا أنّها كانت تخدم الجهاز الاســتعماري وتصـــبّ فيـــه، ويعود اهتمامهم بذلك إلى منتصف القرن الثّامن عشر، وظهرت عدّة مؤلّفات وأبحـــاث ومعاجم، منها قاموس الأب هوغ Huygh، وهو قاموس قبائلي فرنسي، وقاموس بربر بجاية الّذي حثّ وزير الحرب الفرنسيّ على نشره، فصدر الجـــزء الأوّل منـــه ســـنة 1844م، اعتمادا على المصادر الشّفويّة، وأصدر هانوتو معجما عن لهجـــة جرجـــرة وذكر دوفريه نماذج عن لهجة الهقار، وقارنوا بين لســـان التّـــوارق ولســـان القبائـــل ولاحظوا الاختلاف بينهما[20].

وممّن اهتمّ بالتّنوّع اللّغوي في شمال إفريقيا المستشرق روني باســـي René Basset (1855م–1924م)، وله أعمال كثيرة ومتنوّعة عربيّة وبربريّة وحبشـــيّة وفـــي اللّغـــة والدّين والفولكلور والتّاريخ، منها الشّعر العربي قبل الإسلام ســـنة 1880م، دراســـات في اللّهجات البربريّة، وفهرس مكتبات الزّوايا سنة 1886م ونشر متن الخزرجيّة فـــي العروض، وله في المجلّة الآسيويّة دراسة عن نشاط فرنسا العلمي في الجزائـــر وفـــي شمال إفريقيا منـــذ 1830م. ومـــنهم أوكتـــاف هـــوداس Octave Houdas (1840–1914م)، اشتغل بالتّعليم في الجزائر ووهران، وافتتح الدّراسة فـــي المدرســـة العليـــا للآداب في الجزائر سنة 1880م، ثمّ أُستدعي لتدريس العامية فـــي مدرســـة اللّغـــات الشّرقية بباريس، ترجم أربعا وستّين سورة الأخيرة من القرآن ونشرت بالجزائر ســـنة

1864م، وله كتب تعليمية في العربيّة، وتحقيق منظومة ابن عاصم في فروع المالكيّــة مع مارتل، وترجمة فرنسيّة وشرح لغوي وقانوني، ونشر في الجزائــر ســنة 1883م وباريس سنة 1893م، وله في المجلّة الآسيويّة كتاب فرنسي-عربي للشّؤون الإداريّــة والقضائيّة سنة 1897م، وسلالة الأشراف في المغرب ومزاحمتهم للأتراك على ولاية الجزائر[21]، ومنهم البارون ديسلان Baron De Slane (1801م-1878م)، ولد في إرلندا وقدم إلى فرنسا سنة 1830م ليصير من كبار تلامذة دو ساسي، وفي سنة 1845م قدم إلى الجزائر في مهمّة لوزارة التّربية، قدّم لها تقريا فيــه قائمــة لمخطوطــات مكتبــة الجزائر وقسنطينة، وفي سنة 1846م عيّن كبيرا للمترجمين فــي الجــيش الفرنســي واستدعي لتدريس التّركية في مدرسة الألسن الشّرقيّة، وفي ســنة 1863م بــدأ فــي تدريس اللّهجة الجزائريّة فيها، وفي سنة 1871م عُيّن بصفة نهائيّة أستاذ اللّغة العاميــة فيها، ترجم مقدّمة ابن خلدون، وتاريخ البربر لمجهول، وتحقيق تقويم البلدان لأبي الفــدا بالتّعاون مع رينو في الجمعيّة الآسيويّة، وله تراجم المشــهورين فــي الإســلام ســنة 1838م، وترجمه إلى الإنجليزيّة في أربعة أجزاء، وله تاريخ البربر والأسر الإسلاميّة الّتي ملكت شمال إفريقيا سنة 1847م، وله فهرس المخطوطات العربيّة السّريانية فــي المكتبة الوطنيّة بباريس بالعربية والفرنسيّة في أربعــة أجــزاء (4665 مخطــوط)[22].

وجورج مارسي Georges Marçais (1876م-1962م) من الأكاديميّين في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، تخرّج من مدرسة الفنون الجميلة ونال دكتوراه الأدب، وعيّن أستاذا للآثار في كلية الآداب بالجزائر سنة 1919م ومسيّرا لمعهد الدّراسات الشّــرقيّة فــي الجزائر سنة 1931م، وعضوا في مجمع الكتابات والآداب سنة 1940م، لــه الأبنيــة العربيّة القديمة في تلمسان سنة 1903م وتاريخ العرب في بلاد البربــر مــن القــرن الحادي عشر إلى القرن الرّابع عشر سنة 1913م في قسنطينة، والعمارة الإسلاميّة في المغرب وتونس والجزائر والأندلس وصقلية سنة 1954م في باريس، وتلمسان سلســلة المدن المشهورة سنة 1950م وغيرها[23]، ومــنهم دولفــان G. Delphing (ت1919م)

تخرّج من مدرسة اللّغات الشّرقيّة، وعيّن مديرا لمدرسة وهران، حيث درّس اللّغة العربيّة بلهجاتها إلى أن تُوفّي بالجزائر، نشر مجموعة من النّصوص بالعامية، وعدّه وليام مارسي من أفضل الكتب في العامية في شمال إفريقيا، ويُعتبر وثيقة هامة استفاد منه علماء اللّغة والاجتماع، واهتمّ بالعامية التي يتخاطب بها الطّلبة في الأرياف، وكتب فيها تقريرا عن مخالطته لهم، له قصّة ما جرى لعربيّين من طلاب العلم بالقرب من وهران سنة 1887م، وكتاب تيسير العربيّة للفرنسيّين سنة 1891م، وعدّة أبحاث عن الإسلام في الجزائر، منها كتاب صغرى السّنوسي سنة 1897م، وتاريخ الباشوات العثمانيّين في الجزائر متنا وترجمة وتعليقا في المجلّة الآسيويّة سنة 1922م[24]، والأب بارجيس J. Barges (1810م-1896م) صحفي وأستاذ العربيّة في مارسيليا، واللاهوت والعبريّة في السّربون، وله معرفة بالعلوم الدّينيّة واللّغويّة والفينيقيّة، ترجم تاريخ بني زيان للتّنسي سنة 1852م، ونشر ديوان ابن الفارض، ومعجم عربي في مارسيليا سنة 1884م، وبحث حول الكتابات الفينيقيّة في متحف نابليون الثّالث سنة 1863م[25]، ومنهم ديجا Dugat (1824م-1884م) تخرّج من مدرسة اللّغات الشّرقيّة وعيّن أستاذا بها، وعُني بالتّاريخ ولا سيّما جغرافيا بلاد المسلمين، وأوفدته الحكومة الفرنسيّة في مهمّة علميّة إلى الجزائر، له ترجمة تنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري سنة 1850م، وترجمة الشّعر العامي سنة 1850م، وتاريخ مستشرقي أوروبا من القرن الثّاني عشر إلى القرن التّاسع عشر في جزئين بباريس سنة 1868م وغيرها[26]، ومنهم ليفي بروفنسال Levi Provençale (1894م-1956م) ولد في الجزائر تخرّج من كلية الآداب انتدب للعمل في معهد الدّراسات العليا المغربيّة سنة 1919م ثمّ التّريس بها وأثناءها قدّم رسالة دكتوراه عنوانها (مؤرّخو الشّرفاء)، وتتمّتها نصوص الأوراتة العربية وهي بحث في لهجة شمال المغرب وتوزّع وقته بين التّدريس في الرّباط والجزائر والسّوربون، حيث كان يُدرّس تاريخ العرب وعلومهم وفي سنة 1939م صار مدير المطبعة العربيّة لدائرة المعارف الإسلاميّة، ونال جوائز

وأوسمة نظير جهوده في الاستشراق، وعُدّ المرجع الأوّل في الغرب لتاريخ الأندلس له التقويم التاريخي لمطبوعات فاس بمعونة محمّد بن شنب سنة 1922م في الجزائر، وله كتاب نبذة تاريخيّة في أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة مـن كتـاب (مفـاخر البربر) لمجهول بالرّباط سنة 1934م، وله مختارات من مؤرّخي العرب في المغـرب وهي نصوص محلية في 124 صفحة، وله عدّة طبعات أولاها فـي بـاريس سـنة 1924م، وأعاد نشر كتاب (إسبانيا المسلمة في القرن العاشـر المـيلادي) فـي 272 صفحة في القاهرة سنة 1938م، وبحوث في الأدب المغربـي فـي هيسـبريس سـنة 1922م[27].

4- **الاهتمام بالتّراث الشّعبي:** لم يلق التّراث الشّعبيّ في الجزائر اهتماما خاصّا إلّا في العصر الحديث مع بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد وتحديدا في الرّبـع الثّـاني مـن القرن التّاسع عشر؛ لأنّ الاحتلال كان بحاجة إلى استكشـاف العـدوّ وبـدأت هـذه الدّراسات عسكريّة، شملت المناطق الّتي سيطر عليها الاحتلال تناولت الحياة الشّـعبيّة فقام ضباط عسكريّون بتسجيل هذا التّراث من أفواه أهله وتحليله ودراسـته اسـتجابة لغرض إحكام السّيطرة على الأهالي، ومنها مثلا ما كتبه ضابط الشّـرطة دوبينوسـك D’Aubignosc Louis Philibert (1774م-1847م) في مجلّة باريس بحـث حـول مدينة الجزائر سنة 1831م؛ ركّز فيه على الحياة اليوميّة للسكّان وممارساتهم وعاداتهم ونحو ذلك، بغية معرفة نفسياتهم وبالتّالي السّيطرة عليهم ومنها كتاب (اثنتان وثلاثـون سنة عبر الإسلام 1832م-1864م) لليـون روش Léon Roche، وامتـدّت هـذه البحوث لتسجيل الفروقات الاجتماعيّة بين السكّان من حيث اللّهجات والعادات والتّقاليـد مع ملاحظة تسجيل مجموعتين كبيرتين وهما العرب والبربر، وهذا تمهيـدا لترسـيخ السّيطرة على المجتمع، فكانت هناك دراسات عن لهجات بربر القبائل وبربر الشّـاوية وبربر بني سنوس وبربر الطّوارق[28]. وأخذ البحث طابعا أكاديميا على يد المستشـرق الفرنسي روني باسي الّذي نشر عدّة أعمال؛ منها قصّة بنت الخـص مترجمـة إلـى

الفرنسيّة في المجلّة الإفريقيّة، وألفريد بيل Alfred Bel الّذي نشر فيها قصّة الجازية وجوزيف ديسبرميه J. Desparmet الّذي تناول المغازي، وأولاد رشاش لفيسير من قصص الجازية وذياب بن غانم.

– **الاهتمام بالشّعر الفصيح والملحون:** وفي هذا السّياق اهتمّ المستشرقون بالشّعر الجزائري فصيحه وملحونه، تحقيقا ونشرا وترجمة إلى الفرنسيّة، لأنّه يساعد في فهم طبيعة المجتمع، ويوثّق للبحوث الأنتروبولوجيّة الواسعة للمجتمع الجزائري، ومن قصائد الملحون الّتي اشتهرت في زمانها؛ قصيدة دخول الفرنسيّين إلى الجزائر، نظمها عبد القادر الوهراني (ت1833م)، جسّد فيها حجم الدّمار الّذي شهدته الجزائر أثناء دخوله إليها؛ حتّى قال فيها عبد الملك مرتاض: " لا نجد لها نظيرا فيما اطّلعنا عليه من شعر المقاومة شعبيّا وفصيحا معا"، نشرها ديسبرمو J. Desperment بعنوان (قصيدة دخول الفرنسيّين إلى الجزائر) سنة 1930م ومطلعها:

بِالْحَمْد نَبْدَا ذَا القصّة ونْعِيدْهَا   اِسْتَغْفَرُوا وتُوبُوا يا مَسَلْمِينْ

نْوُصّي على صْلاة أحْمَدْ لَا تَنْساوْها   تْفُكْ مَنْ القْصَايَصْ ونَصْبْ الوَازْنِينْ

ويقول فيها:

تَغَفَرْ ذْنُوب أُمّي وأبي وَأَشْيَاخْهَا   وَالْغَايْبِين وأهْلِي والْحَاضْرِينْ

تَجْعَلْ مْقَامي في الجَنَّة وَجْنَانْها   بْجَاهْ سَيدْ الأُمَّة جَدّ الحَسْنِينْ

رَانِي عَلَى الجَزَائِرْ يَا نَاس حْزِينْ[29]

ونشر فانسنت B. Vencent قصيدة في سقوط الجزائر للشّاعر محمّد بن الشّاهد، وهي من الفصيح على البحر الطّويل، وترجمها إلى الفرنسيّة مع تعليقاته؛ أوّلها:

أَمِنْ صَوْلَةِ الأَعْدَاءِ سُورُ الْجَزَائِرِ   سَرَى فِيكِ رُعْبٌ أَمْ ركَنْتِ إِلَى الأَشْرِ

لَبِسْتِ سَوادَ الْحُزْنِ بَعْدَ الْمَسَرَّةِ   وَعَمَّتْ بَوادِيكِ الْفُتُونُ بِلَا حَصْرِ

وقد نشر الإسكندر جولي Alexandre Jolly ملاحظات على الشّعر الحـــديث عنـــد البـــدو الجزائـــريّين، Remarques sur la poésie moderne chez les nomades algériens، في المجلّة الإفريقيّة، وهي عبارة عن دراسة فنّيّة للشّعر الملحـــون فـــي الجنوب، مناطق الحضنة والأغواط وتيارت وبسكرة وعين الصّـــفراء، وركّـــز علـــى بعض الكلمات الخاصّة بأهل الجنوب في أنواع الشّعر؛ كالقطّاعة وهو شعر الحـــداء[30]. ونشر قسطنطين لويس سونيك Constantine Louis Sonneck ســـنة 1902م كتـــاب (الدّيوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب)، جمع فيه أشعار فطاحلـــة الشّـــعر الملحون من أمثال ابن مسايب ولخضر بن خلوف وغيرهمـــا، جمعهـــا عـــن طريـــق المشافهة، ضمّ مائة وسبع عشرة قصيدة في مختلف الأغراض، ونشر فوربيقي قصـــيدة العقيقة للمنداسي مع ترجمتها. كما اهتمّوا بالشّعر البربريّ منهم لوسياني، واستعان فـــي ترجمته للشّعر الزّواوي بالشّيخ محمّد بن السّعيد بن زكري[31]، ومحمّد بن أبـــي شـــنب الّذي ترجم قصيدة محمّد بن إسماعيل عن حرب القرم مـــن العربيّـــة الدّارجـــة إلـــى الفرنسيّة، ونشرت في المجلّة الإفريقيّة[32].

– واهتمّوا أيضا بالأمثال الشّعبيّة، فقد نشر روني باسي (الأمثـــال فـــي مقاطعـــة وهران) في المجلّة الآسيويّة سنة 1890م، ونشر هنري باسي دراسة عن الأمثال فـــي الأهقار في مجلّة الإفريقية سنة 1922م، وهذا كلّه تتبّعا لطبيعة المجتمـــع الجزائـــري وتسجيل الملاحظات حول مختلف مكوّناته، ومن ذلك مانشره إدوند ديستانج Edmond Destaing دراسة عن الأعياد والعادات الموسميّة في بني ســـنوس، وتســـمية الأيّـــام والفصول والسّنة الفلاحيّة بها، ونشر بالمجلّة الإفريقيّة سنة 1906م، ونشر قونيالون L. Gongnalon الأعياد الرّئيسيّة لسكّان ورقلة، توصيف لاحتفالات الـــزّواج وعاشـــوراء وعيد الرّبيع الموافق لواحد وعشرين من شهر مارس من كلّ ســـنة وغيرهـــا، ونُشـــر البحث في المجلّة الإفريقيّة سنة 1909م.

- **سيلفستر دي ساسي:** بوصفه مستشرقاً مختصاً في العربية محاضـــر جلســات 1938 في أكاديمية النقوش والآداب الجميلة.
- المعاجم العربية، محاضرة باللغة العربية ألقيت في الرباط 1940م.
- كيف تعرّب شمالي أفريقية (محاضرة في 26/ 1/ 1939م).
- المرأة في ألف ليلة وليلة (محاضرة في باريس 1946م).

– مستشرق عظيم: دي سلان (1956م). واشترك مــع Houdas فــي ترجمــة «صحيح» البخاري[33].

- Edmont Doutté et Emile-félix Gautier ; Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie.

كما يشير إلى أنّ هذه التسمية (قبائل الصــغرى petite kabylie) ليســت لهــا أيّة علاقة مع وجود اللغة القبائلية في هذه المنطقة، ويضيف الأستاذان في صفحة 141 إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبه Hanoteau عندما صرّحَ "أن كلّ سكان القبائل الصغرى يتكلمون القبائلية"، وهذا ناتج عن رغبته فــي تحريــف المعلومــات اللغويــة العلميــة وضبطها بالقوة حتى تصبح لُغة سكان المنطقة مُنْسجمة مع التسمية الإستعمارية "قبائــل صغرى" ومتجانسة مع المصطلح الكولونيالي "قبائل صــغرى" ويضــيف الأســتاذان صفحة 141 أن شرق بجاية، كل من منطقــة "هضــبة بوســلام" و"الــوادي الكبيــر" و"فرجيوة " و" زواغة " و"قايدات " و"مويا" و"تاكتونت" و"فج مزالا" و"الميليــة" كــانوا يتكلمون اللغة العربية منذ قرون، واللغة القبائلية ليست موجودة و ليست مفهومة ابتــداءً من شرق جبل بابور.

– **روني باسيه René Basset** : ولد في مدينة لونفيل سنة 1855م، تخرّج من كلية الآداب بنانسي، ثم من معهد الدّراسات الشّرقيّة بباريس، أُسند له كرســي العربيّــة بالجزائر سنةَ 1885م، يجيد العربيّة والفارسيّة والتّركيّة والأمازيغيّة، كان من طليعــة محرّري المجلّة الإفريقيّة، ونشرة المراسلات الإفريقيّة، ونشرة الآثار الإفريقيّة، وأسهم في تأسيس مجلّات عديدة، وترأّس مؤتمر المستشرقين في الجزائر ســنة 1905م، لــه

بحوث عديدة في اللّغة الأمازيغيّة منها: بحث في التّنوّع الأمازيغي لسيوة، ومعجم صغير عن غات، ودراسة مقارنة عن التّنوّع اللّغوي لجبل نفوسة، وبحث في كلمات أمازيغيّة قديمة، لقمان الأمازيغ، مجموعة حكايات أمازيغيّة عامية، ومباحث عن ديانات الأمازيغ القديمة والألفاظ العربيّة في اللّغة الأمازيغيّة، ومشاهد جبل نفوسة ومجموعة كبيرة من البحوث تتعلّق بشمال إفريقيا وإفريقيا السّوداء، ومنها:

- أخبار سيدي ابراهيم الماسي في القرن التّاسع عشر سيدي ابراهيم الماسي تحقيق روني باسي
- دراسة لهجات اولاد براهيم بسعيدة، باريس 1908م.
- اللهجة المستعملة في تلمسان، لورو 1902م.
- نصوص عربية من طنجة، باريس 1911م.
- مقالات ومحاضرات، 248ص، باريس 1961م.
- ندرومة وترارة روني باسيه طبعة لورو 1901م.
- Notes de lexicographie berbère, par M. René Basset
- La Langue berbère. Morphologie. Le Verbe. Etude de thèmes , par André Basset
- Manuel de langue kabyle (dialecte zouaoua), grammaire, bibliographie, chrestomathie et lexique, par René Basset,…
- Recueil de textes et de documents relatifs à la philologie berbère, par René Basset,…
- La Langue berbère. Morphologie. Le Verbe. Etude de thèmes, par André Basset
- Cours de berbère Basset, André
- Textes berbères de l'Aurès (parler des Aït Frah) Basset, André
- Le Costume musulman d'Alger, par Georges Marçais
- les arabes en berbérie du XIe au XIVe siècle par Georges Marçais
- L'Art en Algérie, par G. Marçais

- Articles et conférences , Avant-propos de Georges Marçais
- La Vie feminine au Mzab. Etude de sociologie musulmane. Préface de William Marçais, professeur au Collège de France, membre de l'Institut. Avec 19 planches Goichon, Amélie-Marie
- Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge), contribution à l'étude de la céramique musulmane Marçais, Georges
- Les Poteries et faïences de la Qal a des Benî Hammâd (XIe siècle), contribution à l'étude de la céramique musulmane Marçais, Georges.

-**اللّهجة القبائليّة (لهجة زواوة)، Manuel de langue Kabyle (dialecte Zouaoua)**، نشر بدار ميزونوف ولوكلارك، 1887م: انطلق فيه من عمل هانوتو M. Hanoteau، واستكمله وأضاف إليه الكلمات الفرنسيّة الطّارئة على لهجة زواوة والّتي لم تكن موجودة زمن هانوتو، بدأه بالحروف الأمازيغية وقارن بين مختلف لهجاتها، ثم فصل في الأسماء، وفصل في الأفعال، والصّفات، وأسماء الأعداد، ووضع فيه نصوصا وقصص في لهجات زواوة وقصص في لهجات أخرى وهي بني مناصر (شرشال)، ومزاب، والشاوية، والرّيغيّة، وورقلة، وجربة ونفوسة، وقصور جنوب وهران، والشّلحيّة، والرّيفيّة، ومعجم مرتّب هجائيا، وما يُلاحظ في عمله أنّه سجّل بعض الفروق النّطقية لبعض الحروف في مختلف لهجات الأمازيغيّة، وقارن بينها حرف التّاء ينطق تاء Ta مثلا ينطق في غرب زواوة: اتْسَ Tsa[34] وبعضها ينطقها ثاء، وكلمة ثابورث عند زواوة تُنطق ثاوورث في بجاية وبني مزاب وبني مناصر وبطيوة، وثاجورث في إيلولا.

- **تسمية مشاهد جبل نفوسة (دراسة في وثيقة مجهولة المؤلّف) Les sanctuaires du Djabel Nefousa**، روني باسي، وثيقة تحدّد أسماء الأماكن والمواقع المقدّسة عند النفوسيّين، مساجد ومزارات ومعالم مقدّسة للزّيارة في جبل نفوسة، والكتاب في الأصل ملحق لكتاب السّير للشماخي حققه روني باسي، ومن بينها أيضا بعض المعالم الّتي يعتقد أنّها كانت كنائس، ساهم أهلها في الوقوف في وجه الفاتحين المسلمين[35].

- **وليام مارسي WILLIAM MARçAIS (1874م-1965م):** مستشرق فرنسي اهتم خصوصاً باللغة البربرية واللهجة العربية المغربيـــة. عـــين فـــي 1898 مـــديراً (ناظراً) لمدرسة تلمسان. فمكنه هذا المنصب من الاتصال بالمعلمين العرب فيها وتعلـــم اللغة العربية واللغة البربرية. ثم عين ناظراً (مديراً) للمدرسة العليا في الجزائـــر. ثـــم انتقل إلى باريس حيث عين أولاً في مدرسة الدراسات العليا الملحقة بالسوربون، ثم في الكوليج دي فرانس 1927. وصار عضواً في أكاديمية النقوش والآداب الجميلة.

وقد قام في مطلع شبابه بترجمة (ديوان أوس بن حجر التميمـــي) إلـــى الفرنســـية استناداً إلى النص العربي، الذي كان جاير R. Geyer قد نشـــره ضـــمن «محاضـــر جلسات الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم في ڤيينا» (المجلد رقم 126) مع ترجمة ألمانية وشرح. وقد نشرت ترجمة مرسيه بعد وفاته في مجلة) Arabica عدد يونيـــو 1977، الكراسة، ص110- 137). ولا تشمل هذه الترجمة إلا شطراً من قصائد الديوان.

وله دراسات ومحاضرات جمعت بعد وفاتـــه فـــي مجلـــد بعنـــوان: (Articles et Conférences) في 247ص مع مقدمة لأخيه جورج، ومنه عن حياته ومؤلفاته كتبها A. Merlinونبذتان عن حياته بقلم كانار Canard وهـــ. تراس Terrasse نشرتا مـــن قبل في (منشورات معهد الدراسات العليا المراكشية في الرباط).

وصدر هذا المجلد في 1961، وهذا أهمّ ما فيه:

- العبادة في الإسلام، محاضرة في ستراسبورج سنة 1923م.
- أصول النثر الأدبي العربي، في RA جـــ68، سنة 1927 ص15- 28.
- الإسلام والحياة المدنية، سنة 1928م.
- اللغة العربية، مجلة التعليم العام ديسمبر 1930م.
- قرن من الأبحاث في ماضي الجزائر الإسلامية في الاحتفال المئوي بالجزائر سنة 1931م.
- خطب نشرت في RA 1936م.

- **المصادر والمراجع:**

- موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، 1992م. (http://archive.is/cO5W).

- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1996م.

- الاستشراق الفرنسي في الجزائر وجهوده في دارسة ونشر التّراث الجزائريّ رزيقة يحياوي، إشراف محمّد حجازي، بحث ماجيستير في تخصّص تحقيق النّصوص ونشرها، كلية الآداب واللّغات، جامعة باتنة، سنة 1435هـ/1436هـ-2014م/2015م.

- الاستشراق الفرنسي والتّراث الشّعبيّ في الجزائر، إعداد: شايب الدّور امحمّد إشارف: محمّد بن سعيد، رسالة ماجيستر، كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة وهران 2009م/2010م.

- الأطلس اللّغوي والبحث اللّساني عند العرب مقاربة منهجية، خالد نعيم الشناوي مجلّة ذي قار، مج1، العدد3، أيار 2011م، ص 7 وما بعدها.

- الأطلس اللّغوي، خليل محمود عساكر، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، مج7، سنة 1949م.

- التّفكير اللّغويّ عند الجغرافيّين والرّحّالة العرب، مازن عوض الوعر، مجلّة التّراث العربي، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، السّنة السّادسة والعشرون، ع 104 ذو الحجّة 1427هـ/ديسمبر 2006م.

- الدّراسات العربيّة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، إسماعيل العربي المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986م.

- الفاضل في اللّغة والأدب، أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد، تحقيق: عبد العزيز الميمني، القاهرة، 1950م، ص 113.

- اللّسانيات الجغرافيّة وأثرها في توجيه دلالة الكلمات القرآنيّة، الجودي مرداسي مجلّة الآثار، ع 22، جوان 2015م.

– اللّهجات العربيّة وعلاقتها باللّغة العربيّة الفصحى: دراسة لغويّة، محمّد شفيع الدّين مجلّة دراسات الجامعة الإسلاميّة شيتاغونغ، بنغلادش، مج 4، ديسمبر 2007م.

– المستشرقون، نجيب عقيقي، دار المعارف، القاهرة، 1964م.

– المعجم الموحّد لمصطلحات اللّسانيّات: إنجليزي–عربي–فرنسي–عربي المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التّعريب، الدّار البيضاء 2002م

– أنباه الرواة على أنباه النّحاة، جمال الدّين أبو الحسن القفطي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب والوثائق القوميّة، ط2، 1426هـ/2005م 258/2.

– تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1 1996م.

– تسمية مشاهد جبل نفوسة، روني باسي، ترجمه: عبد الله زارو وموحمد أومادي منشورات مؤسّسة تاوالت الثّقافيّة، 2004م.

– جهود المستشرقين الألمان في دراسة اللّهجات العربيّة المحكيّة وتحدّيات العولمة ظافر يوسف، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، مج 83، ج 4.

– عن منهج العمل في الأطالس اللّغويّة، سعد مصلوح، مجلّة كلّية دار العلوم جامعة القاهرة، ع 5، 1976م، ص 107.

– في اللّهجات العربيّة، إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو مصريّة، 1965م.

– في علم اللّغة العام، عبد الصّبور شاهين، مؤسّسة الرّسالة، القاهرة، 1980م.

– نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربيّة، عبد العزيز بن حميد بن محمّد الحميد مؤتمر اللّغة العربيّة وتحدّيات العصر، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، جمادى الأولى 1433هـ/مارس 2012م.

– Le bèrbère et sa langue, Henri Basset, Belles Lettres, Imprimerie Hasnaoui, Alger, 2011.

– Le Djurjura à travers l'histoire, Si Amar Boulifa, Alger, J. Bringau, 1925.

– Manuel de langue Kabyle (dialecte Zouaoua), René Basset, maisonneuve & Ch. Leclerc, éditeurs, Paris, 1887, p5.

الهوامش

[1] – انظر: في اللّهجات العربيّة، إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو مصريّة، 1965م، ص 17، 18.

[2] – في علم اللّغة العام، عبد الصّبور شاهين، مؤسّسة الرّسالة، القاهرة، 1980م، ص 225.

[3] – المعجم الموحّد لمصطلحات اللّسانيّات: إنجليزي–عربي–فرنسي–عربي، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التّعريب، الدّار البيضاء، 2002م، ص 62. وانظر: اللّسانيات الجغرافيّة وأثرها في توجيه دلالة الكلمات القرآنيّة، الجودي مرداسي، مجلّة الآثار، ع 22، جوان 2015م، ص 26.

[4] – انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربيّة، عبد العزيز بن حميد بن محمّد الحميد، ص 235.

[5] – نذكر دراسة أحمد عبد الله عبد ربّه ياغي؛ رسالة دكتوراه: (الملاحظات اللّغوية للجغرافيّين العرب: دراسة في ضوء علم اللّغة) بإشراف: حلمي خليل، في جامعة الإسكندرية سنة 1412ه/1991م، وإبراهيم محمّد الخطابي ببحث عنوانه: (الأسس النظريّة والمنهجيّة لأطلس لسان المجتمع العربيّ).

[6] – انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربيّة، عبد العزيز بن حميد بن محمّد الحميد، ص 249، 250.

[7] – انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربيّة، عبد العزيز بن حميد بن محمّد الحميد، ص 252 وما بعدها.

– نحو أطلس لغوي لألفاظ الأعشاب الطّبّيّة في منطقة تلمسان –قراءة تحليليّة–، جمال الدّين بابا، مجلّة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، ع12، 2016م، ص 455 وما بعدها.

[9] – انظر: الاستشراق الفرنسي في الجزائر وجهوده في دارسة ونشر التّراث الجزائريّ، رزيقة يحياوي، إشراف محمّد حجازي، بحث ماجيستير في تخصّص تحقيق النّصوص ونشرها، كلية الآداب واللّغات، جامعة باتنة، سنة 1435هـ/1436هـ–2014م/2015م، ص 47 وما بعدها.

[10] – المستشرقون، نجيب عقيقي، 141/1.

[11] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، 95/6.

[12] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، 100/6، 101.

[13] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، 14/2.

[14] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، أبو القاسم سعد الله، 19/8.

[15] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، 42/6.

[16] – انظر: الدّراسات العربيّة في الجزائر، إسماعيل العربي، ص 12.

[17] – انظر: الدّراسات العربيّة في الجزائر، إسماعيل العربي، ص 13، 14.

[18] – انظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1996م، 34/1.

[19] – انظر: المستشرقون، نجيب عقيقي، 186/1.

[20] – انظر: الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق، محمّد العربي معريش، ص 272.

[21] – انظر: المستشرقون، نجيب عقيقي، 200/1، والدّراسات العربيّة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، إسماعيل العربي، ص 37، 38.

[22] – انظر: نفسه، 180/1.

[23] – انظر: نفسه، 253/1.

[24]– انظر: نفسه، 202/1، والدّراسات العربيّة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ص 49.

[25] – انظر: نفسه، 349/1، ومعجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، ص 131.

[26] – انظر: نفسه، 139/1.

[27] – انظر: نفسه، 293/1–295.

[28] – انظر: الاستشراق الفرنسي والتّراث الشّعبيّ في الجزائر، إعداد: شايب الدّور امحمّد، إشارف: محمّد بن سعيد، رسالة ماجيستر، كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة وهران، 2009م/2010م، ص 56 وما بعدها.

[29] – انظر: الاستشراق الفرنسي وجهوده في دراسة ونشر التّراث الجزائري، إعداد: رزيقة يحياوي إشراف: محمّد حجازي، بحث ماجيستر جامعة باتنة، السّنة الجامعيّة: 2014م/2015م، ص 85 وما بعدها.

[30] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، 316/8.

[31] – انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، 26/8.

[32] – انظر: : الاستشراق الفرنسي والتّراث الشّعبيّ في الجزائر، إعداد: شايب الدّور امحمّد، ص 150.

[33] – مرسيه وليم المصدر: موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، 1992م. (http://archive.is/cO5W).

[34] – Manuel de langue Kabyle (dialecte Zouaoua), René Basset, maisonneuve & Ch. Leclerc, éditeurs, Paris, 1887, p5.

[35] – انظر: تسمية مشاهد جبل نفوسة، روني باسي، ترجمه: عبد الله زارو وموحمد أومادي منشورات مؤسّسة تاوالت الثّقافيّة، 2004م، ص 7.

تقرير الورشة العلميّــة

بسم الله الرحمن الرّحيم والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء وسيّد المرسلين

انعقدت أشغال الورشة العلميّة من فعاليات اليوم الدّراسي **الموسوم "باليوم العالمي للتنوّع الثّقافي من أجل الحوار والتّنمية 21 مايو**" بالمكتبة الوطنية الحامّة من السّاعة العاشرة والنّصف صباحا إلى الواحدة والنّصف زوالا بتاريخ السّابع عشر يونيو 2019 برئاسة الأستاذ عبد اللّه روينة والمقرّرة روابح أمال.

تشكّلت الورشة من الأساتذة الآتية أسماؤهم:

_ أ. فتحي بوقفطان؛

_ أ. عبد النّاصر بوعلي؛

_ أ. فايزة مجاهدي؛

_أ. عبد القادر سرير عبد الله؛

_د. يوسف بن نافلة؛

_د. عابدة قرسيف؛

_أ. إيمان بلحداد؛

_أ. يوسف باعمارة؛

_د. أحلام سعيدي؛

_أ. لامية قداش؛

_د. بوفلاقة محمّد سيف الإسلام؛

_أ. أحمد أمعيز؛

_أ. درقاوي كلثوم.

انطلقت الورشة بكلمة ترحيبيّة تمهيديّة للأساتذة الأفاضل ليــتمّ بعــدها مناقشــة مواضيع متنوّعة تنوّع الثّقافة اللّامتناهي مثل:

*التنوّع الثّقافي بين هاجس الاستيلاب وأمل الاستيعاب.

*واقع وآفاق التعدّد اللّغوي وأثره في التّنمية التعليميّة والثقافيّة بالجزائر.

*التنوّع اللّغوي واسهامه في الثّراء الثّقافي للمجتمع الجزائري _ولاية غردايــة أنموذجا_

*قيم التسامح في الثّقافة الاسلاميّة وأهميّة اللّغات في اثراء التنوّع الحضـــاري _نماذج من التبادل اللّغوي والحوار الحضاريّ في الأندلس_

واشكاليّة التّواصل بين المتعلّمين في ظلّ التنوّع اللّغوي والثّقافي.

_وفي إطار هذه الورشة العلميّة توصّل الأساتذة الى مجموعة من التوصــيات نلخّصها لكم فيمايلي:

1- ضرورة استثمار التنوّع اللّغوي بالجزائر في التّنمية التعليميّــة والثقافيّــة وتحسينها.

2- نشر المؤلّفات التراثيّة التي تتوافق مع مقتضيات الحداثة

3- ضرورة العناية بالشّخص المثقّف المتمسّك بالأصالة مع عدم انغلاقه على التّراث بل لابدّ من الاطّلاع على العلوم الأخرى والالتحاق برتب الدّول المتقدّمــة لأنّ الإسلام يحثّنا أن نكون في المقدّمة

4- استثمار أبعاد التنوّع الثقافي الأيديولوجية والسياسية والاقتصاديّة بالمنظور الإيجابي الّذي يفضي الى تحقيق السّلام بين الافراد والمجتمعات دون الانسلاخ عن القيم الذّاتيّة وتقبّل ثقافة الغير اللّغويّة والدّينيّة والمجتمعيّة.

5- التسليم بفكرة الاختلافات الثقافيّة بــين المجتمعــات ومحاولــة التصــدّي للمشاكل التي تعترض افرادها اثناء التواصل وتبنّي ثقافة العمل الجماعي بإدمــاج الثقافة المشتركة.

*وفي الأخير أشاد الحضور بالدّور الفعّال للثقافة في بنــاء مجتمــع ليقترحــوا بعدها ترقية اليوم الدّراسي الى ملتقى وطنيّ لما لا مغاربي بالإضافة الــى توزيــع اعمال هذا اليوم الدّراسي على المؤسّسات الثّقافيّة عبر التّراب الوطنيّ.

تم إخراج وطبع بـ :

EL INMA الإنمـــاء
للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الحضرية قطعة 1- عين النعجة رقم 1 جسر قسنطينة - الجزائر
ها : 07.71.52.50.50 /05.50.54.83.07

البريد الالكتروني: inma.book@yahoo.com

غدّي الرّقمنة

الجُمْهُورِيَّة الجَزَائرِيَّة الدِّيمُقْرَاطِيَّة الشَّعْبِيَّة

رئاسة الجمهوريّة

المجلس الأعلى للغة العربية



اليوم العالميّ للتّنوّع الثّقافيّ من أجل الحوار والتّنمية

اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية





أعمال اليوم الدراسيّ

17 جوان 2019 (المكتبة الوطنيّة – الحامّة)

أعمال اليوم الدراسي

منشورات المجلس
2019



المجلس الأعلى للغة العربية
52، شارع فرانكلين روزفلت
ص.ب 575 ، ديدوش مراد، الجزائر
الهـاتف : 16/17 07 23 21 213+
النّاسوخ : 07 07 23 21 213+
الموقع الإلكتروني : www.hcla.dz